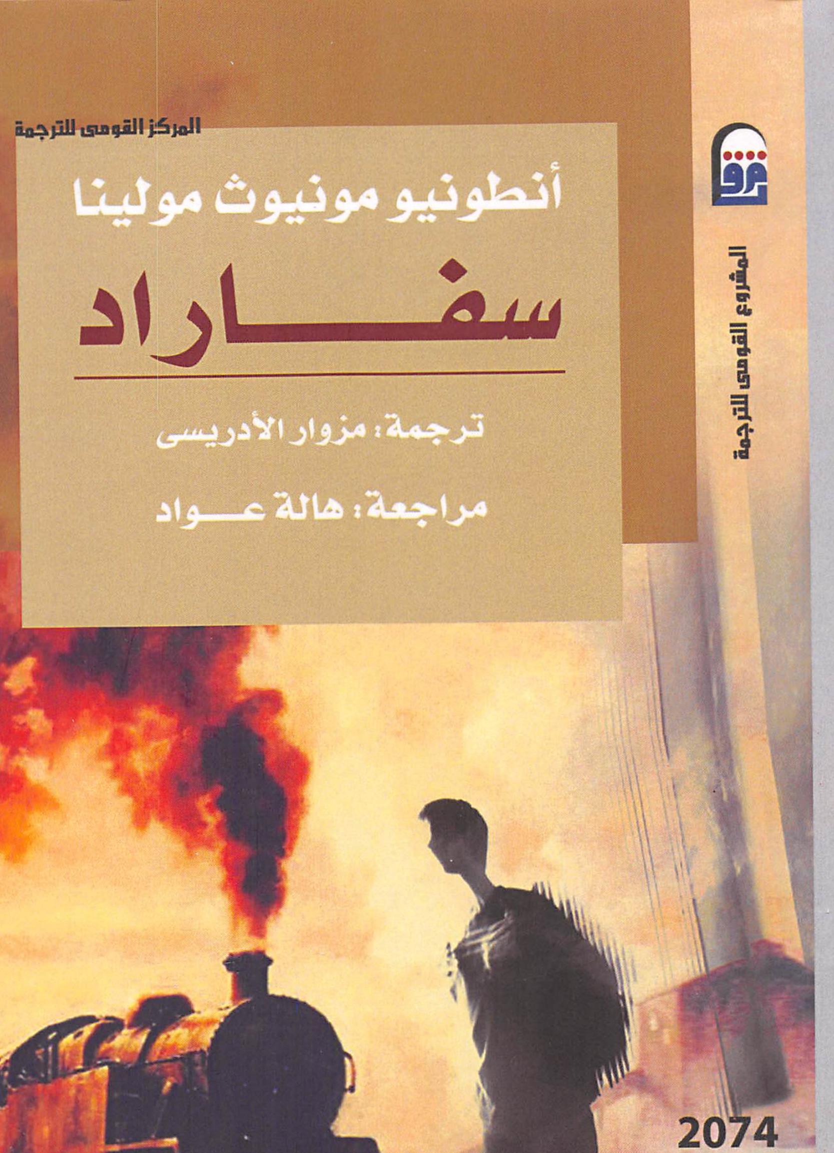
المركز القومى للترجمة

أنطونيو مونيوث مولينا

سفاراد

ترجمة: مزوار الأدريسى

مراجعة: هالة عواد



المشروع القومى للترجمة

2074

سلسلة الإبداع القصصى



أخذت رواية سفاراد اسمها من تيمة المنفى والاضطهاد الأيديولوجى، كما أنها استدعاء لأحد الرموز العالمية للمنفى: سفاراد، الأرض المفقودة التى لم ينسها قط اليهود الذين طردوا من إسبانيا فى عهد الملوك الكاثوليكيين. وهى كذلك كناية عن أمثلة عديدة من الرجال والنساء الذين تم نفيهم واستبعادهم وترحيلهم، ثم ملاحقتهم واضطهادهم؛ لذا يبدو موضوع الرواية وعنوانها معبرين عن نداء قوى للتضامن والتشبث بالذاكرة والهوية.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

سفـــاراد

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2074
- سفاراد
- أنطونيو مونيوث مولينا
- مزوار الإدريسى
- هالة عواد
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة:
SEFARAD
Par: Antonio Muñoz Molina

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

سفاراد

تأليف : أنطونيو مونيوث مولينا
ترجمة : مزوار الأدريسي
مراجعة : هالة عواد



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مولينا ، أنطونيو مونيوث.

سفاراد/ تأليف: أنطونيو مونيوث مولينا، ترجمة: مزوار الأدريس، مراجعة : هالة عواد.

ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢

٦٢٨ ص، ٢٠سم

١- القصص الإسبانية

(أ) الأدريس، مزوار (مترجم)

(ب) عواد، هالة (مراجع)

(ج) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٢٠٨٧٦ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : 978-977-704-880-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المراجع

شكلت الأربعون عاما من ديكتاتورية فرانكو والحياد النظري للنظام خلال الحرب العالمية الثانية، صورة شبه زائفة عن قرب الواقع الإسباني من الهولوكوست. فقد وصل الأمر إلى التجاهل التام للأحداث الثقافية والتاريخية التي تشير إلى وجود باع أدبي إسباني حول الهولوكوست ووجود معتقلين جمهوريين في معسكرات الاعتقال والإبادة مثل معسكرات أوشفيتز، وبوخنفالد، ورافنسبروك.
فأتت رواية سفاراد لتقول كلمة في هذا الصدد، فقد عرف كاتبها، أنطونيو مونيوث مولينا، كيف يجد حيزا وجاهزا لاستقبال نص إبداعي مكتوب بالإسبانية حول الهولوكوست. وقد حازت الرواية على «جائزة الدانمرك»، وحظيت بالاهتمام من جريدتي Le Monde و Libération كما تناولتها مجلة The New York Times بالنقد الإطرائي في عددين من أعدادها.

يأتي ولع مونيوث مولينا بالكتابة منذ نعومة أظفاره. فأول ما كتب كانت مقالات صحفية شكلت فيما بعد كتابه روبنسون الحضري الذي نشر عام ١٩٨٤. في عام ١٩٨٦ حصد جائزة Icaro للأدب، التي

تمنحها جريدة Diario 16 للمبدعين الشبان، عن روايته طوبى لـــه. أمـــا روايته الثانية الشتاء في لشبونة، فقد نالت «الجائزة القوميـــة لـــلأدب» و«جائزة النقد» عام ١٩٨٧، وأصدر فـــي ١٩٨٩ الحيـــوات الأخـــرى (مجموعة مقالات)، وروايته الثالثة أمير الظلام في ١٩٩١، ثـــم كتابـــه قرطبة الأمويين، وهوكتاب يجمع بين الإبداع الأدبي والدليل الـــسياحي. وفي العام نفسه أصدر الفارس البولندي والتي نال عنها جـــائزة Planeta (من أشهر الجوائز الإسبانية) ونال عنها في العام التالي «الجائزة القومية للسرد». ثم توالت كتاباته فكتب أسرار مدريد، مالك السر، البدر، غمـــرة المحارب، سفاراد، المنقذ، ليلة الزمن، إلخ. وفي كل تلك الأعمـــال نجـــد مونيوث مولينا يصهر بها الواقع والتاريخ والـــسيرة الذاتيـــة. فـــراوي سفاراد يروي قصصًا وحيوات هي سير موت أو بقاء الحـــي المعجـــز الذي يمتد في الآخرين حتى يستدعي داخله أصداء وحيـــوات أخـــرى. وبذلك يمكن اعتبارها رواية روايات أو حكاية حكايـــات. فهـــي نـــص تمتزج فيه وتنصهر به الأجناس الأدبية من سير، ومقـــالات، وتـــأريخ، واعترافات. أي أنها رواية قائمـــة علـــى شـــظى عـــوالم، وحكايـــات، وأشخاص، وذكريات، مع الأخذ في الاعتبـــار أن الـــذاكرة فيهـــا هـــي الأساس الذي بنيت عليه. فالكاتب لم يقتصر فيهـــا علـــى جمـــع مـــواد ومعلومات من جهات عدة، بل استطاع أن يحـــول الإبـــداع، والـــسيرة الذاتية، والمقال، والتفكر، والحياة، والرواية نفسها، وحيـــوات وروايـــات الآخرين إلى حكاية شخصية، إذن فيمكن اعتبارها بمثابة شهادة.

يقول الكاتب إنه عكف على كتابتها في عام ونصف، مع أنه في حقيقة الأمر جمع وثائقها - دون أن يلحظ - طيلة نصف حياته، إلى أن مكتبته أصبحت تعج بالكتب والوثائق التي تتعلق بالموضوع.

وسفاراد أخذت اسمها من تيمة المنفى والاضطهاد الأيديولوجي؛ كما أنها استدعاء لأحد الرموز العالمية للمنفى: سفاراد، الأرض المفقودة التي لم ينسَها قط اليهود الذين طردوا من إسبانيا في عهد الملوك الكاثوليكيين. وهي كذلك كناية لأمثلة عديدة لرجال ونساء تم نفيهم واستبعادهم وترحيلهم، ثم ملاحقتهم واضطهادهم. لذا يمكننا القول إن اختيار الموضوع والعنوان ينم - بلا شك - عن رغبة أخلاقية: نداء قوي للتضامن، للتشبث بالذاكرة إلى هوية هؤلاء الرجال والنساء الذين رحلوا أو دمرت حياتهم بسبب الاضطهاد والنفي والموت.

وتنقسم سفاراد إلى سبعة عشر فصلا، وهي فصول مستقلة إلى حد ما، ولكنها ليست غير مترابطة (فهي رواية روايات)، يحكي كل واحد منها حكاية مختلفة إلا أنه يتخللها جميعها أشخاص وعبارات تنسج أكثر من خطاب تيمته الأساسية المنفى والاضطهاد. من مدينة "أوبيدا" أو "ماخينا"، مسقط رأس الكاتب، إلى نيويورك، مرورا بأراضٍ شتى وأقاليم بأوروبا وإسبانيا يمتد السرد.

ويمكن استنباط خطين سرديين في الرواية: الأول، يقوم على السيرة الذاتية، أي استدعاء أو إعادة خلق التجربة الشخصية. الثاني، سرد الحيوات الأخرى التي قرأ عنها، أو سمع بها، أو عرفها من أشخاص قريبين؛ أو التي بحث عنها بعين المؤرخ. وعلى ذلك، يمكن تقسيم الفصول إلى:

الفصول ١، ٥، ٨، ١١، ١٤، ١٦، ١٧ هي التي يغلب عليها السيرة الذاتية؛

والفصول ٢، ٣، ٤، ٦، ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٣، ١٥ هي التي تتعلق بالحيوات المقروءة أو المسموعة. ومع ذلك، يجب الأخذ في الاعتبار أن هذا التقسيم من العسير أن يكون قاطعا، إذ إن هناك تداخلا وتضافرا للأصوات الروائية التي تنتقل من راوٍ إلى آخر فتمتزج وتختلط بشكل دائم وفي كل لحظة تجربة السيرة الذاتية؛ والحوار، والقراءة، والكتابة، وكل أشكال الاتصال الموجودة في الرواية.

وسفاراد يمكن اعتبارها مقطوعة موسيقية، فقد تشكلت كمتتالية أو "سويت" بحيث كل فصل فيها تم ترتيبه داخل مجموع الرواية لإحداث أثر "الكونتربوينت" أو الطباق ما بين القريب والبعيد. فهي، في حقيقة الأمر، قائمة على التكرار، تكرار التيمات، والأشخاص، والصور، وحتى الجمل التي تظهر مرة تلو الأخرى كليموتيف.

والشخصية المحورية، أو الليموتيف، التي تظهر على مدار الرواية هي صورة "كافكا" وفكرته عن القضاء الظالم. فكافكا بالنسبة لمونيوث مولينا، هو تجسيد لأي شخص يقع في براثن البيروقراطية والذي يحكم عليه فقط لمجرد وجوده.

وأخيرا يمكن القول، إن المغزى الذي يرمي إليه مونيوث مولينا من الرواية هو كشف فساد القرن العشرين، كما هو فضح واضح لملاحقة الحرية فيما يخص الأيديولوجية النازية وممارساتها مع اليهود أو الأيديولوجية الستالينية ضد الرجال الأحرار. وداخل هذه الفسيفساء، يدرج مولينا الأشخاص الذين تم إعدامهم أثناء حكم فرانكو، والذين نفوا خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وضحايا الفرقة الزرقاء. وإلى جانب كل هؤلاء يشير الكاتب أيضا إلى وضع المهاجرين المغاربة، واليهود السفرديين الذين تركوا إسبانيا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إلى لاجئي أوروبا الشرقية بعد وقوع سور برلين، إلى ساكني العشوائيات في العواصم الكبيرة، وإلى كل من فقد أهلا أو قريبا حميما.

هالة عواد

المعادي - أغسطس ٢٠١١

إلى أنطونيو وميغيل
إلى أرْتورُو وإيلينا
متمنيا لهما أن يعيشا بالتمام
الرواياتِ الآتية من حياتهما

«أجل»، قال أوخْبِير، «إنهم متهمون،
جميع من تراهم هنا متهمون». «أحقًا؟»
قال ك. «إذن، هم رفاق لي.»
فرانز كافكا، المحاكمة

ساكْرِيسْتان

أقمنا حياتنا بعيدا عن مدينتنا الصغيرة، لكننا لم نألف أن نتغيَّب عنها، ويروقنا أن نُحس بالحنين إليها حين نمضي ردحا من الزمن دون العودة إليها، ونبالغ أحيانا في إبراز لكنتنا، حين نتكلم فيما بيننا، وفي استعمال الكلمات والعبارات الدارجة التي اكتنزناها على مرّ السنين، التي من فرط استماع أولادنا إليها يدركونها بالكاد. غودينو، سكرتير بيتنا الريفي- الذي استطاع أن يبقى على قيد الحياة بعد سبات حزين بفضل حيويته المتحمِّسة- يعِدُّ بانتظام أُكلات أخوية نستمتع فيها بأغذية أرضنا ووصفاتها، وإذا لم يكن يروقنا أن يكون فن إعداد وجبات أرضنا غير معروف من قِبَل الغرباء مثلما هو شأن معمارنا الأثري أو أسبوعنا المقدَّس، فإننا نستطيب إعداد وجبات لا يعرفها أحد، وأن نعيِّنها بتلك الكلمات التي لها معنى بالنسبة إلينا وحدنا. حبَّات زيتوننا الغليظ أو وفير اللحم! كما يهتف غودينو. خبزنا الصغير المزيَّت، زؤاننا، أسمالنا، كعك عيد الفصح، الأمعاء السجق في المراجل، الأمعاء التي تُعبَّأ بالأرُز، لا بالبصل، حساء الغاسبُاشُو النموذجي، الذي لا يشبه في شيء ذاك الذي يسمونه الغاسباشُو

الأندلسي، كسلطتنا التي من حرشَف! في مقـصورة "متحـف لحـم الخنزير"، حيث تعودنا الاجتماع نحن المُـسيَّرين، يقطـع غودينـو بشراهة كسرة خبز. وقبل أن يغرقها في صـحن الأمعـاء الـسجق الدَّخِنة يقوم بحركة، كما لو كان يبـارك، ويلقـي بعـض الأبيـات الشعرية:

الـسجق، أيتهـا الـسيدة العظيمـة،

يـستحق كـل تبجيـل.

مالكُ المتحف هو ابنُ بلدنا، وقد تعـوَّد التكفُّـل، كمـا يقـول غودينو، بقائمة ولائمنا، التي ليس ضمنها منتوج واحد لم يـأت مـن مدينتنا، حتى الخبز، الذي يُطبَخ في فرن تَريبِني، الفُرنُ نفـسه الـذي يواصل تهيئة حلوى الماغدالينا الشهية، وكعك يوم الجمعة المقـدَّس، الذي تتوسطه بيضة مسلوقة، والذي كان يعجبنا كثيـرا حـين كنـا صغارا. أما الآن، في الحقيقة، ننتبه إلى أن هذا العجين الزيتي يُثقِـل علينا قليلا، وإنْ كنّا أثناء نقاشنا نواصل الاحتفاء برائحة كعك الفرن، وبشكله الفريد في العالم، حتى اسمه الذي لا يفهمه أحد سوانا، الـذي إنْ شرعنا في التهام بعض منه لا نتركه دون أن ننهيَه، وكان يحزننا قليلا أن نُتْلف أكلا، مثلما كانت أمهاتنا يقلن لنا، ونتذكّر تلك المرات، في الأيام الأولى بمدريد، التي كنا نذهب فيها إلى وكالة النَّقل لاستلام بعض طرود الطعام، تلك التي كانت تُرسَل إلينا من بيوتنـا: طـرود

كرتون مختومة جيِّدا، ذات أشرطة لاصقة ومؤمَّنَة بحبال، تجلُبُ إلينا من بعيدِ الرائحة الخالصة للمطبخ العائلي، والوفرة اللذيذة لكل ما ينقصنا، وكُنَّا نشتاق كثيرا لمدريد: سُجُق صغير من لحم الخنزير، وسجق ضخم بالفلفل الأحمر لخنازير حديثة النحر، زؤان مرشوش بالسكر، كعك، بما في ذلك علبة من بلّور مملوءة بسلَطة الفلفل الأحمر، اللذة القصوى التي يمكن للمرء أن يطلبها من الحياة. خلال فترة من الزمن، اكتسب جوف الخزانة المعتم بغرفتنا في الفندق لذة وغموض تلك الخزائن، التي كان يُحفظ بها الطعام في الأزمنة القديمة السابقة على مجيء الثلاجات. (الآن أقول لأبنائي أنه منذ مدة قصيرة، عندما كنت في مثل أعماركم، لم يكن وقتذاك في بيتنا ثلاجة ولا تلفاز، ولا يصدقون ذلك، بل الأدهى، أنهم يرمقونني كما لو كنتُ من البَشَر ساكني الكهوف).

كنا نقضي شهورا طويلة بعيدين عن منازلنا، وعن مدينتنا، لكنَّ الرائحة والتذوق كانا يمنحانا ما تمنحه لنا الرسائل، والفرح ذاته العميق والكئيب الذي كان يَتَملَّكنا بعدَ أن نتحدث بالهاتف مع أمِّنا أو خطيبتنا. أبناؤنا، الذين يمضون اليوم ملتصقين بالهاتف، يتحدثون مع من رأوه قبل قليل، لا يمكنهم أن يصدقوا أنه بالنسبة إلينا، ليس في الطفولة وحدها، وإنما في شبابنا الأول أيضا، كان الهاتف حتى ذلك الوقت جهازا غير مألوف، على الأقل بالنسبة إلى الأسر المتواضعة، وأن المهاتفة من مدينة لأخرى، أي أن تهاتف، كما يُقال

منذ وقت ليس بالبعيد، كان رهانا معقدا إلى حد ما، وكان يقتضي في كثير من الأحيان الوقوف في طابور خلال ساعات في مخادع الهاتف المملوءة بالناس، لأن الهواتف لم تكن بعد أوتوماتيكية. لستُ عجوزا بالتحديد (وإن كانت زوجتي تقول أحيانا إنني أبدو شيخا)، لكنني أتذكّر أنه حين كان يتطلب الأمر أن أتصل بأمي هاتفيا في بيت إحدى الجارات، وكان علي أن أنتظر حتى تذهب المرأة لإخبارها بينما كان صوتُ العدَّاد داخل المخدع الخشبي يسجّل الثواني، في قاعة المحادثة بشارع غْرانْ بِيًا. أخيرا كنتُ أسمع صوتها، وكان يغمرني وهَنٌ، وإنه بعد ذلك فقط صرتُ أحسُّه في حالات نادرة، إحساسٌ بأني بعيد جدا، وأني قد تركتُ أمي وحيدة بينما كانتْ تهرم. نحن الاثنان كنا أخْرقَيْن، وكان ذلك الجهاز، الذي لم يكنْ مألوفا في حياتنا، قادرا على أن يجعلنا نحس بالتوتر، ويُرهقنا التفكير في المال الذي كانت تكلِّفنا إياه تلك المحادثة التي بالكاد نستطيع أن نتبادل أثناءها بعض العبارات الشكلية المطروقة جدا مثل تلك المألوفة في الرسائل: هل أنت بخير، ألم يصبك مرض، لا تُنسَ أن ترتدي معطفك عند الخروج صباحا، الطقس بارد جدا. كان التجرؤ على طلبِ إرسال طرد محمّل بالطعام فترةً حرجة، وأن نوضع معه حوالة. وعندما نغلق السماعة، وفجأة تنتصب المسافة برمّتها، ويصحبها، بغض النظر عن ألمِ الخروج إلى الشارع ذاتَ يوم أحدٍ

ليْلا، أيضا نوع من الراحة شبه الدنيئة من إنهاء محادثة حرجة لا يكون لدى المرء ما يقوله أثناءها.

الآن، وقد غدت المسافات أقصر صرنا نشعر أننا أبعد. من لا يتذكّر تلك الأسفار الأبدية في قطار منتصف الليل السريع، في مقطورات الدرجة الثانية التي ساقتنا في أول مجيئنا إلى مدريد، والتي كانت تتركنا منهَكين من التّعَب وقلة النوم في الأصباح الجاحدة لمحطة قطارات أتوتشا، المحطة القديمة التي لم يصل ابْنَايَ إلى معرفتها، وإن كان أحدُهما، الذي كان صغيرا جدا، أو كان لا يزال في بطن أمه، قد أمضى ليالي صعبة في تلك القطارات، التي لا تقود إلى الجنوب في عُطل رأس السنة الميلادية التي نشتاق إليها كثيرا، في الأيام القصيرة جدا، والثمينة من الأسبوع المقدَّس، أو أيّام مهرجاننا الشعبي المتأخِّر، الذي يحلُّ نهاية سبتمبر، حينَ يقطف الرجال من جيل آبائنا العنب، والرُمان، والتين اللذيذ، ويسمحون لأنفسهم بترف الذهاب إلى مصارعتَي الثيران للمهرجان الشعبي، الأولى يوم القديس ميكائيل، التي يفتتح بها المهرجان، والأخرى يوم القديس فرانثيسكو، التي تكون في اليوم الأبهج، اليوم الكبير، مثلما يقول آباؤنا، لكنه الأتعس أيضا، لأنه اليوم الأخير، ولأنه في أحيان كثيرة كانَ المطر الخريفي يُخيِّم مُغيِّما على المصارعة، ويُجبرنا على

مواصلة المشاهدة في حزن متـــدثّرين بالأغطيــة المبللــة متــابعين عروض الفرسان القليلة ذاك الأوان.

كان الوقت يبدو أدْوَم، والكيلومترات أطول. قليل من النـــاس كان لديهم سيارة، ومن كان لا يرغب في قضاء الليل في القطار يأخذ تلك الحافلة التي كنّا نسميها الطاووسة، التي تتأخر سبع ساعات فـــي السفر، أوّلا بسب التعرجات والانعطافات ذات اليمين واليـــسار فـــي الطريق ناحية الشمال جهةَ إقليمنـــا، وبـــسبب الأجـــراف والأنفـــاق بديسْبينْيا بيرُوس، التي كانت مثل الولوج في عالَم آخر، الحدّ الأخير لإقليمنا، الذي يمكث في الخلف، في المنـــاظر الطبيعيـــة المتموجـــة بمشهد أشجار الزيتون، وبعد ذلك بالسهول الأبدية لإقليم لَامَانشَا الجد الرّتيب، حتى إن النوم كان يتوحد بالتعـــب ويتغلّـــب علـــى الجـــسد المنهك، فكان المرءُ يستسلم نائما، وبقليل من الحظ يعود إلـــى فـــتح عينيه حين تقترب الحافلة جدا من أضواء مدريد: الانفعـــال برؤيـــة العاصمة، من بعيد، السقوف الحمراء وفوقها البنايات الشاهقة التـــي كانت تدهشنا، شركة الاتصالات تليفونيكا، بنايـــة إِدِيفِيثْيُـــو إســـبانيا، وبْرج مدريد!

لكنّ انفعالا آخر كُنّا نفضّله، وعلى الخصوص، حين بـــدأت آمالنا في الحياة الجديدة التي تنتظرنـــا فـــي العاصـــمة تتلاشـــى، أو ببساطة حين شرعنا نتعوّد عليها، كما يتعود المرء على كل شـــيء،

وحسب تعوُّده يشرع افتتانه بها في الخفوت، ويتحوّل الولع إلى سأم، إلى انزعاج، إلى جرح خفي. كنّا نفضّل الشعور بالعودة الأخرى، الدنو من أرضنا، والعلامات التي تعلن لنا عنها، ليس كالآن، تلك اللافتات الكيلومترية في الطريق، وإنما بعض الصُّوى المألوفة، فندق وسط الحقول يُرى من نافذة القطار أو الحافلة، لون التراب الأحمر على ضفتي نهر الوادي الكبير، ثم بعد ذلك البيوت الأولى، الأضواء المعزولة في الزوايا، حين كنّا نصل ليلاً، والإحساس بأننا قد وصلنا الآن، وعدم الصبر على أننا لم نصلْ بَعْدُ، عذوبةُ كل تلك الأيام التي لا تزال تنتظرُنا أمامنا في المستقبل، والعُطَل التي ابتدأت، والتي هي رغم ذلك لا تزال سليمة.

وقتئذ كان يوجد بيتٌ أخير، الآن أتذكّر، تنتهي عنده المدينة جهةَ الشّمال، البيت الوحيد الذي يُخلِّف المسافر وراءه عند السَّفر إلى مدريد، والأول الذي يُرى عند العودة، إنه فندق صغير وقديم بحديقة، يُدعى "دارَ كريستينا"، وهو في كثير من الأحيان ملتقى بالنسبة لزمرة قاطفي الزيتون، وكذلك الموضع الذي تودَّعُ عنده السيدةَ العذراء حين كانت صورتُها تعود، في بداية سبتمبر، إلى ضريح القرية التي ستؤوب منها العام القادم، في الاحتفال الديني الشعبي الآهل شهرَ مايو، العذراء التي كنّا نمضي إليها لنصلّي لديها، نحن الصغار، في أمسيات الصيف.

ربما كانت حدود الأشياء أكثر وضوحا آنذاك، كما هو الشأن مع الخطوط والألوان، وأسماء البلدان في الخرائط المعلَّقة على جدران المدرسة: ذلك البيت بحديقته الصغيرة، بمصباحه الأصفر عند الزاوية، كان النهاية الدقيقة لمدينتنا، وعلى خطوة منه تبتدئ الحقول، وليلا على الخصوص، حين كان المصباح يلمع عند مستهل العتمة، ليس مضيئا إيَّاها، وإنما كان كاشفا عنها في عمقها الغائر. منذ أعوام قليلة، وأنا أتجوّل برفقة ولَديَّ اللذيْن كانا لا يزالان صغيريْن، لأني أذكر أن الثاني كنت أحمله على ذراعي، رغبتُ في الذهاب بهما ليشاهدا "دار كريستينا"، وفي الطريق كنتُ أحكي لهما أنه بالقرب من الدار اجتمع مالكُ أشجار الزيتون بي وبأمي لكي نشتغل عنده قاطفيْ زيتون: كان شتاء، وكُنا نقطع الطريق البارد على غير هدى، مدثَّريْن بالمعطف جيِّدا، أنا بقلنسوة مخمليَّة لأبي، وقفَّاز من الصوف، وأمي بشال يغطيها بكاملها حتى رأسها. لكن البرد كان قارسا حتى أن الأذنين واليديْن كادتا تتجمَّدان، وتلجأ أمي إلى أن تفركهما لي بيديها الأكثر دفئا وخشونة، وكانت تنفخ في رءوس أصابعي بُخار نفسها. انفعلتُ وأنا أحكي لهما تلك الأشياء، متحدِّثا معهما عن أمي، التي لم يتعرَّفا إليها غيرَ وقت قصير، وجعلتهما يريان كيف أن الحياة تغيرت في مدة قصيرة، إذ بالنسبة إليهما كان من غير المتخيَّل أن أطفالا من سنهما يُضطرُّون إلى أن يُمْضوا عطلة رأس السنة يعملون في الحقول لربح قوت اليوم. حينئذ، انتبهت إلى أني قد أمضيت وقتا

طويلا أتكلّم وألفُ وأدور دون العثور على "دارَ كريستينا"، وخمّنتُ أنه من فرط كلامي ربما أكون قد ضللت: لكنْ لا، إنني كنتُ تماما في المكان الذي ذهبت بحثا عنه، وإن "دارَ كريستينا" هي التي ليست هنالك، قال لي الرّجل الذي سألته، لقد هُدّمت منذ أعوام عديدة، عندما أرادوا توسيع الطريق القديمة لمدريد. وكيفما كانت الحال، وإنْ تكنْ "دارَ كريستينا" قائمةَ، فإنَّ المدينةَ ما كان لها أن تكون تنتهي عند زاويتها، لقد كبرت أحياء جديدة بكُتل عمارات رتيبةَ من الآجر، وكان هنالك مُركّب رياضي ومركز تجاري عيّنه الرجل لي بافتخار، كما لو يُعيّن لِغريب الآثار الأبهى. وحْدنا نحن الذين رحلنا نعلَمُ كيف كانتْ مدينتنا، ونلاحظ إلى أي حد قد تغيَّرت: الذين مكثوا فيها هم من لا يتذكّرونها، الذين يرونها كل يوم يشرعون في فقدها وترْكِ صورتِها تتشوّه، وفي تصورهم أنهم هم الأوفياء لها، وأننا نحن، إلى حد ما، هم الفارّون من خدمتها.

تقول زوجتي إني أحيا في الماضي، وإني أتغذى من الأحلام مثل أولئك الشيوخ الذين لا شغل لهم، الذين يلعبون الدومينو في نادينا الاجتماعي، ويحضرون المحاضرات أو القراءات الشعرية التي يُنظّمها غودينو. أرُدُّ عليها أنني هكذا إلى حدٍّ ما، أنا رجل لا شغل له تقريبا، مُعطّل لمدة طويلة، كما يقولون الآن، على الرغم من إصراري على القيام بصفقات لا تُفضي إلى نتيجة، وفي قبول أعمال منفلتة مني دوما، خادعة في كثير من الأحيان وحتى تدليسية. لكنْ لا

أقول لها إنه الآن أتمنى أن أعيش حقيقةً في الماضي، أن أغوص فيه بالاقتناع ذاته، بالتَّرفُّه الذي يفعله الآخرون، مثل غودينو، الذي حين أكْله لمُسوَّد الخنزير المطبوخ في قدر. أو يتذكَّر ثرثرة أو لقب ابن من بلدنا، أو يستظهر أبياتا شعرية لشاعرنا الأشهَر "خاكوب بوستامانتي"، يحْمَرُّ وجهُه حماسا وسعادة، وهو يخطط دوما لما سيفعله في الأسبوع المقدَّس القادم، ويَعُدُّ الأيام الباقية لمجيء أحد الزعف، وعلى وجه الخصوص الأربعاء المقدَّس ليلا، حين الزِّياح إذ يخرج موكب العذراء الذي يكون فيه غودينو زميل جمعيَّة ومسيِّر، «كما كان إبَّان وقته الشهيرُ ماتيُو ثبَتون، الذي اعتزل الآن في بيَّا وكورثي»، يقول غودينو، الذي وإنْ كان يمضي كل الحياة في مدريد، فهو يعرف بالاسم واللقب عددا غير مألوف من بلديِّينا، وينادي على كل الناس باسم الشهرة، الذائع الصيت، المرموق، مبالغا في نَبْر نطق القاف بقوة، على طريقة أهل مدينتنا، ويصدر عنه في أكثر من مرة رشاش لعاب حين النطق بها.

صحيح، أنه بالنسبة إلى كثيرٍ منا نوَدُّ لو نعيش في ماضي ذكرياتنا غير المُتبدِّل، الذي يبدو أنه يتكرر متطابقا في مذاق بعض الأطعمة وفي بعض التواريخ المعلَّمة بالأحمر في الروزنامات، لكن دون أن ننتبه إلى أننا قد تركنا بُعْدا ينمو داخل ذواتنا لا تُعالجه الأسفار السريعة، ولا تخففه المكالمات الهاتفية التي بالكاد ننجزها، ولا الرسائل التي تخلينا عن كتابتها منذ سنوات. الآن وقد أمكننا أن

نمضي بسرعة أكبر في راحة عبر الطريق السيار في أقل من ثلاث ساعات أصبحنا أكثر فأكثر نعود مساء. كل شيء غدا أقرب، لكننا نحن أنفسنا من بدأنا نبعد رويدا رويدا، وإنْ كنّا نردّد الكلمات العتيقة ونُجهد نطقَنا، وإنْ كنا إلى الآن ننفعل عند سماع خطوات جمعياتنا الدينية أو الأبيات الشعرية التي يأتي – في بعض الأحيان – لاستظهارها «الشاعر المرموق بالكناية» كما يقول غودينو، الذي يتملّقه ويقدّره وفي الوقت نفسه يسخر منه، الشاعر خاكوب بوستامانتي، الذي فيما يبدو لم يعبأ بأغاني هنادة الشهرة الأدبية وفضّل عدم القدوم إلى مدريد حينما كان أكثر شبابا. هناك، يواصل العيش في مدينتا، يحصد الألقاب ويراكم الأقدمية الثلاثية، لأنه موظف بالبلدية، شأن أحد ممجّدينا المحليين؛ المعلّم غريغوريو إى. بوغا، الملحّن المقتدر الذي لم يعبأ هو الآخر في وقته بأغاني الهنادة التي كان يسبُّها غودينو كثيرا: يقولون (يقول غودينو، في الحقيقة) إن المعلّم بوغا تُوّج في سطوع دراساته الموسيقية في فيينا، وأنه كان بإمكانه أن يعثر على منصب في إحدى أشهر أوركسترات أوروبا، لكنه لم تقو نفسُه على مقاومة الحنين إلى الأرض الصغيرة، التي عاد إليها حاملا كل شهاداته بالتفوق في الألمانية والخط القوطي، والتي حصّل فيها سريعا، عبر اختبار ودون جهد، على منصب رئيس جوقة الموسيقى.

كان يسرُّنا أن نعود مع أبنائنا الصغار، ويملؤنا زَهْوا أن نكتشف أنهم ينفعلون بالأشياء نفسها التي اغتررنا بها في طفولتنا.

يتمنَّون أن يحُلَّ الأسبوع المقدَّس كي يرتدوا حلل التوبة الصغيرة، وقلنسواتهم الصبيانيةِ التي تترك وجوههم مكشوفة. نُسجِّلهم فَورَ ولادتهم باعتبارهم إخوة في الجمعية الدينية نفسِها، التي كان آباؤنا قد سجلونا بها نحن أيضا. كانوا يسافرون في السيارات قَلِقين، وحين كبروا قليلا كانوا يسألوننا بمجرد الخروج كم من الساعاتَ تبقى للوصول. لقد وُلِدوا في مدريد، ويتحدثون بنبرة ليست لنا، لكنَّنا كنا نفخر أن نفكِّر ونقول أنهم ينتمون إلى أرضنا مثلما نحن ننتمي، وحين نمسك بأيدهم للتجول معهم في شارع نُوبِيَا مثلما جال بنا آباؤنا، نرفعهم على الأذرع أمام مرور عرش كي يروا بشكل أفضل الحمار الذي يركض عليه المسيح أثناء دخوله إلى القدس، أو الوجه الأخضر والكارثي ليهوذا أثناءَ مرور العشاء الأخير المقدَّس، كنا نشعر في عزاء بأن الحياة كانت تتكرر، وأن الوقت في مدينتنا لا يمر، أو أنه كان أقل فظاظة من الوقت المقلق والقُلَّب للحياة في مدريد.

لكنهم شرعوا يكبرون، دون أن ننتبه إلى ذلك، وصار بعضهم يغدو غريبا عنا، ضيوفا تصعب معاشرتهم داخل بيوتنا، يقفلون عليهم تلك الغرف التي تحوَّلت مثل جحور معتمة، تخرج منها أحيانا موسيقى لا تُطاق، روائح وضجيج نفضّل ألا نُميِّزها. الآن، لا يرغبون في العودة، وإن قال لهم أحدٌ شيئا ينظرون إليه كما لو أنه عجوز مثير للرثاء، أو شخص لا فائدة منه، كما لو كانَ في يد المرء

أن يعثر من جديد على عمل أكيد ومحتشم بعد أن يكون قد تجاوز الخامسة والأربعين من عمره. ها قد تناسوا كل الأشياء التي كانت تعجبهم كثيرا، الانفعال بارتداء الجلابيب، والنقبات التي كانت تخفي الوجه كأقنعة روائية (وغودينو يلحُّ على أن الكلمة هي قلنسوة)، وفضيحة الأبواق والطبول، ومذاق حلوى العقَد الأمريكية التي كانت تباع في الأسبوع المقدّس فقط، وحلوى البيرولي المخروطية الحمراء المدوَّرة بلولب من سكّر، كما كانت تُشرى من كشك الشارع لذلك الرجل الضئيل الذي لقّبْناه مصادفة في وقته بيرولي، والذي تُوفي منذ أعوام قليلة، وإنْ كنا - نحن الذين كنا نراه منذ طفولتنا- نتصوره غير متبدّل مثل الأسبوع المقدّس نفسه. كذلك ما كانت ألعاب المهرجان الشعبي تلفت انتباههم الآن، كما لو كنّا وحدنا، نحن آباؤهم، نحافظ على شيء من الحنين والامتنان لتلك الاحتفالات البسيطة التي تعود لأعوام عديدة، لاس كونيكاس، حسب ما كنا نسميها في الصِغَر، وحسب ما علّمناهم قولَه. لا شيء مما يعجبنا نحن لديه دلالة بالنسبة إليهم، وبين الفينة والأخرى كانوا يظلون ينظرون إلينا بأسف أو عدم اكتراث، ويجعلوننا نحسُّ أننا أضحوكة، أن نرى ذواتنا عبر ما نراه عيونهم فينا، أناس تالفون، مُسنُّون، لا يشعرون جِهتَهم أنهم يلزمهم أن يشكروهم على أي شيء، يثيرون فيهم على الخصوص كلَّ أشكال الجراح والملل، ويبتعدون عنهم كما

لو يرغبون في التخلص من نسج العنكبوت، الوسخِ بغبار الوقت الذي ننتمي نحن إليه، الماضي.

العيش فيه، في الماضي، لا أتمنى أنا شيئا أكثر من ذلك. ولكن الآن، لا يعرف المرءُ أين يعيش، لا في المدينة ولا في أي وقت، ولا يكون متأكدا حتى أن تلك الدار مِلْكه، تلك التي يعود إليها عند نهاية المساء مغمورا بإحساس أن يكون مزعجا، وإنْ كان قد غادرها جد باكر، وأيضا دون أن يعرف جيدا إلى أين، أو لأي سبب، وبحثا عن أي مهمة تَسمح له بالاعتقادا مجدَّدا بأنه منشغل بشيء مفيد وضروري. في إحدى ولائم الأخوة، التي كانت لنا بمناسبة منح خاكوب بوستامنتى ميداليتنا الفضية، عاتبني غودينو في محبَّة على انصرام عامين متعاقبين دون ذهابي إلى مدينتنا في الأسبوع المقدَّس. حاولتُ إفهامه أني كنتُ أمرُّ بظروف صعبة، على أمل أنه رجل له وسائل عديدة ومعارف، تمكنه من أن يقدِّم لي عونا، لكني أيضا لم أطلب مساعدته صراحة لكبريائي ولخشيتي أن أفقد قدري في عينيه. إن فتور الهمة وعزة النفس الجريحة كانا يبعداني أكثر مقارنة بالمرات الفائتة من أنشطة بيتنا الريفي، وإن كنتُ أسعى إلى ألا أتغيَّب عن اجتماعات المجلس الإدراي، وأظلُّ حريصا لأُتِمَّ دفع واجبات اشتراكي الشهرية، لكن كنتُ أمضي إلى هناك، من الصباح إلى المساء، كأني غائب عن ذاتي، أنتقل من مكان لآخر في مدريد،

من عمل لآخر، وعود لا تعرف التحقق أبدا، لقـــاءات لأســباب مـــا مخفقة، أعمال ترفيعية غير آمنة تدوم أسابيع، أيامـــا قليلـــة. كنــتُ أمضي ساعات أنتظر دون أن أقوم بأي شيء، أو كنت أجهد نفــسي مسرعا لكي أصل إلى شيء يخيب أملي فيه بسبب تأخر دقائق.

ذات صباح، في ساحة تشويكا التي كنتُ أعبرُها بقلب مغتم، ونظرةٍ مستقيمةَ، كي لا أرى ما يحدث حولي، مكائـــد المخـــدرات، فُرْجات أولئك الأشخاص المسرنمين، نساء ورجال، بوجـــوه مـــوتى وخطوات الأشباح، المرضى بشيء فظيع، التقيتُ بابن قريتي ماطيُو تشيرينو، الذي كنا نطلق عليه حين كنتُ صغيرا ماطيو ثَبَاتون، ليس فقط بسبب حرفته كإسكافي، ولكن أيضا بسبب حجمه، فقد كان رجلا أكبر من الأغلبية في ذلك الوقت، وكان ينتعل، على ما أذكر، حذاءين كبيرين، أسودين، ذوي نعلين متينين، حذاءين لا ينسيان، هـــو ذاتـــه كان يقتضي أن ينتعلهما طيلة حياته مرتقا إياهما. ركزت فـــي ذلـــك الشيء حين عدتُ إلى اللقاء به، في حذاءيه الهائلين، اللذين يبـــدوان عيْنَ ما كان ينتعلهما منذ أعوام عديدة، وإن كانا الآن مشوهين مـــن جهة إبهامَي القدم. كنتُ أرتدي الحلة القاتمة الخاصة بمقابلات العَمَل، بمحفظتي السوداء، وملفاتي: لقد قُبِلتُ، للاختبار، كبائع بنسبة مئويـــة لمواد خاصة بمدارس تعليم القيادةَ. متوقفا وسَـــطَ ســـاحة تـــشويكا، بمعطف كبير، وقبّعة خضراء ذات هيئة تيرُوليَّة لم يكن ينقـــصها لا الزينة ولا الريش، كان ماطيُو ثباتون يتأمّل بلطف شيئا مـــا، كأنـــه

رجل متقاعد قوي وكسول، وكان يبدو أنه يستند إلى حذاءيه الأسودين كما لو كان فوق قاعدة تمثال أو جذع شجرة زيتون، هكذا كان متأصلا في المكان الذي كان فيه، حيّ مدريد حيث يعيش الآن، والذي كان يمنح فيه الانطباع بأنه سعيد كما لو في مدينتنا البعيدة المشتركة بيننا.

كان وجهه هو نفسه الذي أتذكّره، سليما رغم مرور الزمن: فبالنسبة إلى طفل يصبح الكبار نوعا ما عجزة، وهكذا حين يكبر ويعود إلى رؤيتهم مع مرور الزمن يبدون له أنهم لم يتغيروا في شيء، وأنهم في السّن ذاتها الثابتة التي منحَهُم إياها حينما كان يراهم في طفولته، حين كان يتخيّل أن الأشخاص عليهم الاستمرار دوما متطابقين، وأنهم كانوا دوما كذلك، هو طفلٌ دوما وأبواه شابّان دوما، دون أثر للتّلف ولا تهديد بالموت. رأيته ذات صباح شتائي جد بارد، واحدة من تلك صبحات العمل الجاحدة بمدريد، حيث يكسو واجهات البنايات اللونُ الرمادي الوسخ ذاته الذي هو للسماء حين لا تمطر. كنت أخطو، كما هي العادة، قلقا من قلّة الوقت، خائفا من الوصول متأخرا إلى موعد مع زبون، مالكُ مدرسة لتعليم القيادة بشارع بيلايُو. لقد ارتكبتُ خطأ المجيء في سيارتي، والوقتُ القليل الذي كان لديَّ لكي أشرب فيه فنجانَ قهوة أضعته في البحث عن موقف للسيارة في تلك الشوارع المستحيلة، المليئة بحركة السيارات، وبالناس، والمخنثين الذين لم يحلقوا ذقونهم، والأشرار، والمدمنين،

وموزّعي الأشياء، والشاحنات الصغيرة للشحن والتفريغ التي تقطـــع قارعة الطريق بحدَّة أصواتِ الأبواق التي تفقد لبعضهم الأعــصاب. وصلت متأخرا، كنت صائما، تركت السيارة سيئة الرّكْن ولم يكن من غير المحتمل أن يتم سحبها برافعة، لكني ذهبت إلى رؤيـــة مـــاطيو ثباتون ومذاق الذكريات التي توقظها هيئته كانت أقوى من الـــسرعة. طويل جدا كعادته، منتصب، وعلى وجهه ارتـــسم التعبيـــر الوديـــع المعتاد، الأنف كبير والعينان جاحظتان قليلا، الخدان احْمرًا من البرد والصحّة، وإنْ كانا مرتخييْن قليلا لعمره، ثابت الخطى وكأنما يمـــر في استعراض مرتديا حلة التوبة أمام عرش العشاء المقدس، محرّكـــا عكازا كبيرا خاصا برئيس الجمعية الدينية.

ذلك العرش كان واحدا من أكثرهـــا فرجـــة أثنـــاء الأســـبوع المقدس، والذي كان فيه أكبر عدد من الوجوه، الحواريون الاثنا عشر حول المائدة ذات المنديل الخيطي والمسيحُ واقف في طرف، يد على القلب والأخرى عالية في حركةِ مباركة، والتاج الذهبي على رأســـه يرتعش بالحركة الجليلة لعجلات العرش على الـــشوارع المبلطـــة أو المرصّوفة آنذاك، بالارتجاج الضعيف ذاته الذي تهتـــز بـــه ألـــسنة السنابل والمنديل الأبيض الذي كان الخبز والنبيذ موضوعيْن عليه من أجل طقس التّضحية. كل الحواريين كانوا ينظرون جهـــةَ المـــسيح، وكانت لديهم أمام وجوههم بؤرة نور صغيرة تضيئها مأساويا بنـــور

أبيض؛ كلهم سوى يهوذا، الذي كان يـدير الـرأسَ بحركـة تأنيب وجشع، وينظر إلى كيس النقود جزاءَ خيانته شبْه مخفيَ خلف مقعده. كان النور الذي يسقط على وجه يهوذا أخضر، أخضر مـائلا إلـى الصفرة الدالة على اضطراب مزاج مَرَضِيٍّ، ونعرف جميعـا فـي مدينتنا أن هذه القسمات التي نكرهها كثيرا نحـن الأطفـال شـبيهة بقسمات أشرار الأفلام، كانت لخيَّاط له محلٌ في زاوية مـن شـارع رِيَّال، قريبا من مدخل بناية ماطيو ثباتون.

لقد فسَّر لي غودينو الحكاية، ليس دون أن يَعِدني بأن يحكـي لي حكايات أخرى أكثر متعة: وجوه العـرش، مثـل بـاقي وجـوه أسبوعنا المقدس، كانت منحوتة من قِبَل المعلِّـم أوتْرِيـرَا، وحـسب غودينو هو أحد أكثر الفنانين أهمية في القرن، الذي لم يُعترف به كما يستحق لأنه فضّل أن يبقى في مدينـة جـدً مـضيافة، وإنْ كانـت معزولة، مثل مدينتنا. وإضافة إلى أنه نحات عبقري، فـإن أوتريـرا كان بوهيميًا مفزِعا، يمشي دوما مثقلا بالدُّيون وملاحقا بالمُقرضـين، أحدُ هؤلاء والأكثر ثباتا وكذلك الأكثر تضرُّرا كان هو ذلك الخيَّـاط الذي بشارع رِيَّال، الذي كان يخيط له قمصانا على قياسه بتَطريـز، وصدريات محكومة على الجسم، حلله بتَصميم على غرار حُلل فْريد أسْتريرى، وحتى المِفضلات الواسعة التي يرتديها أوتريرا كي يشتغل في مشغله. حين أدرك الدَّيْن مقدارا غير مقبول تقـدَّم الخيَّـاط إلـى مقهى رُويَال، حيث كانت تجتمع فيه كل مساء شلة المسامرة الأدبيـة

والفنية المُتَزعِّمة من قِبَل أوتريرا، ووصف النحاتَ جهرا بنعتِ قليلِ الحياء وبالسارق، وهو يُحرِّك عبثًا في وجهه خنجرًا لفاتورات غير مدفوعة. جديرا بالثقة، صغيرا ومستقيما، مثل كل ذي مظهر وهيئة أنيقيْن في حلة فريد أستريرى الذي لم يَدفعْ ولا يفكر في الدفع، نظرَ النحات إلى جهة أخرى بينما النُدُل والأصدقاء كانوا قد رفعوا الخيَّاط، الذي كانتْ عيناه جاحظتين والوجه عَرِقٌ حَنَقًا، والذي انتهى مغادرا فارغ اليديْن مثلما حل بالمقهى، وليس دون أن يلتقط من أرض المقهى في ذلَّة الفاتورات التي سقطتْ من يديْه في ثورة غضبه، كأنها أدلَّة ثمينة على السباب وهي حسب ما هدَّد به ما سيُسوَّى في المحاكم. أيُّ دهشة سيكون عليها، قال لي غودينو، مستبقا الضربةَ ببسمة كبيرة وسعيدة في وجهه الماكر، حين سيرى بعد ذلك بأسابيع، في الأربعاء الأول من الأسبوع المقدس الذي يمر فيه استعراض المجموعة الأولى للعشاء الأخير (القديم، مثل جميعها، الذي أحرقه الشيوعيون الحُمْر خلال الحرب الأهلية)، فقد رأى الخيَّاط بأمِّ عينيه ما حكاه له أشخاصٌ سريعون وشرِّيرون، ما كانت تلوكه الألسن في كل المدينة، وبحسب كلمات غودينو، «مثل نُثار البارود»: الوجه الذابل ليهوذا، الوجه الأخضر الذي يحيد عن النظرة الطيبة ويشير إلى المسيح الفادي ويتفحَّص في جشع كيس نقود سيئ الإخفاء، كانتْ صورته الحيَّة، وفيَّةً إليه بدقة على الرغم من المبالغة الدَّموية للكاريكاتور: تلكما العينان الجاحظتان نفسهما اللتان نظرتا

إلى النحّات في المقهى كما لــو أنهمــا تريــدان احترامــه، «أو أن تحجّراه، مثل عينَي سمك رئة البحر»، قال غودينــو، الــذي حــين يخوض بحماس في قصصه يفخّم كلماته المفضّلة: «والأنف الــسّامي السلالة!». وعند نطق غودينو بذاك النعت قرب وجههَ ونظــر كمــا يلزم أن ينظر الخيّاط عند اكتشافه لصورته المنحوتة في وجه يهوذا، ويعوّج أو يثني أنفه، الذي كان صغيرا، أو بالأحرى أفطس، كما لــو أن التلفظ بكلمة «السامي»، التي كانت تستهويه كثيرا حتى إنه ردّدها مرّتيْن أو ثلاث مرات، كانت بها فضيلة تحويله أيضا إلى ذي أنــف كبير جدا مثل الخيّاط أو يهوذا، ومثل كلّ مُرافقي العرش والمُــرائين أثناء مَسير الأسبوع المقدس، فإن اليهود الذين يبصقون على الــرَّب، حسب ما كنا نقول نحن الأطفال أثناء لَعبنا العروش والاستعراضات: لقد كانت، بالشوارع المبلّطة أو ذات الأرضية الصلبة لذلك القــوت، أسابيع مقدّسة وأخرى صبيانية، وكان الأطفال يمرون في استعراض أثناءها قارعين طبولا مصنوعة من معلّبات زنكية كبيرة وفارغــة، وأبواق صغيرة من الشّبهان أو البلاستيك، وكنا بما في ذلك نطــوف بعروش من صناديق خشبية أو كرتونية، وكنا نضع علــى رؤوســنا طراطير مصنوعة من الصحف.

لقد توفي الاثنان منذ وقت طويل، الخيّــاط ســريع الغــضب، والنحات البوهيمي والمسوّف في أداء دينْه، لكــنَّ المزحــة الثقيلــة والانتقامية للواحد منهما ضد الآخر تتواصل في القَسَمات الــشزراء

ولا تزال مضاءةً باخضرار يهوذا في العشاء المقدس، وإن كان كل مرّة يقلُّ عدد الأشخاص الذين بوسعهم تمييزها، أو يتذكرون حكايات الماضي تلك التي يرويها غودينو، ولستُ أدري هل كان يخترعها كاملة، من كثرةَ بعثها في تمامها ومزيَّنة. كذلك كان كثير ممن يميِّزون النموذج الحقيقي الآخرَ الذي للحواريين، القديس متَّى الذي يستدير نحو المسيح بين الورع والخوف، الحاجبان العاليان الدالان على دهشة العينيْن، لأن ذلك هو الوقت الذي جاء فيه سيِّده على قول أنَّه في هذه الليلة سيخونه أحدُ الاثنى عشر، وجميعهم ارتعبوا وأحسوا بالفضيحة، يقومون بحركات مفخَّمة دالة على الكبرياء الجريح، يتساءلون، «سيدي، هل أكونُ أنا؟»، وبين ذلك الضجيج الكثير لم ينتبه أحد إلى الوجه الأخضر والحاقد ليهوذا، ولا وقع نظرُه على الكيس المملوء بالنقود الذي كانتْ أمهاتنا تنبِّهْننا إليه حين كنَّا صغارا ويرفَعْننا على الأذرع حين كان يمر أمامنا عرشُ الزيّاح.

لم أكن أحتاج إلى أن يفسّر لي غودينو أن ذلك النبيل القديس تُوماس، ذا الجسد القويّ والخدَّين الموردَّين، كان صورة لماطيو ثباتون الحية، الذي كانت له هكذا لحظة مجْد شعبي في الليلة ذاتها من الأسبوع المقدس الذي غرق فيه الخيَّاط في الفضيحة. فبعد أن يأخذ لذاته مقاييس الحلة في محلِّ الخياطة، كان النحات أوتريرا يعبُر شارع ريَّال ويكلِّف المُعلِّم ماطيو بإعداد حذاءيه المصنوعين باليد،

حين يكون لديه مال أو ترقُّب الحصول على مال، ويسوق إليه الحذاءين القديمين كي يرفأهما في الأوقات الصعبة. لكن بخلاف الخيَّاط، لا يذكر ماطيو ثباتون أبدا لأوتريرا الحسابات المتأخرةَ، في جزء من ذلك بسبب نزعته القدرية، وكان يميل به إلى الاستسلام لكل شيء، وفي جزء آخر أيضا لأنه كان لديه إعجاب مولَعٍ بالنَّحّات، يرتقي به إلى الامتنان المتيَّم، كلَّ مرة كان يمر فيها المعلم بدكان الإسكافي، كان يمكث يتحدث معه لساعات، ويهديه من سجائره الشقراء، ويحكي له قصصا عن أسفاره عبر إيطاليا وحياته في الدوائر الفنية بمدريد قبل الحرب.

«الصديق ماطيو»، كان يقول له النحات، «لديك رأس كلاسية تستحق أن تُخلَّد بالفن». قول وفعل: أبدا لم يَتَقاض منه ماطيو ولو سنتيما، لكنَّه اعتبر الدَّيْن منتهيا حين رأى بضربة زهو وحشمة وجهه الذي لا شكَّ في شأنه بين وجوه الحواريِّين، وكذلك الهيئة الجسيمة لكتفيه، وتلك الحركة الخاصة به في النظر بانحراف، باتجاه الأعلى، من العلو الطفيف جدا لكرسي الإسكَمْلة حيث كان يقضي حياتَه. وباعتباره من التوابين ومسيِّرا بالجمعية الدينية للعشاء الأخير، هل كان يتخيَّل شرفا أعزَّ من أن يُدرَج ضمن المؤاكلين؟ كلُّ قَسَمَةَ فيه والموقف التام للقديس الإنجيلي، كان في أمانته أعجوبة، باستثناء اللحية التي لم تكن لِمَاطِيُو الحقيقيّ، وإنْ كان يبدو يوشك أن يتركها

تنمو، وهو ما كان سيُعتبر تجرؤا غير مستساغ في تلك الأعوام التي كان الناس يحتفظون فيها بشاربين خفيفين ووجوه حليقة. كان محل الخياطة شبه مقابل لمحل الإسكافي، لكن الخياط المُهان حين كان يلتقي معه على الرصيف الآخر، كان يخفض الرأس أو ينظر إلى الناحية الأخرى، الوجه جد مائل إلى الاخضرار والأنف سامٍ أكثر من أي وقت مضى، وبالنسبة لماطيو، كما هو الشأن لكثيرين آخرين، كانت تتملّكه رغبة في الضحك حتى إنه كان يُغطّي فمَه كي يتمالك نفسَه، وكان خدّاه يتلوّنان شأنَ تمثال كرتوني من احتفالات لاس فاياس البلنسية أكثر منه صورة ورعة لمبشّرٍ إنجيلي.

بانتفاضة جذلٍ رأيتُ وسطَ المدينة العدائية، ذلك الوجه القادم من طفولتي، المرتبط بأحلى الذكريات لمدينتي وحياتي. حين كنت صغيرا كانت أمي ترسلني مرات كثيرة إلى محلّ ماطيو ثباتون، الذي دون أن يعرف عني أيَّ شيء كان قد اعتاد أن يداعب بكفه وجهي ويناديني «ساكريستان». «هيا، ساكريستان، لم يدم لك هذه المرة النعلان مدة طويلة»؛ «قل لأمك أن لا صرف عندي، يا ساكريستان، قل لها أن تدفع لي هي حين تمُرُّ من هنا». كانت البوابة عالية وضيّقة، مثل خزانة، وكانت مفصولة عن الشارع بباب من زجاج، يغلقها ماطيو في أيام الشتاء القارسة فقط. كل الفضاء مُتاح، بما في ذلك جانبا الصندوق الكبير الذي كان يستعمله طاولة للعمل

ومنضدة، وكان مُغطى بإعلانات مصارعة الثيران والأسبوع المقدس، الهوايتان المفضلتان لدى المعلّم الإسكافي: إعلانات ملصقة بالغراء، اصفرَّت مع مرور السنين، منضدَّة بعضها فوق بعض، إعلانات عن مصارعات ثيران أُقيمَتْ في أوائل القرن أو في المهرجان الشعبي للعام الماضي، اختلاط أسماء وأماكن وتواريخ كانت تغذي التَّبحر الثَّرثري لماطيو، الذي يكاد يكون محاطا دوما بأعضاء الجمعية الدينية، بسيجارة أو بمسمار صغير بين الشفتين أو الشيئين معا، إنه سارد لا يتعب لأعمال تاريخية ونكات من عالَم مصارعة الثيران، التي كان يعرفها عن قرب، لأن رؤساء مصارعة الثيران اعتادوا أن يطلبوا منه أن يقوم لديهم بدور مستشار أو مساعد غير رسمي. كان صوته يتهدج وعيناه تغرورقان دموعا حين يتذكر أمام أعضاء جمعيته مساءَ الحِداد حين رأى، من عند مدرج شمسي بساحة لِينَارِيس، كيف أن الثور إِسْلِيرُو قد انقض على مانوليتى. «قد يصيبُك، لا تملْ كثيرا إليه»، قال بأنه قد صاح فيه من مدرجه، وكان يميل كما لو كان في ساحة المصارعة ويصنع بيديه بوق التصويت، صانعا وجها مأساويا يعكس التوقُّع، يعيش مرة أخرى اللحظةَ التي كان فيها مانوليتى لا يزال في وُسعه الإفلات من النطحة القاتلة، «النطحة المشؤومة»، كما كان يقول غودينو حين يقلد القصة وتصنُّعات الإسكافي الشغوف، الذي كان يَعِدني دوما بأن يقص لي قصة عظيمة وعجيبة، وسرًّا يعرفه وحده في تفاصيله الأكثر تشويقا.

اقتربت من ماطيو في ساحة تشويكا، فنظـــر إلـــيَّ بالبـــسمة الواسعة ذاتها والعطوفة التي كان يـــستقبل بهـــا مؤيديـــه وأعـــضاء الجمعية في محلِّه للرَّفـء. لقد أثَّر فيَّ التفكير في أنه قد تذكَّرني على الرغم من مرور السنين ما يكون قد تغيَّر فيَّ منذ المـــرات الأخيـــرة التي التقينا فيها. انتبهت حينئذ إلى ظـــرف آخـــر عَرَضـــي يَـــصِلُه بذكرياتي القديمة ويحوِّله، دون أن يعلَم، إلى جزء من حياة طفولتي: في المحلِّ المجاور لماطيو ثباتون كان محل الحلاقـــة الـــذي كـــان يسوقني إليه أبي، والذي كان يرتاده جدِّي أيضا لقص الشَّعر وحلاقة الوجه دوما، محلّ بيبي موريبُّو، محلات صارت تغدو مهجورة مـــع موت الزبائن الأكثر سِنًا وتبنِّي الأولاد تقليعة الـــشَّعَر الطويـــل. الآن بابه أيضا محكم الإغلاق مثل باب ماطيو ثباتون وباب الخيَّـــاط ذي الوجه الشبيه بيهوذا، وشأن كثير من المحلات التي في شارع رِيَّـــال قبل أن يشرع الناسُ، شيئا فشيئا، في نسيان التجوُّل فيـــه، جاعلِينَـــه يتحوَّل، في الليالي والأيام المُمْطِرة، شارعا مهجورا وشـــبحِيًا. لكـــن وقتذاك، كان محل حلاقة بيبي موريبُّو جدَّ نشيط مثل محـــل مـــاطيو ثباتون، وفي كثير من الأحيان، في الأمسيات الدافئـــة مـــن أبريـــل ومايو، كان مؤيدو هـــذا المحـــل وذاك يخرجـــون الكراســـي إلـــى الرصيف، يدخنون ويتحدثون في مـــسامرة واحـــدة، يُـــراقِبهم مـــن الرصيف الآخر للشارع، من ظليل محلِّه، الخيَّاط الفظ الـــذي يفـــرك

يديه خلف المنضدة ورأسه غارق بين كتفيْه ويشبه أكثر فـأكثر رأس يهوذا في العشاء المقدس، كـاره البَـشر ذي الوجـه المائـل إلـى الاخضرار، والأنف المعقوف الذي كان يدفع ببطء ناحيةَ الإفـلاس، التسرُّب الذي لا يُقاوم للملابس الجاهزة على نسق واحد.

•

كان أبي يجرني من يدِي إلى محل تـصفيف الـشعر بيبـى موريتُو (محل تصفيف الشعر كان وقتذاك كلمةَ تخص النساء)، وأنـا كنتَ جدّ صغير لدرجةَ أن الحلاق كان يضع لي إسْكملة فوق الكرسي كي يقص لي شعري بسهولة ويمكنه أن يراني في المرآة. حين كـان يدنو كثيرا مني كان وجهه يفوح منه رائحة عطر ومن أنفاسه رائحة دخان، وبيده المشط والمقص والمقص الكهربائي الذي يستعمله ليحلق قفاي. كنت أسمع تنفُّسه القويّ والمرتج وكنتُ ألاحـظ فـي العنـق والخدَّين لمس أصابع البالغ القويةَ، الضغط الغريب ليدين هما غيـر يديْ أبي أو أمي، يدان أليفتان وغريبتان في الوقت ذاتـه، خَـشنتان فجأةَ، حين تثنيان أذنيَّ إلى الأمام أو تميلان رأسي كثيـرا بالـضغط على قفاي. وفي كل مرة أحلق فيها رأسي، وقَرب الانتهاء، كان بيبى موريتُو يقول لي، «أغلقِ العينين جيدا»، ذلك أنه يقوم بقص الـشعر مستقيما فوق الحاجبين، عند وسط الجبين. كان الشعر البليـل يـسقط فوقَ الأهداب، يخز في الخد اللحيمة وفي قمةَ الأنف، وكان المقـص البارد يحادي مني حاجبيَّ. حين كان بيبى موريتُو يقـول لـي إنـه يمكنني الآن أن أفتح عينيَّ كنتَ أجد وجهي فجأةَ مدوّرا مجهولا فـي

المرآة، بأذنين بارزتين والشعر أفقي فوق العينيْن، وابتسامة أبي الذي كان ينظر فيها إليَّ موافقا.

كلُّ تلك الأشياء تذكَّرتها كما لو عدتُ إلى عيشها حينما رأيتُ في غير توقُّع ماطيو ثباتون في ساحة تشويكا، وبشيء آخر كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف أنه موجود في ذاكرتي: ذات مرَّة، بينما كنت أنتظر دوري وأقرأ كتاب قصص مصوَّرة اشتراه لي أبي للتَّو، شعرتُ بالعطش، وطلبتُ الإذن من بيبى موريبُو كي أشرب الماء. أشارَ إلى ساحة داخلية، صغيرة معتمة، في قعر محل الحلاقة، خلف باب من زجاج وممر مظلم. حين يكون المرء صغيرا يمكن أن تكون المواضع البعيدة على مسافة خطوات. دفعتُ الباب، وأنا أشعر بشيء من الدوار، ربما شرعت أحس بالحمى، ولهذا كان بي عطش شديد، كان البلاط أبيض ورماديا، تتوسَّطه ورود حمراء تطن حين دستُها. فوق عمود متوسِّط، في زاوية من الساحة الداخلية الصغيرة، نباتات لها أوراق كبيرة تُضاعف الإحساس بالرطوبة، كانت الجرَّة موجودة، فوق عمود مكْسوٍّ بقماش مَخيط بشغل صنَّارة، إحدى جرَّات الشتاء التي كانت موجودة آنذاك، من الخزف متعدِّد الألوان أوالزجاج، جرة على هيئة ديك، تذكَّرت بدقَّة كاملة تلك الجرار التي يصنعها الفخَّاريون في شارع بلنسية. شربتُ، وكانت للماء كثافة المرق ومذاق حمى. عدتُ عبر الممر، وفجأة وجدتني ضائعا: لم أكنْ في محلِّ الحلاقة، وإنما في مكان آخر تأخَّرتُ في تمييزه مثل بوابة

الإسكافي، ومن رأيته كان الحواري القديس متى بلحمه وشحمه، وإن كان يرتدي سُترةَ من جلد وليس جلباب أخوية أو قديس، دون لحيــة، يضع سيجارا كبيرا أفطسَ مُطفأً على جانب من جوانب فمه ومسمارا في الآخر. «هيا، يا كريستان، لكن ماذا تفعل أنت هنا، يــا للخــوف الذي زرعته فيَّ».

مثل تلك المرة، أنظر الآن إليه ولا أعرف ما أقول لــه. عــن قرب كان أكثر شيخوخة، والآن هو لا يشبه في شيء القديسَ متــى غير المتبذّل في العشاء الأخير. لم تكن نظرته ولا ابتسامته موجهتين إليَّ: لقد استمرَّتا متطابقتين عندما نطقت اسمَه وقدَّمتُ اليــدَ لأســلم عليه، وحكيتُ له في ارتباك كالأخرق منْ أكون، وحاولتُ أن أذكِّــره باسم أبويَّ واللقب الذي كان لعائلتي في ذلك الوقت. ضــغط بــوهن على يدي موافقا ونظر جهتي، وإن كان يعطــي الانطبــاع بأنــه لا يراني، أو أنه يركِّز اهتمامَ عينيه على شيء آخر، العينان اللتان بَدَتا لي منذ لحظة مراقبتين وحيويتين. زيادة على انحنائه، كــان يرتــدي القبعة معوجَّةَ، كما لو أنه ارتداها على أي صورة عندما خرج مــن منزله، أو بقلَّة عناية تدلُّ على أنه لم ير نفسَه جيدا في المرآة. ذكَّرتُه أن أمي كانت دوما من الأعضاء الذين يتجمعون بمحله –آنذاك كــان للمحلات أعضاؤها، وليس الزبائن– وأن أبي، كان كذلك يعشق كثيرا مصارعات الثيران، وأنه قد شارك كثيــرا فــي مــسامراته، وفــي

مسامرات محل بيبي موريو للحلاقة المجاور، الذي كـان متّـصلا بمحلّه عبر ساحة داخلية. كان ماطيو ينصت إلى أسماء هؤلاء الناس والأمكنة بحركة من لا يستطيع أن يتذكر جيدا أشياء بعيدة جدا. كان يميل رأسه ويبتسم، وإن بدا لي كذلك أني ألاحظ في وجهـه تعبيـرا عن الارتياب أو التنبيه، أو عدم التصديق، ربما كان يخشى أن أنقض عليه، أو أن أسرقه، مثل أي واحد من الأشرار الذين كانوا يطوفـون بالقرب، الذين كانوا يتبادلون خِلسةً أشياءَ مقرفصين ضمن مجموعات بجانب مدخل المترو. كان عليَّ أن أنصرف، كان الوقتُ قـد تـأخر عليَّ بالنسبة إلى موعد ربما كُتبَ عليه الفشل مسبقا، لـم أكـن قـد تناولت فطوري، كانت سيارتي متوقّفة في خط ثنائي، وماطيو ثباتون واصل إمساك يدي بمودة مسلّية وهو يبتسم لي بفم شبه مفتوح، وفكّه الأسفل متدلٍّ قليلا وببريق لعاب في مقرن الشفتين. قلتُ له:

ألا تتذكّر، يا مُعلِّم؟. سيادتُكَ كنت تناديني دوما بساكريستان.

غمز بعينيه، وتقدَّم قليلا جهتي، وحينئذ انتبهـتُ إلـى أننـي أصبحتُ أطولَ منه، وضعَ يده الثانية على كتفي، كما لو في محاولـة عطوفة لكي لا يُدلِّس عليَّ.

بالطبع يا رجل، كيف لا. ساكريستان.

لكنْ كان يبدو أنه لم يتذكر حتى مدلول تلك الكلمة، التي ردَّدها مجدَّدا وهو يمسك يدي التي رغبت في انتزاعها على الفور، محاصرًا، وقلقا كي أمضي لحالي. ابتعدتُ عنه وظل ساكنا، اليدُ ذات الكف اللينة الرطبة التي أمسكت يدي لا تزال مرتفعة قليلةً، القبعةُ ذات الريشة الخضراء الصغيرة المائلة جهةَ الجبين، وحيدا كالكفيف وَسَطَ الساحة، يستند إلى القاعدة الكبيرة لحذاءيه الأسودين.

كوبنهاغن

أحيانا، تُسمَعُ حكاياتُ رحلاتٍ وتُحكى في خضم رحلة ما. ويبدو أن الذكرى حين تصدر عن رحلات سالفة تغدو أكثر حيوية، وكذلك تجد المرءَ يُصغي ويمتنُّ للحكايات التي تُقَصُّ عليه، قوس لكلمات ثمينة داخل قوس آخر مؤقَّت للسّفر. يمكن لمن يسافر أن يواصل صمتَه الذي سيكون لغزا بالنسبة إلى الغرباء الذين سيرمقونه أو أن يستسلم إلى غواية التحاور، وينقلب إلى كذّاب، أنْ يُحسِّن حلقة من حياته بحكايتها لشخص لن يعود إلى رؤيته أبدا. لا أن يكون حقيقة ذاك الذي يقولونه، بأن المرء حين يسافر يتحول إلى آخر: ما يحدث هو أن المرء يتخفف من ذاته، من واجباته، من ماضيه، مثلما يُقلِّص كل ما يملكه إلى الأشياء الصغيرة الضرورية لمتاعه. إن الجزء الأكثر كُلفةً في هويّتنا يستند إلى ما يعرفه الآخرون عنا، أو يتصوَّرونه عنا. إنهم ينظرون إلينا، ونعلمُ أنهم يعلمون، وفي صمت يجبروننا على أن نكون ما ينتظرونه منا، وأن نتصرَّف وفق بعض العادات التي أرْستها أفعالُنا السالفة، أو أن يُرتاب فينا ونحن لم نَعِ أننا قد أيقظنا فيهم ريبًا. ينظرون إلينا ولا نعلم إلى من يمكن أن يكونوا

ناظرين فينا، ماذا يبتدعون أو يُقررون في شأننا. بالنسبة إلـــى مـــن يوجد معك في قطارٍ بلدٍ أجنبي لستَ سوى مجهول موجــود محــدَّدا بالحاضر فقط. رجلٌ وامرأةٌ يتبادلان النظر مع وخزة دسيسة ورغبة في أن يجلسا متوافقين الواحد قبالة الآخر في قطار: في تلك اللحظـــة يكونان جدَّ متجرِّدَيْن من أمس، وغد، ومن الاسم، كآدم وحواء حـــين تبادلا النظر، للمرة الأولى، في الفردوس. رجل نحيل جاد، ذو شـــعر قصير وفاحم جدا، العينان سوداوان، يصعد القطار في محطة بـــراغ، وربما يحاول ألا تتقاطع نظراته مع نظرات المـــسافرين الآخـــرين، الذين يدخلون العربة نفسها، واحد من أولئك يتمعَّنـــه فـــي ارتيـــاب، ويُقرِّر في ارتياب أنه يلزم أن يكون يهوديا. لديـــه يـــدان طويلتـــان وشاحبتان، يقرأ كتابا، أو يظل ساهما ينظر عبر النافـــذة الـــصغيرة، ويعاني بين الفينة والأخرى نوبة سعال، فيغطي الفم بمنـــديل أبـــيض ينزلق بعد ذلك، خفيةً تقريبا، داخل جيب. حين يقترب القطـــار مـــن الحدود التي ابتُدِعت مؤخرا بين شيكوسلوفاكيا والنمسا، يحفظُ الرجلُ الكتابَ، ويبحث في نوعٍ من التوتر عن وثائقه، وحـــين يـــصل إلـــى محطة غمُوند يُطل مباشرة على الرصيف، كما لو ينتظـــر أن يـــرى أحدا في عزلة العتمة لتلك الساعةَ من الليل.

لا أحد يعلَمُ من تكون. حين تسافر وحيدا في قطار أو تمـــشي عبر شارع مدينة حيث لا أحد يعرفك، فأنت لست أحدا: لا أحد يمكنه أن يتفحَّص قلقَك، ولا دافعَ توتُّرك وأنت تنتظر في مقهى المحطـــة،

وربَّما عرفوا اسم مرضك، حين يلاحظون شحوبك ويسمعون ضجيج سُعالك، وحين يلاحظون التستُّر الذي تعود به إلى حفظ المنديل الذي أغلقتَ به الفم. لكني حين أسافر أشعر أني لا أزن شيئا، وأني أغدو غير مرئيٍّ، أني لا أحد، ويمكنني أن أكون أيًّا كان، وخفةَ الروح تلك تُستشَفُّ في حركات جسدي، وأمضي أخفَّ، وأكثر تحرُّرا، دونَ الغمِّ الذي أنا عليه، بعينيْن متفتِّحتيْن على تأثير مدينة أو منظر طبيعي، لغةَ أستمتع بها فهمًا وتكلُّما، هي الآن أفتَنُ لأنها ليستْ لي. يتحدَّث مونتايْن عن مغرور يعود من سفر دون أن يتعلَّم شيئا: كيف سيتعلَّم، يقول، إنْ كان قد حمل معه ذاته بكاملها.

لكني لا أحتاج إلى الذهاب أبعد كي يحدث لي هذا التحوُّل. أحيانا، حين أخرجُ من البيت وأنعطف مع الزاوية الأولى، أو أنزل سلالم المترو، أترك خلفي ما أكونه، وأنذهل ويثيرني الفضاءُ الأبيض الكبير الذي تنقلب إليه حياتي، الذي يبدو أن فوقه ستُطبَع المشاعرُ بشكل ألْمَع وأصفى، والمواضعُ، ووجوه الناس، والقصص التي سمعتُ. توجد في الأدب كثيرٌ من المحكيات التي تتصنَّع هيئة القصص التي تُحكى على مدى سفر، في لقاء مصادفة في طريق، حوْل نار فندق صغير، في عربة قطار. إنه في قطار حيث حكى رجل لآخر القصة التي يحكيها تولستوي في سوناتا إلى كريوتزير. في قلب الظلام، يحكي بحَّارٌ اسمُه مارلو رحلة إلى المجهول عبر

نهر الكونغو، بينما يسافر في مَركَب يصْعَدُ نهْرَ التّايمز، وحين رأى خلف الضباب، في الليل، الوهج الذي كان لا يزال بعيدا لأنوار لندن، تذكَّر النيران المتأجِّجة التي رآها على ضفَّتَي النهر الإفريقي، ويتخيَّل نيرانا أقْدَمَ بكثير، النيران التي رآها المُبحرون الرومان حين دخلوا، للمرة الأولى، في التايمز منذ ألفي سنةَ. في القطار الذي كانوا يحملونه فيه إلى أوسفيتش، عثر بريمو ليفي على امرأة تَعرَّف عليها منذ سنوات، ويقول إنه حُكيتْ خلال الرحلة أشياءُ لا يحكيها الأحياءُ، ويحكيها فقط وصوت مرتفع من كانوا في الناحيةِ الأخرى للموت.

وفي كافيتيريا قطار، متَّجه من غرناطة إلى مدريد، حكى لي صديق عن رحلة أخرى في هذا القطار نفسه، حيث تعرَّف إلى امرأة، ولم يتأخر ولو ساعة عن الشروع في تبادل القُبل معها. كان الوقت صيفا، في وضح النهار، في قطار طالغو الذي يخرج يوميا في الساعة الثالثةَ مساء. كانت خطيبة صديقي قد جاءت لتوديعه عند الرصيف. وبعد ذلك، أغلق هو والغريبةَ على نفسيهما في المرحاض في اضطرار متهور، وسعادة، ورغبة لم يُفلح الوضع غير المريح ولا مشاكل انعدام التوازن، ولا قرع الباب من قبل مسافرين مُستَفَزّين أن يُنَغِّصها. لقد فكَّرا أنهما يتوادعان إلى الأبد حين يصلان إلى مدريد. إن صديقي، الذي كان يؤدي واجب الخدمة العسكرية، لم يكن يملك شروى نقير، وهي كانت امرأة متزوجة، ولها طفل صغير،

كانت قليلة الاتزان، رعناء، وتميل للانهيار العصبي. قال لي صديقي إنها أعجبته كثيرا وأنها كانت تُخيفه، وأنه أبدا لم يستمتع كثيرا مع امرأة شأن وقته معها. كان يتذكّرها بشكل أوضح وبامتنان لأنها كانت المرأة الوحيدة التي ضاجعها عدا زوجته، التي تزوج بها بعد عودته من الخدمة العسكرية بوقت قصير.

لقد ظلا يلتقيان سرًّا خلال عدة شهور، ويكرّران السكر الجنسي للقاء الأول في غرف فنادق، وفي عتمة دُور السينما، في بعض الأحيان في بيتها، في السرير ذاته الذي تنام فيه مع زوجها، تراقبهما من المهد عيني الطفل الكبيرتيْن الهادئتيْن، والذي يمسك بقضبان السرير كي يظل واقفا على قدميه. حين حصل صديقي على الإجازة اتفقا على أنها لن تذهب لتوديعه عند قطار منتصف الليل السريع الذي كان سيعود فيه إلى غرناطة. وفي آخر لحظة، ظهرت المرأة، نزل صديقي من القطار، وأحس برغبة عارمة حين عانقها حتى أنه لم يهمّه أن يتركه القطار. لكنّه ركبه في اليوم اللاحق، ومنذ ذاك لم يلتقيا أبدا. يُخيفني أن أفكّر ما الذي آلتْ إليه، لما كانت عليه من اضطراب، كان صديقي يقول، وهو يتكئ على ديوان كافيتيريا قطار الطالغو. أمام القهوة التي لم يشربْها بعدُ، وينظر إلى المنظر الطبيعي المقفر لشمال إقليم غرناطة، في الجهة الأخرى من النافذة، أو مستديرا نحو الباب المتحرك في الاتجاهيْن الذي كانت تنفتح على

العربات الأخرى، كما لو بالأمل المستحيل أن تظهر تلك المرأة، أعواما كثيرة بعد ذلك، وبالإصغاء إليه كنت أغبطه، أغبطه وأحزن لأنه لم تحدث لي أبدا قصة مثل تلك، ولا يمكنني أن أتذكر امرأة مثلها. كانت تدخن الحشيش، وتتناول أقراصا، وتتعلق بالكوكا، وأنا، كانت كلُّ تلك الأشياء تخيفني، لكني كنت أتابعها في اضطرابها، وبقدر ما كانت تفزعني كنت أرغب فيها. لم أكن أستغرب في شيء أن تنتهي مدمنة الهيروين. هناك مواسم كنت أستيقظ فيها كل صباح متذكرا بأني قد حلمت بها. أحلم بأني قد التقيت بها في مدريد، أو أني جالس في هذا القطار نفسه وأراها قادمة عبر الممر. كانت فارعة الطول مثل عارضة أزياء، وشعَرها كستنائي مجعَّد وعيناها خضراوان.

القطارات الآن، التي لا تجبرنا على الجلوس وجها لوجه أمام أغراب،لا تشجِّع على قصص الرحلات. أشباحٌ صامتة، بسمَّاعتين تحكمان إغلاق السمع، وبعينين تركزان على فيديو فيلم أمريكي. كانت حكايات أكثر تسمَع في مقصورات الدرجة الثانية، التي كانت شبيهة بقاعات الانتظار الإجبارية، أو مطاعم عائلية فقيرة. خلال رحلتي الأولى إلى مدريد، وفي الأحايين التي كنت أغفل فيها مستندا على المقعد المشمع الصلب الأزرق، سمعت جدِّي مانويل ومسافرا آخر يحكيان في العتمة عن السفر في القطار خلال شتاءات الحرب.

لقد ساقونا جميعا، نحن - المنتسبين - إلى كتيبة الهجوم، التي كنتُ في خدمتها، وجعلونا نصعد قطارا في هذه المحطة ذاتها، ومع أنهم لم يقولوا لنا إلى أين سيأخذوننا، فقد انتقلت الإشاعة بأن وجهتنا ستكون جبهة نهر الإيبرو. ارتعشت قدماي طيلة الليل بمجرد التفكير في ذلك، في العتمة، داخل العربة المُغلقة. في الصباح أنزلونا دون أن يعطونا تفسيرات، وأعادونا إلى المراكز التي كنا فيها دوما. كانوا قد أرسلوا كتيبة أخرى بَدَلا منا، ومن الثمانمائة الذين ذهبوا لم يعد إلا أقل من ثلاثين. لو كان ذلك القطار قد أفلح في الخروج، فالأكيد أنني ما كنتُ لأكون هنا أحكي ذلك، قال جدي، وفكرتُ أنا سريعا، في حال شبه نوم، لو أن ذلك السفر إلى جبهة الإيبرو لم يُلغَ، فاحتمال وفاة جدي كانت واردة، وما كان لي أنا أن أُوجَد.

كل شيء كان غريبا تلك الليلة، ليلة الرحلة الأولى، غريبا وسحريا، كما لو أني عند الصعود إلى القطار - بما في ذلك، عند الوصول إلى المحطة - كنتُ قد غادرت الفضاء اليومي للواقع ودخلتُ مملكة أخرى شبيهة بمملكة الأفلام أو الكُتب، مملكة السُهاد الخاصة بالرَّحالة: لقد تغذَّيْتُ من حكايات كثيرة، أنا الذي لم أبرح تقريبا مدينتي أبدا إلى مواضع جد بعيدة، بما في ذلك القمر، قلب الأرض، أعماق البحر، جزر الكاريبي والمحيط الهادئ، القطب الشمالي، روسيا الشاسعة التي عبرَها في قطار يقطع سيبيريا مُحقِّقٌ لجُول فِيرْن اسمُهُ كلود بومبارناك.

تذكَّرتُ للتو أنها كانتْ ليلة من ليالي حزيران. كنت جالسا على مقعد بالرصيف، بين جدي وجدتي، وقد وصل إلى المحطة قطارٌ ليس الذي ننتظره، وتوقَّف بصرير كوابحَ بطيء حاد. كان له في العتمة امتداد حيوان أسطوريّ هائل، وذكَّرني المصباح المستدير للقاطرة عند اقترابه بغواصة القبطان نيمو. وعند درابزين العربة الأخيرة، جلست امرأةٌ متكئة على مرفقيها، لقد باغتتني بالرغبة في لقطة خاطفة، الرغبة المجهولة القلقة، والمحمومة لمن عمره أربعة عشر عاما. اشتهيتها كثيرا، حتى إن الإنهاكَ في الصدر أثقل عليَّ التنفُّس، وارتعشت رجلاي. وحتى الآن، يبدو لي أنني أراها، على الرغم من أنني لا أعرف إن كان ما أذكُره هو ذكرى: شقراءُ، طويلة، شعثاء، أجنبية، ترتدي قميصا أسود مفتوحا، وتنورة سوداء، حافية، أظافر قدميها مطلية بالأحمر، ووجهها من شدة لونه البرونزي أبرز لمعان شعرها الأشقر وعينيها الصافيتين. جلست ورُكبتها للأمام فانبجس فخذها من فتحة التنورة. شرع القطار في التحرك، رأيتها تبتعد متكئةً على الدرابزين تنظرُ الوجوه الهاربة التي ظلت ترقبها من رصيف تلك المحطة القصية في منتصف ليلِ بلد أجنبي.

حينَ غفوتُ رأيتُ في قطع من أحلام غير هادئة تلكَ المرأة، بينما جدي والرجل الآخر أخذا يتحدَّثان في العربة المظلمة. ما بين الحين والآخر كنت أفتح عينيْ وأرى شعلة السجائر، وحين كان جدّي

ومحدِّثه يأخذان نفسًا كان وجهاهما البدويَّان يَريان للحظـة بلمعـان أحمر. كان دخان السجائر التي كان يدخنها الرجال آنذاك دخان شديد الحموضة. وكنتُ، وأنا أرى وجهيهما وأسمع تلك الكلمات اللامقروءة أثناء الحلم، كما لو أني لم أكن مسافرا في القطار الذي نسافر فيه الآن، وإنما في أيِّ قطار من تلك القطارات التـي يتحدَّثان عنهـا، قطارات جنود مهزومين، أو مُبعَدين يسافرون أبديًّا دون أن تصل إلى هدفها، وتبقى متوقفة طيلة ليال كاملة في أرصفة بـلا إنـارة. كـان "بريمو ليفي" يقول قبل وفاته بوقت قليل، إنَّ العربات المختومة، التي كان يراها أحيانا في الطُرق الميتة بالمحطات لا تزال تثير الرُعب فيه. أنا قد خدمت في روسيا، قال الرجل، في الفرقة الزرقاء. صعدنا في قطار في محطة الشمال، وتأخَّرنا عشرة أيام في الوصـول إلـى مكان يُسمَّى ريغا. وأنا فكَّرتُ، أو قلتُ في شبه نـوم، ريغـا هـي عاصمة لتوانيا، لأني درستُ ذلك في مجموعة أطلس الجغرافية، التي كانت تعجبني كثيرا، ولأنه في ريغا حدثَتْ وقائعُ رواية لجول فيرن، وروايات جول فيرن كانت تملأ خيالي وحياتي.

الآن أفهم لماذا في أرضنا الجافَّة الداخلية كانـت القطـارات الليلية هي النهر الكبيرَ الذي يحملِنا إلى العالم، وتعود بنا بعد المصبِّ الكبير المُنساب في العتمة باتجاه البحر أو المدن الجميلة حيث تكـون تخبئ لنا وجودا جديدا أنْوَر وحقيقيا، وأشبه بالذي تَعِدُ بـه الكُتُـب.

واضح جدا مثلما أتذكّر السفر الأول في قطار، أتذكّر المرّة الأولى التي وصلتُ فيها إلى أرصفة محطة حدودية: في الذكرى يكون ضياء الليل متطابقا، وكذلك استباقات الخيال، والخوف من المجهول الذي يُسرّع النبضَ ويوهِنُ الرُكبتيْن. حرس مدنيّ بمنظر سيئ وبعد ذلك رجالُ درَك عدائيُّون غلاظ يفحصون جوازات السفر في محطّة سِيرْبير. سِيربير، سِيرْبيرُو: في بعض الأحيان تبدو محطاتُ القطار الدخول إلى مملكة "هاديس" وأسماؤها قد امتلكت الآن كبدايةِ رقية مؤذية: "سيربير"، حيث رجال الدرك الفرنسيون يحتقرون في شتاء ١٩٣٩ جنود الجمهورية الإسبانية، ويسبونهم ويدفعونهم ويضربونهم بأعقاب البنادق؛ "بورت بو"، حيث انتحر والتر بنجامين سنة ١٩٤٠؛ غمْوند، المحطة الحدودية بين شيكوسلوفاكيا والنمسا، حيث التقى ذات مرّة "فرانز كافكا" و"ميلينا جيسِنسْكا"، لقاءات سرّيّة بين قوسي زمن أوقات القطارات، في القِصر البغيض للساعات التي كانت تنتهي حين كانا يتراءيان، وحين كانا يصعدان إلى الغرفة غير المضيافة بفندق المحطة، حيث المرور القريب للقطارات يجعل زجاج النوافذ يرتعش.

كيف سيكون الوصول إلى محطة ألمانية أو بولونية في قطار المواشي، وأنْ تسمَع في مكبّرات الصوت أوامر تصرخ بالألمانية ولا تعرف أيَّ شيء، وأن ترى في البعيد أضواء، أسلاكا شائكة، مداخن جد عالية تقذف دخانا أسود. طيلة خمسة أيام، في فبراير ١٩٤٤،

سافر "بريمو ليفي" في قطار باتجاه "أوسفيتش". عبـر الـشقوق فـي الألواح، التي كانَ يُقرِّبُ منها الفمَ كي يمكنه أن يتنفَّس، كـان يـرى أسماء المحطات الإيطالية الأخيرة - وكل اسم كان وداعا - مرحلةً فـي السفر نحو الشمال وبرْدِ الشتاء، أسماءٌ لا يمكن فكَّ رموزهـا الآن، هي لمحطاتٍ مكتوبة بالألمانية وبعد ذلك بالبولونية، لتجمعاتٍ سكنية معزولة تقريبا، لم يسمع باسمها أحد آنذاك، "ماوطاوسن"، "برغيـر - بليسن"، أو "سفيتش". ثلاثةَ أسابيع تأخرتَ "مارغريطي بوبر - نومان" في الوصول من موسكو إلى معتقلات سيبيريا، التي كان عليهـا أن تقضي فيها حكما بعشر سنوات، وحين مرَّتْ ثـلاث سـنوات فقـطْ أُمِرَتْ بأنْ تصعَدَ مجدَّدا قطارا يقصد موسـكو، فكَّـرتْ فـي أنهـم سيحرِّرونها، لكن القطار لم يتوقف في موسكو، لقد واصـل الـسَّفر جهةَ الغرب. وحين توقَّف أخيرا في المحطة الحدوديـة "بْريـستْ - ليطوفسك"، قال الحَرَسْ الروس "لبوبر-نومان" أنْ تُسرع في إعـداد متاعها، وإنهم قد وصلوا إلى التراب الألماني. وبين الألـواح التـي كانتْ تَسُدُّ النافذةَ شاهدتْ في الرصيف حلـل سـوداء لفـرق الأس أس[1]، وفهمتْ في فزع، وتعَب لانهائي، أنها باعتبارها ألمانيةَ فـإن

---

(١) وحدات الأس إس أو شوتزشتافل: كانت منظمة تابعة للحزب النازي الألماني أنشئت سنة ١٩٢٥ وكلفت بمهمة حماية أدولف هتلر. في سنة ١٩٢٦ وضعت تحت إمرة الأس أي أي الجناح العسكري للحزب النازي المعروف بقسم الهجوم (Sturmabteilung). في سنة ١٩٣٤ أصبحت الأس أس

حرس ستالين سيُسلِّمونها إلى حرس هيتلر، بموجب بند مهين ضمن الاتفاق الجرماني- السوفيتي.

تقطَعُ ليلَ أوروبا الهائل قطارات طويلة مشؤومة، وقوافل عربات بضائع أو ماشية بنوافذ مغلقة، تتقدم جد وئيدة صوب قفار شتوية مكسُوَّة ثلجا أو وَحلا، محدَّدة بأسلاك شائكة وأبراج حراسة. "إفجينيا غنزبورغ"، مناضلة شيوعية، أُوقِفَت سنة ١٩٣٧، وعُذِّبَتْ، وأُخْضِعتْ لاستنطاقات كانت تستمر أربع ساعات أو خمس متواصلة كان يلزمها فيها أن تظل واقفة دوما، وقد أُقْفِلَ عليها طيلة عامين في زنزانة معزولة، وحُكِم عليها بعشرين سنة من الأعمال الشاقة في المعتقلات القريبة من الدائرة القطبية، وفي القطار الذي كان يحملها إلى الأسر تأخَّرتْ شهرا كاملا في قطع المسافة بين موسكو وفلاديفوستوك. وخلال الرحلة كانت السجينات يحكين لبعضهن حيواتهن كاملة، وأحيانا، حين كان القطار يتوقف في محطة ما، كُنَّ يُطْلِلن من نافذة أو من متنفَّس بين الألواح ويصرخن بأسمائهن لأيٍّ من الذين يمرُّون، أو كُنَّ يرمين رسالة، أو ورقة كُنَّ يخربشنْ فيها اسمهُنَّ، على أمل أن تكون المعلومة بأنهن قيد الحياة قد تصل ذات مرَّةَ إلى عائلتهن. إنه لو استمرَّت الواحدة منهن على قيد الحياة،

وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهمات بوليسية في صلب الحزب النازي. في سنة ١٩٤٥ منعت هذه المنظمة واعتبرت منظمة إجرامية للدور الذي قامت به في المحرقة. (المراجعة)

لو عادت، فإنَّ أول ما ستفعله هو أنها ستذهب بحثا عن والدَي الأخرى، أو زوجها، أو أبنائها، كي تحكي لهم كيف عاشتْ وماتت، وكي تشهد على أنها في الجحيم وفي البُعد واصلتْ تذكُّرَهم. في معتقل رافيسبورك أقسمتْ مارغريطي بوبر-نومان وصديقتها الحميمة ميلينا جيسِنسْكا ذاكَ القَسَم. قصَّتْ عليها ميلينا الحبَّ الذي عاشته مع رجل مات منذ عشرين سنة، فرانز كافكا، وكذلك كانت تقص عليها القصص التي كان الكاتب يكتُبها، والتي لم تعرف مارغريطي شيئا عنها حتى ذلك الوقت، ولذلك ستستمتع هي أكثر بها، باعتبارها قصصا قديمة لم يكتبها أحد، ومع ذلك هي تستعيد الحياة كاملة قوية حين يحكيها شخص بصوت عال، قصة مسَّاح يصِلُ قريةً بها قصر لم يستطع الدخول إليه أبدا، قصة المسافر الذي يستيقظ ذات صباح وقد تحوَّل إلى حشرة، قصة مفوَّض في بنك زاره ذات يوم رجال شرطة في زي مدني، كي يقولوا له إنه سيُقدَّم للمحاكمة، وإنْ لم يصل أبدا إلى معرفةَ السبب، التهمةَ التي صيغَتْ ضدَّه.

الحب بين "ميلينا جيسنسكا" و"فرانز كافكا" تعبُرُه رسائل وقطارات، وإليه أضاف النأيُ والكلماتُ المكتوبةَ أكثر من اللقاءات الواقعية أو المداعبات الحقيقية في ربيع ١٩٣٩، أيَّامًا قبل دخول الجيش الألماني إلى براغ، سلَّمتْ ميلينا إلى صديقها وِيلي هاسْ رسائلَ كافكا التي احتفظتْ بها منذ أن تلقَّت آخر واحدة منها، ست عشرة سنة

قبل ذلك، سنة ١٩٢٣. في الرحلة صوب معتقل الإبادة، في المحطات المظلمة حيث سيتوقّف القطار ليالي كاملةً، كانتْ تتذكّر دون ريب انفعال وقلقَ الرِّحلات نصف السريَّة لأزمنة أخرى، حين كانتْ متزوجة وتعيش في فيينا، وكان عشيقها تعيش في براغ، وكانا يتواعدان في منتصف الطريق، في المحطة الحدودية غموند، أو المرة الأولى التي التقيا فيها، بعد شهور عديدة من تبادل الرسائل، في محطة فيينا. قبل أن يشرعا في التراسل كانا قد ألتقيا مرَّةً واحدة، في مقهى، دون أن يحقق الواحد في الآخر كثيرا، وفجأة، رغِبَ هو في أن يستنقذ من هوامش الذاكرة ذكرى لم يمكنها أن تكون دقيقة، وجهُ المرأةِ التي لم يصل إلى التحقيق فيها، وإن كان مُجرَّد شهورٍ بعد ذلك سيُغْرَمُ بها. ألاحظ أنني لا أستطيع تذكّر وجهها بالتفصيل. أتذكّر فقط كيف كانت تبتعد بين الطاولات الصغيرة للمقهى؛ وجهها، لباسها، لا أزال للآن أراهما. لقد صعد إلى القطار في براغ وهو يعرف أنه في الوقت نفسه كانت هي قد صعدتْ إلى قطار آخر في فيينا، وشوقها ورغبتها ليسا أكثر قوة من الخوف، لأنه كان يقلقه أن يعرف أنه، في غضون ساعات، ستكون لديه بالملموس، بين ذراعيه، المرأة التي تكاد لا تكون إلا شبحا للخيال والرسائل. الخوف هو التعاسة، كتب إليها. إنه يخشى أن يصل القطار وأن يجد أمامه العينين الصافيتين لميلينا، لكن أيضا يخشى أن تكون هي قد ندِمتْ في اللحظة الأخيرة، أن تكون قد بقيتْ

في فيينا مع زوجها، الذي لا يسعدها، الذي يخونها مع نساء أخريات، لكن الذي لا ترغب في الانفصال عنه، أو لا تقدر على ذلك. يتأكد من الساعة، ينظر أسماء المحطات التي كان القطار يتوقف فيها، وتعذّبه العجلة في أن تمر الساعات المتبقية على الوصول، وكذلك الخوف من الوصول، ويخاف أن يجد نفسه وحيدا في محطة غموند، وفي الوقت نفسه، يخشى القرب المادي العنيف لميلينا، الأغضّ والأكثر عافية منه، الأمْهَر والأصرح في الجسارات الجنسية.

الذكرى اللاواعية هي المادة وخميرة الخيال، دون معرفة ذلك حد الساعة، أنا نفسي، بينما كنت أرغب في تخيُّل سفر فرانز كافكا في قطار ليلي سريع، في الواقع كنتُ أتذكر رحلة أنا نفسي أنجزتها حين كان عمري اثنتين وعشرين سنة، ليلة أرق برمّتها، في قطار كان يسوقني إلى مدريد، إلى موعد مع امرأة ذات عينين صافيتين وشعر كستنائي، كنتُ قد أرسلتُ إليها تلغرافا قبل دقائق من شرائي تذكرة سفري في الدرجة الثانية بمال اقترضته، وقد تخلّيت عن كلّ شيء مقابل الذهاب بحثا عنها. وصلتُ عند الصباح إلى المحطة، ولم يكن من أحد ينتظرني.

كيف يكون الاقتراب، في قطار، من محطة حدودية دون أن نعرف إنْ كنتَ ستُرفَضْ، أو أن تُمنع من العبور إلى الناحية الأخرى، إلى الخلاص الذي كان على بعد خطوة، الحرس بزيّهم

يفحصون ببطء أوراقك، رافعينَ النظرة المتعجرفة كي يُقارنوا وجه الصورة في الجواز بذلك الوجه المملوء ذعرا، الذي بالكاد تَعرِبُ فيه عن ذاتها عبارة عادية، أو عبارة براءة. بعد أن التقى للمرة الأولى مع ميلينا وقضى معها أربعة أيام كاملة، عاد فرانز كافكا في القطار السريع إلى فيينا باتجاه براغ بقلق أن يصل إلى عمله في صباح الغد، يغمُره مزيج من السعادة والذنب، من السكر اللذيذ والبتر اللامُحتَمل، إذ لم يعد يعرف كيف يتعود الآن على أن يكون وحيدا، ولا أمكنه أن يحسب الزمن الذي تبقى له كي يعود إلى الالتقاء بعشيقته. حين توقف القطار في محطة غموند قال له شرطيُ الحدود إنه لا يمكنه أن يواصل رحلته إلى براغ: تنقصه ورقة بين وثائقه الكثيرة، تأشيرة مغادرة لا يمكن أن تُعطى له إلا في فيينا. ليلة ١٥ مارس ١٩٣٨، حين كانت قد مرَّتْ أربعة عشر عاما على وفاة فرانز كافكا، وبمعزل عن كل قلق أو ذنب، وكل ملاحقة، فإنّ هذا السريع نفسه الذي كان يخرج في الساعة الحادية والربع من فيينا باتجاه براغ امتلأ بالهاربين، يهودا ويساريين، على الخصوص، لأن هيتلر دخل المدينة للتوّ، وقد استقبلته حشود تزعق مثل كلاب الصيد، ترفع الذراع وتصرخ باسمه بالضجيج الأجش والموحَّد لمحيط فظيع، هاتفةً بحياة السيد والرايخ، مطالبةً بإبادة اليهود. كان نازيون نمساويون بأزيائهم يصعدون سريعَ براغ في المحطات الوسطى وينهبون أمتعة الهاربين،

وكانوا يضربونهم ويسبُّونهم. كثير منهم لم تكن معهم أوراق: في المحطة الحدودية كان الحرَّاس الشيكيُّون يمنعونهم من مواصلة الرحلة، بعضهم كانوا يقفزون من القطار ويهربون إلى الحقول التي حولهم، راغبين في عبور الحدود في حماية الليل.

كيف سيكون الوصول ليلا إلى شاطئ بلد مجهول، القفز في الماء من مركَب فيه قَطعَ البحر في الظُّلمة، رغبَةً في الابتعاد بأقصى سرعة نحو الداخل، بينما تغرق الأقدام في الرَّمل: رجُلٌ وحيد، بلا أوراق هوية، بلا مال، أتى مسافرا منْ فظاعات الأمراض ومجازر إفريقيا، من قلب الظلام، لا يعرفُ شيئا عن لغة البلد الذي وصل إليه، يلقي نفسه على الأرض، ويتوارى في حفرة على الطريق، حين يرى اقتراب مصابيح سيارة في الطريق، ربما كانت للشرطة.

يبدو أن قراءة كُتب الرحلات تروق للمرء أثناء السفر. في قطار كان يمضي عن غرناطة، بعد أن انتهى الموسم الجامعي، في مستهلِّ صيف ١٩٧٦، كنتُ أقرأ قصة رحلة إلى البندقية أنجزها "بروست" في الزمان المُستعاد. بعد ذلك بعاميْن حللتُ بالبندقية، في مساء من شهر سبتمبر، وتذكَّرتُ بروست وميله المؤلم إلى الخيبة حين كان يصل إلى الأمكنة التي كان يرغب في الذهاب إليها. وأثناء حديثي مع "فرانثيسكو أيَالا" عن سعادة قراءة بروست اكتشفتُ أنه أيضا يربطُها بالسعادة المتزامنة مع رحلة. وزهاء سنة ألف وتسعمائة

وأربعين ونيف، حين كان يعيش منفيًا في بوينـوس آيـريس، مُـنِحَ فرصةَ إلقاء محاضرات في جامعة إقليم رُوصَارْيُو. كان يسافر مـرة في الأسبوع، يأخذ القطار أوَّلا حتى سَانطَافِي، وبعد ذلك يركب حافلة كانتَ تمضي به جنب ضفّة نهر بَرَنَا. كان يصحبُ معه دوما مجلّـدا لبروست، كانت إعادة القراءة تبدو له ألَذَّ لأنه عندما يصرف العينـين عن الكتاب كان يرى مناظر طبيعية مثل التي في الناحيِة الأخرى من العالَم، كان ينتقل في لحظة من شوارع بارِيس سـنة ١٩٠٠، ومـن شواطئ نورماندي المغمورة ضبابا إلى الشـسوع غيـر المأهولـة بأمرِيكا التي كان يَعْبُرها القطار، وبَعده الحافلة. وفجأة، كـان ذلـك الكتاب الذي يقرؤه صلَته الوحيدة بحياته السابقة، بإسـبانيا الـضائعة التي ربما لن يتمكن من العودة إليها، وأوروبا التي لم تكن قد برزت على السطح من كوارث الحرب. كان يقرأ بروست في الحافلة جَنْب نهر بَرَنَا، وذلك المجلّد الذي كان في يديْه كان هو ذاته الـذي قـرأه مرات عديدة في الترام لمدريد.

ذات مرة، في موقف الحافلات، رفع بصرَه عن الكتاب تلقائيا، وأمْعَنَ النظر في عجوز ذي شَعَر أبيض جدا وسحنة كئيبـة وفقـرٍ وشيكِ الحلول به، يرتدي معطفا مستعملا باليا، وتحت إبطه محفظـة مثله من كثرة الاستعمال، يدُلّ وجهه على المرض والتّعـب، وجـه عجوز ليس بمنأى عن الحاجيات المُرَّة للحياة. فـي لحظـة فجَـاءَة،

لحظة كُفْر، وشفقة خجل، تعرّف في هذا العجوز الذي يركب حافلة في قرية قصيّة بالأرجنتين على منْ كان رئيسا للجمهورية الإسبانية، السيد نيثيطو ألكَلا ثَمُورا. لقد خشي أن يتعرَّف عليه الرَّجل الآخَر: أدار رأسَه صوب النافذة، وأغرق عينيه في الكتاب، وحين رفع رأسَه بعد المحطَّة اللاحقة لم يكن من أثرٍ للرجل العجوز في الحافلة.

تُسمَعُ قصة أثناء سفر، أو يُعثَر مصادفةً على كتاب ينتهي إلى فتح موجة مركَّزَة في الشعر بالاكتشافات المتلاحقة في زمن كنتَ فيه مُولعًا بامرأة، كانت تُعرضُ عني حين كنتُ في مسيس الحاجة إليها، وكانت تأتي بحثا عني حين كنتُ أحاول الابتعاد عنها، سافرتُ في قطار إلى إشبيلية وأنا أقرأ حديقةَ آل فينزي-كونتيني، وكنتُ أغدق على حسناء جيورجيو باساني وبطلته اليهودية المتمردة ملامحَ المرأة التي كنتُ أعشق، والفشل النهائي للحب الذي شعرت به تجاهَ ميكول بطل الرواية والذي سبقه في حزن فشلي الشخصي، أنا نفسي واعتمادا على ذاتي لم يكن في وُسعي تقبُّله. أتذكَّر نسخة رخيصة ومستعملة لتاريخ هيرودوت عثرتُ عليها في كشك بشارع نيويورك، وعلى يوميات الرحلة إلى الدائرة القطبية للقبطان جون فرانكلين، التي تصفَّحتها مصادفة في مكتبة للكتب المستعملة- والتي قرأتها دون كلل في غرفة فندق بلندن، غرفة ضيقة، عالية السقف، ذات هندسة فاشلة، وحمام ليس بأكبر من دولاب، معوج الزوايا وذو

ديكور تعبيري. وما أن وصلت إلى بوينوس آيريس في الخريف الجنوبي لسنة ١٩٨٩، كنتُ أقضي الساعات منبطحا في فراش الغرفة، مصغيا إلى المطر- الذي كان يقرع الزجاج، ويمنعني من الخروج إلى الشوارع، التي أرغب كثيرا في أن أجوبها- أقرأ طيلة الساعات، وتزجيةً للوقت المُفْزع بالوجود في مكان مغلق بالفنادق، اكتشفتُ أوّل كتاب لبروس شاطوين، في إقليم باطاغونيا. الآن، أتأكّد أنه تحديدا في تلك الأيام التي كنتُ أقرأ فيها الكتاب كان بروس شاطوين يحتضر جرّاء مرض لم يشأ أن يُعلن عن اسمه لأحد: عدوى غريبةَ أصابته في آسيا الوسطى، بسبب أكلة ما أو لسعةَ، كان أصدقاؤه يقولون، كي يُخفوا العار، كي لا يقولوا الاسمَ الذي كان يثير الارتباك والخجل، الكلمة التي كانت في حد ذاتها كإحدى تلك الدُمل التي كانت منذ قرون تُنذر بفظائع الطاعون.

في بوينوس آيريس كنتُ أقرأ لبروس شاطوين بينما كان هو يحتضر في لندن. هكذا كان لسفري عبر الأرجنتين جزءٌ من الحقيقة وآخر من الأدب، لأنه بقراءتي لذلك الكتاب كنتُ أواصل السفر جهة فضاءات الجنوب حزينة المسار، الذي بالرغم من ذلك قد توقّف بالنسبة إليَّ في عاصمة البلد، في غرفة فندق كنتُ بالكاد أبرحها لهطول المطر. أي راحة للروح، أنْ تكون بعيدا عن الأشياء، معزولا عن كل شيء مثل راهب في صومعته، صومعة فيها كل وسائل

الراحة الممكنة، السرير السليم، الهاتف في متناول اليد، جهاز تحكم التلفاز عن بعد. المطر الذي ينأى بالمرء عن إجبار السياحة المرهق، الذي يقيِّده بالتمام كي يمكث طيلة ساعات دون أن يقوم بشيء، أن يبقى مستلقيا فحسب، على الوسادة المثنية، منكفئا قليلا، الكتاب بين يديه، والذي تُحكى فيه رحلة صوب النقطة القصية في العالم، حيث تَتذكَّر رحلاتٌ أخرى أقدم، رحلة شارل داروين في المركب الشراعي الكبير بيغل، ورحلة ذلك الهندي من إقليم باطاغونيا، الذي سافر مع داروين إلى إنجلترا، وتعلَّم اللغة الإنجليزية وأساليب تصريفها، وزار الملكة فيكتوريا، وفي غضون أعوام عاد إلى المواضع الجنوبية، وإلى الحياة البدائية التي كان قد فرَّ منها، هو الآن أجنبي إلى الأبد حيثما حلَّ، متوحش غريب بلباس متحضِّر في لندن، ومجهول في مسقط رأسه.

في كوبنهاغن، حكت سيدة دانماركية من أصل فرنسي وسفاردي رحلةً قامت بها في طفولتها مع والدتها عبر فرنسا الحديثة التحرُّر، أواخر خريف ١٩٤٤. تعرَّفتُ عليها أثناءَ وجبة غذاء بنادي الكُتَّاب، الذي كان قصرا بأبواب ذات دفَّتيْن، وأعمدة مرمر، وسقوف بأكاليل مذهَّبة، ورسوم أليغورية. وبينما كنتُ أطلُّ من إحدى نوافذه الكبيرة، رأيتُ سفينة شراعية عالية تمُرُّ أمامي كما لو كانت تنساب عبر الشارع: تمخر إحدى تلك القنوات التي تتوغل كثيرا في المدينة، والتي تعطي بغتةً منظورَ زاوية مفاجأةً مينائيَّة.

كان الوقت بداية سبتمبر، منذ حوالي ثمان سنوات. كنتُ قد أمضيتُ يومين أتجوّل عبر المدينة، وفي اليوم الثالث دعاني ناشرٌ صديق إلى الغذاء. ذاكرتي مليئة بالمدن التي أعجبتني كثيرا، والتي كنتُ فيها مرةً واحدة فقط. أتذكّر من كوبنهاغن على الخصوص صورَ الجولة الأولى: خرجتُ من الفندق ماشيا على غير هدى، ووصلتُ إلى ساحة بيضاويَّة بقصور وأعمدة، يتوسَّطها تمثال يمتطي حصانا من نحاس، نحاسي مخضرّ، لون أماكن بعينها، تسببه الرطوبة وبهق الحجر، ومسحة رمادية مطابقة للون السماء الرمادي، أو للون المرمر بذلك القصر الذي حُكي لي عنه، فيما بعدُ، وقيل إنه القصر الملكي.

في كل فضاء الساحة الباردِ والغريب الشكل، التي كانت تخترقها سيارة متفرّدة بين الفينة والأخرى (في الوقت ذاته كنت أسمع المحرّك واحتكاك العجلات بالبلاط)، لم يكن مزيد من الحضور البشري، مع عدم احتساب ذاتي، سوى وجود ذلك الجندي ذي السترة الحمراء والطربوش الطويل الصوفي الذي للخيَّالة، والذي كان يضبط بقرف الخطوات حاملا بندقية على كتفه، بندقية ذات حربة لازمنية مثل زيّه.

وبما أني لم أكن أدري إلى أين أمضي، فقد كانت الشوارع هي التي تقودني، حين أترك نفسي أُقادُ من قِبَل دربٍ في البادية. كان

أمام الحصان النحاسي شارع طويل ومستقيم، يبتدئ، وينتهي عند القبَّة، التي من نحاس مخضر أيضا، وهي لكنيسة ذات لافتات خطية ذهبية مكتوبة باللاتينية وتماثيل قديسين، ومحاربين، وأشخاص بسترات رسمية في الطُنف. تشبه الكنيسة تلك الكنائس الغربية بروما المتماثلة فيما بينها، والتي لديها مسحة متنافرة لفروع شيء ما، لإدارات فاتيكانية وطاولات كبيرة لفضل الله.

لكن واحدا من تلك التماثيل، التي كانت تنتصب فوق تلك الواجهة، كان دون أدنى شك "لسورن كيركغاد". يقف أحْدبَ، مثل المترَبِّص، يداه خلف ظهره. لم تكن وقفته وقفه الارتقاء والثبات النهائي الذي أُلِفَ في التماثيل. بعد موته، ومدى قرن ونصف من الإقامة في الخلود الرسمي، ومن التدافع مع كل أولئك الأبطال الوقورين، والقديسين، والجنرالات، وخطباء المعبد التاريخي للدانمارك، واصل تمثال كيرغارد الحفاظ على التظاهر بأنه عابر سبيل، هارب، نفور، مشغول بالتجول وحيدا عبر مدينة مغلقة عدائية، والنظر شزرا إلى الناس الذين يحتقرهم، والذين يحتقرونه أكثر، ليس بسبب حدبته ورأسه الكبيرة، وإنما بسبب المغالاة غير المفهومة في كتاباته، لإيمانه التوراتي الجامح، وهو جدُّ منفي وبلا وطن، في مدينة مولِده كما لو كان مجبرا على العيش في الناحية الأخرى من العالم.

بحثتُ عن طريق العودة إلى الفندق. سيأتي الناشر- الذي لم أكن أعرفه أيضا- في أقلِّ من ساعة ليُقلّني. في شارع طويل برجوازي، ذي محلات ملابس، ومحلات بيع آثار قديمة، رأيتُ سقيفا يبرز بالأحرى في عبث من حائط مُجَيَّر أو مطلي بالأبيض، كان به باب خشبي بزخارف حديدية ومقْرعة، ونافذة بشَعريَّة وزهور إبْرَة الراعي. أنا، الذي كنتُ أحسُني جد بعيد عن كل شيء أجوب ذاتَ سبت مساءَ الشوارع الخالية لكوبنهاغن، عثرتُ على مكان إسباني يُسَمى حانةَ بِيبِي.

تلك المرأة كانت جالسةً بجانبي بالمائدة البيضاوية الكبيرة لاتحاد الكُتَّاب. حدث ذلك معي في مرات أخرى: كان الغذاء على شرفي، لكنْ لا أحد انتبه مليًا إلى حضوري. كانت أمامَ كل واحد منا بطاقة عليها أسماؤنا. كان اسم المرأة في حد ذاته لغزا، ووعدا مشفرًا: "كاميل بيديرسن سافْرا". لم أستطع مقاومة مغنطيس الأسماء: قالت لي المرأةُ أنها وُلِدتْ في فرنسا، في عائلة يهودية من أصل إسباني. بيديرسن كان هو اسمُها من جهة زوجها. وبينما كان الآخرون يتحدثون في دفء ويضحكون، متخففين من عدم الخوض في حديث مع أجنبي لا يعرفون عنه شيئا، حكتْ لي أنها فرَّت هي وأمُّها من فرنسا، في الليلة السابقة على سقوط باريس، في فوضى الكبيرة ليونيو ١٩٤٠. وقد عادت مرَّة واحدة إلى البلد، في خريف ١٩٤٤، وانتبهت الاثنتان أنهما تخلَّتا في وقت وجيز عن الانتماء إلى بلدهما الأصلي،

الذي كان يمكن أن تُرحَّلا عنه إلى معتقلات الإبادة لو لم تَفِرا في الوقت: لحسن الحظ أنهما دانماركيتان. كذلك كانت الدانمارك مستعمرة من قِبَل ألمانيا، وأُخْضعت إلى القوانين ذاتها المعادية لليهود مثل فرنسا، لكن السلطات الدانماركية، بخلاف حكومة "لفيشي" الفرنسية، لم تتعاون في عزل وترحيل اليهود، وحتى لا تنفذ واجبَ أن يحملوا نجمة صفراء.

كاميل سافرا كانت في السادسة من عمرها وقت الفرار من فرنسا: تتذكر الامتعاضَ من إيقاظ أمها لها، بتحريكها حين كان الليلُ دامسا، والإحساسَ الغريب، الدافئ واللذيذ بالسَّفر ملفوفةً في لحاف في مقطورة العربة، تحت ظُلَّة كانت الأمطار تخبطها. تتذكر كذلك أنها نامت في مطابخ ودهاليز بيوت لم تكن لها، وأشمت فيها رائحة قوية لتفاح وحنّاء، وكانت تأتيها أحيانا صُوَرٌ لمسارات ملغزة عبر طُرُق بدوية في ضوء القمر، تنام بين ذراعي أمّها، يحميها شال من صوف رطب، تُصغى إلى ترجرج العربة وحوافر الحصان البطيئة. تتذكّر أو تحلم أضواء متباعدة على نواص، أو في نوافذ مزارع، أضواء قاطرات حمراء، تتابُع أضواء في النوافذ الصغيرة لقطارات لم تستطع ركوبَها هي وأمّها.

لرحلة المنفى في ذاكرتها حلاوة الرَّفاه الطفولي، الصيغة التي يستقر بها الأطفال براحة في الاستثنائي، ويعطون للأشياء أبعادا

يجهلها البالغون، والتي لا علاقة لها بما يعيشه هؤلاء ويتذكّرونه. حين رحلت كاميل سافرا عن فرنسا، كانت لا تزال تحيا مفارقة في أوهام الطفولة الأولى وأساطيرها: في العاشرة من عمرها أو الحادية عشرة، حين عادت هي وأمُّها، كان عقلُها الراشد قد استقرَّ عمليًّا. تتذكر الرحلة الأولى مثل حُلم، وكانت دون أدنى شكٍّ أجزاء من الأحلام أو القصص قد تسرَّبت في ذاكرتها كوقائع حقيقية. كانت تحتفظ، عند عودتها من الدانمارك، بصور دقيقة، مخضّبة بحزن، عكس السعادة الغامضة التي أحستها المرة الأخرى.

كانت صهباء الشعر، عريضة، حيوية، غير مبالية بطريقة لباسها، بملامح تنتمي إلى ملامح وسط أوروبا أكثر منها لاتينية، بالغت السنون في إظهارها. لقد شاهدت نساء يهوديات جد شبيهات بها في الولايات المتحدة الأمريكية أو بوينوس آيريس: نساء ذوات سن معيَّنة، شرعن يترهّلن، يرتدين الملابس في لامبالاة، بشفاه مُلوَّنة. كانت تدخِّن كثيرا سجائر دون أعقاب، وتتحدَّث بتألق متنقِّلة بين الإنجليزية والفرنسية حسب رغباتها أو حدودها التعبيرية، وتشرب جعة بطلاقة إسكندينافية رائعة. تكتب أخبارا عن الكتب في صحيفة وفي برنامج إذاعي. الناشر الذي ساقني إلى الغذاء وفي حمأة دفء الحديث والجعة لم يعد يبدو أنه يتذكّرني كثيرا، وقد قال لي حين قدمها لي أن لها كثيرا من الحظوة، وأن نقدا إيجابيا من قِبَلها هو

مهم جدا لأيِ كتاب، وعلى الخصوص حين يكـون الكاتـب أجنبيـا وغير معروف في البلد. كان لديَّ الاقتناع الراسـخ والكئيـب بـأن الكتاب الذي استُدْعيتُ في شأنه إلى كوبنهاغن لن يجلب اهتمـام أيِّ كاتب دانماركي، بحيث شعرتُ بتأنيب ضمير مقدَّم في شأن التجـارة الخاسرة التي كان يقيمها الناشر معي، وكنت أستميحه، وحتى أمـتنَّ له، حتى إنه في غذاء اتحاد الكُتاب كان يمكن أن يتركنـي لحـالي. فهمتُ أيضا أن الدعوة لم تكن نجاحا بالتحديد: كانت هنالك العديد من الموائد إضافة إلى الطاولة الكبيرة بتصاوير أسطورية ونوافذ كبيـرةَ تطل على شارع كان يمر به بين الفينة والأخرى مركبٌ وئيد. وقبـل أنْ يُقدَّم إلينا الغذاء، كان النُدل قد رفعوا صحون الموائد الفارغة.

نهشتني في بؤسٍ تلكَ اللحظاتُ بينما كانـت كاميـل سـافرا تُكلمني، ولاحظتُ بنوع من المهانة أنه في خضم المحادثة كذلك لـم تقل ولو كلمة واحدة عن كتابي بالدانماركية. قالت لي بأن أمَّها تَوُفِّيت منذ أشهر خلت في كوبنهاغن، وأنها في آخر حديث لها معها تذكَّرتا معا تلك الرحلة إلى فرنسا، وعلى الخصوص ذلك الشيء الذي حدث لهما ذات ليلة في فندق بمدينة صغيرة، قريبة من ليون.

كانتا تبحثان عن أقرباء لهما. قليل منهم عاشوا. كان جيـرانٌ قدماء ومعارف ينظرون إليهما في ارتياب، في رفض صريح، كمـا

لو أنهم يخافون أن تكونا قد عادتا كي تطالبا بشيء، كي تتهما أو تصفيا حسابا. إلى تلك المدينة القريبة من ليون- التي لم تقل لي كاميل اسمها- قادتها أمها لأنَّ شخصا ما قال لها إن أختا لها لجأت إليها أوائل سنة ١٩٤٣، ولا يُشارُ إلى أنها قد اعتُقِلت، وإن كان أيضا لا يُعْرف شيء عن إقامتها، ولا تمَّ التوصُّل إلى ذلك. كان الناسُ يختفون في ذلك الوقت، قالت كاميل سافرا، وقد ضاع أثرْها، لم يُسجَّل اسمها في أي جهة، ولا في أي قائمة للمُرحَّلين، ولا العائدين، ولا الموتى، وصلتا في قطار في الصباح الباكر، تناولتا الفطورَ من قهوة باردة وخبز أسودَ بزبدة زَنِخة. في مقهى المحطة، سألتا بعض الأشخاص المُبكِّرين والنفورين الذين كانوا ينظرون إليهما في ارتياب، وكانوا يرفضون أن يعطوهما أبسط التفسيرات، خوفا من أن يتورَّطوا خلال أزمنة التنقية تلك.

كانتا جائعتين، تائهتين، غريبتين في البلد الذي كان منذ أربع سنوات خلت بلدهن، بقدمين مفكَّكتين بعد أن مشيتا النهارَ كلَّه دون أن تتحقَّقا من شيء بصدد المرأة التي كانتا تبحثان عنها، وفاجأهما الليلُ في مكان مكشوف، جنبَ ظُلَّة موقف الترام. لن تمكنهما العودة إلى باريس حتى الصباح اللاحق. تركهما الترام في ساحة ذات محلات مقفلة وبها تمثال ذكرى الذين سقطوا في حرب ١٤، وقريبا منه كان هنالك مصباحٌ مُضاءٌ ولوحة فندق يُسمَّى "لاكوميرْس".

استأجرتا غرفة. صعدتا للنوم مباشرة، لأنه بحكم التقييدات ، فإنَّ النور سيُطفأ عند الساعة التاسعة. جالستان على السرير، بجانب مصباحٍ يضعُف وكان حينها يمنحُ إضاءةً باهتة وحمراء، وبعدُ كانَ يتَّقِد حتى يغدو بلون أصفر مُزيَّت. اقتسمتا عشاءً علبةً زودهما بها الصليبُ الأحمر، ونامتا بعد ذلك مرتديتين ملابسهما ومتعانقتين، تمسُّ كلٌّ منهما قدمي الأخرى المتجمدتين تحت اللحاف القصير والملاءة القذرة. أمُّها، قالت لي السيدة، لم تكن تغلق الغرف بالمفتاح قَطُّ: كان يفزعها أن تظلَّ مُقْفَلا عليها، وأن تُضيِّع المفتاح ولا تستطيع الخروج. في الملاجئ، حين كانت صفارات الإنذار بالهجمات الجويَّة تدوي، كانت تأتيها نوباتُ عرَق وارتباك. حين كانتا تمضيان إلى السينما، كانتْ تُسرع في الخروج بعد انتهاء الفيلم، خوفًا من أن يخرج الجميع قبلَها، وتُغلَّق الأبوابُ للاعتقاد بأن لا أحد قد بقي.

استيقظتا في الفجر. عبر النافذة رأت ساحة داخلية ريفية، بِجِرار بستان وأقفاص دجاج وكان المطر يهطل عليها. اغتسلتا تناوبا بماء جد بارد من الجرَّة الموجودة أسفل المغسل، ارتديتا الملابس المتراكمة، البالية والفقيرة التي كانتا ترتديانها دوما وقتذاك، ملابس لم تفلح أبدا في أن تقيهما البرد، كما كان الأكل لم يكفهما أبدا كي يرفع عنهما الجوع بتاتا. حين رغبت أمُّها في الخروج من الغرفة لم يدُرِ مقبضُ البابِ، فلم ينفتح.

- قلتُ لكِ أمسِ ألاَّ تقفلي بالمفتاح.

- لكني لم أقفلها بالمفتاح، أنا متأكِّدة.

كان المفتاح على صوان السُّفرة قبالة السرير. أدخلتاه في عين القفل، حرَّكتاه جهة ناحية وأخرى، ولم يحدث أي شيء. لم يكن يدور، أو بدا أنه لم يعثر على مقاومة، فكان يدور في الفراغ. لم تكن المسألة أنه تعطَّل، أو أنه لم يدخل جيدا. لأن الأمر تعلَّق بمفتاح غرفةَ أخرى. ببساطة، ولو أنه في المتخيل بدا أن النظام الميكانيكي يشتغل، فإنَّ الباب لا ينفتح بالمفتاح، مثلما أنه لا ينفتح بمقبض الباب.

بدأت الأمُّ تتوتر. أكثر من محاولة فتح الباب، ما كانت تقوم به هو رجَ مقبض الباب والمفتاح، وضرب القفل، وعضُّ الشفتين. كانت تقول بصوت خفيض أنهما إن لم تخرجا فإنهما ستضيِّعان قطار باريس ولن يمكنهما العودة إلى الدانمارك، وسيكون عليهما المكوث في فرنسا إلى الأبد، حيث لا أحد لديهما، حيث لا أحدَ وجه إليهما ولو ابتسامة واحدة للترحيب، ولا حتى للاعتراف. أخرجت المفتاح من القفل ولم تفلح في ردِّه مجدَّدا، وحين نجحت في ذلك أخيرا، رافضةً أن تتركَ ابنتَها تساعدها، قامت في قلق بحركة فجائية حتى إن نصف المفتاح بقي في يدها.

- قلتِ لكِ ألاَّ تغلقي بالمفتاح- ردَّدت-. وأنتِ لم تشائي الإصغاء إليَّ.

- لماذا لا نطلب مساعدة؟

- سيضحكون منا، يهوديتان سخيفتان. من ذا الذي كان سيَحدث له أن يمكث هكذا مقفلا عليها في غرفة.

لكن كان عليهما أن تطلبا عونا: دقائق بعد ذلك، كانت أمها قد خرجت عن طورها، الفم ممتقع والعينان كالزجاج من الخوف، الخوف ذاته الذي كانت عليه حين فرّت منذ أربع سنوات خلت، والذي أفلتَتْ منه ابنتها، كانت تخبط الباب بيأس وتطلب النجدة بالصراخ. حاولت أن تفتح النافذة أيضا: بيد أن كان ذلك مستحيلا، وإن كان لا يُرى أيُّ قفل، وطبعا لم يكن هنالك من قفل.

سمعتا في تفريج خطوات تصعد السُّلَّم وتقترب عبر الممَرّ. مالك الفندق، وبمساعدة سلكٍ أفلح في أن يُخرجَ من القفل الجزء المكسور من المفتاح الذي بقي فيه، لكنه حين أدخل المفتاح العامَّ لم ينفتح الباب أيضا. كان الباب يدفَع من هذه الناحية وتلك، ويُرَجُّ ويُضرب، لكنَّ الباب استمرَّ مغلقًا بإحكام، وكانت من خشب سميك جدا وبمفصَّلة جد متينة لا يمكن تحطيمها.

كانت أمها تختنق، قالت كاميل سافرا. لقد جلست على السرير، بلباس السفر الأسود، ومعطفها القديم، وقبعتها الصغيرة، وحذائيها الواسعين والمعوجَّين، وكانت تستنشق الهواء بفم مفتوح

وتحرك كثيرا جناحي أنفها، وتعصر يديها أو تغطي بهما الوجه، كما كانت تفعل حين تنزلان إلى الملاجئ مع صفارات بداية الحرب. لـــن نخرج من هنا أبدا، كانت تردّد، لم يكن علينا أن نعود، هذه المرة لن يتركونا نخرج. حينئذ أخذت الفتاة قرارا لا تزال أربعينَ سنة بعد ذلك تفتخر بها. رمت جَرَّة المغسل على الزجاج، وحين انكسار الزجـــاج غَمَرَ الغرفة هواء الصباح المنعش والرطب. لكن الحجرة كانت عالية بمكان استحال معها القفز إلى الساحة الداخلية، ولم يظهر أثر للـــسُلَّم اليدوي الذي ذهب مالك الفندق للبحث عنه.

لم يمكنهما فتح الباب: وساعة بعد ذلك أمكنهما أن تفتحا بابـــا ملعونة كانت في الغرفة، مخفيَّةً خلف الدولاب، اســـتطاعت البنـــت وأمها باستماتة أن تزيحاه.

ومع ذلك أمكنهما الالحاق بقطار يتوجـــه إلـــى بـــاريس فـــي الصباح ذاته. كانت أمها تمسك بها من يدها وتضغط عليهـــا بـــشدة، وكانت تقول لها أنهما ستعودان مباشرة إلى الدانمارك، وأنها لن تطأ أبدا أرض فرنسا. في مقصورة القطار كانت شـــاحبة جـــدا، وكـــان هيئتها سيئة كما لو كانت في سفر منذ زمن طويل، مثل كثيـــر مـــن اللاجئين الذين لا وطن لهم، الذين كانوا يُرون حينئذ تـــائهين عبـــر المحطات، منتظرين أياما وأسابيع برمّتها أن تأتي قطارات لا مواعيد لها ولا وجهات دقيقة، لأنه في كثير من المواضع كانت الـــسكك قـــد

انشقت والقناطر قد فُجِّرت بفعل القصف والتخريبات. كان هنالك سيِّدٌ تَظهر عليه علامة أزمة مستحقَّة شبيهة بما كانتا هما عليه قدَّم للفتاة نصفَ برتقالة أخرجها من منديل نظيف جدا وقشَّرها بعناية كبيرة بينما كانتا لا تحاولان النظر ولا أن تستشعرا ذلك الأريج الحامض والمغري الذي كان يغمر الهواء ماحيًا الرائحة الكريهة المألوفة في ملابس عَرِقَة ودخان السجائر. كان الإنسان الأول الذي ابتسم لهما بانشراح منذ أن وصلتا إلى فرنسا. تبادلوا الحديث، ذكرت الأم اسم المدينة والفندق الذي أمضيتا فيه الليلة. حين الإنصات إلى ذلك، تخلى الرجل عن ابتسامته. كذلك كان الإنسان الوحيد الذي عثرتا عليه يتكلَّم دون تحفُّظ أو خوف. قال لهما:

- كان فندقا جيدا قبل الحرب. لكني لن أطأه أبدا. لقد حوَّله الألمان خلال الاحتلال إلى مركز لمخابراتهم الجستابو. حدثت هنالك أشياء فظيعة في تلك الغرف. كان الناس الذين يمرُّون من الساحة يسمعون الصراخ، ويتظاهرون بأنهم لا يسمعون أيَّ شيء.

حين صمت، حرَّكت كاميل سافرا رأسَها ببطء، مبتسمةً، بعينين مغلقتين. وعادت إلى فتحهما وكانتا مبللتيْن ولامعتيْن جدا. كانتا لزاما عينين فاتنتين في الشباب، أو حين كانت تسافر مع أمها عبر فرنسا في ذلك القطار وكانت هي تنظر خفية وغبطة البرتقالة التي كان رَجُل القطار يقشرها بعناية كبيرة فوق منديل أبيض.

أخبرتني أنَّ أمها، عند نهاية حياتها، في غرفة المستشفى حيث كانت هي تمضي الليالي ترافقها، كانت تستيقظ أحيانا من كابوس وتطلب ألاَّ تغلق الباب بالمفتاح، وتستنشق الهواء بالفم مفتوحا، وتنظر إليها بالعينين واسعتين بسبب خوف لم يكن فقط خوف موتها الوشيك، وإنما لربما أيضا بكثير من القلق، قلق الموت الذي أفلتت هي وابنتها منه منذ خمس وأربعين سنةً.

عند انتهاء الأكل في اتحاد الكتَّاب، شُربتْ العديد من الكؤوس في صحة حماس أثيلي جدَّ حاد، لكني لا أذكر إن كان على شرفي أو أنهم قالوا ذلك بالدانماركية، ولم أصل إلى إدراك ذلك. الذكرى الأدق التي بقيت لي من تلك الرحلة إلى كوبنهاغن، بغض النظر عن تمثال كيرغارد كاره البشر، والمنديل الأندلسي في حانة بيبي، هي ذكرى سفر تلك المرأة المدعوة كاميل سافرا في الخريف المطير والحزين عند نهاية الحرب في أوروبا. تُحكى خلال الرحلات وتُسمَعُ حكايات أسفار. أينما حل الإنسان أو ارتحل فإنه سيحمل معه روايته، كان غالدوس يقول في فورتوناتا وخاثينتا. لكني أحيانا، وأنا أنظر إلى بعض المسافرين، الذين لا يتحدَّثون مع أحد، الذين يستمرون صامتين كتومين إلى جانبي في مقعدهم بالطائرة، أو يشربون قهوتهم في مقصف القطار، أو ينظرون بتركيز على الشاشة التي يُعرض عليها فيلم، وأتساءل أي حكايات يعرفون ولا يحكونها، أي روايات يحمل

كل امرئ معه، أي أسفار معيشة أو مسموعة أو متخيّلة يتـــذكرونها وهم يسافرون في صمت بجانبي، وقتا قليلا قبل أن يختفوا إلى الأبـــد من أمام ناظري، وجوه بالكاد تُتَذكّر، شأن وجهي بالنسبة إليهم، مثـــل وجه فرانز كافكا في القطار السريع لفيينا، أو وجـــه نيثيطـــو ألْكَـــلا ثمورا في حافلة تجوب البوادي الحزينة في شمال الأرجنتين.

من ينتظر

وأنتَ ماذا ستفعل لو علمت أنهم قد يـأتون فـي أي لحظـة يبحثون عنك، وأنّ اسمَك ربما موجود فـي لائحـة ميكانوغرافيـةَ لسجناء أو لموتى في المستقبل، لمُشتَبه فيهم، أو لخونـة. ربمـا الآن بالذات، يكون أحد ما قد علَّمَ خطًا بقلم الرصاص بجانبَ اسمك، قـامَ بالخطوة الأولى في إجراء سيقود إلى اعتقالك، وربما إلى موتـك، أو إلى الإجبار الفوري على النفي، أو يقتصر غايةَ الساعةَ علـى فقـد العمَل، إو إلى بعض الامتيازات الصغيرةَ التي لا يكلِّفكَ كثيرا البـدءُ في التخلي عنها. أُعلِم جوزيف ك. باتهامه، ولم يوقِفـهُ، لابـدَّ أنـه يُراقَب، أنتَ تعرف ذلك، أو على الأقل يلزَمُكَ أنْ تتخيّله، هل رأيـتَ ما يحدُثُ لآخرين قريبين جدا منك، جيران يختفون، أو كان عليهم أن يفرُّوا، أو الذين مكثوا كما لو لم يكنْ هنالك أيُّ خطر، كمـا لـو أن التهديد لم يكن يخصُّهم. هل سمعتَ ليْلا خطواتَ على السلَّم في الممَرّ الذي يقود إلى باب بيتك، وخشيتَ أن يكونوا قد جاءوا هذه المرةَ في طلبك، لكنهم توقَّفوا قبل الوصول، أو أن يكونـوا قـد مـرُّوا غيـر مكترثين، وأنهم قرعوا بابا آخر، وأن السيارة التي سـمعتَها تبتعـد

لاحقا قد أخَذتَ أحدا ما كانَ يمكنْ أن تكونَ أنتَ، وإنْ كنتَ تفضل أن لا تعتقد ذلك، وإنْ كنتَ قد حدَّثتَ نفسَكَ قائلا، راغبا لكــنْ عَبَثًــا أنْ تُسكِّنَ نفسَكَ أن ليس لديهم سببا لكيْ يعتقلوك، فــلا أنــتَ ولا أهلُــك مدرجين ضمن لائحةَ المحكوم عليهم، على الأقــل حتــى الآن. بِــمَ يمكنهم أنّ يتهموك، إنْ كنتَ لم تفعلْ شيئا، إنْ كنتَ لمْ يُشَرْ إليكَ أبدا. أبدا في أيِّ لحظة، لمْ يُتَّهَمْ جوزيف.ك بــشيء، باســتثناء أنْ يكــونَ متَّهما. تنتمي إلى الحزب منذ أن كُنْتَ شابًّا صــغيرا ومُعْجَــبٌ دون تَحفُّظ بالرفيق ستالين، الذي تحتفظ بصورته معلَّقة في مطبخ بيتــك. أنتَ يهودي، لكنْ من حيث الأصل فقط. فأبواك قد ربَّياكَ على الديانة المسيحية البروتستانيةَ، وعلى حب ألمانيا، وقد انخرطتَ متطوّعا في الصيف حين أُعلِنَت الحرب، لقد منحوك صليب الحديد مكافــأةً لــك على بسالتك في القتال، أنتَ لا تنتمي إلى أيِّ منظَّمــة يهوديــة، ولا تُحسُّ أقلَّ وُدٍّ حِيال الصهيونية، وإذن فبشكلٍ حميم، ونظرا لتربيتــك، ولِلغَتك، وحتى مظهَرك الجسدي، أنتَ ألماني لا غير.

من يرغبُ أو من بوسعه الذهاب هكذا من تلقــاء نفــسه، أن يقطع الصلة مع كل شيء، مع الحياة الدائمة، مــعَ روابــط القلــب وعادات حياة، منْ لا يضعف حين يفكِّر في أنه يقتــضي أن يُــضيِّع البيتَ، وكتُبَه، وكُرسيِّه الكبير المفضّل، والحياةَ العادية التي عرفهــا دوما، والتي لا تزال تتواصل على بالرغم من القرع على أبواب الجيران، أو الطلقة التي حصدت في لحظةٍ حياةً، أو الحجر الذي يُقْــذف بــه

زجاج محلّ الخياطة، أو محل بيع مأكولات ما وراء البحار الذي بالجوار، الذي في واجهته بدتْ مرسومةً في فظاظة ذات صباح نجمة داود وكلمة واحدة، تتضمَّنُ في قصرها أقصى درجة ممكنة من الإهانة: اليهودية. تمضي لتشتري من الدكان ذاته الذي اعتدت الشراء منه لكنك تجد أمامه مجموعة من الرجال يرتدون قمصان داكنة وأساور بها صليب معقوف، يرفعون لوحة كتِب عليها: من يشتري من اليهود يساعد المقاطعة الأجنبية ويحطِّم الصناعة الألمانية، وحينئذ تطئ رأسك، وتغيِّرُ الطريقَ، تدخُل إلى دكان قريب، يتملكك الخجل الداخلي، وفي آخر الأمر مقاطعةُ التجارة اليهودية لا تحدث سوى يوم السبت، على الأقل في البداية، في ربيع ١٩٣٣، وإذا التقيْتَ في اليوم التالي أو ذلك المساء مع صاحب الدُّكان المألوف، الذي يعلَمُ أنَّك لم تذهبْ إلى الشراء منه، فالمُحتمل أنْ تُبْعِدَ نظركَ أو تُغيِّر الرصيف عوض الاقتراب منه، وأنْ تُسلِّم عليه بضغط يدِه، أو حتى دون ذلك، أنْ تقول له كلمات قليلة عادية، وأن تظهر حركةَ دالة على الأخوة، ليست بالضرورة يهودية، وإنما إنسانية فقط، لكونكم جيران منذ زمن طويل. تَحدُثُ الأشياءُ شيئا فشيئا، تدريجيًّا، وتفضِّل في البداية أن تتخيَّل أنها ليست جد خطيرة، أنَّ الحياةَ الطبيعيَّة هي صلبة جدا درَجَةَ التمنُّع عن الانكسار بهذا اليُسْر الكبير، بحيث يجرَحُكَ أكثر من أيِّ شيءٍ العرَّافون والكارثيُّون، الذين يشيرون إلى اقتراب تهديد يغدو أكثر حقيقةً لأنهم

يصوغونه، وأنه ربما ستختفي إن تظاهروا بعدم لَمْح صُورِها. تنتظر، لا شيء تفعله. بالصبر والتصنع لن يكون صعبا انتظار أن تمُرَّ هذه الأزمنة. في ١٩٣٢، عندما سافرت ماريا تريسا ليون في مركبٍ عبر نهر الرّين، رأت آلاف الأعلام الصغيرة عليها صليب معقوف تنزل محمولةً بالتيار، ومُسمَّرةً في قلانس صغيرة. يوم الخميس الثلاثين من مارس ١٩٣٣، سجل الأستاذ "كليمبرير دي دْريسْدي" في مذكّراته اليومية أنه رأى في واجهة دُكَّان ألعاب كُرةً من مطاط للصّغار عليها صليب كبير معقوف. الآن لم يعد يمكنني التحرُّر من الإحساس بالضيق والخجل. ولا أحد يتحرَّك؛ كل العالَم يفزع ويتوارى. لكن الأستاذ كليمبرير لا يفكّر في ترك ألمانيا، على الأقل ليس الآن، فهو إلى أين سيمضي في مثل سنه، يناهز الستين، مع زوجته المريضة، الآن وقد اقتنيا قطعة أرض صغيرةً حيث يُخطّطان لبناء بيت. كثير من الناس شرعوا في حيوات جديدة بأمكنة أخرى ونحن ننتظر هنا، بأياد مقيَّدة. لكن من ذا الذي في رأيه السليم يمكن أن يُفكر بأن وضعيةً هكذا ستدوم مدَّةً طويلة، وأن كثيرا من البربرية والحيْف يمكنهما أن يتغلّبا في بلد متحضِّر، في عزِّ القرن العشرين. أكيد أن النازيين لن يستمرُّوا طويلا بما هم عليه من الوحشية والعته، سينتهي الشعبُ الألماني إلى رفضهم، وسيُنْكِر قَبولَهم المجتمعُ الدولي. بالإضافة، منْ يدريك أنه حين تعتقد أنك ستبتعد عن الخطر فإنك لا تكون تقترب منه في حالة من التنويم

المغناطيسي، كما لو كان هنالك مغناطيس في الفَخ الذي ينصبونه، رغبة متسلطة في أن يُمسكَ بك وهكذا ينتهي، مرَّة واحدة، قلق الانتظار. وحتى الهارب ليس بمعزل عن الأذى. في المكسيك القصيِّ، ببيت تحوّل إلى قلعة، تحميها مَراقب حراسة برجال مسلحين وأسلاك شائكة، وأسوار خرسانية، كان "ليون تروتسكي" ينتظر مبعوث ستالين الذي كان سيأتي لاغتياله، الذي سيعرف تفادي أبواب مصفحة وحرّاس، وسيخلو به وحيدا، ليطلق عليه رصاصةً في الرأس، أو سيغرز له في القفا فأسَ متسلِّق جبال مسنونةً مثل خنجر، وناجعةً كرصاصة. إنه الصيف، أغسطس من عام ١٩٤٠. في يوم السادس من يوليو، سجل الأستاذ السابق كليمبرير مأساوية في مفكّرته اليومية أنه منذ ذاك اليوم يُمنَعُ على اليهود الدخول إلى المنتزهات العامَّة. في مستهلّ يونيو، في فرنسا، يتوغّل ثلاثةُ رجال معا كانوا يفرُّون من تقدُّم الجيش الألماني في غابةٍ، في المساء البطيء الدافئ. أحدُهم، الكبير والأضخم، وربما أفضلهم لباسا، ظهر مشنوقا شهورا بعد ذلك، جثته منتفّخة مطروحة أرضا، شبه مخفي تحت أوراق الخريف. الغصن الذي تعلّق فيه أو علّق فيه انكسر بفعل ثقله، لكنه كان قد مات. ربما كان يحمل في جيب سترته قلمَ حبر. ذاك الرجل الذي كان ألمانيا، كان يفرُّ من الألمان، لكنْ أيضا من الذين كانوا في وقت آخر من أهاليه، الشيوعيُّون الذين أعلنوا أنه خائن وأصدروا مرسوما بقتله. الرجلان اللذان رافقاه في الأسر

واللذان فرَّا معه كانا عميلين سوفيتيين سافرا إلى فرنسا بهدف واحد هو العثور عليه وقتله. مهما اختفيْتَ بين الحشود الهاربة من الحرب أو خلف أسوار من الخرسانة المتوَّجة بزجاج مكسور وتشبيكات سلكية لن تكون بمأمن. ستفرُّ من وطنك، وستتحوَّل إلى شخص بلا وطن، وذات صباح حين تستيقظ في غرفة فندق للأجانب حيث تعيش في ظروف سيئة ستسمع مكبِّرات الصوت تصيح بأوامر بلُغتك وسترى عبر النافذة الأزياء نفسَها لمَنْ اعتقدْتَ أنكَ قد أفْلتَّ منهم بفضل الحدود والقانون. في عام ١٩٣٨، فَرَّ من النمسا اليهوديُّ "هانس مايوير" عبر بوثائق مزوَّرة أوروبا ذات التكهُّنات السوداء والحدود العَدائية، لاذ ببلجيكا، في أَمْبيرْس، وعامين بعد ذلك فقط، الأحذية ذات الرقاب نفسها، والدَرَّاجات النارية، والموسيقى الحربية التي اقتحمت فيينا، تدوِّي في شوارع هذه المدينة التي لم تتخلَّ فيها أبدا عن كونك أجنبيا، والتي ستصبح فيها منذ الآن ملاحقا. في سنة ١٩٤٣ وصل إليه الرجال ذوو المعاطف الجلدية والقبعات اللَّدنة الذين كان يَفِرُّ منهم منذ ١٩٣٨، وتحديدا منذ ليلة الخامس عشر من مارس، فورَ دخول "هتلر" إلى فيينا، رَكِبَ "هانس مايوير" القطار السريع الساعة الحادية عشر والربع باتجاه براغ: كان قد توقَّع بدقة مشهدَ اعتقاله، طيلةَ أعوام، حتى أنه حين حدوث الاعتقال تملَّكه شعور بأنه قد عاشَهُ. هنالك شيء واحد لم يتجرَّأ على تخيُّله ولا توقُّعه: من اعتقلوه، ومن استنطقوه بالأسئلة الأولى، ومن وجَّهوا إليه

الصفعات الأولى، لم تكن لهم وجوه جهاز الجستابو، ولا حتى وجـوه الشُرطة. لو كان لعضو من الجستابو وجه عادي، إذن لكان أي وجه ممكن أن يكون لأفراد الجستابو.

في موسكو، ليلةَ السابع والعشرين من أبريـل عـام ١٩٣٧، لاحظتْ "مارغريتى بوبر- نومان" أن أحد موظَفي جهاز المخابرات السوفيتِية الذين حضروا لاعتقال زوجها كان يرتدي منظارا مستديرا صغيرا دون إطار، مما كان يمنح وجهه الشاب مسحة مثقّف بـائس. لا يتعلّق الأمـر بانطبـاع عرَضـي أو إشـاعة: تحكـي "تَـاديزْدَا مَانديلستام"، التي عانتْ عن قرب اغتـصاب البـوليس الـسري، أنَّ رجال المخابرات الأكثر شبابا كانوا يتميَّزون بأذواقهم الحدثية، الأكثر رقّة، وميلِهم إلى الأدب. في الواحدة صباحا، دوى القرع على بـاب الغرفة، التي كانت بفنـدق لُـوكس، حيـث كـان يقـيم مُـستخدَمو الكُومنطيرْن وناشطوه الأجانب. وقد أقام بفندق لوكس سـنة ١٩٢٠ الأستاذ "فِرْنَانْدُو دِي لُوسْ رِيُوسْ"، المبعـوث مـن قِبَـلِ الحـزب الاشتراكي العمالي الإسباني بمهمة الاستعلام حول روسيا السوفيتية، كما كان هو يُسَمِّيها. تقابلَ مع "لينين" وفاجأه الشَبَه بينه وبـين "بِيُـو بارُوخا"، وأفزَعَهُ احتقارُه للحريّات ولحيوات عامة الناس.

بقلبٍ يخفق، كنا نركزُ اهتمامنا على صرير الأحذية التي كانت تقترب. وكما الأمر في كل ليلة، تظل مارغريطي غريطا مـستيقظة في العتمة، تنصت إلى الخطوات في الممرات، تنفزع في كـلّ مـرةّ

تُشعَل فيها أضواءُ السُّلم. لو اشتعلت الأضواء فجـأة بعـد منتـصف الليلِ، أضواء سلالم فندق لـوكس وممرّاتـه فـلأن رجـال جهـاز المخابرات السوفيتية يكونون قد وصلوا، ويجوبون الشوارع المعتمـة والخيالية بموسكو في عربات مصبوغة بالأسود والتي يطلقون عليها الغربان. لا يستعملون المصاعد قط، ربما لخوفهم من خطأ في نظام اشتغاله، أو انقطاعٍ في التيار الكهربائي، قد يسمح بفرار ضحية مـا. لكنّ الضحايا لم يكونوا يفرُّون أبدا، ولا يحاولون ذلك، كانوا يمكثون ساكنين، مشلولين في غُرفهم، في الحالة الطبيعية الأكثر قتامـة فـي حياتهم، وحين يحضرون في النهاية لأخذهم لا يبدون أية مقاومة، ولا يتشاكسون ولا يصرخون غيظا أو فزعا، ولم يكن لديهم سلاح مهيَّـأ يفتحون به النار حين تحلُّ الزيارة الليلية أو يطلقون رصاصةً علـى رؤوسهم منتحرين في اللحظة الأخيرة. منذ أعوام وهاينس نومـان، مُسيِّر الحزب الشيوعي الألماني يعْلَمُ أن اسمَه مُعلَّمٌ عليه، وأنه مُدرَج في لائحةَ المتّهَمين والخونة المحتَمَلين، ومع ذلك فقـد ذهـب مـع زوجته إلى الاتحاد السوفيتي بعد انتصار الاشـتراكية القوميـة فـي ألمانيا، ولم يحاولِ البحث عن ملاذ في أيِّ بلد آخـر، وعـاش فـي موسكو مُدرِكا كلَّ يومٍ، كما لو أنه كـان يُـضيِّق دائـرةَ الارتيـاب والعدائية جهته، كيف تخلَّى أصدقاءٌ قدامى عن الحديث معه، وكيـف أن رفاقا كان قد وثق فيهم شرعوا في الاختفاء واحدا تلو آخر، يبـدو أنهم كانوا خونة، متآمرين تروتـسكيين، أعـداء الـشعب. الآن لـم

يزرهما هو وزوجته في الغرفة بفندق لوكس أحدا، ولا همـــا أيـــضا زارا أحدا ما، لخوفهما من أن يُورِّطا آخـــرين، أن يُعْـــدِيا آخـــرين بمصيبتهما الوشيكة دوما، يوما بعد يوم وليلة تلو ليلة مرْجأة. إنْ رنَّ الهاتف يظلا ينظرات إليه دون التجرُّؤ على رفعه، وحين كانا يرفعان السماعة كانا يسمعان صوت "كليك"، ويَعْلَمـــان أنَّ أحـــدا مـــا كـــان يتجسس عليهما. في وقت ما كان يُغطِّيان فيـــه الهـــاتف بلحـــاف أو ملابسهما لأنه انتشرتْ شائعة بأنه حتى دون رفع ســـماعة الهـــاتف يمكن التنصُّت عبرها على ما يُتحدَّثان بشأنه داخل غرفة.

في صيف ١٩٣٢، نزل "هاينس نومـــان" وزوجتـــه ضـــيفين شخصيين على ستالين في مركز استجمام بحري بالبحر الأسود. ليلةَ السابع والعشرين من أبريـــل، صـــبيحة الثـــامن والعـــشرين منـــه سنة١٩٣٧، عندما دوى القرع على الباب، كانت عينا غريطا نومـــان مفتوحتيْن في العتمة، لكنَّ زوجها لم يستيقظ، حتى حين أشعلت هـــي الضوءَ ودخل الرجال. أحاط الرجال الثلاثة بالسرير وصرخ أحـــدهم باسمه، ربما أصغرهم سنا، صاحب المنظار بـــلا إطـــار، والتفـــت الملاءات حول هانس نومان وأدار وجهه للجـــدار، كأنـــه يـــرفض الاستيقاظ بكل ما أوتي من قوَّة روح. وحين فتح عينيه أخيرا، غمـــر ملامحه فزع شبه طفولي، ثم انقلب وجْهُه نحيلا رماديا. وبينما كـــان الرجال ذوو الزِّيِّ يفتشون الغرفة ويفحصون الكتب واحـــدا واحـــدا، كان هاينس وغريطا جالسين الواحد قبالة الآخر، وترتجف ركـــبهم.

سقطت ورقةٌ من كتاب وتأكد الحارس الذي التقطها من الأرض من أنها رسالة مبعوثة إلى هاينس نومان من قِبَل ستالين سنة ١٩٢٦. أمْر سيئ للغاية، نبَس الحارس، وهو يثنيها مجدَّدا. احتكت رُكْبَة الرجل والمرأة فيما بينهما في ارتعاش متطابق، كارتجافة لا تصل إلى الخمود. خارج الغرفة في ممرات الفندق، في الجهة الأخرى من النافذة شرِع في سماع ضجيج الناس الذين بدأوا يستيقظون، المدينة التي تستعيد حياتها قبل النور الأول للنهار. كان الفجر يتقدَّم وئيدا خلف الستائر.

يرَوْن أمامهم، سواء في نور الصباح أو حلكة الأرق، الفراغَ والدوار الناجمَ عن الخوف، ويفزعهما الإدراكُ المستمر بأنهما قد علِما، واختيرا، وأنه في أي لحظة يمكن أن يدوي قرع على الباب، أو يرنَّ جرس الهاتف، يمكن أن يقترب من خلفهما أحدٌ بينما يتمشّيان عبر الشارع، ويسحبهما إلى سيارة يدور محركها، أو يرميهما بالرصاص من الخلف، ومع ذلك فهما لا يفرّان، لا يفعلان أيَّ شيء، إنهما يلوذان بإيحاء معهود ليس سوى تمويه، على الأقل بالنسبة إليهما، لكنهما يتشبثان به كما يُتَشبَّث بأمل هشٍّ في الإنقاذ. في سنة ١٩٣٥ طُرِدَ الأستاذ "كيمبلير" من الجامعة، لكن تبقى له معاشٌ ضئيل، باعتباره من قدماء المحاربين. مازالت أمامه بعضُ سنوات قبل أن يمنعوه من قيادة السيارة، أو الحصولِ على مذياع أو هاتف، أو أن يذهب إلى السينما، أو تكون له حيوانات مؤنسة. كان الأستاذ

كليمبرير وزوجته الواهنة الصحة دوما، والمُعَرَّضة لألم الأعصاب والكآبة، تروقهما الأفلام كثيرا، خصوصا الغنائية منها.

لقد هُددا منْ قبْل، وهما يعرفان أنه يمكن أن يقعا سجينين أو ميّتين في أي لحظة، لكن في الشارع فإن نورُ الشمسِ هو نفسُهُ لسائر الأيام، هنالك سيَّارات تمُرُّ، محلات مفتوحة، جيرانٌ يتبادلون التحيَّة، أمَّهاتٌ يأخذنَ بأيديهنَّ أطفالَهن في الطريق إلى المدرسة، يقرفِصنْنَ ليرفعن لهم ياقة المعطف أو يلففنهم أفضل في الملْفَع وفي الطاقية قبل أنْ يتركنهم عند سياج المدخل. ذات يوم من أيام نوفبر ١٩٣٦، وصل الأستاذ كليمبرير، الذي كان يستغل وقت فراغه الاجباري للتقاعد لكي يكتب كتابا متبحِّرا عن الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر، وصل إلى مكتبة الجامعة وقالت له القَيِّمة عليها والتي كانت تخْدمُه كلَّ يوم طيلة أعوام كثيرة، إنها لم يَعُدْ مُرخَّصا لها أن تُعيرَه مزيدا من الكُتب، وأنه منذئذ ليس عليه أن يعود. أنتَ أُشيرَ إليكَ، لكنَّ الأشياءَ حولَك لم تعرف أيَّ تغيُّر يمكن أن يكونَ انعكاسا موضوعيا، التأكيد الخارجي لمصيبتك الوشيكة، لاتِّهامِك المتفرِّد، في قاعة المطالعة التي لا يمكنكَ الآنَ أن تدخلَها لا يزال الناسُ يتفحصون المجلَّدات المفتوحة، في هدى النور الناعم لمصابيح خفيضة بشاشات خضراء. تخرجُ إلى الشارع، وتعرف أن أيَّامك معدودة، وأن عليك أن تستغلَّها كي تفرَّ في الزمان الذي بقي لك حتى الآن، كي تحاول

ذلك على الأقل، لكن صاحب الكشك يبيعُكَ الصحيفة كباقي الأصباح، والحافلة تواصل التوقُف في دقة بعد كل دقائق قليلــة فــي الموقــف نفسه، وعندئذ تفكر أن الرقِية المؤذية داخلَكَ، يوجد شيء ما داخلــك، يصيّرُك مختلفا عن الآخرين، أكثرَ قابليةً للعطَب، أسوأ منهم، غيــر جدير بالحياة الطبيعية التي يستمتعون بها، والتي لديكَ أنتَ إشـــارات دقيقة لكن أيضا لا شكَّ فيها كي تعرف بأنهم قد استثنوكَ، وإنْ كنــت لا تجد تفسيرا للسّبب، وإن كنتَ تُصرُّ على الاعتقاد أن الأمر يتعلــق دون ريب بخطأ، بسوء تفاهم سيُرْفع فــي أوانـــه. فــي مـــايو مــن ١٩٤٠، اتُهم الأستاذ كليمبرير من قِبَل جار له، بسبب أنه لــم يُغلِــقْ نوافذه كما يجب خلال ساعات الليل لإطفاء الإنارة إجباريًّا: تَمَّ إيقافه، وسُجِنَ وحيدا في زنزانة، لكنهم أطلقو سراحه بعد أسبوع.

إن انتظار كارثة لا محيد عنها أسوأ من الكارثة نفــسها. فـــي الأول من سبتمبر من ١٩٣٦، "إفجينيا غينزبورغ" الأستاذةَ بجامعـــة "كازان"، المسيِّرةَ الحزبية، ناشرةَ مجلة الحزب، وزوجة عضو فـــي اللجنة المركزية، تلقّت النبأ بأنها ممنوعة من إلقاء دروس. هي امرأةٌ شابة، متحمّسة، أم لولَدين صغيرين، متابعة مولَهــة لجميــع وكـــل توجيهات الحزب، ومقتنعة بأن الوطن مليء بمخربين وجواسيس في خدمة الإمبريالية، وخونة من الإنصاف كشفُهم وعقابُهم بأكثر صـــور الحزم. كل يوم، في اجتماع خلايا اللجنة، في الصحف، في الراديـــو،

هناك أخبار عن اعتقالات جديدة، وكانت إفجينيا غينزبورغ تستغرب، أو يفقدها التركيزَ بعضٌ منها، لكنها تواصل اعتقادها في الحاجة إلى ذلك القمع.

وذات يوم، اكتشفت إفجينيا غينزبورغ أنها لم تكن بمنأى حقيقي عما يحدث، كما تصوَّرت، وأنها أيضا محطُّ شكٍّ: ليس شيئا جسيما، هذا ما بدا في بادئ الأمر، ولكنه يجرح الكبرياء، بل هو مؤسف، خطأ وسينتهي إلى الحل، ذلك أنه مما لا يُمكن التفكير فيه أنْ يتَّهمَ الحزبُ شخصا بريئا، وهي، إفجينيا غينزبورغ، لم تجد في ذاتها أقلَّ شيء يمكنُ أن يُثيرَ أقل ارتياب، أو وَهَن في عقيدتها الثورية. تعتقدين أنَّكِ تعرفين من أنتِ ويحدث فجأةً أنَّك تصيرين إلى ما يرغبُ الآخرون في رؤيته فيك، وشيئا فشيئا تشرعين في التحوُّل إلى شخص أكثر غرابةً عن ذاتكِ نفسِها، ويغدو ظلُّكِ الخاصُ الجاسوسَ الذي يتَّبع خطواتك، وترينَ في عينيك نظرةَ من يتَّهمونَك، الذين يغيِّرون الرصيفَ كي لا يُحيُّوك ويرمقونَك شزرًا برأس مُطأطئ ساعة اللقاء بك. لكنَّ الحياةَ تتأخَّر في التغيُّر، وفي البداية ترفض الواحد أن ترى علاماتِ الإنذار، وأن تضعَ موضعَ الشكِّ النظامَ وتماسُكَ العالَم الذي مع ذلك قد شرع في التحلُّل، الواقع اليومي الذي بدأت تنفتح فيه تجاويف هائلة وحُفَرُ عتَمات، في وضح النهار، في فضاءات الحياة المألوفة، في الباب التي يمكن أن يدوِّي عليه في

أي وقت قرع، طاولة الطعام حيث يتناول الصغيران بعض الطعام أو ينجزان فروضهما المدرسية، وحيث شرع الهاتف يحتلُ حضورا مُغيظا مزعجا، لأنَّ أي رنَّةَ ستعبر الهواء مثل حدّ بارد للسيف، مع الآنية المُهلكة لطلقة رصاصة.

كانت إفجينيا غينزبورغ تُستَدعى في أوقات غير مناسبة لاجتماعات كانت تنتهي إلى تحقيقات، أَمَّحوا لها إلى أنه من المحتمل أنْ تُعاقَب، لأنها ذات مرة تعاملت في الجامعة أو الحزب مع شخص اتهم فيما بعد بالخيانة، أو لأنها لم تُبلِّغ عن شخص بالحَذَر الثوري الملائم. ينتهي الاجتماع، أو الاستجواب، ويتركونها تعود إلى بيتها، وإذا كان هنالك أشخاص شرعوا يتظاهرون أنهم لا يرونها، أو يتجنَّبونها حين تقترب منهم، فهناك آخرون يهدِّئونها، ويمنحونها عزاء، يقولون لها أنه من المؤكد لن يكون شيئا ذا بال، وأنها سترى في الختام أن كلَّ شيء يُحَلُّ، امرأة واحدة فقط هي التي حذَّرتْها ممَّا سيحدُث لها، ومن الخطر الذي يترصَّدُها، إنها حماتها، امرأةٌ بدويةَ عجوز ربما أمّية، تُحرّك رأسَها في استسلام وتتذكَّر أن هذه الأشياء كانت تَحْدُث في أزمنة القياصرة. إفجينيا، إنهم ينصبون لك شَركًا، ومن الضروري أن تفرّي طالما في وسعك ذلك قبل أن يفصلوا رأسَك عن جسدك. لكن كيف لي أنا، أنا الشيوعية، أن أتوارى عن حزبي، عليَّ أن أبرهن للحزب أنني بريئة. تتحدثان بصوتٍ خفيض

محاولتين ألا يسمع الطفلان شيئا، خائفتين من أن تكون سماعة الهاتف، وهي موضوعة، يمكن من خلالها التجسّس على حواراتهما. يوم السابع من فبراير استُدعِيتْ إفجينيا غينزبورغ إلى اجتماع جديد، ومرّ في ظروف أقلّ إزعاجا من المرات السابقة، وفي النهاية وقف الرفيقَ الذي استجوبها راسما ابتسامةً وهي ظنّت أنه سيشدُّ على يدها، ربما ليقول لها إنه شيئا فشيئا شرع سوء التفاهم والشكوك في الزوال، لكن الرجل طلب منها بنبرة شبه سوقيّة، كأنه يذكّرها بتفصيل بيروقراطي صغير كان على وشك أن ينساه، أن تتْرك له بطاقة عضويتها في الحزب. هي لم تفهم في البدء، أو لم تستطع أن تصدّق ما سمعته، نظرتْ إلى الرفيقَ واختفتْ البسمةُ من وجهه الجاد، وحينئذ فتحتْ حافظة أوراقها أو حقيبتها اليدوية، وبحثت عن البطاقة التي تحملها معها دوما، وحين سلمتها أخذها الآخر دون أن ينظرَ فيها، واحتفظ بها في درج بمكتبه.

انتظرت إفجينيا غينزبورغ طيلة ثمانية أيام. مكثت في منزلها، أغلقتْ عليها غرفتها، لم تردّ على الهاتف، مدركةً في كسل ما يحدث حولها، اقتراب ولديها منها، اللذيْن يتحركان في حذر كما لو كان في بيت مريض، حضور زوجها الذي يدخل ويخرج مثل ظل، الذي حين يعود إلى البيت يدق الباب بلطف كبير ويقول بصوت خفيض: افتحوا، هذا أنا. لأنهم الآن يشكُّون في أن براءة المرء يمكن أن تكفي

كي تنقذه، يحرقون أوراقا وكتبا، رسائل قديمة، كل ورقة بخط اليد أو مطبوعة يمكن أن تجلب الانتباه في سجل. في الليل يظلوا متيقظين، صامتيْن، وساكنين في العتمة، يرتجفون في كل مرة يسمعون فيها دراجةً نارية تقترب عبر المدينة الهادئة، أو أنْ تتغلغل أضواء مصابيح سيارة عبر النافذة فتتسلط على جدران الغرفة. يستمرُ الفزع منذ أنْ يبدأ سماع محرّك الدراجة النارية من بعيد إلى أن يخمد ويضيع عند نهاية الشارع. في كازان، كما في موسكو، السيارات الوحيدة التي تجول في تلك الساعات هي العربات السوداء لجهاز المخابرات السوفيتية. روسيا كبيرة جدا، اركبي يا إفجينيا قطارا واذهبي للاختفاء في قريتنا، فبيتنا الذي في البادية خال، بنوافذ مقفلة وفيه بستان أشجار تفاح.

كانوا ينتظرونهم ليلة تلو ليلة، يتخيلون المحرّك الذي يتوقف أمام البيت والقرع على الباب، لكنْ حدث نهارا، في صباح يوم الخامس عشر من فبراير، ولم يطرقوا الباب، وإنما عبر الهاتف. كيف ستعتقدين أن الحياة اليومية التي تعشقينها وتعرفينها، والتي صُنعت من تكرار وتفاهمات كبيرة يمكن أن تنتهي فجأة وإلى الأبد، أن هذا الصباح ببرده وضوء الثلج الذي يشبه صباحات كثيرة سيكون الأخير. كانت إفجينيا تكوي وكان ابنها يتناول فطوره في فنجان كبير فوق مائدة المطبخ. وخرجت الفتاة للتزحلق. رنّ جرس الهاتف، في البدء

بقيت هي وزوجها يرمقانه دون حركة، ودون أن يتبادلا النظرات. لكنها يمكن أن تكون مكالمةً عادية، ربما من المدرسة، ربما سقطت البنت وهي تتزحلق، ومعلمتها تطلب ليذهب أحد لأخذها، وأنَّ لا شيء خطير. وبعد رنّات عديدة اقترب الزوج من الهاتف، رفع السماعة بقوة، أماء بالموافقة برأسه بينما كان يُقال له شيء.

إفجينيا، قال، راغبًا عبثًا في أنْ يبدوَ صوته طبيعيا، إنهم يسألون عنكِ. ربما كان الطفل يغمس قطعة خبز في الحليب، ولم يرفعْ رأسه. أيتها الرفيقة، قال صوت شاب ومحترم في الهاتف، هل لديكِ بعض الوقتّ طيلة اليوم كي تَمُرِّي بإدارتنا؟

إفجينيا غينزبورغ لفّت الطّفل جيّدا وبعثتْ به ليتزحلق مع أخته. ألبسته الطاقية جيدا، وغطت له نصف وجهه بالكوفيةَ، وخرجت معه إلى الباب وقالت له وداعا باليد بينما كان يبتعد عبر الشارع الثلجي ولم تره من بعدها قط. لكنْ لا أحد جاء يبحث عنها، لم يصوب تجاهها مسدس، لم تكبل بالأصفاد في اليدين ولم يُغلَق عليها في عربة سوداء، كان في استطاعتها أن تخرج مثل أي صباح وتمشي باتجاه المحطّة، كان يمكن أن تختلط بالحشود التي تهاجم الأرصفة حين يقترب قطار ويصعدون إليه، ربما لا أحد سيُحقّق في وجهها. ليس عندي ما أفعله، قلتُ للرجل المهذب في الهاتف، سأحضر فورا. رغبت في أن تذهب بمفردها، لكن زوجها ألحَّ على

أن يرافقها. خرجا، وحين سمعتْ خلفها الضجيج المألوف لغلق الباب، فكَّرتْ بجدية وبُعْد نظر أنها لن تعود إلى سماعه أبدا، وأنها لن تعود إلى عبور عتبة ذلك الباب مطلقا. مشيا في صمت فوق الثلج الذي لم يطؤه أحد، والذي يشع بياضا في صباح فبراير الرمادي. لم يتعانقا عند افتراقهما بمدخل البناية حيث كانوا ينتَظرونها: أن يودعا بعضهما كان اعترافا بوهدة الفراق التي انفتحتِ الآن بينهما. قال زوجها: ستَرين كيف أنَّك ستكونين ساعةَ الغذاء قد عُدتِ إلى البيت. أماءت هي بإشارة من رأسها، ودفعت الباب. وحين كانت تهم بالدخول التفتتْ نحوه، ورأته ثابتا دون حركة فوق الثلج، وسط الشارع، بفم مفتوح وعينين تدلان على الفزع. طيلة أعوام، في زنزانات العقاب، في مقطورات تفوح نتانة بقطارات لا تصل أبدا إلى وجهتها، في أكواخ كبيرة شديدة البرودة، في قفار من الثلج، في هلاوس الحمى والجوع، في الإنهاكِ مثل حيوان بِعَمَل، في الغروب الأبدي للدائرة القطبية، واصلتْ إفجينيا غينزبورغ رؤيةَ ذلك الوجه، الحركة التي لم تكن لتفاجئَها لو لمْ تَستدر للمرة الأخيرة قبل أنْ تدفع بابا إلى الناحية الأخرى حيث كان هنالك ضجيج دال على انهماك في العمَل، خطوات وأصوات، آلات كاتبة، حُزم المفاتيح.

ثلاثة أسابيع بعد ذلك، يوم الثامن من مارس ١٩٣٧، "رفائيل ألبرتي" و"ماريا تيريسا ليوُن"، اللذان كانا في سفر إلى موسكو،

استقبلهما ستالين في مكتب كبير بالكرملين. ماريا تريسا ليون تتذكّره أحدبا مبتسما. كانت أسنانه قصيرة، كأنها مُطبقــة علـــى الغليــون. تحدَّثوا عن حــرب إســبانيا، وعــن المــساعدة الــسوفيتية، وعــن الجمهورية. على أحد الحوائط، كانت هنالك خارطة كبيرة لإســبانيا بدبابيس وأعلام صغيرة تشير إلى مواقع الجيوش. وعلـــى الآخــر، خارطة لمدينة مدريد. سأل ستالين ماريا تريسا ليون إن كان يزعجها أن يُشعل غليونه. تحدَّث معهما لأكثر من ساعتين، ووعدهما بتــوفيْر أسلحة، وطائرات، ومدرّبين عسكريِّين. كان يبتسم لنا مثلمــا يبتــسم للصّغار الذين يلزم تشجيعُهم. أعوام كثيرة بعد ذلــك، وبعيــدا عــن إسبانيا، غريبين في طول أيام المنفى وسعته، كانت ماريا تريسا ليون تتذكر ستالين بنوع من الحُنُــوّ البعيــد. لقــد بــدا نحيفــا حزينــا، يسحقهابشيء ما، بمصيره ربما.

سيأتون في طلبك، لكنْ لا تعرف متى، وهنالــك احتمــال أن ينسوك، أو أن يكونوا يفضّلون إطالةَ انتظــارِك، أن يُغــذُّوا عــذابَ ارتيابك. يسحقه بشيء ما. حين بدأ ترحيلُ اليهود في دريسدِن أحس الأستاذ كليمبرير أنه بمنأى مؤقّتا لأنه كان متزوِّجا من امرأة آريَّــة. حتى الآن أنا لا أزال في مأمن. جدُّ آمن كما يمكن أن يكون امرؤ في مشنقة بحبل حول عنقه. يمكن في أي يوم لقانون جديــد أن يحطــم بركلة واحدة الأدراج التي أقف عليها برجليَّ وحينئذ سأصبح معلّقــا.

لقد جاءوا في طلب غريطا بوبر- نومان يوم التاسع عشر من يونيو ١٩٣٨، لكن حين أطلعوها على أمر اعتقالها لا حظت أنها كانت مسجّلة منذ تسعة أشهر خلت، في أكتوبر ١٩٣٧. كانت قد ضاعت أوراقها بين الأوراقِ وسط بيروقراطية المحققين والقتلة المغلوطة، المثقفين الذين يرتدون المناظير المستديرة ذوو الأفكار اللطيفة حول الأدب وحول ضرورةَ المطالبة بالثورة عبر الدَّم؛ أو ربما احتفظ أحدٌ ما بأمر اعتقالها في صندوق قصْدًا، وفحصه يوما بعد الآخر على طاولة مكتبه، كما لو أنه مخطوط نفيس، في إدارة تعج بضجيج آلات الكتابة، وأبواب ثقيلة، وأقفال، قرَّر أحدٌ ما أن يطيل ليلَ ونهار توسلات المرأةَ الألمانيةَ التي تنتقل من سجن إلى سجن في موسكو باحثةً عَبَثًا عن أخبار زوجها لمدة تزيد عن العام، والتي في غرفتها الصغيرة الباردة كانت لديها دوما حقيبة مُعدَّة بأشياء قليلة ضرورية حتى يحين وقت اعتقالها والرحلة إلى سيبيريا. أبدا لم تصل إلى معرفة كيف ومتى مات هاينس نومان. بلفافة أكل تحت إبطها ورسالة كانت تمضي عبر موسكو وسَطَ ضجيج الاستعدادات لإحياء "الأول من مايو"، كانت تبتعد من الحشود كما لو كان بها طاعون أو جُذَرِي، امرأةٌ أجنبية لا تتكلَّم الروسية جيِّدا، ولا يُمكنها أن تثق في أحد، لأن رفاقَها القدماء إمَّا معتقلون أو ماتوا، أو يولونها الظهر، هي تمضي بين الحشود دون أن ترغبَ في رؤية الأعلام الحمراء ولا

الملصقات المعلّقة في الشوارع، ولا سماع الموسيقى التي تدوّي في مكبرات الصوت، لحنَ البطولة لسيمفونية عايدة، تذكّرت في أعوام لاحقة، موسيقى فالس شتروس. في الثلاثين من أبريل ١٩٣٧، تمشي غريطا بوبر- نومان نحو سجن لوبيانكا راغبة في التأكد من المكان الذي انتهى إليه زوجها، الذي اعتقل منذ ثلاثة أيام، وفي كل مكان كانت ترى صورا لستالين، في الواجهات الجانبية للمحلات التجارية، واجهات البيوت، على أبواب دور السينما، ترى صورا مُحاطة بأكاليل زهور أو أعلام حمراء بمناجل ومطارق. حين مرّت بجانب مجموعة من الأشخاص الذين توقّفوا، رأت كيف أن عُمالا يرفعون ببَكرات وحبال صورةً هائلةً لستالين تُغطي واجهة بناية بكاملها أشاحت غريطا وجهها، واحتضنت جيّدا اللفافة التي بها الأكل والملابس التي لا تعرف إنْ كان سيسنح لها تسليمها له. لو كان بالإمكان على الأقل ألاّ أرى ذلك الوجه. في ساحة الأوبرا الكبرى نُصِب، قبل قليل، تمثال لستالين يفوق عشرة أمتار نُقِش في الخشب، تحيط به قاعدة من الأعلام الحمراء. ستالين يمشي بحيوية يرتدي قبّعةَ جنديٍّ ومعطفه. ماذا كنتِ ستفعلين لو كنت مكان تلك المرأة الضائعة في مدينة شاسعة غريبة عدائية، لو كانوا قد سحبوا منكِ جواز سفركِ ووثيقة الهوية المؤقتة التي تؤكّد أنك موظفة في الكومِنتيرْن، لو كانوا قد طردوكِ من العمل، وكانوا على وشك أن

يطردوك من الغرفة التي تقاسمتها وزوجَك، والتي لم تنظّمي فيها بعد أيَّ شيء، بعد التفتيش، لم ترتبي السرير الذي لم تنامي عليه ولو دقيقة واحدة خلال ليلتك الأخيرة معه ولا أخذت من الأرض الكتُب التي رُميت وداسوها، وبر السرير الذي بقَروه بسكاكين خبيرة بحثا عن وثائق مخفية، عن أسلحة، عن أدلة. تنتظرين في الغرفة، تجلسين على السرير الذي في فوضى، تصغي إلى خطوات في ممر الفندق، تنظرين كيف أن نورُ المساء الرمادي يميل مباشرة ناحية العتمة، تعلمين أنهم سيأتون في طلَبك، وتتمنيْن أن يأتوا في القريب العاجل، وها أنت لديك الحقيبة مُعَدَّة أو الكيس الذي ستحملينه معك، لكن أياما تمرُّ، أسابيع، شهور، ولا شيء يحدث، فقط أنَّك صرت غير مرئيَّة، لا أحد ينظر في عينيكِ حين يلتقيك، تَلْزَمين الصَّفَّ في مراكز الشرطة والسجون إلى جانب أقارب معتقَلين آخرين، وحين يصل الدَّورْ إليك أحيانا يكون الوقتُ قد تأخَّر ويغلقون في فظاظة النافذة في وجهك، أو لا يُجيبونَك إنْ كان زوجِك مسجونا هنالك أم لا، أو يتظاهرون أنهم لا يفهمون الكلمات التي تقولينها بالروسيةَ، والتي هيَّأتِها بدقة متناهية، مكرِّرَةً إيَّاها بينما كنت تمضين عبر الشارع مثل تلك النساء الحمقاوات اللواتي يتكلَّمْن وحدهن. تَعْلَمْ "ميلينا جيسينسْكا" أنه مذ أن دخل الألمان إلى براغ فإنه آجلا أو عاجلا سيأتون في طلبها، لكنها لم تفعل شيئا، لم تختبئ، لم تتوقف عن الكتابة في

الصحف، أخذَتْ بعض الاحتياطات لاغير، لقد أرسلتْ ابنتها ذات العاشرة لتقضي فترة مع الأصدقاء، وطلبتْ من شخص تثق فيه ثقة متناهيةَ، الكاتب "ويِلي هَاس"، أن يحتفظَ لها برسائل فرانز كافكا.

في حديقة عمومية بعيدة، يتم الوصول إليها بعد رحلة طويلة في الترام، تقع تقريبا في ضواحي موسكو، تواعدت غريطا بوبر-نومان مع صديق قديم، شديد الخوف مثلها، لكنه لايزال مخلصا حتى الآن. أنتِ هي تلك المرأة التي تقفز من الترام أثناء تحركه، وتستدير للتأكُد من أن لا أحد يتعقًبها، وتركب ترلم أخرى، وحين تنزلين منها تقومين بالتفاف طويل كي تصلي مع شبه ضوء المساء إلى حديقة في الضاحية القصية. سيكون هنالك أناس يتجولّون، رجال مسنون بعكاكيز، ومعاطف، وقلانس من جلد، آباء يسوقون في أيديهم أطفالا مُبَطًنين بملافع ومعاطف. غريطا وصديقها يشاهدان بعضهما من بعيد، لكنهما حتى الآن لا يمضي أيٍّ منهما جهةَ الآخر، أوّلا يتأكدان أن لا أحد يتْبَعُهما. يقول هو، أليس هناك طريقة للإفلات، من الضروري أن نتركهم يذبحوننا مثل الأرانب، كيف أمككنا أن نقبل كلَّ هذا خلال أعوام كثير دون أن نشكَّ فيه، دون أن نفتح عينينا؟ الآن علينا أن ندفع ثمن تصديقنا الأعمى لهم.

في المرة اللاحقة لا يأتِ الرجلُ إلى الموعد. انتظرت غريطا إلى أن دخل الليلْ وبعد ذلك عادتْ إلى غرفتها دون أن تنشغل بالتأكُد

من أنهم لا يتبعونها. تتخيّل في كآبة، ربما في غبطة، أن صديقها قد تمكّن من الفرار.

أخيرا، دوى، في إحدى ليالي يناير ١٩٣٨، القرع على الباب. لكنهم لم يأتوا لكي يحملوها هي، بل فقط لكي يُصادروا آخر ممتلكات المرتد هاينس نومان. أخذ البوليس، بالزيّ الرسمي، الكُتُب القليلة التي لم تبعها غريطا بخسارة كي توفِّر لنفسها القوت. وحذاءيْن قديمين لزوجها، وحين هموا بالرحيل سلّموها وصلا. حكى لها أحدُهم أن الرجلَ الذي كانت تتواعد معه في الحديقة قد اعتُقِلَ حين حاول الصعود إلى قطار كان يتجه إلى كْرِيميًا.

حضروا ذات صباح مبكِّرين، يوم التاسع عشر يوليو، وحين تأكّدتْ أنهم قد جاؤوا هذه المرة حقيقة في طلبها، لم تشعرْ غريطا بأي ارتباك. وإنما بالتفريج عن النفس.

في الكرسي الخلفي لعربة صغيرة سوداء قادوها إلى لوبيانكا، جلست بين رجليْن بزيٍّ أزرق سماوي، لم يكونا ينظران إليها ولا يوجهان إليها كلمة. هذه المرة لم ترتعش ركبتاها، وعند قدميها كانت تمضي معها الحقيبة التي كانت قد أعدَّتها منذ زمن طويل، تتذكّر الشيء الأخير الذي كانت قد رأته في شارع بموسكو قبل أن تعبر العربة أبواب السجن: ساعة مضيئة، بها وهج خافت يميل لحمرة الفجر. في يوم الثاني عشر من يوليو، يتذكّر الأستاذ كليمبرير في

مفكّرته اليومية بعض الأصدقاء الذين رحلوا عن ألمانيا، الذين عثروا على عمل في الولايات المتحدة الأمريكية أو إنجلترا. لكنْ كيف الرحيل ولا شيء لديهما، هو رجل عجوز، وزوجته امرأة مريضة، ولا يعرفان اللغات الأجنبية، بلا أية مهارة عمليّة، كيف يتخلّى عن البيت الذي بنياه أخيرا بمجهود كبير، الحديقة التي حوّلتها إيفا إلى بستان. نحن بقينا هنا، في الخزي والأزمة، كأننا مدفونان ونحن حيّان، مدفونان حتى العنق، ننتظر يومًا بعد يوم آخر ضربات مجارف الدفن.

صموت جدا

استيقظتُ متجمدا من شدة البرد، ولستُ أدري أين أنا ولا حتى من أكون. خلال ثوان كنتُ ومضة من الوعي الخالص، دون هويةَ، دون زمان، مجرَّد الاستيقاظ والإحساس بالبرد، العتمة التي أرقد فيها ملفوفا على نفسي، أتدثّر بدفء جسدي، على جنبي، اليدان بين الرِّجلين والركبتان ملتصقتان بالصدر، القدمان باردتان على الرغم من الحذاءين الطويلين والجوارب القطنية، رؤوس الأصابع جامدة، المفاصل جد منمَّلة حتى إنني إنْ حاولت التحرُّك فلربما لا أستطيع.

هنالك شيء أكثر من البرد، بردٌ وعتمةٌ كعمق بئر، كرائحة حجَرٍ رطْب وترابٍ بارد ومقلوب. رائحةُ رَوث أيضا، روث ممزوج بالوحل، محيطٌ من الوَحل والروث حيث تغوص الأحذيةَ العسكريةَ، حوافرُ الخيالة، العجلاتُ والدواليب المسنَّنة لآلات الحرب. ما أيقظني هو إحساسٌ بالخطر، انعكاسٌ لمُنبِّه جبار بدَّد في لحظة كلَّ ثقل النُّعاس. أسرع من الوعي الذي كان لا يزال ذَهِلا امتدَّت اليدُ اليمنى تحت اللحاف للبحث عن المسدس. القفاز الصوف الإسبانيّ، الكُمُّ المتين للسُّترة الحربية الرمادية، لطخات الوَحل اليابس، ملمس المعطف الذي يصلح وسادة والفراش الذي من قشٍّ مبلل الذي كنت

أنائم عليه: كل شيء لمحةٌ مضافة إلى هويتي، إلى شخصي، مع ذلك أراقبه من الخارج. شخص ما يجس بيده بين الثياب الخشنة بحثا عن معدن مسدس نوع لوغِرْ. لكنَّ الذراع بكاملها لها وزن الرصاص، مازالت للآن مشلولةً بسبب النوم والبرد، ولحظةً من الحذر الآلي أنذرتني أنه لا ينبغي أن أُحدِث أيَّ ضجيج. أوقفتُ التنفُس رغبة في سماع شيء ما، همهمة أو احتكاك يمكنه أن يقطع الصمت. أُحِبُّ أن أتحلَّل في الظلمة، أن أمكث فيها بلا حركة كتلك الحشرات التي تمتزج بقذى عشب أو ورقة يابسة أثناء بحثها عن الإفلات.

الخطرُ هو ما ذكَّره مَنْ يكون وأين يوجد. الخطر وليس الخوف. لا يشعر بالخوف أبدا، بالدرجة ذاتها الذي لا يتذكَّر أنه أحسَّ بالحسد. يشعر بالبرد ويشعر بالجوع، إنهاك المسيرات العنيفة، فقدان الأمل من الوجود، في حال الغَرق دوما في وَحَل بلا ضفاف، منذ أنْ حلَّتِ الأمطارُ مع بدايات الخريف، في بحر من الطَّمي والرَّوث حيث يغرقَ الجميع؛ رجال وحيوانات وآلات، الموتى والأحياء.

منذ ثانية بالكاد كان شيئا أكثر من شرارة إنذار في الفراغ الهائل للعتمة، مجهولا مثل وهج سيجارة تلمع لحظة واحدة في الناحية الأخرى من الوحل والأرض الحرام، في العدَم الشاسع للسهل المغمور وحلا، إذ في أسابيع قليلة سيكون قد تحوّل إلى قفر أفقي من الثلج. يُفسِّر أستاذ الأدب وهو يمر من ناحية لأخرى فوق المنصة المغبَّرَةِ بالطباشير، والتي تُصدر رنين فراغ تحت قدميه. يضع على

عينيه منظارا دائريا، ويرتدي حلة ليست مغسولة، ويضع فـــي فمـــه عقب سيجارة يرتشف منها رشفات قصيرة بينما يتكلم بـــشغف عـــن "خورخي مانريكي" ويستظهر عن ظهر قلب أبياتـــا مـــسترسلة مـــن قصائده. لا يعرف أنه في غضون أشهر قليلة سيُرمى بالرَّصـــاص، غامزا بعينيه فاقدتي البصر وبلا منظار أمام كشافات شاحنة. تـــذكّر الروحَ النائمة، فكِّر في طالبَهُ الأثيرَ في معهد "كاردِنال ثِيـــسْنيرُوس" بمدريد. أحْيِ المُخَّ واستَيقظْ. تذكَّرَ فجأة، ينغمر في دخيلته كما لو كان قد دخل غرفةً على غير هدى ثم بدأتْ فيها الأشياء تتـــضح رويـــدا رويدا، محيط الأثاث والنوافذ. غريزتُه الحيوانية جعلتْهُ يتـــذكَّر، الآن والحواسُ منتبهة، أيقظه الضجيجُ. ضجيج وجيز، له صوتَ معـــدني، سوقيٌّ بالنسبة إلى من لا يعرفه بيد أنه لا يمكن الغلط فيه، الاحتكـــاك ببندقية، اصطدامه بشيء، بثوب من يحملُه على كتفه. يرفـــع رأســـه قليلا ويرى خطَّ نورٍ أسفلَ الباب، في فجوات الألواح سيئة الإلـــصاق التي تفصل الإسطبل الذي ينام فيه وغرفة الكوخ الرئيسة. ربما لـــو أقام بها، كما قال له ضابط الإيواء الألماني، فسيكون أقْربَ إلى النار، ولن يكون عليه أن يتحمّل نتانة الرَّوث. حين وصل في الليلة الأولى كانت المرأة الروسية وابنُها قد انسحبا إلى الإســـطبل، أو بـــالأحرى اختفيا فيه، تاركين له السريرَ الوحيد. كان الاثنـــان متعـــانقين، الأم والابن كأنهما مصبوبين في كومةٍ واحدة من الأسمال، زوج عينـــين فزعَتين وتلمعان في ضوء مصباحِه اليدوي. قال لهما بالألمانيـــة أن

يخرُجا، وأن لا خوف عليهما، وبالإشارات أفهمهما أنه لا يرغب في النوم في السرير، وطلب منهما أن يناما عليه هما الاثنان. رفضت المرأة بإيماءة من رأسها، كانت تنبس بالروسية، وتحضن ابنها، تأرجح الاثنان إلى الخلف وإلى الأمام. كان شعر الابن أشقر ومتفرّق كما للشخص الأقرع، وجنتاه غارقتان وعلى بشرته شبه الشفيفة هالات زرقاء كبيرة.

لكن الضوء الذي يتسرَّب من الجهة الأخرى للباب ليس ضوء النار، ولا لشمعة. إنه لمصباح يدوي، ينطفئ ويشتعل، هو يستطيع أن يسمع أبسط حركة "كليك" لقاطع التيار. أن شخصا يحرّكه في حذر، ليس المرأة، لأنه على يقين أن المرأة ليس لديها مصباح. ولا شمعة لدرجة أنه أحضر لها مطرقةَ خشب من مخزن القيادة، ولا أعواد ثقاب لإشعال النار، لم يكن لديها أي شيء في الكوخ الذي هو من جذوع الشجر والسقف من قش، ضائعةً وسط الوحَل وفوضى طُرُق الجبهة، لم تَمسَّها الكارثة، ليس هناك سوى سرير حديديٍّ كبير وصل إلى هنالك، ولا يدري أحد أي مصادفةَ أتت به، السرير الذي أبى هو أن يرقَد فيه الرغم من تعليمات ضابط الإيواء.

هنالك أصواتٌ في الغرفة، بالكاد همسات، لكنها ليست أصوات رجال، ليست للمرأة ولا الطفل. خطوات كذلك: خطوات أحذية، أكثر من أنه يسمعها يُدرِكُ ارتدادها على الأرض المستلقي عليها. عاد المصباح اليدوي إلى الاشتعال، مرَّةَ أخرى يَسمَع صوت

بندقية تصطدم باللباس أو أحزمة شخص ما، وبالتحديد صوت الحلقة التي ترفع حزامَ المقبَض. المصباح يضاء في الناحية الموجود هو بها، وعلى الخيشة والملاءات واللحاف انعكست خطوط من الضوء انبعثت من خلف ألواح الباب. بيد أن جسما مظلما حال دون انعكاس الضوء، جسما كان يحتك بألواح الباب. إنها المرأة، إنه متأكد، يميز صوتها وإن كانت تتحدث بصوت خفيض، تكرّر إحدى العبارات الروسية القليلة التي تعلّمها. " لا[1]".

الآن يعرف، يتنبأ، لكنه لا يزال يحس بالخوف. مقاتلون روس. إنهم يقومون بعمليات خلف خطوطنا، يخرّبون منشآت، يغتالون متعاونين معروفين مع الألمان ويعلّقونهم في أعمدة التلغراف. ينصبون كمائن ليلا، وفي النهار لا يبقى لهم أثرٌ، باستثناء جثة مشنوق أو مخنوق في صمت. لا يهربون، يختفون في العتمة، يتلاشون في الشسوع اللانهائية للسّهول والغابات، في الفضاء الذي ليس بوسع أي جيش أن يطوّقه أو يغزوه.

يفكر في لامبالاة، بينما يحاول أن تستجيب له أصابع يده اليمنى المخدَّرة، وتعثر على المسدَّس: إنهم يحملون بنادق، لكنهم لن يقتلوني بطلقة، فهم لن يرغبوا في إضاعة طلقة، ولا أنْ تُسمَع طلقات قريبة من نقط حراستنا. يا لغرابة أنْ يتذكر المرء الآن بالذات

(١) وردت الكلمة بالروسية Niet. (المراجعة)

خورخي مانريكي: كيف يحل الموت، صموتا جدا. سيدفعون باب الألواح، سيُسلط أحدُهم المصباح على وجهي وسيصوب ناحيتي مسدسا وربما لن يتركني أنهض، الآخر سيميل عليَّ وسيقطع عنقي، متنحيا إلى جانب بحكم الخبرة كي لا يُصيبه تدفق الدَّم. في هذا البرد سيرشح الدَّمُ بُخارا كثيفا جدا. كل شيء مبلَّل وملبَّد، اللحاف، المعطف، خيشة القَشِّ العفنة، وأنا ميِّت. لست أنا، آخر. لا أحد، لأن الموتى لا يتأخَّرون كثيرا في إضاعة أي أثر للهويَّة، أنا ميت دون أن أكون قد وصلت حتى إلى مسدَّسي، مشلول بالبرد الذي يواصل تخدير اليدين والجسد كله مثل كفَن سابق لأوانه، لا يتركني أتحرَّك، مثلما وأنا نائم ولا تستجيب عضلاتي لإرادتي، وأمل كثيرا بسبب ذاك الشلل، أستيقظ وأجد ذراعي مخدرا وأحرِّكها بالأخرى، وكأنها من خشب.

أجل، ذاك يفزعني: ألاَّ أموت، وإنما أبقى مبتورا. لكني الآن من ذاك الخطر أنا في مأمن، لن تدمِّرني قذيفةٌ، ولن تسحق رجليَّ المحاصرتين في الوحل جنزيرة عربة قتال. في غضون لحظات سيُدْفع شخص إلى الداخل بابُ الألواح القديم، وسيُفصل عنقي بخنجر للجيش الروسي أو سكين مطبخ مثلوم، أو بمنجل عتيق، ولن أتحرَّك، ولن أفعل شيئا كي أتفادى ذلك، أو أدافع عن نفسي. إنني متمدد، وأرى في الحلكة خيوط النور التي تواصل الالتماع في عينيَّ، وإنْ كان المصباح اليدوي قد انطفأ، وأنتظر مثل حيوان أن يأتوا لقتلي،

مقاتل روسي لم يرَ أبدا وجهي، وسينساه بعد ذبحني، لأنه لا يمكــن تذكُر وجه ميِّت، يغدو مجهولا حين تسلب منه الحياة، ولذلك لا يُخلِّف الموتى أثرا كبيرا فينا الموجودين دوما قريبيَن منا، الذين تعفنوا على الأسلاك الشوكيةَ، وتورّموا في الوحل، المــوتى المكوَّمــون الــذين نجلس فوقهم أحيانا كي نستريح بينما نأكل الجراية العسكرية.

الآن يفهم لماذا لم يعثر على المسدس. ستكون المرأة قــد أخذتــه منه أثناء نومه، ستكون قد دسَّت يدَها تحت المعطــف الــذي يــستعمله وسادة، وخرجتْ بعد ذلك في صمت على قدميها الكبيــرتين الحــافيتين؛ الكبيرتين كوجهها وركبتيْها اللذين يوجد فيهما نوع مــن القــوة العنيــدة الخيَلِيَّة، على بالرغم من الجوع وكارثة الحرب التي قوَّضتِ العالَم الوحيــد الذي تعرفه، والتي خطفتْ منها زوجَها، الذي رماه الألمان بالرصــاص، حسب ما فسَّرتْ له سريعا بإماءات وأصوات حكائية، بينما ظل الطفــل بجانبها، ملتصقا بها، يمسك تنورتهــا بيديــه الــصغيرتين الوســختين، الواهنتين من شدة نحافتهما، وعيناه فزعتان مثبَّتتان علــى الأجنبــي ذي الزِّي العسكري، عينان بالغتا البروز في وجه جائع بقدر حجم جبهتهــا، بل بحجم الرأس برُمَّتها في مقارنة مع جذع الجسد الغارق، مع الذراعيْن والرجلين التالفتين، هشّين كزوائد في مخلوق برمائي.

عرضْتُ على الأم والابن شيئا للأكل، وجبةً لي أو علبة طعام محفوظ، نظرا إلى يدي الممدودة بحذر كما لو كانا غير متأكّــدين إنْ عليهما أن يقتربا، ككلاب تساء معاملتها. كانت المرأة تــدفع الولــد،

كانت تقول له شيئا بصوت خفيض، لكنَّه لم يخط خطوة واحـــدة، لـــم يأخذ ما كنتُ أعرضه عليه، كان يتمسَّك أكثر بتلابيب تنورة أمه دون أن يزيح النظر عن قطعة الخبز أو علبة البسكويت التي كنت قد جئت بها، وكنتُ أرى خيط اللعاب المنسال عبر عنقه النحيف، الـــذي بـــدا غير قادر على تحمُّل ثقل رأسه الضخمة. تركتُ الأشياء فوق الطاولة وكنت ذاهبا للاستراحة في الإسطبل أو كنتُ أبتعد قليلا عن الكـــوخ، "إسبا" هي الكلمة الروسية. عدتُ بعد ذلك بوقت قصير، ولـــم يكـــن الأكل فوق المائدة، لكن لا الأم ولا الابن كانا يمضغان، ولم يكن من أثر لما قد يكون فَضُل لهما، لقد أكلا كل الطعام، بَلَعاه بسرعة الجوع وبلهفته، أو قد يكونا أخفيا نصيبا بين الثياب، أو تحت السرير، ونظرا إليَّ حين دخلت كأنهما يخشيان أن أطالبهما بشيء، أن أُلِحَّ عليهما بأن يُعيدا إليَّ ما لم يكن الآن موجودا، تسمَّرت عيناهما الزرقـــاوان فـــي عيني، نظرتا إليَّ في ارتباك من يعرف أنـــه بمقـــدوري أن أنتـــزع منهما الحياةَ دون عقاب.

لم أرهما يأكلان أبدا، حتى هذا المساء. كنتُ قد أمضيتُ عـــدة أيام مع حرَّاس ودوريات في الخطِّ الأول، وكانت هنالك شائعات في شأن هجوم روسي، ولم يمكنني أن أنسحب لأنام في "الإسبا". بالكـــاد نمتُ في الليالي الثلاث أو الأربع الأخيرة. في الحـــرب أســـوأ مـــن الجوع والبرد هو القلة اليائسة في النوم. حين مـــررتُ بمقـــر قيـــادة الكتيبة كي أستلم الدوريةَ سلموا لي علبة أكل بعثتْ لي بها عـــائلتي

من إسبانيا. وصلتُ إلى "الإسبا" ميّتا من الجوع والنوم، واكتشفتُ ما يُخفف عني، فلا المرأةُ ولا الطفل كانا موجودين، وإن كنتُ لا أتخيّل إلى أين يمكنهما أن يكونا قد مضيا. سيكونان ينبشان الوحل بحثا عن شيء لأكله، ينهبان ككلبيْن بلا سيِّد قريبا من أحد معسكراتنا. لكنَّ النار كانت موقدةً، هكذا فتحتُ العلبة المملوءة بالسُّجُق اللذيذة، حتى إنه ليبدو كَذِبًا أنها عبرتْ سليمةً أوروبا كاملة ونصف روسيا لتصل إليَّ حيث أوجد، وشرعتُ أشوي بعض السُّجُق المفلفل. إنها لذةٌ لا تُصدَّق، وفي خضم كثير من الحاجة، فرقعةَ الشحم الأحمر يفزر المعدة، رائحةَ اللحم المتبّل كثيرا والمشويَّة. حينئذ تنبَّهت إلى أن المرأةَ والطفل كانا واقفين بالباب، ينظرانني معا، ينظران السُّجق المفلفل الذي كنتُ أشويه على النار، وكذلك علبة الكرتون المفتوحة إلى جانبي. كان لديهما وجه يفصح عن الجوع أكثر من أي وقت مضى. ربما لم يكونا قد أكلا شيئا سوى قشور البطاطس خلال الأيام التي لم أُحضِر إليهما شيئا. وضعتُ العلبة فوق المائدة، وأشرتُ إليهما بأن يقتربا منه. هذه المرة، حين دفعتْهُ المرأة، لم يُقاوِم الطفل. أخذ بكلتا يديه السُّجق المشوي الذي كنتُ قد تركته في صحن، وأكله دون أن يرفع رأسه وبالضجيج نفسَهُ الذي يُحْدِثه حيوانٌ.

كانت المرأة تنتظر، لكنها لم تجرؤ على الاقتراب. جعلتُها ترى أنني أنسحبُ. جئتُ إلى هنا وأغلقتُ الباب، تلففْتُ في ألحفتي وثنيْتُ المعطف لأستعمله كوسادة. كنت متهيِّئا للنوم، ما كدتُ أغلق عينيَّ

حتى كان قد سحقني النوم المؤجّل منذ أيام كثيرة خلتْ. حينئذ قرعت المرأة الباب بضربات لطيفة، أمكنني أن أرى وجهها الكبير خلف الألواح السيئة الضمِّ. قلتُ لها أن تمرَّ ووقفتُ منتصبا. دخلتْ تقول شيئا مُغمْغَما بالروسية وتقوم بحركاتَ غريبةَ كرَسْمِ إشارة الصليب. كان حول فمها شحمٌ أحمر. قبل أن أنتبه كانت قد ركعتْ أمامي وأغرقت يديَّ بالقبُلات والدموع وذهْن السّجق.

الآن أعود إلى سماع صوتها، وإنْ كانت تتكلم بصوت خفيض كنت أسمعه كهمهمة لها نبرة الرتابة ذاتها والتوسُّل كما كانت تتحدث إليَّ هذا المساء. قالت لا، لا. اشتعل المصباحِ وانطفأ، وكان جسد المرأةِ الضخم هو ما اعترض الضوء. لو تمكّنتُ من أن أتفادى التخدير الذي في يديَّ وأفلح في الإمساك بالمسدس وأن أرفع الزناد قبل أن يدخلَ من سيقتلونني، لأمكنني أن أقضي على الأقل على اثنيْن منهم. سيدفعون الباب، وسأظلُّ بلا حركة، وأمسك المسدس تحت الملاءة، وعندما سيصوبون مصباحَ البطارية إلى وجهي سوف أرفع يدي وأطلق عليهم النار عن قرب، وربما في خضم الارتباك أفلِتُ. لكن تلك الحركة البسيطة هي ضرب من المستحيل كما لو كانت في حلْم. لا أفعل أي شيء، أواصل جامدا، مسحوقا فوق البلاط، شبه ملتصق بالحائط، أصغي إلى تلك الأصوات تهمهم، أحصي الثواني المتبقية على موتي في هذه الناحية الشمالية والحزينة من العالَم، على مسافة أقل من كيلومتر واحد من لينغراد، المدينة التي كنا دوما

نوشك على غزوها، والتي لم نصلها أبدا، التي لن أصل أنـــا إليهـــا، وإن كنا في الأيام الصافية نرى قِبابها الذهبيـــة تلمـــع بعيـــدا، عنـــد حدِّ السهل.

لكني لا أجدني خائفا، ولا حتى الآن، مجرَّد شيء يطبق علـــى أنفاسي. لِيدخلوا سريعا، لِتكن مدةُ التوسل قصيرةَ. ينطفئ المـــصباح اليدوي، يعود إلى الاشتعال، وأنا قد انخلع قلبي من التفكير في أنهـــم الآن سيدفعون الباب. لا، قالت المرأة، وبعـــد ضوضـــاء غامـــضة لصوت رجُل سمعتُ شيئا شـــبيها بمـــواء قـــط، قـــد كـــان بكـــاءً، نحيب الطفل.

تَوقَّفت الأصوات. سيدخلون ولن أستطيع تحريك اليد المشلولة والبحث عن مسدسي. انفتحْ باب، لكنه ليس الباب الموجود أمـــامي، وإنما الآخر، الباب الخشبي الضخم، بابُ "الإســـبا"، وعنـــد انفتاحـــه دخلتْ هبَّةُ ريحٍ وصلتْ إليَّ حيث أوجد. أدركْتُ ارتدادات خطـــوات الأحذية. سمعتُ ذلك الضجيج الضئيل للبنادق، حلقة الحزام مصطدمةً بالمِقبض. الآن أُغلِق البـــابُ، كـــلُّ شـــيء أصـــبح مـــرة أخـــرى سواد وصمت.

بعرفان، وإن كان كذلك عن بُعد، بلامبالاة شرعتْ تكبُرُ فيـــه على حسب تقدُّم احتدامِ الحرب، فهِمَ فجأةً أنَّ المرأةَ قد أنقذتْ حياتَـــهُ. لقد أقنعتِ المقاتلين ألا يقتلوه، قائلةً لهم إنه لـــيس ألمانيـــا، ولا هـــو

يتصرَّف مثلهم، وإنْ كان يرتدي زيَّهم بِشارات مقدم. ربما أبــرزتْ لهم لفافة الطعام، أو ما تبقى منها، بل ربما أعطــتْهم شــيئا يُخفــف عنهم الجوع.

شغل مقدمٌ ألمانيٌ مكانَه في الكوخ أياما بعد ذلك، حين دخــلَ هو في الخدمة على الخط الأوّل للمواجهة. ذهب الألماني للنوم فــي الليلة الأولى بينما الأم والابن كانا ينامان على بلاط الإسطبل، وفــي اليوم التالي وجدوه مخنوقا بسلك ومعلّقا في عمود التلغراف الموجود قرب الكوخ. لقد أغلق الألمانُ على المرأة والابن الكوخَ، وأضــرموا النار، وحين احترق كلُّ شيء سوَّوا الأرض بجرَّار جنزير وســمَّروا في الوحَل لافتةَ بالألمانية والروسية مذكِّرين بالعقاب الذي يُحتَفَظ بــه للذين يتعاونون مع المقاتلين.

لحظة. يرتعد بارتعاشة، وهو ملتف على ذاتــه فــي العتمــة، يتحسس الملاءات، والوسادةَ، ليس تحتها مسدسٌ. هذه الأشــياءُ لــم تحدث بعد. لا يمكنني أن أتذكَّر شيئا لم يحدثْ بعد. في أبريل أو مايو ١٩٣٦ لم يُمكِنْ أستاذيَ للأدب أن يعرف أنه في نهاية ذلك الــصيف سأكون مرميًّا وميّتا في حفرةٍ على جانب الطريق.

مشوشا من جديد، يبدو له أنه عاد إلــى الاســتيقاظ، ومــرَّةً أخرى، خلال بعض الثواني، لا يعرف أين هو، ولا من يكون. أيــن أنا إذا لم أكن في كوخ روسي، قريبا من جبهة ليننغراد، في خريــف

١٩٤٢. لا أرتدي زيًا ألمانيا للشتاء، وإنما منامة خفيفة، لا ألمس القماش الخشنَ للحاف جندي، لا تفوح مني رائحة الروث ولا القش العفن لفراش سقطت عليه ميّتا من التعب منذ ساعات، وقد استيقظت للتوّ لأنني سمعت الضجيج الحذر للمقاتلين الذين جاءوا لقتلي.

الآن نعم، يشعر بالفزع، ليس من أن يقتلوه، ولكن لشعوره بأنه منهك في ذاكرته غير الواثقة وفي فوضى الزمان، ارتباك وعلى الخصوص دوار، لأنه في لحظة واحدة قفز وعيُه إلى مسافة تفوق نصف قرن، فوق قارة بأكملها. لديه غواية إطالة يده صوب خوان السرير وأن يوقد المصباح، لكنه يفضل أن يمكث جامدا، ملتفا على نفسه كتلك الليلة التي مر عليها سبعٌ وخمسون سنةً، الحياة برُمّتها مرّت في التماعة برق، في تلك الدقيقة التي يغفو فيها المرء، ويستفيق فجأة حين تسقط رأسه. يسترق السمع إلى الأصوات التي ستشرع في تمديد الأرق، ميكانيزم الساعة المنبّهة، ضجيج محرك الثلاجة التي ليست بعيدة جدا، حركة المرور الليلية والخافتة بمدريد. يرى من كانَ كما لو كان يرى آخرَ. آخرين متنوّعين ومتتابعين. يرى نفسَهُ من الخارج، بفضول ونوع من الحنان، وإن كان كذلك بنوع من الرضا عن النفس لكونه اكتشف أنه لم يكن جبانا، يغمره الاندهاش من أنه قد عاش حيث هلك كثيرون. لكنه يعرف أن عدم خوفه، وعدم حسده، ليس من كامل الجدارة، وإنما سمة في الطبع. يرى الفتى الذي كان يعشق الفلسفة والأدب واللغة الألمانية في معهد

شعبي بمدريد، الرَّجُل الشابَّ الذي لم يصل في وقت المناسب للقتال أثناء الحرب الإسبانية، وتهيأ لكي يذهب لروسيا ضمن انخطاف متخوِّف وسامٍ ذي نزعة رومانسية. يرى نفسه يقفز فوق خندق، وعلى رأس كتيبة، يطلق الرصاص من مسدس ويصرخ مُصدِرا أوامر بينما يُحسُّ بنفسه قابلا للانتقاد. يرى كتيبة منبعثةً من الضبابِ تتقدَّم نحوه مشكَّلة من فرسان روس بأسياف مسلولة مرفوعة.

لكن من بين كل تلك الهويات المتعاقبة فإن النادرة والأكثر لاواقعية منها جميعا هي التي عثر عليها الآن، هذه الليلة، وقد استفاق على التَّو من ذكرى معيشة مثل حُلم. من يكون الرَّجُل الثمانينيُّ الذي يتحرَّك في حماقة على السرير، الذي يعرف أنه سيواصل مستيقظا إلى أن يَحُلَّ النهارُ، وهو يرى وجوه موتى وأمكنة لا توجد، المرأة الروسية والابن الهزيل الذي يختبئ في ثنايا تنورتها التي من أسمال، ألسنة النار التي لم يَرَها مشتعلةً في السَّهل وقد محاها الوحل، الوجه بدون منظار للأستاذ الذي أطلق عليه الرصاص. يريد أن يغفو فقط، وأنه خلال دقائق أو ثوان الآن يتحوَّل مجدَّدا إلى رجل ذلك الزمان.

بالديمون

عند الخروج من المنعطف الأخير للطريق ستربن فجأةً كـل الأشياء التي لم تعد هي تراها، ربمـا تـذكرتْ الأشـياء الأخيـرة وحنَّتْ إليها بينما كانت تحتضر في سريرها بالمستشفى، محاصَـرةً بين الأجهزة والأنابيب، في غرفة حيث يُحترَق الهواء مـع حـرارة يوليو ونسيج روب المرضى الخفيف الذي ترتديـه والـذي يلتـصق بظهرها المبلل بالعرق. كانت تحس بالعطش دوما، وتتـبس بأشـياء وهي تحرك شفتيها المشقوقتين، اللتين كنتِ أنت تُرطِّبينهما لها بمنديل مبلَّل بالماء، وكانت تتخيَّل أو تحلم بنفسها جالسة على ضفة النهـر، في ظل الأشجار الكبيرة التي يُحرِّكها نسيم بارد كالتيَّار، الماء الرائق والسريع الذي كانت تُغرق فيه رِجليْها العاريَتين، في بعض أصـباحة صيف شبابها الأوَّل. سواقٍ سيَّالة تسري ملتوية تحت الظلال، الماءُ يصوِّت مختفِيًا وراء كثافات من علَّيق وسوْحر، لامعا فـي الـشمس بحراشف ذهبيَّة، والحصى النَّقيّ في القعر، يلمع مثل أحجار كريمة، وفي الماء الرَّاكد أُشنات ذات كثافة إسفنجيَّة واهنة، كانـت تحـادي الأرْجُل بالرِّقَّة نفسها التي لدى الماء والطمي، والنتوء الذي لا تدركه

العيْن غيرِ المدرَّبة في رؤوس الأغصان شبه الغارقة. كانــت تبلــع اللعاب وكانت الحنجرةَ تؤلمها، ويصير الفم جافا مجدَّدا، اللسان خشن يلامس جفافَ الشفتَين اللتين لن ترطبيهما أنت، لأن النوم هزمك بعد ليال كثيرة دون نوم، الآن في المستشفى ومن قبل في البيــت، حــين أُعْطِيَت الترخيص بمغادرة المستشفى بعد أنْ أُدْخِلَتْ للمــرَّة الأولــى وبدا أنه يمكنها أن تتعافى، وأنها ستعود لحالتها الطبيعية، وإن كانــت هشَّة ومضطربة. لكن وقتئذ، حين عادت إلى البيت، لوحِظَ عليها أنها تنتسب إلى المستشفى، وأنها في أيام معدودة قد تحوَّلت إلــى غريبــة عن المكان وعن الأشياء التي كانت إلى وقت قصير محيط حياتهــا. كانت تتحرَّك بطريقة غريبة عبر المطبخ والصالون، شــاحبة وهــي ترتدي روب المستشفى، كأنها لا تعرف العثور على طريقها فتهــيم في الممرِّ أمام دولاب مفتوح، تبحث عن شيء لا تعــرف الآن أيــن هو، محاولة دون نجاح أن تُعيد الوصل بعادات البيتِ منذ أن كانــت معافاة، المهام الأكثر بساطة، أنْ تُعِدَّ وجبة خفيفة في العــصر أو أن تُغيِّر ملاءات.

عادت سريعا إلى المستشفى، وقد بدا الأمرُ حين زيارتها بــأن هذا هو مكانها. كانت قد تفاقمت حالتُها، وكان قلبُها قد غدا أضــعف من ذي قبل، لكنَّ وجهها، الذي لا لون فيه مــع بيــاض الوســادات، اكتسبَ تعبيرا عن الهدوء أو الاستسلام، وقد تخلَّت عن السؤال متــى ستُعْطى رُخصة المغادرة. كانت بالليل تهذي من العطش أو الحُمــى،

أو جرَّاء الأثر اللاصحي للمهدِّئات والحقن التي تُحقَن بها لتهدئة قلبها المفزوع، وكانت تتخيّل أو تحلم بأنها تميل على الماء النهر السريع والشفاف، وأنها تغطس فيه يديها مُجوَّفتين كأنها تريد أنْ تمسك بآنيةٍ، وترفعها بعد ذلك فينساب منها ماءٌ لامع في هدي النور الخفيف للأشجار. لكنْ ما يكاد الماء يلامس منها الشفتين حتى يكون قد أفلت من بين أصابعها، وتواصل الاحتضار عطَشًا، وجزءٌ منه لم يُبلَع لِعَدم الوعي به يحتوي بحزن صاف وتَقبُّل تدريجي أنها لن تعود أبدا إلى رؤية المنازل المتدرجة في السفح ووادي أشجار الفواكه والبساتين حيثُ يُسمَع الماءُ دوما في السواقي والنسيم، في قمم الأشجار، بين الأغصان اللدنة للسوحر والصفصاف. كانت ترتج في السرير، في وصلات الأنابيب والأحزمة، تئنُّ بين نوم ويقظة، وحينئذ كنتِ أنتَ تنهضين في فزع من مقعدك، الذي من جلد التوليفيّ بنوع، ينتابك القلق وتأنيب الضمير لأنكِ مكثت نائمةً، مجازفةً بأنها قد تكون قد احتاجت شيئا وأنتِ لم تسمعيها تطلبه منك، أو الأسوأ من ذلك، أن تموت بجانبك، أنْ ترحلَ عنكِ كلّيةً دون أن تعرفي أنتِ ذلك.

سترَيْن بالتّدقيق، في نقطة محدّدة عن بعد، الشيءَ ذاتَه الذي كنت ترينه وأنتِ طفلة، ما يصل كل سنة في حدود وقت عطلة الصيف، وما كانت هي تراه قبل أنْ تولَدي أنتِ، حين كانت عيناها قد بدأتا تُطلّان على العالَم، عيْنان مماثلتان لعينيك، سيظلان في وجهك بعد وفاتها، كأنهما جزء من شفرتها الجينيّة المحفوظة

والمُشفَّرة في كلِّ خلية من خلايا جسدك. وعلى الرغم من أنك ستنسينها، فإن هذا الجزء منها سيواصل الوجــود، وإن مــضى علــى وفاتهــا عشرون عاما، فإنها تواصل النظر عبر عينيْك ما ستكتشفينه بضربة سعادةٍ وألَم حين ستخرُجُ السيارة من المنعطف الأخير ويَمتَد أمامــكِ المنظر الطبيعي الذي كان فردوسا، ليس فقط حين كنتِ قد ضــيَّعتَه، وإنما في الوقت الحاضر الذي تستعينين فيه ببصيرة طفوليَّة نــادرة، دون أنْ تفكِّري حينئذ في أن تتكرَّر فيك مشاعر طفولةٍ والدِتك، مثلما يتكرَّر في وجهك شكل عينيْها ولونهما أو التلميح بالحلاوة والكآبة في ابتسامتها. وادي النهر الأخضر والخصب، الكثيف ببساتين الرَمــان والتين، المخترَق بشعاب تراب مساميّ تحت ظلّ الأشجار المجــوَّف، الحور الأسود، الحور، الزّان، الصفصاف، السوحر، غطــاء نبــاتي متخَمُ ماءً، مُغذًى بتراب جد ملآن من الخصوبة التــي تتلقاهــا مــن الدَّعسة النباتات البشريَّة، مستسلمةً قليلا تحت ثقــل الجــسد، كأنهــا تستقبله بترحيب جد مضياف مثل الترحيب بنسيم النهر وخرير الماء وحفيف أوراق الأشجار.

أُحبُّ أن أُدفَن هنالك، لا أحب أن أبقى وحيدةً حــين أمــوت، مُحاطةً بمجهولين في مقبرة كبيرة جدا كمدينة، تتذكَّرين أنها كانــت تقول لك: لا تهمني مسألة موتي، لكن لا أحب أن أُدفن هنــا، حيــث سأموت ولا أحد يعرفني، في مقبرة حيث ستوجد أسماء لغرباء فقط، كما لو أنني سأعيش مرة أخرى، في واحدة من تلك البيوت القوالب،

التي كنت فيها غريبة بالنسبة إلى الجميع، كما في أي من الأماكن التي عشتُ فيها، والتي كان يمكن أيضا أنْ أكون قد متُّ فيها، غريبةً، مُغلّقٌ عليّ في بيتي، أنتظر أن يعود الأبناءُ على امتداد المساء، وأن يعود الزوج حين يكون الليلُ قد حلَّ، يصل متحفظًا أو ثرثارا، مزْهُوًّا بعمله أو يتكلم بالسوء عن البشر المشتغلين معه في عمله، الرؤساءِ أو المرؤوسين، أسماء أسمعها وقد تعوّدتُ عليها ثمَّ تخلّيت عن الاستماع، وأنسى مثلما أتعوّد على المدن الجديدة حيث يقودنا عملُهُ، والتي لمْ يُتَحْ لي فيها أبدا الوقتُ لكي أستريحَ تماما، أبدا لم أحصل على ما تمنيْتُه، أشياء لي، أثاث أختاره بنفسي، عادات، ذاك ما أفتقده أكثر، ما أحنُّ إليه حين لم أكُنْ بعدُ أحسُّ أني مقصيَّة عن عالم الأحياء، هو أن أتذكر بحلاوة مع مرور الزمان تعَوُّدي على بيتٍ ومدينة أحسستُ فيهما أني أوجَدُ مستقرَّة، وأشغَلُ مكانا آمنا في العالَم، كحالي حين كنتُ طفلةً أو صبيَّة تعيش في القرية، وعلى الرغم من أني كنتُ أمتلكُ دوما رأسا رائعةً، وكنتُ أتخيَّل رحلاتٍ ومغامرات، فكنت أستمتع بأمن بيتي، وإخوتي، وحضور أبي، وسعادة الإطلال من نافذة غرفتي، فأرى الوادي ببساتينه والسفوح حيث يزهر شجر اللوز والتفاح، وفوقها قمم الجبال الجرداء، بلَون التراب ذلك الذي هو عيْنُ لون البيوت الموجودة في الطريق باتجاه المقبرة حيث أحبُّ أن أدْفَن.

كان يحزنني أنْ أرحل عن الحياة باكرا جدا، وألاَّ أرى أبنائي قد كبروا، ولا أنْ أجلس مرَّة أخرى مع أختي لنحكي ونتذكر أشياء

في المطبخ الكبير، الذي يطل على الحديقة ووادي أشجار التفاح، وعلى سفوح البساتين. تلك الأشياء تحزن، والمسألة أكثرُ حزنا منها وخوفا، لكن هنالك أيضا شيء أكثر، لم أكن أعتبرُه، رغبة كبيرةَ جدا في أن أستريح من ليال سيئة ومقلقة، الأدوية، الأزمات الفجائية، الرحلات في سيارات الإسعاف، غرف المستشفيات، أنابيب وأجهزة تطوّقني. كنتُ من قبلُ أتخيّل أن كلّ هذه الأشياء ستنتهي ذاتَ مرَّة، وأنه يمكنني أن أعالَج، لكني الآن أعلَمْ استحالةَ ذلك. وإن كان الجميعُ يقول لي إنني سأتحسَّن، وأن دواء جديدا قد اكتُشِف، أعلَمُ الآن أن الوقتَ الذي تبقى لي سيكون بالضبط مثل الآن، أو ربما أسوأ، أسوأ بكثير، حسب تطوُّر وهَنِ القلب. ما كان من قبلُ أملا في علاجي هو الآن رغبة جد قوية في الراحة والتخفيف، مثلما كنت أفعل كثير وأنا شابَّة ويغلبني النوم، فكنتُ أندَسُّ في السرير، وأغطي رَأسي بالإزار، وأضغط الجفنين كي أنام سريعا. كنتُ أغطي الرأس وأغطي الفم كي أتمالك الضحكة التي كانت تنفجر فجأة كماء السقّاية العمومية، حين يُضغَطُ بقوة نحو الأسفل المَنفَذ النحاسي والبرونزي، فيصوِّت الماءُ داخلَ الجرَّة، باردا وعميقا مثل فم بئر، منذ أعوام عديدة، حين لم يكن هناك بعد ماء جارٍ في البيوت، وكنّا نحن النساء نمضي لجَلْبه بجرارنا من تلك السقاية في أعلى العقبة التي كانت دوما محاطة بالزنابير، كانت أختي تشتكي من كونها ليس لديها وركانٍ مما يجعل الجرَّة المليئة تنزلق من جنبها. ماءُ الصيف، ليته الآن يُبلِّل شفتيَّ اليابستين والمشقوقتين، الماء يَرْشَح من جوف الجَرَّة ما يمكن أن

تكون تلك الرطوبة حين الالتصاق بالخدَين، أن أدخُلَ إلى دهليز بيتَي، وأُحسَّ في الظّل بَلَلَ مسامّ الطّين وتنفُسَه. ذاكَ ما أرغبُ فيه، الشيء الوحيد الذي أرغبُ فيه الآن، أن أبقى نائمة، أن أستمرَّ تائهةً في النوم مثلما حين أُعْطى مْهدّئا، وأفضل من ذلك، حين يحقنونني به، إذ أكاد أدرك تقدُّمَه في جريان الدَّم، أثَرَهُ الذي يُخمِد الجسدَ على امتداده. الأشياءُ تَمحى، الوجوه التي تنحني عليَّ، تتلاشى الوجوه العزيزة، تضيع في الأبعد، الحقيقة أنه ينقصني جهد كل مرّة أكبر من الإرادة كي لا أتركَني أمضي أنا كذلك، في لطف شديد كما ينطبق جفناي على المقلة حين أشرعُ في النوم. صَوْتَا ابْنَتيَّ، وجهاهما شديدا التشابُه والاختلاف، الوجهان والصوتان، الوجهان يتداخلان بنفس الإحساس بالدفء والوداع، الأيادي التي تضغط يديَّ، اليد التي تَجسُّ خفيةً نبضي حين أمكثُ جامدةً جدا كأني قد متُّ، كما لو كنتُ قد رحلتُ. بصدد ابنتي الكبرى بوسعي أن أعلَمَ كيف ستكون حياتُها، مثلما أعرف أنَّ وجهها الآن هو عين وجهها الذي ستحتفظ به حتى النُضج، حين ستدرك السنوات التي لديَّ، الشفرة التي لن تتغيَّر، حين أفكر، ياللغرابة، الآن لديَّ السّن ذاتها التي تُوُفِّيتْ فيها أُمّي، وأتساءل كيف سأكون أنا في ذاك الزمان الآتي: ستنهي ابنتي الكبرى الدراسة التي رغبت في دراستها حين بدأتُ أنا بالكاد الدراسةَ بالبكالوريا، ستكون أستاذة، ستتزوج بخطيبها، ستواصل الطريق التي يبدو أنها اختطّته لذاتها حين كانتْ ستواصل، والذي لم تحدْ عنه أبدا. لكن ما الذي ستكون عليه الصغرى، إن كانتْ لديها ست عشرة سنةً فحسب،

وهي حتى الساعة مثل المشدوهة والممتنّة إزاء تنوُّع العـالَم، أمـام الغنى واختلاط خيالاتها ورغباتها، تبدو في بعض الأيام أنها ترغب في أن تصير شيئا، وفي أيام أخرى ضدَّ ذلك، تنظر في كلِّ شيء وتتوقف عند شيء يُعجبُها فجأة، والآن هي لا تهتم بأي شيء آخر، وليس بها تسَرُّع أو عجلة تجاه شيء ما، ولا أن تبدو كبيرة ولا أن تدْرُس تخصُّصا، ولا أن يكون لها خطيبٌ وتتزوَّج. تحيا كما لو أنها تطفو الآن، بلا ثقل يُذْكَر حتى إن أيَّ تأثير يسحبها، كما كنت أنا أحيا حين كانت لديَّ أعوامُها نفسُها، أطفو بين أحلامِ الأفلام والروايات التي كنت أقرؤها خلسة من أبي، أتخيَّل لي كلِّ يومٍ حياةً مستقبليَّة جديدة، مُدُنا وبلدانا أُسافر عبرَها، لكنْ ليست منزعجة في سجن القرية، وإنما مستمتعة في الوقت ذاته بالبيت المحبوب كثيرا، الذي لن أعود إلى رؤيته أبدا، وشعابْ البادية والماء في السواقي، وفَرَح صديقاتي في أمسيات الأحد، في ليالي الرقص الصيفية، محْمِيَّة بطيبة والدي وحنان أختي، التي ستحيا على الأقل أكثر مني، والتي ستواصل العناية بابنتيَّ حين أكون قد مِتُّ، هي التي لم يكن لها زوجٌ أبدا، ولا خطيب، التي كان لديها ورِكان ممسوحين جدا حتى إنها لم تكن تقدر على أن تسند إليهما بطن الجرَّة حين كنَّا نعود من النافورة.

عبثًا ستحاولين تذكُّر نبرة صوتها، هي التي تخلَّت منذ أعوام عن زيارتك في الحُلْم؛ سيعود إليك الإحساس بأنَّك تتنبَّئين بالكلمات، التي قد تكونُ هي فكَّرت فيها، وأنها ستواصل قائلة لك في صميم وعنِك الأشياءَ التي قد تكونين أحببتِ أن تعرفيها، ولم يكن لديها وقتٌ

لتحكيها لكِ، التحذيرات التي ستكون قد خدمتك، وستكون قد أعانتك ربما، لكي لا ترتكبي بعض الأخطاء. أو ربما واصلتْ حمايتَك وإرشادَك دون أن تنتبهي، حاضرةً وغير مرئيّة في حياتك، كالأرواح التي كانت خالتك تُشعل لها فراشات النور التي كانت تطفو في أقداح الزيت فوق خوانات السُفرة وموائد الليل، مُعطيةً رعشةً تُنبئ بحضور أشباح في العتمة. ربما عادت إليكِ في أحلام لم تتذكّريها أثناء استيقاظك، وقالت لك أشياءَ أنقذتك من أسوأ الاحتمالات في حياتك، التي ضاع فيها كثيرون من جيلِك، جيران في الحي ورفاق المراهقة الذين انتهت حياتهم كأموات وبقوا متجمدين بإبرةٍ في الذراع والعيْنان مفتوحتان، هَرِموا وفنوا بالموت فيما كان يجب أن يكون أفضل أعوام الشباب. كان يمكن أن يكون لك مصير مثل مصير ابنة خالتك، التي زارتكِ هي أيضا في أحد أحلامك، بعد موتها، والتي اقتسَمت وإيَّاك المصيفات الطفولية في القرية، وكانت شبه متطابقة معَك حين ماتت أُمُّك، الاثنتان متعانقتان أثناء دفنها، لكنها كانتْ دوما أكثرَ تهتُّكًا، وأكثر جسارةً في كل شيء، مع الخطَّاب الأوائل، في رفع سرعة دراجة نارية وفي دوار تدخين سيجارة حشيش، وفي وقت لاحق في أشياء ذات جرأةٍ كبيرة وخطرة، كان يمكن أن تسقطي فيها أنت أيضا، وإن كانت هذه الأشياء تُربكك كثيرا، حين لاحظت عدم اطمئنانها دون سبب ظاهر، والتماع القلق الذي شرع يبدو في عينيها دائما.

سترين السَّهل في لخضراره الشبيه بواحة، وفوقه السفوح حيث تتعلَّق البيوت في طرق منحدرَة مدعومة بدعامات عموديَّة، أو صخور يلتصق بها اللبلابُ والعُلَّيق، والتي تبرز منها أشجار التين الحمقاء. هنالك كنتِ تتسلقين مع ابنة خالتك، خلفها دوما، مرعوبة وفي الوقت نفسه مستفزَّة بشجاعتها، وكنتما الاثنتان تنتهيان لاهثتين تتصببان عرقا، بركبتين مسلوختين كرُكبتي الأولاد. ستسمعين قبل الوصول خرير الماء الذي ينزل مختفيا عبر السواقي، وستبحثين مباشرة بنظرتك القلقة صفَّ أشجار السَّرو التي تدلُّ على الطريق باتجاه القمة الجرداء للتَّل، وتنتهي قُبالة الحواجز القائمة للمقبرة، التي لديها اللون ذاته الخشن لتلك الأرض العارية، الصحراوية فجأة، على مسافة قريبة من الماء واخضرار الوادي: الصحراء والواحة، القِمَم المشقوقة بمسيلات سيول جافة، مخضَّبة بأحمر صدئ، المنازل التي في الأعلى أعداها الجفاف نفسُه، كلُّها مهجورة منذ زمان بعيد، بنوافذها دون شبابيك ولا زجاج، وتسقيفاتها قد سقطت، أسوارُها ذات لون صلصاليٍّ، كأطلال من الطُّوب في صحراء وقد شرعت تعود إلى أصلها البدائي الذي من تراب أو رمل. هنالك فوق، في الأعلى، فيما فوق آخر أشجار اللوز والمنازل المتداعية، عن نهاية الطريق المتعرِّج الذي يُعلِّمه السَّرو، والذي تشتعل فيه ليلا أنوار قليلة، هنالك أُحبُّ أنا أنْ أُدفَن، مع أفراد عائلتي ومع جيراني الذين عاشرتهم طيلة حياتي، مع الأسماء نفسها التي سمعتها منذ كنت طفلةً، في المقبرة الصغيرة جدا حيث نعرف بعضنا جميعا، والتي يُشرِف منها على

السفوح والوادي ومنازل القرية المعلّقة بعناية واضحة جدا حتى إنها تصيب بالدُّوار.

سوف تعودين، ومنذ زمان بعيد، قبل أن يكون قد برز الاسمُ الذي يروقك كثيرا منذ طفولتك في مؤشر على جنب الطريق، فقد كنت مهووسة بالعودة، مخدَّرةً بتيار الزمان الهائل الذي سيسوقك إلى الوراء بسرعة أسرَعَ من السيارة في المقاطع السَّهليَّة والمستقيمة من الطريق السريع، الذي قرّب مدريد كذلك، من حياتك الحاضرة، على بعد ساعات ومئات الكيلومترات عن محَلِّ الوصول، لكنّك الآن مندفعةٌ برمَّتك ناحيتَها، مغيِّرَةً تعابير وجهك دون أن تنتبهي إلى ذلك، متماثلةً مع مَنْ كنتِها في سنّ الرابعة أو الخامسة، في سنوات ذكرياتك الأولى عن تلك الرِّحلة، وكذلك مع مَن كنتِها حين كان لديك سبعَ عشرة سنة وماتت أمُّك. لقد ضغطتْ يَدك على ملاءة سريرها بالمستشفى المعصورة والمهوَّشَة، وقالت لك شيئا لم تفهميه، والذي، في الواقع، بالكاد خرج من شفتيها، وفي لطف انفصلت اليدُ النَّديَّة عن يدك، في نوع من الرِّقة، وما كانت بالتّمام اليدَ المعروفة والملاطَفَة مرَّاتٍ كثيرة يَدَ أمّك، التي ضغطتِها في كثير من ليالي الاحتضار والأرق، وإنما اليَد المجرَّد لميِّتة، التي لها الآن ملمس محايد وخامد حين أسندتِ إليها وجهكِ المنهك بالإعياء والدموع، ومناديةً إيَّاها للمرَّة للمرَّة الأخيرة، رافضةً أنْ تقبلي أن تكونَ قد رحلت عنكِ سريعا دون إنباء، في ثوان، مثلما من يسعى إلى أن يرحل في صمت كي يتفادى أن يُسبِّب لمن بقوا كَرْبَ وداعٍ طويل.

أنا أتجسَّس دوما، ألاحظُك. أسُوقَ السيارة وألْتفتُ إليك لحظـــةً، ألاحِظَ في وجهِك التعبير الجديد الذي تفرضه الرِّحلةُ، وهكذا أكتـــشف شيئا، كيف كنتِ حينَ كان ينقصني أيضا الكثيرُ كي أعرِفَك، أتفرَّغُ إلى حفريَّاتٍ سريَّة في وجهك وروحِك. سلَّمتُ لكِ الهاتف، الذي كــان قــد رنَّ في ساعةٍ مُلتبِسة، تقريبا في منتصف الليل، وبينما كنت تــصغين إلى ما يقوله لك أحدٌ ما، وكنتِ توافقين، لمْ يعد وجهُك الوجــه نفــسَهُ الذي كان دقيقةً قبل ذلك، وفي أيٍّ من الأعوام التي عشتِها معك.

حياتُكِ السابقة وطنٌ حكيْتِ لي عنه أشياء كثيــرة، لكــن لــن يمكنني أن أزورَه أبدًا. الماضي، والحيوات السابقة، الأمــاكن التــي ارتحلت عنها كي لا تعودي إليها، صُوَرُ عطلة الصيف. لقــد كــسر رنينُ الهاتف الصمتَ، اطمئنانَ المنــزِل الــسليم، وبعــد أن أنهيْــت المكالمةَ وأن وافقتِ، وأن سألت بصوتٍ خفيض، اقتَحَمَ الزمانُ القديمُ حياتك الحاضرة، وحياتي، لقد لفَّنا نحنُ الاثنتيْن، دون أن أعرِفَ ذلك للآن، في ضبابه الذي من حلاوة وبُعْد، من ضياعٍ وتأنيب ضــمير. هل تتذكَّرين أخْتَ والدَتي، التي اعتنَتْ بنا كثيرا حين ماتت الوالــدة، الآن هي تَحتضر بسرطان، لمْ يبقَ لها أكثر من أسبوع، أيام، يقــول ابن خالتي، الطبيبُ، أخو ابنةِ خالتي، تلك التي ماتت في عزِّ الشباب.

ستشكُرينَ الألمَ لأنه يُبرِّرُ في جزء التأنيبَ بسبب قضائك كثيرا من الوقت دون الذهاب إلى زيارتها، تتذكَّرينها بالكاد. أنتِ يكفيك أن تَعرفي بأنَّك تُحبينها، وأنها كانت الحضور الدافئ والثابت الوحيد في

حياتك خلال سنوات كثيرة، أمُّكِ النحيلةُ أو ظلُّ أمّك، التـــي تـــشبهُها كثيرا، وإن كانت دون أثَرٍ من جاذبيتها، نسخة سابقة وأكثر خـــشونة لأختها الصغيرة. لم يكن لديكِ من داعٍ لكي تذهبي لزيارتها، ولا حتى لمُهاتَفتها، لأنها كانت تصحبُكِ بطريقة جدّ عميقة تقريبا مثل ذكـــرى أُمِّك، لكنَّك لم تفكّري في أنها لم تكن تستقبل علامات مرئيَّـــة لـــذلك الحُبِّ الذي كان يربطُكِ بها كثيرا، لكنَّه كان يـــستمرُّ مختبئـــا كأنَّـــه متجذّرٌ في داخلك. ستنتبهين في وقتٍ متأخر جداً إلى أنَّك لم تفعلـــي شيئا لكي تصحبيها في الأوقات الأخيرة المريرة من حياتها المتفرّدة، في المنزل الكبير الذي لم يكن من أحد يذهب إليه لقـــضاء الـــصيف. كانت هنالك دوما أشياءُ أخرى خلفَ اضطراب حياتك، دائنين ملحين جدا. وبدا أنها ستكونُ دوما عند الموقف نفسه، مثلما اســـتمرَّتْ فـــي المنزل نفسه، غير المتبدّل مثلها، مستعدَّةً لاستقبالكِ دوما بـــالإخلاص نفسه، مهما مرَّ من زمانٍ طويل. هي، المنزل، القرية، كانوا ينتمون إلى مملكة غير ملموسة، لا ينال منها النسيان ولا مرورُ الزمان، ولا حتى غياباتك الطويلة. إنْ لم تهتمي في يوم ما، فـــي ســـاعة، فـــي طوارئ العمل الفجائية، نكبةٌ ما يمكنُ أنْ تَحُلَّ بِك، لوْ تخلَّيـــت عـــن زيارة صديق خلال مرحلة يكون لديكِ فيها خوفٌ من إضاعته. فـــلا في الحبِّ، ولا في العنايةِ بذاتكِ تهجُرين شيئا مـــصادفةً، ولا كنـــت تتكيَّفين في العادة، بحيث إنه تقريبا فـــي كـــلِّ أفعالـــك، مـــشاعرك ورغباتك، كان هنالك خيط من القلق، كان ينتهي بيُسر إلى الغمِّ. لقـــد

بقيتِ مسلوبةً من كل شيء حين ماتت أُمُّك وانكسر بين عشية وضحاها نظامُ منزلِك وما عُدْتِ قادرةَ على الثقة في استمرارية الأشياء، وغدوت تستمتعين بما كان لديْكِ مع وخزِ ضمير بأنَّه مؤقَّت وأكيدُ الضياعِ، وحين كنتِ تنالين شيئا، عملا، صداقة، منزلا، لم تكوني تصلين إلى الاعتقاد حقيقةً بأنه كان مِلْكَكِ، أو أنَّه كان لديك الحقُّ في تملُّكِ هادئ. لذلك، كنتِ دوما تتصرفين إلى الرَّغبة بحِدَّة المرَّة الأولى والأخيرة، وإن كان يُعجِبُك أن تزيِّني الأمكنة التي كنت تعيشين فيها بأشياء مختارة بعناية، كذلك كنت تتركين فضاءات شاسعةً، بحيث أنَّه هنالك في تلك الأمكنة حيث كنتِ؛ يبدو أنَّك عشْت دوما، عبر حضور الأشياء بعناية وعلاقتها الحميمة بك، وكذلك أنَّك قد حللتِ للتَّو، أو أنَّكِ في أيِّ لحظة كنت ستذهبين. فيكِ وفي كلِّ ما كان يمُت إليكِ كانت تُلاحَظ النيةُ الأكيدةُ لما هو مُختارٌ بعناية فائقة والكثافةُ الهشَّةَ لما يُمكِنُ أنْ ينكسر أو يضيع، لِما هو ثمرةُ ارتباطات الصدفة.

وحْدَه الماضي البعيد يستمرُّ ثابتًا دوما، الوطنُ الأجنبيُّ والسابق جدا على وصولي، الذي كنتِ تُحدِّثينني عنه كثيرا، والذي لم يتَسَنَّ لي أبدا أن أسافرَ إليه معك، ليس لأنه لم يكن في نقطة على الخريطة يمكن الوصول إليها، وإنما كان في ناحية مُسيَّجَة بالزمان، ومقاطعُ اسمه اللفظية الثلاثة الموريسكيَّة لم تكن تصف مكانا، كانت تصوغ تعويذةَ فقط لمْ تستطعْ أن تُدوِّيَ في ذاكرتي، وإنْ كانت

الجوهرَ نفسَهُ لذاكرتك: لكنْ كان يكفي رنين هاتفِ منتصفَ الليل كي تَغزو العجَلةُ والموتُ والذّنب تلك المملكةَ الثّابتة، والآن تنتبهين إلى أنَّ كل يوم، كل ساعة، كلَّ دقيقةٍ تُهدِّها، وتنظرين وربّما مؤشِّر السرعة وساعةَ لوحةِ قيادةِ السيارة، تحسبين الكيلومترات المتبقِّية، الأيام والساعات التي بقيتْ من عمْر خالتك، التي لم ترَيْها في السنواتِ الأخيرة، التي تخيَّلْتِ أنها بمنأى عن الشيخوخة والموت مثلما في تلك الصورة بالأبيض والأسود لشبابها التي تبرز فيها مرتدية ملابس صيفيَّةً، ممسكةً بذراع والدتك، الاثنتان متشابهتان جدا، ومع ذلك فإنَّ واحدة منهما رائعة وجذابةَ والأخرى ليست كذلك، الاثنتان تضحكان، بريئتان لمستقبل لا وجود فيه للمرَض والموت، وحيث لا أنتِ ولا أنا حتى مجرَّد احتمال.

مع تَقدُّم الرِّحلة تشرع الأسماء المكتوبةَ في الطريق باستحضار أمكنة الطفولة، ويتحوّل الفضاء إلى زمان، يَعرِضُ نفسَه في بُعدَين متزامنين، في الحال المُلحَّة على الوصول في أقرب وقت وأمْسِ المستعاد والثابت، المحتوى في الأسماء والعلامات الكيلومتريةَ، في الذكرى الحيَّة والدقيقةَ عن رحلات أخرى.

النظر عبر النافذة، وتعرُّفك على المشاهد الطبيعية التي كنت قد رأيتِها وأنتِ طفلة أكسبَتْ عينيكِ دون أن تنتبهي نظرةَ ذلك الزمان. إنه ابتداء عطلة الصيف، ويكون الانفعال والتَّوقُ إلى الوصول أقوى من تعب ساعاتِ كثيرة في السيارة، كلٌّ على جنب

الطريق وكلّ رقم وعدّ يتكرَّر كلٍ سنة ومع ذلــك لا يفقــد محتــواه السعيدَ الصافيِ والمطلق. لا تتذكّرين تتابع الأصياف، وإنْ كنتِ قــد أمْكَنَك أنْ ترتيبها حسب حلقات طفولتك ومراهقتك، التي انتهت فجأةً ذات يوم من يوليو. لا يُستنشَق فيه بغرفة في مستشفى، أمــام وجــه شمْعيّ للمرأة التي ماتتْ للتّو ومع ذلك فقد كانت قد تخلّتْ عن الــشَّبه بأُمّك. في ذاكرتك عن الأشياء البعيدة كلُّ الأصياف كانتْ تُختزَلُ في صيف واحد، واسع ورائق مثل انسياب نهر عظيم، وكــلُّ الأســفار كانت تنويعات على تعبير متطابق للاقتراب من الجنة. جالــسة فـــي الأمام، في الذكريات الأكثر قِدَمًا، في حضن أُمّك، ناظرةً إلى الطريق ومستسلمة للنوم رويدًا رويدا، ناظرةً إلى الصورة الجانبية لوجه أبيك الذي كان يسوق ويدخن أو تستديرين تجاه إخوتــك، الــذين كـــانوا يتعاركون في المقاعد الخلفية، وبالتأكيد أنهم كانوا يضمرون لكِ نوعا من الحقْد: كنت الصغيرة، وكنتِ جالسةً بين ذراعي أُمك، التي كانت ما تزال شابةً جدا، ولم تكن مريضةً، أو حتى ذاكَ الحين لــم تكــن تعرف، أو على الأقل لم تكن تترك إخوتك وأنتِ تدركون ذلك. لكــن ربَّما آنذاك؛ بينما كانت تحملكِ بين ذراعيْها وكانــت تَــشْرُدْ، كنــت تلاحظين في الصدر الخفقاتِ الصعبة لقلبها، كانت تُفكّــر فـــي أنهـــا ستموت، وأنها لن تراك وقد نضجْتِ، وأنها لن تعــرف مـــا الــذي ستكونين عليه، أو أنَّ هذه الرّحلة الصيفية إلى القرية التي وُلدتْ هي فيها يُمكن أن تكون الأخيرة بالنسبة إليها. حين ستَخرج السيارة مـــن المنعطف الأخير، في الوقت نفسه الذي ستكتشفين أنتِ فيه فــردوس

البساتين في السهول والمنازل المتسلّقة للسَّفح، سترفع هي العينين صوب القمة الحمراء الجرداء، حيث توجد المقبرة وستفكّر، هنالك أنا أحِبُّ أنْ أُوارى التّرابَ، مع الناس الذين أحبُّهم والذين يعرفونني، وليس في مدريد بتلك المقابر المليئة بموتى مجهولين.

سترين الاسمَ أخيرا، عند مدخل القرية مُضاءً بمصابيح السيارة، وستلاحظين حينئذ كلّ دوّار الرحلة وتعبها، لكن بالكاد بصيصا من السعادة القديمة للحظة الوصول. الآنَ الوقتُ شتاء، وهو ليلةٌ حالكة، وإن كانت الأضواء من بعيد قد أعطتك الإحساس بأن كلّ شيء استمرَّ سليما، فقد شرعتِ رويدا رويدا ترينَ أنَّ الأشياء ليست بالضبط أليفة، إن البلاطة الآن من إسمنت، تتذكّرينها من حجارة مرصوفةً، بها سيقان أعشاب في فجوة الجدار المستديرة، أن هنالك بناياتٍ مجهولةً ومجتاحةً تُغيِّر ملامح زوايا وتُغلق منظورات، أنَّ الدُّكان الذي كانت أمُّك وخالتك تبعثانك إليه صغيرةً لاقتناء بعض الحاجيات المنزلية مُغلَقٌ وهَرِمٌ، حيث كنت تشترين خبزا وحلوى صغيرة، ومشروبات غازيةً باردة، ومثلجات صيفا. كانت ابنة خالتي أكثر جسارة مني، وحين كانت تستطيع كانت تسرق من أمها بعض القطع النقدية من منزرها، وكانت تأخذني معها إلى شراء بوظة وشوكولاتة. أنا ألاحظ باهتمام كبير، أنظر إلى الأشياء التي تعيّنينها لي بالإشارة، وتعبيرُ وجهكِ بينما نحن نقترب من المنزل حيث تحتضر الخالةُ، لكني مدركةٌ أني لا أرى ما ترينه، الأشباح التي

استقبلتك فور وصولنا، والتي تحرسك الآن أو تترصدك حسب صعودنا عقبة مرصّفة بالإسمنت، عبر شارع ذي نور قليل، حيث توجد منازل كثيرة مغلقة.

ها نحن نصل: المنزل، عند نهاية العقبة، المنزل الذي كنت تصلينه لاهثة من الإثارة، جارية إلى فوق كي تسبقي إخوتك، دافعة بيديك الطفوليتين المصراع الكبير من الباب الذي كان يُغلق ليلا فقط، ساعة النوم. الآن، الباب موارب أيضا، وهنالك أضواء في كل النوافذ، أضواء تسطع في لج العتمة الشتوية هي إيحاءٌ بليلة سَهَر وحذر. ستدفعين البابَ خائفة من أن تكوني قد وصلتِ متأخرة، وسيبدو لك اللحظةَ أنك اكتشفت حركاتٍ موافقةً في الوجوه التي التفتت لاستقبالك، وجوه جدّ شائخة كما لو أن مَرَضا بعيْنه قد اكتسَحها. أوزّعُ قبلات، وأشدُّ على أياد، أسمعُ أسماء، أتبادل كلمات بصوت خفيض، أنا المجهول الذين يُقبّلونه كأنه واحد منهم لأني أجيء معكِ. وبما أني أُشكّل جزءًا من حياتك، فأنا كذلك أنتمي إلى هذا المكان، إلى الهَمِّ المتعب لمن أمضوا ليالي عديدة ساهرين على مريضة، وعلى حدادها المقدَّم لأجلها. هنالك طفلٌ في الحادية عشرةَ أو الثانية عشرة، وهنالك رجلٌ شابٌّ يلزم أن يكون أباه، يشُدُّ على يدي مرحّبا ومبرزا صداقة بصلابةٍ جدّ دافئة. إنه ابن خالتي، الطبيب. حضوري إلى هنا يوحّدني بك بطريقة جديدة، ليس فقط إلى الهوية المعزولة للمرأة الكهلة، التي عرفتها ليس منذ سنوات كثيرة،

وإنما إلى كل زمان حياتك وإلى الوجوه، وإلى أمكنة طفولتك، وكذلك إلى موتاك، إلى الذين يمثّل لهم هذا البيتُ الذي وصلنا إليه للتّو ما يشبه ضريحا: هنالك صورة كبيرة لأمّك، وأخرى لجدّيك من جهة الأمّ، بعيدين في الزمان ورصينين كما لو أن ظهور مأتميٌ إتروريّ، وعلى التلفاز القديم، الذي ربما كنتِ ترين فيه وأنتِ صغيرة الرسوم المتحرّكة، الوجه البشوش لابنة خالتك وفي صورة ملوّنة.

يروقني أن أكون هنا، ظلّك فحسب، الذي جاء صحبتك: زوجي، تقولين مقدّمة إيّايَ، وأنا أستردُّ الوعي بقيمة تلك الكلمة التي هي جواز مروري في هذا المنزل، بين أولئك الأشخاص الذين عرفوك ومنحوك حنانهم لوقت طويل جدا، قبْلَ أنْ أعثُر أنا عليك، وأنا أرى الصيغة التي يعاملونك بها، الألفة العائلية التي يقيمونها مباشرة معك، على الرغم من الزمان الذي مرَّ منذ المرة الأخيرة التي جئت فيها، فإن حُبِّي لأجلك يتّسع كي يسع ذاك التسوع الذي في تجربتك، في ارتباطات حنانك وذكراك، اتصالاتٌ شعْريّة هي أيضا تومئ إليَّ وتغذّيني، يُلحقون بي ماضيك، ذاك الذي هو حتى الآن لم يكنْ ينتمي إليَّ، إلى صوَر الموتى المجهولين تلك التي كانت تنتظرك بالإخلاص ذاته كالأثاث العتيق وجدران الغرف الكلسية. يا لَقدَم كل شيء، ستفكّرين بألم، ومجدّدا ستشعرين بوخزة تأنيب لكونك تأخّرت كثيرا، لكونكِ عشت في منزل أكثر رفاهية من ذاك الذي قضت فيه خالتك آخر أعوام حياتها، بتلفاز هو نفسه الذي كان وقتَ كان يروقك

أن تستلقي في االأريكة لكي ترى الرسوم المتحركَة، بينما مجمرة كهربائية تحت سماط المائدة ومبراد لم يكونا يفلحان تماما في تبديد الإحساس الآني بالبرد الذي يصعد من البلاطات كأنه يرشح منها، البلاطات نفسُها التي لذلك العهد، فقط هي أكثر تَلَفًا، بعضُها قد انفكَّت، تَسْمع صوتا حين تدوسُها خطوات أحدهم: كلُّ شيء هَرِم، وليس قديما، جُرِّدَ سريعا من الجمال الكاذب الذي صقَلَته به الذكريات، كراسي البلاستيك المنَجَّدة التي كانت ابتكارا يوم كنتِ طفلةً، الأريكة الكستنائية التي تُقلِّد الجلد، تمثال الحَبَل بلا دَنَس للعذراء من جصٍ مُكلَّس، بوجه دقيق وشاحب والعباءة زرقاء ناصعة. ما الذي ستكون عليه الأشياءُ بعد غد، بعد الدَّفن، حين سيُغلَق المنزل الذي لن يعيش فيه بعد الآن أحد، المنزل غير المريح بما فيه الكفاية كي يُسكن والمُكلِّف جدا ترميمُه. يلزم هدمه كاملا، يقول أحدٌ ما بجانبي، أحد أقاربك، بتلك النبرة التي يُتحدَّث بها عن أشياء مبتذلة لتزجية مَلَل سَهَر على ميِّت، سيمكث المنزل مغلقا، وسيأخذ في التداعي شيئا فشيئا، مثل منازل كثيرة مهجورة بالقرية.

هنالك جوٌّ أَرَق ومتعب بالانتظار في البيت، انتظار الوصول البطيء للموت الذي يدنو من الناحية الأخرى من الباب الموارَبة، التي تفصل غرفة الجلوس عن غرفة نوم المرأة التي تحتضر، نائمة هي الآن، قال لنا الرجل ذو الشعر الأبيض والتعبير الطيب والغائر، الذي هو أخ آخر من إخوة والدتك وخالتك، ووالد الطبيب، وكذلك أبُ

ابنةِ خالتك الميتة، التي تمكثين أحيانا ناظرة إلى صورتها ضمن رتابة الانتظار، فتاةَ شابة وجدُّ جذابة، ذات عينين خضراوين وشعر مُقصَّب، وهاج وأشهب، فيها شيء منك بملامحها، ربما الذقن القويُّ والابتسامة العريضة، وفي اللمحة القِرفيَّة التي للبَشرة. غرفة الجلوس هي قاعة لانتظار الموت، وأنا جاسوس جالس فيها، جاسوس على ما أنت تفعلينه وتريْنه، وتقولينه، وربما على ما تُحسِّينه، قريبةً مني، ضاغطةً على إحدى يديَّ في الأريكة، وأحيانا بعيدة، مجهولةً تقريبا، ضائعة في استحضارات هذا المكان، وفي استحضار كلِّ شيء أنا أراه للمرةَ الأولى، والذي هو بالنسبة إليك رُفات الطفولة، متحدِّثةً بصوت خفيض مع أولئك الأشخاص الذين عرفوكِ منذ أن وُلِدت، والذين تدركين فيهم حقيقةً وبكل فجاجةِ مرورَ الزمان، وحيواتِهم وحياتِك.

إلى أولئك الذين كانوا كهولا شبابا، حين كنا أطفالا، ولم نصل إلى رؤيتهم تماما كما هم، نُضيف إلى شيبهم وتجاعيدهم التي هي الآن الوهَج البعيد الذي كان لهم في أعيُننا الطفولية. تواصلين النظر إلى الرجل العجوز الذي عانقني حين سلَّم عليَّ كما لو كان يعرفني منذ الأبد، وخَلْفَ ضرر العُمر يوجد الوجه الشابُّ والحيويّ لعمِّك، الذي يشبه أُختيْه كثيرا، أمّك وخالتك المحتضرة، الأخ الأصغر الذي سيكون الوحيد الذي استمرَّ على قيد الحياة، والذي ربَّما شيَّب شعره موتُ ابنتِه قبل الوقت، والذي منحه غمَّ الحِداد الذي يحتفظ به منتظرا

المجيء الجديد للموت، جالسا قريبا من باب غرفة النوم، راغبا في سماع إن كانت أخته قد استيقظت من نومها المورفيني، أي على الأقل الوقت الكافي لكي تعرف أنك قد وصلت، كي تراك للمرة الأخيرة. كانت طيلة اليوم تسألني عنكِ إن كنتِ قد وصلتِ، وإن كنتما قد اتصلتما، إن كنتما في الطريق إليها حقيقة.

الآن، الطبيب الذي كان معها يظهر بالعتبة، وبحركة يشير إليك أن تدخلي. ينحني قليلا كي يقول لك بصوت خفيض إنها استيقظت، وأنها سألت للتو عنك. أبقى متأخرا قليلا، متردّدا، مفزوعا في جبن بسبب الاحتضار الذي سأحضره لو عبرتُ تلك الباب، لكنك تأخذينني معك ضاغطة بقوة على إحدى يديّ، ويشجّعني عمُّك على أن أتبعكِ واضعا على كتفي يدَه الكبيرة واللطيفة، وبالارتجاج نفسه، الذي ليس من ألَم، وإنما لغرابة غير مقبولة هي التي أزحْتِ بها منذ عشرين عاما الستارَ البلاستيكي عن السرير الذي ماتت فيه أُمُّك للتّو، ستدخلين إلى الغرفة في شبه ظلمة، يفوح المكان شيخوخةً كثيفةً، مرَضًا، دواء، لكن كذلك مع برد الشتاءات القديمة، وبشيء آخر حامض وغير صحّي يلزمُ أن يكون رَشْحَ الموتِ، آخر الإفرازات وهبّات الهواء من ذاك الجسد الذي يرقد في السرير، مُعلِّمًا بالكاد حجمَه تحت اللحاف، متجمّعا في وضع جنينيٍّ متصلّب، حجمه متقلّص بشكل مدهش. ينحني عمُّك عليها، يزيح الشَّعر عن وجهها، ويلاطف خدَّيْها بحركة حنان أكثر شبابا بكثير منه هو نفسه: ربما

كان يلاطف هكذا وجه ابنته في المهد. انظري من جاءت من مدريد، يهمس إليها، كي تقولي لاحقا إننا أحببنا أن نخدعك.

الجفنان بالكاد يرتفعان دون أهداب، لكن هنالك لمعان بؤبؤين في شبه الظلمة، وتصعُر ابتسامة في الفم المضخم، حيث الأسنان الصناعية غدت تبدو أكبر بقدر ما كان الوجه يتضاءل. ترتفع يدٌ نحوك ببطء شديد، عظام وشرايين زرقاء وبشرة شاحبة، تعثر على يدك، تواصل البحث وتبلغ وجهك، الذي يمتلئ دموعا، تتعرّفه باللمس مثل يد أعمى. تنبس باسمك مستعملة اسمَ تصغير لم أسمع به أبدا، والذي هو دون أدنى شك الذي كانت أمّك وهي تمنحانك إياه حين كنتِ صغيرةَ، وأنتِ تجلسين على حدّ السرير، تعانقينها، مغرقةً ذاتك في رائحة المرض. تقبّلينَ وجهها الذي لا تميّزينه، عظام صلبة لميّتة تحت البشرة الشفافة، تنادينها بصوت خفيض، كأنّك تريدين إيقاظَها من كلّ شيء، أنْ تخطفيها من سبات الاحتضار المُهلك ومن المورفين. ستتذكّرين أنه على هذا السرير نفسه كنت تعانقينها مرات كثيرة بحثا عن الدّفء في الليالي الفظيعة لشتاءات الطفولة: أنّك في السابعة عشرةَ عدت إلى فعل ما لم تفعليه منذ الصِّغر وأنّك بحثت عن ذاك المعطف نفسه ليلةَ دُفنتْ أمُّك.

اختفيتُ للحظات، صرتُ لا مرئيًا، اختلطتُ مع الزاوية المعتمة التي استمررت فيها واقفا، لستُ لا ضيفا ولا جاسوسا، أنا حضورٌ أخرس من عالم آخر ومن زمان آخر. لكن المرأة المجهولة

التي أدركتُ حضورَ احتضارها، وإن بدَت عيناها شبه مُغلقتين، فقد رأتني، هي تشير بحركة مترددة من يدها التي ستغدو جثة، اليد التي كانت جدَّ دافئة وآمنة بالنسبة إليك مثل يديْ أمّك، والتي تتعرّفينها في حِماها القديم تحت شبح اليدِ الذي تحوّلتْ إليه. تبتسمين ناظرةً إليَّ حين تقول لكِ شيئا لا أصلُ إلى سماعه، بصوتَ خشن ومهموس؛ أكاد لا أميّزُه من لهاث تنفُسها، تقول لكَ أن تقتربَ، تريدُ أن ترى إن كنتَ فتى وسيما جدا مثلما حكيتُ أنا لها.

أقتربُ باحترام، مع بداية تردُّد وغباء، مثلما يتحرّك المرءُ في معبَد ديانته. خطوط الجفنين كأنها أُعيدتْ خياطَتها تنفتح متواربَةً أكثر قليلا. أطللتُ بانحنائي على حياة وعلى عينين في طور الانطفاء، ولامستُ بشفتيَّ بَشَرة ملساء يابسةِ ستغد في غضون ساعاتٍ أو دقائقَ باردةَ. الوجه شديد القرب من وجهي هو لها لامرأةَ مجهولة هي الآن تتيه في ظلمات الموتِ القريبة، والصوتُ المتحشرج الذي أكاد لا أسمعه هو بالتأكيد حشرجةٌ، محاولةٌ قلقة للتنفُس تتفكّك أثناءها الكلمات التي بالكاد تكون قد تشكّلتْ بالشّفتين الباهتتين واليابستين. لكنْ في اليد التي تضغط طويلا على يدي أحسُّ كما لو يصلُني عبر الزمان ومن الناحية الأخرى للموت الضغط العاطفي ليَدِ أُمّك، كما لو أنها هي أيضا قد أدركت رؤيتي بالنظرة الأخيرة لخالتك، وبرؤيتِك معي أعواما كثيرةَ بعدْ سيُمكنُها أن تزيح جزءا من الارتياب المؤلم بصدد مستقبلك في هذه الحياة التي لن تكون هي إلى جانبك فيها. في

الآثار الإغريقية التي رأيناها بالمتحف المتروبولي في نيويورك كان الأموات يصافحون في هدوء أيادي الأحياء. اليد التي تضغط يدي بها بعض العَرق، وقوّتها تضعف فورا، وفي الوقت نفسه ينغلق الجفنان تماما. يتملكني الارتباك، فجأة، لم أر إنسانا يموت أبدا، أبتعد قليلا وتعود العينان إلى الانفتاح مجدّدا في وهَن شديد كما يُسمع خيْط صوت، ويرتسم مستهلّ ابتسامة على شفتي المرأة المحتضرة، اللتين لهما اللون ذاته الذي لوجهها المُصفرّ. تنفصل اليد عن يدي تماما، شخير الصوت يتحوّل إلى شكوى طويلة، والطبيبُ يزيحني بلطف إلى ناحية، وهو يرفع حقنة للحقن تحت الجلد. عليَّ أن أحقنها مزيدا من المورفين قبل أن يعود الألم أقوى. لكنها تحرّك الرأس من ناحية لأخرى، الشَّعَر مشعَّث وأشهب يلتصق بالصدغين، في التواء وفوضى في دلالة على أنه أمضى كثيرا من الوقت ملتصقا بالوسادات: تقول لا، لا تريد العودة إلى نوم ربما لن تعود إلى الصحو منه، وتُتَمتم بشيء، يميل الطبيب على وجهها لكي يتبيَّن ما تردّده. ابنة خالتي، إنها تناديك، تقول لك أن تأتي معها. تناديك ناطقة بالاسم الطفولي الذي لم ينادك أحد به منذ أنْ كنت طفلة، وحين تكونين بجانبها تفتح عينيْها بالكامل كأنها تريد أن تتأكد أنّك أنت هي حقيقةً، وتمرّر يدا على وجهك، مُبلِّلةً أصابعها بدموعك، وبالأخرى تريد أن تضم يديك الاثنتين، ملاطفةً إياك، ومحتفظةً بك، ملامسةً منك الظّهر بأظافرها المكسورة، كأنها تحاول النهوض في اتجاهك

كي تقول لك شيئا في أذنك، أو كي تقبّلك. اليدُ لا تبرح يــديْك، لكــن بعد ارتجاف خفيف جدا الآن هي لا تحاول الضغط عليها، والعينـــان المفتوحتان لا تنظرانكِ الآن. لقد رحلت عنك دون أن تتنبهي، مثلمـــا رحلت عنك أمُك، وإن كنتِ هذه المرة لم تمكثي نائمة، لقد غادرتْــك خلسة حتى أنّك تشعرين الآن بالدهشة من أن الموت يمكن أن يحدث بطريقة جد مكتومة، في لحظة جد خاطفــة، مثــل تمــوّج ضــعيف في ماء بحيرة.

من يستطيع النوم هذه الليلة التي قد بدأ فيها الانهماك الكتــوم الذي يمهّد للدفن، الذي تسيّره نساءٌ خبيرات بالطقوس العمليةِ للحداد، إلباسُ الميتة قبل أن تشرع في التّصلُّب، التكليــف بإعــداد تــابوت ومنصة النعش الذي ستجثم عليه الميتة، والشموع، والصليب الكبير، هي الأشياء التي ستمنح المنزل خلال الساعات القادمة جــوًّا قاتمـــا، مظهر مكان تعبُّد من الزمان الغابر ومكان مــوت. أســمعُ تنفُّــسك اللطيف في العتمة، وأعلَمُ أنّك لست نائمة، وإن أمضيتِ كثيــرا مــن الوقت صامتة، ولا تتحرّكين كي لا تزعجيني. أستغربُ من الــسرير بملاءات باردة جدا، والغرفةَ التي برائحة رطوبة خفيفة ورائحة مكان مغلق، لكن أكثر من ذلك هو أنّك أنتِ أيضا ستستغربينها، أنتِ التـــي لم تعودي إلى النوم هنا منذ نهاية مراهقتك، السرير الأوّل والغرفــة الأولى حيث نمت وحيدة حين أُخرجتِ من المهد ومن غرفة والديْك، حيث تعرّفت الارتباكَ والأرق في ليالي العواصف، حين يصيّرُ هزيمُ

الرعود زجاجَ النافذة يرتعد، ويُعميكِ برق بنصاعته البيضاء والفجائية، حيث كنتِ تخافينَ من أن تنامي، وأنْ تحلمي بفيلم الرُعب الذي رأيته أنتِ وابنة خالتك في سينما الصيف، الاثنتان منكمشتان في الملاءات، متحاورتين ليالي برُمّتها، مستكشفتين أسرارا جسديَّة سريَّة ومخجلة، حلولَ أول عادة شهرية، والخُطّاب الأوائل، الرقصات في التصاق مع أبناء آخرين لِمُصيِّفين في رغْي الحَمام، أثناء حفلات القرية، في شبه الظل المُذنب والمُحمرَ للمراقص الأولى التي كنتما تغامران فيها، أنتِ دوما خلْفَها، هي التي عرَّفتك للمرة الأولى على دوخة الجُعَّة والسجائر، يبدو أنها لم تكن تعرف أيا من الحدود التي كنتِ تتوقفين عندها، ولا الخجل ولا الخطر. من كان سيقول، إذن، إنَّ مصيريْكما سيكونان مختلفين كثيرا، أنها وهي الشبيهة بك كثيرا، التي وُلِدت في الوقت نفسه مثلك، كانت ستشرع في الضياع شيئا فشيئا في متاهات العتمة وسوء الحظ، التي لم تعد منها، والتي كان سيكون سهلا عليك كذلك أن تقَعي فيها، ليس سريعا، دون أن تتركك تتجرّين وئيدا، منحرفة، مثلها هي، حتى إنها ذات عام لم تعُدْ إلى التصييف في القرية مع أبويْها وأخيها، الذي غدا طبيبا فيما بعد، حازما جدا ولطيفا منذ أنْ كان طفلا، والذي كان دوما النقيضَ الدقيقَ لها.

العينان خضراوان، في الصورة التي كان يمكث أبوها ينظر إليها في صمت، كأنه يطرح عليها سؤالا سيواصل هو انتظارَ الإجابة

عنه، وإن كان يعلم أنه لن يحصل عليها، الشَّعر منفوش، البشرَة ملفوحة، شقراءُ بشمس المسابح والأصياف، الخدَّان لا يزالان ناضرين خدًا المراهقة، الابتسامة مثل حركة مجاملة وتحدٍّ، الذقن يشبه كثيرا ذقنك. كانت نحيفة جدا في المرةَ الأخيرة التي رأيتها فيها، لكن كانت لا تزال فاتنة، طويلة جدا وهيفاء، شعرها مجعّد مرسَل على الوجه، وذلك البريق في العينين الخضراوين والبسمة الحمقاء نفسها، حين كنا نقوم معا بإحدى التصرفات الرعناء. لكنها غدت شاحبةَ جدا، وتتكلّم بتوقُّف لم أعرفه أنا فيها من قبلُ وإن كانت متعبة، وكان لديها ولَدٌ، كانتَ تواصل حكي نفس الحماقات لي، الحماقات نفسها التي اقترفناها حين بدأنا الخروج مع فتيان في القرية. لقد حكت لي أنها تعرَّفت إلى شخص في قطار، وأنها في دقائق قليلة كانت قد أقفلت عليها معه المرحاض لممارسة الجنس. كنا في مقهى، وهي كانت تدخن كثيرا، وكانت تنظر دوما بمواربة وارتباك، متمالكة نفسها بمجهود كبير، لكن كان يُلاحظ عليها أنها كانت تستمتع معي، لكنها كانت على عجالة كبيرة للانصراف، للحصول على شيء كان ينقصها كثيرا، وكان يجعلها تقضم أظافرها وتشعل سيجارة ما أن تطفأ للتّو أخرى، وكذلك كان يُلاحظ علينا نحن الاثنتين أنه على الرغم من الحنان والذكريات ما عُدنا نتشابه الآن، كانت تنقصنا موضوعات محادثة، ثبت مشترك، وكنا نبقى صامتين، تنظر مرة أخرى إلى الشارع أو تُطفئ السيجارة في المنفضة وقد جاءت على إشعالها للتو،

لم تكن تطفئها، كانت تسحقها لاوية إياها. اتفقنا على أن نعود إلى القرية معا في الصيف القادم، لكني لم أستطع الذهاب، لأنه كان لديَّ شغل كثير، ولا هي أيضا ظهرت هنالك، ولم أعُدْ بعدُ إلى رؤيتها أكثر، حتى إنَّ أبويها انتهيا إلى فقد أثرها. حين علِم ابن خالتي بالمستشفى لم يكن بالإمكان إصلاح الوضع. لقد أخذتها سيّارة إسعاف من الشارع. قال لي إنها كانت مُشوَّهة حتى إنه ميّزها حقيقة بعينيها فقط.

كنتِ تعانقينني، تضمينني بقوة، مثلما حين تكونين نائمة وتحلمين بكابوس، تشبكين رجليك الباردتين برجليَّ، منهَكة ببرد مطابق للذي كنت تشعرين به صغيرة، برد قديم، لشتاءات طويلة جدا ومنازل بلا تدفئة، محفوظة في غرف هذا البيت مثل صوَر الموتى والأحاسيس المعيشة جيّدا لذاكرة سابقة على العقل، لكنها الآن ملموسة من قِبَل الكآبة، بالحدس التدريجي لفقدان لا عوض له وهو قادم: الخوف الفجائي للطفل الذي سيكبر، الحدس النازف والقادم من حيث لا يُدرى من أنَّ أبويه لن يكونا دوْما شابّين، إنهما سيهرمان وسيموتان. وكذلك الخوف من أن تتعذبي في الليالي التالية بعد موت والدتك، حين كنت لا تجرئين على الخروج من غرفتك إلى الحمَّام لأنَّكِ كنت تخشين رؤيتها أمامك، في الممر المعتم، شعثاء، وترتدي روبَ المرضى، مثلما عادتْ إلى البيت ومكثتْ فيه أيّاما قليلة قبل أن تدْخَل مجدَّدا إلى المستشفى. تغمضين العينين، وتخشين أنه عند

فتحهما من وقوفها منتصبةً أمام ناظريْك، عند قدم السرير، طالبةً منك شيئا في صمت، وإذا أحسستِ أنه بنومك يكون لديك خوف أكثر كذلك من أن تَظْهرَ لك في نومك، وتستيقظين منتفضةً من قَلَق، تعتقدين أنّك سمعت ضوضاء لأبواب تفتح أو خطوات، وتشعرين مجدَّدا بالألم القويِ لموتها والغياب المفزع الذي تعيشين فيه الآن، وتخجلين من أن يستبدَّ بك كثير من الخوف لعودتها. وأن تريها الآن وقد تحولت إلى شبح.

تصل إلى الغرفةِ من الأسفل همهمات أحاديث وضوضاء خطوات، محرّك سيارة، رنين هاتف، أصوات رجال يصدرون تعليمات، أشياء كبيرة الحجم تتمّ زحزحتها أو إنزالها على الأرض. يزيحون أثاثا كي يفسحوا مكانا للتابوت. لكنك لا تريدين الاستسلام لهذا التفكير، تقاومين فعل تخيُّل وجه خالتك ميِّتةَ، المخرَّبةَ، ليس بالسرطان وحده، لكن أيضا بالشيخوخة التي لم تُدرِكْ أمَّك، والتي هي الآن تستمرُ مبتذلة في الذكريات كما في الصور، امرأةَ نحيفة وشابة إلى الأبد، لأن صُوَرَها تقريبا مُحيَتْ في زمانِ المرض، كما أنه بسبب حظ غريب لم تحفظي صُوَرًا من أعوامها الأخيرة، بحيث إنك الآن تَرينها ضمن الشباب اللامتبدّل الذي تمنحينها إياه حين كنت طفلة، وكنتِ تجهلين كذلك أن الأشخاص يتغيَّرون ويهرمون، وأخيرا يموتون. وهكذا أنا أراها أيضا، جاسوسٌ منتبه ومتقصٌ لذاكرتك التي أريدها لي كحياتك الحاضرة. لا يمكنني أن أتخيَّل المرأة التي كانت

ستكون عليها أمّك الآن، لو لم تكن قد ماتت، سيدة في الستين ونيف، بدينة، ربما بشعر مخضّب. أراها مثلما ترينها أنت، مثلما تحلمين بها أحيانا، أمٌّ شابة لا تزال تحتفظ بابتسامة فتاة رقيقة، أحدس ظلّها أحيانا في شفتيك، مثلما أستطيع تخيُّل نظرتها تُستشَفُّ في نظرتك، وأن منها تأتي تموُّجات على سطح الزمان، ميلك إلى الكآبة والنزعة الوقتيَّـة، وطريقتك في الافتتان بما هو جديد، العناية التي تعقدينها للأشياء من حولك، إخلاصك لهذا المنزل حيث كنتِ ومى طفلتين. بهذا المنظر الطبيعي الذي لواحَةٍ، الذي في خلفيته القفر الذي رغِبَتْ هي أن تُدفَن فيه، كي تكون دوما برفقة أهلها، الذين رحلوا تباعا واحدا تلو آخر مؤلِّفين معها المقبرةَ الصغيرة ذات السور الذي بلون التراب، أوّلا ابنة أختها، التي ماتت وهي أكثر شبابا وبقيتْ بمنأى عن عوادي الزمان في الصورة فوق التلفاز، الآن أختها، هذه الليلة، اسمٌ آخر مضاف إلى شاهدة قبور حوش العائلة، الذي ستنظرين أنتَ إليه غدا خلال الدّفن مُفكّرة ربما للمرة الأولى، دون أن أعرف أنا ذلك، دون أن ترغبي في قول ذلك لي، حين سأموت أنا كذلك أريدُ أنْ أُدفن معهُنّ.

آه! أنتِ التي تعرفينه

يختفون ذات يوم، يضيعون ويظلون مَمْحُوِّين إلى الأبد، كما لو كانوا قد ماتوا منذ أعوام كثيرة حتى أنهم الآن لم يعد يتذكرهم أحد، لا توجد علامات ملموسةَ على أنهم قد كانوا في العالَم. يصل أحدٌ ما، فجأةً يقتحم حياةً، يشْغَلُ منها ساعات، يوما، مدَّةَ رحلة، يتحوّل إلى حضور مثابر، جدّ متواصل حتى أنه يُفتَرَض بأنه لا يُتَذكَّر الآن الزمان السابق على ظهوره. كل ما يوجد، وإن كان خلال ساعات معدودات، يبدو مباشرةً غير متحوّل. في طنجة، في المكتب المعتم لمَتْجَر نسيج، أو في مطعم بمدريد، أو مقصف قطار يحكي رجُل لآخر مقاطع من رواية حياته وساعات القصة، ويبدو من خلال المحادثة أنها تستغرق زمانا أكثر حتى تنتهي في الساعات المألوفة: يتكلَّم أحدٌ، ويُصغي آخر، ولكل واحد من الاثنين يكتسي وجهُ الآخر وصوته أُلْفة لما يُعْرف منذ الأبد. ومع ذلك، فساعة أو يوم بعد ذلك، لا يبقى لذلك الآخر وجود، ولن يوجد أبدا، ليس لأنه قد مات، وإن كان بالإمكان أن يموت دون أن يعلَم من كانوا على مقربة منه بذلك، سنواتٌ برمّتها من الحضور المكلّس بالعادة تتحلّل إلى لا شيء. طيلة

أربعة عشر عاما، من ٣٠ يونيو ١٩٠٨، كان فرانز كافكا يلتحق في انتظام بمكتبه في شركة الوقاية من حوادث الشغل في براغ، وفجأة ذات يوم من صيف ١٩٢٢ خرج في التوقيت نفسه لكل يوم، ولم يعد أبدا، لأنهم منحوه إجازة نهائية بسبب المرض. لقد اختفى على غرار الكتمان نفسه الذي شغل به خلال زمان طويل مكتبه المرتب، الذي كان يحتفظ في أحد أدراجه بالرسائل التي كانت تكتبها إليه ميلينا جيسينسكا، وظل معطف له معلق في خزانة لبعض الوقت، بعد ذهابه، معطف قديم كان يحتفظ به كافكا للأيام الممطرة، ثم اختفى بعد ذلك بوقت قصير، واختفت معه الرائحة الخاصة التي كانت تعلم حضورَه في ذلك المكتب طيلة أربع عشرة سنة.

يتلاشى ما يكون أكثر ثباتا، الأسوأ والأفضل، الأكثر ابتذالا وما كان ضروريا وحاسما، الأعوام التي يقضيها أحدهم مشتغلا في حزن بمكتب أو موخوزا بعدم الاكتراث أو النأي بين زوجين، ذكرى رحلة إلى مدينة حيث عيش أو التي وُعدَ بالعودة إليها عند نهاية زيارة متفرّدة ولا تنسى، الحب والمعاناة، حتى بعض الجحيم الكبير فوق الأرض سيمحى بانقضاء جيل أو جيلين، ويأتي يوم لا يبقى فيه ولا شاهد واحد حيٌّ يمكنه التذكر.

كان السيد سلامة، يقول في طنجة، أنه ذهب لزيارة معتقل بولونيا حيث غرف الغاز ابتلعت أمَّه وأختيْه الاثنتين، وأنه كان هنالك فراغ كبير في غابة، وملصقٌ به اسم في محطة سكة حديد مهجورة،

وأن فظاعة عدم مكوث آثار مرئية كانت مع ذلك محتواة في ذلك الاسم، في ذلك الملصق الحديدي الصَّدئ على رصيف لم يكن فيما وراءه أي شيء، فقط شسوع الفراغ وأشجار الصنوبر العملاقة التي تواجه سماء رمادية خفيضة كان يتدفق منها مطر هادئ، مذوَّبَةً في الضباب، كانت تقطر في إفريز العنبر الوحيد للمحطة. مجرَّد فراغ كبير ودائري في غابة، هو ما يمكن أن يكون حصيلة اختلال جيولوجي قديم، سقوط نيزك. كان حقلا قليل الشأن حتى إن لا أحد تقريبا كان يعرف اسمَه، قال السيد سلامة، ونطَق بكلمة غامضة يقتضي أن تكون بولونيةَ: لكنَ اسْمَ "أوشفيتز" أيضا لم يَعْنِ شيئا بالنسبة إلى بريمو ليفي في المرة الأولى الذي رآه فيها مكتوبا على لافتة محطة قطار. في مكان هكذا، بعيدا عن المعتقلات الرئيسة، كان سهلا جدا أن يضيع المُرَحَّلون، أن تختفي أسماؤهم من تلك السجلات الدقيقة التي كان الألمان يحملونها دوما معهم، بالحماس الإداري ذاته والتعصُّب اللذين كانوا ينظمون به خططهم الهائلة لترحيل مئات الآلاف من المعتقلين عبر القطارات في خضم قصف الحلفاء لهم والكوارث العسكرية للشهور الأخيرة من الحرب.

كانت هنالك أسلاك حديدية بالكاد تُرى تحت العشب الندي، أسلاك صدئة وفلنكات عفنة. لقد تعثَّر أحد عُكازَي السيد سلامةَ أو تعلّق في إحداها، وأوشك هو على السقوط، كان غليظا أحمق وحقيرا فوق التراب ذاته الذي هلكت فيه أمه وأختاه، التراب الذي مَررْن

فوقه حين وصولهن إلى المعتقل حين النزول من القطار، حيث حُمِلن مثل حيوانات تساق إلى المجزرة، ثلاثة أوجُه وثلاثة أسماء عائلية وسط حشود عارية لمشرَّدين مجهولين. أمسك به الدليل، الإنسان الذي واصل العيش والذي ساقه في سيارة عتيقة إلى هناك، والذي دلَّه على أشكال الأسوار التي بالكاد تُرى، المستطيلات الإسمنتية التي كانت فوقها الوهدات، شكل حائط تسييج واطئ من الآجر الذي لم تخطَّ عليه عينُ امرئٍ. منْ يعرفون المكان جيدا، والذي كان البقية الوحيدة من الجناح الذي كانتْ فيه أفران الإحراق، التي لم يبق منها بالتأكيد شيء، لأن الألمان فجَّروها في آخر لحظة، حين كانت أسابيع قد مرتْ، والسماء حمراء كل ليلة في الأفق الشرقي، وكانت الأرض ترتجف من المدافع التي تقترب كل مرة من سلاح المدفعية الروسية. عشرات الآلاف من الكائنات البشرية مكدَّسة هنالك مدَّة خمس أو أربع سنوات، ينزلون من ذاك القطار ذي العربات الخاصة بالحيوانات، يصطفون على الأرصفة الإسمنتية، نباحاتُ أوامر بالألمانية أو البولونية، وصرخات ألم، وأبديَّات يأس، صدى وصرخات أو نباحات تضيع عبر الكثافة الهائلة للصنوبر، مارشات عسكرية ورقصاتُ فالس تعزفها جوقة شبحيَّة لسجناء، ومن كل ذلك لم يبق شيء، وحدَها فرجةٌ في غابة، بين الاخضرار البليل لمطر خفيف، أشجار صنوبر عالية قاتمة وضباب يُخفي البعيد، المواضع التي سيراها المعتقلون يوميا عبر الأسلاك الشائكة، وهم يعرفون أنهم

لن يعودوا إلى وطء العالَم الخارجي، وأنهم معزولون عن عالم الأحياء كما لوكانوا قد ماتوا.

ما الذي آل إليه ذلك الرجل النحيف، الهارب، الخدوم الذي رافق السيد سلامة إلى الموضع حيث كان المُعتَقَل، والذي اختار له القدرُ الغريب العمَل كحارس ودليل، داخلَ الجحيم الذي استمرَّ حيًّا بعد اندثاره، والذي لم يرغب في الابتعاد عنه، حارس امتداد مقفر، وسطَ غابة ورصيف لا ينتمي إلى أي محطة قطار، أركيولوجي آجُر مائل إلى السواد ومفصَّلات قديمة، وأبواب أفران حديدية تعفّنتْ بطيئا، يفتش عن بقايا، وشهادات، ورفات، وقصعات معدنية، وملاعقٍ كان السجناء يتناولون بها الحساء، دليل بين آثار لأنقاض بالكاد تُرى، صارت تخفى أكثر فأكثر بالنباتات، وتتلف مع المرور العادي للزمان، أو تتزَيَّن خلال الشتاءات ببياض الثلج. حين سيموت ذاك الدليل، أو سيصبح عجوزا جدا، أو سيتعب من مرافقة المسافرين الغرباء الذي يجيئون لزيارة ذلك المعتقل ذي الأهمية الثانوية، حين لن يكون حاضرا ليدُلَّ على بقايا سور من آجر مائل إلى السواد أو أرصفة إسمنتية، أو تموج خاص في الثلج غير المَداس، لن يلحظ أحدٌ حضور تلك الحوادث الصغرى في فجوة الغابة، ولن ينتبه إلى أن الاصطكاك المعدني الذي تحت نعل حذائيه هو لملعقة، كانت ذات لحظة شيئا ثمينا جدا في حياة إنسان، وطبعا لا أحد يمكنه أنْ يعلَم

الدلالة الفظيعة لخطوط آجر محترقة، ولعمود ساقط بين العشب، الذي يوجد به الآن حلقة لسياج شوكي.

يختفون، سيظلون وراء الزمان، ويشرع البعد في تزييف الذكرى شيئا فشيئا، في تدرُّج شديد مثلما يفعل المطر، والسنوات، والهجر، وهشاشة المواد، حيث تفكّك أطلال معتقل ألماني للتصفية العرقية، ضائع في الغابات الحدودية بين بولونيا ولتوانيا، أُحرِق ودُمِّر بعنايةٍ من قِبَل حُرَّاسه عشيَّة قدوم الجيش الأحمر، الذي لم يعثر إلا على رماد، وحطام، وخنادق سيِّئة الطمر، توجَد فيها بقايا كثيرة لأجساد بشرية ظلَّت سليمة بسبب البرد، متجَمِّعة، مختلطة، عارية، هياكل عظمية، يلتصق بعضها ببعض، عشرات الآلاف من الأجساد التي لا اسم لها، وقد كان بينها، على الرغم من ذلك، أكبر عدد من الأعمام وأبناء الأعمام والأجداد الأربعة للسيد إسحاق سلامة، وكذلك أمه وأختاه اللائى لم يتمكَّن من الهروب، مثلما أفلت هو وأبوه، لأن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة إليهن، حين وصلهما عند نهاية صيف ١٩٤٤ أحد الجوازات الممنوحة من المفوضية الإسبانية في المجر تعترف بجنسية العائلات السفاردية التي كانت تعيش في بودابست.

لقد ساقوا جيراننا، وأصدقائي في المدرسة، وأصدقاء أبي، قال السيد سلامة، نحن كنا لا نخرج من البيت خوفا من أن يعتقلونا في الشارع قبل أن تصلنا الأوراق التي وعدنا بها ذلك الدبلوماسي الإسباني. كنا نسمع في الراديو أن الحلفاء سيدخلون باريس، وأن

الروس من جهة الشرق كانوا قد عبروا حدود المجر، لكن كان يبدو أن الألمان لم يكن يهمهم شيء أكثر من إفنائنا جميعا. تخيّل المجهود الذي كان يلزم كي يُنقل في قطار عبر نصف أوروبا مئات الآلاف من الأشخاص وسط حرب يوشكون على خسارتها. لقد فضلوا استعمال قطارات كي يبعثونا إلى المعتقلات قبل أن يبعثوا بفيالقهم إلى الجبهة. دخلوا إلى المجر في مارس، يوم ١٤ مارس، سأتذكر ذلك دوما، وإنْ كنتُ طيلة سنوات كثيرة دون تذكُر لهذا التاريخ، دون تذكُر لأي شيء. وصلوا في مارس، في حدود الصيف، يمكن القول إنهم قد رحّلوا نصف مليون شخص، لكن بما أنهم كانوا يخشون وصول الروس بصورة سريعة، وألا يتركوا لهم وقتا كي يبعثوا بانتظام كل اليهود المجريين إلى "أوسفيتش"، فقد قتلوا كثيرين برصاصة في الرأس وسط الشارع، وكانوا يقذفون الجثث في الدانوب، الألمان وأصدقاؤهم المجريون، الصلبان المعقوفة، كانوا يسمُونهم، لهم حلل سوداء مثل التي لأس أس، بل إنهم أكثر دموية منهم، وأخشنْ، وأقلُ منهجية منهم بكثير.

يقيم الإنسان طيلة أيام حياته في المنزل ذاته الذي وُلد فيه، في المأوى الدافئ لوالديه وأختيه الكُبريين، المنزل الذي يبدو له أنه وُجد منذ الأبد، والذي سيستمر دوما غير متبدّل كما الصور واللوحات على الجدران واللُعب وكُتب غرفة نومه، وفجأة ذات يوم، في ساعات قليلة، كل هذا يختفي إلى الأبد ولا يترك أثرا، لأن المرء يكون قد

خرج للقيام بمهمة من مهماته المعتادة، وحين يعود ساعة أو ساعتين من بعد يحول بينه والعودة خندق زمن لا إمكان لتفاديه. كنا أبي وأنا قد خرجنا بحثا عن شيء للأكل، قال السيد سلامة، وحين عدنا إلى البيت، خرج زوج البوابة، الذي كان ذا قلب طيِّب ليُحذِّرنا بالابتعاد، لأن الميليشيات التي ساقت عائلتنا لاتزال بالإمكان عودتُها. كان أبي يحمل علبة في يده، مثل عُلب الحلوى تلك التي كان يحملها إلى البيت كل يوم أحد، فسقطت منه أرضا، أمام قدميه. أتذكَّر ذلك. حملت العلبة وأمسكت يد أبي، التي أصبحت فجأة باردة جدا. «اذهبا بعيدا عن هنا»، قال لنا زوج البوّابة، ومضى سريعا جدا، ونظر يمنة ويسرة خوفا من أن أيراه أحد ما يتحدَّث في وُدٍّ مع يهوديين. سرنا وقتا طويلا دون التحدُّث، تُمسِكُ بي يدُ أبي التي لم تكن لديْها القوّة لتقودني. كنتُ أنا منْ يقوده، منْ يحترس من ظهور دوريَّة ألمانية أو للنازيِّين المجريين. دخلنا إلى تلك المقهى، القريبة من المفوضية الإسبانية، وتكلَّم أبي بالهاتف. لم يجد نقودا في جيبه، تشبَّك المنديل في يده، والمحفظةُ، والساعة، أتذكَّر ذلك أيضا. كان عليَّ أن أعطيه العملةَ كي يشتري النقيدة. جاء الرَّجُل الذي كان أبي قد زاره مرات أخرى، وقال لأبي إنَّ كلَّ شيء قد سُوِّي، لكنَّ أبي لم يكن يقول شيئا، لم يكن يجيب، كما لو كان لا يسمع، وسأله الرجل إنْ كان مريضا، وواصل أبي صمته، الذقنُ غارق في الصدر، والعينان ساهمتان، الحركةُ التي ظل عليها دوما. أنا قلتُ للرجل إنهم ساقوا كل عائلتنا،

كنتُ أودُّ أن أبكي، لكن الدموع لم تسعفني، ولم تخفف عني الاحتقان في الصدر، كما لو كنتُ سأختنق. انفجرتُ فجأة، وبدا لي أن الناس الذين كانوا في الموائد القريبة ظلوا ينظرون إليَّ، لكن ذلك لم يهمَّني، ارتميتُ على معطف الرجل الذي كانت ثنيَّتاه كبيرتين، وطلبتُ منه أن يُساعد عائلتي، لكنه ربما لم يكن يفهمني، لأني كنتُ قد تكلَّمت بالمجرية، وهو كان يتكلم معي بالفرنسية. في سيارة كبيرة بعَلَم صغير للمفوضية الدبلوماسية حُملنا إلى منزل كان فيه بشر كثيرون. أتذكَّر غرَفا صغيرة، وحقائب، رجالا بحقائب وقبَّعات، نساء بمناديل. أناسا يتكلمون بصوتٍ خافت وينامون في الممرات، على الأرض، يستعملون حُزَم الثياب وسائد، وأبي مستيقظ دوما، يُدخِّن، يحاول التحدُّث بالهاتف، يُزعج مستخدمي المفوضية الإسبانية بأن يأتونا بالأكل بين الفينة والفينة. كانوا يبحثون في قوائم المرحَّلين عن أمّي وأختيَّ، لكنهن لم يظهرن في أيٍّ منها. ثم عرفنا لاحقا، عرف ذلك أبي في سنوات متأخرة، أنهن لم يُسقْنَ إلى المعتقلات نفسها شأن باقي الناس، إلى "أوسفيتش" أو "برغر- بلسن". حتى هنالك، تمكن ذلك الدبلوماسي الإسباني الذي أنقذ حياتنا وحيوات كثيرين، من أن ينقذ بعض اليهود مغامرا بحياته، متصرفا دون علم من رؤسائه في الوزارة، ذاهبا من ناحية إلى أخرى في بودابست، في أي ساعة من النهار والليل، في تلك السيارة السوداء نفسها، السيارة التي حُملنا فيها نحن، كان يجمع أشخاصا مختفين أو الذين اعتُقلوا مؤخرًا، وإنْ لم

تكن لديهم حقيقة أصول سفاردية، كان يبتكر هويات وأوراقا، وحتى قرابات عائلية وتجارة في إسبانيا. "سايْث-بْريث" هو اسمُه. عثر على أشخاص كثيرين، تمكن من أن يستعيد بعضهم من المعتقلات، أخرجهم من الجحيم، لكن لم يكن من أثر لأختيَّ وأمي، لأنهن سِقن إلى هذا المعتقل، إلى المعتقل الذي لم يسمع به أحد تقريبا، والذي لم يبق منه شيء سوى ذلك العنبر وذلك الملصق الذي رأيته منذ خمس سنوات. لو كان عليَّ لما ذهبتُ أبدا. أبدا ما كنتُ أستطيع أن أطأ تلك الناحية من أوروبا، لا أتحمل فكرة أن أبقى ناظرا إلى شخص من سنٍ معيَّنة في مقهى أو في شارع بألمانيا أو المجر، وأنْ أتساءل ماذا كان يفعل تلك السنوات. ماذا رأى، أو مع من كان. لكن أبي قبل أن يموت بوقت قصير طلب مني أن أزور المعتقل، ووعدته بأني سأفعل. هل تعلم ماذا هنالك؟ لا شيء، فجوة في غابة. عنبر محطَّة ولافتة صدئة.

ما آل إليه، السيد سلامة، الذي أدار في حوالي منتصف الثمانينيات الجمعية الإسبانية في طنجة، في مكتب صغير مُزيَّن بملصقات سياحية، بكل الألوان، أبلاها الزمان وأحالها باهتة، مع أثاث قديم ذي طرازٍ قشتالي مزيَّف، كان يدير بقرف، في شارع لويس باستور، محلَّ ثياب أقامه والده، ويُسمَّى رواق دُوناس، كذكرى لنهر الوطن الآخر الذي أمكنهما الهروب منه في آخر اللحظات، بخلاف باقي معارفه، والأختين والأم اللواتي لا يحتفظان لهن ولو

بصورة دعامة للذاكرة، دليل مادي كان يمكن أن يُخفف أو يؤخِّر زحف تعرية النسيان.

"دونا" هو الاسم المجري لنهر الدانوب. السيد سلامة، بكلامه الغني ولهجته الغريبة الموشّاة بنبرات بعيدة، مثل بصيص من موسيقى اللغة الإسبانية اليهودية، التي سمِع التحدُّث بها في صباه، والتي لا يزال يتذكّرها كأغاني الهدهدة، السيد سلامة، بمشيته المتعبة، مشية كسيح على عكازيْن، عيناه مبتلّتان بيُسر شديد، والشّعر أشيب وقليل، والجبين به دوما بريق عرَق لا يفلح أبدا المنديل الأبيض الذي يحمل الحرفين الأوّليْن لاسمه مطرزيْن في أن ينشّفه، التنفس مرتجٌ بمجهود تحريك جسد ضخم وأخرق، لا تسعفه ساقاه النحيفتان جدا تحت ثوب السروال، كأنهما زائدتان متأرجحتان تحت جاذبية البطن المنتفخة والجذع المتين. لكنه كان يصر على أن يقوم بسائر أعماله وحده، دون مساعدة من أحد متحرّكا فجأة وبمهارة، ومتنفسا بارتجاج، كان يفتح الأبواب ويشعل الأضواء، ويُظهِر كنوزا صغيرة وذكريات للجمعية الإسبانية؛ صورا في إطار لزائر شهير في أعوام غابرة، أو لمشهد تمثيلي لمسرحية لـ"بينابيتي"، و"كاسونا"، وحتى "لوركا"، وشهادة ممنوحة من قبل وزارة الإعلام والسياحة، وكتابا مُهدى إلى مكتبة المركز من قبَل كاتب شرعت شهرتُه في الضياع بانصرام السنوات، حتى إن اسمه ما عاد مألوفا. وإن كان يجب سترُه أمام السيد سلامة، يجب أن يُقال له إنَّ الكتابَ قد قُرِئ، وأن هذه الطبعة الأولى المهداة يقتضي أن تكون لها قيمة مرتفعة

جدا. تجد السيد سلامة الرزين، والخبير، والفوضوي، لا يتعب على الرغم من تنفسه الصعب وعكازيه، ويبرز ملصقاته القديمة التي تعلن عن محاضرات وعروض مسرحية على مسرح الجمعية الصغير، بما في ذلك المسرح ثربانتس الكبير، الذي يقول عنه؛ إنه الآن أطلال مخجلة، تلتهمه الفئران، ويقتحمه المجرمون، وهو جوهرة المعمار الإسباني، التي لا تعيرها الحكومة الإسبانية أي اهتمام. لا يريدون أن يعرفوا! شيئا عن القليل والجيد الذي لا يزال موجودا من الأثر الإسباني في طنجة، ولا حتى يجيبون عن الرسائل التي يكتبها السيد سلامة إلى الوزارات، وزارة الثقافة، وزارة التربية، وزارة الشئون الخارجية: يترك الملصقات جانبا، هو الآن يبحث بين أوراق مائدته، ويختار محفظة مليئة بنسخ مراسلات، نسخ ورقية من الكربون مدموغة في مكتب البريد، حُجَّة دامغة بأنها قد أرسلت، وإن لم يصل ردٌّ عليها أبدا. يُبرز تواريخ، يمر بسرعة من أوراق إلى أخرى، من التماس لأعوام خلت، جميعها كتبت بآلة كتابة ميكانيكية، على الطريقة العتيقة، شأن الأزمنة السابقة على آلات النسخ، مع نسخ مختلفة من ورق كربون. اللوحة المشهدية للجمعية الإسبانية التي غدت أول فرقة مسرحية بطنجة، وإنْ لم يكن بها سوى هواة لا يتقاضون شيئا، بما في ذلك أنا، الذي لم يكن في استطاعتي أن أمثِّل، كما يمكن أن تتخيَّل، لكني في أحيان كثيرة سيَّرت العروض. عبر جدارن ممرٍ شارعٍ يُشير إلى صور بالأبيض والأسود مؤطَّرة بشكل وضيع، حيث الفنانون لديهم مواقف مسرحية مُفخَّمة لِهواة متحمسين

وعتيقين، يلقون أمام ديكورات متواضعة، نزل السيد خوان طينوريو، وسلالم بيت جيران في مدريد، وجدران، قرية أندلسية. كنا نمثل بينابينتي وكاسونا، وفي الأول من نوفمبر تمثل مسرحية "زير النساء"، لكن لا تحكم علينا بتسرع، لأننا كنا نمثل "منزل بيرناردا ألبا" أيضا قبل ذلك بأعوام كثيرة من عرضها في شبه الجزيرة الإيبيرية، عندما فقط مثلتها "مارغاريتا شيرغو".

كآبة وأزمة الأماكن خارج إسبانيا. أنسجة زائفة، حيطان متخيَّلة، تقليد لشبابيك أندلسية، قذارة ثيران ومنطقية، احتفالات إحراق تماثيل الكرتون والأشتورية، وجبات البيية الدهنية،والقبعات المكسيكية الكبيرة، زينات عتيقة تأتي من زمن الطباعة الحجرية الرومانسية ومن الأفلام التي لها بيئة أندلسية، التي كانت تصوَّر في برلين خلال الحرب الأهلية الإسبانية. السُّقيف والمصباح وشبكة ذلك الموضع بكوبنهاغن الذي يُسمَّى "بيبس بار"، تقليدٌ لمغارات "ساكرومونطى" في ملتقى طرق قريبا من فرانكفورت، حيث يُسقون شراب السانغريًا في ديسمبر، وكانت هنالك مقالي من نحاس وقبَّعات قرطبية، وقبعات مكسيكية معلَّقة على الجدران؛ السُّقَيف والجدار لا محيد عنهما في "دار إسبانيا" بنيويورك، عند بداية التسعينات؛ مقهى مدريد، الذي كان يبدو بشكل غير متوقَّع في زاوية من حيّ "أدامز مورغان"، في واشنطن د.س، بين مطاعم سلفادورية ومتاجر ملابس رخيصة وحقائب تصدر عنها موسيقى حلوة، في مواضع ستصبح فجأة دمارا كلِّيا كأحياء بها جائحة، صفوف كاملة من بيوت محترقة

أو مهدّمة. بمواقف مغلّقة بأسلاك معدنية شائكة. وإلى جانب أرضية خشبية لبيت محترق يوجد دكان لعرائس إثيوبية، وأبعد من ذلك غرفة كاثوليكية للمآتم. وفجأةً ترى تلك اللافتة الحاسمة، مقهى مدريد، إلى جانب "سانتو دومينغو باكيري" ومطعم لأكلات كوبية اسمُه "لا تشينيتا ليندا". كان الوقت صبيحة باردة في واشنطن، وكان ضياء الشمس الشتوية البارد ينعكس على الآثار المرمرية والبنايات العامة. يُصعَد إليه بسلّمٍ ضيق، وفي الطابق الأول كان يوجد باب مقهى مدريد، يُستنشَق فيه هواءٌ دافئ بروائح شبه عائلية، هي غير مألوفة مثل أزيز الزيت المغلي الذي يقلى فيه العجين الأبيض لحلوى التشورو، أو مثل الوجه المستدير والزَّيتي للسيدة التي تخدم زبائن الموائد، ذات الوجه الصارم لإسفنجية في حيٍّ شعبي بمدريد، لكنها تتكلم الإسبانية بقدر قليل جدا، كانت تقول. في لهجة ملوَّنة بإيقاع مكسيكي، إن والديها ساقاها إلى أمريكا منذ أن كانت صبية. إعلانات قديمة لثيران على الجدران، قبعةٌ فوق منخسين متقاطعين، في تنسيق كذلك الذي لغدّة كاملة خاصّة بالنُّصب التذكاري العسكري، وورق المنخسين مبقّع بشيء مغريٍّ يمكن اعتباره دما، والقبعة مليئة بالغبار. كأنها مثقلة بأعوام من دخان مزيج الأسماك المقلية. ملصقات ملوّنة لمناظر إسبانية، إعلانات لطيران إيبيريا أو للوزارة القديمة للإعلام والسياحة: في مكتب السيد سلامة كان هناك منظر طبيعي من إقليم لامانشا، هضبة قاحلة متوّجة بطواحين هواء، كلُّ الصور عليها الضوء المسلط والمبالغ فيه للصُّور والأفلام الملوّنة لفترة السبعينيات.

كان هنالك ملصق "لبيعة الترانسيتو" في طليطلة، وآخر بجانبه مماثل له في الأفضلية، تعبيرا عن ورع السيد سلامة، هو ملصق لتمثال ثربانتس في ساحة إسبانيا بمدريد: كان لديه الضياء الناصع نفسه الذي للشتاء، لصباح بارد مشمس، ويتذكر السيد سلامة نزهاته أيام الشباب عبر تلك الساحة التي كانت تروقه كثيرا، وإن كان يبدو له الآن غريبا، وحتى مستحيلا، أن يكون هو ذلك الرجل الشاب والنحيف الذي لم يكن يستخدم عكازين، والذي كان يمشي على ساقين ناجعتين ورشيقتين، دون التفكير أبدا في معجزة أن تحملاه وتنقلاه من ناحية لأخرى، كما لو أن جسده لم يكن له وزن، متخيّلا أن كل ما لديه، ويستمتع به، سيستمر دائما: الرشاقة، والصحة، والسنوات العشرون، وسعادة الوجود في مدريد دون ارتباط مع أي مكان، دون أن يكون شيئا ولا أحد عدا ذاته، جدّ حرٌ من قوة جاذبية الماضي كما من جاذبية الأرض، حر مؤقتا، من حياته الماضية، ولربما من حياته الآتية التي رتّب الآخرون حسابها له، حرٌ من أبيه، من كآبته، من متاجرته في الثياب، من إخلاصه للموتى الذين لم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم، أولئك الذين شغل أمكنتهم، أو هما اغتصباها، الأب والابن، اللذان لم ينتهيا، مصادفةً فقط، في ذلك المعتقل الأصغر نسبيا حيث هلك كثير من أفراد عائلته ومدينته وسلالته، دون أن يتركوا أثرا. الأخوات الثلاث لفرانز كافكا، اختفين في معتقلات الإبادة. في مدريد، عند منتصف سنوات الخمسينيات، كان السيد إسحاق سلامة يدرس الاقتصاد والحقوق، وكان يخطط لعدم العودة إلى طنجة حين

سينهي هذه الفترة من الحرية التي مُنحها، وللمرة الأولى في حياته كان وحيدا، وكان يحس أن هويّته تبتدئ وتنتهي فيه هو ذاته، هو الآن حرٌّ من الظلال والسلالات، حر من الحضور ومن التذكر الهوسي للموتى. لم يكن لديه الإحساس بذنب أنه قد عاش، ولا أن يلزَمَ الحداد الأبديَّ لا على أمه ولا على أختيه، وإنما على كل أقاربه، وعلى جيران حيِّه وعلى أصدقاء أبيه، وعلى الأطفال الذين يلعب معهم في الحدائق العامة ببودابيست، وعلى كل اليهود الذين صُفّوا من قِبَل هتلر. لو نظر المرء حوله، في خمارة بمدريد، في حجرة بالجامعة، لو مشى بشارع غران بيّا ودخل إلى سينما ذات يوم أحد مساء، فلن يعثر في أي مكان على أثر يدل على أن كل ذلك كان يمكن أن يكون قد حدث، يمكن أن يترك نفسه ينساق إلى وجود مطابق إلى حد ما مع الآخرين، مواطنيه، رفاقه في الدراسة، الأصدقاء الذين يسألون المرء عن أصله، والذين لا يعرفون بالكاد شيئا عن الحرب الأوربية ولا عن المعتقلات الألمانية.

في مدريد كانت ذكرى طنجة تغيب عنه، كأنها حمولة تركها تسقط حين الرحيل، كان بالكاد يشعر بالتأنيب بسبب هجره لأبيه ليحيا بفضل مال تجارة لم يكن في نيته أدنى اهتمام بالانصراف إليها. عن الحياة السابقة، بودابيست والذعر، النجمة الصفراء على طية صدر المعطف، ليالي السهر بجانب جهاز الاستقبال للراديو، اختفاء أمه وأختيه، السفر مع والده عبر أوروبا بجواز سفر إسباني، المدهش أنه

بقيت له صور قليلة جدا، مجرّد أحاسيس مادية لها لاواقعية الذكريات الأولى للطفولة. رأيت في التلفزيون استجوابا مع رجل أصيب بالعمى في العشرينيات من عمره: الآن لديه زهاء الخمسين، كان يقول إنّ كل الصور شرعت تغيب عنه شيئا فشيئا ، لقد مُحيت من ذاكرته، بصورة لم يعد معها يذكر كيف كان اللون الأزرق، أو كيف كان وجهٌ ما، وأنه الآن ما عاد يحلم بإدراكات بصرية. بقيت لديه فضلات، شرعت هي بدورها تضيع، كان يقول، البقعة البيضاء لشجرة لوز مزهرة في حديقة أبويه، اللون الأحمر لكرة من مطاط كانت لديه في طفولته، والتي كانت بشكل الكرة الأرضية. لكنه كان ينتبه إلى أنه بعد مرور بضع سنوات سيكون قد فقد حتى معنى الحقيقة. في مدريد خلال السنوات الجامعية، نسيت مدينة طفولتي وأوْجُهَ أمي وأختيَّ اللواتي لم نتمكّن أبي وأنا حتى من الاحتفاظ بصورة واحدة لهن، كان لدينا منها الكثير في بيتنا ببودابيست، ألبومات لصُوَر آنية كان أبي يلتقطها بآلته الصغيرة لايْكَا، لأن التصوير كان إحدى هواياته، مثل الموسيقى والسينما، واحدة من الأشياء الكثيرة التي اختفت من حياته حين وصلنا إلى طنجة، وما عاد لديه وقتٌ ولا حماس لأي شيء إذا لم يكن عمَلا. العمل، والحداد، والدين، وقراءة الكتب المقدّسة التي لم يرها في شبابه قط، زياراتُ البِيَع التي لم أطأها منذ أن جئنا إلى هنا، والتي لم يكن يهمني أن أصحبهُ إليها في البداية. لكنني لا أصحبه، الآن وأنا أفكر في ذلك،

لديَّ الإحساس بأني آخذه من يده، أقوده، كما في ذلك الصباح في بودابيست حين علِمنا أنهم أوقفوا أمي وأختيَّ. لم ينتبه إلى أننا نحن الأطفالَ في بعض الأحيان تكون لدينا مسئولية مضنية تجاه والدينا.

استعاد والد السيد سلامة، بعد وفاته، الحضورَ الذي كان لديه لأعوام خلت في حياة ابنه، وتلقى العنايةَ نفسَها التي كانت له، حين كان يقوده من يده عبر الشارع، في بودابيست أو طنجة، ولَدٌ وديع، مطيع، سمين، يبتسم في صورة ضائعة، تُتَذكَّر في التباس، كان فيها يرتدي قبعةَ حارس مرمى كرة القدم، ويرتدي سروالا فضفاضا لزمن ما بين الحربين، ابنٌ فخور يرفع عينيه جهةَ أبيه، كلاهما يحمل نجمة صفراء على ثنية اللباس. ذات يوم، من يونيو، اشترى أبوه صحيفة، وأثناء نظره مواربة في ناحية وأخرى أشار إليه في الصفحة الأولى، التي يرد فيها خبَر الإنزال البحري للحلفاء في نورماندي، وطوى الصحيفة مباشرة، وحفظها في جيب، وشدَّ جيِّدا على يده، ناقلا إليه في السر فرحه الفجائي والعارم، مستعجلا منه ألا يبدي علامات الاحتفاء بالغزو، وسط شارع يُعمِّره أعداء أكيدون. حين سأموت ستصلي لأجلي صلاة الحِداد كادَيش مدة أحد عشر شهرا ويوما كولدٍ بِكْر طيب، وستسافر إلى الشمال الشرقي لبولونيا لتزور المعتقل الذي هلكتْ فيه أمُّك وأختاك. اللواتي لم يمكني أن أنقذهن، واللواتي لم أتخلَّ عن الحِداد عليهن ولو في يوم واحد من أيام حياتي.

الآن، السيد سلامة، الذي ليس لديه ولد ليصلّي الكاديّش عليه بعد وفاته، يعيب على نفسه بكآبة أن كان ولدا بكرا، وأن الحنان الذي عاد إلى الإحساس به لا يمكنه الآن أن يعزّيه ولا أن يكافئه عن والده الميت، الذي يحن إليه كثيرا دون أمل في الإصلاح مثلما كان عليه أن يحنَّ إلى زوجته وابنته. أحبَّه كثيرا، وتغرورق عيناه، لقد كانا متّحدين دوما، ليس حين مكثا وحيدين فقط، وإنما لأعوام كثيرة قبل ذلك، منذ كان جد صغير، منذ أن كانت له ذاكرة، منذ كان كلّ مساء تضاءُ حياته عند قرب مجيء والده، لقد أقام فيه، ولقد بجّله مثل بطل رواية أو فيلم، ورآه ينهار وسط شارع، وأحس بالثقل المفزع للمسئولية، ولذلك الكبرياء السرّيّ لتخيُّلِ أنَّ يدَ والده التي تستند إلى كتفه لا تحميه، وإنما تستند إليه باعتباره الولَد البكر.

وفجأة، عندما بلغ ستة عشر عاما أو سبعة عشر عاما، ما عاد يرغب في العيش معه، الآن تخنقه تقريبا كل الأشياء التي تقاسماها منذ أن مكثا هما الاثنان وحيدين ووصلا إلى طنجة، والحِداد على الخصوص، والألم الأبدي، وتذكر الموتى، والزوجة والبنتين، اللواتي لم يعرف أبوه كيف ينقذهن، وهو يحس منذئذ أنه يغتصب في حنق حياتهن. ومع مرور السنين، عوض أن يخمد حداد أبيه صار يغدو أكثر قتامة بسبب تأنيب الضمير، والرفض النفور والمهين لعالَم لا يدخل الموتى في حسبانه، حيث لا أحد، بما في ذلك الكثير من اليهود، يريد أن يعرف، أو أنْ يتذكر. كان يهتم بتجارته بالحيوية ذاتها، والقناعة التي انصرف بها إليها حين كانا يعيشان في

بودابست. في سنوات قليلة، وربما من العدَم، أفلَحَ في إنشاء محلٍ كان واحدا من أكثر المحلات عصريَّة في طنجة، الذي كانت لافتته المضيئة، أرْوِقة دُونا، تضيء عند حلول المساء تلك المنطقة البرجوازية والتجارية بشارع باستور. لكنَّ ابنه كان ينتبه إلى أن نشاطه المتواصل والألمعي كان محض مظهر، تقليد في الصميم مأسوف عليه لما كان عليه الأبُ قبل الكارثة، مثلما كان المحلُّ تقليدا لما كان يمتلكه وكان يسيِّره في المجر. صار يغدو ذا نزوع ديني أكثر فأكثر، وأكثر هوسا بأداء الشعائر، والصلوات، والاحتفالات الدينية التي بدَت له في شبابه نفاياتِ عالَم مغلق وقديم. كان يشعر بالرضا عن نفسه لإفلاته منه. ربما كان يُساهم في هوسه الديني شعورٌ بالتفكير، وهو الآن يصلي في وداعة للإله ذاته الذي كان قد كفر به في ليالي سُهده الموسومة باليأس لسماحه بتصفية كثير من الأبرياء. وابنه، ذو الأربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، كان يرافقه إلى البيعة بالغاية ذاتها التي كان يُعدُّ له بها السرير ليلا؛ أو كان يتأكد كل صباح أنه يوجد حبر وورق على سطح مكتبه، الآنَ يجد ذلك الحماس الدينيَّ جارحا أكثر فأكثر، و في كل الأمكنة التي كان يسكن فيها أبوه بدأ يُحس بنقص خانق في الهواء، رائحة العَفَن والزَنَخ التي كانت لملابس اليهود الأرثوذكسيين، وللشموع، وظليل البيعة، وكذلك الرائحة المحمَّلة بغبار الأثواب في المخزن، حيث لم يكن يرغب في العمل، والذي لم يكن يعلم كيف وبأي ذريعة سيهرب منه في أقرب وقت.

لكن حين تجرأ أخيرا على إعلان رغبته في الذهاب، اكتشف المفاجأة، مصحوبة على الخصوص بتأنيب ضمير، أنّ والده لم يكن يعترض على الذهاب، بل إنه كان يُحمّسه على المضيّ إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، للدراسة، معتقدا أو متظاهرا بأن طموح ابنه هو أن يتحمّل مسئولية المَتجر حين إتمامه الدراسة، وأن المعارف التي سيحصل عليها ستكون مفيدة للاثنين في تجديد التجارةَ وتقدُّمها.

كنتُ أسمع صفير الباخرة التي تنطلق باتجاه الجزيرة الخضراء، وكنت أحصي الأيام التي تنقص كي أقوم أنا نفسي بذلك السفر، انطلاقا من شرفة منزلي كان يمكنني أن أرى بالليل أضواء الضفة الإسبانية. حياتي برمتها كانت رغبة في الرحيل، في أن أهرب من كل ما يأسرني، وما يخنقني، مثل تلك القمصان التحتيَة، والقمصان، والصدريات، والمعاطف، والملافع التي كانت تلبسني إياها أمي حين كنتُ طفلا كي أذهب إلى المدرسة. كنتُ أرغب في الذهاب عن ضيقِ طنجة، وعن اختناق متجر أبي، وعن أبي وحزنه وذكرياته، وعن ندمه لأنه لم ينقذ زوجته وابنتيه، بسبب أنه أنقذ نفسه بدلَهُن. وأخيرا، في اليوم الذي كنتُ سأرحل أصبح الجوُّ بضباب كثيف، وبتنبيهات على هياجِ البحر، وأنا كنتُ أخشى ألاّ تصل باخرة شبه الجزيرة الإيبيرية، وألاّ يمكنني أن أخرج من الميناء حين كنت قد صعدتُ إليها بحقائبي وبتذكرة سفري المدفوعة مسبقا لركوب قطار من الجزيرة الخضراء إلى مدريد. لقد جعلني توتري أغضب

سريعا من أبي، وأُحِسّ بانزعاج لِما طلبه مني، لِهَوَسِه في التأكد منه مرَّة وأخرى حتى آخر لحظة، لئلا أنسى شيئا، تذكرة الركوب في الباخرة، تذكرة القطار، وثائقي الدالة على هويتي الإسبانية، عنوان وتليفون فندقي في مدريد، قسيمة تسجيلي في الجامعة، ملابس التدثُّر التي سأحتاجها حين سيصل الشتاء. منذ أن خرجنا من بودابست أعتقد أننا لم ننفصل أبدا، وهو يلزمه أن يكون قد أحس في الوقت نفسه أنه أبي وأمي، الأمُّ التي كانت لديَّ لأنَّه لم يكن قادرا على إنقاذها. كنت مستعدا لأدفع أي شيء لأتفادى أن يرافقني إلى الميناء، لكني لم أتجرَّأ حتى على اقتراح ذلك بطريقة غير مباشرة، خوفا من أن يُحسَّ أنه مُهان، وحين أتى معي ورأيته بين الناس الذين سيودعون مسافرين آخرين، شعرت بالخجل، وقد أشعرني الخجل بالندم، وضاعف غضبي، ونفادَ صبري، لأن الباخرة شرعت في التحرُّك، وأنا لم يكن عليَّ أن أواصل النظر إلى أبي خجلا منه؛ من مظهره الذي لليهودي العجوز في الكاريكاتير، لأنه في السنوات الأخيرة، في الوقت الذي كان يتحوّل فيه أكثرَ تديُّنا، كان قد هَرِمَ كثيرا، وقد تقوَّس، وشرع يبدو من خلال حركاته وأسلوبه في اللباس شبيها باليهود الفقراء والأرثوذوكسيين ببودابيست، يهود الشرق الذين كان ينظر إليهم أقرارونا السفارديون بازدراء، وأنه حين كان يافعا، كان قد اعتبر بأسف وبقليل من العجرفة أنهم أناس متأخرون، غير قادرين على اللحاق بالحياة الحديثة، مريضين بالتعاليم الدينية وقلَّة النظافة. أحسست بوخز الضمير، لأني خجلت منه، ولأني تركته،

وكذلك تأسفت له، لكن في الحقيقة لا هذا الشيء ولا ذاك عطّل فرحَ رحيلي، فودعت أبي ومن طنجة ومن خجلي فور مغادرتي للباخرة، فور ملاحظتي لابتعادها شيئا فشيئا عن الرصيف. كنت لا أزال مسافةَ أمتار منه، وكان يواصل قول وداعا لي بيده هنالك، في الأسفل، بين الناس، مختلفا جدا عن الجميع حتى إنه كان لا يروقني أنْ أُحسَب عليه. أنا أيضا كنتُ أقول له وداعا وأبتسم له. لكنني الآنَ كنتُ قد مضيتُ، دون أن أتخلى عن رؤيته، ولا أن أبتعد أمتارا عن ميناء طنجة، لقد كنت بعيدا جدا، لأوّل مرة في حياتي، متحلّلا من كل شيء، ولا يمكن أن يتَخيّل من أي ثقل جدٍّ هائل، من أبي ومن متجَرِه، ومن حِداده ومن ذنبه، ومن كل التألم لعائلتنا ولكل اليهود الذين أفناهم هتلر، ولكل لوائح الأسماء التي كانت في البيع، وفي المنشورات اليهوديةَ التي كان أبي مشتركا فيها، وفي الإعلانات بكلمات الصحف الإسرائيلية، حيث كانتْ تُلتَمَس آثارُ المفقودين. الآن، كنتُ وحيدا. كنتُ أبدأ وانتهي في ذاتي. لم يكن من أحد سواي. أتذكّر أن رجُلا قريبا مني، على سطح الباخرة كان ينصت إلى راديو، إلى واحدة من تلك الأغنيات الأمريكية التي كانت تقليعة رائجة آنذاك. كان يبدو أن الأغنية كانت مليئة بالنوع نفسه من الوعود شأنَ الرحلةِ التي كانت لديَّ أمامي. أبدا لم يحصل لي إحساس ماديٌّ بالسعادة أكثر من لحظة الشعور بالباخرة وقد شرعت تتحرك، ومن رؤية طنجة في البعيد، انطلاقا من البحر، مثلما حين رأيتها يوم وصولنا أبي وأنا فارّينِ من أوروبا.

حقيقةً، كيف ستغدو طنجة المشوَّهة في الذاكرة مــع تعاقــب الأعوام، وعُسر الذكرى، وأنها أبدا لن تكون دقيقةً جدا مثلمــا يــوهِمُ الأدبُ بذلك. حقيقةً، من يستطيع أن يتذكر مدينــةً، أو وجههــا دون مساعدة من الصُوَر، التي بقيت في الألبومات الضائعة لحياة ســابقة، حياة بدَت لا تتغيَّر، خانقة، وأبديَّة، ومع ذلك فقد تحلَّلت دون أن تترك آثارا، دون أن تترك ولو ذكريات، صور تشرع في التلاشي مثل بقايا حقل أنقاض، أو كالألوان التي تنسى رويدا رويدا من صاروا عميانا، المدينةَ التي عاش فيها السيد إسحاق سلامة حتى سن الثانية عــشرة، أوجُهَ أختيه ووالدته، المدينةَ التي يحس شخص ما أنه أســيرٌ فيهــا، ويظنُّ أنه أبدا لن يرحل عنها، ومع ذلك فقد رحل ولن يعود ذات يوم إليها، مكتب الإدارة الذي لن يجلس خلفه مجدَّدا، وفي أحد أدراجــه، وبين أوراق رسمية هي الآن بلا فائدة، تظلُّ علبةُ رســائل منــسية، سيرميها أحدُهم في المرة القادمة، رسائل ميلينا جسنــسكا التــي لــم يحتفظ بها كافكا.

صفارات بواخر، وتكبير المؤذنين عند حلول المساء، تُــسمَع من شرفة أحد الفنادق. محال الحلوى الإسبانية تــشبه محــال مــدن الضواحي لفترة الستينيات. ومسرح إسباني تحوَّل إلى شبه أنقــاض، واسمُه ثربانتيس. مقاهٍ كبيرة يعمُرُها الرِّجال وحدَهم، كثيفة الــدخان، وبها ضجيج نقاشات بالعربية والفرنسية. الأباريقُ الفضية، وكئــوس الشاي الصغيرة حيث يتضوَّع شاي أخضرُ حلو جدا. متاهــة ســوق

تفوح منه العطور والمواد الغذائية لمرحلة الطفولة. شحاذ أعمى بجلباب ممزق رمادي اللون يبدو أنه حيك من النسيج نفسه الذي لسُتْرة سقَّاء إشبيلية لبيلاثكيث؛ يُشهر الشحاذ عكازا، ويتمتم مقطعا بالعربية، ومن رأسه التي تعتمر قلنسوة يُرى ذقن خشن ذو شعر أبيض ولحيةٌ مشتتة، والظلّ الذي يُغطي عينيه كقناعٍ قاتم. رجالٌ شباب يستمرُّون خاملين ويترصَّدون في الزوايا، قريبا من الفنادق، وحين يُميِّزون الغريب يحاصرونه، ويَعرضون عليه صداقتهم وعونهم كمُرشدين، ويُحاولون أن يبيعوه الحشيش، أو أن يقدموه إلى فتاة، وإنْ قلتَ لهم "لا"، فإن الرفض لا يُيَئِّسهم، وإذا لم تعرهم اهتماما وتظاهرتَ في انزعاجٍ بعدم رؤيتك لهم، فإنهم لا يستسلمون إلى سلالة من لا يعرف كيف يتخلص منهم، وفي الوقت نفسه لا يرغب في أن يكون متعجرفا وجارحا، بوعي سيئ لأوروبي ذي فضيلة. شارع باستور، الشارع الوحيد الذي استمرَّ في الذاكرة، ببناياته البرجوازية، التي يمكنها أن تكون في أيٍّ من أمكنة أوروبا، وإن كانت لأوروبا التي تنتمي إلى زمن آخر، قبل الحرب، مدينة فيها ترام وواجهات باروكية، ربما التي ببودابيست التي وُلِد فيها السيد سلامة، وعاش فيها حتى العاشرة من عمره، والتي لم يعد إليها أبدا، التي بقي له منها بالكاد صورٌ شعورية قليلة وقصيّة، كبطاقات بريدية ملوّنة في اليد. المدينة الأجمل في العالم، أقسم بذلك، والنهر الأكثر مهابة. إنه جلال خالص، لا يمكن أن تُقارن به أنهارُ التايمز ولا التيبر ولا السِّين. إنه نهر الدُّونا، وسنوات بعد ذلك لم أتعوَّد على

تسميته بالدانوب. المدينة الأكثر تحضُرا، هكذا كنا نعتقـد، إلـى أن استيقظت تلك الوحوش، ليس الألمان وحدهم، وإنما المجريون الـذين كانوا أفظع منهم، والذين كانوا يحتاجون إلى أوامرهم كي يتـصرفوا بأقصى وحشية، إنهم الصُلبان المُسهَّمة، وكلاب القـنص لـهيملير وإيشمان، مجريون كانوا جيراننا، وكانوا يتكلمون لغتنا نفسَها، تلـك التي نسيتها الآن، أو ربما نسيتُ جزء كبيرا منها، لأن أبـي أصـرَّ على ألاَّ نعودَ إلى التحدُّث بها، حتى فيما بيننا، بينـه وبينـي، نحـن الوحيديْن اللذيْن بقينا من كل عائلتنا، الوحيدين المتفرِّدين والضائعين، في طنجة، بجواز سفرنا السباني، بهويتنا الإسبانية الجديدة التي أنقذتْ حياتنا، والتي سمحتْ لنا بالفرار من أوروبا التي لم يرغبْ أبي فـي العودة إليها أبدا، أوروبا التي أحبَّها أكثر من كل الأشياء، والتي كان يفتخر بها، أوروبا"براهمز" و"شوبرت" و"ريلكه" وكل تلـك الزبالـة الكبيرة من الترف الذي كان يَرُدُّ له عقلَه، والتي كفر بها لاحقا لكـي يرغب في اعتناق ما لم يكنْهُ أيضا؛ أن يصيرَ يهوديا حـسودا وفـق القانون، ومعزولا ونفورا بين اللطفاء، الرجل الذي لم يذهب بنا فـي طفولتنا أبدا إلى البيعة؛ لا أختاي ولا أنا، ولا أحيا أيَّ حفلة طقوسية، كان يتكلم الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية، لكنه كان يعرف من العبرية كلمات بالكاد، وأغنيةً أو اثنتيْن لهدهدة الصغار باليهودية الإسبانية، وإن كان بهذا الأصل يروقه أن يفتخر حين كُنا نعيش فـي بودابست. سفاراد كان هو اسم وطننا الحقيقي، وإن كنا قد طُردنا منه منذ أكثر من أربعة قرون. كان يحكي ليَ أن عائلتنا احتفظت طيلـة

أجيال بمفتاح البيت الذي كان لنا في طليطلة، وبكل الـرحلات التـي أنجزتها عائلتنا منذ خروجها من إسبانيا، كأنه يحكي لي حياةٍ واحـدة متواصلة زهاءَ خمسمائة سنة. كان يتكلّم دوما بضمير المتكلّم الـدال على الجماعة: لقد هاجرنا إلى شمال إفريقيا، وبعد ذلك استقرَّ بعـضٌ منا في سالونيك، وآخرون في إستنبول، حيث أحضرنا إلـى هنـاك آلات الطباعة الأولى، وفي القرن التاسع عشر وصلنا إلى بلغاريـا، وفي بداية القرن العشرين انصرفَ أحـدُ أجـدادي إلـى المتـاجرة بالحبوب على طول امتداد موانئ نهر الدانوب، استقرَّ في بودابيست، وتزوج ببنت أسرة من مرتبته هو، لأنـه فـي تلـك الفتـرة كـان السفارديون يتـصوَّرون أنفـسَهم أعلـى مـن اليهـود الـشرقيين؛ الأشكنازيين الفقراء بالقرى اليهودية لبولونيا وأوكرانيا، الذين كـانوا يفرُّون من المذابح الروسية. نحن كنا إسبانيين، كان أبي يقول بضمير جَمْعه المزهوِّ. هل تعرف حضرتك أنه في ظهير صدر سنة ١٩٢٤ أُعيدت إلينا نحن السفارديين جنسيَّتُنا الإسبانية؟

من دار إسبانيا وأروقة دونا، كانت أضواءُ الشاطئ الإسـباني تلمع ليلا، قريبا جدا، كما لو أنها لم تكن في الـضفة الأخـرى مـن البحر، وإنما في الضفة الأخرى لنهر سيَّال واسع، الـدانوب، الـدونا الذي كان السيد سلامة يراه في طفولته، المياه التـي كـان الألمـان وأتباعهم، في ربيع وصيف سـنة ١٩٤٤، يقـذفون فيهـا بـاليهود المغتالين، كيفما كان وسطَ الشارع، في وضحِ النهار على عجل، لأن الجيش الأحمر كان يقترب، وكانَ يُحتمَل أن تقطَع السكك الحديديـة،

وألا تكون هنالك وسيلةٌ لمواصلة إرسال عرباتِ موتى أحياءٍ صوب "أوشفيتز" أو "بيلغير–بيلسن"، أو صوب تلك المعتقلات الصغيرة حيث لا تبقى ولو ذكرى أسمائهم. إسبانيا توجد على مسافة خطـوة ومُـدَّة ساعة ونصف بالباخرة، إنها تلك الأضواءُ التي تُـرى مـن شـرفة الفندق، لكن أثناء نقاش السيد إسحاق سلامة، في أروقة دونا، أو فـي دار إسبانيا، فإن إسبانيا تُرى بعيدة جدا كما لو أنها على مسافة آلاف الكيلومترات في الضفة الأخرى لمحيطات، كما لو أن المرء يتذكّرها في" البيت الإسباني" بموسكو؛ ذات ظهيرة شاحبة لشتاء أو في مقهى مدريد لواشنطن د.س. إسبانيا مكان لا وجود له تقريبا لكثرة قِدَمِـه، بلد لا يوصَل إليه، مجهول، جاحد، يُسمى سفاراد، يُحنُّ إليه بكآبـة لا أساسَ لها ولا عذر، وبإخلاص جدّ مثابر كما ينقل ذلك الآبـاءُ إلـى الأبناء من أسلاف السيد سلامة، الشخصُ الوحيدُ بين كلّ سلالته الذي حقق الحلم الموروث في العودة كي يُطْرَد مرّة أخرى ونهائيـا الآن، بسبب سوء حظ، لم يعد يعتبره، مع مرور السنوات، عملًا ظالما مـن قِبل الحظ، وإنما هو نتيجة وعقاب على عجرفته الخاصة، وعلى إثـم النزق الذي دفعه نتيجة الإحساس بالخجل من أبيه، وعلى كفره به في أعمق ما في قلبه.

لو لم أكن قد قُدتُ بخوف شديد تلك السيارة، يُفكّر يومـا بعـد يوم، بالحداد المهووس نفسه الذي كان أبوه يُفكّر بـه فـي الزوجـة والبنتين اللواتي لم يتمكن من إنقاذهن، لو لم يكن في عجلة من أمـره لكي يعود في أقرب وقت إلى شبه الجزيرة، لكـي يـصعد باتجـاه

مدريد، ليس في القطارات البطيئة، التي كانت تعبُر البلاد كاملة من الجنوب إلى الشمال مثل تيَّارات أنهار عاتية قاتمة، وإنما في السيارة التي أهداه إيَّاها أبوه مكافأةً على إتمامه بتفوُّق كبير الدراستين اللتين درسهما في وقت واحد. لكن الآن، لا أحد من الاثنين احتفظ بمخيلته أن الدرجات الجامعية للسيد سلامة ستصلح كي تزدهر أكثرَ تجارةُ الثياب، في شارع باستور. طنجة، قال له أبوه، حين عاد عند نهايةِ العام الدراسي الأخير، لن تستمرَّ مدينةً دوليَّة وقتا طويلا، مختلطةً ومنفتحة، تلك التي وصلا إليها هما الاثنان سنة ١٩٤٤. طنجة الآن، تنتمي إلى المملكة المغربية، وشيئا فشيئا سيكون على الأجانب أن يُغادروها، ونحن الأوَّلان، قال أبوه بالتماعِ هارب صادر عن الحِدَّة والتهكُّم الذي كان له في أعوام خالية. أنتظر أن يطرودونا بصيغ أفضل من المجريين، أو من الإسبان سنة ١٤٩٢.

قال ذلك، الإسبان، كما لو أنه ما عاد يعتبر نفسه واحدا منهم، وإن كانت لديه الجنسية، وأنه كان خلال مرحلة من حياته فخورا بالانتماء إلى سلالة سفاردية. فهِم السيد سلامة أن أباه كان يقوم بعملية حساب إمكانية بيع المتجر، وأن يُهاجر إلى إسرائيل. لكنه لم يكن يريد تغيير البلد، مرَّة أخرى، مهما كان مقابل ذلك في العالم: كان عليَّ أن أكترث برأي أبي، يقول الآن، في مناسبة أخرى مُعربا عن ندمه، لأن إسبانيا لم تكن تعرف أي شيء عن الأشياء الإسبانية في طنجة، ولا عن الإسبان الذين لا زلنا نحيا هنا. لنا في المغرب،

يوما بعد يوم، مكان أقلُ، لكنّهم في إسبانيا لا يرغبون فينا أيضا. بأجر التقاعد الذي سأحصل عليه حين أغلق هذا المتجر الذي، تقريبا لا يترك لي ربحا بالكاد، سأتقاعد، ولن يكون لي مال كي أحيا في شبه الجزيرة الإيبيرية، وإذن فسأبقى لأموت في طنجة، حيث نحن الإسبان أقلُ عددا من ذي قبل، أموتُ عجوزا وأعزَب. بوسعي أن أذهب إلى إسرائيل، بالطبع، لكن ماذا أفعل في بلد لا أعرفه بتاتا، في سني، التي ليس لي فيها من أحد.

لو كنتُ قد اكترثت بما قاله لي أبي وقتئذ، لو كان لي قليل من الصبر على الأقل، لو لم أسُقْ بسرعة كبيرة بإحدى تلك الطُّرق الإسبانية في سنوات الخمسينات، وأنا منتفخ عجرفةً، يقول، لَاوِيا باحتقارٍ الشفتين اللحِمَتيْن، معتقِدا أنني قادر على كلِّ شيء، وأني قادر على التحكم في كل شيء.

قبل الفجر بقليل، عند الخروج من منعطف جد مُحْكَم، هربتْ به السيارة إلى الناحية اليسرى من الطريقِ، ورأى المصباحين الأصفرين لشاحنة. كان عليَّ أن أكون قد متُ حينئذ، يقول السيد سلامة، وينتبه إلى أنه يكرِّر الكلمات نفسها التي أسمعها من أبيه مرات كثيرةَ، الغرض نفسُه لتصحيح الماضي في دقائقَ فقط، في ثوان: لو لم نكن قد تركناهُنَّ وحيدات في البيت، لو كنا قد تأخرنا قليلا من الوقت في العودة، الحياة بكاملها لا تدرك، إنها تتهشّم في جزء من الزمن، تنقلب إلى أبديَّةِ ندمٍ وخجل، الخجل الفظيع الذي كان

يشعر به السيد سلامة حين وجد نفسه مشلولا في الثانية والعشرين من عمره، يمشي بعكازين ساحبا رجلين لا فائدة فيهما، عارفا أنه أبدا لن يمكنه الاستناد واقفا على قدميه، وأنه لن تكون له القوة الفيزيائية، وإنما الشجاعة الأخلاقية الضرورية كي يبدأ الحياةَ التي كان قد رغبَ فيها كثيرا، والتي اعتقد أنه بدأ يلمسُها بأصابع اليدين تقريبا.

لم أكن أرغب في أن يراني أحدٌ، يقول، كنتُ أرغب في أن أظلَّ مختفيا في العتمة، في قبو، مثل تلك الوحوش في الأفلام. لقد تأخر سنواتٍ في الخروج بمظهر طبيعي إلى الشارع نوعا ما، وأن يمشي عبر المتجر متكئا على العكازين. لاحظ أنه صار يتشوَّه شيئا فشيئا، رجلاه صارتا تتحفان أكثر فأكثر، والجذع ينتفخ، الكتفان عريضتان جدا، العنق غائرٌ. كان يسقط في المتجر أمام بعض الزبونات، في الزمان الذي كان لديه زبائنُ كُثر، وحين كان العاملون يسرعون لرفعه عن الأرض كان يكرههم أكثر مما كان يكره ذاته، وكان يغمض عينيْه كما في المستشفى، وكان يود أن يموتَ لشدة خجله.

ماذا يمكن أن تفهم سيادتك، واسمح لي إنْ قلتُ كذلك، إن كانت لديْك رجلاك وذراعاك: أجلْ، إنه حدٌّ، كأن يكونَ بالمرء مرضٌ خطير جدا، أو مرض مخجل، أو أن يحمل نجمةً صفراء مَخيطة في الثنية. أنا لم أرغب في أن أكونَ يهوديًا. حين كان الأطفال الآخرون

يرمونني بالحجارة في حديقة بودابيست، حيث كنتُ أذهب للعب مع أختيَّ، اللتين كانتا أكبر مني وأشجع مني، وكانتا تدافعان عني. أن أكون يهوديا كان يبعث فيَّ الخجل نفسَه الذي أثاره فيَّ بعدُ بقائي مشلولا، كسيحا، أعرج، ولا شيء من الإعاقة أو العجز، مثلما يقول أولئك السخفاء، كما لو أنهم بتغييرهم للكلمة سيمحون الإهانة، سيعيدون إليَّ استعمال الرِّجلين. حين كانت لديَّ تسع سنوات أو عشر سنوات، في بودابست، ما كنتُ أتمناه لم يكن أن نفلت نحن اليهود من الألمان. أقول لك ذلك وأشعر بالخجل: ما كنتُ أتمناه هو ألا أكون يهوديًّا.

من النافذة المفتوحة للمكتب الصغير للسيد سلامة يدخل هواء دافئ، مثل هواء أمسيات مايو، وإن كان الوقتُ ديسمبر خلال تلك الزيارة، وكان يصل في وضوح نداءُ مؤذنٍ، مضاعفا بواحد من مكبِّرات الصوتِ البدائيَّة، التي يعلقونها مؤقَّتا في بعض المآذن، والوقع الكثيف لصافرة باخرة تدخل إلى الميناء أو تغادره. السيد سلامة بحركة غضب، هاتَف المتجر ليسأل إن كان هنالك من جديد، وقال بالفرنسية لأحدهم الذي تأخر كثيرا في الإجابة على الهاتف، إنه لا يمكنه أن يذهب قبل الإغلاق، لأنه في الثامنة يبدأ حفل موسيقى البيانو في صالون قاعةَ العروض بدار إسبانيا. أمسِ، افتتح الأسبوع الثقافي الإسباني بمحاضرة عن الأدب، حضرها جمهور لا بأس به، لكن اليومَ السيد سلامة منشغل، لأن عازف البيانو الذي سيعزف ليس

معروفا جدا، وهو يخشى ألا يكون جيدا جدا. لو كان جيدا لَمَا جاءَ إلى طنجة، ليُحيي حفلة مقابل قليلٍ من المال. ذلك يخيف ويثير الكآبة مسبّقا. أن تتخيّل قاعة العروض تشغل فيها كراس قليلة فقط، القوس مثل مزرعة الأندلسي فوق المسرح، العازف يرتدي فِراكا سافر كثيرا، مائلا نحو الجمهور المنطوي على نفسه والقليل ذي المظهرِ المُفخَّم، خصلة الناصية تغطي من وجهه نصفه حين يعود إلى الاندماج. لم يكن لدينا مال كي نطبع كل الملصقات المطلوبة، كي تَرسل الدعوات في موعدها. إضافة إلى أن اليومَ أربعاءٌ، وربما تكون في التلفاز مقابلة دولية. في المقاهي الكبرى والمعتمة بطنجة، التي حين الدخول إليها تصلك رائحة عرق ذكوري حرِّيف، والتبغ الأسود، كما في الحانات الإسبانية لثلاثين سنة مضت، تَرى أحيانا حشود من الوجوه القائمة والمرفوعة جهة شاشة التلفزيون، ذقون غير حليقة، وعيون ذات نظرات حادة: إنهم يتابعون مباراة في كرة القدم بالتلفاز الإسبانية، أو إحدى تلك المسابقات لمضيفات يرتدين تنورات قصيرة، ويتكئن على سيارات جذابة. إنها الثقافة الوحيدة التي تركتها إسبانيا هنا، يصيح السيد سلامة، التلفاز وكرة القدم، واللغة تضيع، وجمعيتنا بدون دعم، تأكلها الخدع بينما في إسبانيا تُسرَف الملايين في تلك التظاهرة البابلية لمعرض إشبيلية. انظر إلى الفرنسيين، في المقابل، قارن جمعيتنا بالرابطة الفرنسية، القصر الفاره الذي لديهم، دورات السينما التي يُنظِّمونها، المعارض التي يجلبونها، المال الذي يصرفونه على الإشهار، إنهم يُغطُّون كل

ملصقاتنا، الملصقات القليلة التي يمكننا أن نغطي نفقاتها. هل ركّزت بصرك في العُلوّ الذي يخفق فيه العَلَم الفرنسي؟ أذهَبُ إلى هناك، لأنهم يدعونني دوما، وأموت غبطةً. الفرنسيون يدعونني، لكن الإسبانيين يحدُث لهم أحيانا أن ينسوا دعوتي، ليس أنا، فأنا لست شيئا، وإنما دعوة الجمعية، إنهم يتفادوننا إنْ أمكَنهمْ ذلك دوما، أعني موظّفي السفارة والقنصلية، كأننا غير موجودين. يتنفس السيد سلامة في ارتجاج، الغُمرتان مسمَّرَتان فوق المائدة، الجذع الواسع منبسط على الأوراق، اليدان تبحثان عن شيء وسط الفوضى، بين برامج حفلات موسيقية، رسائل، فواتير غير مدفوعة، بطاقات دعوة. الوقت متأخر، وهو لم يعثر على ما يبحث عنه، ينظر إلى الساعة، يتأكد أنه لا تزال الآن سوى بضع دقائق كي يبدأ الحفل، عزف على البيانو يقدّمه الفاضل دون غريغور أندريسكو، مقطوعات ف. شوبرت، وف.ليسزت، الدخول بالمجان، يلتمس منكم الحضور في الموعد. الارتباك خوفا من ألاّ يحضُر أحدٌ تقريبا، أن يجلسَ المرءُ في الصف الأوّل، وأن يرى قريبا منه وجه الإحباط والابتسامة الإجبارية لعازف البيانو، الذي حسب السيد سلامة كانَ وجها من الطراز الرفيع في رومانيا قبل أن يفرّ إلى الغرب، وأنْ يحصل على اللجوء السياسي في إسبانيا.

لكنَّ السيد سلامة عثر على ما يبحث عنه، بطاقة دعوة مكتوبة بالفرنسية، مطبوعة على ورق مقوًى صُلب ولامع، مع شعار الجمهورية مُذهَّبا، وفي الأسفل، على خط من النقط، اسمُهُ مكتوب

بالحبر الصيني وبخط رفيع. السيد إسحاق سلامة، مدير الجمعية الإسبانية، الحجة الدامغة على أن الدعوة موجَّهة إليه شخصيًا، وأن آخرين، مع أنهم أجانب، يخصُّونه باحترام لا يقوم به مواطنوه. ذلك المعرضُ لا يُنسى، يقول، وهو يستعيد البطاقة التي ينظر إليها مُجدَّدا كأنه يتأكّد من أن اسمَه ومهمَّته لا يزالان مكتوبين بخط اليد عليها، لا يمكننا نحن أن نأتي بشيء شبيه جدا: مخطوطات لبودلير، الطبعات الأولى من أزهار الشر وسبلين باريس، والصفحات التجريبية بالتشطيبات والتصويبات التي قام بها هو نفسه. يا للغرابة، فكّرتُ أنا، يقول، أن تستمر هذه الأشياءُ الحميمة جدا وقتا طويلا، وأن تصل إلى غاية هذا المكان كي أراها أنا. وتغرورق عيناه حين يتذكر انفعال رؤيةِ نصٍّ مكتوب بخط الشاعر على ورقة نظيفة، إنها سوناتة إلى الحسناء المجهولة إلى العابرة، التي تَعجِب السيد سلامة أكثرَ من كل القصائد التي كتبها بودلير، والتي يحفظها عن ظهر قلب، ويردِّدها بفرنسية رائعة، تعلَّمَها من أمه في الطفولة، متوقّفًا بالتذاذ ونوعٍ من الشجن عند البيت الأخير:

Ô toi que j'euأس سأe aimé! Ô toi qui le savais![1]

يظلُّ كالغارق في صمتٍ مأساوي، في موقف لا يُسبر ملْؤه الندَم والتكفير. ينظر كما لو جاء على ذكر شيء، النظرة ثابتة وبليلة،

(١) أنت يا منْ أحببتُ! أنتِ يا منْ تعلمين ذلك!

يفتح الفم ليستنشق الهواء كي يتكلّم، لكن بالضبط في اللحظة التي شرع في فعل ذلك سمع طرق بباب المكتب. دخلت سيّدة مُسنّة ونحيفة، بمنظار معلّقتين بسلسلة إنها محافظة المكتبة وسكرتيرة الجمعية، بوُسعكم النزول متى تشاؤون، فالأستاذ أندريسكو يقول إنه جاهز.

يختفون ذات يوم، ميّتينَ أوّلا، يضيعون ويشرعون في الانمحاء من الذاكرة، كما لو أنهم لم يوجدوا من قبل، أو يبدؤون في التحوّل إلى شيء آخر، إلى وجوه وأشباح من صنع المخيّلة، غرباء الآن عن الأشخاص الحقيقيين مثلما كانوا، عن الوجود الذي ربما لا يزالون يَحيْونه كعهدهم. لكنْ أحيانا يبرزون مجدَّدا، يحضرون من الماضي، يصل عبر الهاتف صوتٌ لم يُسمَع منذ سنوات، أو أن ينطق أحدهم بشكل طبيعي اسمًا كان يبدو متخَيَّلا تماما؛ اسمَ ميِّت أو اسمَ شخصيَّة روائية. بعيدا جدا عن طنجة، سنوات كثيرة بعد ذلك، في حياة أخرى، على مسافة زمنية طويلة حتى إن الذكريات تكون قد فقدت كل حضورها، وحتى كلّ كنهها تقريبا، في قطار يسافر على متنه مجموعة من الأدباء والأساتذة، عبر منظر طبيعي لهضاب خضراء وضباب (لكن ذلك الوقت كذلك سيغدو قصيًّا، والمناسبة سترسَم كوجوه رُفقاء القطار التي كانت آنذاك مألوفة)، سينطق أحدهم اسم السيد سلامة، متبوعا بعبارة تهكم واندهاش وقهقهة:

« لا تقل إنك قد عرفته أيضا؛ السيد سلامة ذاك، سنوات وسنواتٌ لم أتذكَّرْه. أيُّ ورطة ألقى بي فيها الرَّجُل، لو كان شخص

ما قد حذّرني في الوقت المناسب لما وطئتُ طنجة، والأدهى تلك السخافة التي يدفعونها في ذلك المكان، الذي كان يتداعى. وذوذ ذلك اليهودي، وخدوم، أليس صحيحا؟ لكنه ثقيل الدّم، لا يدَعُك تخلو إلى نفسك، يأتي ليأخذَك صباحا من الفندق، ويذهب بك إلى كل الأمكنة، حتى إلى المرحاض للتبول. ودوما يلوك الموضوع نفسه، الموضوع المزعج الذي مفاده أن لا أحدَ يهتمُّ بأمره في إسبانيا، وتلك الحكايات التي يقصُّها عن وقت حضوره إلى طنجة، ألم يكن ذلك في سنوات الأربعينيات؟ يبدو أنه كان من أسرة ذات مال، في تشكيسلوفاكيا، أو في تلك النواحي، وأنه كان عليه أن يدفع مالا وفيرا كي يُمكّنه النازيون من الخروج. هيَّا، أنا لا أتذكر بالتدقيق، لأنه حدَث في زمن سحيق، في تلك المرحلة التي كنت تمضي فيها إلى كل الأنحاء، على إعطاء كل النقود التي يطلبونها منك، وكان ذلك المُملُّ على خط التليفون ظريفا، مَرِحا وهو يتكلّم، أحقيقة؟ سيكون تشريفا. على الرغم من أن الأجور لم يكن ممكنا أن تكون سخيّةً للأسف، ودون أهمية دعم الثقافة الإسبانية في إفريقيا. لِمَ كان يتكلّمُ كذلك؟ يا له من ثقيل ذلك اليهودي، كل يوم في صعود وهبوط معتمدا عُكازيْه، ألَمْ تقع له حادثة سيارة؟ أنا لستُ عاجزا ولا مُعوَّقا، كان يقول، أنا أعرج. والآن إذ أتذكّر، ونحن نتحدّث عن العرج، ألمْ يقصّ عليك ما حدث له أثناءَ سفره إلى الدار البيضاء حين تعرّف إلى امرأة؟ ذلك أمرٌ نادر، يبدو أنه قصّه على كلّ الناس حين يشربُ كأسين، وكان يبدأ دوما بنفس الشيء: بقصيدة لبودلير، ألم يقم باستظهار النص أيضا؟»

دون أن يعرف الإنسانُ ذلك، يغتصب آخـــرون حكايـــات أو مقاطع من حياته، حلقات يعتقد المرء أنه يحفظها في الغرفة المُشمَّعة التي بذاكرته، الحكايات التي يحكيها أناس يكـــاد لا يعـــرفهم، أُنـــاس سمعهم ويعيدُ أقوالهم مُشوِّها إيَّاها، مكيِّفا لهـــا مـــع طيـــشه أو قلـــة اهتمامه، أو مع أثر لنوع من تأثير الهزل أو الشَّر، في مكان ما، الآن بالذات، يحكي شخص ما شيئا له ارتباطٌ حميم بي، شيئا حضره منـــذ أعوام، ولربما كنتُ أنا نفسي لا أتذكَّره، وبما أنني لا أتذكره، فـــإني أميل إلى أن لا وجود له بالنسبة إلى أي شخص، وأنه قد مُحي مـــن العالَم كلِّيّة كما مُحيَتْ من ذاكرتي أجزاءٌ منكَ أنتَ ذاتك تشرع فـــي تركها ضمن حيوات أخرى، شأنَ غُرف عشتَ فيها، والآن يـــشغلها آخرون، صور أو بقايا من الماضي ، أو كتبٌ كانت ملكـــك ، والآن يلمسها مجهول وينظر إليها، رسائلُ لا تزال موجودةً، في حـــين أن الذي كتبها أو من تلقَّاها، ويحتفظ بها من مضى على مـــوتهم وقـــتٌ طويل. بعيدا عنكَ تحكى مشاهدُ من حياتِك، وأنتَ خلالها لست أقـــلَّ من شخصية ثانوية مختلقة في كتاب، عابرٍ في فيلم سينمائي أو فـــي رواية حياة شخص آخر.

توجد تفاصيل بالكاد، ويكون من الكسل ابتكارها وتزويرهـــا، وتدنيسُها بالاغتصاب الذي تمارسُه قصة لِما كان جزءا مؤلما وحقيقيا في تجربة شخص ما. من تكون أنتَ حتى تحكي عن حيـــاة ليـــست حياتك. في القطار، بإقليم أشتورياس، في طريقك إلى مؤتمر الأدب،

ولتزجية وقت السفر البطيء، ولمجرَّد الزهو بالحكي مع السخرية الملائمة لشيء لا يهم شخصا آخر في شيء، ولا من يصغون إليه، فإن الكاتب الذي نطق بصوت عال اسمَ السيد سلامة، وإن كان لا يتذكر إن كان اسمه الشخصي إسحاق أو يعقوب أو جيريمياس أو عيسى، فإنه يبدأ قصة لا تدوم أكثر من دقائق فحسب، ولا يعلم أنه بصيغة ما يُتوِّجُ إهانةً، ويزيد من التنغيص.

يصعد السيد سلامة قطارا يتَّجه إلى الرباط[1]، حيث إنَّ عليه أن يُسافر لأسباب تجارية. يمكن أن نتصور أن عمره أربعون سنة، أو أربعون ونيف، وأنه منذ وقت معيَّن، منذ تقاعد أبيه، يتكفَّل بتسيير أروقة دونا، التي سقطت في نوع من الانحدار مثل تلك المتاجر الكبرى لعواصم المحافظات الإسبانية التي كانت حديثة جدا عند نهاية سنوات الخمسينيات وبداية الستينيات، ثم صارت بعد ذلك كأنها متوقفة في الزمان، ثابتة على حداثة شائخة، لقد غدت شيئا فشيئا أركيولوجية. حين يكون على السيد إسحاق سلامة أن يذهب للسفر بالقطار، عادةً ما يصل مبكرًا إلى المحطَّة، هكذا يمكنه أن يشْغَل مقعده قبل أي مسافر آخر، فيتفادى أن يُرى وهو يتحرك بغباء وعناء معتمدا على عُكَّازيه. إنه يخفيهما تحت المقعد، أو يتركهما ظاهرين

(١) في الأصل الدار البيضاء، ويبدو أن الروائيَّ قد اختلط عليه الأمر، فتصوَّر أن الدار البيضاء سابقة على الرباط، في حين أنه ضروريٌّ على كل قطار ينطلق من طنجة أن يمرَّ من الرباط حتى ينتهي إلى الدار البيضاء، والسياق يفترض أن تكون المدينة المعنية هي ما كتبناه. (المترجم)

جيدا من شبَكتَي المتاع، وإن أمكنَ خلف حقيبته، دون صـــعوبة، وأن يترِكَ في متناول اليد الأشياء التي سيحتاجُها أثناء السفر. كذلك يُعني بأن يرتدي معطفا مطريا خفيفا، كي يفرشَه على رجليه. إنها المرحلةَ التي كانت فيها القطاراتُ لا تزال بها مقصورات صـــغيرة بمقاعـــد متقابلة. لو شغل أحد المسافرين مقعدا قريبا من مقعده، فـــإنَّ الـــسيد إسحاق سلامة يمكن أن يقضي السفر كلَّه دون حركةَ، أو منتظرا أن ينزلَ الآخر قبله، وفي حالة قصوى يُمكن أن ينهض ويلتقط عكازيـــه كي يذهب إلى المغسل، مُخاطرا بأنْ يُرى في الممـــرِّ، وأنْ يتنحَّـــى بعضُهم ناظرا إليه بأسف أو هُزء، أو حتى يعرض عليـــه مـــساعدة؛ يمسك له بابا أو يمُدُّ إليه يدًا.

إنها تقريبا ساعة انطلاق القطار، وترضيَةً للسيد سلامة، فـــإن لا أحد دخل إلى مقصورته. إنه يسافر في الدرجـــة الأولـــى، وهـــذا يحدث معه بنوع من التواتر، وبالضبط في اللحظة التي شـــرع فيهـــا القطار في التحرّك اقتحمت عليه امرأةٌ المقصورة، ربما في ارتبـــاك للسرعة التي كان عليها أن تنجزها كي تصل في الدقيقـــة الأخيـــرة. تجلس المرأةَ قُبالة السيد سلامة، الذي كان يجمع رجليه المـــشلولتين تحت المعطف. إنه لم يتزوَّج، وبالكاد تجرَّأ على النظر إلى امرأةٍ منذ أن صار مُعوّقا، وخجلا جدا من اختلافه ومهانا كما كان شـــأنه فـــي الصِّغر حين كان يُجبَر على وضع النجمـــة الـــصفراء علـــى ثنيَّـــة المعطف.

المرأة شابّة، فاتنة جدا، كثيرة التحاور، مثقّفة، إنهـا إسـبانية بالتأكيد، وعلى الرغم من تكتّم السيد سلامة، فإنهما بعد وقت قـصير من بداية السفر كانا يتكلّمان كما لو كانا متعارفين منذ الأبد، والمـرأة على الخصوص التي لديها هبَةُ التعبير بوضوح وانسياب، لكن أيضا هبة الانتباه بعناية نَهِمَةَ إلى ما يُحكى لها، وأنْ تطلب مباشرةً تفاصيل دون أن تتحوّل إلى فضوليّة، ودون أن ينتبها مالَ كل واحد منهما إلى الآخر، اليدان أمكنهما أن تتلامسا أثناء بعـض الحركـات، وكـذلك تلامست رُكبتا المرأةِ العاريتان دون جوارب وركبتا الـسيد سـلامة المجموعتان والمخفيّتان تحت ثوب المعطف المطري. يتحدّثان بنظرة جانبية مقابل المنظر الطبيعي الذي كان يَفِرُّ عبر النافذة باتجاه ناحيـة لن يعود منها أبدا، والذي لم يستدر أيٌّ منهما جهتـه. أحـسَّ الـسيد سلامة برغبة جنسية قوية جدا، لكن بحنان واضح أيضا، إنـه وعْـدٌ ماديٌّ بالسعادة، بدا له أنه يراه منعكسا ومتبادلا في عينيِ المرأة.

الاثنان تمنّيا أن يستمرَّ السفر إلى الأبد: متعـة الـذهاب فـي قطار، وأن يكون التعارف، وأنِ تكون أمامك ساعات كثيرة للتحـدث عن ميول مشتركة تُكتَشف مؤخّرا لمْ تُتَقاسم حتى ذلك الوقتَ مـع أي شخص آخر. السيد إسحاق سلامة الذي تركته حادثة السيارة مـشلولا إلى الأبد في خجل المراهقة المراوغ، يعثر الآن في ذاته على خفـة في العبارة كان يجهلُها، وعلى بداية إغواء، وعلى جرأة تَردُّ إليه بعد أعوام كثيرة جزءً من نبض مرح لسنواته الأولى في مدريد.

هي تقول له إنها ذاهبة إلى الرباط حيث تحيا مع أسرتها. يوشك السيد سلامة أن يقول لها إنه يذهب كذلك إلى تلك المدينة، وهكذا سينزلان معا من القطار، وسيُمكنهما أن يواصلا التلاقي في الأيام القادمة. لكنَّه يتذكَّر حينئذ ما كان قد تخلَّى عن استحضاره خلالَ الساعات الأخيرة أو الدقائق، يتذكر هَوَسَه وخجله، ولا يقول أي شيء أو يكذب، يقول إنه متأسف، لأن عليه أن يواصل السفر حتى الدار البيضاء. لو نزل في الرباط، فسيكون عليه أن يستعيد العكازين اللذين لم تتمكَّن هي من رؤيتهما، مثلما أنها لم تَرَ رِجليْه، وإنْ كانت قد احتكَّت بهما، لأنهما مغطَّتان بالمعطف المطري.

يواصلان الحديث، لكن بدأت لحظاتُ صمتٍ تتخلَّلُ، وانتبه الاثنان إلى ذلك، وإن كانت هي تحاول بحماس طمسها بكلماتٍ تكونُ خلفها منطقة ظلال وغرابة. ربما نتخيَّل أنها ارتكبت خطأً ما، أو أنها قالت شيئا ما كان عليها أن تلتقط به. وأثناء ذلك، ينظر السيد سلامة خلال النافذة كلما وصل القطار إلى محطة، ويحسب كم من محطة بقيتْ للوصول إلى الرباط، كي يحدُث الوداع الذي لا مناص منه كأنه قد حدَث. يَسُبُّ نفسَه في غضب سِرّي، يتحدَّى نفسه، يضع لنفسه مُهلات، وحدودا، يمنح لنفسه هُدنات من دقائق، بينما المرأة لا تزال تتكلَّم وتبتسم له، وبينما تحتكُّ به بيديها الطليقتين والرُّكبتين القريبتين اللتين تصطدمان حينما يفرمل القطار، وحينئذ يضغط السيد سلامة خفيَةً المعطفَ على فخذيْه، حتى لا ينزلق إلى الأرضية. سيقول لها

إنه أيضا ذاهب إلى الرباط، وسينتصب في المقعد حين سيتوقف القطار، وسيمسك عكازيه، لن يسمح لها بأن تساعده كي يحمل متاعه، لأنه قد مضت عليه سنواتٌ كثيرة اكتسب أثناءها رشاقة وقوَّة في الذراعين وفي الصدر، لم يتخيَّل في البداية أنه سيُحققهما، وحين تعوزه اليدان يكون قادرا على حمل شيء بالأسنان، وأن يحافظ على توازنه متكئا على جدار.

لكنه يعلَمْ في العُمق، ولم يتخلَّ عن معْرفة ذلك ولو لحظةَ، أنه لنْ يتجرأ. وبينما كان القطارُ يقترب من الرباط، كانتَ المرأةَ تكتب له عنوانها وتليفونها، وطلبت منه الشيء نفسَه، وقد زوَّرهما السيد سلامة بخطٍّ فوضوي في ورقة. توقَّف القطار، والمرأةَ واقفة على قدميها أمامه، ظلَّت مرتبكةً قليلا، مستغربة أنه لم يقُمْ حتى كي يُودِّعها، وأنه لم يساعدها في إنزال متاعها. وليس محتملا أن تكون قد رأتِ العُكازين المخبَّأين جيِّدا خلف حقيبة السيد سلامة، وإن كان كذلك مُغرِيا تخيُّل أنها قد تكون رأتهما، كما هي فطنةُ النساء، وأنها قد لا حظت شيئا غريبا في الرِّجلين المُجتمِعتين أكثر من اللزوم، والمُغطَّتين بالمعطف، ولمْ تقرِّر الانحناء على السيد سلامة كي تمنحه قُبلة، ومدَّتْ إليه اليَدَ، ابتسمتْ له محرِّكةً كتفيْها في حركة حتميَّة أو استسلاما، قالت له أنْ يهاتفَها لو يقرِّر التوقُّف في الرباط أثناءَ سفر العودة، وأنها ستُهاتِفه في المرة القادمةَ التي ستذهب فيها إلى طنجة. في اللحظة الأخيرة، غمرتِ السيد سلامة رغبةٌ في الوقوف،

أو ألاَّ يُطلِق يدَها، وأنْ يترُكها ترفَعُه بضغْطِها الشديد. قويَّة هي جدا هي نزوة عدم السماح للمرأة بالذهاب، حتى إنه تَهيَّا له أنــه اســتعاد القوة في رِجليه، وأنه يمكنه الوقوف على قدميه دون مــساعدة مــن أحد. لكنه بقي ساكنا، وبعد لحظةِ تردُّد، أفلتتِ المرأة يَدَها، وأمسكت بالحقيبة، استدارت للمرة الأخيرة نحوه، وخرجتْ إلى الممر؛ وهو لم يصل إلى رؤيتها في الرصيف. استند بظهره وراءً إلى مقعده حــين شرع القطارُ في التحرُّك في الطريق إلى مدينة ليس لديه مــا يفعلــه فيها، حيث عليه أنْ يعثر على فندق لقضاء الليلة، فندق قريــب مــن المحطة، لأن عليه أن يركب في ساعة مبكرة من الصباح قطارَ عودة إلى الرباط. أنتِ يا من كان عليَّ أن أُحِبَّها، ردَّد السيِّد ســلامة ذلــك المساء في مكتبه بالنادي الإسباني، بنبرة الحزن الجسيمة التي كــان يرتِّل بها آياتِ الكديش تخليدا لذكرى أبيه، بينما كانت تــصل عبــر النافذة المفتوحة صفير باخرة وتهليل مؤذِّن، آه! أنتِ التي تَعْرفينَه.

مونزنبِرغ

ظللتُ أقرأ حتى وقت جدّ متأخرٍ، أقاوم النوم كي أتقدَّم أكثر في القراءة لكي أعرف أشياءَ أكثر عن حياة ذلك الرَّجل، الذي حتى أمسِ لمْ أعلم خبرا عنه، "ويلي مونزنبِرغ"، الذي هرب في بداية صيف ١٩٤٠ باتجاه الغرب عبر طُرق فرنسا، في خضم الفوضى التي أحدثها تقدُّم عربات الحرب الألمانية. الآن، وللمرة الأولى من سنواته الخمسين يرى الأشياءَ في سكون وصفاء، وقد اكتسب التجربة والخلُق كي يُنجِز باستقامة ما يقتضي أن يقوم به بالتحديد، الآن بالضبط لا شيءَ يهمُّ، الآن لا وقتَ لأي شيء. ليستِ المرة الأولى التي يفرُّ فيها، لكن أكيد أنه يفرُّ راجلا، ولا شيءٍ معه، ولا مكان يقصده حيث يمضي وهو يعرف أنه في أي مكانٍ من حدود الحرب، حيث يبحث عن ملاذ. سيكون هنالك وُشاةٌ مستعدُّون لتسليمه، إن لم يسقط قتيلا مجهولا مَرميًّا برشاش بين صفٍّ من رهائنَ اختيرُوا مُصادفةً، أو أن تتطاير أشلاؤه بقنبلة أوْ لُغم. إنه سيُصفَّى إن يمسكه الألمان، لكنَّه أيضا سيلقى المصير ذاتَه، إن يعثر رفاقُه القُدامى وأتباعُه الشيوعيُّون على أثرٍ له. إن يحاول الوصول إلى إنجلترا، وهي نيَّة بالأحرى مستحيلة، فإنه يعلم أن هنالك كذلك سيتمّ اعتقاله

بتهمة أنه جاسوس، وأن الإنجليز بالتأكيد سيستخدمونه كرهينة في أيٍّ اتفاق مع السوفيت أو الألمان. كان كلَ شيء، وهو الآن لا شيء، ولا شيء لديه، وإن كان أحذهم يقول إنه يتذكر أنه بقيت له في الجيب ألفا فرنك، تلك التي كان يفكر أن يشتري بها سيارة تسمح له بالهروب إلى سويسرا.

يعلم أن القليل الذي بقي منه هو هذا الظل الهارب عبر طُرق فرنسا، حضور غير مقبول بالنسبة إلى كثيرين، شاهدٌ وقح أو مؤذ، يكون من الملائم التخلُص منه. ما كان يعتقد أنه قوَّته، وهو تأمين حياته، هو سببُ إدانته. يعلم شيئا آخر إضافيا: إنه لدى جهاز الاستخبارات الإنجليزية يوجد عملاء سوفيت كيِّسون سيبوحون لموسكو بأثر وجوده في إنجلترا، لن يكونوا متأكِّدين كذلك من أن الحكومة البريطانية ستمنحُه بصدق ملاذا.

عيناي تنغلقان، يكاد الكتاب ينزلق من بين يديَّ، بينما ويلي مونزنبرغ يمضي تائها بين الحشد الذي يغمر الطرقات، والذي يتشتت عبر الحقول القريبة مثل انفجار حشرات، كلما اقتربت تطير على علُو منخفض، يقتنصهم الألمان، أوَّلا أصحاب الدراجات النارية في البعيد، وبعد ذلك الأشباح المعدنية المتوهجة في شمس يونيو، وأخيرا ظلالهم، الطيور، الطيور الكواسر ذات الأجنحة الثابتة والمفتوحة، التي تقصف موكبا من عربات عسكرية في فرار، تلقي قنابلها على جسر حيث يتكدَّس الهاربون، مُعرقَلين في تقدُّمهم بسبب

شاحنة مُعطَّلة. حشراتٌ في فرار، سيرى ذلك الربابنة انطلاقـا مـن الجوّ: أشكال مُصغَّرة، كُتُلاتٌ سوداءُ مُنحرفةٌ. لكن كل واحد من تلك المخلوقات الضئيلة هو إنسانٌ، له اسمٌ وحياةٌ، وجه لا تطـابق بينـه وبين أيِّ شخص آخر. بين تلك الوجوه، يرغب ويلي مـونزنبرغ أن يختلط، يريد أن يغدو لا أحد كي يفلت من الأيادي الغليظـة للمـارد المُدوَّر العين وحلقومه. لكنَّ عين المارد، التي ربما يعرفها، والتـي يخشاها أكثر هي لـ"جوزيف ستالين"، إنها ترى كلَّ شيء، تستقصيه كلَّه، لا تسمح لأحد بأن يفرَّ أو يفلت، ولا أن يهزَّ كتفيه حتى لو كان في حجم أحقر الحشرات، إذ يُمكن ملاحقته، ولـو كـان فـي قلعـة بالمكسيك محميَّة بأسوار وأسلاك أشواك وحراس مـسلَّحين وأبـراج حراسة، وأبواب حديدية، هل تمكّن تروتسكي أن يفلت مـن ملاحقـة استمرت عشر سنوات، وطالت العالَم برُمَّته.

مَن ذا بين البشر الذين يفرُّون من حوله يمكنه أن يتخيَّل قصَّةَ ويلي مونزنبرغ، إنه أجنبيٌّ بَدينٌ، سيِّئ الهندام وسيئ حلاقة الوجـه، أمضى الشهور الأخيرة في معتقل، واحد من تلك المعـتقلات التـي اعتقلت فيها الحكومة الفرنسية بالتحديد أولئك اللاجئين أو المُهجَّـرين الذين عليهم أن يخشوا بالأحرى النازيِّين، حسب المنطق الإجرامـي للأزمنة: لو اشتعلت الحربُ ضدَّ ألمانيا، فإنَّ اللاجئين الألمان الـذين يعيشون في فرنسا سيصبحون العدوَّ، بحيث إنه ينبغي اعتقـالهم، وإن كانوا هاربين من النازية. لكن إذا ما اعتقلوا فإنهم يغـدون الفريـسة

المثالية بالنسبة إلى الجيش الألماني والجستابو، الذين اعتقدوا أنهم قد أفلتوا منهما بالهروب إلى فرنسا. إن هذا الإنسان، ويلي مونزنبرغ، في سنة ١٩٣٣، وصل إلى باريس ضمن الموجة الأولى من اللاجئين من ملاحقة النازية، من حريق الرايخ، حيث كان له مقعد برلماني شيوعي. لكن ويلي فرَّ على متن سيارة لنكولن كونتيننتال كبيرة سوداء، كان يسوقها سائقه الشخصي بحلته الرسمية، وليس راجلا، مثلما هو الحال الآن، حيث لا شيء له، ولا شيء يساوي، حين لا يعلم أين هي زوجته، وإذا كانت حيَّة، أو إذا سيتمكّن من رؤيتها وسطَ فوضى الحرب العارمة، هي أيضا وجه ضئيل بين الحشود التي تفرُّ، ضمن الإحصاء المستحيل للمُنقَلين والمُهجَّرين، ملايين الأشخاص مُلقى بهم في طرقات أوروبا التي عادت فجأةً إلى الهمجية، حشودٌ تنتظر على أرصفة المحطّات، في موانئ المُدن الساحليَّة، متراكمين بجانب الأسيجة الحديدية أو أبواب المفوّضيات الأجنبية للحصول على جوازات السفر، وأوراق، وتأشيرات، وأختام إدارية، يمكنهم أن يطبعوها في أماكن وجهة كلّ واحد منهم، هي الفرق بين الحياة والموت.

تركت الكتابَ على خوان السرير، أطفأتُ النور، وبالضبط في اللحظة التي بقيتُ فيها بِعينيَّ مفتوحتين في العتمة، انتبهت إلى أن النوم الذي كان يغالبني منذ لحظة قد اختفى الآن. لقد غادرني النوم، كما يُضيِّعُ قطارٌ بفارق دقيقة، بفارق ثوان، والآن أنا أعلمُ أن عليَّ

انتظار عودته، وأنه يمكن أن يتأخر ساعاتٍ حتى يؤوب إلـي. لقـد شوهد مونزنبرغ للمرة الأخيرة حيًّا على طاولة مقهى بقريـة، كـان برفقة رَجُلين أصغر سِنًّا منه، وكان يتكلَّم معهما بالألمانية. ربما كانا هما أيضا فارَّيْن من المُعتقل، وجدٌ محتَمل أن واحدا منهما سـيقتُله: ربما يكونان قد أوقعَا نفسَهما أسيرين في المعتقل كـي يربَحـا ثقـةَ الرَّجل الذي تلقَّيا أمر اغتياله.

بَقِيتُ ساكنا في العتمة، أصغي إلى تنفُّسِك. يهرب مـونزنبرغ من تقدُّم الجيش الألماني مصحوبا بذلكما الرَّجلين، وهو لا يعلم أنهما عميلان سوفيتيَّان كانا يتجسَّسان عليه منذ أن وصـل إلـى معتقـل الأسرى، وإنه أُسنِدت إليهما مهمة اغتياله. أو لربما هو يعرف ذلـك، وليست لديه القوة كي يهرب منهما، كي يواصل إصراره على فـرارٍ مُضنٍ وغير مُجد، التمديد البطيء لغروب استمرَّ عدة أعوام. أرى عبر الشُرفة، فوقَ القرميد، الدائرةَ الكبيرةَ الواسعة في بنايـة تيليفونيكـا، التي من هذه المسافة يُرى فيها شـيء شـبيه بناطحـات الـسحاب المسكوفية، ربما لأن الأمر لا يكلِّف شيئا أنْ يتخيَّل الضوءُ الأحمـرُ للقبة هو نجمة شيوعية كبيرة. منذ سنوات كثيرة، حين لم أكـنْ قـد ذهبتُ إلى نيويورك بَعْدُ، رأيتُ في الأحلام بناية هائلة مـن الآجـر الأسود بها نجمة حمراءُ ضخمة في قمتها الهرميَّة، وقال لي أحدُهم، وكان يمضي بجانبي، وأنـا لـم أرَه مُـشيرا إليهـا:« تلـك نجمـة برونكس».

أثناءَ الأرَق، تعود إليَّ أشباحُ الموتى، وكذلك أشباح الأحياء، أشباح الغائبين الذين لم أرهم منذ وقت طويل ولا تذكُّرتهم، حلقات، وأفعال، وأسماء حيوات سالفة، وخزات تكاد لا تكون وخزات حنين أبدا، إنها دوما وتقريبا وخزات ندم أو خجل. كذلك يعود الخوف الخالص، والهلع الطفولي بسبب الظلمة، أو الظلال، أو الكُتَل التي تشرع في تحديد ذاتها ضمنَها، التي تكتسب شكل حيوان أو حضور بَشَري، أو لِبابٍ على أُهبة أن يُفتَح. في شتاء ١٩٣٦، داخل غرفة بفندق في موسكو، استمرَّ ويلي مونزنبرغ مستيقظا، وربما مدخِّنا في العتمة، بينما كانت زوجته تنام إلى جانبه، وكلما كان يسمع خطوات بالممر تقترب من الغرفة كان يفكر في ارتعاش هلَعِيٍّ وبصيرةَ أرق، ها قد أتوا، إنهم الآن هنا. وعبر نافذة غرفته كان يرى نجمة حمراء، أو ساعة بأرقام حمراء تلمع في ذروة بنايةَ، فوقَ الشسوع الهائل لموسكو، وفوق الشوارع التي كانت تجوبُها في هذه الساعات العربات السوداء لِجهاز المخابرات السوفيتية.

جدَّتي "لِيُونُور"، لِيُنزِل الله عليها السكينة، والتي أتذكَّرها بالكاد، كانت تحكي لي حين كنتُ طفلا أن أمَّها كانت تتجلَّى لها ليلةً تلْوَ ليلة عقب موتها، لم تكن تفعل شيئا، ولم تكن تقول لها شيئا، حتى إنها لم تكن تخيفها، كانت تثير فيها الكآبةَ والحَنانَ وإحساسا بالذَّنب فحسب، وإنْ كانت جدَّتي ما كانتْ لتستعمل أبدا تلك العبارة، التي لم تكن تنتمي إلى اللغة المتعَبة التي كانت تتكلَّمها. كانت أمها تنظر إليها

في صمت، وتبتسم لها كي لا تخاف، كانت تنجز حركة برأسها كما لو أنها تشير عليها بشيء، أو لتطلب منها شيئا، ثم تختفي بعد ذلك، أو أنْ تمكث جدَّتي نائمة، وفي الليلة اللاحقة كانت تستيقظ وتعود إلى رؤيتها، هادئةً ووفيَّة، عند قدم السرير، الذي ننام فيه أنتِ وأنا الآن.

أمي! ماذا تريدين؟ هل ينقصك شيء؟ كانت جدتي تسألها، بنبرة السؤال نفسها التي كانت إبَّان حياتها، حين كانت مريضة جدا، وكانت تنظر إليها دون أن تتكلَّم، وجهها شاحب في الوسادة، وعيناها تتابعانها عبر الغرفة.

كانتْ أمّها تكرر تلك الحركةَ، مثل مَنْ يَوَدُّ أن يقول شيئا، لكنَّه فقد استعمال الصَّوت ويبذل مجهودا، ولا يصل إلى التلفُّظ بالكلمات. ذات صباح، من يوم أحد، في الكنيسة، فهمت جدَّتي ما كانت أمّها تريد أنْ تقول لها. لقد كانتْ فقيرة جدا، وكان لديها أولاد كثيرون، ولم يكنْ بوسعها أن تلبِّي لأمّها إقامة قُدَّاس، وإن لم تكنْ مؤمنة بورَع، فإنَّ تأنيب الضمير لمْ يتركْها في سلام، إنه قَلَقٌ أصَمْ لم تتقاسمه مع أحد. إنه دون ذلك القداس كان بالإمكان ألاَّ تخرج أمُّها من المَطْهر. وبصيغة ما، حصلتْ على قليل من المال، اقترضَتْه من خالة لها، وبالنقود أو الأوراق النقدية المتهالكة من فئة خمس بزيتات، التي لفَّتها حينئذ في منديل، قَصَدتْ كنيسة القديسة مريم لتكليفها بقُداس. تلك الليلة، حين عادت أمُّها إلى التجلِّي عند قدم السرير، بجانب القضبان البرونزية المذهَّبة، قالت لها جدَّتي ألاَّ تهتَمَّ، وأنه

وشيكا سوف لن يخصَّها أيُّ شيء. لمْ تعد أُمُّها إلـى التجلِّـي، إلـى الحضور، كما كانت هي تقول في لغتها المنتمية إلى القرن الماضي. تنفَّست الصعداء، لكن كذلك سكنتها إلى الأبد كآبةٌ بسبب غياب أمِّها، ولأنها الآن لن تعودَ إلى رؤيتها أبدا، ولا حتى في الأحلام.

ذاك هو السرير الذي كنا ننام فيه أنتِ وأنا، الذي وُلِـدت فيـه أمِّي، الذي لا أستطيع أن أنام فيه هذه الليلة. لقد استغرب أبواي كثيرا من رغبتنا في أن نحضِر إلى مدريد ذلك السرير الكبير القديم الـذي أمضى كثيرا من الأعوام في أعمق مكان بغرفة المهملات. في تلـك القضبان التي تبدو ترتسم في الظُّليل، حين تكون حدقـة العـين قـد تعوَّدته، تتكئ اليَدُ الشاحبة لأمٍّ والدتي، جدَّتي لأمي، التي جِئتُ مـن جزءٍ منها، التي لا أعرف اسمَها، وإنْ كنتُ قد ورِثتُ عنها جزءًا من الإرثِ الجينيِّ، الذي ربما يكون محدِّدا للمحة فـي وجهـي أو فـي طبعي، في صحَّتي غير السليمة. كم هو غريب العيش في الأمـاكن التي كانت للموتى، استعمال أشياء كانت ملكهم، النظر في مرايا حيث كانت وجوههم، النَّظر بعينين ربما لهما الشكل واللـون الـذي كـان لديهم. يعود الموتى خلال الأرق، الذين نسيتُهم، الذين لم أعرفهم أبدا، الذين يقتحمون ذاكرةَ منْ واصل العيش منذ ستين عاما بَعْـدَ حـدوث حرب، ويبدو أنهم يقولون له ألا ينساهم هو أيضا، أنْ ينطق بأسمائهم بصوت عال، أنْ يحكي كيف عاشوا، ولماذا اختُطِفوا مبكِّرا من قِبَـل موتٍ كان يُمكنُ أنْ يأخذه هو الآخر أيضا. أحُلُّ حياةَ مـن أنـا فـي

الحياة، أيَ مصير تَمَّ إيقافه، كي يكتمل مصيري، لماذا تَمَّ اختياري أنا وليس آخر.

في الليالي التي حرستُ فيها النومَ عَبثًا، في العتمــة، تَخيَّلْــتُ أرَقَ ذلك الإنسان، ويلي رونزنبرغ، الذي بدأ يفهم أنَّ زمن ســلطته وعجرفته قد انتهى، وأنه قد بقي له فقط مستقبلٌ عليه أن يفرَّ فيه دون راحة ولا إمكانية في اللجوء، والذي سينتهي فيه ميِّتا مثل كلب، مثل حيوان مُطارَدٍ ومُضحًّى به، مثلما مات كثير من أصــدقائه، ورفاقــه القدامى، وأبطال بولشفيين تحوّلوا بين يوم وليلة إلى مجرمين وخونة، إلى حقيرين، كان لزاما سحقُهم، حسبَ خُطَب المُدَّعي العامَ السكران والمتناسي لدعوى موسكو. يُقتَل ككلب، مثل زينوفيف أو بوخــارين، مثل صديقه أو صهره، هاينز نيومــان؛ زعــيم الحــزب الــشيوعي الألماني، الذي عاش لاجئا أو محاصرا في موسكو، والذي مات فــي سنة ١٩٣٧، ربما بطلقة رصاصة في الرأس. أعــزَلَ حــائرًا أمــامَ جلَّاديه، مثل ذلك المتهم، جوزيف.ك، الذي ابتكره فرانز كافكا خلال حالات الأرق المحمومة لداء السل، دون أن يعرف أنه كان يــصوغ نبوءة دقيقة. لكن أبدا لم يُعْرف حقيقة كيف مات هاينز نيومان، كــم أسبوعا أو شهرا استمرَّ تعذيبه، وأينَ دُفن جسدُه.

في معتقل الاستئصال بــ"رافنسبورك"، كانت زوجــة هــاينز نيومان تسمع حكايات كافكا، التي كانت تحكيها لها صــديقتها ميلينــا جيسنسكا. في كثير من ليالي أرقِها، عاشتْ "بَابِيتْ غْــرُوسْ"، دقيقــة

بدقيقة، العذابَ لعدم معرفتها إن كان زوجُها قد مات، أو في سجن لستالين، أو في معتقل ألماني. سنوات بعد ذلك، حين حُكيت لها الحقيقة أخيرا، تخيلت الجثمان المشنوق في غابة، متدليا من غصن، متأرجحا يوما بعد يوم إلى أن تمزّق الحبل، أو انكسر الغصن، فسقط الجسدُ المستقيم أرضا، وأنه شرع في التحلل دون أن يعثُر عليه أحد، بينما كانت هي تنام متسائلةً إن كان عليها أن تُفكر فيه كما يُفكَّر في ميت. وحين حلّ الخريف، شرعتِ الأوراقُ الدافئة تدثّره.

أنتِ تنامين إلى جانبي، وأنا كنتُ أتخيّل ويلي مونزنبرغ يدخّن في العتمة، بينما يسمع التنفس الرائق لزوجته، بابيت، البرجوازية الشقراء الطويلة، ابنة بْروسي من أقطاب الجُعة، شيوعي متعصب في السنوات الأولى من العشرينيات، والتي عاشتْ بعده سنوات كثيرة، نصف قرن تقريبا، عجوز استقبلت عشية سقوط برلين مؤرِّخا أمريكيا، وهمست له في آلة التسجيل حكايات زمن وعالم تلاشيا، صُوَرا من الليلة التي احترق فيها الرايشتاغ؛ أو الاستعراضات الأولى لأصحاب القمصان الداكنة عبر المدن الألمانية، أو لموسكو في نوفمبر ١٩٣٦، حين انتظرت هي وزوجها طيلةَ أيام في غرفة بفندق شخصا كي يأتي لزيارتهما، أو يُنادى عليهما بالهاتف لإخبارهما بيوم وساعة موعد لقاءٍ مع ستالين لمْ يتحقّق أبدا، أو أن تَخبط ضرباتٌ على الباب لرجال جاؤوا للقبض عليهما.

يوجد أشخاص شاهدوا تلك الأشياء: لا شيء من هذا قد ضاع حتى الآن في النسيان المطلق، النسيان الذي يلف الوقائع والكائنات البشرية، حين يموت شخص آخرُ شاهدٌ حضرها، الأخير الذي سمع صوتا؛ فأمعنَ النظر.

أنا أعرف امرأةً مشت تائهةً عبر شوارع موسكو صباحَ اليوم الذي أُعلن فيه موتَ ستالين. كانت حاملا في ثمانيةَ أشهر، وعادت إلى البيتِ لأنها خافت اندفاع الحشودِ، فتسحقَ المخلوق الذي كان يتحرّك بقوة في بطنها.

عند التحدُّث معها أشعر بدوار كما يحدُث حين أعبر جسر زمان شاهق، أُحسّ بنفسي في الواقع الذي شاهدته هي، وأني لو لم أكنْ قد عرفتها لكان بالنسبة إليَّ قصّةً لكتاب. أن أعرفَ رجُلا ربح صليبا من حديد في حصار لينينغراد، وصافحت حين كنت صغيرا جدا يدَ آخرَ كان لديهِ على البشرة الشاحبةَ لساعده النحيف وشمٌ للرقم التعريفيِّ ضمن سُجناء "داشو". لقد تحاورت مع شخص كان في السادسة من عمره يموت خوفا وهو يعانق أمَّه في دهليز بمدريد، بينما كانت صفارات الإنذار تطِنُّ، ومحرّكات الطائرات، وانفجارات القنابل، وأنه في العاشرةَ من عمره أُدخِل كوخا كبيرا في "مَوتاوزِن". كان رجُلا نحيفا، مهذَّبا، وسارِحَ البال، كان نصف اسمه إسباني ونصف الآخر فرنسي، ولم يكن ينتمي تماما لأيٍّ من كلا البلدين. الشَّعر أسودُ مصففٌ للخلف، الملامحُ صارمةٌ، والوجه نحاسيٌّ. لقد

كان كلُّ ما فيه إسبانيا، لكنَّ السلوك واللغة اللتين كان يستعملهما كانا فرنسيين بامتياز مثل أيٍّ من الكُتّاب الذي يتناقشون ويشربون في ذلك الكوكتيل، بباريس، الذي التقينا فيه مدَّة وجيزة، وحيث بدأت صداقتي مع ميشيل دِل كاستِيُّو.

مصادفة، وكما يُلتقى بشخص مجهول في حفلة، أنا التقيتُ بويلي مونزنبرغ في كتاب أُرسل إليَّ، وشرعتُ في قراءته تزجيةً للوقت، وبسببه بقيتُ تائها في السُّهد. في لحظة من لحظات القراءة حدث، دون أن أنتبه، تحولٌ لا إراديٌّ في تصرُّفي، ومن مجرَّدَ اسم وشخصيَّةَ غامضة وثانويةَ رجَّني مثلَ حضورٍ جبَّار، شخصٌ يُلمِّح بكثافة قويَّة إليَّ، إلى ما يهمُّني أكثر من أيِّ شيء، أو إلى ذاك الذي أنا عليه في عمق ذاتي، الشيء الذي أُطلق عليه الآليات السرية والأوتوماتيكية لاختراع ما. أنتَ في جزء كبير منك ما يعرفه الآخرون عنك، وما يعتقدونه ويقولونه، ما يرونه حين يُشاهدونك: لكن من تكونُ حين توجد وحيدا في العتمة ولا يُسعفُك النوم، وحدَهُ جسدُك ثابتٌ ورَاسٍ في السرير، وعيْكَ لا ذرائعَ له، يواجِهُ بُطءَ الزمان الذي لايُطاق في امتداده المجرَّد الخالص، لأنك لا تعرفُ الساعة، ولا ترغبُ في أنْ تُضيء النورَ كي لا توقظ التي تنامُ بجوارِكَ، لا تعرف إنْ كنتَ لا تزالُ ترقد في أعماق الليل، أو إن كانت خيوطُ الفجرِ الأولى تبدو.

برز ويلي مونزنبرغ بين أشباح الأحياء والأموات. بقي معي في ليلة السُهد تلك، وشرع منذئذ يأتي مرات كثيرة بشكل غير متوقع، على امتداد السَنة، أعثرُ عليه في صفحات كُتب أخرى، يخطر حضوره بمخيِّلتي. كانت حياته لعبا بين التمويه وعدم الرؤية، بين القوَّة الخفيَّة والخشنة، ووهج المظاهر التي لا تقل لها، وانتهى أن صار غيرَ مرئيٍّ بالتمام، ممسوحا من التاريخ من قِبَل القوى نفسها التي خدَمها بنجاعة كبيرة، والتي ربما محَتْهُ كذلك مَن الوجود شانقةً إيَّاه في شجرةٍ بدايةَ يونيو ١٩٤٠، في غابة بفرنسا.

أمسِ بالذات، اكتشفتَ أنه يحتفظ بصورة جيدة لهن دون أن يعرف ذلك، في المجلد الثاني من السيرة الذاتية لأرتور كوستلر الكتابة اللامرئية The invisible writing. اكتملت المصادفات سريعا: لقد اشتريتُ ذلك المجلَّد ذا الغلاف الأحمر والورق الخشن الأصفر، الذي طُبع في لندن سنة ١٩٤٥، في مكتبة للكتب المستعملة، في "شارلوتسفيل" بفيرجينيا، فيْ يوم شتوي سنة ١٩٩٣. كانت المكتبة توجد في بنايةٍ من خشب أحمر تشبه كوخ ومخزن غلال، تقريبا عند تخوم غابة ثلجية. في لحظة، عند تصفحي الكتاب بحثا عن تاريخ طباعته، رأيتُ شيئا لم أرَه من قبلُ أبدا: في الثنيَّة الداخلية للغلاف، هنالك توقيع غير مقروء، وبجانبه مكانٌ وتاريخٌ: أوسلو، يناير ١٩٥٩.

كذلك، لا أتذكَّر الصورةَ ذات اللونين الناصع والداكنِ الرائعةَ، التي للوحات الثلاثينيات. مونزنبرغ ينظر فيها مباشرة في العينين

بغطرسة وصرامة. ربما بنصيب من الحرمـــان واليـــأس المُـــسبَق، بالحزن الذي يكون للموتى في الصور، الشهود على حقيقة مروعـــةَ. رجل قويٌّ، خشِن، لكن ليس مبتذَلا، العنق متين وقـــصير، الكتفـــان واسعتان، الذقن مرتفع طفيفا، العينان حادّتا الذكاء وبهالة دالّة علـــى التعب، الجبينُ واسع، الشعَر مشعَّث قليلا، كأنه علامة لا يُعـــرَف إن كانت تدلُ على نشاطِ لا يفتُر أو على بدايةِ تَخلٌ. يرتـــدي الملابـــس بشكلٍ يحترمُ الأصولَ، لكنَّه لباسٌ جدُّ حديث، سُترةٌ بموضع لِقلَم فـــي الجيب الأعلى، صدرية، ربطة عنق، قميص دون عنق اصطناعي.

لوجْهِه البساطة الكثيفة الدَّالة على شخص ذي مواهـــب، لكـــنَّ فيه تعبيرا صريحا عن صداقة، يقول "كوستلر"، الذي كـــان يـــشتغل عنده في باريس، في الأزمنة التي أُخِذت فيها الصورة: رجل قصير، ربعةٌ، قوي، بكتفين متينتن، ذو هيئة إسكافي بقريةَ، تصدُر عنه مـــع ذلك سلطة مغناطيسية، وقد رأى كوستلر بنكيِّين، ووزراء، ودوقـــات نمساويين، يميلون ناحيتَه بخنوع تلاميذ مدارس.

وُلِد في أُسْرة فقيرة جدا، في ضـــاحيةِ برولتاريـــة ببـــرلين، سنة ١٨٨٩. كان أبوه صاحبَ خمَّـــارةَ ســـكّيرا وعنيفـــا، هـــشّمت رصاصةٌ رأسَه حين كان يُنظِّف بندقيَّةَ صيدِه. في السادسة عشرة من عمره اشتغل عاملا في معمل أحذية، وساهم في الأنـــشطة التربويـــة للنقاباتَ. امتلك دوما، وبنسبة من العبقرية الموهبةَ العمليَّـــةَ لتنظـــيم الأشياءِ ونشاطا، حتى إنه بدل أن يفنى في النقاش والعمل كان يبـــدو

أنه يتغذى منهما. ولكي لا يعمل في الجيش مشاركا في حرب ترفضُها مبادئه الأمميَّة، فقد فرَّ إلى سويسرا، وفي لقاءات اللاجئين في بيرن، تعرَّف إلى تروتسكي، الذي لفتَ انتباهه فيه مباشرةً ذكاؤه وحماسُه الثوريُّ، وقدرتُه التنظيمية. لقد قدَّمه تروتسكي إلى لينين: وبسرعة، انضمَّ مونزنبرغ إلى حلقة الأوفياء إليه. يُقالُ في كتاب ما إنه كان واحدا من البولشفيين الذين سافروا مع لينين في عربةِ القطار المختومة باتجاه روسيا عشيَّةَ ثورة أكتوبر. يحكي صديقي أن لينين قال له، أنتَ ستموت على عقيدة يسارية.

لكن مونزنبرغ لم يشبه أبدا في شيء رفاقَه الشيوعيين. كان فيه دوما شيءٌ غريب أو مبالَغ فيه، حتى في الأزمنة التي كان فيها مستقيما في اعتقاده. كانت تُعجبه الحياة الرغيدةَ، وبما أنه وُلد وعاش في الفقر، فقد كان لديه ميل رائع إلى الفنادقَ الكبرى، والحلل الغالية، والسيارات الفارهة. كما كان مصوغا من المادة نفسِها التي لكبار الأثرياء الأمريكيين الذين برزوا من العَدم، الأربابُ الحيويِّين للسِّكك الحديديةَ، أو لمناجم الفحم الحجريِّ، أو الحديد، الأغنياءِ بفضل البصيرة والنَّهب، لكنْ على الخصوص لشكْل لا يُقاوَم من الذكاء العملي المتحالف مع إرادة لا تكِلُّ ولا ترحمْ. الذي عرفوه يقولون عنه؛ إنه لو كان قد قرَّر خدمة الرأسمالية، وليس الشيوعيَّة لكان قد وصل إلى أن يكون من صنف و.ر. هِرست، أو موغان، أو فريك، واحد من أولئك الجبابرة الذين لا يشبع نهمهم أيُّ تملّك مهما كان

إفراطه، ولا يضيِّعون أبدا خشونةَ أصولِهم، وأبدا لا يفترون، ولا مع تقدّم سنهم، ولا مع الحصول على السلطة، ولا التملّك، إنهم يواصلون الخشونةَ المَرِحة في صميم التّرف، إنهم يشتغلون دون اطمئنان، على الرغم من ثروتهم التي لا تُحصى.

في السنوات الأولى من الثورة السوفيتية، حينما كان لينين مهووسا بإقامته في الكرملين، مسموما من قِبَل تعصُّبه الخاص، وهو مُحاط بالتليفونات والخَدَم، وكانَ لا يزال يتخيَّل أن أوروبا برُمَّتها ستشتعل تمرُّدات بروليتارية بين لحظة وأخرى، فهمَ رونزنبرغ قبل أيّ شخص بأن الثورةَ العالمية لن تَحْدُث مباشرةً، هذا إن حدثت ذاتَ يوم، وأنَّ الشيوعيَّة يمكن أن تنتشر في الغرب بطريقة جانبية وتدريجية، وليس عبر الدعاية الزّاعقة الخشنة والرتيبة التي كانت تَعجب السوفيت، وإنما عبر أسباب تبدو في المظهر غير مكترثة ولا سياسية، بفضل المشاركة اللاإرادية في جزء كبير منها لبعض المثقفين الذين لهم حظوة كبيرة، ولِشهيرين مستقلّين، ولذوي الإرادة الطيبة، الذين سيوقّعون بيانات تؤيِّد السلام، والثقافة، والوئامَ بين الشعوب.

لقد ابتكر ويلي موزنبرغ المُمَالأة السياسيَّة للمثقّفين الميسورين، المعالَجة الملائمة لعبادته للذات، لاهتمامه المتواضع بالعالَم الواقعي. ويُحيل إليهم بنوع من الازدراء مُنادِيا إيَّاهم نادي الأبرياء. كان يبحث عن أناس معتدلين، لهم ميول إنسانية، ولهم نوع من الصلابة البرجوازية، وإن أمكن بتألُّق مالي ونزوع كوسموبوليتاني: "أندريه

جيد"، "ه.ج. ويلز"، "رومان رولان"، "هيمنغواي"، "ألبرت إينشتاين". هذه الطبقة من المثقفين كان يمكن للينين أن يرميَهم بالرصاص في الحال، أو أن يرميَهم في دهليز بإقليم لوبيانكا أو سيبيريا. اكتَشف مونزنبرغ أنهم يمكنهم أن يكونوا نافعين بشكل مذهل لتحويل نظامِ حُكم إلى مظهر جذاب بالنسبة إليه، في العمق غير قابل للفساد لذكائه، وكان يقتضي أن يبدو له رهيبا في عدم كفاءته وفظاعته، بما في ذلك في الأعوام التي كان يعتبره فيها شرعيا.

شرع يتَحوّل شيئا فشيئا إلى مقاوِل الكومنترن، إلى سفيره في أوروبا البرجوازية، التي تعجبه كثيرا، والتي خصَّص حياتَه لتدميرها. كان يؤسس شركات وصحف تَصلُح له غطاء كي يحرك أموال الدعاية التي تأتيه من روسيا، لكنْ كان لديه طولُ كعب حقيقي خليقٍ برجل أعمال، حتى إن كل واحدة من تلك الشركات كانت تترفَّه مضاعفةً الاستثمارات الخفية بأنهار من الأموال، كان يُموّل بها حينذاك مشاريع جديدة لمؤامرات ثوريةَ، وصفقات تجاريةَ ملتهبة وجريئة، تخلّتْ عن أن تكون أغطيَةً، أو تمويهاتٍ، كي تتحوّل إلى مفاخر حقيقية للرأسمالية.

كان زعيما من الأممية الثلاثية، لكنه كانَ يتحرّك في برلين وفي باريس، بعد ذلك، داخل سيارة كبيرة من نوع لينكولن، مصحوبا دوما بزوجته الشقراء الملتحفة الفرو، وأكثر من ذلك أفطس ومتين مقارَنة بها، وإن يَقلْ كُوستلر إنه لمُجرَّد رؤيتهما معا يُتنبَّأ

منهما تواطؤ كامل، وحنان لا ينكسر. لقد ابتكـــر القـــضايا الكبـــرى النبيلة، التي ما كان لأحد ذي نيَّة طيّبة أن يتخلَّى عن الانضمام إليها. إنَّ مقياس انتصاره هو معادل لخفاء هويَّته فقـــط: لا أحـــد يعلَـــمُ أن التحرُكات الدولية للتضامن، والمؤتمرات الدولية للكُتّـــاب والفنـــانين، دفاعا عن السلام أو الثقافة، خطرت للمرَّة الأولى على ذهـــن ويلـــي مونزنبرغ. بتجربته الشخصية، كان يعلم أن البولـــشفيين والـــواقعيين مثل ستالين، أو لينين نفسه لا يمكن أن تكون لهم جاذبية مهمة لـــدى جماهير الغرب: إنَّ جَلب حائز على جائزة نوبل للآداب إلى صـــف الاتحاد السوفيتي، أو ممثلة من ممثلات هوليود، كان ضربة رائعـــة ضمن العلاقات العامَّة، إنه هدف ممكن أن يكونَ قد ابتكرَهُ هو أيضا. لقد اكتشف أن الجذرية المتخيَّلَة، والتعاطُفَ مع الثورات البعيدة جـــدا كان شيئا مغريا، لا يُقاوَم من قِبَل مثقفين ذوي وضع اجتماعي مُعيَّن.

إنَّ نجاحه الأول في التنظيم والدعاية الضخمة كان إبَّان الحملة العالمية لإرسال الأغذية إلى مناطق روســـيا المنكوبـــة بالمجاعـــات الكبرى سنة ١٩٢١. وقد مكَّنتْ حركة "الإنقاذ الدولي للعمال"، التـــي كان يسيِّرُها، من أن تصل روسيا عشرات البواخر للتعاطف إنـــسانيا مع معاناة وبطولة الشعب السوفيتي. لقد انقلب النفور مـــن الإحـــسان لأزمنة ولَّت إلى تضامن سياسي قويّ، وأمْكن للمحسن أنْ يُحسَّ أنـــه مستريح على خطوة من النضال الفعَّال. اخترع مونزنبرغ طوابـــع، وشارات، وقصاصات الدعاية لصور الحياة في الاتحـــاد الـــسوفيتي،

وصورا ملوّنة، وثقّالاتِ أوراق بنصف تماثيل لماركس ولينين، بطاقات بريدية لعمّال وجنود، كل شيء يمكن أن يُباعَ بثمن بخس، ويُمكنه أن يجعل المشتري يحس بأن نقوده القليلة كانت حركةَ تضامن، وليس صدقة، إنه شكل عملي ومريح للعمل الثوري.

كان مونزنبرغ، سنة ١٩٢٥، مَن ابتكر وسيَّرَ، عبر لجان لا تُحصى، منشورات، ومسيرات، وصُورا في أنباءِ السينما، والموجة الكبيرة للتضامن مع ساكو وفانزيتي. كانت منشوراتُه التجارية تُوفّر له المال لتغطية تكاليف دعايته السياسية، وكذلك يضاعف الرنين الجماهيري للحملات التي كان يطلِقها. كانت حركةُ "الإنقاذ الدولي للعمال" في السنوات الفظيعة للتضخم المالي بألمانيا، في زلزال اليابان سنة ١٩٢٣، في الإضراب العام بإنجلترا سنة ١٩٢٦، تَدعَم صناديق المقاومة، وتنظِّم مطاعم شعبيَّة، ومدارس وملاجئ للأطفال اليتامى. كانت الحاجة إلى الطبع والنشر بشكل هائل لنشراتٍ هجائية سياسية الشيء الذي أيقظ في ويلي مونزنبرغ اهتمامه بالمطابع ودور النشر. في سنة ١٩٢٦، كان يملك في ألمانيا صحيفتين رائجتين بكثافة، وأسبوعيّة مزيَّنة برسوم، كان يطبع منها مليون نسخة، وكانت، كما يقول كوستلر، المقابل الشيوعي لمجلة "Life"، وسلسلة من المنشورات التي تتضمن مجلات تقنية لمُصوِّرين ولهُواة الراديو والسينما. في اليابان، كانت منظّمتُه تتحكّم مباشرةً أو بشكل غير مباشر في تسع عشرة صحيفة ومجلة، وكان ينتج في الاتحاد

السوفيتي أفلام إينشتاين وبودوفوكين، وفي ألمانيا كان يُنظِّم توزيع السينما السوفيتية، ويُموّل العروض المسرحية الطليعيَّة لاروين بيسكاتور وبيرتولد بريخت. لقد تحوّلت المكتبات السينمائية، ونوادي القراءة، أو الرياضة، وجمعيات تنظيم الرّحلات الجماعية، ومجموعات النُشطاء لصالح السلام، على امتداد العالم إلى فروع خارج الشبهة لـ"نادي الأبرياء" الكبير.

كلُّ ما كان مونزنبرغ يمتلكه أو يتحكَّم فيه في ألمانيا فقده عقِبَ وصول هتلر إلى المستشارية. لكنه كان مثل أولئك الأقطاب الأمريكيين، الذين كانوا يقاسون إفلاسات، ويكونون في وقت وجيز قد بدأوا يبنون من العدم، وبالحيوية نفسها التي لا تُهزَم ثروةَ جديدةَ. فور وصوله لا جئا إلى باريس، اشترى دار نشر، وشرع في تنظيم الدعم الاقتصادي للمقاومة السريَّة بألمانيا. وبطريقة عمياء تقشعرُّ لها الأبدان كان الحزب الشيوعي الألماني يعتبر، حتى آخر لحظة، أن النازية كانت خصما صغيرا، لأن الأعداء الحقيقيين للطبقة العاملة كانوا هم الاشتراكيون الديموقراطيون. إن كارثة يناير ١٩٣٣، انتهت إلى إقناع ويلي روزنبرغ بأن تعصُّب رفاقه الانتحاري لصالح الحزب يلزم التخلي عنه لصالح تحالف كبير لكل القوى الديموقراطية المستعدة لمقاومة المدّ الكارثي للفاشية. وفي أشهر قليلة نشر أحد الكتب الأكثر مبيعا في القرن العشرين، الكتاب الأسود للرُعب النازي، وبلغ نجاحَهُ الأكبر، إنه الكتاب الخالد الصادر عن غريزته

الرائعة لأجل الدعاية للجماهير، أثناء الحملة الدولية لصالح ديميترَوف والمتَّهمين الآخرين في محاكمة حريق الرايخ.

وبالضبط حين تتجاور أزمنة الرُّعب الأكثر سوادا واستئصالا على عهد ستالين، فإنَّ العبقرية الإعلانية لويلي رونزنبرغ أفلحتْ إزاء الرأي التقدميِّ للعالَم أن يبدوَ الاتحاد السوفيتي باعتباره الخصم الكبير للكُليانيةَ، وأكثرَ بسالةً ونَفَسا من الديموقراطيات البرجوازية الفاسدة. في إحدى محاكم ليبزيغ، تواجه ديميتَروف بجرأة ووحيدا مع القضاة ومع الممثلين الكبار للنازية، وصيَّرهم أضحوكة، وفي الوقت نفسه أثبَت براءتَه، وأفسَدَ مؤامرةَ إسنادِ حريقَ الرايخ إلى الشيوعيين.

لم يكن مونزنبرغ يتوقَّف أبدا، وأبدا لم تتخَلَّ مخيِّلتُه عن ابتكار مخترعات ومقترحات، وأفكارٍ لكتب أو مقالاتٍ كان يمليها على وجه السُّرعة على سكرتيراته، مُلَخصة في سطور قليلة، يلزم الآخرينَ حالا أن يُوَسِّعوها، مشاريعَ مجلاتٍ أو أشكالا جديدةَ للنشاط السياسي، وحدوث نجاحاتٍ في عالَمِ النَّشر، والنوادي، واللّجان، أو الحملات، ولوائح أسماء أصحاب النفوذ، الذين من الضروري استقطابهم في سبيل قضيَّة جديدة، لمُساعدة العُمَّال في ثورة إقليم أشتوريا سنة ١٩٣٤، أو في الاحتجاج على الاجتياح الإيطالي لإثيوبيا. كان يدخل إدارته في باريس كإعصار، مُتماسكا وحيويًّا حتى إن الاصطدام به هو مثل الاصطدام بدَكَّاكةٍ، كان يتكلَّم في الهاتف صارخا، ويدخِّن بشراهة ولامبالة سجائرَه الفخمة، ويملأ بالرماد

الثنايا العريضة لحلته التي تشبه حلل أقطاب التجــارة، كـــان يُملـــي مسوّدات أو مذكِّرات حتى الثالثة صـــباحا أو الرابعـــة، وتليغرافـــات ينبغي أنْ تُبْعث حالا إلى موسكو أو نيويورك أو إلى طوكيو، ويُراجع أرقام مبيعات الكتب والسَّحْبَ الأوَّل لصحف، ويحسب في الآن عينِه هوامش الرِّبح أو الخسارة، يرتجل بصوت عال قوانين اللجنة العالمية لأجل التخفيف من معاناة ضحايا الفاشية الألمانية، أو لائحة الأغذيـــة والأدوية التي ينبغي أن تبرْزَ كأولوية فـــي شـــحنة الـــسفينة التـــي أستأجرتها منظَّمته في مارسيليا، وموجَّهَة إلى العمال المضربين فـــي ميناء شنغاي.

يوجد في كلِّ مكان، يُسيِّر تشكيلة متميِّزة ومتنوعة من المهامّ، يطيعه ويخشاه بَشَرٌ يجوب العديد من بلدانهم، الذين لا يعـــرف فـــي كثير من الأحيان أنهم يخضعون لأوامره: وهو مع ذلك غير مرئـــي، أو يبدو أنه ليس الذي يُرى، وكلُّ ما يقوم بـــه لـــه جانـــب واضـــح وقانوني وآخر خفي، منطقةٌ تظلُّ دوما في حيِّز الظلِّ، شأنه هو ذاته. عضو في الرايخ متآمر، رجـــل أعمـــالٍ يعـــشق الـــسجائر الغاليـــة والسيارات بسائق، ومناضل شيوعي، رجـــل شـــهير يـــدخل إلـــى الصالونات ممسكا بذراع امرأة أطـــول منـــه وأكثـــر تميُّـــزا منـــه، وجاسوس ساخر من غباء وإغواء الأغنياء، الذين يُقدِّرهم في الوقـــت ذاته، والذين يُحِسُّ بأنه مهووس بهم، ويتملَّكه إعجابُ طفلٍ فقيـــر لا يخمد وهو يرى من بعيد الحياةَ المتلألئة للأقوياء، الطفل الذي يتشمم

عبر الشوارع عطور النساء الملتحفات في الشيلان الجلدية، ويشعر ناحيتهنّ برغبة مُطعَّمة بحنق اجتماعي. إنه من المروّجين للثورة البرجوازية، يعشق الحياة الطيبة والرغدة بهوس يُحسُّ به من كان فقيرا جدا. لا شيء مما كان لديه كان يملكه، أو كان له فقط بطريقة حدسية، ومؤقتة، لأنه كان في اسم شركات ملاحية غامضة تشتغل كغطاء للنشاط السوفيتي ولتَجسُّسه.

خلال الأرق الطويل، يتفسَّخ الخيالُ ويُشبِك ذاتَه بحمى حادة ومرضية، متنقلةً كاهلَ وعي منهَك بتناسُل صور وكلمات وأسماء لديها كل التنوُّع الاعتباطي غير المُطاق لهذا العالم الواقعي والفوضي وغرابة الأحلام. مونزنبرغ في باريس لا يتعب، أرِقٌ، يملي أو يتكلم عبر الهاتف، الحشود في فرار عبر طُرُق أوروبا، سرعة المنحنيات التي تصيب بالدوار، وعجلات القطارات، ومراوح الطائرات. رونزنبرغ يصعد ممسكا بذراع زوجته سلالمَ الأوبرا، ويُدخل صحبتَها إلى بهو استقبال تكريما لبعض المشاهير العالميين الذين يُسميهم سرًّا البريئين مثل أندريه جيد، ورومان رولان، وويلز، وبيرتراند راسل، متناسيا أن تلك الحياة الخارجية مجرَّد تمويه، شأنَ مؤتمراته المتفاصحة حول السلام، ولربما محوّلا شيئا فشيئا موقفَهُ إلى هوية حقيقية، رجل أعمال متزوج بامرأة شقراء؛ جد فائقة الجمال في تصرّفاتها كما في لباسها، إنه ناشطٌ سياسي، شرع هو الآخر رويدا رويدا يفهم أنه هو أيضا قد انتمى إلى نادي الأبرياء، وأنه كان ضحية الأكاذيب نفسها التي ساهم هو في إذاعتها.

حتى ذلك الحين لم ينتبه، لكن كان هنالك من يراقبه منفِّذا تعليمات موسكو، مَن يرتابُ في شأنه ويضيف اسمَهُ إلى لائحة من سيتم تصفيتهم عمَّا قريب. لقد أمكنَهُ دوما أن يتفاهم مع لينين، وتروتسكي وبوخارين، وعلى أية حال فإن ذلك كان زمن آخر، ففي ذلك الحين كان هو وبابيت يغذيان الرومانسية وعمى الثورة. صديقي العزيز، أنت ستموت على عقيدة يسارية. لم يَرَ ستالين عن قرب سوى مرَّات قليلة، لكنَّه يبدو له غير قابل للاختراق كتمثال بدائي لصنم. في أكتوبر ١٩٣٦، تقدَّم إليه مبعوث في مكاتب باريس، رجلٌ لم يرَه مونزنبرغ أبدا، والذي أثار استياءه بخشونته، منظر جليٌّ لواش، أو لإداري بمؤسسة السجون. الرجل عند دخوله إلى المكتب فحص المكان بطرف عينيه، وباستنكار نظر إلى ترف السجاد، والستائر، واللوحات، وأشكال الأثاث، والكراسي الأنبوبية، والمائدة art déco الذي كان يُسندُ عليها ويلي مونزنبرغ غمرتيه بفجاجة قروية، مُحاطا بأوراق وتليفونات. قال له الرَّجلُ، دون مقدِّمات ولا وعظ بأن حضوره مطلوب على وجه السرعة في موسكو.

هناك كذلك خائنٌ صغير في الحكايـة، ظِـلٌّ على جانب مونزنبرغ، التابع الحقود المنقاد، المثقف ومتعدد الألسنة -كان مونزنبرغ يتحدث الألمانية وحدها وبنبرة قوية دالَّة على طبقته الاجتماعية الدنيا- إنه نقيضُه الجوهري "أُوتو كاتز"، الذي يُدعى أيضا "أندريه سيمون"، نحيف، يتفادى الآخرين، صديق قديم لفرانز

كافكا، منظِّمُ مؤتمر المثقفين المناهضين للفاشية ببلنسية، مبعوث مونزنبرغ والكومينترن بين مثقفي نيويورك والممثلين وكتّاب السيناريو بهوليود، ونجوم يسار الكافيار، والراديكاليين المتشيِّكين، جاسوس دوما، ومداهن حثيث لهيمنغواي، وداشيل هاميت، وليليان هيلمان، متحمس لستالين وقليل الحياء. أُتو كاتز، وأندري سيمون، إنه الألمعية الرمادية بعد التحبيكات الكبيرةَ لمونزنبرغ، وكذلك الظل الذي يُخبِر حاكمي موسكو بكل حركةَ من حركاتِه، وبكل كلماتِه. قدَّم موزنبرغ على عَجل وفاءَه، وبما أنه حادٌّ جدا في تمييزه لطبائع البشر ونواقصهم، فإنه لم ينتبه إلى خيطِ الاستياءِ تحت مظهر نعومة أوتو كاتز، هنالك الصَّبر الدقيق الذي يحتفظ به في السرِّ كتلك الحسابات الصغيرةَ غير المدفوعة والإهانات التي يُكابد أو التي يتخيّلها، والازدراءات أو الوقاحات غير المُسيطَر عليها والغريبة التي كان يُكبِّدها إياه مونزنبرغ على امتداد السنين. يقول كوستلر إن كاتز الذي كانَ غامضا ومتميِّزا، والذي كانت لديه جاذبية خسيسة نوعا ما، كان يتكلَّم ويكتب بطلاقة الفرنسية، والإنجليزيةَ، والألمانيةَ، والروسية، والتشيكية. وفي مقاهي فيينا وبراغ تناقش في الأدب مع ميلينا جيسنسكا. كان يغمز دوما بإحدى عينيه حين يُشعل إحدى سجائره، وكان لديه ذاك الغمزُ متأصِّلا فيه حتى إنه كان يغمز حين كان يمكث جدُّ مشدوه إلى شيء، وإن لم يكن يُدخِّن حينئذ. لقد سيَّر خلال الحرب الأهلية الإسبانية الوكالةَ الرسمية للأنباء للحكومة

الجمهورية، التي أسندت إليه إدارة الأموال السرية الموجَّهَة للتأثير في بعض المنشورات والسياسيين الفرنسيين. لقد انتشله ويلي مونزنبرغ من البؤس والقنوط ببرلين حيث كان يتسكع، في بداية سنوات العشرينيات، بين مآوي المتسولين والسكارى، وجسور المنتحرين. في سنة ١٩٣٨، حين طُرِد مونزنبرغ من الحزب الشيوعي الألماني بتهمة اشتغاله في السر لحساب جهاز الجستابو، كان أوتو كاتز من الأوائل الذين تنكّروا له علانية ونعتوه بالخائن.

ذلك الفأر، أوتو كاتز، منحه قُبلة يهودا، لقد حاك أوتو كاتز خيوطَ موته، وإن لم يكن هو الذي أحكم عقدة حبل الشنق إلى أنْ خنقه.

تتحدث امرأة، سنوات عديدة بعد ذلك، عجوز تبلغ التسعين، قبالة جهاز تسجيل، في ظلِّ إحدى الشُّقق بميونيخ، كان عامل السِّن قد حلَّل الملامح الشامخة لوجهها، لكن لم ينل من مظهرها الفخم ولا من بريق عينيها، وفي الوقت نفسه لم يُخمد الزمانُ احتقارَها للخائن القصيِّ، الذي ماتَ هو أيضا، الذي تمَّ طردُه هو الآخر وإدانته، وإعدامُه بحبل في العنق، سنة ١٩٥٢، في زنزانة ببراغ. كذلك لم ينل الجلادون رحمة. أوتو كاتز، تقول العجوز، ناطقةً ذاكَ اللقب كما لو كانت تبصقه بين شفتيها المغلقتين، اللتين بهما بقعة قرمزية قوية وغامضة.

كذلك أواصل تعقُّبَ أثر تلك المرأة عبر الكتب، أبحث عن وجهها في الصُّور، أستقصيه بين متاهات الإنترنت راغبا في العثور على الكتاب الذي كتبته في سنوات الأربعينيات كي تثأر لذكرى زوجها وتدين وتخجل الذين أولئك حسَب قولها حاكوا مؤامرة قتله. أرى مشاهد، وصُورا لم تُستدْع بالإرادة ولا ترتكز على أي ذكرى، مُزوَّدة بتدقيقات السهاد لا أشعر أنا فيها أنَّ خيالي يتدخل: الستائر الملقاة في شقة ميونيخ، في أكتوبر ١٩٨٩، الشريط الذي يلف مع صرير خافت في آلة التسجيل الموجود أمامها، والتي سيظل صوتها محفوظا فيها، الصوت الذي لم أسمعه أبدا، والذي وصلني عبر الكلمات الصامتة بكتاب اكتشفته مصادفة، وقُرِئ دون كلل في ليلة أرق.

لقد حدست، على امتداد عامين أو ثلاثة أعوام، غواية وإمكانية كتابة رواية، تخيَّلتُ أوضاعا ومواضعَ. مثل الصُّور المتفرِّقة أو مثل تلك الصور المتتابعة لأفلام، توضع من قبل، منتصبة في لوحات إعلان كبيرة، عند مداخل دور السينما. كان في كل واحدة منها إيحاء قوي بشيء، لكننا نكون على غير علم بالحجَّة، ولم تكن الصُّور المتتابعة أبدا متسلسلة، وذاك ما كان يجعل الصُّور المجتزَأة أكثر جبروتا، ومتحرِّرة من ثقل المواضعات العادية لحبكة ما، ومختزَلة في ومضات، وفي كشوفات في الحاضر، دون أن يكون لها قبلُ وبعدُ. حينما كانت تعوزني النقود كي أدخل إلى السينما، كنت أقضي

الساعات الميتة أنظر الصور المتتابعة للفيلم واحدة تلو أخرى، ولم يكن ينقصني في شيء افتراض أو اختراع قصة تؤلِّف بينها جميعا، وكنتُ أجعلها تتآلف بينها كقطع لعبة التسلية التي تُعَشِّق. كل واحدة منها كانت تكتسب قيمة لغز ثمينة، وتتجاور دون نظام مع الأخريات، كانت الصُّور تستضيء فيما بينها في اتصالات متعدّدة وآنية، كان بوسعي تفكيكها أو تغييرها حسب هواي، وحيث لا صورةَ تُلغي الأخريات أو تدركُ أسبقيَّة أكيدة عليها، أو تفقد خصوصيتها التي لا تُختَزل لصالح مجموع الصور.

إن خشخشة أوراق الشجر في حديقة بيتنا الجديد أو حلُما مزعجا ناجما عن مرض أو مصيبة كان يوقظني فجأةً، وكان ويلي مونزنبرغ يستيقظ في خضم الليل ببيته في باريس أو في الغرفة الباردة بفندق في موسكو، وخوفا من أن يكون المُكلَّفون بإعدامه يقتربون، يتساءل كم من الوقتِ بقي حتى الآن على توقف طلقةُ رصاصة أو طعنة التمويه الكبير والسراب وهذيان وجوده العمومي، والدِّفء المديد لحياته الزوجية مع بَابِيت التي كانت تنام إلى جانبه، كانت تعانقه أثناء نومها مثلما تعانقينني أنتِ، بإصرار وثبات مُسهد.

يتوقَّف قطار الضواحي في محطَّة صغيرة بالسلسلة الجبليَّة سيِّيرا بمدريد: مطرٌ خفيف، السفوح وما بها من أشجار وثلج، الرائحة النفاذة للنباتات المبلَّلة- قريضة، صنوبر، السرو الأريزوني، السقوف الأردوازية الحادة، تعطي الانطباع بأنَّك قد وصلتَ أبعد

بكثير، إلى مكان خفيٍّ بالجبال، حيث لربَّما كانت توجد مَصحَّات وإقاماتٌ للمرضى المحتاجين إلى الراحة والهواء النقي والمنعش. القطار سريع، حديث، لكنَّ بناء المحطة من حجر عار وأفاريز النوافذ من آجُر أحمر، واسم القريّة مكتوب على لافتة من بلاطات صفراء. لا أحد على الرصيف، لا أحد نزل من القطار. تغمر الرئتين مباشرة رائحةُ الغابة والخشب والتُّراب المبلَّل، والهواءُ الهادئ والرّذاذ تلامس الوجه بقيمة آنية دالَّة على التهدئة. شرع القطار في الابتعاد وأنا في المشي عبر طريق من تراب، حاملا كيسي للسفر في يدي، باتّجاه منطقة بيوت ريفيَّة حيث شرعت بعض الأضواء في الاشتعال. عام ١٩٣٧، وخوفا على حياته، وقد نال منه الاضطراب والإنهاك حتى إنه كان يحس ألما حادا في الصدر، ودُنوَّ أزمة قلبية، لجأ ويلي مونزنبرغ مدَّةَ بضعة أشهر إلى مصحة للراحة، بمكان يُدعى La Vallée des Loups، وادي الذِّئاب. واسم الطبيب الذي يديرها يبدو هو أيضا مؤشِّرا أو واعدا بشيء: الدكتور "لو سابورو". لكن مونزنبرغ غير مؤهَّل للراحةَ الجسدية ولا اطمئنانَ البال الفطن، إذ فور وصوله إلى المصحَّة طفق يمضي الليالي ساهرا يؤلِّف كتابا. وبمجرَّد نزولي وحيدا برصيف محطَّة "سِّييرا" الصغيرة كنتُ أنا ويلي مونزنبرغ أبحث ليلا الطريق إلى المصحَّة.

لقد وصلنا ذات مساء شتوي إلى فندق بالشمال، في إقليم فيطوريا. عُرِضت علينا غرفة في الطابق العلوي، وعند فتح النافذة

رأيت في الأسفل حديقة مغطاة ثلجا، بها عرائش وتماثيل، وكشك موسيقى، وفي العمق، فوق السقوف البيضاء، سماءٌ رماديَّة حيث كان سهلٌ يتلاشى: لقد أفلح مونزنبرغ وبابيت في الخروج من روسيا، وبعد ليلة برمَّتها في قطار أقاما في فندق قريب من محطة بمدينة بلطيقية، كانا لا يزالان منهكين بسبب قلة النوم والخوف الذي عاشاه عند الاقتراب من الحدود، لخوفهما أن يفتش الحُرّاس السوفيت جوازي سفرهما وأن يأمراهما بالنزول من القطار.

في طريقه إلى مدريد أو باريس، جعل مرورُ عربة من عربات المترو الرَّصيف يرتجُّ تحت خطواتي: يحس مونزنبرغ أن العالم يهتز تحت قدميْه معلنا عن كارثة وأن لا أحد سواه يبدو أنه يُدرك اقترابَ الكارثة وعظمتها، لا أحدَ على أرصفة المقاهي ولا في الوهج الليلي للشوارع، بينما بدأت الأرضية في الاهتزاز تحت وقع الأحذية ذات الرقاب، وثقل جنازير عربات القتال، تحت وقع القنابل التي تسقط على مدريد، وبرشلونة، وغرنيكا دون أن يرغبَ أحدٌ في أوروبا أن يسمعها، بينما هتلر الذي يُهيئ جيوشه ويستشير خرائطه، وستالين يتمثّل المسرح العمومي الكبير لتطوُّرات موسكو والجحيم السِّريّ للاستنطاقات والإعدام.

أحْضرُ عرضًا للناي السحري، ودون أي باعث، في خضم الفرح بالموسيقى، فإن الرجل الذي يجلس جنب المرأة شقراء هو موزنبرغ، وفرارُ البطل التائه في الغابات يلاحقة تنانين ومتآمرين لا

وجوه لهم هو أيضا فرارُه: ربما دخل خفية إلى ألمانيــا وإن كانــتْ الأوبرا لا تعجبه فإنه ذهب إلى عرض الناي السحري فــي مــسرح ببرلين مملوء بحلل سوداء ورمادية لكي يتصل بشخص ما. لكن هذا المشهد ليس مرجَّحا: ربما، تمكّن موزنبرغ من دخول ألمانيا متنكرًا، لكن في أوبرا برلين تمَّ التعرُّف في الحال على بابيت ج، البرجوازية الحمراء، الفضائحية والمتغطرسة الفارَّة من سلالتها الاجتماعية، من الوطن الآريِّ الكبير.

لكن ربما يبعث على الخمول أو عدم الرغبة التخيل، التــدني إلى تزوير لا محيد عنه مُرتَّق بالأدب. إن أحــداث الواقــع ترســم حبكات غير منتظرة لا يجروَ الخيالُ عليها. كان لــ"بابيت غــروس" أختٌ اسمُها "مارغريتى"، مهووســةَ برومانــسية مثلهــا بالجذريــة السياسية في الفترات الأولى المهلوسة والمتــشنّجة مــن جمهوريــة فيمير. مارغريت، مثلما أختها، تزوَّجت بشــوريّ محتــرف، هــاينز نيومان، مسئول الحزب الشيوعي الألماني. في الأيــام الأولــى مــن فبراير ١٩٣٣، بعد مضي وقت قصير على تعيين هتليــر مستــشارا للرايخ، فرَّ ويلي موزنبرغ وبابيت من ألمانيا فــي ســيارة لنكــولن الكبيرة السوداء، ولجأ إلى باريس؛ وفرَّ نيومــان ومارغريــت إلــى روسيا. لقد فقَد نيومان حظوته وتمَّ إيقافه وإعدامه بطلقة رصاص في القفا؛ وتَمَّ إرسال زوجته إلى معتقَل في الشمال الثلجي بسيبيريا.

في ربيع ١٩٣٩، حين تمَّ التوقيع على المعاهدة الألمانية- السوفيتية، تضمَّن بند تسليم ألمانيا المواطنين الألمان الفارِّين من النازية الذين بحثوا عن لجوء سياسي في الاتحاد السوفيتي. لا حدَّ من الحدود يكون ملجأ، وكل الحدود هي مصائد تنشد مثل طُعم حول الأرجل السائرة للمُدانين. نُقلَت مارغريت في قطارٍ من سيبيريا إلى الحدود مع بولونيا التي كانت قد قُسِّمت مؤخرًا، وسلَّمها الحرَّاس السوفيت إلى حراس الـ أس أس، وبعد ثلاث سنوات في معتقل سوفيتي قضت خمس سنوات أخرى في معتقل تصفية ألماني.

هنالك، في رافينسبروك، حيث عاملتها المعتقلات الشيوعيات مثل خائنة، تعرَّفت إلى امرأة تشيكية، هي ميلينا جيسينسكا، التي كانت منذ عشرين سنة خلت الحبَّ الكبير لفرانز كافكا، والتي تحركت في نفس الدوائر البوهيمية والراديكالية ببراغ التي كان يطرُقها أوتو قبل أن يهاجر إلى بيرلين، وأن يلتقي هنالك بمونزنبرغ. في معتقل رافينسبروك، أصغت مارغريت، التي لم تسمع من قبل بكافكا، إلى صوت ميلينا تحكي قصة المسافر التاجر الذي يستيقظ ذات صباح وقد تحوَّل إلى حشرة كبيرة، وإلى قصة الرجل الذي دون معرفته للجريمة التي ارتكبها خضع لمحاكمة وهمية التي يكون فيها متَّهما مسبَّقا وينفَّذ فيه الإعدام لاحقا كأنه كلب في أرض مكشوفة وفي منتصف الليل. ميلينا المريضة جدا، والتي أنهكها الجوع ستموت في مايو ١٩٤٤، حين كان قد بقي القليل من الوقت على

وصول الأنباء إلى المعتقل بإنزال جيوش الحلفاء في إقليم نورماندي، وعلى معرفة أن الروس يتقدَّمون من جهة الشرق. إن اقتراب الجيش الأحمر ليس هو الأمل في الحريَّة بالنسبة إلى مارغريت، وإنما التهديد بالأسر، وبتكرار الكابوس. لقد فرَّت من المعتقل الألماني أثناء فوضى الأيام الأخيرة، هربت عبر أوروبا من جيشين، من الألمان الفارِّين ومن الروس الزاحفين، من جحيمين محتَمَلين أفلحت بثبات لا يمكن تصديقه في أن تستمر على قيد الحياة ثمانية أعوام.

في ١٩٨٩، وفي التسعين من عمرها، تتحدَّث أختها بابيت عن تلك الأشياء لصحفي أمريكي، استيفين كوش، الذي كان يؤلِّف كتابا عن ويلي مونزنبرغ، والذي سأكتبه مصادفة سبع سنوات بعد ذلك. تعيش بابيت في ميونيخ وحيدة وأنيقة، لا تزال منتصبة القامة، وفي عميق عينيها الالتماع السليم للشباب. هنالك تركيز متعصب في الصيغة التي تنظر بها أحيانا إلى الرَّجل الشاب، الإصرار الشيطاني على العيش وأن تتفوق على من يزال يدعم بعض العواجز الهرمين. بعد ذلك بقليل، انتقلت إلى برلين، إلى شقة إقامتها التي على مقربة من سور برلين: قد تكون سمعت في بعض الليالي ضجيج الحشود التي تتظاهر في الطرف الآخر، ويصل إلى غرفة نومها فرقعة الصوارخ النارية، وأغاني الاحتفالات، في ليلة ٩ من نوفبر، حين انتهت إلى الغرق في أوروبا، العالم الذي آمنت به هي وزوجها وأختها وصهرها ستين عاما قبل ذلك، العالم الذي ساهموا في بنائه.

تتحدّث المرأة بصوت خفيض وصاف، بإنجليزية مهجورة وسالمة، إنجليزية الطبقات العليا البريطانية في سنوات العشرينيات، صوتُها شأن عينيها أكثر شبابا منها. كلّ شيء حدث منذ زمن بعيد كما لو أنه لم يحدث أبدا. كل ما تعرفه وتتذكره سيتخلّى عن الوجود في غضون أشهر قليلة، حين ستقع بابيت مريضة وستموت. ستُفقَد حينئذ ويختفي معها وجه ويلي مونزنبرغ، رائحةُ جسده أو رائحة السجائر التي كان يدخنها، الشهادةَ على حماسه، بالصيغة التي قوِّض بها أوّلا بالاشتباه فيه وبعد ذلك بالذُعر، والارتياب في أنه قد غدا مُطارَدا، وأنه لن يكون هنالك تسامح معه. صفاء الذهَن أيضا، واكتشاف أنه هو ذاته، المخترع الرائع للأكاذيب، هو أيضا قد خُدِع، لم يرغب في أن يرى ما يمثّل أمام ناظريه، وهو ما حاول أن يحكيه في كتاب متعجّل ومضطرب حين كان الوقت جد متأخر، حين أدار له الظهر أولئك المثقفون الذين سَحَرهم، واستعملهم وازدراهم خلال وقت طويل، حينما كان العارُ قد لحق باسمه، وقد مُحِيَ بعناية من شهود زمانه.

وصل رسلٌ لإبلاغه بأمر وجوب سفره إلى موسكو. كان يبتكر تأخيرا، وذرائع كي يؤخر السفر، لأنه كان يستحيل عليه التفكير في أن يرفض بإطلاق الامتثال. إنه يعرف أن آخرين قد ذهبوا إلى موسكو، وأنهم لم يعودوا أبدا، كانت آثارُهم تُمحى وحتى أسماؤهم، أو كانت تتم إدانتهم علانية في منشورات الحزب باعتبارهم

مسؤولين عن خيانات فظيعة. كان مونزنبرغ يَعلمُ جيدا كيف كانت تُنَظَّم حملةٌ سُخط عفوية ودولية، أسوأ ما يمكن أن يُنجزه هو أن تُقْلَبَ الحقيقة لو تُستعمل بذكاء التقنيات الإعلانية للإقناع، والتّكرارُ المتعاظم والساحق لشيء ما.

لا يمكنه الذهاب إلى موسكو الآن، كان يقول في الصيف الأوّل من الحرب الأهلية في إسبانيا حين كان ينقُصه مجدَّدا أنْ يُظهِر كلَّ مواهبه كمُنظِّم ومُروِّج للدفاع عن آخر قضاياه الكبرى، القضية الأقرب إلى قلبه، بعد سقوط ألمانيا. لأنه من باب التضامن الدولي مع الجمهورية الإسبانية، ومع حكومة الجبهة الشعبية.

لكنَّ الرسائل والأوامر السريَّة استمرَّت في الوصول، وكلَّ مرَّةَ بشكل أكثر جفافا واستعجالا، وأقلَّ تهديدا، في الوقت نفسه الذي كانت تصل فيه أنباء عن اعتقالات واستنطاقات. في نوفمبر ١٩٣٦، سافر مونزنبرغ وبابيت غروس إلى موسكو. هو كان لا يزال مسؤولا كبيرا في الكومينترن وفي الحزب الشيوعي الألماني، لكنْ لا أحدَ كان في محطةِ القطار ينتظرهما. زوجٌ من الأجانب بملابس شتوية فارهة، في خضم التفاهة والأزمة السوفيتية بالأرصفة، الرَّجُلُ بقبعته اللِّبْدية والمعطف الطويل مُحْكَمِ القياس، والمرأة بكعبيْن عاليَيْن، بجوارب حريرية، وجْهُها مُغطًّى بالمساحيق وشعَرْها الأشقر الطويل يطفو من عنقَ معطفها الجلديّ، وإلى جانبهما متاعُ سفرهما المكدس الدال على المسافرين في قطارات الأبهة وفي أفضل

مقصورات السُّفن عابرة المحيطات، حقائب من جلد بزخارف مذهّبة وملصقات الفنادق العالمية، صناديق، عُلب الزينـــة، علـــب خاصـــة بالقُبَّعات: علامة إعلان أو صور متتابعة لفيلم في الورق المـــصقول لمجلة صُوَر تعود للثلاثينات، إحدى تلك المجلات التـــي فكَّـــر لهـــا ونشرَها ويلي مونزنبرغ.

لا أحدَ أيضا كان ينتظرهما في الفندق الذي خُصّص لهما، ولا وجود لأي رسالة لهما في الغرفة. انطلاقا من النافذة، في غرفة جـــد عالية من الفندق الهائل، الذي بُنِي مؤخَّرا والمظلم الآن، حيث النساء بحلل رسمية ومسلَّحات يقمن بالحراسة في آخر الممرات، بصَمت لا تخترقه أصواتُ ولا أجراس الهواتف، رأى ويلي مونزنبرغ وبابيـــت في البعيد، نجمةً حمراء لامعة عالية جدا فوق السقوف القاتمة، فـــي رأس ناطحة سحاب. هذا هو العالَم الذي وهبا له حياتهمـــا، الـــوطنُ الوحيد الذي كان جائزا أن يُقسِم بالوفاء له أي شخص. يُحسان بالبرد في الغرفة، ولا يخلعان معطفيهما. فوق منضدة السرير يوجد هـــاتف أسود، لكنَّه غيرَ متَّصل أو معطَّل، ومع ذلك، فهمـــا ينظـــران إليـــه بالأمل أو الخوف من أن يبدأ في الرنين. حسب العادة، فور دخولهما إلى الاتحاد السوفيتي سُحب منهما جوازا سفرهما، وليس لـــديهما لا أوراق العودة ولا تاريخها.

الأمر الوحيد الذي تلقَّاه مونزنبرغ هـــو أن عليـــه الانتظـــار. سيَستقبَل وسيُنصَت إليه حين مجيء الوقت المناسب. إن قدرته علـــى

المكوث دون نشاط جعلت من انتظاره لا يطاق أكثر من الخوف. الرجل والمرأة المتعودان على الحياة الرغدة، وعلى العمل الاجتماعي اللامع في برلين وباريس، استمرا وحيدين ومقصيّين في فندق بموسكو، يقاسيان السأم القاتمَ الانتظارَ والخوفَ، يغامران بالكاد بالخروجِ إلى الشوارع التي يشتد فيها الشتاء، شوارع جد معتمة ليلا حين يتذكران أضواءَ عواصمٍ أوروبا التي عاشا فيها دوما. إن يخرجا للتنزُّه سيكون هنالك من يتعقبهما. وإن ينزلا إلى بهو الفندق أو مطعمه فإن هنالك من يُخبر عن خطواتهما، وإن يرفعا الصوت قليلا حين التحدُّث فإن النادل الذي يقدم إليهما فنجاني شاي سيُعيد كلَّ كلمة قالاها. سيُتَصنتَ عليهما إن تحدثَّا في الهاتف، وإن بعثا ببطاقة بريدية إلى باريس فإن هناك من سيدرْسها في الضوء القوي لمصباح باحثا فيها عن رسائل سريَّة، سيحتفظُ بها ليستعملها في اللحظة المناسبة كدليل مادي على شيء ما، تجسُّس أو خيانة.

أخيرا بعد أيام متماثلة طُرِق البابُ. الوجهان المتوتران والشاحبان لمونزنبرغ وبابيت التقيا بعد تردد مع وجهين مألوفَيْن جدا، ومع ذلك فهما الآن غريبان جدا، وَجْهَا هاينز ومارغريت نيومان، الوحيدان اللذان قررا أو جرُؤا على زيارتهما. ربما تجرأ لأنهما يعرفان أنهما مدانان، لأنهما هما أيضا يعيشان معزولين في عزلة مريضين مٰعديين. لا يقترب من صاحب العدوى دون ارتياب سوى من يحمل العدوى ذاتها. الأربعة معا، الأختان الشقراوان

والرجلان ذوا الأصل العُمَّالي، الحيوات الأربع المحاصرة. يتكلمان بصوت خفيض، قريب كل منهما من الآخر، الأربعة يرتدون المعاطف، في الغرفة الباردة بفندق موسكو، يتهامسون خوفا من الميكرفونات، كثير من الأشياء للحكي بعد أعوام كثيرة من الافتراق، الوقت قصير جدا لقول كل شيء، لتبادل التحذيرات، في أي لحظة يمكن لرجال بمعاطف جلدية سوداء شبيهة بمعاطف الجستابو أن يقرعوا بابَ الغرفة أو أن يحطموها بركلات.

يتوادعون وهم يعلمون أنهم لن يلتقوا جميعا أبدا، وفي الأشهر القليلة تم توقيف هاينز نيومان واختفاؤه في المكاتب وفي زنازن سجن لوبيانكا، الذي يوجد أمامه تمثال عملاق لفيليث دِزيرزينسكي، الأرستقراطي البولوني الذي أسس الشرطة السرية للينين، والذي تعرَّف عليه مونزنبرغ جيدا في السنوات الأولى للثورة.

لكنَّ الماضي لا اعتبار له، بل إنه يمكن أن ينقلب إلى نعت للاتهام. يقول أرتو كوستلر إن وزراء ودوقات كانوا يغتاظون أمام السلطة الحيوية والخشنة لويلي مونزبرغ، لكن في موسكو لا أحدَ يستقبله، لا يردُّ على مهاتفاته. كان كل شيء وهو لا شيء الآن: الماضي بعيد جدا، غير واقعي في المسافة الفاصلة، مثل الأضواء الليلية لباريس التي تُتَذَكَّر ضمن الرتابة القاتمة لليالي موسكو، والتي لا توجد بها من مصابيح سوى السيارات السوداء للشرطة السريةَ.

هو مونزنبرغ الذي نظم الحملة الدولية الرائعة التي حوّلت ديميتروف إلى بطل، ليس للشيوعية، وإنما للمقاومة الشعبية والديموقراطية ضد النازيِّين. بفضله أُجبِر القُضاةُ الألمان على إخلاء سبيل ديميتروف، الذي هو الآن في موسكو الرئيسُ الأعلى للكومينتيرن. لكن ديميتروف لا يردُّ على رسائل مونزنبرغ، إنه ليس أبدا في مكتبه حين يُحاول هو زيارتَه، ولا يعلم كم سيتأخر في العودة إلى موسكو.

نادي الأبرياء، والسُّذج، والأغبياء ذوي الإرادة الحسنة، والمخدوعون والمُضحَّى بهم دون تعويض: أنا كنتُ واحدا منهم، يفكِّر مونتبرغ خلال أرَقه في غرفة الفندق، أنا ساعدتُ على أن يسحق أوروبا كلٌّ من هتلر وستالين بوحشية متماثلة، لقد ساهمتُ في اختراع خرافة مواجهته حتى الموتَ، كنتَ بيدقا حين تخيَّلتُ خلال سكري بالغطرسة أني أسيِّر اللعبة في الظلّ.

ربما لا تهمه حياته كثيرا، أقلَّ من كلِّ الأموال، وكل السلطة والترف الذي سيَّره وخسرَه: يهمُّه إمكان أن تعاني بابيت، أن تُساقَ وتَخضَع لعواقب الأخطاء التي ارتكبَها، وكل الأكاذيب التي ساهم في نشرها، متحكما ومدنسا النبضات الأكثر أريحيَّة، الأباطيلَ الأكثر فظاعة، سذاجةَ الأبرياء التي لاتنطفئ.

لم يستسلم في سبيل إنقاذ بابيت، حاصر مسئولي الكومينتيرن الذين كانوا في زمن آخر أصدقاء أو تابعين له والآن يتظاهرون

بأنهم لا يعرفونه، يُشهر تراخيص لا تصلح الآن لأي شيء، حملتَه العالمية لإغاثة العمال السوفيت في سنوات المجاعة، انتماءَه البولشوفي منذ الساعة الأولى، سنوات الثورة الأسطورية الأولى، الثقةَ التي ميَّزَه بها لينين. أنت ستموت على عقيدة يسارية. في الضريح اليساري والبارد مثل ثلاجة بالساحة الحمراء، بإضاءة خافتة في القبة، نظر عن قرب إلى مومياء حاميه القديم، وجههُ الذي لا يُميِّز، له صلابة من شمع غير مصقول، جَفْنا عينيْه الأسيوتين مغمضتان. لقد جئنا إلى مملكة الأموات ولا يريدون أن يتركونا نعود.

أخيرا أفلح في الحصول على موعد مع بيروقراطي قوي، محميٌّ من قِبَل ستالين: في مكتب توغلياتي، صرخ مونزنبرغ، إنه يثأر لنفسه، ضرب المائدة، نظَّم المشهد المؤثر لغضبه غضَب قطب، كما لو كان لايزال يمتلك صحف تطبع الملايين من النسخ وسيارات فارهة، كما لوكان يمتلكها حقيقةَ ذات مرَّة. عليه أن يعود في القريب العاجل إلى باريس، قال إنه سيُنظِّم أكبر حملة للدعاية لم تعرف مثيلا من قبل أبدا، سيُجند متطوِّعين، سيجمع أموالا وأدوية وأغذية، التزويد بالسلاح، تضامن مثقفي كل العالم مع الجمهورية الإسبانية.

"توغلياتي" الأفطس الوديع، المراوغ والجبان، أحد أبطال المقاومة الشيوعية الديموقراطية ضد موسوليني الذي تقريبا تمَّ اختراعه كليَّةً من قِبَل آلية إشهار مونزنبرغ وافَقَ أو تظاهر بالموافقة على طلبه بالعودة: حدَّد يوما للسفر وأكَّد لمونزنبرغ أن جواز سفره

وجواز سفر بابيت سيكونان في انتظارهما في مقرّ الشرطة بالمحطّة. ربما سأله مونزنبرغ إن كان يعرف شيئا عن هانز نيومان، عن إن كان بالإمكان فعل شيء لأجل هاينز وغريتا نيومان: توغلياتي ربما خدوم لكنّه متحفّظ، أظهر بخسّة حذرة تفوّقه الذي عليه الآن على المسيّر المتمكّن القديم المنتمي إلى الأممية، قال له إنه لا شيء يمكنه أن يقوم به، أو أنه لا داعي لكي يمرّ عليه لأن كلّ شيء سيُسوّى قريبا، ولمّح لمونزنبرغ أنه من غير المناسب أن يسأل، خصوصا الآن، وهو على وشك أن يرحل.

مجدّدا يقف الرجل والمرأة بمعطفيهما الثمينين وقبّعتيهما في رصيف المحطّة، بأحذية لامعة، مع كومة كبيرة من المتاع بجانبهما، غريبان دون شك ومتغطرسان، الثنيّات واسعة وملاءات جلدية، نظرات بالورب، مراقبان، مملوءان فزَعًا غير صبورين، يشكان في أنه حقيقة سيُترَكُ لهما أن يمضيا.

دنت ساعةُ خروج القطار، لكن الجوازين ليسا في مقرّ الشرطة حسب ما وعد توغلياتي. حواليْه تتمدّد شبكةُ خدعة، وهما لا يعرفان إن كانا في كل خطوة يخطوانها هما يدنوان من السقوط فيها، أو إن كانت كل دقيقة أو يوم من التأخر هو مهلة متوقّعة في طريق إتمام إدانته. لكنهما لن يعودا إلى الفندق، الآن وقد أعلن القطارُ انطلاقته، لن يستسلما ولن يُغلقا على نفسيهما، ويواصلا الانتظار.

يُمسك مونزنبرغ بقوة ذراع زوجته، الطويلة جدا والنحيفة إلى جانبه، ويقودها إلى مِرقاة القطار، أعطى الأمر بأن تُحملَ الأمتعةُ إلى مقصورته. إن كانوا سيوقفونهما فليفعلوها الآن. لكن لا أحد اقترب، ولا أحد قطع عليهما الطريق في ممر القطار، الذي شرع في التحرك ببطء في الساعة المتوقَّعة.

في كل محطة، وفي كل نقطة توقُّف، كانا ينظران إلى الرصيف باحثَين عن جنود أو عن رجال في زي مدني سيصعدون إلى القطار لإيقافهما، سيطلبون منهما الجوازين، وسيُنزلانهما من القطار صارخين وبأسلوب سيئ، أو في صمت، محاصرينهما، قائدين إياهما بنعومة كي لا يثيروا ذُعرا غير ضروري بين الرُّكاب.

كان أطول سفر بالقطار في حياتنا، تحكي بابيت غروس للصحفي الأمريكي بعد ذلك بثلاث وخمسين سنة. في الضوء الغبش للفجْر الثاني وصلا إلى المحطة الحدودية. اعتقدنا أنهم سيكونون هنالك ينتظروننا، ولكي يُطيلوا إلى أقصى حد عملية القنص. بخطوات ثابتة، وبينما كان المسافرون ينتظمون في الصف بالرصيف الثلجي كي تراقَب جوازاتهم، اتجه ويلي مونزنبرغ إلى مقر الشرطة، بحزام معطف محكم والثنيتان عاليتان احتماءً من البرد، وجناح القبعة مُوارَب على مُحيَّاه الألماني الخشن والبدين.

كانا ينتظران جوازي السفر في ظرف مغلق.

أنا مؤهّل جدا لِحَدْس ذلك الصنف من القلق، كي أفقد الحلم المتخيّل بأننا سنمضي أنتِ وأنا في ذاك القطار. تفزعني الأوراق، والجوازات، والشواهد التي يُمكن إضاعتها، الأبواب التي لا أفلح في فتحها، الحدود، التعبير الذي لا يُسبَرُ غورُه أو المُتوعِّد من قِبَل شرطي أو شخص يرتدي حلة رسمية، أو يشهر أمامي تمثيله لسلطة ما. تخيفني هشاشةُ الأشياء، والنظام وستكون حياتنا التي هي دوما لا يُبتُّ فيها، المعلّقة بخيط يمكنه أن يتمزّق، واقع الحياة اليومية الآمنة جدا، والتي يمكن فجأة أن تنكسر لتنتهي بكارثة.

في السنوات التي بقي فيها على قيد الحياة كان مونزنبرغ يفر ولا يستسلم، استردَّ الوعي بفداحة الرعب وقربهُ الأكيد أكثر من ذي قبل، عيناه صافيتان وواسعتان ذكاء ورُعبا، ذكاؤه المُطعَّم حتى الآن بإرادة لا تكلُّ. في سنة ١٩٣٨ طُرِد من الحزب الشيوعي الألماني متهمين إياه بالجاسوسية والمحرِّض على خدمة الجيستابو، ولم ينبرِ أحدَ للدفاع عنه. ولا تزال لديه الحيويَّة لِيصدر صحيفة، ليُنددّ في صفحاتها بالخطر المُضاعف للشيوعية والفاشية وليستعجل المقاومَة الشعبية ضدَّهما، إلى إيقاظ الديموقراطيات في استعجال من السبات الغبي والجبان، وأنها قد تخلّتْ عن الجمهورية الإسبانية، وتسامحت مع التسلح العدواني والتهتُّك العنيف لهتلر، الذي سلّمتْه شيكوسلوفاكيا مُعتقِدةً أنها ستفلح في إشباع نهمه، وإخمادِه مؤقّتا على الأقل. في

صحيفته، تنبأ ويلي مونزنبرغ بأن هتلر وستالين سيوقّعان معاهدة لكي يتقاسَما السيطرة على أوروبا، وكذلك أنه في غضون زمن قصير سينقلب هتلر على حليفه وسيغزو الاتحاد السوفيتي، لكن لا أحد يقرأ تلك الصحيفة، ولا أحد يُصدّق تلك الهذيانات الصادرة عن رجل يبدو أنه قد جُنّ، وينصرف إلى التأكيد بمغالاةٍ سلوكِه وكلماتِه أسوأ الارتياب الذي يصاغ ضدَّه، وأنه يجرِّد ذاته من المصداقية، ويجلب الخراب لنفسه بالحيوية الجارفة ذاتِها التي كان يبني بها، في أزمنة ماضية، سُلطانا اقتصاديا ومتاهات من المنظَّمات الدولية.

نادرا جدا أن يوجد في يوم ما ذاك الإنسان، فتقريبا لا يكاد يوجد أثرٌ على وجوده في العالَم. من يدري أنه ما يزال حيًّا شخصٌ يعرفه ويتذكّره. بابيت غروس، التي عاشت معه أعواما كثيرة، هي أيضا ظِلٌّ. في شريط مسجّل من قِبَل "ستيفين كوش" يتردد حتى الآن صوتٌ يتكلم الإنجليزية بنبرة عتيقة ولذيذة، وفي ذكرى ذلك الرجل يبقى البريق القاسي لعينيه في قعر السلال التي يشف منها شكلُ الجمجمة.

لكن هنالك جزء أخير من الحكاية التي لا تعرفُها تلك المرأة والتي لا يمكن لأحد أن يحكيها، إلا إذا كان لا يزال يحيا الرجل الذي عقد حبلا حول العنق القويّ لويلي مونزنبرغ وعلّقه لاحقا في غصن شجرة، وسَط كثافة أشجار غابة فرنسية، في ربيع ١٩٤٠. لا وجود لشهود، وأبدا لم يُتوَصّل إلى معرفة من كان الرجلان اللذان كانا مع

ويلي مونزنبرغ، في المرة الأخيرة، حين شوهِد جالساً عند باب مقهى، في قرية فرنسية، ذاتَ مساء دافئ من شهر يونيو، يشرب شيئاً ويتحاور، في تَصرُّف طبيعي بالتمام، كما لو أن الحرب لم تكن موجودة، كما لو أن عربات القتال الألمانية لم تكن تتقدم مكتسحة الطرق التي تتجه صوب باريس.

غادر الرجالُ الثلاثة المقهى، ولا أحد يتذكَّر أنه عاد إلى رؤيتهم، ثلاثة رجال غير معروفين، لا اسم لهم، ضمن تَدفُّق سيْلِ البشر أثناء الحرب والخجل من الاستسلام. شهور بعد ذلك، في نوفمبر، كان هنالك قناص يتوغل في الغابة مع الضوء الأول للنهار، يقتفي كلبه الذي يتشمم في استثارة بالخطم، قريبا جدا من التراب، ويعثر على جثة نصف مخفيَّة بالأوراق الخريفية منكمشة في وضع جد خاص، الركبتان مثنيَّتان في التصاق مع الصدر، والجمجمة شبه مشجوجة بفعل احتكاك حبل كان قد تشقق فيه خلال سيرورة التحلُّل. بعينين مفتوحتَين في عتمة الأرَق أتخيَّل نورا فاترا، بين الأزرق الفاتح والرمادي، يذوب في الضباب، ضجيجَ الأوراق وهي تمس جزمتَي القناص المبتلَّتين، اللهاثَ والنهنهة، قلة الصبر النائح، التنفس المختنق للكلب وهو يوغل خطمه في التراب الرّخو والمساميّ. أتساءل أي آثار سمحت بأن يُلحق بهذه الجثة المشوَّهة والمجهولة هويَّةً ويلي مونزنبرغ، وفيما إذا كان قلمُ الحبر الذي رأيته في صورة كتابِ كوستلر كان لا يزال في الجيب الأعلى لسُترته.

أوليمبيا

أياما قبل رحيلي كنتُ أحيا مضطربا، منجذبا بتأثيره المغناطيسي جهةَ تاريخ وساعة السفر، اللتين تدنوان ببطء شديد. كنتُ لمَّا أرحل بعدُ ومع ذلك كنتُ قد بدأت الرحيل، بصورة غير محسوسة حتى أن كان لا أحد بوسعه أن يلاحظ غيابي عن المواضع والأشياء، المواضع التي عشت فيها وحيث كنت أشتغل والأشياء التي كانت امتداد لي أنا نفسي وعلامات وآثارا على وجودي، على حياتي الساكنة لذلك الوقت، المحصورةَ في مدينة واحدة، وداخلَها ضمن شوارعَ قليلة، المدينة التي انتهيتُ إلى الاستقرار فيها مصادَفةً بالأحرى، والشوارع التي أجوبها في ساعات معيَّنة بين بيتي والإدارة، أو بين هذه والحانات التي أذهب إليها لأتناول الفطور كل صباح مع صديقي "خوان"، في نصف الساعة تماما والتي تمنحني إياها قوانين الشغل، والتي تديرُها الساعات التي ندخل فيها ببطاقاتنا الشخصية كما لو كانت من قبيل افتح يا سمسم.

لم أعش أبدا مهووسا بالأسفار المستحيلة مثل ذلك الوقت، جد بعيد على نفسي، على كل ما هو ملموس وواقعي، وما كان قريبا

مني. ليس لأن جزءا حاسما مني استمرَّ دوما مخفيًّا عن عيون الجميع: كنتُ أنا ما أُخفيه، كنتُ أن أتألَّف من سرِّي ومن سريَّتي المبتَذَلة، والباقي، ما هو خارجي، القشرة، ما كان الآخرون يرونه، لم يكن يهمني في شيء، لم تكن له أي علاقة بي. أنا موظَّف بالبلدية ذو تأهيل ضعيف، مساعد إداري، وإن كنت بمنصبي متميِّزا، متزوِّج وعندي طفل صغير. ونظرا لاغتِرَارٍ أدبي رغِبْتُ في اللجوء إلى حالتي كمجهول، حالة مجهول، لكنَّ الأكيد أنه كان بي أيضا ميْلٌ إلى الخضوع بشكل حاد على الأقل مثل تمرُّدي الغريزي، مع اختلاف هو أن الخضوع بالنسبة إليَّ كان تطبيقيًّا حقيقيا، بينما كان التمرُّد يشِفُّ عن نفسه ظرفيًّا في مواجهة الآخرين كتصرّف غامض تعبيرا عن السخط، إذا استثنْيْتُ حواراتي كلَّ صباح مع خوان الذي كانت له حياة شديدة الشبه بحياتي ويشتغل في مكاتب بعيدة عن مكتبي.

كنت أمضي إلى إدارتي، وإن كان لا شيء يربطني بزملائي، كان يسُرُّني أن يعتبروني واحدا منهم. كنتُ قد نجحت في مباريات التوظيف، وتزوجت عبر الكنيسة، وبعد تسعة أشهر من الزّفاف كانت بنتي قد وُلِدت. أحيانا يهاجمني فجأة الندمُ لعدم معرفتي أو عدم اجترائي على تجريب نوع آخر من الحياة. حنينٌ حادٌّ إلى مدن أخرى ونساء أخريات، وعلى الخصوص، تلك التي لاأزال أتذكرها وإن كانت قد مضت خمسُ سنوات على عدم رؤيتي لها، التي تحيا الآن في مدريد، متزوجة أيضا، ولها ولد أو ولدان، لست متأكدا، لأن أنباء

غير مباشرة كانت تأتيني عنها من مساء لآخر فحسب، وكنتُ أرتجف حين كان أحدُهم يذكر لي اسمها.

كان هنالك عالمان، عالم مرئي وواقعي وآخر غير مرئي وملكي، وأنا كنتُ أتكيّف بوداعة مع معايير الأوّل كي يتركني الآخرون ألجأ دون إزعاج كبير إلى العالَم الثاني. أحيانا، وبعد أعوام كثيرة، أحلُم بتلك السنوات في المكتب، والإحساس الذي لدي ليس اختناقا، وإنما إحساس بالسكينة والكآبة. أحلُمُ أني أتوجه إلى العمل بعد تغيُّب طويل جدا، وأفعل ذلك دون قلق، دون أن يكون قد بقي في ذلك الجزء من اللاوعي الذي يغذي الأحلام أي أثر لمرارات ومضايقات ذلك الزمان.

الآن، وبعد انصرام السنين، أفْهَم أنَّ مظهري الوديع لم يكن مجرَّد قناع، الهويَّة الزائفة لجاسوس، وإنما كذلك هو جزء مادي وحقيقي من ذاتي: الجزء المفزوع والخانع الذي وُجِد دوما في طبيعتي، الرضا بأن يكون لي إزاء الآخرين حضور محترَم، ابن وتلميذ وبعد ذلك مستخدَم وزوج وأب نموذجي. أثناء أحلامي بأني عائد إلى مكتب البلدية الذي رحلت عنه منذ وقت بعيد كان زملائي يستقبلونني بود شديد، ولم يكونوا يستغربون بأني قد عُدتُ ولا يسألونني عن أسباب تغيبي الطويل. طيلة أعوام راقَني أن أتذكّر وأتخيّل مراهقَتي بتمرُّدها المشاغب، لكني الآن لا أعتقد أنها قد شكّلت أكثر من جزء من طبعي، وإن عناء الخضوع الذي قادني بقوة

حتّى نهاية طفولتي، والذي عاد دون أدنى شك إلى التأثير عليَّ في حياة النضج، حين قبلتُ أن أتزوج، ولم أرفض إتمام عدد من الواجبات أو الحقارات الجانبية التي كانت في العمق تثير فيَّ عدوانية حادة: الزواج عبر الكنيسة، التظاهر بتناول القربان، المأدبة العائلية، كلّ ما كان منصوصا عليه منذ الأبد وأنا أُذْعِن حَرْفيًّا دون مقاومة. كنتُ أعرِفُ أني أرتكب أخطاء، لكن لم يكنْ يشقّ علي في شيء أن أترك ذاتي تنساق، وكانت تأتي لحظات أخدع فيها نفسي ببعض النجاح، مثلما كنت أخدع أو أكذب على المرأة التي كنتُ متزوجا بها دون اقتناع حقيقي، وعلى الآباء في كلتا العائلتين الذين كانوا يهنئون بأنه أخيرا انتهت خطوبة مشكوك فيها، وطويلة. أبدا لم أفكِّر في مسؤلية ذلك الصمت، في المرارة، وفي جرعة الكذب التي كنت أبْذُرُها، خارجَ ذاتي، في النطاق السري لتخيُّلاتي الشبحية، في الحياة الواقعية لمن كان إلى جانبي.

وأنا صغير، كنت أطيع والديّ وأساتذتي، وأحصل على نقط جيدة، وكنتُ أمتلئ كبرياء لأني أُعَدُّ تلميذا نموذجيًّا. كانت أمهات أصدقائي يغبطنني، وإن أستاذٌ شجعني بحركة تفضيل أدبيَّة كنتُ أحسُّني غارقا في الرِّضا. لم أكن أتصنّع، مثلما ابتكرتُ لاحقا، لم أكن أراهن على الحصول على نقط جيدة تطلُّعا إلى الإفلات من حياة الضنك ومن العمل في الحقل الذي كان يقتضيه أصلي. كنتُ أقرأ لأنه الشيء الذي كان عليَّ القيام به، ولأن إنجاز ذلك الواجب كان

يرضيني كثيرا مثل القيام بالتعاليم الدينية. حتى السنة الخامسة عشر كنت أمضي في ارتياب إلى القدّاس وأبوح وأتقرّب دون أن أحس أبدا بأني أمتثل إلى شعيرة غريبة عني، ومدّة وقت معيّن غذّيت بداية ميل إلى الكهنوت.

رأيت ذاتي متمرّدا جدا، والحقيقة هي أنه كان لي على امتداد حياتي قليل من حالات نوبات تمرُّد حقيقية، حالات قطيعة وشجاعة، وكثير منها كانت غبيّة جدا، وشديدة الحُمق في جسارتها، وقد تركت لي ذكرى إغاظة وفشل فقط. ولقد هجرت كل شيء مرة واحدة في العشرين من عمري، لأنّه تمّ قبولي باعتباري ابنا نموذجيا. عشقت تلك المرأة، وحين رحلت إلى مدريد لم أقوَ على احتمال غيابها ولا العودة إلى الحالة الطبيعية لخطوبتي. هجرت كلّ شيء، الخطيبةَ، الامتحانات، نهايةَ العام الدارسي، ركبْت ذات ليلة القطار السريع في ساعة مبكرة من الصباح، وتقدّمت إلى السوق الممتاز الذي في ملك عائلة حبيبتي، لأني لم أكن أعلم حتى عنوانها في مدريد. لقد انتبهت من خلال الصيغة التي نظرت إليّ بها، وعلى الرغم من اضطرابي، على أنّ ما كان بيننا قد انتهى بالنسبة إليها، أو ببساطة لم تكن له أهميّة كبيرة، فإنه لم يُدرك اكتمال وجوده. عدت في القطار السريع في الليلة نفسها، يتملكني إحساس كريه ملؤه العبرة والهزء. تصالحت مع خطيبتي، وفي اللحظة التي عانقتني باكيةً وقائلةً لي بأنها كانت واثقة دوما بأني سأعود إليها؛ فكّرت بارتياب

نابع من وعي قذر بأني كنتُ أُخطئ، لكني لم أفعل أيَّ شــيء، ولـم أعد إلى فعل أي شيء طيلة أعوام كثيرة، كنتُ أتركني أنساق، أُنجِزُ كل شيء يُنتَظر مني أو يُطلَبُ مني.

ولوقت طويل، بينما كنت أعمل في تلك الإدارة، في المدينــة الصغيرة التي أقمت فيها، كنتُ أتذكَّر عبارة "ويلْيَام بليك" قرأتها فــي موضع لست أتذكره، والأكيد أني أستشهد بهــا الآن بطريقــة غيــر دقيقة: «من يرغب ولا يتصرَّف يُولِّد الطاعون»، كانت مجموع مــن الرغبات دون فعل، من غير واقعية مثل التي اعتادت أن ترافقني في العزلة الوديعة لطفولتي. كنت أرغب دوما في الرحيل، فمؤخرتي لا تعرف راحةَ الاستقرار أبدا، وفجأة وجدتني ثابتا، مشلولا، مقيما، في السادسة والعشرين، أؤدِّي إيصالات شقة، أعيش وقتا مقيما مدة ثلاث سنوات، من البيت إلى الإدارة، ومــن الإدارة إلــى البيــت، أتخيَّــل أسفارا، أحلُم في يقظتي دون أن أرى الواقع بالكاد، ألــوذ بالكتــب، ممحُوًا ولو أن أفراد عائلتي وزملاء العمل يحيطون بي، أتقاسم مــع صديقي خوان كلَّ صباح، من التاسعة والنصف إلى العاشرة، خــلال نصف ساعة الفطور، وداعةَ المَظهر وتمــرُّد المَخبــر، الإخــلاص الزوجي والهذيانات الجنسية والروائية بصدد نساء مجهــولات كنّــا نصادفهن في الشارع، مستخدَمات متاجر الثياب، عارضــات أزيــاء المجلات الملونة أو البطلات المصقولات، وكلهن غير ملموسات في سينما الأبيض والأسود.

هكذا، كنا صديقي وأنا نحلم عبثا، بالنساء والأسفار، بأمكنة لم يكن محتملا أن نصلها أبدا ونساء لن يُضاجعننا، ولا حتى كنَّ سيصلن إلى النظر إلينا، أو التحديق فينا حين يلتقين بنا في الشوارع القريبة من الإدارة، وفي الأزقة التجارية بوسط المدينة، في المقاهي التي كنا ندخلها لتناول الفطور، كلَّ صباح في الساعة نفسها، التاسعة والنصف، العاشرة إلا خمس وعشرين دقيقة، كلَّ صباح نحمل تحت الإبط الصحيفة التي نشتريها من الكشك نفسه، القهوة بالحليب ونصف الخبز المحمَّص وكأس ماءِ "سيلتز" التي يُقدِّمها لنا النادل دون أن نطلبها منه، نحن أيضا تحوَّلنا إلى حضور وعادات صباحية بالنسبة إلى أشخاص آخرين، وجوهٍ تتكرَّر دائريا مثل دُمَى آلية تستعرض حين تدق الساعات في الساحات الألمانية.

كنا نقضي كل الأصباح بجانب واجهة وكالة للأسفار حيث يوجد ملصق كبير لنيويورك. كانت تلك الوكالة تروقنا بإعلاناتها لأمكنة قصية، ولأن امرأة جميلة جدا كانت تعمل فيها، لم نرها أبدا لا في الشارع ولا في أي مكان آخر سوى مكتبِ عملها. كانت شقراء، ذات ملامح استثنائية، كنا نراها كلَّ صباح من واجهة الوكالة: كانت تتكلم بالهاتف أو تكتب في الآلة، الظهر مستقيم، ترتدي شبه دوما صدريةً بعنق ملفوف كان يصل إلى غاية ذقنها، صورتها الجانبية

تجلس بشكل مستقيم، تميل إلى الأمام قليلا، مثل طول حجم شكل نيفرتيتي الخشبي، التي رأيتها بعد عدة سنوات، في المتحف المصري في برلين، حين سافرت فعلا. كان مُحيَّاها نحيفا، والفم كبيرا، والعينان كبيرتين ومفتوحتين، والأنف بذلك الإفراط في النتوء الذي يشبه الأنوف الإيطالية الفاتنة. كانت تتكلم عبر الهاتف وتقوم بحركات بيد ممشوقة تحمل قلمَ رصاص، تميل رأسَها كي تسند السماعة بينما كانت تُمرِّر صفحات أجندة أو كتالوج، وكنا نراها مملوأين بشرَهنا الهارب، ماكثين مجرَّد دقيقة كل صباح بجانب الواجهة، مخافة أن يثير حضورُنا انتباهها. كنا نراها في صورة مضاعفة، لانه في مقابلها، في مكتب الوكالة، كانت هنالك مرآة كبيرة مثبَّتة على الجدار. كان يروقنا أن نلاحظ كل صباح شيئا جديدا في جمالها، إن كانت بشعر مصفف أو إنْ كانت قد جمعته في ضفيرة معقودة على هيئة ذنب حصان إبرازا لأصالة وجهها، أو على شكل غديرة تكشف الخط الرائع لعُنقها وقفاها. كانت تنتمي في الوقت ذاته، وهي تجلس خلف زجاج الواجهة، وقُبالةَ المرآةَ التي كانت تتضاعف فيها النباتات التي تزيِّن مكتبَها وملصقاتُ المُدن الأجنبية ومناظر شواطئ أو صحارى، إلى الحياة اليومية للمدينة وإلى غرابةِ الأمكنة التي يربطها بها عملُها، وجزءً من السحر الذي كانت تمثِّله بالنسبة إلينا أسماءُ بلدان أخرى ومدن والصورةَ الكبيرة الملوَّنة لنيويورك

التي كانت في الواجهة كانت هي أيضا تسطع فيها، هي التي لم تكن ربما أقلَّ إقامةً في المكان منّا، لكنها حين كانت تتكلم في الهاتف وتتفق على مواعيد وتحجز فنادق مسجّلةً أشياء في أجندتها كانت تبدو لنا موهوبة بحيويّة غريبة، وهو الشيء النقيض لما كنا عليه من بطء الموظّفين، والتي دون أن تتحرّك من مكتبها بالوكالة كانت قد امتلكت الصِّبغة الذهبيّة لشواطئ المحيط الهندي ورشاقةَ النساء الفاتنات بشارع "بيًّا بينيتو"، و"بُورتو بيو رُود"، وبشارع "كُوريِّينتس"، و"لَاكينْتا أبنيدا". كنا نهيم مع تخيُّل احتمالِ دخولنا ذاتَ صباح إلى الوكالة وأنْ نطلب منها بشكل طبيعي جدا دليلا، أو معلومة ما عن الفنادق، أو حجزا لسفر بالطائرة. لكننا لم ندخلْ أبدا، بالطبع، ولم نرها أبدا وهي تدخل إلى مكتبها أو وهي تغادره، أو صادفناها عبر الشوارع التي نجوبها كلَّ يوم. كانت توجد في داخل وكالة الأسفار، خلف الواجهة وفي زجاج المرآة، كما كانت "إنغريد برغمان"، أو "مارلين مونرو"، أو "ريتا هيُورث" في بياض وسواد الأفلام، كانت لا تتبدّل ومختلفة شأنهنَّ، ونحن كنا نراها لحظةً كلَّ صباح، وكنا نواصل بعد ذلك جولتنا القصيرة لنصف ساعة، كشك الصحف، القهوة بالحليب، ونصف خبز محمَّص في القهوة السويسرية أو في الرَّيجينا، ولربما وقفة عند البريد، حيث يرسل السيد خوان رسالة، ومباشرة بعد ذلك تكون العودة إلى الإدارة، قبل أن يفوت وقت

الساعة الرقمية حيث يكون علينا أن نُدخِل بطاقتنا، وفي أقصى حد، العاشرة وخمس دقائق.

كانت هنالك أيضا حلاوة في ذلك التكرار اليومي، في الألفة المثابِرة على زوايا وساحات، والصفاء المشمس لِـ"بيبرامبلا" وظِلّ الشوارع التي تقود إليها، والوجوه المتكرِرة، والحضور بالتوقيت، والفتاة نفسُها ذات المنظار الداكن التي تصل كل صباح في الساعة ذاتها لرفع الستار الحديدي لمَتجَر تماثيل ومرايا، الموظّفات والمستخدَمات، وسيدة وكالة الأسفار أوليمبيا، التي كنا نُسمِّيها أوليمبيا، بالياء الإغريقية للفنان "مَانيت"، وباعة اليانصيب، وحتى المتسولين والمتشرّدين كانوا يتكرَّرون، كانوا يُذعنون لروتين عمل شبيه بعملي، كلٌ واحد له حياته، وله روايتُه السرية التافهة، وجوه في خلفية رواية أخرى كنتُ أعيشُها أو كنتُ أبتكرْها لنفسي، إنها ليست رواية أفعالي، وإنما هي روايةَ الأشياء التي تَحدث لي، وروايةِ الأسفار التي لم أُنجزها، والطموحات التي كنا صديقي خوان وأنا نُرجؤها إلى مستقبل لم يكن أي واحد من الاثنين يؤمن به كثيرا، لكنّه كان عذرا مقبولا في وجه ذُعرِنا من الحاضر.

الصداقة كانت أيضا تكرارا وعادة: أن نلتقي كل صباح في المكان عينه، وأن نذهب في جولة إلى المقهى، اليدان في الجيبين والصحيفة تحت الذراع، نتناقش دون أي إجبار على الإتيان بالجديد أو الاعتراف المفرط. كنّا محترقين، نحن الاثنين بقياس متشابه، منهكين

بسبب عواقب متماثلة من وداعة وكسل، كلانا نحن - الاثنين - كنا نرغب في أشياء كانت فوق طاقتنا، حيوات لم يكنْ لها لتأتي أو نكون قد تركناها أو ضاعت من يدينا، يؤسَف عليها بسبب خجلنا أو جُبننا، أو قلَّة عزْمنا. إن جانبا من صداقتنا كان يرتكز بالتأكيد على تلك المادة المتورِّمة والحزينة، ولم يكن يكلِّفنا شيئا أن نتقاسم الإحساس بعذوبة الاستسلام والتهكم المتكلِّف الذي كان كل واحد منا نحن ينظر إلى التواضع الشعوري لحياته والتدهور البطيء لطموحاته. كان كل واحد يرى في الآخر مرآةً لنقصه الخاص. كان يجمعُنا ما لم نَكُنْ أكثر مما كنَّا، ما لم يكن أي واحد من الاثنين يجرؤ على أن يكونه. كنُّا ننجز التزاماتنا الخارجية بدقة مماثلة، وننجز واجباتنا كمُستخدَمين، وأزواج وآباء، وفقط بين الفينة والفينة كنا نهجر نبرة الازدراء المحايد في محادثاتنا كي نمنح لنفسنا وقاحة الشكوى، والاعتراف بشقاوة عنيدة ورتيبة متجرِّدة من الميلودراما، لكن أيضا من كل أمل في تخفيف لا يكمُن في إتقان الاستسلام. في كثير من الأصباح، وخلال جولة الفطور، كان خوان يذهب ليضع رسالة في علبة البريد المركزي الموجودة في الممرات المسقوفة بشارع "غانيبيت". وشأنَ كل الأشخاص المنتبهين جدا إلى كآبتهم الخاصة كنت أنا آنذاك قليلَ الملاحظة. كنتُ أفترض بكسل أن إحدى تلك الرسائل كانت لحساب الإدارة، إلى أن عاينتُ ذاتَ مرَّة أنها كانت تحمل طوابع البريد الدولي. لم يقم خوان بحركة في محاولة إخفائها عني، لكن كان هنالك شيء في

سلوكه يصرفني عن أن أسأله في شأنها. ذات مرة، وبينما نحن نفطر، ذهب إلى المرحاض وترك الصحيفة على منضدة المقهى السويسري، فقمت بفتحها، فانزلقت من داخلها رسالتان. إحداهما كانت قادمة من نيويورك، وموجَّهة إليه، لكنَّ العنوان الذي كان في الظرف كان عنوانَ الإدارة، وليس عنوان بيته. والأخرى كان قد كتبها خوان، وموجَّهة إلى المرأة نفسها التي كتبت إليه من نيويورك. في ثوان معدودة أعدْتُ إرجاع المظروفين إلى داخل الصحيفة المطوية، وحين عاد خوان لم أسأله عن أيِ شيء، وفكَّرت، بنوع من الأسى، أنه في حياة صديقي- الذي اعتقدْتُ أنه شفيف بالنسبة إليَّ- توجد منطقة مجهولة كان يُفضّل عدم البوح لي بها.

عند مخرج الزقاق حيث كان يوجد آنذاك نادي مصارعة الثيران كنا نلتقي، في بعض الأصبحة، صديقَنا غريغوريو بُوغا، الذي كان يشغل منصب نائب مدير لجوقة الموسيقى بالإنابة، بعدما أضاع منصبا أكثر أهمية في جوقة مدينة أخرى، والذي في تلك الساعة المبكرة يثمل قليلا، تفوح منه رائحة الكحول الحامضة ولُعاب نيكوتينيّ، على الرغم من حبَّات القهوة المحمَّصة التي كان يمتصّها اعتقادا منه أنها تنظف له رائحة فمه. كان غريغوريو هو الصديق الأول الذي اكتسبته عند دخولي إلى الإدارة، ربما لأن كلّ الموظفين كانوا يتحاشونه فكان عليه أن يميل إلى المستخدَمين الجدد بحثا عن الرُّفقة، لكي يُفطر أو لكي يتناول الجعَّة وكؤوس النبيذ في الخمَّارات

الخفيّة في ذلك الحي بوسط المدينة. يُحكى عن غريغوريو أنه كان قمةً في التأليف والإدارة الموسيقية لولا ولعُه بالشرب. لكنَّ روايته للمسألة مختلفة، كان يردّدها برتابة السكران المشتكي: إنه لم يفشل لكونه يشرب، إنه يشرب لأن بعضهم دفعه إلى الفشل، لقد جعلوه يهجر دراستَه الواعدِة، التي شرع فيها في فيينا تحت رعاية أفضل الأساتذة، وكل ذلك مقابل ماذا، مقابل مرتب بئيس، والثقة الحقيرة بمنصب ثابت. كان يتكئ بمرفقه على المنضدة، الكأس في يد، والسيجارة في أخرى، ويمسكها بين أطراف إصباعية الصفراوين: السبابة والوُسطى، والأصابع الرخوة واللينة لموظّفٍ محنّك، وإن كنتُ لا أعتقد أنه حينئذ كانت لديه أكثر من خمس وأربعين سنة: يجتذبونَك بطعم المرتَّب الشهري، وتتعوَّد على ذاك القدر الضئيل من المال الأكيد، وهكذا تفقد الإرادةَ في مواصلة الدراسة، والأدهى إن أثقلتْ زوجتُك كاهلَك بأطفال، وتُعيدُ عليك دوما بأنّك لا نفع منك، ومتى ستتخلى عن الغباء والأحلام وتسعى إلى الارتقاء في الإدارة، أو أن تبحث لك عن عمل في المساء. في البداية لا تحب ذلك، طبعا، لأن أمسياتك مقدَّسة، وأنتَ ترغب في أن تواصل التأليف، وأن تتدرَّب مع موسيقيين آخرين إلى أن تنتزع منهم ما لا يعلمون هم أنفسُهم أنهم يحتفظون به في داخلهم، ولا تحب أن تسيِّر جوقة بلدية، وإنما أوركسترا، ذلكِ كان حلم حياتك، لكنَّ الحزن يغمُرك، وإضافة إلى ذلك فالحقيقة أنه ينقصُك المال، وهكذا تقبل أن تعطي دروسا خصوصية، أو تشتغل في أكاديمية، وقبل أن يؤدُّوك في نهاية الشهر

تكون قد صرفتَ مالَك والتزمتَ في أمور؛ ملابس الأطفال، الكتب والزي المدرسي، لأنَّ علينا أن نسجلهم في إعدادية الرُهبان. تَخرُجْ من الإدارة في منتصف النهار ولإحساسك بحزن الرجوع إلى البيت فإنك تَمكث لتشرب كؤوس خمر، وتأكل أي شيء وتَميل إلى عمل المساء، وبعد ذلك، عند الانتهاء، تَعود إلى المألوف دوما، غريغوريو، هيَّا لنشرب شيئا، وفي البداية تقول لا، وبعد أن تَقول حسن، كأسٌ واحدة لا غير، فستغضب الزوجة لم ترَ لي أثرا وقتَ الأكل، تشربْ قَدَحي جُعَّة، وبعد ذلك تطلب كأس خمرة للوداع، أو لتواجه الشجار الذي ينتظرك في البيت، وبين هذا الشيء وذاك تنسى النظر في الساعة، وحين تخرج إلى ساحة كَارْمِن تكون الساعة تدق معلنة الحادية عشرة، يا للفظاعة، أشتَري علبة سجائر، وأتوجَّه مباشرة عائدا إلى البيت، لكن ليس لديك نقود لتضعها في الآلة، ويُزعجكَ أن تطلب من الناس أن يصرفوا لك ورقة نقدية، هكذا تطلب كأس خمرة، وربما تعثر حينئذ على صديق يكون وحيدا في المنضدة، ويدعوكَ إلى كأسٍ ثانية، أو قد يدعوكَ النادل إلى كأس، وترى أنك تقضي حياتك كلّها بين دخول وخروج، ويقدِّم لك فناجين القهوة والكَارَاخِيُو[1] للساعات الأولى من الصباح وكؤوسَ المُشَهِّيات، وفناجين القهوة وكؤوس بعد وجبة الغذاء، وإن كنتَ أنتَ في الحقيقة لم تأكل، فأيُّ شيء تعضُّه للأكل يملأ معدَتَك.

---

(١) قهوة ساخنة جدا مع مشروب كحولي قوي. (المترجم)

أتذكَّر غريغوريو بحنان وحزن، المُعلِّم "بُوغَا"، الـذي لـم أره منذ أعوام، وأتساءلُ إنْ كان لا يزال يجوب حانات الموظَّفين بوسـط المدينة، إن كان لا يزال حيًّا للآن، وإن كان لا يزال يُغذي حلم إنجاز استعراض سيمفوني، يتكئ بحلته المحترمـة بـل بـالأحرى ذابـلا ومتسخا، السيجارة بين أصابعه التي بلون النيكوتين، وكـأس النبيـذ يمسك به بالكاد باليد الأخرى، وربما تكون حبَّةَ قهوة تتحـرَّك مـن ناحية لأخرى في فمه حيث لا يوجد بعض الأسنان. أتذكر الأصـباح التي كنت أنا وصديقي خوان نلتقي به عند منعطف زاوية ولا يكـون لدينا وقت لتفاديه، ويكون علينا أن نتحمَّل رتابةَ اعترافه وهو سكران وبنبرةَ الشكوى، وعنادَه في دعوتنا لنشرب معه شيئا، لننهل سـريعا كأسَ كونياك أو أنيس في الدقائق القليلة التي بقيت على انتهاء نصف ساعة الفطور. وأكثر سذاجةً، اليوم الأول الذي التحقتُ فيه بـالإدارة، فقد قبلْتُ أن أشربَ معه جعة عند الخروج، ولـم يتركنـي إلا عنـد الحاديةَ عشرةَ ليلا، وأنهيتُ الليلة سكران حتى إنني فـي الـصباح التالي لم أتذكَّر شيئا مما قلناه على امتداد الساعات الطويلة، من كثرة الحانات التي طرقناها والسجائر وأكواب الجعة والنبيذ. أتذكر شـيئا واحد فحسب ولم أنسَهُ لأنه بعد ذلك اليـوم ردَّده علـيَّ غريغوريـو مرَّات كثيرة، وهو يمسك بذراعي لكي يدنو مني أكثـر، ويحيطنـي بنفسه المشبع بنبيذٍ حامض وتبغ أسود بينما كان ينظر إلـي بعينيـه الحمراوين وقال لي:

- لا تَستكنْ، لا تترك نفسَك حتى لا يحدث لك ما حدث لـــي، ارحل عن هنا عاجلا، لا تنتهِ إلى ما انتهيْتُ أنا إليه، لا تـــستكن، لا تَعرض نفسَك للبيع.

- لا أظنُّ أني سأبقى هنا وقتا طويلا. سأذهب حين يُقدَّم لـــي شيء أفضل.

- ذلك هو الفخ، أنْ تنتظر أن يسنح لكَ بشيء أفضل، ذلك هو ما حدث لي. لا يمكن الانتظار، عليك الذهاب، وإن لم يكن لـــك أي شيء، فضروري أن تكون مستعدا لكل شـــيء، أن تمـــرَّ بلحظـــات احتياج لو تطلَّب الأمر، لأنَّك لو قبلتَ بقليل فستقبَلُ كل شيء، وتبتلع بكل ما لديك. ليس لديك بيت مرهـــون، ولا امـــرأة، ولا أبنـــاء، ولا دُيون، إما أن تفعل ذلك الآن وإلا فلن تفلت.

مع مرور الوقت، بدأتُ أتفادى غريغوريو، مثلما يتحاشاه كـــل العالم، لأنه كان ثقيل الدم وسكيرا، ولم تكن من وسيلة للتخلُّص منه، وإن كنت أعطف عليه فما كان لي أن أتحمل رائحة فمـــهِ ولا ســـأم قصصه التي تكون في كل مرة أكثر تفككا، من شكواه المدقِّقة من كل المؤامرات والمقالب التي كان ضحيَّتها فـــي الإدراة، وفـــي الجوقـــة البلدية، حيث أمكن لبعضهم أقلَّ كفاءةً منه وأكثـــر دعمـــا بتوصـــية سياسية أن ينتهي معيَّنا مديرا رسميًّا. لكن أتفاداه أيضا لأنه يُخجلنـــي أن يرى فيَّ اكتمال تحقُّق توقُّعاته: كانت السنوات تمرُّ وأنا أواصـــل انتظار أن يُقدَّم لي شيء أفضل، وأذهب كل صباح في الثامنة بالتمام

إلى العمل، لكن الآن كانتَ لديَّ واجبات، الآن كنتُ متزوِّجا ولديَّ ولد وأدفع كل شهر إيصال السيارة والمنزل، وإن كانت زوجتي تربح من عملها أجرا أفضل من أجري فإننا لم نكن دوما نصل إلى نهاية الشهر في ارتياح، وأنا كنتُ أقدِّر احتمالَ البحث عن شيء يشغلني في الأمسيات، ودون اعترافي بذلك لنفسي كنتُ أتخلّى عن المقاصد التي كانت تبدو لي غير قابلة للتأجيل وقيِّمةً حين أُلحقت بالإدراة: وعلى الخصوص، إعدادي للعمل الذي راقني كثيرا أن أزاوله، أن أكون أستاذا جامعيا أو باحثا في إحدى شُعَب تاريخ الفن، وحتى أستاذا للجغرافيا والتاريخ في إحدى المعاهد. لكن، كان ينقصني الوقت والإرادة، وكانت الأمسيات التي لا أعمل بها تمضي دون أن أنتبه، وعلى أية حال فكان يُعلَن عن مناصب قليلة لأساتذةِ التاريخ كلَّ سنةَ لعشرات من خريجي الجامعات، كثيرون منهم زملاء لي في الدراسة، فقدوا الأمل بعد سنوات من البطالة، وكانوا ينظرون إلى ما كان لديِ بحسد وإن كان منصبا متواضعا. كنتُ أصادف صديقي غريغوريو في الشارع، ويتأبَّط كل منا حافظة ملفات، كنتُ أجدُه عند منعطف الزاوية في الأزقةَ التي بها الخمَّارات التي يلوذ بها الموظَّفون منتَصَف النهار لاحتساء قهوة سريعة مختلَسَة، وإنَّ نفوري من نفَسه الكريه ورائحةَ خمره الشائنة ومحنته كانت أقوى من الامتنان الذي كان عليَّ أن أحسَّه تجاه صداقته الكريمة، ولو أمْكَنني أنظرْ إلى ناحية أخرى، أو أفِرُّ عبر باب جانبي كي لا أرى عينيه الحمراوين، فلا أشمَّ نفسَه الحامض، لكن على الخصوص لكي لا أسمع مرَةَ أخرى ما كنتُ أعلَمْ أنه سيقوله لي:

- لكنْ ماذا تفعل في هذا المكان، لمَ لم تذهب، كم سنةً ستظل تتحمل الإقامة هنا.

كنتُ أذهب أحيانا. لكن بعض الأيام فقط، كُنتُ أُبْعثُ في سفر إلى مدريد لحل بعض إجراءات الوزارات أو لأجل طَلبات مادية عليَّ أن أفتِّشها، وإن كانت الأسفار جد قصيرة وتعويضاتي ضئيلة وتأهيلي البسيط يفرض عليَّ فنادق متوسِّطة وأكْلا في مطاعم بسيطة، فإنَّ قرب السفر كان يؤثر بمفعوله عليَّ مثل محفز قَوي، كان يدفعني كمغناطيس في اتجاه زمن مستقبلي، ويعيدني إلي طفولتي السعيدة بانتظار السفر، والتحفيز على الرحيل الذي كان قد مُحِيَ شبه كلية من نفسي في السنوات الأخيرة، أو أنه قد صار مختزَلا في استعداد متَخَيَّل غامض لا تأثير له بتاتا على الواقع.

كنتُ قد ذهبت لأيام عديدة قبل أنْ يغادر القطار، القطار السريع الليلي بمقطورات عربات نومه الزرقاء الذي يشبه قطار الشرق السريع وأراه حين كنت أصل بحقيبتي إلى الرصيف، قبل بقليل الساعة الحادية عشرة ليلا، ويغمرني ارتياح لا نهائي بأنني سأكون وحيدا، وبأنني تخلَّصت مؤقتًا من الإرهاق المتواصل للإدارة والعائلة، من التوقيت، ومن الأمكنة، من الاضطرابات والليالي السيئة التي يسبِّبها ابني، الذي لايزال صغيرا. إن الأحداث الأولى من ذاك السفر القصير الذي كنتُ سأنجزه كان يبدو أنه تتجمَّع فيه كلُّ الأحاسيس والإثارة التي في سفر حقيقي، في أي من الأسفار التي

قرأتُ عنها في الكتب والتي أراها في الأفلام أو أخترعها لأجلي وأنا أنظر في الخرائط أو في كتب الإرشاد الملوّنة. في صميم حياتي الخامدة جدا، الفاترة في كل شيء، كان السفر يمنحني اكتمالا ماديًّا يكاد يكون غير محتمَل، إحساسا بالحرية وبفقدان الثقل، كما لو أنه بخروجي جهةَ المحطة كنتُ أتخلص من الواجبات والعادات التي تنوء بثقلها عليَّ، وأنا أصفع باب السيارة الأجرة الذي سيحملني إليها سوف تُغلَق دفعة واحدة هويَّتي الحقيقية.

كنتُ أمضي ولم أكنْ أنا ذاتي، كنتُ استمتع بثَمَل لا يتعلَّق بتصنُّعي شخصيةَ آخرَ وإنما حرفيًا ألا أكونَ أي شخص آخر. كنتُ أذوب في اللحظات التي كنتُ أعيشُها، بمتعة أن أترُكَني أنساق من قِبَلِ القاطرة وأن أرى عبر نافذة مقصورتي أضواء طُرق ومدُنا، ونوافذَ مضاءَة حيث يعيش الناس المستقرُّون، ويشاهدون في تلك الساعة التلفاز أو ينامون في غرف مدفَّأة بأسلوب غير صحّي، في قُطن الزوجيَة المندوف الخانق، في تفاهة الزوجية التي يتحدَّث عنها "لويس ثيرنودا"، الذي كنتُ اقرأ له كثيرا آنذاك، أنا مريده وتلميذه في مرارة البُعد الذي لاينتَهك بين الحقيقة والواقع.

كانتَ الأسفار جد غريبة حتى إن الرتابة الإدارية للواجبات التي كنتُ أنجزُها أثناءها لم تكن تصل إلى محوِ إحساس حاد وصبياني بالمغامرة، وخصوصا عند البداية. لكني إن كنتُ أسافر قليلا فليس لأني لم تتَح لي سوى فرص قليلة للقيام بذلك. في بعض

الأحيان كنتُ أتفادى بعض الأسفار كي لا أخالف زوجتي، التي لم يكن يروقها أن أتغيَّب عن البيت، وقد أنهكها عملُها ولكي أعتني بالولد، والتي لم تكن دوما ترغبُ في أن تتفهم بأن تلك الإقامات في مدريد لم تكن فرارَ نزواتٍ مني، وإنما هي مهمات خاصة بظروف عملي الإداري، الذي يمكن أن يكون القيام المضبوط به، دون أدنى شك، استحقاقا إزاء ترَقٍّ أنا في احتياج أكيد إليه، وإن كان في المنظور البعيد.

حين أقررُ أن أقبلَ سفرا، فلأنه يروقني كثيرا، أو لمعرفتي بأن رفضي له سيضرُّ بمركزي مع الإدارة، ولا أتجرأ على أن أقول ذلك لزوجتي، وكنتُ أتركُ دائما لليوم التالي الجرعةَ السيئة للخبَر، بحيث كنتُ أجدني أخيرا مجبَرا أن أقولَه لها بحتمية مباغتة حين لا يكون قد بقي من حلٍّ آخر، أو الأدهى من ذلك، هي أن تعلمَ هي بأني سأسافر قبل أن أقول لها ذلك، عبر مكالمة من الإدارة أو من وكالة الأسفار التي تتكفل بتجهيز تذاكري. ودون الحاجة لأكون خائنا، فإنَّ حالتي الطبيعية هي الذنب، والسّر غير المضرّ لسفر عملٍ كان يثقل على كاهلي مثل لا طمأنينة زِنى. إن جُملة المؤاخذات والاستياءات التي أراني فيها متخبِّطا أنا نفسي كنتُ قد أقمْتُ سَدَاها بميلي إلى الصمت، والجُبْن المعذِّب لتأخيري. كنتُ قد مضيت قبل بكثير من ذهابي، لكني حتى الدقيقة الأخيرة لم أكن متأكدا أني سأمضي، لانَّ استياء زوجتي كان يمكنه أن يدفعني إلى إلغاء السفر، أو لأن أيَّ سوء حظٍ قد يحدث

فجأة في الساعات الأخيرة، أن تشرع حرارة حمّى الطفل في الارتفاع، أو أن تصاب فجأة بنوبة ألم اللمباجو أو طمث صعب جدا، آلام يبدو أنني كنت المسؤول عنها كما لو أني كنت أستعمل سكينا، وأن هذه الأمور قد تتدهور إلى الأسوأ بسبب غيابي، وتقريبا بسبب فراري.

كنتُ سأمضي أخيرا، ولم أعتقد بعد أنني حقيقة سأرحل، وتكون سرعة السيارة الأجرة التي تسوقني إلى المحطة دافعَ سعادةٍ لا يُقاوم، مأسوف عليها نتيجة الارتباك خوفَ الوصول متأخرا إلى المحطة بسبب ازدحام السيارات، أو لأني تأخرتُ كثيرا في الخروج، لترتيب أمور عائلتي وحياتي، وبسبب الدفء الزوجي الخانق لبيتي، ولمغناطيس المعارضة والهجر الذي تلوّح به زوجتي، وهي تحمل الطفل بين ذراعيها يبكي عندما يراني أغادر، وهي أيضا بوجه شاحب عينيْن حزينتين، تقف عند العتبة في انتظار وصول المصعد.

ذات صباح شتوي، خلال أحد الأسفار إلى مدريد، أتممتُ بعض الإجراءات سريعا في وزارة الثقافة ووجدتني بلا شيء أعمله طيلة النهار. قطارُ عودتي لن يخرج حتى الحادية عشرة ليلا. ويغمرني في مدريد الإحباط، الإحساس بالهجر لكوني وحيدا في مدينة كبيرة جدا لا أعرف فيها أحدا، وحيث كلُّ شيء كان مملوءا الارتياب والخطر، عبور أحد تلك الشوارع العريضة حيث إشارات المرور الضوئية تعكس الضوء الأحمر قبل الوصول إلى الناحية الثانية مثلُ الخروج ليلا من سينما وتجدُك في متاهة شوارع معتمة يمكن أن يهاجمك أحد

فيها بسكين، واحد من أولئك المدمنين الشاحبين الذين يرابضون عند زاوية شارع "غران بيًا" وشارع أورتاليثا". العزلة تسممني، والدوار الذي يصيبني ليس لأنني لا أعرف أحدا، وإنما ألاّ أكون أحدا، أن أكون موظفًا قرويا متواضعا وبعد خروجه بثلاثة أيام هاربا يبحث عن مناظر أوسعَ وأجواء أقل فسادا، قد انكمش مثل حلزون ويمشي تائها عبر المدينة حاملا معه الانهيار العصبي الماكر كما لو كانت حمّى تضعفه، وتجعله يرغب في الاحتماء في بيتي والشوارع المعروفة والضيقة التي تنصرم فيها حياته.

تخطر على البال الآن ذكرى لم تكن في الحسبان، مقطع من سفر لا أدري كيف أجد له موقعا ضمن الزمان، وإن كان دون أدنى شك ينتمي إلى تلك الفترة: وأنا أتجول على غير هدى انتهيت إلى حديقة "الرِّيتيرو"، في صباح مضبب، حيث قطعت شوارع يبدو أنها لا تنتمي إلى مدريد ولا إسبانيا، شوارع ببنايات شامخة وأشجار كثيفة الأوراق، بأسفلت لامع من تساقط الرّذاذ، وأرصفة صفراء من أوراق الشجر التي سقطت عليها مؤخرا، أوراق موز عريضة وقسطل من الهند، وإن كنت لا أعتقد أنه في ذاك الوقت كنت سأركز حقيقةً على الأشجار ولا كانت ستهمني أسماؤها. متحف "البرادو"، الحديقة البوتنيكا، "لا كويستا دل مويانو". وفي قمة تلٍّ مشجّر توجد بناية تشبه معبدا إغريقيا هي المرقب. وأنا أكتبُ أعيدُ عَيْشَ خطواتي آنذاك، تنفتح الأشياءُ أمامي كأنما تنفتح لي ذاك الصباح أشكال

الأشجار والبيوت حين كنت أدنو منها في الضباب، ووجوه التماثيل الجامدة، المهددة والهادئة، تمثال "بيُو باروخا" أو" كاخال" أو "غالدوس"، وحيدين بين أشجار الحديقة المهجورة، تائهين في كآبة في نسيان ذي جلال من برونز ومرمر.

يطفو على الذاكرة اندهاشٌ ببناية من زجاج في الناحية الأخرى من حوض، ذات أعمدة وأسلاك من حديد مطليّة بالأبيض، أبيض مذاب في الرمادي الشفاف لصفاء صباح مصحوب بالضباب، في اخضرار الماء الراكد والقاتم. تذكّرتُ أني قرأتُ في الصحيفة أنه في قصر "كريستال دل ريتيرو" هنالك معرض خاص بمنفى الإسبان في المكسيك. كل شيء يعود، بعد سنواتٍ كثيرة دون أن أتذكّر، ذاك اليوم العادي من سفر بلا أهمية إلى مدريد، تلك الجولة على غير هدى التي قادتني إلى الرِّيتيرو، وإلى أن أعثر بين الضباب والأشجار على قصر الكريستال مثل تلك المنازل المسحورة التي تظهر أمام المسافر التائه في غابة الحكايات. أتذكّر أشياءَ، مقاطع: واجهات بها قصاصات صحف وبطاقات توزيع حصص المواد الغذائية، آلات عرض تُعرَض فيها أفلام قديمة لجنود ملفوفين في أسمال وهم يفرُّون عبر الطرق في اتجاه فرنسا، مكدَّسين في المحطات الحدودية "لبُورْ- بو" و"سيربِر"، بعد سقوط كاتالونيا. أتذكّر سبورة ومنضدة بالمدرسة الأولى لأطفال إسبان في المكسيك، وزي مدرسي أزرق قاتم، بعنق من السلولوّيد الأبيض، ارتَجَجْتُ له بغير توقُّع من ضيقي، كأوراق

الخطِّ المملوءة بقلم الرصاص من قِبل أطفال منذ أربعين سنة خلت ومقلَمات ألوان مشابهة للتي كانت لديَّ في مدرستي. كذلك الزي يشبه كثيرا زيي، وخرائط إسبانيا على قماش مشمَّع متعدِّد الألوان مقسَّمة إلى أربعة أجزاء، وتشبه التي رأيتها للمرَّة الأولى حين دخلت حجرات الدرس، إلا أن في هذه تخفق علام بألوان ثلاثة، الأحمر، والأصفر، والبنفسجي. كانت هنالك صورة كبيرة لحشود تحاول الصعود إلى باخرة، في ميناء فرنسي. امرأة في الخمسين من عمرها وقفت إلى جانبي تنظر إليها، تقول أشياء بصوت خفيض بلكنة مكسيكية، وإن لم يكن معها أحد بصحبتها. كانت تتنفس بقوَّة: نظرت إليها فوجدتها تبكي.

قالت لي، بصوت متقطع من أثر البكاء، هي سيدة مكسيكية ترتدي منظارا كبيرا وشعَر مُمسَّد ومخضَّب، الشخص الآخر الوحيد الذي كان موجودا ذلك الصباح في المعرض، في بناية الكريستال المطوَّقة بالضباب، كأنها محشوَّة بالصمت:

- كنتُ على تلك الباخرة، يا سيدي. أنا أحد تلك الوجوه الصغيرة التي تراها في الصورة. كنتُ في الثامنة من عمري، وأكاد أموت من الخوف وأنا أفكِّر في أنني قد أفلت من يدي أبي.

أستردُّ الآن خطوات أخرى، الذكرى التي كنتُ سأحكيها حين برزت أمامي النزهة في الرِّيتيرو في الصباح الضبابي هيئة قصر

الكريستال التي لا ثقل لها، البيت الجميل والكئيب للأعلام الجمهورية في رفوف معرض، شعارُ وطن كنتُ قد فقدته قبل ولادتي. خرجت ذاتَ صباح من وزارة الثقافة، ساحة الرّيْ، شرعتُ أمشي دون قصد معيَّن خامد الهمَّة مسبقًا لكثرة الساعات التي ليس لديَّ ما أفعله فيها والتي لن أكلِّم فيها أحدا، والتي سأُعْدى شيئا فشيئا بلا واقعية أن أكون وحيدا في مدينة غريبة، بأنِ أتحوّل إلى شبح ينظر إلي أحيانا مثل مجهول من مرآة واجهة محلٍّ. أنظر إلى الساعة، أحذر أن صديقي خوان سينتهي الآن من فطوره، ويقرأ الصحيفة وهو يجلس على طاولة مقهى "السويسري"، أو ربما يكون قد عبَر ممرَّ المشاةَ في اتجاه بناية البريد كي يبعث إحدى تلك الرسائل التي يحرص على ألاّ أراها. وبدلا من أن أكون عائدا إلى الإدارة بصحبته، الاثنان في خطو متماثل مقرف، ها أنا أمشي عبر مدريد تاركا ذاتي لحظ تصميمها ولاسماء الشوارع، وفي ظرف نصف ساعة كنتُ قد ضعتُ، أو ربما تركتني أنساق مع ذاكرة قديمة لا تنتمي بتاتا إلى وعيي، أتحدث في خُطاي مع دافع أعمى ومُتماد في غيِّه. في شارع ما يوجد باب راسخ، تقول قصيدة لبورخيس. أمشي عبر شوارع ذات أرصفة ضيقة ومداخل بوّابات عميقة، بها محلات بيع السمك والفاكهة ومتاجر أوراق قديمة، ومحلات لبضائع ما وراء البحار ودكاكين عقادَة أقدم من تلك التي بالمدينة حيث أعيش، معُ عجيج هائجٍ لسيارات وبَشَر، لأصوات حاسمة وصنائعية تنتمي لمدريد. أنا أتذكر، أتركني أنساق، أنا ماضٍ إلى حيث لا يلزم أن أسير، إلى

حيث كنت مرةَ واحدة. "فرناندو السادس"، "أرخنصولا"، "كامبؤمور"، "سانتا تيريزا": في لحظة ما، ودون أن أعرف ذلك، ودون أن أجرؤ على البوح بذلك، تحوّل الحظُ إلى نيَّة، لقد رسم تسلسل أسماء الشوارع على المدينة التي أنا بها أجنبيٌ الهندسة الموجزة لسفر، شكلَ جُرح لا يؤلم منذ زمنٍ طويل، لكنه يمكن أن يُجسَّ بعذ مثل ندب فاتر في الجلد، مثل أن تتذكر حين الاستيقاظ حلما نعود إلى المعاناة فيه لأجل شخص لا يهمُّنا.

شارع كامبؤمور، زاوية سانتا تيريزا: ذهبتُ إلى هناك، منذ خمس سنوات، في ذلك الزمان الذي كانت الأعوام تبدو فيه أنها ستستمرُ أطول بكثير، إنها لا تنصرم متلاشية سريعا جدا كما الآن، فمسافة خمسةَ أعوام كانت حينئذ جد قصية وكانت تتسع لِنصف حياة. أيُ شيء، مجرَّد ما يحدث، بدا أنه قد حدث منذ سنواتَ خلت. الآن تبدو الأشياء الأكثر بُعدا كما لو أنها قد وقعت البارحة بالذات. أتعرَّف البوبيات البيضاء في شرفات الطابق الثاني. حتى هذه اللحظة، كان كل شيء يحدث فقط في خيالي المحموم بالعزلة، كان يمكن أن أكون أتخيل أو أحلم بالتنقل عبر هذه الشوارع التي لا يعرفني فيها أحد، ولا أحد يمعن النظر في وجودي الشبحي. لكن الآن، إن أطلَّت هي من الشرفة فإنها ستتعرَّف عليَّ، وإنْ صعدت الطابقين الاثنين عبر الأدراج الخشبية وطرقتُ بابها، فإن الجرس سيرنُ في الواقع، في حياة أشخاص آخرين، ويمكن أن يكونَ حضوري وجودا غير مرغوبٍ فيه، واقتحاما وقِحًا أو مزعِجا. لم أعرف تقريبا أيَّ شيء

عنها، خلال كل هذه الأعوام، وكيفما اتفق بالكاد تعارفنا، فقط كنا نلتقي خلال مدّة قصيرة منذ وقت بعيد.

أفكاري وأفعالي لا تتطابق، بالطريقة نفسها التي لا تطابق بها ولا صلة بين حضوري والمكانِ الذي أوجد فيه. دُرْتُ حول الزاوية، أنظر باتجاه الشرفات، معتقِدا أنني قد رأيتُ في لحظةٍ ما وجها يقترب من زجاج النوافذ. اقتربت من باب مدخل البناية الذي كان مفتوحا، والذي له الرائحة الخاصة جدا التي تمزج بين الرطوبة والخشب وهي رائحة مداخل بوابات بنايات مدريد. لقد رأيتُ اسمَها على أحد الصناديق البريدية مكتوبا بخط اليد، بجانب اسم زوجها. الاسم الذي كنتُ أنطقه مرتعِدا، والذي كانت تتلخص فيه كلُّ احتمالاتِ الحنان، والارتيابِ، والألمِ والرغبة، إنه اسمُ جنس مكتوب بخط اليد في بطاقة صندوق بين أسماء أخرى لجيران آخرين، يلتقون بها كل يوم عند مدخل البنايةِ، أو على السلَّم، والذين يُشكِّل وجْهُها بالنسبةَ إليهم، هي التي كنت أنا أنساها حين لا أكون بجانبها، جانبا من الحقيقة ذاتها المبتذَلة كهذه الشوارع وهذه المدينة التي ينتهي بي الحال فيها مرتكِبًا حين أسافرْ إليها، بين سرابِ العزلة والعدم الخالِص.

شجاعة الجُبناء، ومقاومة الضعفاء، وجرأة الرَّعاديد: لقد وصَلتُ إلى صحنِ الدَّرج، ودون ارتباك، ضغطتُ على جرس الباب، باب عتيق، ضخم، مطليّ بالأخضر الداكن، عليه شراعة مذهَّبة. كلُّ تفصيلٍ أصبح في النسيان يستعيد مكانته الدّقيقة، والارتجاج العصبي

والوهَن في الرِّجليْن هو نفسُهُ ما كان قديما، وإنْ كنتُ أنا شخصا آخرَ. ربما لم أكن حاضرا، أفكر بشيء من أمل جبان، وبمسحة خيبة أمل حين تمرُّ بعض الثواني ولا أسمَعُ شيئا، لا خطوات ولا أصوات، فقط رنين الجرس في غرفٍ صامتة.

ينفتح الباب وتنظرُ هي إليَّ، في البدايةِ لا تتعرَّف عليَّ، اتسم على وجهها تعبير مرتابٌ استفهامي بصدد من يتواجه على أنه من البائعين الذين يزورون المنازل، الاستعدادُ المُعادي نفسُه. فجأة انتبهتُ أنني بدين ولا لحيةَ لي، وأنَّ شَعَري أقصر بكثير مما كان عليه منذ خمس سنوات، وأقل كثافةً كذلك. تحمل على ذراعها طفلا بدين، أسمر، في فمه حلمة صناعية، أجعد الشعر، بمئزرة وسخة على صدريةِ المنامة. أطلت طفلة بحذر خلْفَها ترتدي منظارا وقفت تراقبُني بعينيها. تخلَّى الطفل عن البكاء حين رآني، وصار ينظرُ إليَّ بثبات وهو يلعق المُخاط وفي الوقت الذي كان يحدِث فيه ضجيجا شرِها وهو يمص الحلمة.

لم يتعلق الأمر بأن أتعرَّف على وجهها النحيف، وعينيها الرماديَّتين الصافيتين، وخصلتي الشعر الكستنائي شبه الأشقر اللتين تتدليان على وجنتيْها: إذ أنه لا يمكنني الآن أن أربطَ حضورها، امرأة ترتدي لباسا غير مهندم أثناء وجودها في بيتها، تحمل طفلا بدينا بين ذراعيْها يُنهكها، وطفلة تُشبهها لدرجة كبيرة، باستثناء بعض ملامح هي بالنسبة إليَّ كانت لها وحدها.

يا للمُفاجأة، تقول لي، لمْ أتعرَّف عليْك، وتَرسمُ ابتسامة تَضيءُ عينيها ببريق من ذلك الزمان الماضي. أنا أعتذر، كنتُ مارًّا بالمصادفة، وعنَّ لي أنْ أنظرَ إنْ كنتِ موجودة، سمعت صوتي أكثر بحا مما كان ينبغي، صوتا يصدر عمَّن لم يتكلَّم مع أحد منذ ساعات كثيرة. لقد أدركتني في البيت مصادفة، كنتُ سأذهبُ بالطِّفل إلى الطبيب، وأنني لم أعثر على من أتركُ عنده الطفلة، فكنتُ سأصطحبُها معي هي الأخرى. لا شيءَ عنده، تفسِّر لي، لا شيءَ خطير على الأقلِّ، حين تلتهب لَوْزَتَاه ترتفع حرارتُه كثيرا، وأنا لا يقتضي أن أفزع، لكني أخاف دوما. أصابني بعض الفتور من العفويَّةَ التي تتكلم بها معي، مثل الذي يتكلم مع إنسان معروف محايد، بدون أي لمحة دالَّة على المفاجأةَ. المس جبينَ الطِّفل، لقد أعطيتُه "أبيريتال" المضاد للحُمَّى، ويبدو أن الحرارة بدأتْ تنخفض. نعطي نحن أيضا ابننا "أبيريتال"، ويحدث له نفس الشيء، ومباشرةَ ترتفع حرارته إلى أربعين درجةَ، كنت سأقول لها، لكني صمتّ، أوقفني خجلٌ غريب، كما لو أني فضَّلتُ أن أقول لها إني أنا أيضا متزوِّج وأني أبٌ، وأنَّ ابني في سن ابنها تقريبا، وأنه ليس على ما يُرام في هذه الأيام أيضا، قالت ذلك زوجتي ليلة أمس بالهاتف.

تظاهرتُ بأني سأرحل، كنتُ مفزوعا جدا حتى أنني لم أقبِّلها حين رأيتُها، لكن تفضل، لا تبقَ بالباب، طالما قد أتيتَ لتراني فلن أدعك تذهب دون أن أقدم لك قهوةً على الأقل. كانت تعيش في بيت

ممرّاته عميقة، وسقوفه عالية بها أشكال جصية وأرضيته من الخشب. لابد وأنه كان منزلا فخما في أزمنة ولّت، لكنّه الآن أصبح شبه فارغا كأنه مهجور، ربما كان ملْكا لأبويها أو لوالدي زوجها، ولم يكن لديهما مال كاف لإصلاحه. إنها لا توحي أنَّ لديْها مالا، أو على الأقل لم تكن تعتني بنفسها مثلما كانت تفعل حين عرفتها، كانــت ترتــدي ســروال راعي البقر قديم وحذاء من كتّان بدون رباط. تحوّلتْ بَـشَرتها أكثــر سمرة، وشعرها مُهملا، كشعر امرأةَ لا تغادر البيــت طيلــة النهــار وتجاهد مع أطفال، وليس لديها رغبة في الاعتناء بمظهرها.

نظّفتْ مقعَدا كبيرا قديما من الألعاب، وأوراق بها صورٌ رديئة وأقلام رصاص ملوّنة، وطلبتْ مني أن أجلس بينما تعدّ لي القهــوةَ. وجدْتني وحيدا في صالون واسع جدا سيطر عليه في الوقــت ذاتــه الفراغ والفوضى. فوق المائدة وجدت عصّارة مماثلة للتي نــستعملها أنا وزوجتي كي نصنع للطِّفل عصير الفواكه، وحلمة صناعية قذرة، وقارورة صابون أطفال سائل، حفاضة مستعملة تفوحُ منهــا رائحــة بول قوية. كان ضجيج الشارع يصل عبر الشرفات ذات الستائر التي تسمح بتسرّب النور الضعيف لليوم المضبب. في غرفة مجاورة، كان الطفل يبكي وكانت موسيقى برنامج صباحي للرسوم المتحرّكة تسمع صاخبة. ماذا أفعل هنا، عبثي وبتهذيب مثل قيامي بزيــارة، أجلــس مستقيما في المقعد، دون أن أجرؤ حتى على أن أضع رجــلا فــوق الأخرى، وأنتظر ظهورها عند عتبة الباب، كما كنت أنتظرها آنئــذ،

جشعا وقلقًا لحضورها، بخيلا بكل واحد من ملامحها وحركاتها، ومن طريقتها في ارتداء ملابسها العجيبة نوعا ما على مدينتنا التي هي من مدن الضواحي، ومن نبرة أهل مدريد الواضحة في صوتها.

عادت بالقهوة في صينية، واكتشفتُ عند وضعها على المائدة أنَ فوطة المائدةَ ليست نظيفةَ، فأبعدتها عن النَّظر بحركة تضايق وتعب، الآن نسيتُ السكَّر، لا أعرف أين هي رأسي، تحمل معها الفوطة، والحلمة، والعصَّارة، أسمعُها تقول شيئا للطفل، أنْ يبقى صامتا، وتظهر مجدَّدا مبتسمة لي بوجه اعتذار، تزيح خُصلة عن عينيها وحينئذ، كما لو في إشراقة، أراها كما كانت قبل خمس سنوات، بالدّقة التي تُرى في منظر طبيعي حين يُنظَّف زجاجُ نافذة مكدَّر، وأفكِّر في أنها تشبه كثيرا امرأةَ ما؛ وإنْ تأخَّرت كثيرا في اكتشاف من تكون: إنها سيدةُ وكالةِ الأسفار، أوليمبيا التي كانت تُعجبنا كثيرا صديقي خوان وأنا. وطريقتها نفسها حين تزيح شَعرها الذي بين الأشقر والكستنائي عن وجهها، فمها الكبير، خطُّ ذقنها وفكِّها، وبريق عينيها الصافيتين.

ومثلما كان يحدث لي حين كنتُ مغرَما بها، لم أستطع التركيز تماما على ما تقوله لي، مستغرِقَ التفكير في الاهتمام المهووس بالحب، في عشق المراهقة، متأملة، مُشلَّة للحركة، كانت تصل إلى المستحيل بأوجها المعذِّب، كانت تغذي رغبةَ العجز، والمعاناة، وجُبْنَ الأدب. تخلَّيْت عن دراسة الطب حين حملتُ، هل تتذكر، حاولتُ أن

أعودَ حين كبرت البنت قليلا، ولكني حملتُ من جديد، والآن أنا أفكّر في أن أسجّل نفسي في كلية التمريض، إنها دراسة أقصر، كما يمكن معادلةُ بعض المواد، وأعتقدُ أنه أسهل العثور على عمل. تخيّل، أنه مع التجربة التي لديّ يمكن أن يعيِّنوني رئيسة قسم الولادة.

تنهض لأن الطفل شرع في البكاء مرَّةَ أخرى وبحدة، وحين تعود تحمله بين ذراعيها. وجهه أحمر والعينان لامعتان. أشعر بالحسد فجأة وأنا أنظر إلى ذلك الطفل، أتعرَّف فيه على ملامح من أبيه، الذي طلبتُ منها عبثا أن تهجُرَه كي تأتي معي. تناديها الطفلة من الغرفة الأخرى، لأن شيئا كان قد سقط أرضا للتوّ محدثا ضجيجا كبيرا. تمضي مجدّدا وأنا أنهض، أحسستُ أنني غير مُخلص عندما تأملتها من ظهرها. وجهُها هو نفسُه، لكنَّ جسمها غدا أضخم، لقد فقدت رشاقة العشرينيات التي كانت تعجبني كثيرا. حين صبَّت لي القهوة ركّزتُ خلسةً في ثدييها، إنهما الآن أكبر وأضخم، ثديا امرأةَ أنجبَتْ وأرضعت ولديْن، ولم تعتَن بنفسها بعد الولادة كثيرا. أتذكّر سراويلها المحكمة، وقمصانها شبه المفتوحة التي من قماش مطاط، له ملمس الحرير والذي يُشبه بشرَتها التي تجرَّأت وتحسستها في مرَّات قليلة. لقد دعوتُها إلى العشاء ذات ليلة في بداية الصيف، نزلتْ إلى الشارع بلباس فضفاض خفيف وحذاء مريح، وشَعرها محزوم على هيئة غديرة حصان وخصلتيْن على وجنتيها، كانت شديدة الخفة ومشتهاة حتى إنه كان عذابا عدم التجرُّؤ على عناقها.

لكنْ لم يحن وقتُ الذهاب الآن، حدِّثني عن شيء ما، فأنتَ لم تنطق بكلمة، فأنت لم تتغير أيضا. الطفل لم يعد يبكي الآن، وسمعت التلفاز في الغرفة المجاورة. هي تجلس مقابلة لي، تطلب مني أن أحدِّثها عن حياتي في هذه الأعوام، وأنا ألاحظ، ببصيص تملق مستعاد، أنها قد رتبت شعرها، وأنها قد لوَّنت شفتيْها قليلا. قيل لي أيضا أنَّكَ قد تزوَّجتَ بخطيبتك الأبديَّة. مثلك أنتِ، تجرَّأتُ على القول، وفي لحظة وجدنا نحن الاثنان أن ما يوجد بيننا مجرَّد فضاء وجيز فارغ، ذاك الذي عبرْناه مرَّة واحدة منذ زمان بعيد، ويبدو الآن أنه لم يُقْفَل. لكنَّنا ابتسمْنا محرِّكيْن الرأس بأدب، مذْعِنيْن للتفاهة الموضوعية للوقائع الحقيقية. على الأقلّ، أنتَ قد أنجزْتَ شيئا، أتممتَ الدِّراسة. أتذكَّر كم كان يُعجبُكَ تاريخ الفن، وبأي حماس كنت تتكلَّم عن كل شي، عن الآشوريين، المصريين، بيكاسو، البوسكو، بيلاسكيث، جيُوتو. مازلت للآن أحتفظ ببطاقة بريدية بعثتَ إليَّ بها من فلورنسيا.

وفيمَ أفادتني. أتذكَّر تلك البطاقة، واللحظةَ التي كتبتُها فيها إليك، على السُّلم الخارجي لـ"سانتا ماريًا دِلْ فيُورِي"، وكيف كنتُ أحبُّك. فسَّرتُ لها أني عثرتُ على عمل مساعد إداري، وأنه في السنة اللاحقة نجحتُ في المسابقة، وإنْ كنتُ لا أفكِّر في أن أمكث إلى الأبدِ في تلك الإدارة، ومتى استطعتُ سأعود إلى مواصلة العمل جدِّيا في الأطروحة، أو سأنكبُّ على الاستعداد لمسابقة أستاذ ثانوي.

ذاك ما يقوم به فيكتور، إنه يتهيأ لمسابقة مكتب البريد، ليته يكون له كثير من الحظ مثلك. فيكتور: إنها تجرحني كلما نطقت بكل أُلْفة اسمَ الزوج. لو كانتْ قد بقيتْ معي لكانت تنطق اسمي بكل أُلفة كما تنطقه زوجتي، وكان يمكن أيضا أن تناديني باسم دلع.

رنَّ الهاتف، في آخر الغرفة. تتكلَّم بصوت خافت، ولا تنظر إليَّ، تفسِّر لشخص ما أنها ستأخذ الطفل إلى الطبيب، وإنْ كانت الحمَّى قد انخفضت. مع السلامة، لا تتأخر. ماذا أفعل هنا، شبَحٌ، زيارة، ولا حتى دخيل. مع السلامة، لا تتأخر. يقول الناس الكلمات دون التوقُّف للتفكير فيما تعنيه، الحيوات برمَّتها التي تسَعَ داخل أبسط جملة، الشتيمة الحميمة التي يمكن أن توجد في صياغة مبتذلة: مؤسِفٌ أنَّك لم تصادف فيكتور، كان سيروقُه كثيرا أن يراك.

هذه المرةَ حين وقفتُ، لمْ تقلْ لي أن أبقى قليلا. الروائح المنزلية في الممرات، هي لا تدرِكُها، رائحةُ طفلٍ صغير، روائح المطبخ، الملاءات، الأجساد، ومنزل سيِّء التهوية، خليط من الألوان مصنوع من كل الأشياء اليومية لحياتها، لحياتها الحقيقية، التي هي غريبة جدا عني كهذا البيت الكبير، الفوضوي، والمُعتِم. أيضا ستكون هنالك رائحة في بيتي، في شقتي الصغيرة المرتَّبة ذات الحماية الرسمية، وسيكون في جزء منه مشابها، رائحة الحليب الحامض ومسحوق طلْق للصغار. ودَّعتُها عند الباب، مع ابنها بين ذراعيْها، محمرًا وباكيا، الذقن مليئة باللعاب. منحتني قبلتين، واحدة في كل

خدٌ، دون أن تلمس بَشَرتي، محاذيَةً بالكاد الهواءَ الأقربَ الذي يلفُّها، الذي فيه رائحة كلّ واحد، رائحتها، التي لا أتذكّرها، والتي لا تحرّك مشاعري حين تعرّفتها. هل ستمكث كثيرا في مدريد؟ يمكنكَ أن تأتي لزيارتنا، إنْ كانَ لديْكَ وقتٌ. ربما تقول ذلك لإزاحة أي ارتيـــاب ذي سريَّة قديمة. الآن هي ليست المرأةَ الوحيدة التي بدتْ عاشـــقة لـــي عابرةً جدا ومستعدَّةَ للبقاء معي: الآن، هي تحـــدِّثني بـــضمير جمـــع يُدرِجِ دوما زوجها، مانحةً إيَّاي ذلك النوع من الصداقة الزوجية التي هي أسوأ إهانة بالنسبة إلى عشيق سابق. لا أعتقد أن لـــديَّ الوقـــت، لأعود هذه الليلة، ولا تزال لي أيضا أشياء لأقوم بها.

مشيتُ بقيَّة اليوم عبر مدريد متعبًا مضجرا. بعد تـــردد كبيـــر وتفكير اخترْتُ للطعام مطعما وما أن دخلت حتى أحسست أنني قـــد أخطأتُ، لكنَّ نادلا يرتدي سترة حمراء متسخة اقترب مني، ولم تكن لي الشجاعة للانصراف، أكلتُ جزءا من شريحة لحم عجل تفوح منه قليلا رائحةٌ عفنة. في إحدى المكتبات الكبيرة بـــشارع "جـــران بيـــا" أحسستُ بالدّوار وأنا أنظر إلى العناوين، وانتهيْتُ مشتَريا روايةً لـــم تعجبني في الحقيقة، ولم أقم بقراءتها أبدا. دخلتُ إلى سينما، وحـــين انتهى العرض كان الليل قد حلَّ، لكنَّ كان لايزال الوقتَ مبكرا علـــى موعد القطار. اتصلت بمنزلي عبر الهاتف، وأنا أحس بداية بندم، مع أنني لم أمْضِ إلا ثلاثة أيام خارجه. وعندما ردت زوجتـــي خـــشيت أن يكون في نبرة صوتها علامات على مصيبة ما. لقد أيقظَها الطفل

في تلك الليلة باختناقات غريبة جدا وذهبتُ به على وجه السرعة إلى الطوارئ، حيث شخّصوا ما به أنه التهاب بالحنجرة.

دقائق قبل خروج القطار السريع كنتُ أُطل من النافذة ورأيتُ امرأة شابة تقترب وهي تعدو من آخر الرَّصيف. وبينما كنتُ أنتظر خطَرَ لي أنها ربَّما أتتْ لكي تودِّعني، لذلك سألتني عن ساعة خروج القطار. في المرة السابقة، منذ خمس سنوات، واصلتُ انتظارَها حتى الدقيقة الأخيرة على هذا الرصيف وأنا أنظر إلى الساعة ووجوه الناس الذين كانوا يدخلون مُسْرعين من البوابات الزجاجية. أنتظرتها عندما وصلت مع حلول الفجر وفي تلك الليلة نفسها ساعة رحيلي في القطار الذي جئتُ فيه، ولم تظهر وفي كلتا المرتين. ودون أن أنتبه كثيرا، كنتُ قد كرَّرتُ ذلك الانتظار، ليس لأنني اعتقدتُ احتمال ظهورها، وليس لأني رغبْتُ فيها، وإنما لنوع من الفتور الشعوري.

الآن، أرتعش، غيرَ مؤمن، شبه مفزوع، أراها قادمة، بعد خمس سنوات من التأخُّر، والذي كان يتأثر برؤيتها كان الشخصَ الذي كنته آنذاك، مستعيدا حياته، وليس مُحتقَرا بالخضوع، لأهمية العمَل والحياةِ الأسريَّة، ولم يتحسن بمرور الزمنَ، مثل المشدوه أو الأحمق.

ثانيةً بعد ذلك، لم تكنِ المرأةُ الآن هي، وإنْ واصلتُ النَّظَر باتجاهي بينما تقترب مني وتبتسم، تقوم بحركةً لمعانقتي، كانت أطول، وجدّ نحيفة، وشَعر مجعَّد. مرَّتْ بجانبي، عانقت رجلا كان

ورائي تماما. صعدتُ إلى القطار ونظرتُ إليها مــن النافــذة. كــان الرَّجل يحمل كيسَ سفر كبيرا، لكنْ لا أحد من الاثنين رفــع رأســه حينما دوَّت صفارةُ الانطلاق. رأيتُهما يمكثان بعيدا بينما شرع القطار في التحرك، رأيتهما متعانقين وحيدين في شبه ظل الرَّصيف.

بيرغوف

غرفة العمل معتمة، خالية كزنزانة، بجدران بيضاء، والأرضية من خشب، مائدة من خشب خشن ضخمة تشبه الموائد التي كانت من قَبْلُ في مطابخ المنازل، في مطبخنا حين كنتُ طفلا. تنقلب الأمكنةُ أصداءً، شفافية لأخرى، تتوافق فيما بينها في تجانس قاسٍ. حين دخلت إلى الغرفة في هذه الساعة غير المحددة من بعد ظهر يوم شتوي تذكرتُ غرفة "غارثيا لوركا" في "ورتى دي سان بيثنتى"، التي كانت له في مدريد، في المدينة الجامعية، ومن مدريد وغارثيا لوركا حملتني لعبة الشفافية المتتالية، التي هي تجانس الأمكنة، إلى روما، إلى غرفة أكاديمية إسبانيا حيث نمتُ عدة ليال من مارس أو أبريل عام ١٩٩٢، وحيث تخيّلتُ أيامَ كدٍّ طويلة من العزلة والقراءة، أيامَ رهبانية من عمل وسكينة الروح، مكان العزلة الذي يبدو أنّ المرء يحمله مطبوعا في الروح، والذي يحلم به ويبحث عنه دوما، الغرفة التي يوجد فيها فقط أشياء قليلة أوّلية، السرير، المائدة الخشبية العارية، النافذة، وربما رفٌ صغير لأجل كُتب قليلة، وليس كثيرة، وكذلك أحد تلك الأجهزة الموسيقية المحمولة، التي ترافق المرءَ وبالكاد تشغَلُ حيِّزا. كنتُ أقضي اليوم برمّته أتجوّل

عبر روما في حالة من السُكر تضاعف العزلةُ حدّته، وكنتُ أسقط في الليل مستسلما في السرير الضيق بغرفتي في الأكاديمية، وفي الحلم المضطرب، والجبار، والمكدَّر مثل مياه نهر التِبِر، كنتُ أواصل جولاتي عبر المدينة، وكنت أرى صفوفَ الأعمدة، والأنقاض، ومعابد شاهقة غامضة كما يحدث في هذيان حُمَّى. كنتُ أستيقظ مُنهَكا، وعلى ضوء الفجر البارد الزَيتوني وجدت عينايَ اللتان انفتحتا مؤخرا قبة معبد بْرامَانتِي.

ينبعث مكانٌ آخر حين يشرع الظُّليلُ في التحول إلى عتمةَ، ويغدو فسفوريًا فيه نورُ شاشة الحاسوب، ونور المصباح الداني الذي يضيء اليدين فوقَ مفتاح الحروف. واليد الموضوعة فوق الفأرةَ لم تعد يدي. أما اليدُ الأخرى، اليسرى، فتتحسس بتلقائية الصدَّفة البيضاء التالفة التي أحضرها "أرتورو" منذ صيفين من شاطئ الزّهراء، مساء الليلة السابقة على رحيلنا، إحدى تلك الأمسيات الطويلة لأوائل شهر يوليو، حين تبدأ الشمس في الغروب بعد التاسعة، ويكتسبُ البحر زرقةَ الكوبالت، وهي تنسحب بطيئا عن الرمل الذي لايزال ذهبيا حتى ذلك الحين، حيث تغدو آثار خطوات المستحمِّين الذين شرعوا في الانصراف تتحوّل إلى تجاويف ظِلٍ دقيقة.

من العتمة المُضاءَة بشاشة الحاسوب والمصباح المائل، ومن اليدين الاثنتين، ومن اللمس الأملس للفأرة من إحدى اليدين وخشونة

الصَّدفة في الأخرى، تنبعث دون تعمُّد منّي صورةٌ، حضورٌ ليس كلّه اختراع ولا تذكُر، الطبيب، الطبيب على انفراد وفي الظُّليل الذي ينتظر مريضا، ويحرّك الفأرة بيده اليُمنى، يبحث في الحاسوب عن ملف، عن تقرير طبي فتِح منذ أيام قليلة، والذي أُضيفت إليه أمس بالذات نتائجُ بعض التحاليل.

كثيرا من المرّات أرى تلك الصورة، وإن كان بشكل متقطّعٍ، اليدين بالخصوص، تتقر في صفاء نور الشاشة: طويلتان، عظميّتان، ماهرتان، يكسو زغب كثير ظهرهما، زغب ليس رماديا مثل شعر ولحية الطبيب، الذي لا أراه واقفا، وإنْ كنتُ أعرف أنه طويل جدا، جدُّ نحيف حتى إن معطفه الأبيض يبدو مرتخيا على كتفيه. أراه جالسا، معطف أبيضَ وشعر ولحية رماديّان في ظليل غرفة بستائر مسدلة، وإن كان لا يزال هناك وقتٌ كثير على حلول المساء، يدان ووجه يُضاءان بالمصباح وشاشة الحاسوب، الموجود بجانب المائدة، حيث لا يوجد شيءٌ آخر فوقها، باستثناء مفتاح الحروف، وصدفة بيضاء، مستديرة، أصغر وأحْدب من رخوية بينيرا، وأقوى أيضا، تالفة إحدى نواحيها ومنحدرة مثل حلزونة تاج عمودٍ من مرمر قرَضَه ملحُ البارود والوجود في العراء طيلة قرون، ومن الناحية الأخرى ناعمة مثل عِرق اللؤلؤ، رائقٌ لمْسُها بأنامل الأصابع، التي تدور حولها بإرادة ذاتية، بينما يتحدَّث الطبيب مع المريض الذي وصل للتوّ ساعيا إلى أن يختارَ الكلماتِ بحذر شديد: أو بالأحرى قبل

ذلك، حين يكون وحيدا أيضا، يحسب بفتور همَّةَ الدقائقَ التي بقيت كي ينفتَح الباب، وهو يراجع مرَّةَ أخرى ورقةَ التحاليل التي فوقَ المائدة، تماما في الفضاء الذي بين يديْه، ناسيا إيَّاها كي يمضي إلى زمن آخر، أيام منيرة متقبَّلة في غرفة ظليلة، يجذبها لمس الصدَّفة في تناوب بين الخشونة والنعومة، إنها صَدفة بسيطة، ليس فيها ما يجلب النظر، جيرية اللون من مرمر قسا عليه الزمان، الحَزَّات منفتحةَ من القاعدة في انتظام قُضبانٍ مروَحة، كلّ واحدة تتَبع انعطافا فائقَ الجودة، وتمنح الأنامل عدم انتظام قطعة من الفخار المكسور.

بعض الأشياء تَستدعي أخرى، وكأنها مرتبطة فيما بينها بخيط رفيع من صدف عارضة. الأصداف على شاطئ البحر في مدينة "زهراء دِي لوسْ أتونيسْ"، أجزاء جِرار محدبة مكسورة. لابد من تركها تصل، أو أن تَجلِبها شيئا فشيئا، الأصابع المتيقظة إلى نبض خيط الصنارة، تمارس الأقل القليل من القوَّة والضرورة للتغلب على مقاومة دون أن يتمزَّق الخيط، وقرب وصول شيء ما، تفصيلٌ لا أهمِّية له يحوي حيزا من ذاكرة حسيَّة، كفقاعة هواء أمضت ملايين السنين سجينة داخل كرة من عنبر. خشب أرضية المنزل الكبير المعتم حيث يعمل الطبيب قديم قدم البناية، ويطقطق تحت وقع الأقدام طقطقة خشب قديم متين. ترنُّ أوَّلا صفَارةُ الهاتف الداخلي، وحين يقول الطبيب للممرضة إن المريض يمكنه أن يدخل فإن خطواته ترنّ كأنها فوق أخشاب سفينة.

حين كنتُ طفلا، كانت توجد في بيت أُخت جدَّتي غرفـةٌ بهـا أرضيةِ من خشب. أنا وقتَها كنت لا أعرف غير الأرض البلاط، التي تصبح مثل الثلج في الـشتاء، أو الأرض المحـصبه، التـي لاتـزال موجودة في الأدوار السفلية لبعض البيوتَ القرويَّة، أو الأرضيةَ التـي من تراب مدكوك. كان يعجبني أن أذهب مع جدتي إلى بيـت أختهـا لأدخل إلى تلك الغرفة، لأحس كيف أن الخشبَ يستسلم قليلا تحتَ وقع خطواتي وأسمع صوت طقطقته وأرى لمعانه، كمساحة مـن خـشب الأرضيةَ المصقولة. مثله مثل أن يكون المرء في قَمرة سـفينةَ، فـي مكان آخر، ربما في حياة أخرى. لديَّ إحساسٌ مشابه بالاكتمال المادي لشيء: حين أسمع عزفا على الفيولنتشيلو. يقفز الزمان مجـدَّدا، مـن شيء لآخر، ومن زمان لآخر، بسرعة نبض الخلايا العصبيَّة، حـوالي مائتَي كيلومتر في الثانية: "بَاوْ كَاسَالْس" يعـزف علـى الفيولنتـشيل متتاليات باخ في برشلونة، في خريفَ ١٩٣٨، بعد خـسارة معركـةُ الإيبْرو، بينما يستمع إليها في المقصورة "مانويـل أثانيـا" و"خـوان نيغرين"، وذلك على مسرح اللّيثُو. خلف المائدة، على رفٍّ حيث توجد كتب قليلة جدا، في الطب والتاريخ على الخصوص، فإن الطبيب يمتلك جهازا صغيرا للموسيقى، يعزف أحيانا موسيقى ناعمةً جدا بينما يسأل أحد المرضى أو يفحصه، وهو ممدد على السرير الموجود في ركـن بالغرفة شبه المعتم، قُبالَة الحاجز. يغدو المريض أكثر ابتـذالا وهـو مستلق على السرير، يستسلم مسبقا إلى المرض، إلى فحص الطبيـب،

الذي يراه عند الجهة الأخرى من الخط اللامرئي، الخطّ النهائي الـــذي يفصل الأصحّاء عن المرضى، المعزولين في خـــوفِهم ، فـــي ألَمِهـــم وربما، وهو أسوأ الأمور، فيخجلهم. يبتعد الأصحاءُ عـــن المرضـــى، كتبَ ذلك فرانز كافكا ذات مرَّةَ، إلى ميلينا جِنسينسكا، لكنَّ المرضـــى يبتعدون هم أيضا عن الأصحاء.

السرير والحاجز يطفوان الآن فقط من شبه العتمةَ، من العـــدم المحض لما ليس مُتخيَّلا ولا متذكَّرا. وقبـــل أن يبـــدأ فـــي إطـــلاع المريض على ما تكشف عنه التحاليل، ما لا صيغة إلـــى قولـــه دون إيقاظ فزع آني، دون الإحساس بعقدة في الحنجرة، وإن كان قد قيـــل مرَّات عديدة، فإنَّ الطبيب سيطلبُ منه أن يتمدَّد على الـــسرير، دون أن يخلع عنه ملابسه، فقط يلزم إنزال الـــسروال قلـــيلا، وأن يرفـــع القميص، كي يتمكَّن هو من أن يضع بالسماعة على أحشاء الـــبطن، ويتحسس بأصابعه الطويلة السريعة والدقيقة دون خشونةَ. عـــارٌ أن تتمدَّد على ظهره في السرير، مستلقيا ومستكينا، بسروال ساقط حتى خط الصَّفَن، بينما اليد الدَّخيلة، اليد الذُكورية الصحيحة، تبحث عبـــر اللمس عن شيء غير طبيعي، عن وَرَم لا يُمكـــن ملاحظتُـــه، مـــن يُدريك إن كان جُرحا، كتلك الجراح التي تُحدِثها الأمراض القديمـــة، أو العقدات المنتفخة التي كانت تُعلن عن الطاعون.

في العمق، بعد النفسين، نفس المريض والطبيب، القريبان من بعضهما ومع ذلك فهما مفصولان بالساتر اللامرئي، نُسمَع متواليـــة

الفيولنتشيل لِبَاخْ التي عزفها سنة ١٩٣٨ باو كَاسَالْس، في ليلة ربما دوتَ فيها فوق أجواء برشلونة صفًارات إنذار المضادة للطائرات وانفجارات القنابل، التي تَضيء المدينة الباردة المظلمة بلهيبها العابر، المنهزمة مسبقا بالجوع والشتاء، شهورا قبل أن يدخل إليها جيش المنتصرين الدموي الفظ والمتزمّت.

وإنْ كانت تَسمَع خافتة، فإنَّ المريض كان قد ميَّز الموسيقى وتعرف إلى التسجيل. وخلال بعض الدقائق الصعبة يتحدَّثان دون تخفيف حقيقي عن باخ، عن صوت الفيولنتشيل، عن التقنية العجيبة للتسجيل الرقمي، التي تسمح بإنقاذ هذا النوع من الكنوز المدفونة، أعجوبة شيء حدث في ليلة واحدة، ولأوّل مرَّة في العالم. يتحدَّثان بينما ورقة بيان التحاليل فوق المائدة، في الفضاء الذي تحيط به يَدَا الطبيبِ المتوقفتان والفصيحتان، إلى جانب صدَفة تتجه نحوها يده غريزيًّا بين الفينة والفينة أصابعُه، حتى إن المرءَ ليعتقد أنه يلمس آلة موسيقية ما. إن متواليات باخ لم تُعزَف أبدا، إلى أن نبش عنها الصمت باو كاسالس. لقد عثر عليها مصادفة وهو يفتش في كُشك أوراق قديمة، في زنقة قريبة من مطار برشلونة، مثلما يقول ثربانتس إنه قد عثر على المخطوط العربي للكيخوتى في دكان للملابس المستعملة في طليطلة. إنَّ المصادفةَ البحتة سلَّمته كنزا يبدو أن القدَر احتفَظ له به. لو لم يُقلِّب باو كاسالس في ذلك اليوم بالتحديد بين هذا الرُكام من الأوراق الصفراء، لو أنَ الرّجل الذي كان الطبيبُ ينتظرُه

لم يصل، لو أنه لم يلتقِ مع شخص سينقل إليه بطريقة غير مُدْرَكة ما ظلّ مختفيا طيلة سنوات عديدة. ذلك المساء البعيد، في قطار، المرأة الطويلة والتي تمشي كأنها تركض على الكعبين، في بدايــة ارتبــاك ودوار، وسُكر في العينين الخضراوين، وهما تلْمَعان في ظُليل الشَعر المجعَّد، ابتسامةً لا سبب لها على الشفتين الــرقيقتين، علــى الــذقن الثابت الذي يبدو كأنه إسكندينافي أو ساكسوني.

لكني لا أحبَ أن يصل بعدُ، وإنْ كانت ما تزال أمامي دقــائق على الموعد. سيكون على وصول، قلقا ولكن ليس مفزوعا بالكامل، لا يزال للآن يعيش حياةً عادية، التي سيتذكرها حين يَرحــل عنهــا سيتذكّرها مثل تلك التي أتذكرها لمسقط رأسي، الوطنِ الأصلي الذي لا يمكنني العودة إليه أبدا، وطن من هــم أصــحّاء، وطــن مــن لا يفكرون في أنهم سيموتون. لكن بالنسبة إليه، كثيرون ممن يشبهونه، سيحتفظ لهم بشيء أكثر، يعرف الطبيب، الخجل، لأنه لن يرغبَ في أن يعرف أحدٌ ما تكشف عنه التحاليل، ليس مرضا فقط، وإنما اســمُ نوع من العار: لن يجرؤ حتى على النظر إليــه فــي عينيــه، إلــى الطبيب، وإن كانا يتحدَّثان لدقائق من قَبْل أو في زيارته السابقة عــن متواليات الفيولنتشيل لباخ، لقد أُقْصِيَ، وطُرِد فجأةً من مجتمع النــاس العاديين، كيهودي يقرأ في مقهى بفيينا الصحيفة التي ستَنْــشر فيهــا القوانين العرقية الألمانية الجديدة. المقهى هو نفسه الذي يرتاده كــل صباح والصحيفة هي التي قرأها كلّ يوم في السنوات الأخيرة، لكــنّ

كل شيء قد تبدَّل فجأة، والنادل الذي ينطــق باســمه بــإفراط فـــي المجاملة، ولا يحتاجُ أن يسأله عمَّا سيشربه، نادل كل صباح، ربمـــا سيرفض أن يجلب إليه قهوة لو علم من يكون، إلى ما تحوَّل إليه بأثر من القانون، وإن كان لا شيءَ يُلاحَظ عليه في مظهره الخارجي، وإن كان وضعُه باعتباره يهوديا لا يُستَشَفُّ من شعرِه الأشقر أو الكستنائي ومن عينيه الصافيتين، ومن وجهه العادي.

أُحيط بالصَّدَفة في راحةَ اليَد. وبيُسْرٍ كنتُ أُحيطُ فيها بِيَدِ ابنـــي التي كانت لا تزال طفولية، التي كانت تمسك بيدي بشكل طبيعي جدا حين نخرج إلى الشارع، وكان يبلغ حينئذ ثلاث عشرة ســنة. كـــان يقول لي وهو صغير: هيَّا نقيس حجم يديْنا. كُنا نضع الواحدة علـــى الأخرى، وكانت يده بالكاد لا تصل إلى نصف يدي العظميـــة وذات الزوايا، والمملوءة بالزَّغب، يدُ غولٍ غليظة وليست يد طبيب بالنـــسبة إلى يده يدِ الطِّفل اللينة، مُبتلِعا إياها بكاملها في ذلـــك اللعـــب الـــذي يجعلُهُ يضحك كثيرا، من الفرح والخوف، ابتلِعْ يدي بيدك كما يبتلـــع الذِّئب الشعرانيُّ المعزاتِ الصغيرة. احْكِ لي حكايةَ أخرى، لا تذهب بعْدُ عن الغرفة، لا تُطفئ نور خوان السرير. وبعد ذلك كانت تَسحرُه دوما أن تنفتحَ يدي وتبرُزَ يدُه سالمةً، لم تُبتَلَـــع ولا حتـــى عُـــضَّت، كالمعزات الصغيرةَ البيضاء التي أنقذتها أمُّها من بطن الذئب الأسود، الذي لديه في خطمه وفي المتن شَعر أسود يَخِزُ كشعر يدِك.

خرجنا من الفندق عبر طريق مشجر بين نخيل وفطريات وكنا نقف مباشرة أمام المحيط الأطلنطي، منذهلين بالنور، بشسوع وعمق الأفق، الذي لا ينتهي في البحر، وإنما ما وراءه، عند خطٍ من الجبال الزرقاء الذي هو شمال إفريقيا. كنا نرى بالليل بين الضباب البحري ارتعاشَ أضواء طنجة. قد كنتُ في طنجة، ذات مرَّة، منذ سنوات كثيرة، كأني في حياة أخرى. يضغط الطبيب على تقوُّس الصَّدفة كما كان يضغط منذ صيفَيْن يدَ ابْنِه. تعانق زوجته جنبَه الآخر، تلتصق به كي تحتمي من الريح الغربيةَ التي تأتي من البحر، حيثُ توجَد الأشكال القاتمة لإفريقيا وأضواء طنجة، الريح التي لها رائحة الرطوبة والطحالب. كلّ ليلة، في مكان ما من ذلك الشاطئ الشاسع، تنزلُ إلى الشاطئ تحت ظلام الليل مجموعةٌ من المهاجرين السِّريِّين، أو يفرغ في كتمان علب التبغِ المهرَّبة وحُزَم حشيش مضغوطة. وفي بعض الأحيان، تجلبُ تيَّاراتُ المحيط الجبَّارة جثث مغاربة أو سود عراةَ منتفخة من الماءَ ومقضومةَ من الأسماك، وقد تم إلقاؤهم من مراكب قديمة معدنية صدئة أو من خشب عَفِن كانوا قد غرقوا فيها.

عند الوصل إلى الشاطئ فقط، المساءَ الأول، انتبه الاثنان إلى التعب الذي كانا يرزحان تحته، فجأة صارا خفيفين جدا حين تحرَّرا منه مثلما حين تركا في الغرفة المتاعَ والملابس المبللة عرقًا التي غادرا مدريد ذاك الصباح وهما يرتديانها. شهور كثيرة وهما محبوسان في تلك الغرفة شبه الظليلة، منتظريْن زيارات، ونتائج

تحاليل، يريان وجه رجال ونساء مُشار إليهم بطريقة غير مرئية على أنهم مرضى، وأنهم اختيروا من قِبَل استهزاءِ الحظِّ الـدامي. كـان الطفل يجري إلى الأمام، في لهفة لبلوغ الشاطئ، وهو يركـل علـى الرمل الكرةَ الكبيرة ذات اللون الأبيض والأزرق الخفيفـة والعديمـة الوزن التي تُبعِدها الريحُ عنه. كانت الشمس لم ترحل بعدُ، لكن لـم يكن قد بقي أناس كثيرون في الشاطئ، أو لربما كان اتساعُ الـشاطئ ما كان يُبديه خاليا جدا، وقفرا تقريبا، كأنه لها وحدهما. أحَسَّ بنـوع من الخجل أن ينزع ذلك القميص، وهو جد شاحب ونحيف في ذلـك النور الذهبي، جدّ مقاوم لها، بخلاف زوجته وابنه، اللذين كان لهمـا هما الاثنان التّلوين ذاتَه قرْفةً في الجلد، إحدى تلك الملامـح الأوليّـة التي كانت قد نقلتها الوراثةُ الجينيةَ من الواحدة إلى الآخر. ماذا تكونُ قد ورثتَ أنتَ مني، يا ابن روحي، قافزا في جسارة ذلـك المـساء ناحيةَ الموجة العالية الأولى والمتوَّجَة بالزَّبد، والمهزومُ مـن قِبَلِهـا، وأنتَ تخرج من البحر جذِلا، مفعَما بكل بريق الماء والـشمس فـي بَشرتك التي لم يُسئ الزّمان بَعْدُ إليها، بجسدك الذي لم يكن في ذلـك الصيف قد بدأ بعْدُ يخسر الاستدارات الطفولية.

حين استلقيتُ على وجهي في الرمل؛ أحسستُ بما يشبه الكمال الجسدي والصلابةَ التي لم تُسبَر، وانحناءَ العالم. هنالك أبياتٌ محكَمة لـ"خورخي غيِّين": والرِّجل المُسافرة تدوس استدارةَ الكوكب. كنـتُ أنظر عن قرب شديد الحبَّات الضئيلة، المقـاطع المتناهيـة الـصغر

لصخور وأصداف، لزجاج، لجِرار مكسورة، اُبْلِيَت وسُحِقت خـلال امتداد زمان جيولوجي بفعل قوةَ البحر الرتيبة، التـي تَمـارس الآن بالذات، والتي ترنُّ مثل طبل قَرب أذنيَّ، في جسدي بكامله الـذي أنهكه التعـب، اخترمتـهُ شـهور مـن العمـل والقلـق، والأرق، والاستعجالات، والندم، وأنْ أُعايِن فـي آخـرين الألَـمَ والمـرض، الارتباك، زحفَ الموت. كنتُ آخذ حفنةَ من الرمل في اليد وألعـب؛ أفتَحُها كي يتسرَّب الرمل ساقطا شيئا فشيئا، في صورةَ خيط فـاتر، في هروب ثوانٍ. في البدء يكون ذلك شيئا صُلبا في داخل قبضة يدي المضغوطة، المسدودة كَصَفَقٍ حيوان رخويَ بالنسبة إلـى الأصـابع الصغيرة لابني، الذي يُحاول أن يفتَحها ولا يستطيع، وإنْ أفلحَ في أن يزيح إصبعا متنفسا بقوة، فإنَّ الإصبع يعود إلـى مكانـه وتـستمر القبضة مغلقة. إنها تنفتح لاحقا ونيدا، ويتحلَّل الرَّمل الذي كـان جـدُّ متماسك إلى عدم، ولا تبقى سوى حبَّات ضئيلة في الكـفِّ الواسـعة المفتوحة، رؤوسٍ معدنية جرحَها النُور. في الحادية عشرة كان الطفل يواصل الاستمتاع بذاك اللعب، كان يواصل تحدي أبيه عبثا، وكـان يشقى لاهثا راغبا في أن يفتح له قبضته، التي يكـون فيهـا أحيانـا حلوى أو قطعة نقدية. كان يبحث عن ثغرة بين الأصـابع، يحفـر، ولكن دون جدوى دوما، لكنَه كان يفعل ذلك بحذر كبير حتى إنه لـم يغرز فيه أظافره أبدا. حين كانٍ ينهزم، كان يرتمي عليه، معانقا إيَّاه بكل ما أوتي من قوَة، وبحنان فُجائي ومسحور، ويُمرِّر اليد بعكـس ميل الشَعر عبر الخَدِّ، كي يحس بوخزات اللحيـة. كـان يكفيـه أن

يضغط له بإصبعين في الجنب، تحت الأضلاع بالضبط، كي ينسحب الطفل إلى الرمل يضحك ويقهقه، ويركل الريحَ.

« يا لكما من ثقيلين، مع ما أنتما عليه من كبر»: تتمدّد إلى جانبهما، العينان مختفيتان خلف المنظار، تنظِّفُ زوجته الرَّمل الذي مسَّها به الطفل حين شرعَ في الرَّكل ويُحوِّم حول المجلة التي كانت تقرؤها. تتعرض للشمس وقت قصير، وها هي بَشَرتها تلونت بلون ذي صبغة سمراء. الراحة، والنوم العميق، ساعات الخمول في الشاطئ وفي مسبح الفندق، القيلولات في ظِل الغرفة المنعش، قد محت من وجهها كلّ أثر للتعب، وها هي لديها الابتسامة الواسعة ذاتها التي سحرتني بها في المرَّات الأولى التي التقينا فيها. مرغوبٌ فيها كثيرا وشابةٌ كما لو أن اثنتي عشرة سنة لم تَمُرَّ، كما لو لم يكن لها الطَفل الذي يجلس الآن إلى جانبها، ويشرعُ شيئا فشيئا في دفن قدميها بأظافرهما المصبوغة بالأحمر، يهرقَ عليهما من قبضته الموارَبة خيطا من الرَّمل ينسكب من ظاهر اليد وبين الأصابع كأنه ملاطفة.

لكنَّه لم يرغب في نفي الزمان، كان جيدا أن يكون قد مرَّ، لأنه جلب إلينا كثيرا من الهبات، كثيرا من الأشياء التي كنتُ أراها ملموسة ومقدَّسة أمامي في تلك الأيام من يوليو. كان جسد زوجتي يعجبني أكثر لأني أمضيت أكثر من اثنتي عشرة سنة ألاطفه وأتعرَّفه، أشتهيه بالعمق الذي يمنح المعرفة فقط، وكذلك لأنه كان قد

آوى وأنجَب ابني، كان قد اتسع، وذهِنَ بأمومة فاتنة، وغُذِّي بسيل من الهرموناتَ الغنيَّة، بخيوط من حليب تنساب من الحلمتين قطرات غليظة حين يكون الطفل قد شبع من الرضاعة. اليدُ نفسُها التي تَجُسُّ بطن المريض المتمدد على السرير باحثة عن أعراض مرض كانت تلاطف منذ اثنتي عشرة سنة تلك البطن المشدودة والمستديرة، تخترق تيارات قويَّة، المهزوزةَ بقلب طفل على وشك أن يُولَد، تُدرك برؤوس الأصابع تقوُّسها الكوكبي. من يدري إنْ كان طبيبٌ بوسعه أن ينسى من يكون، إنْ كان بمقدوره أن يترك خلفه مهنته كما يترك معطفه الأبيض في العيادة المظلمة ويمضي وهو يدوس الأرضية الخشبية المصقولة، بذاك اللمعان الذي للأشياء المستعمَلة كثيرا على امتداد كثير من السنوات، وحين يصل إلى الشارع يبهرُه الصفاء الصيفي الذي لايزال، مُجبِرا إيَّاه على وضع المنظار الأسود، وربَّما يتذكَّر أن زوجتَه قد اشترَاها له منذ سنتَين، منذ صيفين، من متَجَر الفندق نفسه الذي اشتروا منه فور وصولهم كل الضروريات المستعجَلة لأيَّام الشاطئ، ألبسة الاستحمام، النعال، المَرْهم الواقي من الشمس، قبعة للطِّفل بها شعارٌ الثعلب، كرة كبيرة تُنفَخ، خفيفة جدا حتى إن نسيم البحر يحملها دوما، منظار غطس ومِجذافي قدم للرجال الضفادع، لأنَّ الطفل كان قد قرَّر بغرور أنه سيُطبِّق معارفَ وافيةً، وإنْ كانت متخيَّلَة، عن الصيد البحري، اكتسبَها من فيلم وثائقيٍّ عَرَضه التلفاز.

الآن في الضوء الخافت بالعيادة يطفو شيء آخر لم أكُنْ قد رأيتَه حتى الآن، ليس على المائدة، ولكنْ على الرَّف حيث أجهزة الموسيقى، صورةَ طِفلٍ لا يزال في سنّ الطفولة، وإن كان عند نهايتها، على عتبة انتقال، طفلٍ بشَعر مرفرف وملامح دقيقة، يضع منظار غطس على الجبين، يضحك بعينين تغمزان، بآثار رمل على الأنف وعلى القُصَّة السوداء.

جهة الغرب، يمتدُّ الشاطئ في خط أفقيٍّ لا محدود، ينتهي عند البقعة البيضاء الغامضة لمنازل القريةِ، التي تَتَحلَّل في ضباب مضيء يمسح الحواشي ويُصيِّر الجيرَ والرمل يتباهيان في ضياء شمسي. فقط عند النُّور الأول للنهار أو عند حلول المساء تكون للألوان نصاعتُها الكاملة، وتتحدَّد أشكالُ الأشياء. جهةَ الشرق هضبة بريِّة ومقطوعة بشكل حادٍّ مطلَّةَ على البحر تَحُدُّ الشاطئ. بشمس الغرب تلتمع نوافذ الشاليهات الفارهة شبه المخفية بين لون الفطريات الأخضر ولون النخيل، وذات الأسيجة البيضاء العالية التي ينـدلق عليها اللون البنفسجي القوي لشُجيرة الغُنْباز. قيل لنا إنه في تلك المنازل يُصيِّف الأغنياء ذوى الملايين، خصوصا الألمانَ. في أسفل الجرف، وعلى صخرة كبيرة تظلُّ معزولة حين يرتفع المَدُّ، كانت هنالك مجموعةَ مكعَّبة من الخرسانة، وَحِصن له شيء من هيئة مشوَّهة وبشعة، لسرطان معدني في المنظر الطبيعي، جد مقاوم لهجمات البحر مثل الصخرة التي أُقيمَ عليها. لكن بعد آلاف السنين

سيغدو الحصن أيضا غبارا، ستكون هنالك ذراتٌ دقيقة رمادية ممتزجة بذرات الرمل، أو ستكون جزءا منه، مثلما الشظايا الضئيلة لزجاج قنينة، أو أجزاء صدفة أو صخرة. بالنسبة إلى الطفل، كانت مغامرة لا تُنسى أن يتسلق الصخرة نحو الحصن معتمدا على اليد القوية لأبيه، وأن يصل عبر ممر ذي أرضية رملية إلى الغرفة الداخلية، المُضاءَة بشعاعِ شمس مُغبَرّ ومائل تنزلُ من الفتحات الممتدَّة التي يقتضي أن تُطلّ منها المنظاراتُ الثنائية العينِ لجنود الحراسة وفوهاتُ الرّشاشات. عَبر شقٍّ يُرى بدِقّة، في الصباح الصافي، خَطُّ ساحل إفريقيا. كان يستمتع وهو يشرح لابنه بتفصيل واضح، ويلاحظ حركةَ الطفل وتركيزه ووداعته، يغبطه اهتمامه بكل شيء، وتأدبه في الإنصاتَ، والتي لم تكن متطابقة مع خيال أكثر ميلا إلى التفكير العميق. في سنة ١٩٤٣ كان الحُلفاء قد تغلّبوا نهائيا على الألمان والإيطاليّين في شمال إفريقيا، وكانوا يستعدون لاكتساح جنوب أوروبا: تأمّل كم كانوا قريبين لو أنهم رغبوا في النزول في ذلك الشاطئ، بَدَلًا من النزول في صقلية، تخيَّل الجنود الإسبان المساكين آنذاك المُغلَق عليهم في هذا الحِصن، منتظِرين أن تظهر البوارج الحربية الأمريكية.

رَجَعا وكان المَدُّ قد شرع في الارتفاع. فراخُ سَمَك شفاف تهرب بين قدميهما في الماء الصافي الذي يخوضان فيه، وهما يدوسان الآن امتدادا أملس من صخر كان يظهر في الرَّمل، والذي

كان بين الحين والحين ينزلق بطحالب ملتصقة، وأحيانا أخرى يُغطيه نوع من الطحلب الغامض والمساميّ، الذي يُليِّنه باطنُ الأقدام. كانت موجةٌ تتراجع ويبقى في تجويفٍ بالصَّخرة بركةٌ ترتجُّ فيها كائنــاتٌ ضئيلة، وينحني الأب وابنه على ركبتيهما لِيَرَيَاها عن قرب، منتقلَيْن من الزمن الحالي للوقائع البشرية إلى بُطء التاريخ الطبيعــي غيــر المفهوم. أجسام أوّلية تتجَرُّ من البحر إلى البرّ، وهي تغلي في بِرَك، وفي طَمي المستنقعات الكثيف والخصب، مُتضامّةً فيما بينهــا لكــي تواصل الحياة، على امتداد ملايين السنين، تطور أصــدافا، تروســا جيريةَ، قوائم وكُلابات تُخلِّف أثرا رقيقا على الرمل، ليس أقلّ محــوا من خطواتنا، ومن خطوات حياتنا، فكَّــرتُ بدراميــة، ودون كآبــة، رجُلا في الأربعين ونيف من العمر يتجوّل عبر شاطئٍ يمــسِك بيــد ابنه، في حال من السعادة الكاملة والهانئةَ، والشُكر، في وفاقَ عجيب مع العالم، في واحد من تلك الأمسيات الطويلة من بداية يوليو، حــين تكون الحرارة لا تزال لا تخنق، ويكون الصيف بَعْدُ هديَّــةَ ســالمة بالنسبة إلى الطفل.

تخلَّص من يده كي يغطس في الأمــواج، وهــو ابتعــد عــن الشاطئ وتقدَّم عبر الرَّمل الأحرّ إلى حيث كانت توجد زوجته، التــي ستوجد لها أيضا صورةٌ في العيادة في الظِّــل: الابتــسامة الواســعة والشفتان الدقيقتان، اللتان تكونان دوما قد لُوِّنتا بالأحمر منذ قليل، في ذلك المساء، في الشاطئ، كانت المنظار الشمسي يُشبه الذي تــضعه

الممثلات في الصُّور الملونة لسنوات الأربعين. يروقني أن أفكِّر أنها كانت تنظر إلينا من بعيد، إلى الطفل وإليَّ، اللذين يسهُل تمييزهما في الشاطئ شبه الخالي في هذه الساعة المتأخرة لكن التي لا تزال دافئة ومُضاءَة، حين كانت توجد حُفَرٌ صغيرة من الظل في آثار الخطوات وفي حوافّ التلال: الاثنان يجلسان القرفصاء، الرأسان متقاربتان، وهما يراقبان شيئا في لوحة ماءٍ لامعة تركتها موجةٌ حين تراجُعها، تأتي بعد ذلك من اليد في الشاطئ، الرَّجل النحيف والأبيض والطفل الممتلئ، الأسمر، ببقية شمس متأخرة على البَشرة البليلة، مع شيء من البطن الطفولية تتدلى على الشريط المطاطي لتُبَّان السباحة، مختلفان كثيرا عن بعضهما، يفصل بينهما أكثر من ثلاثين سنة، ومع ذلك فهما متشابهان في بعض الحركات حدَّ الإدهاش، متماثلان اشتراكا في المشية والرَّأسين المنحنييْن، وإنْ كان الطفل عن قرب هو الأكثر شبها بأمِّه، ليس في لون البَشرة وإنما أيضا في الطريقة التي يغمز بها عينيه حين الضَّحك، وفي ثبات الخدِّ، في اليدين، في الشَّعر المجعَّد والمرفرف في هواءِ البحر الرَّطب.

هنالك طعم ملوحة في فمه وصلابة أكثر ماديَّة في قبلاته، ميزةٌ أكثف في بَشرته حين يُداعبُها تحت تُبان السباحة المبلَّل طفيفا، في ظِلّ القيلولة، خلف الستائر المسدلة. الثديان والبطن لامعتان بيضاوان في البشرة السمراء الآن. يضع يدا على الزَّغب الأسود بين فخذيها ويتذكَّر ذلك الطُّحلب المبلَّل حيث كان يغوص بأصابعه إلى أن

يمسَّ السطح الأملس للصخرة في الضفَّة. كل شيء يحدُث على مهل، تَصعدُ الرغبة ببطء يشبه بُطء المَدِّ، الجسدان الاثنان أنهكهما الحــبُّ واستهلكهما، يلتصق الواحد منهما بالآخر بقوة، ويلتمعان في الظلِّ.

اعتقد في شبابه كان أصوليًا متــدينًا فـــي ميـــزة المعانـــاة والفشل، في بصيرةِ تعاطي الكحول وفي رومانسيةِ الزِّنـــا. الآن لـــم يكن قادرا على تمثُّل لأجل ذاته حبًّا أعمق من ذاك الذي كان يُحِــسُّه نحو زوجته وابنه، الذي يرى أنه يلفُّهما هم الثلاثة مثل جـــوٍّ أكثـــر ضيافة ودفئا من الهواء الخارجي، الذي يُدرك بموضـــوعية كحقـــل مغناطيسي. تدفق مشترَك، كروموزومات ممتزجة في خليـــة كبيـــرة أصلية، البويضة التي خُصِّبت مؤخرًا، رُضابُ الواحد يتقبَّله الجهـــاز الهضمي للآخر، لُعاب وإفرازات مهبليَّة، لعاب و مَني يلمَعان أحيانا في شفتيها، يذوبان في تيار دمِها المُغذي، امتزاج روائـــح وعـــرقٍ، تُشرِب الجِلد، والهواء، والملاءات التي يمكثان بعد ذلك نائمين عليها، خامديْن، بينما في الناحية الأخرى من الستائر المسدلة يـــأتي صـــياح وضجيج الأطفال الخائضين في مسبح الفندق، ومن مكان أبعـــد، لـــو أنهما أصغيا باهتمام ، لأتى الضجيج العاتي للبحر، والريح التي تجلد قِمَم النخيل.

نخيل متوحِّش كان عنوان الرواية التي كانت زوجته تقرؤهـــا في القطار، وتحملُها معها إلى الشاطئ في كيس كبير من القشٍّ. هـــو اعتادَ أن يحكي لها عن الروايات التي كان يقرؤها، وتلك الملخصات،

التي إلى جانب بعض الأفلام التي كانت تختارها هي أيضا، كانا يتوّجان بشكلٍ مرْضٍ اشتهاءاتهما الروائية. كان ما هو واقعيٌ يبدو له جد معقّد، ولا يفنى، وكلّه متاهات حتى في عناصره الأكثر بساطة، حتى إنه ما كان يرى من حاجة إلى تزجية الوقت والذّكاء في أشياء مُختَرَعة، إلاّ إذا جاءته مصفّاةً من قِبَل القراءة السردية لزوجته، أو أن تكون لها الأوّليات القديمة للحكايات. كان في علاقته بالفن حسّاسا جدا وتقريبا فقط مع الأشكال التي يشفّ فيها شيء من الوحدة التوافقيّة للطبيعة ومن نجاعتها الوظيفية، والتي كان فيها في الوقت نفسه شيء من الإيحاء بشططه المختلف عن التجربة والملاحظة الإنسانيتين. كان حساسا على الخصوص على الخصوص تجاه بعض أنواع الموسيقى ومع أنواع بعينها وفضاءاتٍ هندسية داخلية. كانت الأنقاض الهائلة للمعابد الإغريقية في جنوب إيطاليا أو لحمامات روما توقظ فيه شعورا مماثلا لذلك الشعور أحسّه أثناء زيارته للغابات الكبرى بإنجلترا الجديدة وبكندا. كان يعثر في شكلِ عمود عتيق، وفي تاج عمود مكسور، على رسالة هي في الوقت ذاته خفيّة ودقيقة مع الجلالة المقدّسة لشجرة، ومع التعريق والأشكال الحلزونيةَ، ومع التماثل الدقيق في صدفة بحرية. كان يُطلِع ابنَه على الخطوط الحلزونية لصدفة صغيرة من قوقعة وبعد ذلك، في كتابٍ لعِلم الفلَك، كان يُطلِعه على الخطوط الحلزونية المماثلة في مجرّة، وكان يمضي به إلىٍ حمّام ويطلب منه أن يمعن النظر في الخط الحلزوني الذي يشكله الماء حين يسقط من الصنبور في الثقب

المستدير لحوض الغسل. كان يتجسَّس على اللمعان المنتبه في ذكاء عينيِ الطِّفل السوداوين، اللتين كان لهما اللون نفسه والرسم المشقوق نفسه الذي لعيني أمِّه، وأنهما كانا مماثلين لعينيها في استعداد آني للتعبير، من دون رياء ولا حالات وسيطة، عن الروعة أو الخيبة، عن السعادة أو الكآبة.

لا يتذكَّر أنه سأل المريض في زيارته الأولى إن كان لديه أولاد. يُحتَمل أنه من أولئك الأشخاص الذين يحمِلون معهم مسحة زوجية وأبوية، ونوعا من الضعف المادي، ونوعا من الحُزن يبدو على الكتفين بفعل المسؤولية، وقلقا مصدره المرض أو سُهدا في انتظاره خلال ليالي الشتاء. كان جو الضعف، والتعَب العام الغامض ما حفَّزه على ارتيابٍ كان عليه في الواقع ألاَّ يأويه. لكن لا وجود لمظهر لا يُقحِم بصيغة أو بأخرى جزء من الخداع، ولا أيضا يوجد أحدٌ يمكن أن يُقال عنه إنه بمأمن من ذلك. بالطبع، هو لم يقل له إنه في تحاليل الدَّم التي سيصفها له سيكون هذا الاختبار حاضرا. لم يشأ أن يُفزعه، لن يقول على الخصوص، إن كان ذلك ممكنا، لم يرغب في أن يهينه. ربما كان سيقول له: من تحسبني، وأي نوع من الحياة تعتقد أني أعيش.

سيأتي في غضون دقائق، وسيلزم أن تُقال له الكلمات، اسم المرض، وأن يردِّد بحذر، وبلامبالاة إكلينيكية، وبتهوين الحروف الأولى. يلزم بالطبع إعادة التحليل، لكن دون أنْ يُخفي عنه أن هامش الخطإ الآن محدود جدا.

الكلمات نفسها التي قيلت مرات كثيرة، ودائما تكون محايــدة، ومع ذلك تكون فظيعة، الارتباك والخجل وكثير مــن الاحتــضارات المتوقَّعة والمتبوعة بمرارة عجز خاص لا يُخفَّف أبدا: ذلك شكل آخر للعدوى، تعب شبيه تقريبا بذلك الذي يعانونه هم، مثل ذلك الذي جلبَه إليهم في العيادة، انزعاج غامض ملحاح ولا تفسير له، استيقاظ عُقَد، في بعض الخلايا الخاصة جدا، لدى النزيل الساهي، الخفــي طيلــة سنوات، المذعِن كذلك لبعض الشّفرات الجينية، والتي لا يعرف أحــد حتى الآن فكَّها، مثلما لن تُفكّ شفرة الكثافة الأخيرة للمادة، وزوبعــة الأجزاء الصغيرة ولقوى مغناطيسية متناهية الصغر التي يُصنع منها كل شيء، ضوء شاشة حاسوبي وضوء المصباح المشتعل فوق مفتاح النقر منيرا أصابعي، الشكل المعدني الصلب للصدفة التــي ألاطفهــا الآن بالذات، وأنا أتذكر صيفا، أو صيفين كي أكون أكثر دقّة، صيفان متماثلان، ومع ذلك فهما مختلفان جدا كصَدَفتين مــن النــوع نفــسه تبدوان للوهلة الأولى متطابقتين، وبعد ذلك، ومع قليل من الملاحظة، يُكتَشَف أنه بالكاد يجمع بينهما شيء مشترك، باستثناء تشابه مجــرَّد ربما يكون في خيالنا المُصنف، وفي غريزتنا المُبسطة.

لن تسبح في النهر ذاته مرَّتيْن، ولن تعيش مرّتين الصيفَ ذاتَه، ولن توجد غرفةٌ متطابقة مع أخرى، ولن تدخل إلى الغرفة نفسها التي خرجتَ منها منذ خمس دقائق، إلى العيادة نفسها التي في الظــل التــي كنتَ فيها مرَّة واحدة، جالسا إزاء طبيب يتكلم بــبطء ويطــرح أســئلةً

صادمةً، ويوافق عند الإصغاء بانتباه كبير على الأجوبة، وهو يلاطف صدفَة بيضاء لديه فوق المكتب، على شِمال مفتاح الحاسوب، متوازية مع الفأرة، يلامسها خِفية بأصابعه الطويلة البيضاء والمشعرة بينما يبحث عن ملفّ، عن معطيات أفاد بها المريضُ الممرِّضة عبر الهاتف حين كلّمها للمرة الأولى طالبا موعدا.

كنّا ننظر انطلاقا من الشاطئ جهةَ الشرق، البيوت البيضاء المُثبَّتة على حد الأجراف أو شبه المخفيةَ بين كثافات أعشاب الحدائق، وراء أسوار من الجير عالية، بنوافذ كبيرة وشُرفات متَّجهة نحو الجنوب، في الخط الأزرق لشاطئ أفريقيا. لقد قيل لنا إنه في الأعلى، في السفوح ذات الصخور العارية التي لا تصل إليها النباتات، توجد مغارة ذات رسوم تنتمي للعصر النيوليتي وبقايا من توابيت حجرية فينيقية. استيقظت باكرا ذات صباح، وحين شرع الضياء في الانتشار، ارتديت خفيةً ملابسي وانتعلت حذاءَ الرياضيين، ساعيا إلى عدم إيقاظ زوجتي، وخرجت من الفندق عابرا الحديقة الجرداء، التي كانت تنعكس صورتها في ماء المسبح ذي اللّون الخبّازي والراكد. في المطعم، وفي ضوء غير مرغوب فيه لمصباح كهربائي، كان الندل الذين بكّروا كثيرا يهيِّئون صينيات الصُّوان، ويوزِّعون عبر الموائد الفناجين ولوازم السُّفرة، في صمت شبيه بصمت المسهدين. شعرت بعزم الرِّجلين، والراحة المتينة للحذاء الرياضي، الذي كنت قد مشيت به وجريت مئات الكيلومترات.

كانت برودة الساعات الأولى من الصباح تُخدِّر جلدي تحت القطن الخفيف للقميص التحتاني. شرعتُ في العدو ببطء، وأتنفَّس بلطف، لكن بدلا التوجه إلى الشاطئ، مثلما كنت أفعل كل صباح، جريتُ عبر الطريق التي تصعد عبر سفح الرَّبوة. وسريعا ما تعبت لأن العقبة كانت مرتفعة جدا، وواصلتُ ماشيا. كنتُ أرى عن قرب تلك المنازل التي كنا نراها من الشاطئ، كانت لا تزال مهيبة، ومحمية بأسوار مسننة بزجاج مكسور، وبمنبِّهات شركات الأمن، وبكلاب كانت تنبح علي لمروري من وسط الحدائق، والتي كانت تخبط رؤوسها ضد القضبان المعدنية، كانت تخدش أصول السياج وتدسَ خطمها، تتشمَّمني، تعوي. وباستثناء نباح الكلاب واحتكاك خطواتي بالحصى، كان الشيء الوحيد الذي يُسمع هو الطقطقة المتواترة للمِرَشَّات، التي تسقي مساحات من العشب غير مرئية، كان يصل إلي منها الرائحة الكثيفة للعاق والتراب المسمَّدِ جيدا والمبلَّل.

كنت أميِّز أحيانا، خلف قضبان شُباك ما سيارةً كبيرة وألمانية، ذات هيكل مفضَّض. كنت أتجاوز منعطفا فيبدو أمامي، جهةَ الأسفل دوما، امتداد الشاطئ والبحر الذي يصيب بالدوار: الفندق كنموذج على مقياس خريطة أو إحدى تلك التصميمات المقطَّعة، التي كانت تروق لابني حين كان أصغر، واللون الأزرق للمسبح كما في البطاقات البريدية، وخطّ النوافذ. خلف إحداها كانت زوجتي لا تزال غارقةً في نومها في هدوء وفي الليل الذي تصونه الستائرُ المسدلة.

لكني لم أفلح في العثور على الدرب الذي يقود إلى القمة، نحو المغارة التي توجد بها الرسوم النيوليتية. غادرت الطريق الإسفلتي، وفتحت لنفسي طريقا بين الأعشاب المتشابكة، التي اعتقدتُ أنها تدل على طريق. وحين اعتقدت بأني تائه وصلتُ مجددًا إلى الطريق الإسفلتي، الذي غدا يضيق بين صخور وأدغال، وينتهي فجأة أمام سور وبابٍ معدنية عالية جدا، مطليَّة بلون أخضر فاقع وعسكري. كانت كلاب تنبح وتعوي خلفها وتهاجمها بقوة، حتى إن صفائحها المعدنية كانت ترتعش. تعرّفت الشرفات العالية للبيت، والنوافذ الكبيرة ذات الأقواس التي تُرى من الشاطئ، والقمة العُليا في الرَّبوة. وكانت لافتة توجد إلى جانب الباب، في لوحة من رخام، كُتبت بحروف غوطية: بيرغوف. لقد قرأتُ هذا الاسم في مكان ما، في كتاب، لكني لا أذكر أي كتاب يكون.

استدرت، وما عدتُ أواصل البحث عن الدرب الذي يقود إلى المغارة ذات الرسوم. كنت تَعِبا وقد تأخّرت جدا. حين عدت إلى الفندق كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحا بعد، لكن الحرارة كانت قد شرعت في الارتفاع، وكان أوّل السياح الألمان، الذين غدوا حُمرا بفعل الشمس والمتخمين بمأدبة الإفطار، قد بدأوا يشغلون أفضل المَدَّادات، ذوات الرءوس المائلة والواقعة جهةَ الظِّل. كان الليل لا يزال متواصلا في غرفتي التي تركتها عند الخروج ساعات من قَبلُ. فتحت البابَ في كتمان، وسمعتُ في الظُّليل تنفُس زوجتي

وشممتُ في الهواء الأكثف مما هو عليه في الخارج الروائح المشتركَة لحيواناتنا، التي جلبناها معنا إلى غرفة الفندق. جلست على السرير، إلى جانبها، كانت ترتدي المشد فقط وتنام على جانبها، متكومة شيئا ما، ومعانقة الوسادة. حين أراك عاريةَ أتذكّر الأرض. أبعدْتُ عن وجهها شعرها، وحينئذ رأيتُ أن عينيها كانت مفتوحتين وكانتا تبتسم لي. تذكَّرتُ تلك الكلمة: بيرغوف.

تمنَّيت أن أحتفظ بكلٍّ تفاصيل تلك الأيام من يوليو باليقين نفسه الذي حين ألاطف به الصَّدفة البيضاء على مكتب العمَل: وزنها الخفيف في راحة اليد، في الداخل الناعم جدا، الذي مع ذلك تُدرك الأصابعُ الخطَّ الواضح لأخاديده، وعدم انتظام حافته الخارجية الملتوية ربما بفعل اصطدام عنيف ضد صخرة، منذ زمان بعيد.

كل شيء يحتفظ بالتفاصيل الصغرى مصونة، التفاصيل الأساسية، لأنه لو نقص واحد منها فإن التوازن العام للأشياء يمكن أن ينهار. في موسوعتي المدرسية ورَدَت قصة كيف أنه بسبب حدوة، بسبب مسمار حدوة ، ضاعت مملكةٌ برمتها: لقد أرسل الإمبراطور رسولا على فرس ليبحث عن مساعدات، لكن الحصان لم يمكنه الرّكض جيدا، لأنه كان بحدوته مسمارًا غير مُحكَم، لقد عثر فسقط الرّسول ومات، أو ببساطة لم يصل في الوقت المناسب ليُنجز مهمته. كثير من الحظوظ الصغرى كانت تنقص كي يتمكن باو كَاسَالْس من العثور في كشك أوراقَ قديمة ببرشلونة على متواليات

بَاخ للفيولنشيلو. تلك الصدفة التي سحبتها موجة منذ عـام أو منـذ مائتي سنة، وقد اصطدمت بقوة ضد صخرة كسرت منها جانبا مـن حافتها الخارجية، تاركة إيّاها بعد ذلك مدفونةً في الرمـل الأبـيض لشاطئ يضيع فيه النظر عند الأفق الغربي، كي يتسنى لِأرتورو فـي مساء من يوليو العثور عليها، وكي يكون لها الآن أن تكون عنـدي هنا، في متناول يدي، التي تتعرَّفُها على أنها جزء من الإرث العائلي لحاسة اللمس، بجانب البلاستيك المُجوَّف لمفتاح الحاسوب، وخـشبِ المكتب الخشن والقوي، وخزفِ فنجان القهوة، والورقَ الذي يلمع في ضوء المصباح، والذي فيه كُتِبَتْ أشياء ستكون غير مُشفَّرة بالنـسبة لأيٍّ كان، حتى بالنسبة إليَّ أنا نفسي في بعض الأحيان: حروف خطِّ طبيب، يقول الكبار، يُفزِعها الأطبـاء، حـروف لكتابـة وصـفات وتشخيصات، ولتوقيع ورقات التحاليل.

لا وجود لصيف واحد، وإنما لاثنين، لكن لا يمكن أن يوجـد صيفان متماثلان، لا وجود لاختلاف حاسم جدا مثـل الـذي يُـدركَ بالكاد. اختلاف كروموزوم واحد بين أربعة وعشرين كروموزومـا لتحديد إن كان سيكون المخلوقَ أنثى أو ذكرا. الاختلاف بين الحيـاة والموت لذلك الإنسان الذي سيدخل إلى العيادة بين لحظة وأخرى، إنه فيروس أقامَ بطريقة غير مرئية داخلَه خلال سنوات لا يُعرَف عددها، وفجأة بدأ يتناسخ، ويتضاعف، ويُسمِّمه دون أن يَنتبه هو إلى ذلـك، دون أن يلاحظ أيَّ شيء آخر سوى تعب غامض لا يُقـاوم، شـيءٌ

حذره الطبيب لكنه لم يتمكن من الانتباه إليه في وجهه الذي يعبر عن وجه رجل معافى حتى الآن، وحين جسّ ما في بطنه من أعــضاء لا تزال سليمة.

تخيّل أنه يكلّم شخصا، أو صديقا، يحكي له تلك القصّة، وهــو الذي ليست له عادة الثقة في أي شخص سوى في زوجتــه، قــصة الأصياف، والصيف الثاني، صيف الإعادة والعودة سنتين بعد ذلــك. إن كان هنالك شيء أحنُ إليه حقيقة فلــيس هــو الطفولــة، وإنمــا الصداقة، المودّة المتبادلة التي كانت تجمعني بأصدقائي في الخامــسة عشرة من عمري أو في العشرين، القدرة على التحادث طيلة ساعات وأنا أجوب مدينتي الخالية في ليالي الصيف، وأن أحكي بدقة ما كنت عليه، وما أرغب فيه، وما أكابده، وألا أفعل شيئا آخر سوى أن أتكلم وأسمع وأن نكون معا، لأنه في كثير من الأحيان كان ذلــك الــشيء الوحيد الذي بإمكاننا فعله، نظرا لقلّة المال كي نذهب إلى حانة أو إلى سينما أو إلى محل البلياردو، الصداقة الخالصة الوضوح، اليدان فــي الجيبين الفارغين، والرءوس غارقة بين الكتفين ومتقاربة في تصرّف يدل على المسارّة والتآمر. أفتقد كثيرا حياءَ الحنان الذكوري، التــأثر بأن تشعر بأنك مقبول ومتفَهَّم، وعدَمُ التجرُؤ على التعبير عن الشكر لهذا الحنان الكثير: الرفقة الرجولية المفزعة، البوح المتبجّح أو التقاء الغمزات المسيلة للُعاب أمام امرأة مُشتهاة.

تخيّل أنه يحكي، وأنه يحتفظ بصديق منذ أزيد من ثلاثين سنة، وأنهما واصلا معا وحافظا على الوفاء ذاته لآنذاك، الذي قوّاه وحسّنه

مرور الوقت، وكل ما تعلّماه في حياتيهما بما في ذلك الخيبات. يتخيّل صديقا، يختلقه مثلما كان يختلق أصدقاء حين كانت لديه اثنتا عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة وكان يجد نفسه وحيدا في كل مكان، مع عائلته، وفي المدرسة الجديدة التي أُرسِل إليها، في تلك السّن الغريبة التي ليست هي الطفولة وليست المراهقة أيضا، أو الفتوة، مثلما كان يُقال آنذاك، للأسف أن كلمة جميلة جدا ودقيقة جدا مثلها ضاعت.

الآن، ابني الذي يدخل تلك المرحلة، يلج الفتوة أو المراهقة، ابني الذي تخلّى عن أن يكون طفلا وشرع في الابتعاد عني، دون أن ينتبه إلى ذلك، سيقول لصديقه، لو كان له صديق، إن لم يكن قد ضيّع الذين كانوا له بسبب البُعد أو الإهمال، سيقول في تشكك عميق وخفيف المرارة جعلته الأعوام حادا لديه، والذي لم تَسلم منه نواة أسرته الأقرب إلى قلبه فحسب، زوجته وابنه، ولربما أيضا، في جزء أحيانا، عملَه، ما يحدُث في الغرفة الظليلة، بالعيادة أو غرفة الدراسة، في ضوء المصباح، في الفضاء الذي يَحُدّ ويضيء وضوحَها غير الجارح، المدروسة بعناية لكي تحوي وتوحي، كي تبرز فيها أشكالُ حضور متغيّرة، كأنها مُستحضرَة، مبتكَرة، وتقريبا غير مرئيّة من واحدة لأخرى: الطبيب والمريض، الصديق الذي يظهر دون سابق إخبار والذي يكون رائقا استقبالُه وسهلا وملطِّفا للنفس أن تحكي له شيئا، ولو أن المرءَ يعلمُ أن الكلماتِ ليست دقيقة وأنه يَحسُن اختيارُها

بحذر لتنقل إليه تجاربُ معيَّنة كاملة، كي تُصيِّرَ هكذا مفهومةً، نقيَّـــةً من الضَّبابِ الضَّار، من غموض الكآبة المضطرب، من ذاك المبـــدأ المُعدي للشفقة الذاتية التي تندسُّ في الذكرى غيرِ المُتقاسَمة، ويُجتَـــرُّ في عزلة الانتظار، في العيادة، حاضرا كخِدَاع صامت حـــينَ عُـــدتُ إلى بيتي، وتُلاحظ زوجتي أني ساهِم، وتسألني هل بِكَ شيءٌ، وأنـــا أقول لا شيءَ، تَعَبُ العَمَل، الإلحاح الجائر للمرض في تلك الوجـــوه الجديدة التي تظهر كل يوم، وجوه للذين وصلوا مؤخرا إلى الناحيـــة الأخرى من الحدود، لمُبْعدين حديثا.

عدنا هذا الصيف، يحكي، قد يحكي لو عثر على من يُـــصغي إليه: أمضيتُ سنتين أتذكر تلك العطلة، على صيغة ابني نوعـــا مـــا، الذي يجد أن كل شيء جدير بالتذكر، بتلك القدرة الرائعـــة للحمـــاس غير المُميَّز لدى بعض الأطفال. أمضينا في ذلك المكان عشرة أيـــام فقط، وبالكاد قمنا بشيء آخر غير السباحة وأخذ حمَّامـــات الـــشمس، والقراءة متمدِّدين في الشاطئ أو بجانب مسبح الفنـــدق، أو الخـــروج أحيانا في سيارة كراء للعشاء، أو التنزُّه عبر القرية. كنـــتُ أســـتيقظ باكرا، وكنت أعدو دون إرهاق كيلومترات علـــى رمـــال الـــشاطئ الصلبة، بعد الجَزْر قريب العهد، الرمال جاهزة ولامعة مع الـــضياء الأوَّل للشمس. كان يروقني أنْ أعود إلى الفنـــدق وأوقـــظ زوجتـــي وابني، وأن أفطر معهما بجانب نافذة المطعم الكبرى، الذي يطل على نخيل الحديقة. كان في كلِّ شيء نقوم به كمالٌ مطلـــق، وأنـــا كنـــتُ

واعيا به في الآن نفسِه الذي كنتُ أعيشه، لم يكن ينقُصنُني غربال التذكر كي أزيِّنَه. كان بيننا نحنُ الثلاثةَ وفاقٌ يتجاوب مع جمال العالَم الخارجي، مع البدر والريح الغربية في الليلة الأولى التي نزلنا فيها إلى الشاطئ، وتعانقنا نحن الثلاثة لِنتّقي الرطوبةَ الباردة جدا، في نقاءِ شكل صدَفة أو طعْمٍ ورائحةِ سمَكٍ مشويٍ على الجمر الذي كنّا نتناوله في شرفة بجانب البحر. كان كل واحد منا يتحقّق في ذاته بحدَّة، وهذا التفرُّد بالضبط كان ما يربطه إلى الاثنين الآخرين، إلى كل واحد بطريقة فريدة ومختلفة، بما أن الحبَّ نفسَه ما كان يلفُنا نحن الثلاثة. زوجتي وأنا، ابني وأنا، زوجتي وابني، كان ابني ينظر إلينا حين كنا نقوم بمُداعبة، وزوجتي تنظر إلينا، إلى الطفل وإليَّ حين كنا نتمشى برأس مُطأطأة عبر الشاطئ، باحثين عن أصداف وسراطين، أنا أنظر إلى الطفل حين كان يهيل رملا على قدمي زوجتي، بين الأصابع بأضافر مصبوغة بالأحمر، على ظاهر القدم والكعبين.

نبرات مُحلّاةٌ بالصُّوَر الآنية والهشّة لكاميرا بُولَارويْد، حيث كلُّ شيء فيها كان يبدو أنْ قد حدَثَ مصادَفة، دون سبق إصرار، وتقريبا دون تخطيط، وبيُسر الحياة اليومية.

يعودون إلى الفندق نفسه عامين بعد ذلك، في الأيام نفسِها من يوليو، مع الأمسيات التي تمتد في بطء مُذهَّب إلى غاية ساعة العشاء: كل شيء متماثل، ومع ذلك، فإنه يكتشف أنه يتجسس على نفسه بحثا عن خلل ما في التكرار الممتع لمشاعره التي تعود إلى

ذلك الحين، قلِقٌ، وإن كانَ بشكل ماكر، خامـد الهمـة دون مُحفـزٍ، مجروحا بالعوائق التي يَعْلم أنه لا يلزَمه أن يُعطيَها أية أهمِّيَة، الغرفة التي لا تطل هذه السنة على البحر، وإنما على سـاحة داخليـة ذاتَ نخيل، وعلى نوافذ أخرى، ريحٌ شرقية بالكاد تسمح لهم بالذهاب إلى الشاطئ في الأيام الأولى، تثير امتعاضَ ابنه، الذي يُغلق على نفسـه غرفتَه في تجهُّم، مُمْضيِا ساعات وهو يتفرج على التلفاز. الآن لديـه ثلاث عشرة سنة، وهنالك ظِلُّ شارب يُصيِّر شفتَه العليا قاتمة. ودُون أن ننتبه ها قدْ فقَد صوتَ الطفل، دون أن نلاحظ أنه كـان يتغيَّـر، وذلك الصوتُ الفريد اختفى من العالَم، لن نسمعه أبدا بعْدُ. لـم يَمُـرَّ سوى صيفين، لكننا تأخرنا كثيرا في العودة، حتى إنه الآن ما عادت العودة ممكنة: عامان من عمرنا ككَهْلين ليْسا بشيء، لكن بالنسبة إليه هما يُمثِّلان قفزة من وجود لآخر، وقت تحوُّل لا يقلّ جذريـة عـن تحوُّل يرقة إلى فراشة. عيناه الكبيرتان الغامزتان بضحكة، بالحركـة ذاتها التي لأمّه، إنهما لا تنظران الآن مثلما كان في السابق، أو على الأقل ليس كما هي العادة. تنظر في عينيه، ويبـدو لـكَ أنـه لـيس حاضرا، أو أنك لن تعثر على ذاتك فيه، تريدُ أن تبحث عنه فتجدُه قد مضى، وإن كانت تلك المسافة تحدُث من مساء إلى آخر فقط، كمـا في ومضات الاستغراب أو التنبيه، ويلْزمُ أبًا أنْ يتمالَكَ نفسَهُ كـي لا يُحسَّ بإحباط مُراهِق مُستاء، شكل لمرارة لم يعتقد أنه سيَحتفظ بهـا مصونةً في دخيلته منذ كانت له السنُّ التي يدخلها ابْنه.

ربَّما أنه لم يفقد شيئا حتى الآن، لكنَّه يكتشف الآن ما كان يجهله منذ سنتَين، الخوف من الخسارة، الارتباك من احتمال أن يغدو ابنه مجهولا لديه، كأبناء كثير من الآباء الذين يعرفون، هم رجال في عُمُره نفسه، من نوعه ومن مهنته والذين من بينهم، مع ذلك، لا يوجَد أيٌّ ممَّن يمكن تسميته حقيقةً صديقَه، بالاكتمال المقدَّس الذي لتلك الكلمة. لكن الفتى له الآن أصدقاؤه في مدريد، وهو يفتقدهم، تقول أمُّه مبتسمةً بلُطف يحسُدها عليه، بصرامة يرتَهن هو إليها كي يستسلم تماما إلى اليأس. أنتَ لا تنتبه إلى أنه الآن لم يبق طفلا، أنه سيُقفِل قريبا أربعة عشر عاما. كان عليكَ أن ترى كيف كنتَ حينما كنتَ في مثل عمره.

إنه يراقب، ويتجسس عليه، بالعناية نفسِها التي يفحص بها وجهَ مريض، أو يجسُّ بطنَه، أو يدرُس تنفسه في السماعة باحثا عن أعراض ذلك المرض، التي يعرف أنها قابلة للضبط، الإخفاق الماكر، كثافة الإحساسات التي كانت في مرَّاتٍ سابقة تتمدَّد رنَّات ملوَّنة، مثلما السأم أمام موسيقى كانَ يُستمتَع بها من قبلُ كثيرا، والتي الآن يُواصَل الاهتمام بها، التي يتصنَّع الحماس نحوها، وتقريبا يكاد المرء يُفلِحُ في أن يخدع نفسَه بها. وإن كانَ يُعرَف، في عمقَ لا يجوز الاعتراف به، أن ما يُرغَب فيه أكثر في هذا العالم هو أن تنتَهي تلك الموسيقى، كعودةَ إلى مدينة دون الإحساس الآن بالانخداع بها، وعدم امتلاك المرء لذاته كي يجعل نفسَه يعتقد أن الدِّفء السَّار للحظة هو مطابق لحماس الزمان الماضي.

ذات ليلة، بينما كان ينتظر أن تنتهي زوجته من تهيئة نفسها للعشاء، وبينما هي تتحدَّث إليه من الحمَّام، ماشطةً شعرها أمام المرآة، مجرِّبة قلمَ شفاه جديد، رأى أن امرأةً شقراء كانت مستلقية على السرير في غرفة بالناحية الأخرى من الساحة. هنالك مسافة كبيرة حتى يمكنه أن يميز قسماتها، وكي يُحدِّد إن كانت شابة أو إنْ كانت جذابة، أو إن كانت مجرد صورة لا مرأة يتبلور فيها سرابٌ ما قديم من خياله، الأجنبية الشقراء والحافية في ركاب قطار، لليلة قصية من بدايات صيف. تومئ، تفعل شيئا بيديها، تتحدَّث مع شخص هو لا يراه. يظهر طيف رجل في النافذة، يميل الرجل ناحية المرأة الشقراء، يَحْدُث شيء بطيء وغير جليّ، وهو يُدني الوجهَ من الزجاج راغبا في أن يرى بشكل أوضح، وفجأةً وهو مستثار ومدركٌ للحركة الإيقاعية والصامتة للجسدين خلف النافذة في الناحية الأخرى من الساحة، بفمٍ مُتيَبِّس كمراهق ملفوح بالجهل والرغبة.

استمرَّ ذلك لحظة، ثم أولى الزجاجَ ظهرَه حين خرجت زوجته من الحمَّام، وهو يخشى بشكل غير معقول أن يُفاجأ، ويُكتَشَف من قبلها، أو أن يحمَرَّ، وتسألَه هي عن السبب، فيحْمرَّ أكثر. جرَّب تأنيب الضمير، لكن هذه المرة لا إحباط، والشكلان في النافذة الأخرى يتلاشيان مثل مقاطع من حلم عند صفاء الاستيقاظ. لقد ارتدت زوجته حلة سوداءَ محكَمَة جدًا، ونعلين سوداوين بكعب عال، وقد كحلت عينيها، ولوَّنت شفتيها بأحمر جديد وأكثر نعومة، يتوافق

مع اللَّون الملوَّح لبَشَرتها، وتبتسم له مانحةً ذاتَها لرأيِه الذكوري، طالبةً موافقته. الآن يستسلم الجاسوس الحميم والمكدَّر، ولا يعثِر المفتش السريّ على أي ثغرة في نوعية شعوره الخاص، لا يميز شذوذ ملاحظة خاطئة، إحساسا متصنّعا جزئيًا، مفتَعَلا: سروره بالنظر إلى زوجته هو نفسُه الذي كان منذ صيفين، أو منذ اثنتي عشرة سنة، لم يُصبه أيُّ تَلَف بفعل مرور الزمن، لم يتلوّث بالعادة ولا بالتلاؤم. ينظر إلى ساقيها السمراوين والعاريتين، ويمكثُ مباغتا جدًّا بالرغبة كالمرة الأولى التي كان معها في غرفة فندق آخر، وهو ينظر إليها بكل الرغبة والحماس اللذين توقظهما النساء فيه دوما، من قبل أن يكون لديه وعي جنسي كامل، حين كان يخرج وهو في الثانية عشرةَ من عمره من المدرسة، ويظل ينظر مفتونا محدِّقا في تنوراتهن القصيرة الأولى، وحين كانت إحدى خالاته الشابات والجميلات تميل عليه كي تناوله الأكل، وكان يرى منها البَشَرةَ البيضاء والمرتجفة لنهديْها في تقويرة الفستان، معطَّرَةً في الظِّل، البشرة الناعمةَ لامرأة تتضوَّع الآن، ويتماسُّ معها، وينظر إليها معانقا إيَّاها، راغبا في أن يحُلَّ السَّحَّاب المسنَّن لفستانها، وأن يصعد عبر فخذيْها بملاطفة عجلى من اليدين، في هذه اللحظة نفسِها.

تشرع هي في الضحك، وترغب في إزاحته، مصانعةً ومنقبِضة، ومندهشة دوما من آنية الرغبة الذكورية. أنا ألطّخ وجهَكَ كلّه بقلم الشفاه، سنتأخر عن العشاء والولد ينتظرُنا. فلينتظر، يقول

هو، متنفساً عبر الأنف، بينما يُقبّل عُنقها، لكن حينئذ، وكأنه مُستدعى بكلماتِ الاثنين، يطرُقَ الولد الباب، يريد أن يــدير المقــبض، لكــن لحسن الحظ، كنا أغلقناه، سيمنحهما الوقتَ ليصلحا حالَهما، ليَظهــرا رصينين، وحين يخرجان، ينظر إليهما، بمسحة دفعت أباه، الذي كان بالمرصاد جدا، المتابع لأحواله، إلى الاعتقاد بحدس تعبيــرِ مُراقــبٍ حفيفٍ، أو ربما مستفهِم فحسب، وربما فيه نوع من الهُــزء، لمــاذا تأخرتما كثيرا في الإجابة عليَّ.

لكن، ولو أنه كان لديه صديق، فإن الخجل سيمنعه من حكايــة أشياء من ذلك الصنف، وأن يترك لأحد ما أن يُطــلّ علــى الجَمْــع المقدّس للثلاثة المجموعين هذه الليلة، الجمعِ الراسخ فــي المــصطبة نفسها، قُبالةَ البحر، التي تعشُو فيها في ليلة أخــرى منــذ صــيفين. التماعاتٌ سريعة لأضواء في العتمة، فيما وراء الــشريط الأبــيض للأمواج التي تتكسر على الرَّمل: حين يكون الهلال؛ تتكاثر الزوارق السريعة لِمُهرِّبي التبغ والحشيش، والقوارب المملــوءة بالمهــاجرين السرّيين الذين يأتون من الناحية الأخرى، من خطّ الظِّل القاتم، الــذي هو إفريقيا. إنّ التأمّل الجماليّ امتياز، وأكيد أنه تزويــر: الــشاطئ الساحر والغامض الذي نراه نحن هذه الليلة من مــصطبة المطعــم، الشاطئ الذي نستعرض فيه حكايات وأحلاما، ومغامرات كُتُب، ليس هو نفسُه الذي يراه حين يقترب منه أولئك الرجال المكدَّســون فــي قوارب يحركها البحرُ، على شفا الغرق والموت في المياه التي لا بئر

تمتلك عمقَها، فارّون ذوو بَشَرة سوداء وعيون لامعة، يتمسك كل واحد منهم بالآخر ليدفعوا عنهم الموت والبرد، لكي لا يحسّوا بأنهم لا يوصَل إليهم بعيدا عن تلك الأضواء التي بالضفة التي لا يعلمون إنْ كانوا سيصلونها.

يرُدُّ البحر بعضَهم متورِّمين وباهتين وقد أكلت الأسماكُ نصفهم. ويُرى بعضُهم انطلاقا من الطريق الإسفلتي، يَغْدون عبر الحقول العارية، يتخفوْن خلف شجرة، أو يلتصقون بالأرض الحصويَّة مذعورين وعنيدين، باحثين عن الطريق إلى الشمال طريقِ من سبقوهم، أبطالٌ مُضيَّق عليهم بسَفَر لن يتحدَّث عنه أحدٌ. حين يعودون ليلا إلى الفندق يجدون عربتيْن للحرَس المدني تُضيئان بمصباحين الكثبانَ القريبةَ من الطريق: بوجه ملتصق بالزجاجه الخلفي للسيارة ينظر الفتى إلى أضواء التنبيه الزرقاء التي تدور في صمت، وإلى الأشباح المسلَّحة للحرَس وهو مُستثارٌ كما لو كان يرى فيلما. كيف سيكون مختفيا الآن بالذات، في ليلة يحتجب عنها القمر، مُبلَّلا ولاهثا في قعر خندق، أو في مقصبَة بالمستنقع، دونَ أن يكون شيئا ذا قيمة، دون أن يمتلك شيئا، لا أوراقٍ ولا مال ولا عنوان ولا اسم، دون أن يعرف الطرق، ودون أن يتكلَّم اللغة، يفكِّر لاحقا، في السرير، مسهَّدا إلى جانب المرأة التي تنام مُعانقة إيَّاه، الاثنان مُرهقان، راضيان، تعبان مجدَّدا بسبب الشراهة العجلى للحُبّ.

يستيقظ باكرا جدا، مع الضياء الأول، يقِظا وخفيفا، لكنه لا ينهض حتى الآن، بالكاد يتحرّك حتى لا يكون عليه أن يتخلَّص من

عناقها. يعاين الحلول التدريجي للفجر كشاهد كتوم وصبور، يتناعس بعينين مواربتين، ويعود إلى فتحهما مباشرة، دون مجهود إراديٍّ كبير. للمرة الأولى منذ أن وصل في هذه الرحلة الثانية يحس بالحماس والشجاعة الضروريين لكي ينهض ويرتدي ملابس الرياضة. قبل ذلك كأنه علامة، تشجَّع على ذلك كأنه وعد تأكيد بأن الأشياء ستتكرر حتما، وأنها ستواصل الاستمرار على أنها متطابقة، حُبّ زوجته وحُبّ ابنه، الكمال الحقيقي لكل إحساس، هو قوي جدا مثل الرغبة في التوغل في ما هو عميق فيها. الذكرى حيَّة جدا وقوية حتى إنه نهض منتصبَ القضيب. كثيرا ما تكون لديَّ أحلام جنسية أحلُم أثناءها بالمرأة التي تنام إلى جانبي كل ليلة.

في تلك الساعة من الفجر تكون للألوان بضفة البحر خاصية واهنة، تلك التي لبطاقة بريدية قديمة، ألوان زرقاء، ورمادية، وخضراء، ووردية، ألوان لصورة شمسية ملوَّنة باليد. شرع يصعد عبر طريق الجُرْف بخطوات سريعة، نشيطا وبخطى واسعة، محرِّكا ذراعيْه بإيقاع منتظم، ملاحِظا عند عقبيْه القوَّة العضليَّة للصعود، والرئتيْن المتسعتين بهواء البحر، الجسد خفيف بكامله، إيقاعي، لا وزن له، وبفرح مادي لا أتذكَّر أني استمتعت به في شبابي. عند كلِّ منعطف يصعدُه تكون الهاوية أكثر إثارة للدّوار، ويتسع الفضاءُ الذي تُدركه العين إلى ما لا حدَّ له: طنجة في البعيد، باتجاه الغرب، خطٌّ أبيض في الزرقة التي لا ضباب يشوبُها، جبال الريف حيث لا توجد

قرى ذات سقوف مستوية، معلَّقة في الوهاد، مماثلة لقرى البُشرَّات في غرناطة.

سيارات كبيرة ذات صباغة فضيِّة ولوحات تسجيل ألمانية، نباحُ كلاب خلف أسيجة المنازل المعزولة بين أراض حصوية ونخيل. قيل لنا في الفندق إن الألمان وصلوا حين لم يكن أي شيء في الشاطئ، لا شيء سوى البطاريات المنصوبة ضد غزو محتمَل حدث في مكان بعيد جدا، أوّلا في صقيلية، في جنوب إيطاليا، ثم في نورماندي. بدأ الألمان في الوصول عند نهايةِ الحرب، حربِهم، واختاروا الناحية لبناء منازلهم وغرس حدائقهم في هذه السفوح التي تجلِدُها كل الرياح، التي لم يكن يصعد إليها أحدٌ حينئذ، والتي لم يكن بها شيء، وحْدَها هذه المغارة التي بها رسومٌ لأطيافِ سوداء لحيوانات ونبَّالين، وبها جِرارٌ مدفونة اكتُشِفَ، فيما بعدُ، أنه كانت بها هياكلُ عظمية لرحالة فينيقيِّين.

مضى، هذه المرة، عازما على ألاَّ يستسلم إلا إذا بلغ القمَّة، وبلغ إلى المغارة. قيل له إنه بعد تجاوز منعطَف معيَّن حيث توجدُ صنوبرةٌ كبيرة مائلة ناحيةَ الجُرف، عليه أن يترُكَ الطريق الإسفلتيّ، وأن يواصل مُقتفِيا طريقا ضيِّقا يرتفع بين كثافة نباتيَّة من اللَّاذَن وأنواع من الأكاسيا ذات أشواك حادَّة جدا وعناقيد زهور صفراء، حُكِيَ لي، أن بذورَها جاءت بها الريحُ أو الطيور من الضفة الأخرى للبحر، لأنها نبتة تنبت في الصحراء. لو كان لديه صديق لحكى له

أنه بمجرّد توغُله فيما يبدو طريقا، حتى انتبه إلى أنه قد أخطأ السير، لأن أثره كان يمحي فورا بين الكثافة النباتية. كـان يفـتح طريقـه بذراعيه بين الأغصان الخشنة التي تجرح بَشرته، بين أوراق شـجر اللاّذن الملتصقة، محاولا ألا يفقد الوِجْهة، وإن كان ما عاد يـرى أيٍّ شيء، ولو على بعد خطوات. كان يسمع البحر يخبط الجُرف، لكنه الآن لا يعرف أنْ يقدِّر أيَّ وجهة. كان يتعثّر في أغـصان محطّمـة كانت تجرح رجليْه، وكان يخشى أن تزلّ قدمُه، وأن يجد نفسَه، دونَ أن يعرفَ، قريبا جدا من الحافّة. لكن لم يكن لديْه من حلّ آخر سوى مواصلةِ السير، وأن يقاوم خمود الهمة بسبب التيه: سأصـل وشـيكا إلى مكان مُضاء، سأعثُر على صخرة من الصخور، سـأعثر علـى صخرة تبرز عليها النبات، وبالصعود فوقَها سيتضح لي الطريق.

كان يمضي مرتبكا جدا، منغمسا في مجهود فتح طريق بـين أحراج اللاذَن وتلك النبتة التي تنغرز أشواكه فيه مثل مناقير الطيور الكواسر، تأخّر في أن يفهم أنه كان يسمع نباحًا كثيرا وشرسا لكِلاب على مسافة أمتار، قريبةٍ منه، كلاب غير مرئية حتى ذلـك الوقـت، كان هنالك جدار مُكلّس وشاهق، يتوّجُه شريطُ أجزاء زجاج مكـسور وحادّ. تتبَّعَه دون أن يعثُر على أيِّ باب ولا نافذة، انعطف مع زاوية، وفي لحظة وقف مشلولا من الفزع والدوار، الجسد بكامله ملتصق مع الجدار الكلسي: بالضبط على خطوة منه كان هنالك الحـدّ العمـودي للحافة، وفي العمق السحيق وهَجُ الزَّبد وجؤارُه إذ يخـبط الـصخرة

التي تنتصب عليها البطارية. لو كنتُ قد ألقيتُ بنفسي منذ لحظة لكانت زوجتي وابني قد واصلا النوم، كل واحد منهما في غرفته، مَحْميان من ضياء النهار بستائر الفندق الصفيقة، بعيدا جدا، كأن الوقت لا يزال ليلا حالكا.

مكث ثواني طويلة ثابتا وملتصقا بالجدار الذي كانت تلفحه الشمس مُسلَّطة عليه، العينان مغمضتان، لا يجرؤ على فتحهما، أن ينظر إلى الحافة. ثم عاد على أعقابه، وعند ابتعاده عن الجُرف شرع يسمع مجدَّدا نباح الكلاب، التي يبدو أنها توقَّفت في اللحظة التي كان يوشك فيها أن يقتل نفسه. عاد الآن إلى البيت في الاتجاه المعاكس محتكًّا دوما بالجدار الكلسي الخشن، متقدِّما في الفضاء الضيِّق بين السُور واللاذن.

وصل إلى رحبة أمام الباب الرئيس للبيت، فجاءت ناحيته امرأة شقراءُ وبدينة تجري، تبكي وتصرخ وتقول شيئا بلغة لا يفهمها، ولا يعرفها في كل الأحوال بسبب نباح الكلاب. وقبل أن يرى الاسم في اللوحة المعدنية، تذكَّر أنه قد كان مرَّة أخرى في هذا المكان نفسه: بيرغوف.

فكَّر في البدء، وهو طائش البال، أنَّ المرأة تؤنبه لأنه اقتحم عليها إقامتها. لكنها لم يكن لديها مظهر سيدة البيت، وإنما خادمة، فاليدان اللتان رجَّتاه بهما بعنف بينما كانت تصرخ فيه بشيء، كانتا

يدين كبيرتين وحمراوين تدلّان على العمل المنزلي، إنهما كَيَدَيْ صبّانة أو طباخة من زمن مضى. كانت تصرخ وتجرُّه إلى البوابة المعدنية المواربة، التي كانت الكلاب تنبح خلفها. وفي مشهد طبيعي شبيه بالأحلام قَبِلَ بأن المرأة قد عرفت بأنه طبيب، وأنها تطلب منه مساعدة لكي يعتني بمريض.

لكني لست طبيبا. لكن لا يمكنها أن تعرف أني طبيب، لا يمكنها أن تكون منتظرة وصولي. منذ اللحظة التي دخل فيها إلى البيت، مجرورا باليد القوية للمرأة، تخيَّل ما يحدُث له، وأن يحكي ذلك لزوجته، هذا الصباح حين يعود إلى الفندق، جالسا في الفراش إلى جوارها، حاملا إليها حكايةً، كأنه يُهديها الفطور، مباغتةً ونادرة حدثت للتوِّ، لو ترَيْنَ ما حدث لي، ما رأيتُ.

يَعبُر مَقودا بالمرأة فناءً داخليا له أسوار بيضاء وبلاطة من مرمر، وأقواس ترتجف ستائرها الكتّانية يُرى خلفها البحرُ وساحل أفريقيا، تلك الأقواس التي رأيناها مرات كثيرة من الشاطئ، متسائلين من لديه حظوة العيش هناك. هناك نافورة من مرمرٍ وسط الفناء، لكن خرير الماء وصوت خطواتنا يمحوان النُّباح الذي لا يتوقف، إن الكلاب تغدو أكثر شراسةً كلما توغّلتُ في البيت، والمرأة تبكي صارخة وتحُكُّ اليدين ضد الصدريَّة المنتفخة، وتغدو أكثر شيخوخة كلما رأيتُها أقربَ، وأتعوَّد عليها: العينان الزرقاوان، الشعر الناصع لشُقرة جدٍّ واهنة، الأنف أفطس، والوجه مستدير أحمر، كل ذلك

يجعلُها تبدو أكثر شبابا، لكن الآن أنتبه إلى أن عمرها أزيد من ستين عاما، وكذلك أنها ترتدي ملابس المساعدة في البيت أو الساهرة عليه. استدارت نحوي بعينين مليئتين بالدموع، وطلبت مني بإشارات أن أخطو بسرعة أكثر. المكان برائحة توليفة أندلسية متقنة وألمانية، بشبابيك فخمة في كل النوافذ، والأبواب ذات كُوى معتمة. لكني أرى كل شيء بسرعة كبيرة، ضبابيا بسبب الدُّوار، وحين دخلنا إلى صالون حيث يوجد شيء على الأرض، أشارتِ المرأة إليه بحركات تفصح عن الرعب والتوسّل، وهي تبكي بفم مفتوح والدموع تنهمر على خدَّيها الذابلتين والمستديرتيْن، فإنَّ عينيَّ المتعوِّدتين على الضوء الشمسي تأخَّرتا في التكيُّف مع الظل، في البداية لم أميِّز أيَّ شيء، لم أرَ أحد.

الأنين أوّل ما سمعت، وإن لم يكن بوضوح، بسبب صُراخ المرأةَ ونباح الكلاب، التي يبدو أنها مقفول عليها قريبا، لأني أسمع خدوشها وضربات خطومها ضد لوحة معدنية، الأنين والتنفس الصفيريِ لرئتَي مريض، أسمَع ذلك قبل أن أرىِ الكتلةَ الملقاة على الأرض، رجل عجوز جدا، ملفوف في منامة حريرية، شاحب جدا، ذو شحوب في الوجه كثيف وأصفر، في تناقض مع اللون الأحمر الفاقع داخل فمه المفتوح ولون لسانه الذي يتحرّك بحثا عن الهواء، يتمدَّد مثل حيوان مائي معوجّ يصر على الفرارِ من حفرة حوصِر فيها، يضغط على حنجرته باليدين، وحين ملتُ عليه، أمسَكَ بإحداهما

تلابيبَ قميصي، العينان صافيتان جدا مثل الفم، صافيتان جدا حتى إنه بالكاد تُرى بهما لمسة للون الرمادي أو الأزرق. يجذبني نحوه بقوة جنونية، كأنه يتمسّك بي كي لا يختنق، كأنه يود أن يقول لي شيئا. أنا قريب من وجهه، حتى إني أرى مدامعه الحمراء والشرايين الدقيقة لكريات عينيْه وأسنانه الطويلة والصفراء، ويصلُني نَفَسٌ برائحة بالوعة. "بيتي"، يقول، لكنها حشرجةٌ أكثر منها كلمة، والمرأة التي تبكي وتلهث إلى جانبي تكرِّر الشيء نفسَه، تُحرّكني بيديه الكبيرتين الحمراوين، تستعجلني كي أقوم بشيء، لكن الرَّجل يمسك بي جاذبا إياي إليه، ولا يمكنني أن أتخلص منه كي أتسمَّع إلى قلبه أو كي أحاول القيام بتمرين لإنعاشه. إلى جانبه يوجد على الأرضية الخشبية القاتمة والصقيلة بقعةٌ بدا لي أنها للبول، لكنه شايٍ: كذلك يوجد فنجان مكسور وملعقة.

هذا الرجل يختنق، أقول للمرأة وأنا أفصل بين الكلمات، عساها تفهمني، وأشرتُ إلى هاتف، تَجِب المناداة على سيارة إسعاف. لكن ما أريدُه هو أن أذهب فورا، أن أفلتَ من هناك. أنْ أعود إلى غرفة الفندق قبل أن تستيقظ زوجتي. تمكّنت من الوقوف، وحين أطلقني الرَّجُل خمد تنفُسُه قليلا، وإن كانت عيناه الآن بيضاوين تقريبا.

فوقَ المائدةَ التي يوجَد عليها الهاتف توجَدُ رايةٌ حمراء صغيرة، بصليب معقوف في الوسط، داخلَ دائرة بيضاء. الآن فقط،

منذ أن دخلتُ إلى هذا المكان، وبينما أنتظـر جوابـا مـن هـاتف المستعجلات، أنظر حولي. توجدُ على جدار لوحةٌ زيتية كبيرة لِهتلر، يُحيط بها ستاران أبيضان، يبدو أنهما بمعقوفين. وتوجد فـي داخـل خزانة زجاجية مُضاءة حلة حربية سوداء بها شارة الأس أس علـى طيَّتي الصَّدر، وبها تمزُّق مُبقَّع بلون قاتم في جانب منهـا. وتوجـد صورة أدولف هيتلر في إطار وهو يضع وساما على صدر ضـابط شاب من الأس أس. ويوجد في خزانة زجاجية أخرى صـليب مـن حديد، وبجانبه يوجد رقٌ جلديٌ خطٌ بحروف قوطيَّة، وفيـه صـليب معقوف مطبوع بخاتم من الشمع الأحمر.

رأيتُ كل ذلك في ثانية، لكني لم يمكني أن أميِّز الكمَّ الفـادح من الأشياء التي تحيط بي، وتملأ الغرفة، وإن كانت هائلة؛ التماثيل، والصُّور، والأسلحة النارية، والقذائف النارية الحـادة والمـصقولة، والرايات، والزخارف، والنياشين، وثقَّالات الـورَق، والروزنامـات، والمصابيح، لا وجود لشيء غير نازيّ لا يكرِّمْ أو يحتفـي بـالرَّايخ الثالث. ما أدركه كخصوبة غامضة له نظام دقيـق ومرتَّـب شـبيه بالمتاحف. وأثناء ذلك، كان ذلك الرجل يواصل اللهاث على الأرض، ينادي عليَّ بصوت غليظ، يصدُر بالكاد عن التجويف الغائر لصدره، من فضلك[1]، وينظر إليَّ مفزوعا بعينيْه الحمراوين اللتـين لا لـون لهما عندما وضعتُ الهاتف وعدتُ إلى الانحناء عليه. اهدأ، قلتُ له،

---

(١) وردت هذه الكلمة بالألمانية في الأصل. (المراجعة)

وإنْ كنتُ متأكدا بأنه قد تعلَّم الإسبانية طيلة كل الأعوام التي أمضاها لاجئا بهذه الضِّفة. لقد ناديتُ على المستعجلات، وسيارة الإسعاف في الطريق إلى هنا. سال من ناحية بفمه لُعاب، وتنفُّسُه يلوِّث الهواء برائحة تشبه القصب. يجُسُّ صدري ووجهي كما لو كان أعمى، يطلب مني شيئا، يأمُرني بشيء بالألمانية. الآن، يتنفَّس بهدوء أكثر، لكن العينين تواصلان الاحتفاظ ببياض لونهما، والجفنان مواربان. أحِسُّ نبضَه في المعصم، عظم وبشرة وحزمة شرايين زرقاء، وتنغرس أظافره في ظاهر يدي.

حين سيعود إلى الفندق سيُطلِع زوجَتَه على الأثر الذي تركته الأظافر، كدليل على أن ماحدث له حقيقي، وما سيكون يحكيه لها بكثير من التخفيف عن النفس، وكذلك مع أثر من التأفُّف. يريد أن يذهب لكنه لا يستطيع، وإن كان لا يعرف إن كان واجبه كطبيب هو ما يبقيه في ذلك المكان، أو نوع ما من السِّحر المؤذي الذي لا يقدر على التخلُّص منه، كما هو حال أظافر الرَّجل التي تنغرز في يده، والذي ربما هو يُحتَضَرُ. الآن، يبدو كأنه قد أمضى وقتا طويلا في البيت، ويُقلقه الإحساس بالانغلاق، وببُطء الدقائق. ستكون زوجتُه قد استيقظت، ستكون تتساءل لماذا لم يَعُدْ بعدُ. هي لن تتسرَّع في القلق، ستستنفر حواسَّ إنذارها فجأة، بما لديها من ذاك الإحساس بالهشاشة والحماية اللتين تكنهما تجاهه، ستخشى أن يكون قد طرأ له مكروه. ستتجرح معه بسبب ذلك الهوس الذي لديه من الجَرْيِ والمشي عند

الفجر. ما نتشابَهُ فيه نحن الاثنان هو الخوف من أن ينكسر ما لـــدينا بغتةً، وأن تتحطَّم حياتنا. عليه أن يتحرَّر من يد العجوز، وأن يُهاتف الفندق كي يطمئنَها، لكنه لا يعرف الرَّقم، ويشعر بشيء يشبه حاجزا رائعا، إنه تلك المهمة التي تستهدف التأكُّد من إخلاصه لها.

عاد البؤبؤان في فتحة الجفنين إلى الظهور، وهما مركَّزان في ثبات عليه. أبْعد عينيه، وقام بحركة توحي بأنه سينهض، لكنَّ اليدين الضعيفتين والمقوَّستين أوقفتاه عاصرتين القميص ذا المَسامّ. يـــسمع التنفُّس، يشمّه، يستعيد الوعيَ بالزئير الرَّتيـــب للبحـــر عنـــد قعـــر الأجراف. وبين همس أو صلاة المرأة التي استمرَّت واقفة مثل تمثال روماني وثابتة، والنُباح الذي لم يتوقف ولو لحظةً، بدا له أنه قد طفق يسمع من بعيد كذلك مُنبِّه سيَّارة الإسعاف.

ثـرِبيـــر

يقتضي أن تكون رسالة السفارة الألمانية قد وصلت بعدما كُنا قد أمضينا أقلَّ من عام في البيت الجديد. نظـــرتُ مليًّـــا فـــي دامـــغ الطوابع، وكان عليه تاريخ شهورٍ قد خلت. كان العنوان الذي علـــى الغلاف قديما، كان عنوانَ مجموعة "بينتاس" السكنية تلك حيثُ وُلدتُ واندلعتِ بعدها الحرب مباشرة، وحين رأيتُ أبي للمرة الأخيرة، تماما في اليومِ السابق على دخول الوطنيين إلى مدريد، على الـــرغم مـــن أنني كنتُ وقتئذ جدًّ صغيرة، كي أحتفظ في رأسي بذكرى مـــا. لقـــد ظلت الرسالة وقتا طويلا تذهب من مكان لآخر، وقال لـــي ســـاعي البريد الذي سلَّمني إيَّاها إنه قد كلَّفه عناء كبيرا العثورُ علينـــا، لأنـــه حينئذ كان كل شيء في الحي جديدا، وكان كثير من الـــشوارع لـــمْ تحمل اسمًا بعدُ، وأحيانا لم تكن موجـــودة، لا شـــيء ســـوى أراض مكشوفة تنقلب إلى أوحال حين سقوط قليل من المطر. الآن تمـــضي إلى الحيّ، ويبدو لك ذلك كأنه كذب، كل شيء غايـــة فـــي النظـــام، ومُنتَه، الأشجار عالية جدا، كما لو أنها غُرِست منذ زمن بعيد، لكـــن وقتئذ، حين وصلنا، كانت الأشجار غريبة كأعمدة النُـــور، وكانـــت البنايات السكنية بعيدة جدا عن بعضها، تفصلها عن بعـــضها أتربـــة

متراكمة وأراضي البناء، والبادية على بعد خطوة. كما كانت هناك حقول قمح وبساتين، وقطعان غنم تمرّ بنا، ومن بعيد كان يمكن رؤية مدريد. مدريد التي تبدو لي الآن أكثر جمالا من أي وقت مضى، بتلك البنايات الشاهقة والبيضاء، كأنها عاصمة أجنبية من تلك العواصم التي تُرى في الأفلام. كان الناس يقولون، في تهكم، لقد ذهبتم للعيش في الضواحي، بيد أن ذلك لم يكن يهمني، بل كنتُ أوثرُه، كان يُعجبني أن أطلّ من شرفة بيتي الجديد، وأن أرى مدريد من بعيد، وأن أصل إلى مدريد على الدراجة النارية الجيدة لزوجي، وأطوق خصره، كأني أسافر إلى مدينة أخرى. للمرّة الأولى كانت لدينا غُرَف جيدة التهوية وحمّام، ماء بارد وساخن، وحين حملْتُ جلب زوجي إلى البيت آلة غسيل، وبعد ذلك بوقت قصير حصّل على رخصة القيادة، التي كانت بالنسبة لي آنذاك أهمّ من إتمام الدراسة الجامعية. ذات صباح، سمعتُ بوق سيّارة، أطللتُ من الشرفة، فكانت سيارة جديدة أمام البيت، سيّارة "دوفين" زرقاء ناصعة، وكان زوجي يسوقُها. كان قد دفع المُقدَّم وتسلمها، كما تسلّمنا البيت والغسّالة، لا شيء يُدفع سوى المُقدَّم، وكانت هذه الكلمة "المُقدَّم" تَخيفني، وتعجبني كذلك كثيرا، ولا تزال تبدو لي كلمة جميلة إن فكّرتُ في ذلك، لأن الإحساس الذي كان لدينا هو الشعور بالدخول في حياة جديدة، كما دخلنا إلى بيت جديد الذي كانت تفوح منه رائحة كلسا طريا، ونحن كنا قد جئنا من حيث كل شيء تفوح منه رائحة القِدم، البيوت، الترام، الملابس، الممرات، المراحيض في

المَسْطَحات، الخزانات، دواليب الخزائن، رائحة قِدَم ووَسخ، استعمال وقذارة. كل شيء كان صعبا جدا، خلال أعوام كثيرة كان كل شيء فيها قليلا، وفجأة بدا أنه يكفي أن يتمنى المرءُ شيئا كي يحصل عليه، لأنه كان يُسلَّمُ إليك بمجرَّد دفعك للمقدَّم فقط، كما سلِّمت إلينا مفاتيح البيت، وإن كانت عشرون سنة تتبقى كي نتمّ دفع ثمنه. في الساحة الداخلية للجيران في "بينتاس"، قريبا من ساحة مصارعة الثيران، كان كل شيء ضيِّقا، وصغيرا، وكان هنالك بشرٌ دائما، جارات الباب التي بجوارنا اللواتي يستمعن إليك، ولو لم تتكلَّمي بصوتٍ مرتفع، واللواتي كنَّ تحت أية ذريعة يشرعن في التلصص عليك ببيتك، بعضهن بسوء نية، وهكذا فأنا حين دخلت للمرة الأولى إلى بيتي الجديد في "موراتلاث" بدا لي شاسعا، وعلى الخصوص حين فتحت نافذة الصالون التي تنفتح على كل شسوع البادية، وعند البعد مدريد، كما في فيلم بانورامي وبكل الألوان. كل شيء جديد، مطبخي الذي ليس عليَّ أن أتقاسمه مع أي أحد، غسيلي الذي لا يتضوَّع بقذارة آخرين، غرفة حمَّامي بالزليج الأبيض، وأدواته الصحيَّة البيضاء حتى أنها كانت تتوهج نورا مشعشعا، نورٌ طيب جدا، وواضح، ليس كنور تلك المصابيح المسلولة التي كنا نستضيء بها حين كنت طفلة. كانت تتشكى، لأنها أمضت كل حياتها في "بينتاس"، ولم تستطع التعوّد على عدم الوجود قريبة من جاراتها ومحلّاتها التي ألفتْها، وهي كانت تضيع في الحي الجديد بمجرد خروجها، وكانت تقول إنها كانت كمُعوَّقة، وعلى عُهدة من يرغب في أن يجلبَها ويسوقها، لأنه

حينئذ لا المترو ولا الحافلة كانا يَصِلان إلى الحي، بل إن الحي نفسه لم يكن في المخطط الحضري لمدريد. لم أُحبَّ أن أُطلِعَ أمِّي على الرسالة، وبما أنها كانت ترتاب جدا فقد خرجت من غرفتها كي تسأل من يكون الطارق، وحين قلتُ لها، أنا الغبيَّة، إنه ساعي البريد، أرادت أن تعرف منْ كتبَ إلينا، لكني قلتُ لها إن ذلك خطأ، وأغلقتُ عليَّ الباب في غرفتي كي أفتح الرسالة على انفراد. كان قلبي يخفق خوفا، لأن الجوع كان قد رُفِع عنا، لكنِ الخوف كان لا يزال متغلغلا فينا، الخوف من كل شيء، من أن تحلَّ المصائب بنا مُجدَّدا، أنْ تُقتَادَ أمي مجدَّدا كما اقتيدت بعد الحرب، وتأخَّرت أياما كي تعود، وكانتْ جدتي تمشي إلى مخافر الشرطة وسجون النساء سائلةً عنها. كان أبي قد قال لها ذلك، إذا لم تأتي معي فستمرِّين بأهوال يكون أفضل لك حينها أن تشنقي نفسك أو تلقي بنفسك من شرفة، لكنها لم تشأ المغادرة، لم تُحبَّ مغادرة إسبانيا، وإنْ كانت تعرف جيدا ما كان ينتظرها، ليس بسبب قيامها بفعل ما، لأنها لم تكن تهمّها السياسة في شيء، ولم تكن تعرف لا القراءة ولا الكتابة، فقط لأنها كانت متزوجة به. كان عمري ثلاث سنوات حين انتهت الحرب، وحينَ حضر أبي ذات صباح إلى فناء "بينتاس" كي يأخذنا معه، ولا أتذكَّر أي شيء، لكني أتخيَّل المشهد جيدا، وأنا أعرف أمي، على ما هي عليه من عناد، وقد جلست في هيئة جدِّية جدا في زاوية، وتحنى الرأس، وما من أحد يقدر على زحزحتها، أتخيَّل أبي يتكلم ويتكلم قائلا لها إن علينا الذهاب جميعا إلى روسيا، راغبا في أن يُقنعها، واعدا إيَّاها

بأشياء، مبديا حُجَجا كما في اجتماعاته السياسية، التي كان يبدو فيها خارجا منها منتصرا، لهذا وصل إلى منصب عال. لقد كان ذا فم من ذهب، كانت جدَّتي تقول لي، لكن الوحيدة التي كان لا يُقنعها هي زوجته التي لم يستطع أبدا أن يسوقها إلى أية مظاهرة، الوحيدة التي لم تهتم بتجمّعاته وسياساته، ولم تكن تؤمن بشيء مما كان يَعِدُ به، ولم تكن تقدِّرُ أيَّ مَنصب من المناصب العليا التي كان يحوز عليها خلال الحرب، ولا تكترث بالنجوم التي كان يجلبُها في قُبَّعته وفي كُفَّة الكُمِّ. كان يمضي صباحا وربما يعود هذه الليلة أو خلال أسبوع أو شهر، يعود من السجن أو من الجبهة، متخفيا كي لا تعثُرَ عليه الشُرطةُ، أو مُرتَديا زَيًّا عسكريًّا، وهي لم تكن تسأله أين كان، وتُنصِتُ في صمت إلى تفسيراته، التي قد تؤمن بها أو لا تؤمن، والتي كانت بالتأكيد لا تفهمُها. الشيء الأكيد هو أنها كانت تضمن له البيت نظيفا دائما والأكل مطبوخا، وفي أحيان أخرى كانت تعالج بعض جروحه التي أصيب بها، أو تجهز له في وقت غيرٍ مناسب طبق كبير من الحساء أو فنجان من القهوة الساخنة كي تخفف عنه الجوع الذي يجلب معه، وحين ينقضي المال القليل الذي يكون قد أعطاه إيَّاها كانت تخرج إلى الشارع بحثا عن رزقها، تغسل الأرضيات، أو تبيع الماء في ساحة مصارعة الثيران حاملة جرَّةَ ماء طينية وقدَحا من القصدير، وإذا كان شيء ما ينقُصها كانت تذهب إلى الدِّير طالبة ملابس لأجلنا، وإن كان هذا تُخفيه بالطبع عن أبينا، الذي ما كان لِيَسمح بأن يقوم القساوسة بمساعدتنا. المرّة الأخيرة التي

رأيته فيها تقتضي أن تكون تلك الليلة التي جاء فيها بحثا عنًا، كـان شبهَ متخفٍ آنذاك، لأن الحرب إذا لم تكن قد انتهت فإنها كانـت قـد أوشكتَ على ذلك، وقال لأمّي بأنّ هناك سيَّارة تدور بالباب تنتظـر، كانت ستقلنا تلك الليلة نفسها إلى بلنسية حيـث سـنركب سـفينةَ، أو طائرة، وسنصل مباشرة إلى روسيا. وأنه هناك لن نعاني الجوعَ أبدا، وأننا سنتمتع بكل وسائل الراحة. لا أعرف كم من الأشياء ذكرها لنا، ولا كم من الوقت استغرق كلامُه معها، بينما كانت السيارة والسـائق بالباب، وكانت فيالق فرانكو وشيكة الدخول إلى مدريد، وكانت أمـي كأنها تنصت غير مكترثة، أتخيَّلها تماما، ترفض بحركة من رأسـها، وهي تنظر إلى الأرض، قائلة لا وألف لا، وأنه بوسعه أن يفعل مـا يشاء، مثلما كان يفعل دائما، لكنها هي وأبناؤها لن يأخـذَهم معـه، وخـاصة إلى روسيا البعيدة جدا، ربما كان الذهابُ سهلا، لكنْ مـن ذا الذي سيعود من هذا المكان البعيد. وكان هـو يطـوف بالغرفـة، ليست لديَّ أية ذكرى عنه، لكن يبدو لي أني أراه، طـويلا، وسـيما، يرتدي زيًّا عسكريًّا، كما في إحدى تلك الصُّور التي أُعطيت لي فـي السفارة، ثم مزّقتها أُمّي لاحقا إلى قطع صغيرة، وأحرقتها ضمن كتلة مع كل الأوراق، والرسائل، والرسوم، والوثائق التي كان سـيروقني الآن أن تكون لي صورة منها، وذكرى عن والدي، إذن ها أنا أتحلّل من كل ما قد يحدُث لك ويجري للأولاد، سيقول لها، وهـي تـنقض كوحش، كأنّك لم تتخل دوما من كل مسؤولية، أنتَ مـع سياسـاتك ومغامراتك وثوراتك، لو كان كل شيء يُتّكل فيه عليك لكـان أولادُكَ

الآن يتسوّلون في الشارع. أو سيكونون في روسيا يتغـذّون جيـدا، ويحظوْن برعاية حسنة، دونَ أن يمرُّوا بالعقوبات التي سيكون عليهم أن يمروا بها هنا بسبب عنادِكِ، لأنه في مرَّة أخـرى، حـين كـان عمري سنتين، كان أبي قد رغب في أن يذهب إخوتي الكبـار فـي إحدى تلك البعثات الخاصة بالأطفال الإسبان الذين كانوا يذهبون إلى روسيا، وكانت أمي قد رفضت أيضا، حكت لي أمي أني كنتَ نائمـة في الغرفة المجاورة، واستيقظتُ على أثر الصراخ، وخرجتُ باكيـةً، وحين رأيتُ أبي في البداية لم أعرفه، فالتجأتُ ممسكةً بأذيال تنورتِها حين رغب هو في معانقتي. لكن كانت هناك امرأة أخرى بالغرفـة، أحْكي لكِ ذلك وأنا أتذكَّرُه وأراه واضـحا كـأني أراه الآن، امـرأة طويلة، سمراء، قوية، جميلة، ترتدي لباسا أسود، كأنها فـي حـداد، كانت جارةً لنا، وكانت لها ابنة اعتنيْتُ برعايتها ذات مرة، وقد لعبت معي، ابنةٌ هي أجمل منها، وكذلك لها ولدٌ غضٌّ، كان قد أمضى عاما أو عامين في روسيا. حملتني المرأة بين ذراعيْها، وأجلـستني علـى ركبتيها، حكت أمي لي ذلك، وقالت لها، من فضلك، إذا لم يكن مـن أجلك، فعلى الأقل من أجل هذه المخلوقة التي لم تقترف ذنبا، كـذلك حكت لي أمي أن تلك المرأة كانت تهدهدني كي أنام، وكانت تغني لي تهويدة بصوت خفيض، بينما يواصل أبي طوافه عبر الغرفة ونقاشَـه مع أمي، في حين كانت المدافع تُسمَع في البعيد، لكن علـى مـسافة زمنية متباعدة جدا، لأن الحرب كانت في ساعاتها الأخيـرةَ، وكـلُّ شيءٍ كان قد خُسِرَ. وهل تعرفين من كانت تلك المرأة، كانت أمـي

تقول لي، وهي تخفض صوتَها، حين كانت تَحكي لــي أشـياء تلــك الليلة، كانت "لا بَسيونارْيا" التي كانت من نفس سياسية أبيك، وكانــت تحكي لي أن أبناءها صاروا يتكلّمون الروسية، وهم يوجدون بــألف خير في الاتحاد السوفيتي، مثلما سنكون نحن على ذلك لو ذهبنا إلــى روسيا. لم تنبس أمي ببنت شفة، كانت تَحني رأسَها، وتبقــى نــاظرةً إلى الأرض، وكان أبي يفقد أعصابه، التكلّم معــكِ كالتحــدُث إلــى الحائط. أنتِ ستكونين مسؤولةً عمّا سيحدث، كان يصرخ فيها، ويعود قائلا لها إنّه ينفض يديه، الأفضل أن تلقي بنفسك في بئر، لأن أولئك سيدخلون الآن ولن تأخذهم بكم رأفةٌ ولا شفقةٌ. وكان ذلــك حقيقــةً، لأنهم حلقوا لأمي رأسَها، وأشبعوها ضربْا مبرّحا، ليس لشيء سوى كونها زوجةَ شيوعي بارز، وأعمامي، أخوته، زجوا بهم جميعا فــي السجن، وأطلقوا الرصاص على اثنين منهم. وعند الليل، كانت تصل إلى أسماعنا في بيتنا طلقاتُ البنادقِ في المقبرةِ الشرقيةَ، وحين كانت الطلقات تتوقّف، كانت أمي وجدتي ترتديان معطفيْهما على رأســيهما وتذهبان مع أمهات أخريات للبحث بين الجثث إنْ كانت بينهــا جثّــة لفرد من عائلتنا. ذلك ما أتذكّره، لأني كنــتُ كبيــرةً قلــيلا، أتــذكّر المرأتين بالشالين الأسودين على الرأس، تذهبان عبر الشارع، وكنتُ لا أنام حتى يعدن، بعد أن تكون الشمس قد أشرقت، وأن ما لم أكــن قد رأيته أتذكّره أيضا، أرى الاثنتين في ضوء الفجر تتحركان بــبطء بين الموتى، تقْلبان منْ يكون قد سقط على وجهه ميّتــا كــي ترَيَــا وجهَه. ذهبت أمي بنا إلى القرية معتقدةً أننا ســنأكل هنــاك بــشكل

أفضل، وأنه سيُهتَمُّ بها بشكل أقلّ، لكنّنا فور وصــولنا تــمَّ إيقافُهــا وحلقوا لها رأسَها، وعوقِبتْ بمسح وكنس أرضية الكنيسة كل صباح طيلة عامين، وقاست كثيرا من البرد وهي تمسح الأرضــية وهــي منحنية على ركبتيها فوق ذلك البلاط، حتى إنها ظلت بقيَّــة حياتهــا تعاني آلام العظام.

لا حدود للحكايات غير المشتبه فيها، يمكن الإنصات إليها فقط بالاستمرار منتبهة قليلا، إلى الروايات التي تُكتَشفَ فجأةً في حياة كلّ واحد. وصلت السيدة حوالي الساعة السادسة مساء، ساعة الزيــارات القديمة، وجلَبَت معها جوًّا غير محدَّد زيارات ذلك الــزمن البعيــد، بهيئة ودودة، تبدو في العناية التي أمضتها كي تستعدَّ، وكــذلك فــي علبة الحلوى التي كان عليها أن تشتريَها، كتلك التــي كانــت أيــام شبابها. امرأةٌ في السبعين ونيّف من عمرها، ذات حضور دالّ علــى طبقة وُسطى ميسورة، وإنْ لم تكن مترفة، بها أثَر لحيويَّــة شــعبية تتجلّى على الخصوص في اتّقاد نظرتها، وفــي وضــوح علامــات حنانها. الآن هي لا تعيش في حيّها الذي عاشت فيه دائمــا، حيــث ذهبت للعيش بعد زواجها، وحيث كبر أبناؤها، وإنما في حــي آخــر أبعد، تقريبا في تجمُّع سكني بالضواحي، وعلى الرغم من أنه يُــرى أنَّ الشدة لا تَهزمُها بسهولة أيضا، يُلاحظ أنها كانت ستفــضّل عــدم التحوّل إلى حيّ آخر، وأن تغيير السكنى يُعزى إلى عدد معيَّن مــن الاضطرابات الكئيبة، لحسابات مريرة طرأت في السنوات الأخيــرة، تقاعد زوجها وشيخوخته، النقص في أرباحهما التي كانت في سنوات

أخرى جد وفيرة، وسمحت لهما بأن يتمتّعا بسيارات جيدة، ومـــدارس باهظة للأبناء، وأسفار إلى الخارج. لكنها قوية، يُــرى ذلـــك فيهـــا مباشرة، إنها امرأة كبيرة ومتينـــة، ذات نظـــرة صـــريحة، ويـــدين حيويّتيْن، واستعدادٍ متحمّس نحو العالم، ونحو المـــستجدات التـــي لا تزال الحياة تهديها إيّاها، عدم اكتراث زوجها، تقول، الذي خبت همّته عقِبَ تقاعُده، فلم يعرف كيف يتكيَّف مع غروب الأيام الجميلة، وهو ما أخرَجَها عن طورِها، لأنه بدا أنه يودّ أن يورِّطها في قِلّة ذات يِده، وأنّه يريد أنْ يحتفظ بها دائما إلى جانبه في الشقة الصغيرة الحاليـــة وفي حالة الحزن نفسِها التي لَزِمها هو، حزن وخيبة، وارتياب تجـــاه العالم، قَرَف ليس من السفر الآن، وإنما حتـــى مـــن الخـــروج إلـــى الشارع، وحنين إلى الأشياء المفقودة، والمالِ، والـــسنوات الخـــوالي، والرفاهية التي بدا أنها ستستمر إلى الأبد، والتي أفلتـــت مـــن بـــين اليدين، دونٍ أن ينتبه جيِّدا، دون أن تحدث أية مأساة فاجعة: الأشـــياء يُصيبها التلف ببساطة، والأزمنة تتبدّل، والمعاملات التجارية الطيبـــة تشرع في الخمود رويدا رويدا، وفجأةً يجد المـــرء نفـــسه متقاعـــدا، وعليه أن يعيش على أجرة المعاش، وتتقلص مدخراته تقريبـــا مثـــل حضوره الجسدي، ويرحل المال عنه كما يرحل عنه زمان الحيـــاة، ولا يُعرَف إلى أين.

هناك بقي، تقول هي، جالسًا على الأريكة، ذاك أكيد، بجانبـــه كظيمة القهوة، التي تركتها جاهزة له، وحين قلتُ له عن المكان الذي سأمضي إليه تحمَّس قليلا، وأعتقد أنه كان على وشك المجيء معي،

لكن الكسل تغلّب عليه، مع هذا البرد الذي يَحُلُّ عند المساء، فإن المرء لا يثق بالخروج إلى الشارع، يقول لي، كيف لا وعُمره ثمانون سنة، وقد تشكّى كذلك من بُعْد المكان حيث نعيش، ومن تأخُّر الحافلات في المجيء، ليس كما في السابق، حيث في خمس عشرة دقيقة تكون قد وصلت إلى وسط المدينة. دائما يتكلّم عن ماض، متذكِّرا الماضي، لكني أتركه الآن مع كلماته في فمه، ابْقَ هناك، ويعود يسألني إلى أين أمضي، كأنه يخاف من أن يكون المشوار بعيدا وأن أتأخّر كثيرا. ربما هو الآن قلِقًا، ينظر إلى الساعة، يطوف بالبيت مرتَديا لباس نومه ونعليه، ويشبه المريض، أقول له، لكنّه لا يكترث، ولا حتى يغضب، حتى طبعه فقَده مثل كثير من الأشياء الكثيرة كانت لديه.

تنظر إلى الساعة، ساعتها الذهبيَّة الصغيرة، دَلال أزمنة خلَتْ، كالأساور، والخاتم ذي الحجر الكريم في يدها التي لم تعد شابَّة، لكنها لا تزال تحتفظ بقوة جسدية. عليَّ أن أمضي، تقول، أن أكلّمه بالهاتف، لأنه سيكون الآن قَلِقا، لكنْ يغيظني أن أعيش متعلقة به كثيرا، لأني لو مكثتُ في البيت فسأختنق، وإذا خرجتُ فأنا لا أستمتع، يا له من عقاب رجُل. إضافة إلى أنه لا يمكنني أن أروِّح عن نفسي بأن أشتكي منه، لأنه لم يفعل أبدا طيلةَ أربعين سنةَ من الزواج ما يحملني على ذلك، كان حسن الخلق حتى إن ذلك يكاد يثير غيظي، وطيبا جدا حتى إني لو غضبتُ أو نفد صبري معه أُحسُّ مباشَرة بعد ذلك أنني مذنبة.

لكنها لا تريد أن تذهب، يُرى عليها أنهـا تـستمتع بفرصـة الزيارة، مع مزيج من الحنان والرضى الاجتماعي المتواضع، وعلى الرغم من أنه من السهل إدراك أنها ليست لديها عادة تنـاول الـشاي كثيرا، فإنها تتذوّقه مع كل رشفة، وتعتني بأن تمـسك بالفنجـان جيدا، وأنْ تحتفي بكل ما تعثر عليـه حولهـا، مـا تُقـدِّره عيناهـا الصافيتان المُشعَّتان، المتعوِّدتان على الحكـم علـى ثمـن الأشـياء وقيمتِها، الخزف الصيني لِطقم الـشاي، قمـاش الـستائر، الـورود الحمراء وسط المائدة. ربما تقارن هذا البيتَ ببيتها، لكـن إن كـان الأمر كذلك فإنها تقوم به دون استياء، بل بالأحرى بدافع الاحتفـاء. وكما يوجد أشخاص حزينون يكون حضورُهم مثل ثقـوب سـوداء تمتص أي ضوء يكون بقربهم ويُطفئونه دون أن يستفيدوا منه، يوجدُ أشخاص آخرون يعكسون في ذواتهم أيَّ صفاء قريب، ويُشعُّونه كأنَّه صادر عنهم. آه، يا ابنتي، كم كان هذا البيتُ سيَفْتِنُ أمَّكِ، لو تمكّنـت من رؤيته، لو أنها لم تمت مع أنها كانت جدَّ شابة، هذه المـرأة ذات السبعين سنة التي عاشت أزمنة أفضل تَروِّح عن نفسها بالشباب الذي تجِدُه قربَها، في فضاء البيت الأكبر كثيرا من بيتهـا، فـي الخـزف الصيني والورود التي لا يمكنها الآن دفع ثمنها، ولوْ نظـرت إلـى لوحةَ فنيةَ تَذهِلُها وهي لا يمكنها أن تعلّقها في بيتها، أو تذوق شـايا يابانيًّا يبدو لها غريبا مُرا، فإن إغراء الفضول أقـوى مـن غريـزة الرفض الطبيعية. بالكاد ذهبت إلى المدرسة حين كانت طفلة، لكنهـا كانت تبدو امرأة رزينة مثقفة، وإذا كانت قد عاشـت فـي سـنوات

الستينيات فترةَ شباب موصدةً عليها في البيت خادمةً لزوجها والأولاد، فإن لديها الجرأة والجأش كي تخوض معترك الحياة على انفراد. تقرأ كتبا، تعجبها السينما كثيرا، وقضت سنوات تحضر دروس المدرسة الليلية. أتذكّرُ أمّك، الغيظَ الذي كان يتملّكها أننا كُنّا متعلّقتين بزوجينا، والإصرار الذي كان لديها كي تدرُسا أنتِ وأختك، كانت ذكيّة جدا، وكانت تنتبه إلى أن الأزمنة ستتغيّر، ولهذا كانت تشعر أيضا بمزيد من الحزن بأنها ستموت، وأنها لن تراكما أنتِ وأختك وقد صرتما امرأتين راشدتين ومستقلّتين، ولستما مقيّدتين مثلنا، مثلما عشنا دائما هي وأنا.

تأخذ بحذر رشفات شاي، تتذوّق الحلوى التي أحضرتها هي، ليس بدون تأنيب ضمير، لأنها تخشى أن تصبح بدينة، تتحاور في جدل حول الأفلام أو النميمة الاجتماعية، تنظر إلى الساعة وتقول بأن ساعة الذهاب قد حانت، أشياء كثيرة لديكم أن تفعلوها أنتم، وأنا أحرمكم من عشيّة برمتها، وأيضا سيكون زوجها الآن قلقًا جدا، ونافذَ الصبر حتى إنه لن يكون قادرا على البقاء هادئا على الأريكة، ليس لأنه قلق عليَّ، تقول ضاحكة، وإنما لخوفه من ألاّ أصل في الوقت المناسب لكي أهيئ له العشاء، وهو يتناول للعشاء في التاسعة تماما، لا دقيقةَ قبلُ ولا دقيقةَ بعدُ، يقول بسبب معدته، لأنَّ أقلَّ اضطراب يسيء حال قرحته. ذلك الهوس بدقة الوقت كان لديه دائما. قالت لي أمي، حين تعرّفتُ إليه، ابنتي، ألم تختاريه عمدًا، فأبوك كان يحدُثُ معه الشيء نفسه، كانت دقات الساعة هي التي تدير حياته. أنا رأيتُ

أبي للمرة الأخيرة حين كان عمري ثلاث سنوات. أحيانا أعتقد أنني أتذكّره، لكن ما أتذكّره هو صورة عندما كان يحملني بين ذراعيْه.

عندئذ، حين ذكرت اسم الأب بالمصادفة، حدث شيء غريب، تحوّل طفيف في النظرة، تحولت إلى الداخل، وفي الوقت نفسه اختفت الابتسامة لحظةً. يكفي سؤال عرَضيّ كي لا تبدو السيدة تماما كما كانت، وكي يرتدّ الحاضر في غرفة الجلوس إلى حيث لم يتغيَّر شيء مع ذلك، ربما نبرة الأصوات وحدَها، واستعداد من يُصغي، القيمة النوعية الجديدة للصمت، كورقة بيضاء تشرع الكلماتُ في الانتساخ عليها، وهي التي تؤصّل دون سبق إصرار الرواية الوافرة لحياة مشترَكة، منتقلةً في دقائق وجيزة من مرحلة لأخرى، من حظيرة سكنية قريبة من مقبرة الشرق بمدريد الفظيعة لأوّل عهد ما بعد الحرب، إلى حيّ بضاحية حديثة بُني في سنوات الستينيات، مُخترِقا الحرب الأهلية والحوادثَ الطارئة لرَجُل يختفي ذات ليلة؛ كي يصعد في سيارة انتظرَتْهُ بمحرِّك مُشَغَّل ولم يعُد أبدا، ويُعرَف عنه أنه كان في روسيا، وأنه سافر بعد ذلك خفيةً إلى فرنسا، وناضل مع المقاومة ضد الألمان، وتمَّ إيقافه من قِبَلهم، وسُجِن في مُعتقل أسرى كان يَبْعث منه رسائلَ قصيرة ورسوما إلى أبنائه، لأنه كان يمتاز بموهبة عالية في الرسم: لكنّه فرَّ من المعتقَل، وعاد إلى الانضمام إلى المقاومة، وأُلقي القبض عليه مجدَّدا، ومرَّة أخرى فر، والآنَ يبدو أن أثَرَه قدْ فُقِد إلى الأبد: ذاتَ يوم، منذ أكثر من عشرين عاما بعد انتهاء الحرب في أوروبا، تلقّتِ ابنته التي لم تعدْ تتذكّره إشعارا من سفارة

ألمانيا. خافت من فتح الرسالة الحاملة ملاحظتها لعنوانها الرَّسمي، لأن الرَّسائل الرسمية حملتْ إليها دوما مصائبَ منذ أن كانت طفلة، وكذلك تخشى أن تُبرزها لزوجها، الذي لم يُردْ أن يعرف أيَّ شيء عن السياسة، وهو خير ما فعله، فهو يشتغل بنشاط دون هوادة كي يدفع كمبيالات الشقة والسيارة والغسَّالة، كي يصطحبها هي وأبناؤها إلى الشاطئ في عطلة الصيف، وكي يلحقهم بأفضل مدرسة خصوصية، حين يبلغون سن التعلم. لا يريد أن يعرف شيئا عن الحكايات القديمة، لم يسألها عن ذلك الأب الذي اختفى منذ سنوات طويلة، لكن، حقيقةً أيضا، أنه عشِقَها دون أن يهمَّه أن تكون تحيا في حظيرة سكنية فقيرة جدا، أو أن تكون ابنةَ وحفيدةَ شيوعيَّين.

لو كانت هي أمّك فالأكيد أنك كنت ستكلِّمينها عن الرسالة، لكنكم لم تكونوا قد وصلتم بعد إلى الحيّ، وعلى الرغم من أنه كانت لديَّ صداقات مع بعض الجارات، فإنه ما كان ليروقني أن يعرفن ماضي أسرتي، ليس لأني أخجل منه، حذرا، وإنما احتياطا، لأني الآن أقول لك إنه حينئذ كان الخوف لا يزال يسكننا. أمّك، المتميِّزة جدا، الشابة جدا، هكذا أتذكَّرها دائما، وليس كما صارت عند نهايتها، ولو حتى مع المرض فهي لم تفقد تلك الأناقة التي كانت عليها، وإنما في وقت طويل قبل ذلك، المرَّات الأولى التي رأيتُها فيها، حين وصلتم إلى الحي، أنتِ صغيرة جدا حتى إنهم كانوا لا يزالون يحملونك في الأذرع، أو في العربة الصغيرة. أتذكَّر حين وصلتم: أطللتُ من

الشرفة حين سمعت ضجيجَ محرِّك، ورأيتُ السيارة السوداء والكبيرة التي كانت لأبيك وقتَها؛ نوع ألف وخمسمائة، وحين رأيتكم تخرجون منها غمرَني فرح كبير، لأنكم كنتم كثيرين، وكانتْ البناية والحي شبه خاليين. شرع الأطفال يخرجون من السيارة، ورُزَمٌ من صندوق السيارة، ثم خرجتْ أمُّك بعد ذلك بلباس ناصع، وبقيَتْ واقفة على الرصيف، ربما كانتْ بها دوخة السفر، ولم تتركْ لديَّ الانطباع بأن ما تراه قد أعجبَها، الأراضي المكشوفة بحُفر، وآلات رفع، ومدريد بعيدة جدا، الشوارع الواسعة جدا، الأشجار التي لا تُرى كثيرا كحال أعمدة النور. أخذَتْكِ بين ذراعيْها، ونظرتْ إلى أعلى، حيث كنتُ أنا، وأنا حيَّيْتُها مباشرةَ، وأعجبني كثيرا أنها كانت جميلة جدا وشابَّة، وأنها جاءتْ متحوِّلة إلى الشقة التي كانت فوقي مباشرة بالضبط. لم تكن مريضة بعد، أو على الأقل لم أكن أعرف ذلك، أو لم تكن تولي أهمِيَّة للإزعاجات الأولى، لكني أتذكَّرُها شاحبة قليلا، وأكثرَ هشاشةً من الجارات الأخريات اللواتي كُنَّ من سِنِّنا، أو منِّي أنا نفسي، وإن كانت هي تشتغل في بيتها وتتخاصم معكم كأي واحد، وترسُم الابتسامة نفسَها للاستمتاع بالحياة التي لديْك أنتِ الآن. أحيانا أسمعها عبر الساحة الداخلية تَغني بينما تكون في المطبخ أو تضحك بقهقهات لشيء يكون أبوكِ يقوله لها بصوت خفيض. أجل، حكيتُ لها كيف جرت أطوار حياتي وحياة أمي حين انتهت الحرب، إلى أن أخذتني لابَسيونيرا في حضنها، وغنَّت لي تهويدة، والخوف الذي عشتُه تلك

المرة التي وصلتنا فيها الرسالة من سفارة ألمانيا متأخِّرةً بشهور، بعد أن طافتْ عبر أرجاء مدريد. خشيتُ أنْ يغضب زوجي لو أبرزتها له، وكانت أمُّك تضحك حين حكيت لها ذلك، بعد انصرام أعوام عديدة: لكنْ يا امرأة، كيف له أن يغضب مع ما هو عليه من طبع طيب. لم أجرؤ على أنْ أتوهَّم بأنه قد أُشيرَ في الرسالة إلى أن والدي لا يزال حيًّا، وحين وصل زوجي من العمل ذلك المساء، أغلقْتُ عليَّ البابَ، صحبتَه في غرفة النوم، وأطلعتُه على الرسالة، وهو هدَّأني مباشرة؛ لا يمكن أن يكون شيئا وقد أتى من حكومة أجنبية، لأن الحكومة التي يلزم أن يخاف المرء منها هي حكومتنا، لكن الأفضل ألاَّ نُخبِر أمَّك بذلك، حتى نعرف بيقين بِمَ يتعلَّق الأمر.

ذهبنا في الصباح التالي، في السيارة الجديدة، ذات رائحة الشيء الجديد، رائحة لذيذة من بلاستيك ومعدن، وبنزين، وصلا إلى مدريد كسائحين، وطيلة الطريق كانتْ هي تضغط على الحقيبة الموضوعة على فخذيها وحيث تحتفظ فيها بالرسالة. ربما سيقولون لي إنَّ أبي حيٌّ، وأنه فقد الذاكرة بسبب جرح في الرأس، ولهذا لم يأتِ أبدا ليبحث عنا، فكرت في ذلك، لأنها شاهدت حكايات من هذا النوع في الأفلام، لكنها كانتْ تخشى أيضا أن يُقدِّموا لها شهادة وفاة أبيها، واحدة من بين كثير من ملايين الجثث التي لا اسم لها، أُلْقيَ بها في الحُفَر والمقابر الجماعية بأوروبا، في الوقت الذي كان قد فُقِدَ أثرُه، حين وصلتْ رسالتُه الأخيرة من المعتقل الألماني، سطور قليلة،

وعلى الظهر رسم بقلم الرصاص لقرية من جبال الألب بأبراج أجراسٍ على هيئة بَصَل وسقوفٍ بالجملة. أنا تعوَّدتُ دوما أن أمضي متشبِّثة بذراع زوجي، لكن هذه المرة كان هو الذي يمسك بي، والذي قدَّم اسمي بباب السفارة، وأبرزَ الرسالةَ وبطاقةَ هويّتي، وأنا كنتُ جدّ مرعوبة من وجودي في ذلك المكان بين أولئك الأشخاص المؤدّبين جدا، والشُّقرِ، وذوي العيون الزرقاء الذين يتكلّمون معي بنبرة غريبة، ولطفاء، وليسوا كالموظّفين الإسبان لذلك العهد، الذين كانوا ينبحون أكثر مما يتكلّمون، والذين كانوا دائما مُعكّري المزاج. أخيرا؛ استقبلَنا سيِّدٌ في غرفة كانت في وسطها مائدةٌ كبيرة جدا، كان رجُل يتكلَّم معي كأنّه يطمأنني، شأنُه شأن طبيب، وأنا تجرَّأت على أن أسأله إنْ كان أبي حيا، أو إنّه قد مات، أجابني، ذلك ما نريد نحن أن نعرفه، لأننا أمضينا سنوات نبحث عنه كي نعيد إليه ممتلكاته. وحينئذ رفع من الأرض صندوقا كبيرا من الكارتون، ووضعه فوق المائدة، في الوسط، ويبدو هو الآخر أنه قد قام بطواف كثير، صندوق مربوط بشرائط حمراء ومختوم بشمع. نظرنا إليه زوجي وأنا دون أن نعرف ما علينا أن نفعله، فقال لنا الرَّجل، إنه له، يمكنكما أخذه، في هذا الصندوق توجد الأشياء التي كانت عند أبيك في المرة الثانية التي هرب فيها من معتقل الأسرى بألمانيا. كان صندوقا من الكارتون المتين، به طوابع بريدية كثيرة، بما أنه قد مرَّ بأماكن كثيرة، كانت حوافُه بالية. نظرْتُ إليه دون أن أجرؤَ على لمسه، ونظرْتُ إلى زوجي، الذي هزَّ كتفيْه، متوتّرا هو الآخر، على الرغم من أنه لم يرد

الاعتراف بذلك لاحقا. فقد قدَّمتُ بطاقة هويّتي، ووقّعتُ على أوراق. حملْتُ الصندوق معتقدةً أنه سيزن كثيرا، وفاجأني أنه كان خفيفا جدا. خرجنا ونزلنا عبر شارع "لاكاستيّا" باحثيْن عن المكان الذي ركّنّا فيه السيارة. كنتُ أحمل الصندوق بين يديّ كأنني أضمُّ شيئا هشا، وكان زوجي يمضي بجانبي، ويقول لي أن أتركه له يحمله. كان أحد تلك الأيام شديدة البرودة والتي تسطع فيها شمس مدريد. لم يكن لديَّ صبر كي أصل إلى بيتي بالصندوق مقفلا، ولم أكن أريد أن تراه أمي دون أن أعرف أنا مسبقا ما يحويه. لم يكن يزن شيئا، وكانت أشياء تهتز داخله. توقّفنا عند مقعد، وفتح زوجي الصندوق. أرتعشت رجلايَ، جلستُ على المقعدي، وبدأتُ أبكي بينما شرع هو في إخراج الأشياء، التي كانت لأبي في ذلك المعتقل. كانت هنالك كل الرسائل التي بعثتها إليه أمي، التي كانت تمليها على جارة، والتي كتبها لها أخي في الأوراق المخططة لدفاتر المدرسة، وكتبتُها لها أنا حين كنتُ صغيرة جدا، حين كنتُ قد بدأت أتعلّم الكتابة، والرسوم التي كان أخي وأنا نرسمها له، وصوَرُنا التي كانتَ أمي تبعث بها إليه، بعضها بأسمائنا مكتوبة خلفها، بخطٍ يدي غير الماهر حين كان عمري أربع أو خمس سنوات. يا لَوُجوه الفقر التي كانت لدينا، وجوه جوع وخوف، وكيف نسيت كل ذلك في سنوات قليلة. كانت هنالك صورة لأبي مرتديا زيّا عسكريا يحمل طفلة بين ذراعيه، جدّ صغيرةَ حتى إنني لم أكن متأكدة بأنها أنا، وأخرى لوجهه وحدَه حيث كان نحيفا جدا، وبرأس حليقة وعينين كبيرتين جدا، وبرقم أسفلَها، وكانت

هنالك أيضا أوراق بالفرنسية وبالألمانية، أوراق صفراء، باليِة جدا حتى إنها كانت تتمزق حين حاولنا فتحها، وكثير من الرسوم، مرسومة على أي شيء كان: على قطعة كارتون أو خلف مطبوع ألماني، رسم لقرى بأبراج كنائس وقطارات وجبال في العمق، وصور لأشخاص، لرجال بأزياء مخطَّطة ورؤوس حليقة، ورسم جميل جدا للساحة الحمراء في موسكو، كبيرة جدا، ملوَّنة، حتى إنها بدت كصورة، في ورقة مربَّعة من حجم "بلوك". أغاقنا الصندوق مرَّة أخرى، واحتفظنا به في صندوق السيارة، وخلال طريق العودة إلى البيت كنتُ أبكي، لأني لم أبْكِ منذ سنوات، كنتَ أبكي كغبيَّة، وأرى كلَّ شيء ضبابياً، وكان زوجي، وإن كان وقتئذ ليس سائقا محنكا جدا، يرفع إحدى يديْ عن المقود كي يداعب يدي، وكان يقول لي، هيا، يا امرأة، اهدئي، ترى ما التفسير الذي ستقدِّمينه لأمِّك حين ستنتبه إلى أنك كنتِ تبكين، ستظنّ أن الذنب ذنبي.

تأكّدت من أن أمها لن تراهما يدخلان حاملين الصندوق، وأخفته في أعمق مكان بخزانة ملابسها. كانت تسهر الليالي راغبة في تخيُّل ما آل إليه أبوها بعد يومٍ هروبه الثاني من المعتقل الألماني، في نوفمبر ١٩٤٤، قال لها الموظف اللطيف بالسفارة مترجمًا ورقة. ربما يكون انفجار قد شوَّه وجهه وأفسد جسدَه دون أن يقدر أحد على تمييزه، ربما صادف الموتَ غرقًا في نهر وهو يحاول عبوره، أو دهسته عجلات قطار، أو جنزير عربة قتال. كانت تستيقظ أثناء الليالي متخيِّلةً احتضار أبيها، فراره عبر حقول حربية شبحية، طلقات

رشاشات، نباح كلاب. ذات صباح، عادت إلى البيت بعد أن تسوَّقتْ، واستغربت عدم وجود أمِّها. قبل أن تدخل غرفة النوم وأن ترى بابِ خزانةَ الملابس على مصراعيْه، كانت قد شعرت بانقباض في صدرها يُنبِّهُها. جابت البيت بكامله باحثة عن أمها، نادت عليها، أطلَّتْ من الشرفة، ورأتْ طيفَها الأسود في العراء الذي كان أمام البيت، والذي شرعت الحفارات في فتح خنادق كبيرة فيه لإقامة أساس بناية جديدة. لمَّا رأتْها بعيدة، محنية، ترتدي ملابس الحداد، تذكَّرت حين كانتْ تراها تخرج عند الفجر إلى طريق المقبرة الشرقية. كانتْ أمُّها إلى جانب موقد نار تُلقي فيه أشياء. التفتتْ لمَّا سمعت نداء ابنتها، لكن للَحظة فحسب، وواصلت النظر إلى الموقد، الذي كان به من الدخان أكثر مما به من ألسنة النار: كان صباحا غائما رطبا، وحين عبَرتِ المكان العاري كي تذهب بحثا عن أمِّها كان كعْبا حذاءيْها يغوصان في الوحل. وحين رأتها عن قرب انتبهت للشيخوخة التي هي عليها. لقد أوقدت بكارتون الصندوق نارا، وكانت تلقي فيها الأوراق، والصور، والرسوم، مستغرقة في تفكُّر متحرِّر لم يوقفْهُ وصول ابنتها.

لا تنظري إليَّ هكذا، كأني أسرق منك ما بقي لك من أبيك. كان الصوت واضحا جافا، دون صلف، ربما كان هو الصوت الذي رفض بصرامة منذ ربع قرن الرَّجلَ ذا الشارب والزيَّ العسكري، والمرأة الطويلة المرتدية لباس الحِداد، وهما يحاولان أن يوضِّحا لها، وأن يُنذراها من مصائب لا محيد عنها. أبوكِ حيٌّ، ولا يريد أن

يعرف أي شيء عنك، ولا عن أي واحد منّا. لمـــا انتهـــت الحـــرب أعطتْهُ الحكومة الفرنسية وساما وراتبا جيدا، لكنه لم يكلّفْ نفسَه عناءَ أن يبعث إلينا ولو سنتيما. المرة الأخيرة التي راسلني فيها كانت لكي يقول لي في هدوء كامل إنه قد بدأ حياةً جديدة، وعليه فهو يقطع كــل علاقة بنا. لم أشأْ إطلاعَكِ على تلك الرسالة. كنتِ حينها لا تـــزالين صغيرة، وكنتَ دائما تتخيّلنيه. إنه يعيش في فرنـــسا، لديـــه أســـرة أخرى، حتى إن اسمه قد غيَّره، الآن هو رجل أعمال فرنسي، ولهذا لم يعثر الألمان عليه. إذا كنتُ قد أمضيتُ حياتي منتظـــرة رســـائلَ فكيف لي أن لا أكون قد رأيتُ ما وصل في ذلك اليوم. لم يرغبْ في الرجوع إلى إسبانيا أبدا، قالتْ لي أمي، لكنه كان يسعى إلى أن يحيا دوما في أقرب نقطة منها. إذا شئتِ أن تَرَيْ منْ كانَ أباكِ فـــاركبي قطارا، وأنزلي في قَرية عند الحدود الفرنسية اسمُها "ثِرْبِيـــر".

حيثما يذهب الإنسان

البيت الجديد، المسكون مؤخَّرا، المزوَّد بقليل من الأثاث، الذي لا تزال الأصداء تتردد في فضاءاته الفارغة، بالطلاء الذي لا يزال طريا على الجدران والأرضية التي تفوح منها بقوة رائحة الخشب والورنيش، دون أي أثر للذين عاشوا فيه شهور قبل ذلك، حضورٌ لأعوام طويلة أُلغيَت بين يوم وآخر مثل تلك المستطيلات الأكثر وضوحا حيث كانت توجد لوحاتٌ مَحاها عُمّال الطلاء. إنَّ أثرا واحدا يُحدِّد الاستعمال الصارم لكل غرفة، الآن لا وجود لشيء إضافي: في غرفة النوم لا وجود لشيء أكثر من السرير الحديدي، ومائدة عارية، وكرسي في غرفة العَمل. الأشياء والفضاءات لها حضور جدُّ نقيّ كالخطوات والأصوات.

البيت الجديد، الحياة الجديدة التي شرِع فيها مؤخَّرا، في مدينة أخرى، بعيدا عن الإقليم الكئيب، في حي هو للآن مجهول، في مدريد، أو بالأحرى في مدينة صغيرة تقع في قلب مدريد، هذه الشوارع تغدو صنائعيّة خفية، فوضوية، شعبيَّة، غامضة يقطُنها أناس غريبون متنوّعون، من أجناس ثلاثة أو أربعة، بدرجات بَشرة

وملامح وجوه وصلتْ من بلاد بعيدة، لغات تُسمَع عند المرور بهــا وتجلب صوتا دالا على ضواح أسيوية، وقــلاعٍ إســلامية وأســواق استوائية إفريقية، وقرى هندية.

كان الخروج كل صباح إلى الشارع عبارة عن رحلة اكتشاف، وإن المهمات الحَرفية والضرورية تنتهي دائما بالتلاشي في جــولات دون وجهة، في مجرد المشي والنَّظر، الإنصات إلى أصوات كثيرة، إلى لغات لا تَفكُّ رموزَها يُتكلَّم بها فـــي مخـــادع الهـــاتف بـــشارع "أوغوستو فيغوروا"، كلمات تنتمي إلى معجـــم الهيـــروِّين الـــدائري والكارثي، أصواتٌ لا يمكن تَذكَّرها حاســـمة لجـــاراتٍ غجريـــات، لسيِّدات يخرجْن إلى التسوّق ملتحفات دثار المنزل، وينظُرن باندهاش مستسلم حولهنّ، أو يختَرْن عدم النَّظر إلى الشكل التي انقلـــب إليهـــا حيُّهم في السنوات الأخيرة، أصوات قويّة لرجال تحوّلوا جزئيًّا إلـــى نساء، على الرغم من أن ذلك لم يحدث كلِّية ولا بنجاح كبير، لأنـــه يحدث أحيانا أن تبدو لحية سوداءُ تترُكُ لونا أسودَ تحـــتَ الـــوجنتين المنتفختين بالسيليكون، أو بداية صلَع ذكوري يظهـــر تحـــت شَـــعر مسترسل أشْقرَ، مصفف في غير تهذيب، أو في أقدام عريضة قويـــة تشوِّه دون شك كعبًا عاليًا من الجلد اللميع.

يمكن رؤيتها من ظهرها، محشورة داخل كابينة التليفون، وجه طويل لامرأة، لكن الصوت الذي يُسمع كان صـــوتا أجـــشا لرَجُـــل: يُتخيَّل في لحظة كأنَّ شخصين يشْغَلان الكابينة في آن واحد، رجـــل وامرأة، أحدهما غير مرئي.

عند المنعطفات ينتظر دون حراك أموات الحياة، وهؤلاء هم غير المرئيين، شاحبون بمكان حتى يمكن رؤية شرايين مرافقهم الملتوية، دائما يمكن رؤيتهم، هادئون في انتظارهم حتى أصبحوا لا يلفتون النظر إليهم، أو المرور بجانبهم كأنهم غير موجودين، كأنهم موجودون في العالَم الآخر، الذي ينتمون إليه أكثر من هذا العالم، العالم اليومي والحقيقي للأحياء. يحدّقون في الفراغ، أو أن عيونهم شاخصة تَراقب وتنتظر عند المنعطفات الأقرب، التي سيظهر عندها عاجلا أو آجلا بائع مخدّرات أو سيارة شرطة، حينئذ يشرعون في التحرّك دوما على مهل، بثقل وئيد يشبه ثقل العطايا، كانوا يسعون دون نجاح ودون اقتناع حقيقي إلى الاختفاء أمام الحُرّاس الذين يطلبون منهم أوراق هويتهم، كأنهم لا يعرفون مسبقا هوية كل واحد منهم، ووجوهَهم التي تشبه وجوه الأموات، وأسماءَهم، كانوا يتصلون فيما بينهم عبر جهاز إرسال سيارة الدَّورية، ثم يتركونهم بعد ذلك ينصرفون أو يمْضون بأحدهم مقيَّدا بالأصفاد، كأنه مشهد مسرحيَ ممل يتكرَّر مرَّات عديدة.

أحدُهم، رجُلٌ كان أو امرأة، يمشي وراء شخص يضع منظارا أسود ولحيةَ صغيرةَ، ممشوق جدا، يضع يديه داخل الجيبين الخلفيَين لسروال رعاةَ البقر، يُسرع الخطى عمدا كي يمكن للآخر، شبه الميِّت، أن يظلَّ متأخّرا عنه، وأنْ يُجهد نفسَه في اقتفائه، مقوَّسا خسيسا كشحاذ هرم، يمُدّ ناحيَتَه اليدَ التي كانتْ بها قبضةٌ وسخةٌ

ومال غير كاف، رمى به بائع الحشيش أرضا بدفعة واحدة، دون حتى أن يستدير نحوه، الذي يجلس الآن على ركبتيه كي يلتقط قطعا وأوراقا نقدية سقطت بين السيارات، على قذارة الرصيف، والذي استطاع مباشرة بعد ذلك أن ينهض على رجليه، القوة التي استجمعها بحكم استعجال الحصول على الجرعة التي لمْ يُرد الآخر إعطاءَه إيَّاه، أو يعطيها إياه رغبةً في أن يراه ذليلا يعاني.

في البداية كانوا مجهولين مقلقين، وجوها مهدِّدة تظهر عند المنعطف، أو عند نهاية الرصيف، يسيرون خجولين بين السيارات، يتغوَّطون أو يوخزون بالأبر، يلوذون على سلم منزل أو داخل مدخل بناية. لكنهم يتحوَّلون سريعا إلى حضور مألوف، إنهم أيضا وجوه مألوفة في الحي كالرِّجال النساءِ، وكالسيدات ذوات المفضلات القطيفيَّة، والمائلين، وبائعي المخدرات ذوي الوجوه الحادة، الذين هم أيضا ينتظرون، وإنْ كان انتظارهم مختلفا، بانتهازيَّة حيوانات صيَّادة فرائسَ بحركاتهم، أو بالطريقة التي يمكثون بها هادئين. يبتعدون بنوع من تأرجح الكتفين، ينظرون شزرا، اليدان في الجيبين الخلفيين للسروال، يختفون في مدخل بنايةٍ، أو ينحنون خلف سياجٍ في ساحة شْويكَا، في الحديقة البائسة التي كانت موجودة عند مخرَج المترو. يعودون بشيء لا يستطيع المرْءُ تمييزَه، يقولون كلمات بالكاد تُسمَع، ويحدُث شيءٌ عند تلامُس اليديْن، شيءٌ سريعٌ جداً وخاطف كاشتعال شرارةٍ بين خليَّتين عصبيَّتين، كيس صغير في كفِّ يَدٍ وحفنةَ أوراق

نقدية وسخة في الأخرى، كانوا ينحنون على نافذة صغيرة مفتوحة لسيارة واقفة بمحركها المُشغَّل، المَرافقُ متَّكئة في هيئة تدلُّ على نوع من القَرَف، النظرةُ سريعةَ ومنصرفة إلى الآخرين.

أصواتٌ وحيواتٌ كثيرة، عوالم كثيرة يُجاور كل واحد منها الآخر، في الفضاء الضيق للشوارع، وكلّ شيء مُعتاد، حتى أكثرها غرابةً وكارثية، كل شيء متضام ومتشابك، وأحيانا دون الاختلاط، كل حضورٍ يحوم حول جاذبيّة عالمه الخاص وغير المرئي نسبيًّا بالنسبة إلى ساكني العوالم الأخرى، كل واحد منهم يحمل في ذاته رواية: الرَّجل الشاب الذي يتسكع باحثا عن الهروين وهو يعبر الرصيفَ الضيق المُحاصر بالسيارات، والجارة التي كانت قد نزلت بنعل ولباس المنزل لشراء الخبز، والتي تعوَّدت ألا تنظر إليه مثلما أنه لا ينظر إليها؛ الرجال الذين تحوّلوا جزئيا إلى نساء يثرثرون لاعبين بكثير من الأصوات الصارخة الحادَّة وحركات الأيدي، والعميان الذين يفتحون طريقهم بينهم وهم يجُسّون الأرض والجدران بعِصيّهم البيضاء، الصينيون الذين يلوذون مكدَّسين في شقق معتمة وقِبَاءٍ بلا تهوية، الهنديات الضئيلات اللواتي يتجمَّعن عند الثالثة أو الرابعة صباحا بجانب مخادع الهواتف، ثم يخضن في أحاديث باللغة الأيمَّارية أو الغُوارانية أو الكِيشْوا، منْ يدري مع أي فرد من عائلتهن بقي في "الألتيبْلانو" أو الأدغال؛ الرجل الذي يرتدي لباس النوم، ويجلس كل مساء في الشرفة، على كرسي من القش، إلى جانب قنينة

بوتان، وينظر دون حركة، ويكابد نوبات سعال أجش يُجبِـرُه علـى الانثناء، وعلى أن يسند جبهتَه البليلةَ إلى حديد الشرفةَ.

اختفى مدة زمنيةَ، وحين عاد للإطلال، مرتديا المنامة نفـسَها، جالسا على كرسي القش ذاته، إلى جانب قنينة البوتان، كانت في فمه كمامة بيضاء، وأنبوب من البلاستيك كان يخرج من أحـد منخـري أنفه. الآن هو لا يسعل، لكنه يواصل النظر إلـى الأسـفل، باتجـاه الشارع، لا يحرّك الرأس لكنه يواصل توجيه النظر إلى الناس الـذين يمرّون، والجاراتِ، والمخنثين الذين لم يحلقوا لحاهم، ذوي الوجنـات المنتفخة والمترهّلة، الصينوين الذين لا عَـدَّ لهـم، الـذين يـدخلون ويخرجون واحدا واحدا بفارق زمني مضبوط من مـدخل البنايـات المجاورة، الهنديات الأمريكيات بأطفالهن المحمولين على ظهورهن، العُميان الذي يتحسسون بالعِصي كما لو أن لهم أطـراف حـشرات مُمَفصَلَة قادرة على الإحساس، الزّوج الجديد من رجل وامـرأة مـع طفل وكلب، استقرَّ مؤخرا في الشقة الموجودة مباشرة قبالـة شـقته بالذات، في الناحية الأخرى من الرصـيف. أحيانـا يُطـلّ الرجـل المريض بعد منتصف الليل ليرى العجوز وقـد تزيَّنـت ووضـعت الألوان، لأنها تخرج إلى الشارع حين يكون الحي خاليا فقط، وتحمل معها دائما كرسيا، يبدو أنه التقطته من مزبلة، وكيسا بلاستيكيا بعُقدة. كانت تختار برميل زبالة من بـين البراميـل التـي تُـصَفّ علـى الرصيف، وتركز الكرسي أمامه، ولاحقا، وبجدّ وعناية شاذّة، كانـت تفك عقدة كيسها البلاستيكي، وتستخرج منها أوّلا منديلا بمربّعـات،

وبعد ذلك بقايا طعام، وكِسَر الخبز، وكأسا بلاستيكية، وسكينا، وشوكة، وأخيرا تخرج منديلا كبيرا ووسخا كانت تعقده تحت ذقنها. وحينئذ كانت تجلس إلى المائدة، وكانت تقوم بحركات كأنها تتحدَّث مع ضيف في عشاء متميّز، تشرب ماء كأنها تتذوّق نبيذا لذيذا، وتنظّف بعناية مهذبة مقْرِنَي الشفتيْن، وتمدّد عبْرَ الذّقن بقايا أحمر شفاه وسخا ودهنا، وحين تنتهي من العشاء تجمع كلّ شيء، وتحفظه في كيس البلاستيك، عُلب سردين فارغة وطرود حلويات وكؤوس وصحون ولوازم المائدة، وتزيل المنديل، وتطوي المنديل الكبير الذي تكون قد غطّت به البرميل لكي تحوّله إلى مائدة أكل، وتعود من حيث أتت، حاملةً كيسَها وكرسيّها، ولا تُرى بعد ذلك عبر الشوارع حتى منتصف الليلة القادمة.

مَنْ أنت في نظر من يراك كأنك مجهول، ومن ستغدو لديْه شيئا فشيئا أليفا، وإنْ لم تكن قد تبادلت معه كلمةً أبدا، نظرة من شرفة إلى شرفة فقط، أو في اللحظة التي تكادان تلتقيا فيها على أرصفة الحي الضيقة: الرجل، المرأة، الولد، الكلب، العمّال الذين أفرغوا المنزل المقابل تماما، وقد محوا أيّ أثر لمن عاشوا فيه طيلة أعوام عديدة، حاوية الرّدم في الرصيف، وأخيرا الجدران التي طُليت مؤخّرا، لقاءات عبر الشرفة المفتوحة، الجدران الملوّنة بأصباغ مضيئة ولطيفة، كما لو كانت تمحو أثَر الجيران السابقين، كما تُصبَغ بالأبيض ولأسباب صحيّة بناية مستشفى.

أنتَ لستَ في وعيكَ ولا ذاكرتك، وإنما ما يراه مجهول. ماذا يتذكر، وماذا يرى مَنْ كان سِكّيرَ الحيّ، الذي لا يعرف اسمَه أحدٌ، وإنْ كنّا نراه دائما، وما كان ليُخيفنا كما كان في المرات الأولى، حين كان يظهر ليلا عند منعطف شارع بشعره الوسخ والفوضوي، وامتدادِ جسدِه الذي لِدُبٍّ ملفوف في أسمال نتنة، لأنه كان يتبول ويتقيّأ فوقها، وبالكاد كان بعد ذلك يكلّف نفسه تنظيف فمه بيده. أحيانا كان ينظر باهتمام، بعينين صغيرتين، نديَّتيْن وزرقاوين، لكنّه لم يكن يتكلّم مع أحد أبدا، ولا يطلب صدقة، وكان يمشي عبر الحيّ مثل رُوبِنسُون ذاك الشّعراني؛ ملفوفا في جلود وأسمال موجودة في النقوش القديمة، وحيدا في الشوارع كأنه في جزيرة لا يعيش فيها أحد، متغذّيا بالنبيذ وفي أحيان كثيرة كان يتقيّأ فور إدخاله في معدته، كان يتقيّأ على غرار ما كان يتبوّل، ودون أن يغيّر الحركة، دون أن يكلف نفسه عناء تفادي فيضان البول أو القيء، سائلا جدا مثل البول وبالألم نفسه.

كان يصنع من الكارتون، والصحف، والأكياس البلاستيكية أكواخه التي لغريق في جوف مدخل بناية، أو ينام مستلقيا وسط الرصيف، كساكن أصلي من كَالْكوتا، حيِّزُه المكاني المُعلَّم بكثافة الرائحة الكريهة التي تفوح منه. كيف هي فصول الحياة منظورا إليها عبر عيني شاهدٍ غير مبال ومثابر: الرجل ذو المنامة يجلس في الشرفة، ويرى كل مساء وصول الطفل الجديد حاملا محفظته

المدرسية، ويخرج دقائقَ بعد ذلك يأكل شطيرة ويتجوّل بالكلب، يسحبه، أو يرغب في كبحه، لكن دون التحكم فيه أبدا، الجرو الغريب الذي يلزم أن يكون جديدا على أصحابه شأنه شأن المنزلِ المصبوغ مؤخرا والمسكون، صباغةِ الجدران، مثل الحي الجديد، والحياة الجديدة، والمدرسة التي سيذهب إليها الولد للمرة الأولى.

تتكرَّر الأشياء يوميًا، ويبدو أنها كانت على ذلك منذ الأزل. الولد بالمحفظة، النباح الحاد للكلب في المنزل ذي الشرفات المشرَع دائما، الولد مُمسكا بحزام الكلب، وهو يأكل الشطيرة، ويمشي به، دون أدنى شك، إلى ساحة "باتكيكث دِي ميا"، الفضاء الوحيد المفتوح في الحي، شسوع من الخرسانة قبيحة وكبيرة، ليس سوى أرضية مسطحة مبنية فوق موقف للسيارات، حيث ينزه الجيران كلابَهم، بينما يلعب الأطفال بالكرة، والبنات يقفزن على الحبل أو يلعبن الحجلة، والمدمنون يحقنون أجسادهم، أو يدخنون الهيروين، ولا يبدو أن هؤلاء أو أولئك يرون بعضَهم، على الرغم من أنه ليس ممكنا عدم رؤية الحُقن المرمية، وبها بقايا دم، وقطع الليمون المعصور جيدا، وصُفيحات الورقِ الفضّي، ليلا، على قرميد البنايات التي تحيط بالساحة، البنايات التي يشغلها جيران مُسنون لم يستطيعوا الرحيل، وبفنادق مشكوك فيها، يبرز برج لاتيلِيفونيكا شاهقا، ذو حجم واسع كناطحات سحاب سوفيتية، يتوّجه محيط أصفر والعقارب القرمزية للساعة، التي يخفيها الضباب الندي لليالي الشتاء بوميض فوسفوري ذهبي وأحمر.

ذات مساء عاد الولد جاريا، لا يجر الكلب، وتمكن الرجل المريض صاحب المنامة، حتى وهو في شرفته بالطابق الثاني، من رؤية أن وجهه مليء بالدموع، حين ضغط على جرس الباب الأوتوماتيكي يفتح الباب، لكنّ الطفل لم يدخل، نزل الرجل والمرأة، وعانق الولد المرأة باكيا، كأنه قد كان أصغر سناً وبالكاد كان يصل إلى خصرها، يُشير إلى الزاوية، يمسح مخاطه بالمنديل الذي ناولته إياه أمّه.

الحياة كلية هي النظر والانتظار، مراقبة التنفس الخاص خوفا من الاختناق، ومن اسوداد هبوط مفاجئ، الآن يستمر ثابتا في الشرفة، منتعلا شبشبا من جوخ ومرتديا منامة، الزي الرسمي لمريض، ربما هو مقصي من مملكة الأحياء، كالظلال الشاحبة التي تُصادفها في الشارع، دائما منحنية، تعاني ألَما كلوي مزمن، تُعمِّر عالَما ليس مرئيًا من قِبَل الآخرين، دائما هم قلقون لشيء، يستعجلون الخطى خلف تاجر مخدِّرات لا يُدير رأسه إلى الخلف، يمضي منتصبا وسريعا، واثقا، ومُحتقِرا.

اختفى الرَّجل والمرأة والولد عن النظر، عند نهاية شارع سان ماركوس، حَدُّ مجال البصر. بعد انقضاء دقائق عادَ الرجل إلى الظهور مجدَّدا، الآن وحدَه، صارخا باسم يلزم أن يكون اسما للكلب، محاولا أن يصفِّر بطريقة غير مجرَّبةَ. نظرا لكونه ضئيلا جدا، فالمحتمل جدا هو أن الجرو قد ضاع إلى الأبد، وأنْ تكون سيارة قد

دهسته. لكنهم لم يستسلموا، فقد ذهبوا وجاءوا طيلة المساء، مرُّوا تحت الشرفة، ولم يدخلوا إلى المنزل إلا بعد حلول الليل، حين أُضيئَتِ اللوحة الإعلانية الوردية لحانة "سانتنديز" على مرمى البصر الآخر، عند زاوية "أوغستو فيغوروَّا"، ، إنه لون وردي جدَ ناعم مثل زرقة السماء على القراميد، كاللون الوردي للشفق منعكسا على زجاج نوافذ الطوابق العليا، حين يكون الوقت ليلا دامسا في عمق الشوارع.

الجوّ البارد لا يسمح للمرء بالمكوث في الشرفة، لكن الرجل ذا الكمامة يواصل المراقبة خلف الزجاج مُولِيا الظَّهر لغرفة لا يُرى منها، انطلاقا من الناحية الأخرى، سوى مصباحِ إضاءة مكدَّر النّور وأحيانا رمشة زرقاء للتلفزيون، إنه واقف إلى جانب الستائر الصغيرة لها مسحة التعب نفسها والوسخةَ طفيفا كثوب منامته، أو عنق قميصه التحتاني. ماذا سيكون عليه الدخول إلى ذلك البيت، أي روائح قديمة ستكون فيه غير رائحة المرض المُزمن والأدوية. إنه شبه محاصَر خلف الستائر، موليا ظهرَه للغرفة ولأشكال الحضور الأخرى في منزله، غيْرَ عابئ بأصوات التلفزيون، يتنفَّس الرجل خلف كمامته، ويتحسس على الشرفات المضاءة بشكل شفاف في المنزل المقابل، الذي ليست به ستائر بعد، والرصيف الآن يكاد يكون معتما، ويعبُره دون اكتراث سكانُ مملكة الأحياء وسكانُ مملكة الأموات السابقون لأوانهم، كل واحد يرى ما لا يراه الآخرون،

يتجسس على علامات من لغته السرية. يوجد شخص ما في الأسفل، يقف وسط الشارع، لكن الرَّجل لم يستطع أن يتبيَّن من يكون، وإنْ كان نباحُ جرو يُسمَع جافا وحادا، بحيث إنه أزاح كلَّ الستائر الصغيرة، وألصق الوجهَ بالزجاج كي يسيطر من علو على فضاء أوسع من قارعة الطريق.

إنه السكير، ذاك الذي في الأسفل، ضخما وثابتا، الوجه موَجَّه ناحيةَ شرفة الجيران الجدد، مترنحا قليلا، وإنْ لم يكن كثيرا مثلما يكون حين يشرب حقيقة، ويبدو أن الكحول يسيل له في التماع عينيه، وفي اللونِ البنفسجي المرضي والمتورّم لبَشرته، ولديه في ذراعه الجرو المبقّع بالأبيض والأسود، الذي يواصل النباح حتى البحة، ويُصارع لكي يفلت من الملاذ الخانق لأسماله ويديه. لكنه لا يدنو من مدخل البناية، ولا من الجرَس الأوتوماتيكي، يستمر هادئا، منتظرا أن يحدث شيء، بصبر كثيف كصبر الحيوانات، كما لو أنه لا صوت له، أو لا يعرف بوجود أو فائدة تلك اللوحة من الأزرار والأرقام التي توجد على جانبٍ من الباب المقابل، التي توقّف عندها والكلب بين ذراعيه، وهو متلفع جيدا بين كتلة الأسمال التي ينبثق منها خطْمُه ونُباحُه الأجش الآن.

ينتظر بصبر وهو يعرف ما الذي سيحدث، كأنه يُملي قانون الوقائع، وهو يراقب الشارع يوميًّا، ساعة بعد ساعة، التكرار اللانهائي لكل شيء: شبه مختف خلف الستائر الصغيرة الوسخة.

يعرف الرجل المريض أن واحدة من تلك الشرفات ستُفتَح، التي ليست بها ستائر بَعْدُ، والتي تكشف عن داخل حديث العهد بالصباغة باللون الأصفر الفاقع جدا، وأن الولد سيُطلّ، سيكون أول من يعاني القلق والحدة اللازمة للإصغاء والتعرف على النّباح، وأنَّ ضوء مدخَل البناية سيُوقَد.

نزل الأب، والولد، وأطلّت الأم الشابة من الشرفة في اهتمام، حتى إنها لم تنظر ولو لحظة إلى المنزل المقابل. لكن الولد ضبط في اللحظة الأخيرة حافزَه القلقَ بالذهاب ناحيةَ الكلب، ولم ينفصل عن يد أبيه، والسكير بدوره لم يقترب منهما، لم يقم ولو بخطوة واحدة. لقد مال ناحيةَ الأرض بطيئا وهائلَ الحجم، ووضع الجرو عليها، وضعه بعناية كبيرة، دون أن يقول شيئا، دون أنْ يقترب من الولد الذي كان قد شرع في معانقة الحيوان، ولا من الرجل الذي كان يقول له شيئا، ويُقدِّم له شيئا بيد ممدودة. كانت عيناه صافيتين جدا، كانت بهما شفافيةَ كبيرة لا لون لها، كتلك التي لبعض العيون السلافيةَ، وكان الوجه أحمر وبنفسجيا، به أورام دموية، وتورّمات دُمَّلية، ولو أنه على مسافة أقلّ من متر، فإنه كان ينظر لمسافة بعيدة. لكنه لم يكن ينظر حقيقةَ، لم يكن يستطيع أن يركز عينيه بتاتا على أحد، ربما لأنه كان قد فقد عادة أن يُركِّز نظرة في القريب العادي من التعامل الإنساني والمحادثة، مثل أولئك الغرقى الذين يقضون سنوات في ساحل واحد مهجور وينسون استعمال اللغة، وينتهون إلى الجنون.

فكَّر في أنه حين سيكبر ابنه سنوات أكثر فإنه سيُساعده على قراءة روايات الغرقى والجُزُر المهجورة، التي غذَّت مخيَّلته في أفضل أزمنة طفولته.

يصلون إلى منعطفات الحي، وشيئا فشيئا يصيرون مألوفين فيها، وجوههم مألوفة جدا كوجه سيدة المخبز أو محل بيع العقاقير، أو كوجه الرَّجل الذي تحوَّل جزئيا إلى امرأة في كشك الصحف، حركاته الهاربة، وساعاته البطيئة من سكون وقلق، إنهم رتيبون الآن كدوريات الشرطة وكبساتها، التي تُجبر أحيانا واحدا من الموتى أحياءً أن يقف مديرا وجهه إلى الحائط وتُفتِّشه، وتطلب الوثائق في غضاضة من بائعي الحشيش المغاربة، ويساق أحدَهم في سيارة الدورية، وبعد وقت قصير، أحيانا أيام ، يصبح مرة أخرى في الحي، أو يختفي ولا يعود أبدا، يُسجَن أو يموت، أو يتحول إلى هارب في حي آخر بعيد، ميِّت في حياته، يمضي تائها في ضواحي إحدى تلك القرى الخاصة بخردة السيارات بضواحي مدريد.

بعض أولئك الواصلين مؤخَّرا يحتفظون بنوع من الكرامة، بقايا الحياة القديمة التي لم يكونوا قد تخلَّوا تماما عنها، مرتدُّون قريبو العهد إلى حلاوة الجحيم الذي انتقلوا إليه منذ أن وصلوا إلى الحي. أولاد صغار جدا، بلباس جديد وأحذية رياضية مميزة النوع، حتى إنهم عن بعد يبدون سالمين، لكنْ تُكتَشَف فيهم على مسافة متوسطة العلامات الأولى للقلق والتدهور، والذين مع انقضاء شهور قليلة

يكونون قد غرقوا في شَيخوخة شرهة، في نزوع ابتزازي، قد يكون كل واحد منهم أفعى ويكون الضحية، الذراعان والعُنق معلَّمَة بوخزات، بالقرصات الصغيرة للحُقن التي تطقطق أحيانا تحت وقع الأقدام في الحديقة، والتي يمكن أن تبدو بما في ذلك في جوف مدخل بنايةَ. لقد اقتضى الأمر أن يُقال للولد ألاَّ يلمسها أبدا، وألاَّ ينحني ليلتقط أي شيء من الأرض.

كانوا يصلون في البداية بإفراط حيوي وطاقة تتناقض مع بطء المخضرمين، بروح تنمُّ عن الاستكشاف أو المغامرة التي ستختفي في وقت أسرع بكثير من الملابس النظيفة والأحذية الرياضية مميَّزة النوع. من أين جاءوا، من أي الأماكن وأي الحيوات. ماذا كان في تلك العيون التي هي في الوقت ذاته ثابتة وفارغة. ظهرت امرأة شابة بمظهر يدل على كونها سكرتيرة، ترتدي حلة، وحقيبة يد جلدية وحافظة أوراق بين ذراعيها، وجوربين طويلين أسودين وحذاء بكعب عال. يمكن اعتبارها موظَّفة في أي من المكاتب القريبة، وربما هي مديرةَ مكتب تسيير أعمال وتواعدت مع أحد عند تلك الناصية بالضبط، هي تنتظر بين الحين والحين إلى ساعتها. هي بالأحرى مكتنزة، وليست بالبدينة، تغطي المساحيقَ وجهُها، وأصلحت حالَها خفية، غير مبالية بالآخرين الذين ينتظرون، المألوفين الذين بالكاد يقوون بالوقوف على أقدامهم ويتكئون على الحائط، ويظلون نائمين أو في حالة إغماء، ويستريحون بالانسياب شيئا فشيئا اتجاه الأرض،

لكن في الأيام القليلة، وعند النظر إليها عن قرب، أو باهتمام أكثــر، تكتشف فيها علامات غير ملحوظة: أن الكعبين شرعا في الاعوجاج من كثرة الانتظار واقفة، أو أن لها خطًا منتسلا في الجورب، أو ثقبا في الكعب، وأن شعرها بدأ ينسدل وظهرت الجــذور البيــضاء فــي مفرق الشعر، وأن لون وجهها لا يدل على صحة، وإنما على تسرُّع في التزيُّن، وأنها لا ترتدي ساعة في سوار تراقب بها الوقت كأنهــا تنتظر موعدا مهنيا.

لكنها تواصل الضغط بين ذراعيها على حافظــة الأوراق، أو على المحفظة ذات الغلاف الأسود، كالباقية المتبقية لحياة أو لكرامــة سابقتين، أو كسخرية تمويه مهني تجاه معارفها، أو جهــةَ الــشرطة التي تجوب الحي، أو ببساطة لخجلها أمام الناس المألوفة التي تلتقــي بها، أمام النساء اللواتي كانت إلــى زمــن قريــب جــدا تُــشبههن، سكرتيرات تجارات صغرى، مستخدمات في محلات بيع العقاقير أو محلات الحلاقة.

وبتقدُّمها في الشحوب كانت تضع مزيدا مــن الألــوان علــى عينيها وشفتيها، وتضع لونا أكثر قوّة على الوجنتين. هي الآن تعرج لاعتمادها على الكعبين الملتويين، وأزرار قميصها بدأت تنفتح علــى الرغم من محاولاتها بالضغط عليه بحافظة الأوراق المعهــودة (الآن ببلاستيك مهترئ عند الحواف، يُبرز درعه المصنوع من كــارتون)،

والذي تُطل منه أوراق كأنها ملفات أو مذكرات التُقِطتْ مــن الأرض عبثًا واحتَفِظ بهما كيفما اتَّفق.

أحيانا كان يمشي معها رجل هو أيضا كان لا يظهر في البداية أنه سينتهي إلى الإقامة في مملكة الأموات في الحيـــاة: طويــل، لـــه ثلاثون سنة ونيِّف، أكثرُ تَميُّــزا منهــا، كرئيــسها غيــر المجــرَّب والعطوف، له معطف وسراويل من نسيج القلوع، بحذاءين من جلـــد، الشَّعر أشعث، وله ظِلّ لحية لها ثلاثة أيام، له لمحة محدَّدة دالّة على صحافي أو مهندس. اختفى الاثنان، وبعد انقضاء أســابيع أو شـــهور فقط عادت، الشَّعر سيئ التخضيب، به أصباغ سوداء على الجــذور البيضاء، الرموش مصبوغة أكثر، النظرة أكثر قلقــا فـــي العينــين المستديرتين والجاحظتيْن، الشفتان مُحاطتَان في غباء بلــون أحمــر داعر. لا تزال تنتعل الكعبين نفسيهما، وحتى الجوربين المعهــودين نفسيهما، وتواصل الــضغط علـــى حـــاوي الملفـــات ذي الغلافــين الأسودين.

المرة اللاحقة والأخيرة التي رأيتها فيها لم تكن فـــي الحـــي: ربما عاما بعد ذلك، عند النزول من شارع لامُونتَيرا، رأيتُها مـــستندة إلى زاوية، وتأخَّرتُ في التعرُّف عليها: ميَّزتُها بوجـــه الـــسكرتيرة المتراخية والجذور البيضاء في مفرق الشَّعر، لكنها الآن كانت مماثلة لباقي النساء ذوات التنورات القصيرة والأفخاذ الواســعة والكعبــين العاليين والمعوجَّين، اللواتي يطُفن أرصفة هذه الناحية مـــن مدريـــد،

وهنّ يدخّنّ عند الزوايا، يحرسهن قوّادون شبه ميّتين مثلهن، بين حوانيت الجنس وقاعات الألعاب، إلى جانب مخارج شوارع ضيقة تصل منها روائح المجاري.

كل وجه يتم نسيانه لزمن طويل، ثم يعود إلى البروز بنوع من ارتعاش الذاكرة، حضور لتلك الحياة الجديدة التي تعود الآن متذكَّرة وبعيدة، كذلك المنزل الذي يسكنه آخرون الآن، وإن كان وقتها بما لا يقبل المحو ملْكنا مثل قسمات وجهنا، لسنوات سبع خلت. مررتُ منذ مدة قصيرة بجانب مدخل عمارتنا، وتمكّنت من أن أرى من الأسفل، على قضبان الشرفة السّقفَ والجزءَ العلوي لأحد الجدران التي صبغناها بأصفر واضح. كان ذلك في إحدى العشيات الطويلة من مايو، مع استشعار فاتر بالصيف وباللقاح في الهواء، وفي الشرفة المقابلة كان المريض العجوز متكئا على مرفقيه، مرتديا الشبشب والمنامة، وبكمامته في الفم وأنابيب بلاستيكية في الأنف، ينظر إلى الحي، الذي ربّما رآني فيه وتذكّرني، أو لم يصل إلى التّعرف عليّ، بعد هذه الأعوام التي نادرا ما كنت أمرّ فيها بشارعنا القديم.

كان هنالك شاهد آخر دائم على كل شيء، الآن أتذكر، إنه عجوز ضخم، ذو ابتسامة واسعة ووجنتين ملوّنتين، واحد من أولئك الشيوخ الشجعان، الذين يبدو أن السّنّ تُصيّرهم أكثر تماسكا وأقوى. كان يتجوّل دائما عبر شوارع الحيِ بين ساحتي "تشوبكا" و"باثكيث دى ميِيّا"، بطيئا، منذ الصباح، مضخما بمعطف ذي تفصيلة عتيقة

وفارهة، وبرأس صغيرة تغطيها قبعة نمساوية تيرولية، وعليها ريشة خضراء. أمعنتُ النظرةَ في قبعته وحذائـه العمـلاق، لكـن علـى الخصوص في الأريحية الكاملة لتصرُّفه تجاه العالَم، بالصيغة التـي يبدو فيها يتجدَّد خلقه بموضوعية متَّزنة في كل ما كان يراه حولـه، ويظلّ واقفا أحيانا ليستمتع بالشعاع الأوّل للشمس الذي يـصل إلـى ركن من ساحة شويكا، في صباحات الشتاء، أو ليتأمـل باهتمـام أو موافقة مناورات عربة صغيرة للشحن والإفراغ وسط فوضى حركة السير، أو وصول سيارة الشرطة أو الإسعاف التي تأتي لحمل أحـد الأشباح الذي انهار جامدا عند مدخل بنايةَ. هو يلاحـظ كـل شـيء يتوقّف لحظة، ثم يواصل التنزه، كما لو أن كثرة وتعقُّد كل ما عليـه أن يراه على امتداد اليوم يمنعه من التوقف كثيـرا مثلمـا يروقـه، مستمتع وغائب، يرفع يده إلى القبَّعة لكي يُحيي ساندرًا فـي كـشكها لبيع الصحف، ومساعدا أعمى على المرور بين الـسيارات الـسيّئة الوقوف على الرصيف، متأمّلا بإعجاب أكياس البرتقال المعلَّقة على ديوان محل بيع الفاكهة، بل إنه يلقي نظرة مؤاسـية علـى أشـباح الزوايا، وحركة مطابقة في الاعتبار على سيارات الشرطة والعمليات التجارية السريعة والهاربة لبائعي المخدّرات. يا لها من غرابـة، أن تلتقيه يوميًّا عرضًا وأن أشرع في الانتباه شيئا فشيئا إلـى حـضوره المثابر، وأن أمنحه خصوصية محدَّدة، جد قويَّة ومـع ذلـك فهـي محدودة في ذلك الظهور بالشارع، وفي هوامش حياة المـرء منـا. وفجأة تتخلى عن رؤيته ولا تنتبه إلى غيابه، أو أن يكون الواحدُ منـا

قد ذهبَ هو نفسُه ونسيَ العادات ووجـوهَ تلـك المدينـة الهامـشية الصغيرة المُقيمة في قلب مدريد، وأن تتذكّر بعد مرور سنوات، دون سبب ودون حاجة، أو أن تحضر بالأحرى سلسلةً من التراجعات التي لا تساهم فيها الإرادة، حيث تترك الذاكرةَ نفسَها تَساق بما يشبه الدافع الصادر عن تيار تحت الأرض، أمكنةَ بعيدة ووجـوه لا اسـم لهـا، مقاطع حكايات لا بداية لها ولا نهاية، من الروايات التي يحملها كـل واحد معه ولا يحكيها لأحد، وتضيع معه. كيف ستكون حياة العجوز التي تضع كل منتصف ليلة منديل عشائها فوق غطاء برميل قمامـة أو حياة الرجل والمرأة اللذين لايزالان شابين، لكنهما جدُّ متدهورَيْن، يأتيان إلى الحي بحثا عن الهيرويين، يدافعان عربـة طفـل صـغيرة خربة مثلهما، قريب جدا من التفكك الجسدي، كأنه قـد جُمـع مـن القمامة، يدفعه الأب أو الأم عبر الأرصفة أثناء نزهاتهم شبه النائمة، والطفل نائم على الرغم من الفرقعات، والحلمة الصناعية على جانب فمه، وعيناه شبه مغلقة في وداعة، الطفل متوهِّج بالبُكـاء، والأب أو الأم يحرّكان العربة الصغيرة بحركات فجائية حتى إنها لتبدو سـوف تتكسر، أو إنهما غير مباليين بالبكاء كأنهما لا يسمعان، الاثنان تسمرا عند الناصية التي سيظهر فيها بين لحظة وأخـرى الظـلُّ الهـادئ والهارب الذي ينتظرانه. سيكونان في مكان ما الآن، لو كانا لايزالان على قيد الحياة، لو كان أحدهما لا يزال حيًّا، والطفل الذي كان حينئذ لم يبلغ العامين، سيكون الآن قد بلغ ثمانية أعوام أو تـسعة، ولربمـا يكون مسموما بالفيروس نفسه الذي كان، دون أدنى شك، يحمله أبواه

وقتئذ في الدَّم، ويمكنه أن يكون قد قتله، مثلما أنه يكون قد قتل كثيرا من أطياف الحي.

لا أحدَ يمكنه أن يعيد بناء وجوههم الآن: الموتى في الحياة اختفوا من زوايا أوغستو فيغورّوًا. كلُّهم تقريبا سيكونون قد التحقوا بمملكة الموتى، وبعضُهم سيكونون قد واصلوا الحياة في مستشفيات أو في سجون، أو سيسحبون أجسادهم كأشباح في الدروب بين الأنقاض التي يسوقون إلى التجمُّعات السكنية التي من قصدير وخردة في الضواحي القصيَّة لمدريد، التي دفعت الشرطة بهم إليها حين جاء الأمرُ الملزم بتنظيف شوارع وسط المدينة من المدمنين. هناك محل بيع الورود في المدخل حيث كان كشك "ساندرا"، التي كانت تبيع الصحف منتعلة خفًّا وسترة بيضاء، أو روب من المُخمل وقلنسوة من الصوف في أيام الشتاء، إنها لا تحلق لحيتَها في بعض الأصباح، وإنْ كانت تزوّق بعناية أطراف عينيها، على طريقة "سارة مُونتيل"، معبودتها.

وجوه أخرى تعود من النسيان، ليس على حال شبحية كما لو كانت حين التقائها بنا عبر أرصفة الحي. لقد تذكَّرتُ السّكير الغريق الذي أعاد إلينا الجرو الذي افترضناه ميّتًا أو ضائعا، وحينئذ عادت إلى خيالي تلك المرأة الطويلة جدا والنحيفة جدا، التي مشت إلى جانبه مدة من الزمن، واختفت مباشرة، بعد انقضاء أشهُر، وهو الوقت الأقصى الذي تدومه حياتهم قريبا من حياتنا.

حين تُرى من بعيد، يلمَح فيها ما كانت عليه حالُها إلى عهد ليس بالبعيد. كانت طويلة جدا مثل عارضات الأزياء، وكانت مثلهن بوجنتين أسيويتَين وفمٍ كبير ومُكتنز، ورجليْن طويلتيْن حين كانت تخطو. من وراء، أو من بعيد، كان يُرى وجهُها الطويل وقَصّةَ شعَرِها المجعَّدَة. وعند الاقتراب منها فقط يُرى شُحوبها، شحوبُ امرأةٍ ميِّتة على قيد الحياة، واللمَعانُ الكَدِر لعيْنيها الكبيرتين الصافيتيْن، الرّضوض في الرجليْن الجميلتين اللتيْن كانتا قد شَرَعتا في النحول كثيرا، الفراغ الأسود بين الأسنان التي فقدتها. كانت تمضي من ناحية لأخرى في الحي مثل طائر مختلٍّ يخبط ذاته بالجدران، ولا يعرف نفسَه أين يوجد، ولا يفلح في العثور على مخرج، تركض على عقبيها ورِجليها الحيويّتين اللتين لعارضة أزياء، لاتزال هيفاء، كأثر انضباط العارضات، هي أطول من أي فتاة في الحي، شعَرُها المجعَّد وعنقها الطويل البارز المتميز عن باقي الوجوه المقوّسة في المؤامرات التي تُحاك، أو حول ولّاعة، في مدخل بناية، تَسخِّن صُفيْحةَ الورق الفضي التي تتحوّل فوقها جرعة هيروين سائلةً ورطبة. كانت تمشي مختلّة ومعتوهة، كأنها على عجل كبير، أو تمكث ثابتة، وجْهُها مركّز على زاوية. العينان المائيتان تلمعان خلف تجاعيد الشعر المنفوش والوسخ، ابتسامة سكرى أو غبيّة في الفم المحطّم، الذي ينبثق منه دخان سيجارة، هي تُمسك بها بين أصابعها الطويلة جدا بهيئة متميزة لِلَقْطة فتوغرافية.

شرعت تنام في مداخل المحلات أو الحانات المقفولة، حيث اعتاد الفقراء أن يقيموا جحورهم من أسمال وعلب الكارتون، كان الشتاء قد بدأ، وهي الآن ترتدي فوق القميص والتنورة القصيرة الداعرة وسترة من الجلد التوليفي. في الأصباح الباردة يتّخذ السترة البيضاء لوجهها مسحة بنفسجية. ويغدو شعرُها أقلّ كثافة، وعيناها الكبيرتان والصافيتان كانتا قد فقدتا تقريبا كل أثر للون. كانت تطلب سيجارة من أيٍّ كان، وتحتفظ بها في يدها، وتنقلها وئيدا إلى الفم، منتظِرة أن تُقدَّم إليها النار كذلك.

ذات مرّة، طلبت دخانا أو نارا من سكّير الحيّ، الذي لم يكن مَنْ يُكلّمُه أبدا، لمعرفتهم أنه لن يَرُدّ أو أنه لا يبدو أنه يفهَم، ولا حتى يسمع ما كان يقال. هو هز كتفيه، همْهَم بشيء، وواصل طريقه، لكن في تلك الليلة، حين كانت المرأة ترتجف تحت معطفها في تجويف مدخل بناية بشارع سان ماركوس، رأتْ في ضبابية ظلًا يقف أمامها، وكان هو السكير الذي قدم إليها سيجارة، قابضا عليها بين الأصابع الواسعة والوسخة بعناية، كأنها ساق زهرة. أزاحت المرأة الشّعر عن وجهها ووضعت السيجارة بين الشفتين البنفسجيتين من شدة البرد، والسّكيرُ، الذي لم يرَه أحدٌ يُدخّن، مدّ إليها نارا مضيئا وجهها الذي لميّتة على قيد الحياة بلسان النار القصير الصادر عن ولّاعة.

كلُّ شيء يُعرَف مباشرة في الحي: لقد اشترى الدخان والولاعة من المحلّ الصغير نفسه الذي يتزود منه بكارتون النبيذ الأبيض،

وحيث في اليوم التالي، وخلافا لكل عـادة، اشـترى قـشدة وحلـوى الدونتس المحشوة بالشكولاتة، بهذا الأكل التافه المُحلًّى كثيـرا، كـان المدمنون يتغذّون: إلى جانب صُفيحات الورق الفضي والحُقَـن كانـت تظهر دائما لُفافات شطائر الشوكولاتة وعلب صُفيتٍ من القشدة.

بدأ يأتي إليها كل ليلة بأشياء في تجويف مدخل البناية حيـث كانت تلوذ، وأحيانا دون أن يوقظها، ودون أن تلاحظ هي حـضوره بين الارتجاف والهذيان، كان يغطيها في سترته الأكثر قذارة من التي ترتديها هي، وشوهِد ذات ليلة يسحب عبر شارع بيلايُو لحافا ممزّقـا وقذرا يقتضي أن يكون قد عثر عليه في حاوية قمامة. كان يتحـرك بحيوية، ومتفكرا وبدائيا، مثل الغريق روبنسون وهـو يهيـئ فـي جزيرته كوخا أو مغارة يقضي فيها الشتاء. لم يكن يمضي النهار أبدا بعيدا عنها، وإن كان لا يقترب أو يجعل نفسَه مرئيًا، كان يظلّ منتهيا إلى جانب زاوية كان يسهل عليه الاختفاء وراءها، غيرَ مبـال بمـن يمرون بجانبه، ويبتعدون عنه خوفا منه أو اتقاء لرائحته، مركّزا فقط على الوجه العالي، الذي كان من تلك المسافة وجـهَ امـرأة شـابة ومستقيمة القدّ، التي كانت تخطو خطوات واسـعة بـين الـسيارات والناس، في ضَلال طائر مخبول، المرأة التي كانت تختفي كأنها قـد غابت إلى الأبد، وتعود بعد ذلك، بعد انقضاء ساعات، وحتـى بعـد أكثر نحافة وشحوبا من المرة السابقة، وأكثر تقوّسـا فـي مـداخل العمارات، أو في التجاويف التي تلوذ بها حين يوغل الليل، ولا يبقى

من أحد في الشوارع المظلمة، لا أحد سوى الموتى على قيد الحياة الأكثر إصرارا على غيِّهم، الذين في الثالثة صباحا أو الرابعة يواصلون انتظار شيء، وينامون مُلتوين مستندين إلى الزوايا.

من المحتمل أن تكون هي التي وجهتْ إليه الكلام، طالبةً منه في ذهول وعجرفة أن يُحضر لها سجائر مرَّةً أخرى، أو يوغورت، أو حلوى الدونتس من الحانوت التي يدخلها حين لا يكون أحد، ويضعُ، دون أن يقول شيئا، حمولةَ كارتون النبيذ الأبيض الذي يمكنه استردادُه. كان يدفع دائما، وأبدا لمْ يرَ طالبًا. تحكي صاحبةُ المحلِّ أنه كان الولد البكر لأسرة من الشمال غنيّة جدا، وأنه كان يراهن على تجاوزات أب مستبد كان قد طرده أو جرّده من الإرث، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يهتم بألاَّ ينقصَ الابنَ الغريق في الجنونِ والكحول حدٌّ أدنى من النقود، كي يواصل العيش ومن الملابس ليلًا يموت بردًا في الشوارع.

لكن قصته الحقيقية لم يصل أحد إلى معرفتها، مثلما لا يُعرف اسمُه، إلا إذا كان قد ذكره للمرأة التي بدأ شيئا فشيئا يتقاسم معها المبيت ليلا عند النواصي الأقل عرضة للعراء بالحي. لم يُشاهَدا وهما يمشيان معا أبدا، لكنهما كانا يأويان معا في الليالي الباردة من ذلك الشتاء، أو بالأحرى كان هو من يُؤويها ويحميها، ومن يستمرّ يقظا ومنتبها كي لا تتعرَّى، مَنْ يهيئ لها بيد مجرَّبة سريرَها من الكارتون وصفحات الصحف ويُغطيها بعد ذلك بسترات، في ألحفة

انتشلت من صناديق القمامة، أي الملابس التي يلتقطها الآن عبر الحيّ مثل تاجر متجوّل. كان هنالك توهُّج متحرّك في ظلمة ساحة باثكيث دي ميّا الشاسعة وهي أن السكير أشعل نارا إلى جانب المرأة النحيفة والطويلة، تستدفئ كأبي الهول، وهي تدخن السجائر التي جاءَها بها، والتي كان يشعلُها لها بحركة سريعة كلما رفعتَ هي واحدةً منها إلى شفتيها، آكلةً اليوغوت أو حلوى القشدة التي كان قد اشتراها لها في الوقت نفسه مع كارتون النبيذ.

الآن، أجل، هو يتسوّل دونَ أن يقول أي شيء، يمد يده فقط وينظر إلى العينين، أو يقوم بحركة رفع السيجارة إلى الفم، كان يطلب نقودا ويطلب دخانا، وإن كان لا يصل إلى تبادل الكلمات مع أحد، فإنه يبدو أنه للمرة الأولى كان واعيا بوجود أُناس آخرين في العالم، لأكثر من حضور آخر يطالب بحضوره أو ما يلزمه أن ينتظر منه شيئا لما كان حتى آنئذ عزلةً جزيرته الجرداء. لم يكن يتقاسم مع المرأة لا الدُّخانَ ولا الهيروين، ولا كان يعطي الانطباع بأنه قد وُجد رابط جنسي بينهما، لكن لِترات النبيذ الأبيض كان يمرَّر فيما بينهما، التي كانت تسيل من فمِها الواسع المكتنز تاركا لمعانا نديًّا في الشفتين والعينين.

كانا يُشاهدان في الظل مثل حيوانين في عمق جحر، يتسامران وحيدين في البعيد من صنف آخر، كأنهما يتقهقران إلى الوحشية أو إلى براءة ضلالهما الحتمي، إلى القدر الكارثي والموت، غير

ملموسين، أجنبيين جِدًّا عنّا نحن الذين نمر بجانبهما، مَحْميَّين بمعاطفنا وحياتنا العادية، في طريقنا إلى منزلنا الجديد الدافئ والمستقر، كأننا حقيقة نحيا في عالَم آخر، في العالم الآخر، في إحدى تلك المغارات أو تجاويف الحُفَر التي يلوذ بها الرجال البدائيون أو الغرقى.

بعد انصرام وقت ما، أسابيع أو شهور، اختفت المرأة، وسنكون قد نسينا بيُسر كبير وجودَها العابر فقط لأن السكير قد استمر في الحي، وديعا مستقرا، منعزلا ومنطويا على نفسه، كان سيروقنا أن نرى فيه، بحُكم روتينية روائية، نوعا من الحزنِ العاطفي، ومسحةً أكثر تنبُّها، كأنه يبحث في زوايا الموتى على قيد الحياة عن الوجه الطويل للمرأة التي من بعيد كانت تبدو عارضةَ أزياء. لكن أيضا لم نكن نهتمّ به كثيرا هو الآخر، لأننا شرعنا في التعوّد على وجوده، في الحدود التي صرنا فيها نحن أنفسنا حضورا معتادا في الحي، ولم نكن نولي اهتماما كثيرا لما كان يحدث يوميا في الشوارع، الرجل، المرأة والولد الذي صار يمضي وحيدا إلى المدرسة، ويخرج كل مساء بسندويتشه ويسحب من الحزام الكلب الصعبَ المراس، الذي تخلى عن كونه جروا صغيرا.

ذهبوا هم أيضا، كانوا مألوفين ذات يوم وفي اليوم الآخر اختفوا إلى الأبد، وعاد رجل الشرفة إلى ملاحظة أن البيت المقابل قد مكث فارغا وحضر مجيء مستأجرين آخرين، شهورا أو سنوات بعد ذلك، ولم يستطع قول ذلك، لأن الوقت بالنسبة لحياته المريضة كان

استمرارا بطيئا دون تغييرات حقيقية. شهورا أو أعواما بعد ذلك نجد أنفسَنا مع جار قديم لا يزال يعيش في الحيّ. لنتكلّم عن الأزمنة التي تحوّلت سريعا بعيدة، الحياة الجديدة غير السليمة تُرتَسم في حلاوة الماضي، وسألنا الجار إنْ كُنّا لانزال نتذكر السِّكير الذي كان يمشي عبر الشوارع. حكى لنا أنه ظهر ميّتا ذات صباح مثلج في ساحة باثكيث دي مييًّا، بنفسجيَّ اللون من البرد وبلحية وأهداب بيضاء بالصقيع، متصلّبا ومملوءا بالأسمال، كأنه من أولئك المستكشفين القُطبيِّين الذي يتيهون ويُجنّون في قِفار الثلج.

شهـــرزاد

كنتُ جدَّ متوتّرة ونحن نعبر تلك الصَّالونات الذهبيةَ حتـــى أن رجلي بدأتا ترتعدان وكنت أرغب في الضغط على يد أُمـــــي التـــي كانت تتقدّمني ببعض خطوات، رصينة وصـــامتة، ككـــل مَـــن فـــي الموكب، ترتدي الأسْود حدادا على أبي وأخي، والآخـــرون بحللهـــم القاتمة، جد متصلّبين، رسميين، وإن كانوا يخفـــون ذلـــك، وكـــذلك متأثرون، غارقون في الصمت حتى إن لا شيء كان يُسمع ســـوى خطوات الجميع على الأرضية المرمرية، كأننا نخطو على صـــحون كاتدرائية، ،أنا إلى جانب أمي، كما كنت دائما في حيـــاتي، متـــأثِّرة وقلقلة، بغصّة في حلقي، أنظر إلى جانب وجهها الذي لم يستدر ولـــو لحظةً ناحيتي، منتصبة جدا كانت تمـــشي، أطـــول وأقـــوى منـــي، وبكبريائها الذي لأرملة وأمٍّ لبطلين، أمي التي كانت يمكن أن تنظـــر إليّ بوجهها نظرة بين الصارمة والمازحة لو أني لم أتمالك نفـــسي، ولمْ أحاول الضغط على يدها، وأترْكَني أُقادُ وأُدْعَمْ من لـــدُنها، كمـــا كنتُ طفلةً، وكُنتُ أُساق إلى مُظاهرة، وأنا أضغط على يدها القويـــة جدا حتى إن الأصابع كانت تؤلمني، لأنـــي كنـــتُ أخـــشى أن يبـــدأ

الضجيج، وأن نبتعد عني أمي وأبي، وأن يهجم الحَــرَس فيدوسَــني الناس الذين يهربون والخيول التي كنا نسمعها تصهل وتخبط الأرض بالحوافر قبل أن ينخسها فرسانها كي تندفع ضدَّنا. بعض الجنــود أو الحجاب كانوا يقودوننا عبر تلك الممرات، وكانوا يسبقوننا كي يفتحوا الأبواب التي كانت عالية وذهبيَّة في بعض الأحيان، وأخرى كانــت عادية جدا كأبواب المكاتب، وكلما كنا نعبر واحدة منها كــان قلبــي ينقبض، وأخمِّن، الآن سيكون موعد رؤيته، حين سيكون جد قريــب مني، وأني سأصافح يده، هذا إذا لم يُغْمَ عليَّ، أو إذا لم أخْــضْ فــي البكاء كغبيَّة، كما تقول أمي، لأن لديَّ ردود أفعال طفلة صغيرة، وإن لم أكن صغيرة وقتذاك، ولا كنت كبيرة جدا، كنــت ســأُقفِل خمــسا وعشرين سنة في يناير، وكنا في ديسمبر، يوم ٢١ ديــسمبر ١٩٤٩، يوم عيد ميلاد ستالين، ونحن جميعا كانت ستتاح لنا فرصـــة تهنئتـــه باسم حزبنا، واسم العُمَّال الإسبان، في حفاوة رسمية أكبر من المرات السابقة، لأنه كان سيُكمل السبعين سنة، وعيد الميلاد ذاك كان احتفالا كبيرا بالنسبة إلى كل الشيوعيين وعمَّال العالم. كان هناك رجال مــن بلدان أخرى في تلك الزيارة، يبدو لي، إضافة إلينا رفاق من أحزاب أجنبية، لأني أتذكَّر أن الصالون الذي ساقونا إليه كان كبيــرا ومليئــا بالبشر، وإن كانوا لا يرفعون أصواتهم كثيرا، قليلا فحــسب، لأجــل الخطابات، ولم يكن ذلك كثيرا وقتئذ، أعتقد أننا كنَّا جميعا مُتــساوين في الانفعال، ومُباغتين، لستُ أدري إنْ كانت هي الكلمة الإســبانية، كثير من المرات أكون سأقول شيئا، وحين أكون قد بدأت في التحدث

أنتبه إلى أني أقول الكلمات بالروسية، لأن الكلمات بالإسبانية تعوزني. كانت هنالك ثريَّات هائلة مُضاءة، لكنها لم تكن تبعث كثيرا من النور، أو لربَّما لوجود الدَّخان، أو لأن السماء كانت معتمة كثيرا خلف النوافذ الكبيرة، ولو أن الوقت كان نهارا، أتذكَّر كل شيء ضبابيا بعض الشيء، وكذلك أني لم أستطع الاقتراب كثيرا من ستالين، لم أصافح يده، لست أدري إنْ كان بإيعاز من أمي التي قامت بحركةٍ كي لا أنضمَّ إلى الصف، أو لأن شخصا دفع بي إلى الخلف، ووجدتني في مجموعةَ أخرى، عموما أنا لم أكن ذات أهمية، لقد سُمِح لي بالانضمام إلى وفدنا لأني توسَّلتُ إلى أمي أن تأخذني معها، ولأني أرغب حينَ سيكون لي أبناء وأحفاد في أن أحكي لهم أنه ذات مرَّةَ في حياتي، رأيتُ عن قرب وبأمِّ عينيَّ ستالين.

كنت متوترة جدا حتى إني لمْ أركِّز كثيرا على ما كان يحدث حواليَّ، أو لم أكن أفهمه، كنتُ أرى كل شيء ضبابيا مثلما أتذكَّرُه الآن، بذلك النور الشاحب، وتلك الأصوات التي تُسمَع خافتة. لكن ستالين، أجل، تمكَّنت من رؤيته جيِّدا، على الرغم من ذلك الدخان أو ذلك الضباب الذي كان موجودا، وعلى الرغم من الضوء الرديء الذي كانت تبعثه الثريَّات، كان جالسا وسط مائدة جد طويلة، كان يتحدَّث مع أحدهم، دون أي شكليات، يدخِّن ويضحك، وأنا كان عليّ تقريبا أن أقرص ذاتي، كي أُومِن أني حقيقة كنتُ أراه، بلحمه وعظمه، لا خلط في الأمر، كشخص من عائلتي، كما كنتُ أثناء طفولتي، أرى والدي بين باقي الرجال. لكن أيضا جد مختلف، لستُ أدري كيف أفسِّر

ذلك، لأنه كان مثل صوَره التي كنا قد رأيناها دائما في كل الأماكن، ومع ذلك فهو لم يكن يشبهها كثيرا: كان أكبر كثيرا، وأصغر كثيرا، أنا حدّقت ورأيت رِجليه القصيرتين تحت المائدة، وحذاءيه العسكريَّين متضامَّيْن، وحين كان يضحك كان وجهه يمتلئ تجاعيد، وكانت أسنانه صغيرة جدا مهشّمةً، أو جد سوداء بسبب التبغ، وكان زيُّه يبدو عليه أكبر قليلا، لكن بالتحديد لذلك تأثّرت أكثر ممّا كنتُ أتوقّع، وبطريقة أخرى، لأني كنتُ اعتقدت أني سأرى عملاقا في كمال قوته، وكان الأمر أن وجدتُ ستالين رجلا عجوزا متعبًا، كما كان أبي عند نهاية حياته، وأنه كان أكثر هشاشةً ممًا لم أكن قد تخيّلته أبدا، بتلك القوة الهائلة التي كان يستدعيها الكفاحُ ضدَّ القيصر، كي يدير بناء الاشتراكية، ويربح الحرب ضد النازيّين، وكان يُرى أن أعواما كثيرة من الجهد والتضحية قد أنهكته، كما أنهكت أبي السنوات في المنجم وفي السجن، كان له وجه مَنْ لمْ ينمْ جيّدا، وكان يبدو أحيانا ساهما، كأنه يفكّر في شيء آخر بينما يُحدّثه أحدُهم، أو بينما يُنصت إلى خطاب، حتى إني كنتُ أشفق عليه، للون بشرته الشاحبة تلك، سنوات كثيرة دون راحة أبدا، منذ أن كان طفلا في أزمنة الزّارات حين رحّلوه إلى سيبيريا. بعد ذلك، قالت لي أمي ساخرةً مني، كان عليك أن ترى الحال التي كان عليها وجهك وأنت تنظرين إليه، كنت تمكثين فاغرة فاك، كأنك كنت ترين ممثلا سينمائيا. لكن حينئذ حدث شيء، بينما كنت أنظر بثبات إلى ستالين، دون أن أنتبه إلى أني لم أكن أحوّل عينيَّ عنه، وأني لم أكن أرى

أحدا سواه، حتى الأشخاص الذين كانوا إلى جانبي في المائدة، الـذين كنت قد نسيتهم تماما. كنت أنظر إلى ستالين راغبةً في الاحتفاظ بكل تفاصيل وجهه؛ وأنا أحس بنوع من الأسف له، بسبب الحال المرهقة التي بدا عليها، وبسبب كِبَر سترة الزّيّ على جسده، حينئذ أحسست شيئا كأنه نخسة، كما يحدث حين يُمَسُّ خيط ويصعقُكَ بشحنة كهربائية. شخص ما كان يراني في ثبات، وببرودة كبيرة، لكن بحنق كبير أيضا، كأنه يوبِّخني على سوء أدبي لأني أنظر بوقاحة إلى ستالين، رجل قصير وأصلع كان يجلس قريبا جدا منه، يرتدي منظارا، منظارا قديما له ملقاط، وربطة عنق صغيرة مصطنعة كذلك وعتيقة وعنق طويل. بقيت جامدة، لا أزال أتذكّر ذلك وأحسّ بقشعريرة، كان الشخص الذي ينظر إليَّ هو "لَافرينْتي بيريَا"، لم أخف منه لأنه كان رئيس جهاز المخابرات السوفيتية، وإنما لشكل عينيه اللتين كانتا تبدوان كأنهما تخترقان المسافة التي كانت تفصلنا كأن لا شيء كان يحول بيننا، خلف تلكما العدستين الزجاجيتين المستديرتين الصغيرتين، المُعلّقتين بملقاط على الأنف. كان ينظر إليَّ كأنه ينظر إلى حشرة، كأنه يقول لي، منْ تعتقدين أنَّكِ تكونين كي تنظري إلى ستالين بتلك الوقاحة، كيف تمكّنتِ من أن تندسّي في هذا المكان، لكن كان هنالك شيء آخر، وأنا كنتُ حينئذ غبيّة جدا حتى إني لم أنتبه، وإنْ كنتُ قد أحسستُ بالغريزة بنوع من القرف، كذلك الذي يثيره فيَّ أولئك الرجال الذين كانوا ينظرون إليَّ حين كنتُ أعيش في إقامة الفتيات، ولم أكن أفهم لماذا كانوا يتنفسون بقوة كبيرة وينظرون إليَّ

بثبات، أو الذين كانوا يحتكّون بي مستغلِّين ازدحام الترام. كان ذلك في لحظة، وأنا صرفتُ عينيَّ، وما عدت أتجرأ على النظر إلى ستالين مجدّدا، وظللتُ الوقتَ كلَّه أحس بتلك النظرة التي ربّما استمرّتْ مركزة عليَّ، والتي قد تكون انخفضت بكل برودة ووقاحة من عينيَّ إلى فمي، وبعد ذلك إلى عنقي وإلى كتفي. الآن، وأنا أتذكّر ذلك، لا أعتقد أنه قد بقي على قيد الحياة كثير من الناس الذين يتذكّرون عيني بيريَا اللتين كانتا تختفيان حين انعكاس الضوء على زجاج منظاره.

أجلس هنا وتشرع الذكريات في الورود عليَّ، ويتهيّأ لي كأنه كذب أنْ تكون قد حدثتْ لي أشياءُ كثيرة، وأن أكونَ قد عشتُ في تلك الأمكنة البعيدة جدا، في البحر الأسود وفي سيبيريا، في دائرة القطب الشمالي، لكنني أنا أيضا هنا بعيدة، ولو أنني أوجَد في مدريد، لأن مدريد بعيدة جدا عن موسكو، وإضافة إلى ذلك فأنا أعرفها أقلّ بكثير، ويخيفني أن أخرجَ إلى الشوارع التي بها سيارات كثيرة وبَشر كثير، أخاف أن أضيع وألاّ أتذكَّر طريق العودة، وكذلك بقيت خائفة جدا حينَ سُرِقتْ مني بالقوة بعضُ أشيائي فورَ خروجي من مدخل البناية، لقد أُلْقِي بي أرضا، وانتُزِعتْ مني حقيبة يدي، أرى ولا أرى، لقد بقيتُ مطروحةً على الرصيف أصرُخ، اللص، اللص، دون أن يقترب مني أحد، وحين أفكِّرْ في المسألة أقولُ ربما كنتُ أصرخ بالروسية؛ نظرا للمشكلة التي لديَّ بين اللغتيْن، فأنا أتكلّم بإحداهما،

وأفكر بالأخرى، أي أريد أن أقول كلمة بالإسبانية فأنطق بكلمة أخرى بالروسية، أحلم بالروسية دائما، ودائما أحلم بأشياء تنتمي إلى هناك، أو إلى زمن بعيد حين كنتُ لاأزال طفلة، قبل أن يبعثوا بنا إلى الاتحاد السوفيتي لقضاء عدة أشهُر، كما كانوا يقولون لنا، ثم يردفون إلى حين تنتهي الحرب، لكنّ الحرب انتهت، ولم يتمّ إرجاعنا، وبعدها مُباشرة بدأت الحرب الأخرى، وها قد أصبح الرجوع مستحيلا، وبدا أن العالَم سينتهي؛ لأنه تمَّ ترحيلنا بعيدا، لستُ أعلم كم يومٍ سافرنا بالقطار، أيام وأسابيع، ودائما بين الضباب، وكنتُ أتصوَّر أني في كل مرَّة أبعد أكثر فأكثر عن إسبانيا، وعن أبي وأمي، وإن كنتُ لا أتذكَّرهما، بل إني بدأتُ أُكِنّ لهما بعض الحقد، يُخجِلني أن أقول ذلك، أظنّ أنه ما كان عليهما أن يترَكاني أذهب في تلك السفينة، وألومهما على أنهما ترَكاني مرَّةً أخرى أمضي وحيدة، مثلما كانا يمضيان إلى اجتماعاتهما في النقابة، أو في الحزب، وكنّا نبقى أخي وأنا وحيدين طيلة الليل، كان أخي الصغير يبكي لأنه كان يخاف، أو لأنه كان جائعا وأنا أحضُنه بين ذراعيّ، وإن لم أكن أكبره كثيرا، كم كان خائفا وهزيلا من سوء الأكل، وما أصبح عليه من قوة وشهامة بعد ذلك، حتى إنه في الثانية عشرة من عمره كان يخرج معي لبيع صحيفة "عالم العمال"، حين كنا نعيش في مدريد، وكان يقول لي، أنتِ لا عليكِ، لا تخافي من هؤلائك اليَمينيّين، لو حضروا ناحيتنا فسأدافع عنكِ، وبعد ذلك عندما أتم العشرين من عمره، كان قد

أصبح طيارا في الجيش الأحمر، كان يأتي إلى زيارتي، ويرفعني في الجو حين يعانقني، كان وسيما، بزيٍّ الطيران العسكري ونجمته الحمراء على قلنسوته، جاء ليُودِّعني لأنَّ كتيبته بُعِثَ بها إلى جبهة لينينغراد، ولم يتوقف عن الضَحك وترديد أغنيات إسبانية معي، لقد هيَّج كلَّ فتيات مدرسة ممرضات الحرب، وفي تلك الليلة رافقتُه إلى المحطة، وحين كان القطار قد شرع في التحرك قفز من سُلَّم الصعود، وعانقني وقبلنى مرة أخرى، وقفز مجدَّدا إلى القطار، وتمسّك بالدرابزين كأنه يركب حصانا، وودَّعني بتحريك القلنسوة التي في يده، ولم أعُدْ إلى رؤيته بعدُ أبدا، هذا هو الأغرب في الحياة، الشيء الذي لم يمكنني أن أتعوَّد عليه، أن يكون شخص تحبّه كثيرا قريبا منك، وقد كان معك، وفي لحظة بعد ذلك يختفي، ويغدو كأنه لم يوجد أبدا. لكني أعرف أن أخي مات كبطل، لقد واصل العِراك مع الطائرات القناصة الألمانية حين كانت طائرته بمحرّك يحترق، وقصَد بطارياتِ المدفعية العدوّة ليصطدم بها، بطل من الاتحاد السوفيتي، لقد نشروا صورتَه في صحيفة "البرافدا"، وَسِيم جدا يبدو كممثل سينمائي. أجلسُ هنا وأتذكّرُه، تجيء الذكرى إلى خاطري دون أن أفعل شيئا، كأن الباب يُفتَح ويدخل منها أخي في هدوء، بابتسامته المعهودة، أراهُ أمامي بسترته التي يرتديها الرَّبابنة، وأتخيَّلني أننا نتحدَّث ونتحدّث، وأننا نتذكَّر أشياء كثيرةَ قديمةً، وأنا أحكي له ما حدث لي بعد موته، منذ أزيد من خمسين عاما، وكيف تغيَّر العالم،

وكيف ضاع كلُّ ما كُنَّا ندافع عنه، ما دفع هــو وآخــرون كثيــرون حياتهم في سبيله، لكنَّه لا يفقد أبدا خفّة دمــه، يحــك رأسَــه تحــت قلنسوته، ويضربني على ركبتي، ويقول، هيًا، يا امرأةَ، لا يــستحق الأمر هذا الغَمَ، أحيانا أكون يقظى وأراه أمامي بالوضوح نفسه الذي أراه عليه في الأحلام، وما يبدو لي أغرب ليس عودته، أو أن يستمرّ فتًى في العشرين من عمره، وإنما أنْ يتكلَّم إليَّ بروسيةٍ سريعة جــدا ورفيعة دون أي لكنة، لأنه بالنسبة إليه كانت الروسية لا تستقيم على لسانه، أسوأ من حالتي، في البداية، حين كان يَتَحدَّث إليَّ ولا أفهــم، وأجدني في مشكلة، وعدم الفهم كان أسوأ من مكابدة البرد ومعانــاة الجوع. الآن، على العكس، فما لا أفهمه هو الإسبانية، لم أتعوَّد على أن يتحدَّث الناس من فوق، وفجأة، كأنهم على عجلة من أمرهم دوما، أو أنهم غِضابٌ جدا، مثل السيد الذي أعانني على النهوض أخيرا يومَ الاعتداء عليَّ، بل إنه أسندني، لأن وركي كان يؤلمني كثيــرا، وأنــا خمَّنتُ أن يكون قد انكسر، وأنه ربما سيُوضع لي جص على الرِّجل، ولن يمكنني أن أخرج إلى الشارع، ولا أنْ أصلحَ لذاتي، منْ ســيأتي لمساعدتي، وكان الرجل يقول لي، تبًّا، سيدتي، هل أرافقك إلى مخفر الشرطة لوضع شكايتك، أكيد أنه واحد من أولئك المُورُوس[١] الــذين في هذه الأمكنة، وأنا شكرتُه، لكني كذلك وقفتُ قائلةً بتلطُّــف لا يــا

(١) Moros الموروس نعت تحقيريّ يطلقه الإسبان على المغاربة.

سيدي، لم يكن مغربيًا ذاك الذي اعتدى عليَّ، وإنما رجل أبيض، إضافةَ إلى أنهم لا يُسمَّوْن موروس، وإنما مغاربة، وأَمْرُ تبليغ الشرطةِ عليه الانتظار، لأن ما أستعجله الآن هو الوصول إلى المظاهرة، فإن اليوم هو الأول من مايو. نظر إليَّ الرَّجل كأني كنت حمقاء، وإذن أنتِ، يا سيدتي، تقرِّرين ما تشائين، وأنا شكرته ومضَيتُ إلى المظاهرة، مضيتُ أعرج لكني مضيت، وحين انتهتْ حملني بعض الرفاق في سيارتهم إلى مخفر الشرطة، ووضعتُ الشكايةَ، لكن فاتح مايو أنا لا أُضيِّعه، وإنْ لم يكن هو نفسه، وكل مرَّةَ يأتي إليه أناس أقل عددا، وأصبح أقل جاذبية، وقلت أعداد الأعلام الحمراء والأيدي المقبوضة، وإن الذين يتقدّمون المظاهرة خلف اللافتة الكبيرة لا يعرفون ما تعنيه العالمّية.

الآن، ليس الأمر كما كان حينما كُنا نخرج مع أبي وأمي، أنا كنت أنظر إليهما وَرُبَا كي أرفع قبضتي على غرارهما، قبل الحرب، عَبْر شارع القلعة، الذي كان بحرا من البشر والأعلام الحمراء، ثم في الاتحاد السوفيتي في الساحة الحمراء، في الأول من مايو من العام الذي انتهتَ فيه الحرب، لم تتسع الساحة لمزيد من الناس، ومزيد من الصراخ، ومزيد من الأعلام، ومزيد من الأغاني، ومزيد من الحماس، ملايين من البشر يهللون باسم ستالين، وأنا مضغوطة بين الحشود، أُهلِّل أنا أيضا، منفعلةً حين أفكر أن تلك الصورة الصغيرة التي تُرى في العمق البعيد، في المنصة، فوق ضريح

ستالين، كان هو يبكي من الفرحة والشكر، لأنه قد دلّنا في طريق الانتصار على ألمانيا، الانتصار الذي كلّف الملايين الكثيرة من السوفيتيين، أخي المسكين من بينهم، وإن كان يبدو الآن أن تلك الحرب قد ربحها الأمريكيون، الذي قاتلوا هم وحدَهم، والناس يعرفون ما كان يعني الإنزال البحري بسواحل "نورماندي"، ولا يعرفون أنه كان في ستيلنغراد حيث هُزِمَ الجيش الألماني للمرة الأولى، في المعركة الأكثر دموية والأكثر بطولة خلال الحرب، ولأنهم لا يعرفون أنه كانت هناك مدينة تُسمَّى ستلينغراد، وقد استعجلوا كثيرا بتغييرهم لاسمها، كما هو شأن لينينغراد، باللخجل، التي تُسمَّى الآن مثلما كانت أيام القياصرة، سان بترسبورغ، الذين يرغبون في إعلان قداسة نيقولاي الثاني، الذي أمر بأن يُطلقَ رصاص الرشاشات على الشعب أمام "قصر الشتاء". لكنني أرى أن ملامح حضرتك تعني أنك غيرُ راض، وإن كنتَ ترغب في إخفاء ذلك، لا تعتقد أني لا أعرف ما يحدث، كل تلك القصص حول المعتقلات وجرائم ستالين، كأن ستالين لم يقم بشيء آخر سوى الاغتيال، أو كأن كل الذين قضوا أحكاما في الاعتقال كانوا أبرياء، بالطبع، كانت هنالك أخطاء، الحزب نفسه اعترف بذلك في مؤتمره العشرين، وندّد بتقديس الشخص، وتمّ القيام بما يمكن فعله لجبر الضرر، ولإعادة تأهيل من لم تكن لديهم أية مسئولية، لكن كيف لن يكون هنالك تقديس للشخص إنْ كان ستالين قد قام بالشيء الكثير لأجلنا، لأجل الشعب السوفيتي، ولأجل عمّال كل العالم، إنْ كان قد

أنجز القفزة الهائلة من التأخّر إلى التصنيع، الخُطط الخماسية التي كانت محطّ حسد العالم وإعجابه، إن كان الاتحاد السوفيتي تخلّى، في ظرف عشرين سنة، عن أن يكون بلدا متأخّرا وزراعيا، وتحوّل إلى قوة عالمية. كل ذلك في الظروف السيئة، بعد حرب مفتَعَلة منْ قِبَل الإمبرياليين، وسط الحصار والمقاطعة العالمية، في بلد كان ينقص فيه كل شيء، حيث الأغلبية الهائلة من الشعب كانت أمّيّة، وكان الناس عبيدَ القيصر والكهّان. انظرْ سيادتك إلى ما كانوا عليه، أو ما كُنّاه، لأني كنتُ مواطنة سوفيتية، وانظر إلى البلد كيف هو الآن، كيف أنهم حطّموا في سنوات قليلة ما كلف بناؤه عديدا من الأجيال، أكبرُ بلد في العالم تمّ تجزئته إلى قطع، وروسيا سُلّمت للمافيا ويحكمها سكير، قل لي إنْ هُمُ الآن أفضل مما كانوا عليه في أزمنة ستالين، أو أزمنة بريجنيف، حين كان يُقال إن الشعب كان يُعاني كثيرا من القمع. ما لا يُقال هو وجود مخرّبين وجواسيس في كل الأنحاء، وإنّ الإمبريالية استعملت أقذر الطرق لتدمير الثورة، وإن كثيرا من اليهود قد استولوا على مراكز أساسية في الحكومة، وإنهم قد تآمروا لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل.

يهود، نعم سيدي، لا تنظر إليَّ بهذا الوجه المستغرب، كأنك لم تسمع من يتكلّم بذلك أبدا، ألا تعرف أن مؤامرة قد حيكت من قِبَل أطباء يهود لاغتيال ستالين؟ وبعد ذلك، كان هنالك من يَستغل الوضع ويُسرف في استغلال ثقة ستالين والحزب كي يَغتني، أو يزداد سلطة، لكن هؤلاء الناس دفعوا في النهاية ثمن أخطائهم، لأن ستالين كان جد

مستقيم، حتى إنه كان لا يسمح لأي أحد ممَّن يُحيطون به أن يستغل ثقته. لقد دفع الثمنَ "بِزْهوف" الذي ارتكب كثيرا من التجاوزات، بأن اعتقل كثيرا من الأبرياء، وبعدَه دفع الثمنَ "يَاغودَا"، وإن كان أسوأهم جميعا- حسب قولهم- هو "بيريا"، الذي استطاع أن يخدع ستالين حتى النهاية، لكنه هو الآخر لقي جزاءه، وقيل إنه حين كان سيُعدَم جلسَ على ركبتيه وشرَعَ يتوسَّل ويسُبّ، قل لي إن كانت العدالةُ قد اشتغلت في الاتحاد السوفيتي أم لم تشتغل. لكنهم الآن يريدون أن يُخفوا كل شيء، أن يمحوا كل شيء، حتى الأسماء، يريدون أن يجعلوا الناس تعتقد أن الشعب السوفيتي كان مقموعا، أو ميِّتا من الخوف، وأن موت ستالين كان تحرُّرا، لكني كنت هنالك، وأعرف الذي كان يحدث، ما كانت الناس تُحسُّه، أنا كنت في موسكو في الصباح الذي قيل فيه عبر الراديو إن ستالين قد مات، كنتُ في المطبخ، أهيئ قهوةَ الصباح، لقد استيقظت بغثيان، لأني كنتُ حاملا بابني الأوَّل، وحينئذ شرعت تلك الموسيقى تتردد في الراديو، وتوقفت ثم كان صمت، ثم تكلَّم مذيع، بدأ يقول شيئا، لكنَّ صوته تهدَّج بُكاءً، وتقريبا لم أفهمه حين قال إن الرفيق ستالين قد مات. لم أستطع تصديقه، كان الأمر شبيها باللحظة الأولى التي قيل لي فيها إن أخي مات في لينينغراد، أو حين مات أبي، لكن أخي كان في الحرب، وأنا كنتُ قد قَبلتُ إمكانية وفاته، وأبي كان رجلا عجوزا، ولم يكن بإمكانه أنْ يعيش طويلا، لكن إمكانية أن يموت ستالين لم تخطر على بالي أبدا، ولا على بال أحد، كان بالنسبة إلينا أكثر من أب أو قائد، كان مثل إلهٍ بالنسبة إلى المؤمنين. اندفعْتُ إلى الشارع،

دون أن أعرف إلى أين أمضي، دون لباس كثير، وإن كان الثلج يسقط، ووجدتني في الشارع ألتقي بكثير من الناس شبيهين بي، كنت أمشي شبه نائمة، أقف عند زاوية وأجهش باكيةً، نساءٌ عجائز يبكين بفم مفتوح، جنود يبكون بوجوههم الشبيهة بوجوه الأطفال، عمّال، كل الناس، حشد يسوقني معه كأنه نهر من الأجساد تحت الثلج، في اتجاه الساحة الحمراء، كأنه يتصرَّف بالغريزة، لكن الشوارع كانت مغمورة بالناس، وما عاد بالإمكان التقدم، وقال أحدُهم إنَّ الساحة الحمراء مطوَّقة بحزام، وإنه علينا التوجه إلى قصر النقابات. أحسُّ وأنا الآن هنا، أن الأمر يبدو لي كذبة بأنني كنت في موسكو ذلك الصباح، وأن أكون قد عشتُ ذلك الفيضان من البكاء والحزن، وصراخ النساء اللواتي كنَّ يسقطن على رُكبِهنَ على الثلج، ويُنادين على ستالين، والموسيقى المأتمية بمكبِّرات الصوت في الشوارع، المكبّرات التي كانت تتردد فيها أناشيد فرحة يوم الأول من مايو، أمضي تائهةَ بين كثير من البشر، أبكي أنا أيضا، وأعانق أحدا ما، امرأة مجهولة، وأنا أشعر في بطني بتحرُّكات ابني الذي كان سيولد بعد ذلك بشهرين، وقد بدا لي أنه سيولد يتيما، وإن كان له أبٌ، لأن لا أحد منّا كان يمكنه أن يتخيّل الحياة دون ستالين، وكنّا نبكي من الألم، وكذلك من الخوف، ومن الارتباك، وأن نجد أنفسنا دون من يُدافع عنا بعد سنوات كثيرة، كان هو فيها يسهر دائما على خدمتنا.

في البيت، حين كنت طفلة صغيرة جدا، كان أبواي يُحدّثاني عن روسيا وستالين، وحين وصلتُ إلى ميناء لينينغراد السفينة التي

أبحرت بنا من إسبانيا، كان أوّل شيء رأيناه لوحةً كبيرة له، كأنّها كانت ترحّب بنا، وتبتسم لنا، كما كنّا نراه في الأخبار مُبتسما لطفل يرفعه بين ذراعيه، لكن يوما بعد آخر، كان الثلج يغمر أكثر، وكان الناس يظهرون أكثر فأكثر بالشوارع، وما كنّا نستطيع التحرُّك، وكان الحشدُ الهائل لا يتقدَّم في أي اتجاه، بالإضافة إلى موسيقى مكبِّرات الصوت كانت صفارات المعامل تُسمَع، كل صفارات معامل موسكو تصفر في الوقت ذاته، كتحذيرات الغارات الجوية خلال الحرب، وحينئذ بدأتُ أحسُّ أنني محاصَرة، حين كنتُ أنزل السلالم إلى الأسفل أعدو باتجاه مَلاذ، وكنتُ أخاف أن أتعثَّر، أو أن أجرف، كنتُ أحسُّ أني أُدفع، وأنّي أختنق، وأني لا أستطيع التنفّس، كان الناسُ يضغطون عليَّ من الخلف، ومن الأمام، ومن الجانبين، رجال ونساء بمعاطفهم، وقلنسواتهم، وبُخار تنفُّسهم يلفحني في وجهي، وفي القفا، الرائحة الكريهة للأجساد التي تغتسل قليلا والملابس الرَّطبة، وأنا أفتح فمي كثيرا كي أستنشق الهواء، بين زخّات عرَق ورعشات برد، راغبةً في حماية بطني باليديْن، لأن ابني كان يتحرّك، كان يدور دورات داخلي بقوة أكثر من ذي قبل، كأنه هو أيضا كان يشعر بأنه محاصر ومختنق، وحينئذ لم يمكنني أن أقاوم أكثر، وشرعتُ أفتح لي طريقا، أو أحاول ذلك، كان علي أن أذهب قبل أن تخونني رجلاي، وأسقط أرضا فتُداس بطني، قبل أن يأتي من جهة ما ضغط من الحشد، وأجدُني مدفوعةً ومسحوقةً ضد حائط، أنا وابني الذي لا حول له ولا قوة، ابني الذي يمكن لأي شيء أن يسحقه، دفعتُ، توسّلتُ باكية، أبرزتُ دون خجل بطني المنتفخة، كنت أرتعش بردا،

وأبكي صارخةً لأن بكاء الآخرين على ستالين كان يُعديني، وكذلك لأني كنتُ أريد الذهاب عن هناك على وجه السرعة، وأن أصل إلى شارع غير مزدحم، شارع لن يكون به أحد، ويمكنني أن أستعجل فيه الخطوات صوب بيتي مستنشقةَ الهواء ملءَ رئتيَّ، رافعةً بطني التي لم يتوقف ابني عن التحرك داخلها، الذي بدا أنه يوشك أن يجعلني أضعه هنالك بالذات، بين الناس الذين لا يتزحزحون، الذين لا يتحركون قيد أنملة، يلتفون في معاطفهم، ويرتدون قلنسواتهم، وينفثون بخارا بين ندف الثلج، وأنا بلا معطف كغبيَّة، لم أكن أدري حتى إنْ كنتُ أضعُ منديلا على رأسي، أو إنْ كنتُ قد انتعلتُ حذائي الخاص بالثلج قبل الخروج، ضائعةً بعد ذلك في شوارع لم أطرقها من قبل، وأخيرا حين تمكنتُ من أن أفتح لي ممرا، أنا وحدي برأس مكشوفة والشعر مبلَّل، وبطني بكامله يتقدَّمني، تائهةً في شارع بموسكو لا أعرفه، حيث لا أحدَ يمكنني أن أسأله في الطريق. لقد حكيتُ ذلك لابني، وقال لي، أمي، يا لكِ من امرأة مُملَّة، لقد حكيتِ لي ذلك آلاف المرات، يقول لي ذلك بالروسية، بالطبع، لأنه بالكاد يتكلَّم قليلا من الإسبانية، لكن له ملامح إسبانية أفتخرُ بها، وإن كان أبوه، رحمة الله عليه، من "أوكرانيا"، كنتُ أراه مرتديا زيَّه العسكري حين أنجز خدمته العسكرية، وكان يهيئ لي أنني أرى خالَه، أخي، مثلَه في الطول والسُّمرة، ومثله في المرح بإبْزيمِ في القلنسوة المائلة إلى ناحية من الوجه، سيجارة في الفم والعينان غامزتان كالممثلين في السينما الذين كانوا يعجبونني كثيرا في صغري. لم أرَهُ منذ اثنتي عشرة سنة، ولا أنا أعرف حفيدي الأصغر، لأنه بأجرتي لا أستطيع

أن أدفع ثمن تذكرة سفر إلى موسكو، وهو مهندس كيميائي، وأُجرته تكاد تكفيه لكي يعول عائلته، فليتكلّموا مع ابني عن الحريـة وعـن تجارة السوق، أنا نفسي يكون عليَّ أن أبعث إليه بعض الـدولارات كي يصل إلى نهاية الشهر، أو لكي يمكنه أن يشتري سـيارة لعبـة لحفيدي، أنا التي أتقاضى في إسبانيا الأجـر الأدنـى فـي التقاعـد، صَدَقَة، ولو أنه لا يعرف السنوات والمعاناة التي كلّفتني كي أحـصل عليه، مع أن لديَّ تقاعـدا روسـيًّا لا يـساوي أيَّ شـيء، بعـض الطيلسانلات التي لا تساوي شيئا، بعد أن اشتغلتُ طيلة حياتي، وأنّي لم أتخلَّ يوما واحدا عن المعاناة منذ أن كنتُ طفلة.

كان لينين يقول ذلك، الحريَّة لأجل ماذا. لماذا أردنا نحن عمَّال المنـاجم حريـة الجمهوريـة، إن كـانَ سـيَبْعث بنـا إلـى فيلـق أو الحرس المدني، وإن كنّا سنقتنص المضربين كأنهم حيوانات، وأمّي سُجِنت، وإن لم تكن قد اقترفتْ جريمة، فقط لأنها زوجة نقابي، أما أبي فقد عُذِّب وأُرسِل إلى سجن بإفريقيا، إلى فرناندو بُورْو، وحـين نـال عفو الجبهة الشعبية عادَ مريضا بالملاريا، عجوزا أصفرَ حتى إني لـم أُميِّزه، وانفجرْتُ باكية حين عانقني. أنا لم أُحِبَّ أن يغادرَنا أبدا، إذ منذ صغري لم أكن أستطيع النوم حتى يعود أبي من المنجَم، وكنتُ أقـوم بكل ما يمكن كي أنتظره يقْظَى، أو كنتُ أستيقظ إنْ كانت لديـه نوبَـةُ العمل ليلا، وكان يصل إلى البيت قبل الفجر. يا للفرحة عند سماع فتح الباب وغلقه، سماع صوته وسعاله، وشمّ رائحـة تبغـه، يمكننـي أن أشمَّها الآن بالضبط، وإن كانت قد مرَّ أزيدُ من ستين سـنة، أحـسُّني

هنا، وتأتيني الذكريات، وكذلك تأتي روائح الأشياء والأصوات التي كانت آنذاك، والتي ما عادت توجد كذلك، وأتذكر عيني والدي لامعتين في الوجه المسودّ بمسحوق الفحم، وبالطريقة التي ينقر بهما طرقاته على الباب، وأنا كنتُ أهْجسُ قدْ أتى، لم يحدث انفجار في المنجم، ولم يَمْضِ به الحرَسُ المدني. يا للغرابة أن يكون قد عاش سنوات كثيرة، وأنْ يكون قد حلّ بأماكن كثيرة، في سيبيريا، في مركب ظلّ محاصرا بثلج بحر البلطيق، في موقع عسكري بجبال الأورال التي أُرْسِلَ إليها زوجي، حين كان لا يمكننا أن نخرج ليْلاً خوفا من الذئاب التي كانت تعوي في الغابات، مع ما أنا عليه من جبن وقلة ميلي إلى الجديد والمغامرات منذ صغري، وأني أكون مستعدة لدفع الغالي والنفيس كي تكون لي عائلة كباقي الناس، بما في ذلك تلك الأُسَر التي كانت أفقر من أسرتنا في التجمعات السكنية بالمنجم، لأن تلك الفتيات كان بإمكانهن الذهاب إلى المدرسة حافيات بقمّل، لكنهن على الأقل لم يكن يُذْهَب بآبائهن للاعتقال بين الفينة والفينة، ولا كان هؤلاء الآباء يقضون شهورا مُختفين، ولا كانوا يتركون أولادَهم بمفردهم طوال ليالٍ برمّتها، لكي يذهبوا إلى اجتماعات لجانهم ونقاباتهم، الشيء الوحيد الذي كنتُ أنا أرغبُ فيه دائما، ولم أنَلْهُ أبدا، هو أن أعيش في هدوء، أن يكون لديَّ بيتٌ، وأنْ أُدبِّر أمري بالقليل، وألاَّ أعاني اضطرابا، لكن لم يكن من صيغة لتفادي ذلك، الذكريات القديمة التي لديَّ هي ذكريات الترحال على وجه السرعة، وليلا بين كراسي محطات القطارات، أو أن أخاف من أن تَحْدث كارثة عظمى، أو أن

يُقتَل أبي من قِبَل المدنيين، أو أن يُقبِره انفجارٌ أو انهيار في المنجم. لا أزال أفكر في ذلك، فيخفق قلبي، أنظر إليه في الصورة فوق البيانو، ويبدو لي أنه على قيد الحياة، وأنه يمكن أن يحدُثَ له شيءٌ، أو أن أستفيق وأجِدَه إلى جانبي، يحمل هديّة في يده، جاءني بها من سفر، تلك العلبة من عرق اللؤلؤ التي جلبها لي حين عاد من روسيا، وقد مرَّ وقتٌ طويل حتى إني لم أتعرَّفه، وشرعْتُ في البكاء حين رأيْتَه. أنا، في العمق، وعلى الرغم من أني لم أقل ذلك لأحد أبدا، فإن الأحلام التي كانت لي وأنا صغيرة كانت لبرجوازية صغيرة، فماذا ستقول أمي لو أمكَنَها أن تسمعني. كنتُ دائما أحبّ أن أجد والِديَّ مع أخي قريبين مني، وأنْ أذهَبَ إلى المدرسة، وبين الحين والحين أمشي إلى صلاة الكنيسة، وأن أحتفل بتعميدي مثل تلك الفتيات اللواتي أراهنَّ مرتديات اللباس الأبيض الكنيسي، ويحملن تسابيحهن وكتبهنَّ من عرق اللؤلؤ في اليدين، بأحذيتهنَّ المُبَرنَقة، وليس، كما هو شأني، أنا التي أنتعل حتى في الشتاء حذاءين قديمين من كتّان في الشتاء، فتتثلّج قدماي، ويلتصق بهما الوَحَل في نعْليَّ اللتين من قِنَب. كنتُ أسمع أبويَّ دائما يتكلّمان عن الثورة، لكن ما كنتُ أنا أرغبُ فيه هو ألاّ تتغيَّر الأشياء، وأنْ تتغيَّر شيئا فشيئا صوب الأحسن، ذاك أجل، إن أبي لم يكن ينقصه الأجر اليومي، وكان يمكننا أن نأكل طعاما مطبوخا كل يوم، وأن يكون لنا لحافٌ ومعاطف وأحذية للشتاء، لكنْ كان يُربكني أن يتقوَّض كلّ شيء، كما كانوا هم يودُّون، وكان يخيفني كلامُ أبي عن الهجرة إلى أمريكا، أو حين كان يقول لنا إنَّ علينا الذهاب إلى روسيا لأنها

وطن عُمّال العالَم. كان البيت الذي كُنّا نعيش فيه، قريبا من المنجم، شيئًا أكثر من كوخ، وإن كانت أمّي تكنسه وترتّبه دائما، لكنني أجهشتُ بالبكاء لمّا كان علينا أن نتركه كي ننتقل إلى مدريد، كان يبدو لي أنّ قلبي يُنتَزَع مني حين رحيلي عنه. صعدنا إلى القطار، وأخي بحكم صغره، كان شديد الفرح، لكني كنتُ لأموتُ غمًّا على تركي لبيتي الفقير الجديد النظيف جدا، وكذلك المدرسة التي كانت تعجبني كثيرا، والصديقات اللواتي كُنَّ لديَّ. لكن بعد شهور قليلة من العيش في مدريد كنتُ قد تعوَّدتُ، وكذلك رغبتُ في البقاء هناك للعيش فيها إلى الأبد، كانت كل الجارات تعرفنني وصاحباتُ المتاجر، لقد صارت فتياتُ المدرسةِ التي سُجِّلتُ فيها صديقاتٍ لي، والمعلِّمات اللواتي زجرنَهنَّ في اليوم الأول حين سَخِرْنَ من لكنتي، التي يقتضي أن تكون بنبرة خالصة تعود إلى إقليم أَستُورْيَا. كانت لنا شقة صغيرة، بفناء في حيٍّ تطوان، غرفتان في ممرّ مليء بالجيران، لكنَّ أمي رتّبتهما فورا بالأشياء القليلة التي كانت عندنا، ويبدو أننا قد ارتحلنا إلى بيت حقيقي أخيرا، وللمرَّة الأولى، صارت لدينا في بيتنا ميضأة، المرحاض كما يُقال الآن، عند نهاية الممر، وليس في فناء كبير، أو وسط الحقول كالحيوانات. الآن، لم يكن على أبي أن يذهب إلى المنجم، وإنما إلى عمل لم أكن أعلم ما يكون، في صحيفة أو النقابة، وفي البداية تصوَّرت أننا سنحيا حياةً عادية، وأنه لن يكون عليَّ أن أعيش مفزوعة في كل مرة يتأخر فيها أبي، أو حين يبدأ إضراب، وتكون اجتماعات بالليل في بيتي، كان يغيظني، لأن الرجال كانوا يدخنون كثيرا حتى إنه

ما كان بالإمكان استنشاق الهواء، وحين كانوا يمضون كانت رائحة التبغ تتأخر كثيرا في الاختفاء، ويكون علينا أمي وأنا كَنْسُ الأرض من أعقاب السجائر، والرماد.

الشيء الذي كان يروقني هو الذهاب إلى المدرسة، وأنْ تُحبَّني المعلّمة كثيرا، وكان سيروقني كثيرا أن أذهب إلى الاعتراف بخطاياي وتناول القربان، منذ أن كنت صغيرة، وأنا لديَّ تناقضاتي الأيديولوجية. كنتُ أحلُمُ بأن ألتحق بمشْغَل للخياطة حين إتمام الدراسة بالمدرسة، أن أخيط أنا نفسي جهازَ عِرسي، وأن أغدو صديقة جدا للفتيات اللواتي سيشتغلن معي. أحببتُ مدريد كثيرا حتى إني كنت أتخيَّل أني سأبقى هنالك لأحيا إلى الأبد، وكانت لَكنة الفتيات الأخريات تلتصق بي مباشرة، وكان يعجبني الصعود في الترام، وأن أتعلّم التنقل داخل المترو، وحين كنا نوفر أنا وأختي بعض السنتيمات كنا نمضي إلى السينما لمشاهدة أفلام "كلارك جيبل" أو "البدين والنحيل". هنالك قلت، بالإحالة على مدريد، كأني لستُ في مدريد التي أوجد فيها الآن، لكني أنسى مرات كثيرة وأستيقظ معتقدة أني في موسكو. لكن إن قلتُ هنالك فكأني أقول آنذاك، لأن مدريد كانت أخرى مختلفة، مدينة أخرى لا أعثر عليها حين أخرج إلى الشارع، أو حين أطلُّ من الشرفة، علما بأني أكاد لا أطلّ أبدا منها، بسبب ضجيج السيارات التي تمر دائما من هذه الطريق، ليلا ونهارا، لم أتعوَّد أبدا، تقول لي صديقاتي، لكن يا امرأة، ضعي زجاجا مضاعفا، لكن كيف لي أن أصرف هذا المال الكثير من أجرتي، بالإضافة، إلى أن ما مررنا به من مآس لا يسمح

لي أيضا بأن أتشكى، أن هناك ضجيجَ سيارات، فأسوأ منه ضجيج القصف أو قضاء الشتاء في موقع عسكري في درجة أربعين تحت الصفر، وأسوأ منه كذلك أن يموت الإنسان، شأنَ كثيرين وكثيرين ممَّن عرفت. مِمَّ سأشكو، إن كان لديَّ أفضل بيت أعيش فيه، والذي لم أعرف له نظيرا في حياتي، إضافة إلى ذلك، وبقليل من الحظ، لن يكون بعد الآن أن أتحوّل عنه، اللهم إذا حملوني منه إلى المقبرة. وهناك أيضا لي مكان مؤمَّن، بالمقبرة المدنية إلى جانب أمي، الاثنتان معا في القبر، كما كنا دوما أثناء الحياة، باستثناء تلك السنوات الأولى الفظيعة في روسيا، التي كنت خلالها وحيدة، ولم أكن أدري إن كنت سأعود إلى رؤيتها، أو إن كانت هي وأبي قد ماتا، أو إنْ كانا قد نسياني، لانشغالهما الكبير عني بحربهما وثورتهما، ليس لأني أريد أن أتذكَّر، أو أني أبذل جهدا، وإنما لأحسَّ أني هنا، وأنَّ الأشياء شرعت تأتي، كأني أوجد في قاعة انتظار، وأن الموتى شرعوا في الدخول، وكذلك الأحياء الذين يوجدون بعيدا جدا، ابني الذي لا يستطيع المجيء لرؤيتي، ولا يستطيع التحدث معي أكثر من خمس دقائق حين يكلمني خوفا من الفاتورة، حفيدي الصغير الذي لا يعرفني، وأنا ألاطفه، وأُغنِّي له تهويدات، تلك التي كانت تغنيها أمُّنا لنا أخي وأنا، التي تعلَّمتها في روسيا، وكنتُ أغنيها لابني. يخيفني الخروج إلى الشارع، وكل ما أحتاجه للأكل يأتيني إلى فوق من السوق الممتازة، أو تأتيني به رفيقةٌ جد لطيفة تعيش قريبا من هنا، وتقريبا لا أكاد أتحرك من هذا المكان، وهكذا أتفادى قلق اعتداء بالسرقة مرَّة أخرى، والخوف من أن أذهب بعيدا جدا، وألا أعثر على طريق العودة، وهو أمر آخر حدث

لي أنا دوما، أنا أتيه سريعا، وعلى الخصوص حين يكون كثير من الناس، حين بدأ غزو النازيين، وكنا سنرحل إلى موسكو، كنت أمشي عبر المحطة ممسكة بيد أمي، وحدثت جلبة، فأفلتت مني اليد، ووجدتني ضائعة بين آلاف الأشخاص، بين ضجيج مكبرات الصوت، التي لم أكن أفهما والقطارات التي كانت تصفر قبل الانطلاق، وشرعت أجري كحمقاء دون حتى أن أنظر في أي اتجاه، لأن عينيَّ كانتا مليئتين بالدموع، وكنت أصطدم بأرجل الناس، وكان عليَّ أن أفرَّ من حارس كان يرغب في الإمساك بي، وكان قد أمسك بإحدى ذراعي، كنت أجري على طول قطار كان قد بدأ يتحرَّك، وكانت هنالك جماعات من الناس ملتصقة بالمرقاة إليه، وبالنوافذ، يتمسكون بأي شيء، يتدافعون فوق بعضهم، وعندئذ رأيت أمي تناديني وهي تطل من باب إحدى العربات، فجريت بأقصى سرعة، لكن القطار كان قد بدأ يزيد سرعته، وبقيت في الخلف، وتهيَّأ لي أني قد ضعت إلى الأبد، في تلك المحطة التي كانت الكبرى والأكثر امتلاء بالقطارات، والتي لم أرَ نظيرا لها من قبل، ضائعة بين أولئك الناس الذين كانوا يلفون الناس في موران راغبين في الرحيل، شاغلين حتى السكك الحديدية. رأيت قطارا آخر يتحرَّك بجانبي، ودون أن أفكر قفزت إليه، لكن في تلك االحظة جُذبت، وكانت أمي التي ضمَّتني إليها، أمي التي اعتقدت هي الأخرى أنها لن تعثر عليَّ أبدا، وأني كنت سأضيعُ، لو أنها تأخَّرت ثانية أكثر في النظر إلى القطار، الذي شرع يتحرك بجانبها في اتجاه "فلاديفوستوك"، قالت لي لاحقا. في المحيط الهادي، كيف كانت ستعثر عليَّ لو كنت قد بدأت ذلك السفر عبر سيبيريا. لكني

جدّ طائشة، وأستحقّ السياط التي جلدتني بها أمي تلك المرة، ضربتُ سوطا على مؤخرتي، وقبّلتني في الوقت ذاته، كيف حال عقلك أنت، قالت لي، انظري ماذا كان حين تخلّيتِ عن الإمساك بيدي، يا رأسَ الطيطوى، هكذا كانت تناديني دائما.

أضيع في مدريد أكثر مما كنت أضيع في موسكو، ولا يُعجبني أن أسأل الناس، لأنهم ينظرون إليَّ في استغراب، ربما بسبب لكنتي، أو لأنهم يرونني ذات لمحة أجنبية، أتفهّم ذلك، لمحة روسية، ولو أنك لن تُصدّق أنه في روسيا يُنظَرُ إليَّ بغرابة أقلّ من هنا. هكذا، ولكي أتفادى المضايقات لا أخرج، أقضي اليومَ هنا، أرتّب أشيائي في استمتاع، شقّتي بكاملها لي وجهاز التكييف المركزي الذي لا يتعطل أبدا، إنها شقة صغيرة لكنها لي، صغيرة جدا حتى إني لا أعرف أين أضع أشياء كثيرة، لكني لا أجرؤ على رمي أي شيء منها، لأنها تعجبني جميعها، بالذكريات التي تجلبها لي، إن الواحدة تضيِّع ما يكفي من الأشياء في الحياة كي لا تُفكر في الاحتفاظ والاعتناء بما بقي لها منها. انظرْ إلى هذه المناديل الجوخية، اليدوية التي كانت قد نسجتها والدتي حين كنا نعثر على قليل من الخيط الأبيض في موسكو، لم يكن ذلك يحدث دائما، ولو أنها كانت تدبّر أمرها بأي شيء، كانت لديها يدٌ ماهرة لاستعمال الإبرة، حتى إنها بأقلّ خرقة كانت تصنع شيئا خارقا. لم أشبهها في ذلك أيضا، وكانت تقول لي، يا لَجمال يديك، ويا لقلّة نفعهما، إنهما تبدوان يدي برجوازية، وكان حقيقة، كانتا تُسلخان مباشرة، عند القيام بأقلّ عمل، أصابعي تبرد

وتقاسي، والآن بوسعي العناية بهما قليلا، صبْغ الأظافر يُشعِرُني ذلك بتأنيب الضمير، لأنها حقًا تبدو أصابع برجوازية، وعلى الخصوص لغباوتها. إنْ تعطَّلَ لديَّ أيُّ شيء، فلا أعرف كيف أصلحه، يسقط لي أرضا ويتكسَّر، يخرج أحد أزرار التلفاز حين أريد تشغيله، ويُكلِّفني كثيرا البحثُ عنه على الأرض، مع صِغَرِ الفضاء الموجود، وسوء تحرّكي. لقد أمضيتُ أياما أبحث عن الزِّر، لأني لم أستطع تشغيل التلفاز، وحين تمكّنتُ من تركيبه سقط مني مرَّةً أخرى. هكذا إذن، انظُرِ الترقيعَ الذي قمتُ به، ألصقتُهُ بقليل من اللصاق، وإذا ضغطتُ عليه بحذرٍ يصمد ولا يعود إلى الخروج. كيف لي أن أرمي شيئا، إن كان لكلِّ شيء حكاية طويلة جدا، وأنا أحكيها لنفسي حين أكون وحيدة، كما لو أني مرشدة داخل متحف. لينين هذا الموجود فوق التلفاز هو من البرونز، هزَّهُ وسترى كم يَزِن، وتمعَّن جودةَ إخراجِ الشبيه، إحدى الصديقات تقول لي، يا امرأة، ضعيه في مكان أقل تعرُّضا للرؤية، فقد يتأذّى منه أحدٌ ما، وأنا أقول إنَّ لا أحدَ يأتي لزيارتي هنا، وإضافةً إلى ذلك أنا أتأسَّف أن يكون أحدٌ قد جاءَ وانزعج، فَلْيأْخُذْ، كما يُقال في مدريد، أليس لديهم صلبانهم وعذراؤهم ولوحاتٌ للبابا؟ إذن، أنا لديَّ فلاديمير إليش، فوق هذا القماش الذي نسجته لي أمي ذات مرة، بمناسبة عيد ميلادي، انظُرْ هذا، قد غدا أصفر، وكم من الكيلومترات قطع، لقد حملته معي حين عُيِّنَ زوجي في "أركانستجِل"، وكان القماش يغدو متصلبا جدا من البرد، كأنه مصنوع من الصفيح. تلك الدُّمى بحلل سيبيرية جئنا بها من هنالك،

وكذلك الملاعقَ، أنزع المعاطفَ وأُطلِعُكَ عليه جيّدا، الحوافر أصلية، محنّطة، لدابة الرِّنة الكبيرة التي كانت موجودة. واللوحات الصغيرة، لقد انتبهت إلى أنك لا تتوقف لمشاهدتها، إنها رسوم كان ينجزها "ألبرتو سانشيث" بما كان يقع في يديه، أوراق وأقلام ملوّنة مدرسية، أتذكّرُ أني كنتُ أراه يرسمُ على مائدة الأكل في الشقة التي كنا نعيش فيها بموسكو، في الشتاء الأخير من الحرب، إذا اقتربْتَ فسترى روعَتها وتربيع الورقة. كان يتكلّم عن موسم الحصاد في قريته بطليطلة، وكان يتكلم وهو يرسم ما يتحدث عنه، وكان يتهيّأ لنا أننا في إسبانيا، وليس في موسكو، وكنّا نلاحظ دفء الصيف وحكّة غبار القمح في الحنْجرة. انظر القمصان البيض كيف يرتديها الحاصدون مثنيّة الأكمام، والقبعات من قش، والمناجل، والحبال التي تعقد بها السراويل المخملية، وأكوام الكُدَرة. والقرية بعيدا، كما كان ألبرتو يقول، ترى عند تجاوز المنعطف، ببرج جرس الكنيسة وعش اللقالق، وتلك الجبال الزرقاء في العمق، ماذا كنا سنعطي نحن كي نراها آنذاك، حين كنا نعتقد أننا أبدا لن نعود إلى إسبانيا. وبالنسبة إلى كثيرين كانت حقيقة، إنهم لم يعودوا أبدا، مثل ألبرتو المسكين، الذي لم يعد ليرى قريته أبدا، وهو مدفون في موسكو. إحدى صديقاتي من اللواتي يفهمن في الفن تقول لي أن أبيع الرسوم، إذ يمكنني أن أحصل على قدر محترم من المال مقابلها، وهي تستشيط غضبا حين ترى أشياء كثيرة مثل ما عندي، ألا يمكنك أن تتحرّكي، تقول لي، تخلصي من كل شيء، اقلبي الصفحة، ارمي ما لا يصلح لأي شيء،

كل شيء فيه جزء من حياتي، حتى هذه اللوحة التي تغـيظ كثيـرا صديقتي، مَنْ يمكن أن تخطر على باله وضع إطـار لغطـاء علبـة بسكويت، لكني يعجبني ذلك، يجلب لـي ذكريـات جمـة، الـساحة الحمراء بقبابها الملوّنة، وتلك الزرقة التي تكون عليها الـسماء فـي بعض الأصباح من الصيف، ويروقني أن تكـون الأشـياء بـارزة، المسنها، أبراج سور "الكرملين"، كاتدرائية "سان باسـيليو"، ضـريح لينين. أنا كانت لدي علبة البسكويت تلك منذ زمـن طويـل، لكنهـا تعجبني كثيرا حتى إني لا أتخلّى عنها، بالدقة التـي تُـرى عليهـا، بالألوان المتوهجة التي لها حقيقة، وقبل مجيئي من موسكو قطعـتُ الغطاءَ ووضعتُ له إطارا.

في موسكو كنت أتذكر مدريد، وفي مدريد أتذكر موسكو، ماذا بوسعي أن أفعل لك، وإذا كنتُ قد حملتُ إسبانيا في قلبي معي فـإن الاتحاد السوفيتي هو أيضا وطني، كيف لا يكون كذلك وقد عشتُ فيه أكثر من خمسين سنة، وأتألم حين أسمع أنه يُـسَبُّ، وحـين أشـغِّل التلفاز وأرى الأشياء الحزينة جدا جدا، التي تحدث هناك، وما يحكيه لي ابني في رسائله التي تكلّفه أقلّ من مهاتفتي. أستيقظ بـاكرا كـل يوم، ولو أن لا شيء لي لأعمله، في البداية لا أعرف إنْ كنـتُ قـد استيقظت في مدريد أو موسكو، وأقـضي سـاعات أنظِّـف شـقتي وأرتِّبها، على صِغَرها. لأني لو أغفلتُ ذلك فإن الفوضى تستبد بـي ويمتلئ كل شيء بالغبار، وحينئذ أشعر بوخز الضمير أنْ أفكِّر أنـي أوجدُ هنا سعيدة، لديَّ جهاز تكييف الهواء ومائي الـدافئ، ثلاجتـي

وتلفازي، سجادتي الجميلة في غرفة نومي كي أتفادى البرودة في القدمين حين أستيقظ في الشتاء، وأتذكر أنْ لا أخي ولا والدَيَّ أمكنهما أن يستفيدا أبدا من كثير أسباب الراحة، وأنا الغبية جدا، لماذا سأنكر ذلك، أنا التي لم يكن لي اعتبار، يَحْدث أني أمتلك كل شيء. أجلس هنا في الأمسيات، وأحيانا لا أشغِّل التلفاز، ولا أشعل الضوء حين يبدأ حلول الليل، وبما أن لا أحد يهاتفني تقريبا، فإني أمكث ساكنة ساعات وساعات، دون أن أفعل أيَّ شيء، دون أن أشغِّل اليدين بأيِّ شيء، ليس كأُمِّي التي كانت دائما تقوم بعمل ما، أمكث جالسة، اليد فوق اليد، وأنا أنصت إلى مرور السيارات عبر ذلك الطريق، وأبدأ في تذكُّر الأشياء، لكن ليس لأني أُصرّ على ذلك، وإنما لأن الذكريات تنهال عليَّ وتترابط متسلسلة الواحدة تلو الأخرى، مثل حبَّات المسبحة بين الأصابع حين كنت أمشي صغيرة إلى التعليم الديني، دون أن يعرف أبواي بذلك. أرى وجوه الأشخاص، أسمع أصواتهم، أظلّ هادئة وتشرع الظلمة في الحلول، ويتهيَّأ لي أنهم يدخلون من ذلك الباب، ويجلسون إلى جانبي، وكذلك أسمع الموسيقى المتنوعة، النشيد الأممي الذي تعزفه جوقة من الهواة في قريتنا المنجمية، المسيرة المأتمية للموسيقار شوبَّان، يومَ دفنِ ستالين، ومسيرة أخرى تعجبني كثيرا، كانت تذاعُ في موسكو دائما يوم أول مايو، يبدو لي أني أمشي عبر الشارع وأنا أسمعها، مسيرة النصر "عايدة"، أتذكَّرها فتغرورق عيناي دمعا، يبدو أني صرتُ أكثر عاطفية مثل الروس. لكن الموسيقى التي تعجبني من بينها جميعا هي

"شهرزاد"، تلكَ التي تعزف حين فتح علبة عرق اللؤلؤ، التي أحضرها لي أبي تلك المرة التي عاد فيها من رحلته الأولى إلى روسيا، حين لم أتجرأ على النظر إليه في وجهه، لأني أمضيت دون رؤيته خمسة أشهر أو ستة، وكان يبدو لي غريبا، حتى إنه كان يضع شاربا أسود، لم يكن له عند ذهابه. كنتُ أحتفظ بالعلبة تحت الوسادة، كنتُ أفتحها شيئا فشيئا، وأشرع في الاستماع إلى الموسيقى وأغلقها مباشرة، لأني كنتُ أخشى أن تتعطل إنْ تركتها تعزف وقتا طويلا، كأن الموسيقى كانت شبيهة بتلك العطور التي تُستهلك إنْ تُركت القارورة مفتوحة، أشياء كثيرة تملأ رأسي، وأفضل أن أنساها، ومع ذلك، فأنا لا أتذكر أين تركتُ علبتي الموسيقية، هل تعرف أنتَ في أيٍّ رحلة ضيَّعتها. لكن الأشياء تستمر في الوجود أكثر من الأشخاص، والأرجح أن تلك العلبة يمتلكها أحد ما إلى الآن، كتلك الأشياء العتيقة التي يمرّ عليها وقت طويل، وتُباع في سوق الخردة، وحين تفتحها تسمع موسيقى "شهرزاد"، وتتساءل منْ كان يمتلكها.

أمريكا

سأظل بالغرفة والنّور مُطفأ إلى أن تدقّ دقات الأجراس في برج كنيسة "السلبادور" مُعلنةً الساعة الثانية عشرة. الآن أتوارى، وإنْ كنتُ حتى الآن لم أخرج إلى الشارع، أتخفى كي لا يتعرّف عليّ أحدُهم لو صادفني، ولو أنه في تلك الساعات وتلك الليالي الشتوية الجافة فلن يغامر أحد، تقريبا، بمواجهة الريح أو المطر اللذين يضربان فضاء الساحة المفتوح الشاسع، والذي سأقطعه بعد دقائق، ملتحفا سترتي الغليظة، والتي تعطي دفئا أكثر من دفء المعطف، وقلنسوة تنزل حتى عيني، بالإضافة إلى كوفية تغطّي نصف وجهي. أنت لم تعرف فصول شتاء مثل تلك، ولا لياليَ دامسة. كانت توجد مصابيح شاحبة في بعض الزوايا، وسُرُج معلّقة في خيوط كهرباء فوق الساحات، تتأرجح مباشرة بالريح، هكذا كانت الأضواء والظلال تتحرّك كمن عبر غرفة حاملا شمعةً في يد. كانت الساحة برمّتها تبدو تتحرّك مثل سفينة وسط عاصفة في ليالي الريح. كانت الليلة عالما آخر، لم يكن كثير من الناس آنذاك يمتلكون أجهزة راديو، وكان نادرا أن يوجدُ نورُ كهرباء في كل غرف من غرف البيت.

يكفي أن تقوم بخطوة مبتعدا عن المجمر والضوء، فتدخل مباشرة في البرد والعتمة. كنّا ننقل المصباح وخيطَ الكهرباء من غرفة لأخرى، من ثقب بزاوية في الجدار. لكن زيادة على هذا، كان التيار الكهربائي غالبا ما ينقطع، فيشرع المصباح في الاصفرار، وكان يبدو أنها ستنتعش، كشمعةٍ توشك على الانطفاء، وفجأة نغرق في العتمة، كانت للأطفال أغنية خاصة بتلك المناسبات:

فليأتِ النورُ

لإننا سنتعشى

خبزًا وبيضا مقليًا

وكذلك سلَطَة.

كان الضوء ينقطع، وكان سيّان امتلاك جهاز راديو أو مصباح في كل الغرف، وكان لزاما إيقادُ الشمعة أو القنديل، والذهاب للنوم بعد تحسُّس الفضاء، السلالم فوق ناحية الغرف الباردة جدا، حتى إن الملاءات كانت رطبة حين يدخل المرء في إحداها، وتتثلّج القدمان. أيَّة رغبات كانت وقتذاك تبعث على الارتماء في دفء امرأة بضّة عارية. كان النهار هو النهار والليل هو الليل، ليس كما الآن، حيث تداخل الواحد منهما في الآخر، كما تتداخل أشياء كثيرة، على الأقل بالنسبة إلينا، نحن الذين هَرمنا كثيرا، ويصعب علينا التكيُّف مع هذه الأزمنة. الشتاء الطويل، والليالي التي لا نهاية لها،

الحالكة كفم ذئب في الأزقة، التي أنحرف عبرها عند الخروج من بيتي، خوفا من الالتقاء بشخص يتعرّفني إن نزلت عبر شارع "الرِّيال"، بعد قرع جرس الثانية عشرة ليلا بقليل، في الساحة، وبعد ذلك في ساحة كنيسة السلبادور، التي تتأخّر قليلا دائما، لكنها تدقّ بشكل أقوى، ما يدلّ كثيرا على أن الجرس من نحاس، في ذلك البرج الشاهق ذي النوافذ الضيقة، التي يبدو فيها كأنه قصرٌ أكثر منه برج كنيسة. بمجرَّد ما أبدأ في سماع الدّقات حتى يرتجف قلبي، أنا وحيد في ظُلمة غرفتي، كي لا يشك أحدٌ في أمري، أُنصتُ إلى ميكانيزم ساعتي المنبِّهة، التي تدُق بقوة كبيرة، حتى إنها تجعلني كثيرا في جوف الليل أفتح عينيَّ معتقدا أني أسمع خطوات. لكن خفقات قلبي في صدري تكون أقوى من دقات الساعة المنبِّهة، ومن شدَّة شوقي أشْرَعُ في الطواف عبر الغرفة، لكنْ يكون عليَّ أن أمكُثَ هادئا، لن أجعل الناس يسمعون خطواتي في الشقة التي تحتي، أجلس في السرير مفلوفا في سترتي الآن، مرتديا طاقيتي، شاعرا بالبرد الذي يصعد إليَّ من قدميَّ، منتظِرا أن تحُلَّ الساعة، أنْ تدقَّ الأجراس، كما قالت هي لي، أو كما أمرتني بالأحرى، لا دقيقة واحدة قبل منتصف الليل، وليس عبر الشارع الرئيس، وإنما عبر الأزقة، لأن أيَّ احتياط يكون قليلا. ساعة أو ساعتين قبل ذلك كنت منتظرا أكاد أموت شوقا، لقد صرتُ جد متَّصل مثل دعامة باب، مثل يَدِ مِهراس، وبما أني أمضيت وقتا طويلا هكذا صار جسدي يؤلمني، وتبدو الصلابة الآن كذبة كنت عليها في الشباب. مهما كنت في حاجة إلى شيء، كانت

تقول لي، فلا تخرجْ قبل الوقت، لا تدعِ الناسَ يرونك. كنتُ أسمع دقّة الناقوس الأولى، ويكون الأمر كأنه مغناطيس يجذبني، ولا أستطيع المقاومة، كنتُ أخرج من غرفتي، وأنزل السلالم دون أن أوقد الشمعة، أتحسَّسُ الجدران بيديَّ، وأسحب المزلاج بحذر شديد كي لا أوقظ أحدا، أجدُ تلك المزاليج الكبيرة جدا، التي كانت آنذاك في البيت. غريب أن تختفي كل الأشياء التي كانت عادية بالنسبة إلينا، المزاليج الحديدية الضخمة، ومفاصل الأبواب وقبضات النقر على الأبواب، ومفاتيح البيوت التي يمكن أن تكون ضخمة، كما كنتُ أتخيّل في صغري ما يلزم أن تكون عليه مفاتيح مملكة السماوات التي تضم القديس "بيدرو".

كنتُ أنزل ملثما عبر الأزقة، وأنتهي إلى ساحة "سانتا ماريَّا" المعتمة الهائلة، وجْهًا متفرّدا يسعى إلى أن يمرَّ منسابا قريبا من الجدران، ويبقى متجمّدا عند زاوية قصر البلدية، ساكن المدينة الوحيد الذي يستمر مستيقظا في تلك البنايات الضخمة والمعتمة، التي تتخذ ليلا شكلَ منحوتةٍ عجيبة، أو ديكورا للأوبرا، يكون هنالك شخص ينتظر وهو يحصي الدقائق ودقات جرس الساعة: كل الليالي، بعد الثانية عشرة، كانت تترك مزلاج باب جانبي مفتوحا، وتشعل وتطفئ مصباحا بالوقود ثلاثَ مرّات في أعلى نافذة للبُرج، وتلك كانت الإشارة التي كان هو ينتظرها، كي يَعْبُر الساحة، ويدفع الباب التي تكون هي قد زيّنتْ مفصّلاتها، وأمّنتها هي بعد ذلك من الداخل بمزلاج ينسحب هو أيضا في صمت. أصْعدُ ببطء، لا توقدْ أيَّ ضوء،

لا ضوء قدَّاحَة أو عود ثقاب، عُدَّ ثلاثَة مصاطب وخمسة وأربعين درْجة، وعند المصطبة الثالثة توجدُ كوَّةٌ على اليسار وبابٌ على اليمين، انقرْ خفيفا ثلاث مرَّات كي أعرفَ أنَّ الطارقَ هو أنتَ، ادفعْه، وسأكون في انتظارك.

الآن، وقد شرعتْ كثيرٌ من الذكرياتِ تمحي من ذهنه وينسى، الطرقَ، وواجبات وكلمات، تعود إليه بين الفينة والفينة أصواتٌ محدَّدة جدا، ممزوجة بتلك التي كان يسمعها، بينما كان يمضي متجوِّلا دون وجهة، أصواتٌ يُفترَض أنها من الماضي البعيد جدا، التي هي لحاضر حاليّ، لم يكنْ يعلَم مكانَه في كثير من الأحيان، كأنه لم يكن يعاني عصفةً من فقدان التذكّر، وإنما المشي أثناء النوم، وكان يستيقظ فجأة في ساحة ليست بقريته العزيزة، بل في وسط مدريد، مُرتديا ملابسَ كان يتأخَّر كثيرا في التعرّف على أنها له، ضيّقا على جسَد هَرِم وبطيء، لا يُمكنُه أن يكونَ له، مُنادَى عليه من أصوات جبَّارة، أو منجذِبا بدوافع قديمة، لا يَعلَمُ إلى أين تقودُه.

سلامٌ على مريم الطاهرة، يُقالُ له، فيُجيب:

- بدون خطيئة.

يَسْمع الصوتين المتزامنين، وفي الوقت نفسه ضجيجَ انفتاح الباب الزجاجي، والآن لا يرفع رأسه حالًا، ولا يتوقَّف عن العمل، متعوِّدا على هذا الظهور نفسه في كل صباح تقريبا، بغض النظر عن

الأصوات والنبرات، المتناقضة جدا كالأشكال التي تتماثل معها، التي تبدو من بعيد متماثلة: الراهبتان بعاداتهما المتماثلة، ثيابٌ قاتمة وقبعتان سوداوان، إحداهما أطول من الأخرى وأكثر شبابا من الأخرى، الاثنتان تنتعلان حذاءين صيفيين يلْزَم أن يُصيِّرا قدَميْهما مثلَّجتيْن، القدمان البيضاوان جدا مثل اليدين والوجهين، بياض شفاف لدى إحداهما، وتُرابي ميِّت لدى الأخرى، إحداهما بصوت نقي صاف، ولكنّها ذات سمة شمالية، والأخرى بصوت أجشّ، مبحوح، ذاتُ نبرة قروية فجّة. لكنَّ الصوتين المشتتين كانا يرنّان في الوقت ذاته حين كانت إحدى الراهبتيْن تدفع الباب الزجاجيّ السيّئ التركيب، وهو لم يكنْ له أنْ يرفع الرأس لكي يعرف مباشرة بأي تعبير ستنظر إليه كل واحدة منهما، في توسُّل لطيف عند واحدة، وفي سوء مزاج مُلحّ عند الأخرى، تقفان قُبالَة طاولته التي يشتغل عليها كإسكافي مُرقّع، وتطلُبان كل يوم تقريبا صدقةً لأجل الفقراء، أو فَردتَي حذاء قديمتين لا يصلحان عنده لشيء، بعض السنتيمات لاقتناء شموع المذبح، أو لشراء أدوية لأمٍّ مريضة جدا. لكنْ لم يكن من الضروري أنْ تُعلنا الطلَب، لأن نبرة صوتيهما كانت تفصح عن كلّ شيء، متزامنتين بالضبط ومتوافقتيْن، على الرغم من أنهما لم يكن بوسعهما أن تكونا مختلفتين، فلربما لم تكن الراهبتان تتشابهان في شيء، ومع ذلك فقد كانتا متطابقتين لو رأيْتَهما عن بعد، حين تكونان تصعدان من عمق شارع الرِّيال، في صباحات ذلك الشتاء، صباحات باردة ومقفرة، لأن موسم جني الزيتون قد بدأ، ونِصف سُكّان المدينة

يكونون في البادية يجنون الغلَّة، بحيث إن الشارع لا يستعيد حيويَّتهه قليلا إلا عند حلول المساء فقط.

- سلام على مريم الطاهرة.

كنتُ أتصرَّف كأني غضبان منهما، أو أني سئِمٌ من حضورهما، لكن لو كنتُ أدخِّنُ حين أراهما تدخلان أُزيحُ عقب السيجارة من الفم، وأطفؤها في عجلة عند حافة الطاولة، وأحتفظ بها خلف أذني، لأن الوقت لم يكن زمان إتلاف حشيشة واحدة من حشائش التبغ، حتى إني كنتُ أقوم بحركة غامضة كإمالة الرَّأس، أو أهُمُّ بالوقوف قبل أن أجيبهما بنبرة امتثال شبْهِ ساخرة.

بدون خطيئة.

أنتم تعلمون أنه لا يزال عجوزا ذا مظهر محترم، وإنْ كانت رأسُهُ في الأيام الأخيرة لا تبدو على ما يُرام، لكنه فيما مضى، حين كان في الثلاثين من عمره، كان يلفت الانتباه إليه بالطول الذي كان عليه، ولم يكنٍ يتورَّع عن الهزل مع الزبائن، اللواتي كنَّ يذهبْنَ إليه بأحذيتهن ليُرقِّعها، هَزلٌ ذو معنى مزدوج كان في أكثر من مرَّة يتجاوز الحدود التي تسوقهنَّ إلى ترقيع أحذيتهن، على الرغم من أنه كان دائما يلتزم الكتمان والمكر الضروريين كي لا يُعْرف عنه أيّ شيء. أخيرا، لقد كان مسيِّرا لجمعيةَ خورانية تحتفي بالأسبوع المقدس، وكان يمرُّ في استعراض حاملا شمعةً أثناء الاحتفال بموكب نشوء

جَسَدِ المسيح، وكان من بين زبائنه- جمعيته كما كان يقول آنئذٍ- قساوسةَ في الكنائس القريبة، وحتى ضباط من ثكنة الحرس المدني، التي كانت وقتئذاك في الساحة الصغيرة الجانبية. لكنَّه كان يقتل السيِّدات بصمته، وسيُدهشكم بمعرفة كم من السيّدات ذوات مظهر محترم ومكانة اجتماعية قد قضى منهن وطَرا، مُستغِلًا أنه سيوصل إليهنَّ فردتي حذاء انتهى من إصلاحهما، في ساعة يكون فيها الزوج في عمله والأطفال في المدرسة، وأحيانا أعرف ذلك لأنه هو نفسه حكى لي ذلك، كان يطلُب منهن المرور إلى غرفة داخلية بالدكان، هي أصغر من المدخل حيث كان يشتغل، وهنالك كان يرفع عنهن تنورتهن ويُباشرُهن مستندات إلى الحائط، في انتشاءِ دفء. وقتئذ، كانت النساء أكثر التهابا من الآن، يقول، أو كان يقول، لأنه الآن يحكي أشياء قليلة، ليس كما كان في السابق، حين كنتُ أثير معه الموضوع، فكان يتحمَّس، ولا سبيل يكون لِثنْيه عن الكلام، إضافة إلى هذا، كان التمشي صُحبتَه عبر الشارع محرجا، لأنه كان يتكلّم بصوت مرتفع، وكان يتوقف للنظرِ إلى النساء جميعهن بوقاحة لا تليق، ولا هيِ خليقة برجل في سنه. انظُرْ، لا تفوِّتْ عليكَ، انظرْ، يا لها من مؤخرة، أيُّ ثديين لدى تلك، يا للمشية. كان يعترف، بالطبع، وكان يدفع كفّارات باهظة، تقريبا كل عام كان يخرج حافي القدَمين أثناء الموكب، وأحيانا كان يحمل صليبا ثقيلا جدا، ذاك صحيح، دون أن يعلم ذلك أحدٌ، المُجاهِر بإيمانه، السيِّد دِييغو، أكيدٌ أنكم تتذكرونه، ذلك القس البذيء جدا، الذي كان خورانيا في كنيسة سَانتَا ماريَّا،

الذي كلَّ كان يُهدِّده بأن يمنع عنه المغفرة. يمكن تنفيذ الكفَّارة، يا ماتيُّو، لكن إذا لم تكن من نيَّة في الإصلاح فإنَّ القربان لا يغفر الخطايا. ما يَحْدث هو أنه، في صميم روحه، لم يكن يعتقد في أن الوصية السادسة كانت جدِّية كثيرا شأن الوصايا التسعة الأخرى، خصوصا إذا كان المرء ينتهكها خِلْسَةً، وباستمتاع كبير من لدن الجهات المتورِّطة، دون فضيحة ولا أذى لأطراف ثالثة، وإضافة دون صفقات مذلَّة، وقلَّة الصحة التي يجابها معه الذهاب إلى دور المومسات، وهي العادة المنتشرة جدا وقتذاك، حين كانت دورهن لا تزال مفتوحة قانونيا. لكنَّ ماتيُّو كان يقول بكبرياء، إنه أبدا لم يلِجْها. كيف لي أن أستمتع مع امرأة تكون معي لأني دفعتُ لها الثمن؟

ذاك العام كان عام العرش الجديد لحَفل "العشاء المُقدَّس"، حين لجأ ذلك النحات الذي كان مدينا له بمال كثير إلى دفع دَيْنه إلى صديقنا راسما إيَّاه في هيئة القديس متَّى. انظري، يا أختي، كانت الراهبة العجوز تقول، حدِّقي في ذلك الإسكافي، الذي له الوجه ذاته الذي للحَواريّ، الأكيدُ أن ما ليس لديه هو قداسته. إننا مخلوقون من تراب، يا أُمَّاه، إننا خطَّاءون، وإنْ كنا مسيحيِّين طيِّبين، وليس بوسعنا جميعا أن ننصرف حصريًا عن التعبُّد الإلهيّ كما تفعلون أنتم. ألَمْ يقل ذلك السيد المسيح في بيت مارْتا ومريم؟ ألمْ تقل القدِّيسة تيريِسَا إنَّ إلهنا أيضا كان يمشي، كان يسير بين القدور؟ وإذن، ممكن أن يمشي كذلك بين هذا المكان بين أحذيتي البالية ونِعالي. كثير من الأفعال الخيرة وقليل من الكلام، يا مُرقِّع، فإنَّ الإيمان بلا عمل هو إيمانٌ

ميّت، وإضافةً هو سلوك وثنيّين ذاك العشق المفرط لمصارعة الثيران. قلّلوا من ملصقات مصارعة الثيران، وأكثروا من صُوَر القدّيسين.

الراهبة الأخرى، الصغرى، لم تكن تقول شيئا، ظلت ناظرة كأنها تفكّر في شيء آخر، أو كانت تنظر خلسة إلى العجوز، بينما هو، في تلك الأصباح الشتوية التي كان فيها شُغلٌ قليل، كان ينظر مُركِّزا عليها، مميِّزا إياها شيئا فشيئا من الأخرى، وكذلك عن وجهها المجرَّد الذي لراهبة، ومباغتا حركات هاربةً جدا، لا يبدو أنها كانت قد حدثت، نظرات سريعة، كأنها تصدُر عن استياء أو ممل، الصيغة التي تفرك بها الشابة اليدين، أو تعض بها على الشفة السُّفلى، في نوبة نفاد صبر، لا علاقة لها بالرهبانية، لا تتناسب مع العادة أو الصندلين المتواضعتين، والنبرة الابتهالية والعسلية التي كانت في صوتها دوما، في الأشياء القليلة التي كانت تتفوّه بها، بالكاد يُسمَع "سلام على مريم الطاهرة" و"جازاك الله". في البداية بدَا له أن الراهبة الصُغرى تتصرَّف دائما كتابعة طائعة للراهبة الأخرى، الصوت الثاني في ثنائيٍّ كنيسي وديع ومتوافق، لكن يوما بعد يوم شرع يلاحظ فيها بداية اختلاف، عداء مضمر يكشف عن ذاته في ومضات غضب سريعة في البؤبؤين، الانزعاج من الذهاب دائما مصحوبة بامرأة مسنّة جدا ومليئة عيوبا وهواجسَ رتيبة، مُتمالكةً الإيقاع الطبيعي لخطواتها كي تُكيِّفها مع بُطء الأخرى، ونيدا تصعد الاثنتان

كلَّ صباح من عمق شارع الرّيّال، الشّبحان القاتمان في المدينة شبه الخالية، الصغرى تشرئب برأسها أحيانا بحركة لاإرادية أو كتومة تنتقم في جرأة، والعجوز المحدودبة والمُجدَّة، الوجه مجعَّد جدا مثل العباءة، اليدان جافتان وأصابع القدمين معوجّة مثل قضبان الكرمة في نعلني التوبة.

كانتا تصعدان الشارع وتقفان عند جميع الدكاكين، هل تتذكرون كم دكانٍ كان موجودا فيما مضى، والآن اختفت الدكاكين جميعها تقريبا، في دكان الحلويات، ودكان الحدائد، في دكاكين اللُّعب والساعات، والخياطة، والصيدلية، وفي دكان حلاقة بيبي مُوريُّو، الإزعاج نفسُهُ كلَّ صباح، ضجيج الأبواب الزجاجية عند الانفتاح والناقوس الذي تَرجُّه الباب، سلامٌ على مريم الطاهرة، بدون خطيئة، الأختُ بارّانكو العجوز والشابة الأخت ماريّا دِلْ غولغوتا، أيُّ اسمين. يبدو أنه الآن لا يتذكّر شيئا، لكن حينْ أكونُ معه في بيته ولا تَسْمَعُنا زوجتُه أقول له، الأخت ماريّا دِلْ غولغوتا، فترتسم على وجهه نصف ابتسامة كأنه يتذكر جيدا ولا يرغب في البوح، لا يرغب كذلك في أن أعرف السِّرَ، بعد مرور سنوات كثيرة. في بعض الأصباح، لو تأخّرت الزيارةُ كان يشرع في الإطلالة من عتبة الباب، بمنديله الجلدي وعقِب السيجارة في الفم، وينتظر أن يراهما تبدوان في نهاية الشارع، وحين كانتا تنعطفان مع زاوية ساحة "لوس كايّيدوس"، حينئذ كان يُطفئ عقب سيجارته، ويحتفظ به ليس خلف

أذنه، وإنما في دولاب المائدة، ثم يُحرِّك البابَ كي يُنظِّـف الهـواءُ المنعشُ الدّخانَ ورائحةَ التبغ، يُسكتُ المذياعَ الذي اعتـادَ أن يكـون لديه على تَردُّد مسابقات أو برامج مصارعة الثيـران، أو الأغـاني الشعبية. يا للعجب، يهجِسُ، ألاَّ أكونَ حتى الآن قد حقَّقتُ النظر، وألاَّ أكون قد رأيتُ سوى وجه مستدير أبيض لراهبة شأنَ كثيـرات. الآن ينتبه إلى أنه كانت لها عينان واسعتان ومشرقتان، واليدان طويلتـان ونحيفتا الشكل، على الرغم من أنهما كانتا محمرَّتا اللونِ دائما، مـن فرط التَّصبين بالماء البارد، وتكونان أحيانـا داكنَتـين مـن البـرد. ووجهها على الرغم من أنه يكون مُطوَّقا بشال، فإنه لم تكن به الاستدارةَ الفجَّةَ شأنَ وجوه الراهبات، لأنه كان وجها قويًّا على غرارِ بطلة فيلم سُلَّم الغطرسة الأرجنتينية، إذ كان يمضي حياتَه أثناء شبابه في سينما إيدِيال، الموجودة فَوْرَ عبور الشارع انطلاقا من مدخل دكانه للسِّكافة، فقد كان يعشق النساء في الأفلام شأنَه في الواقع، وعلى الخـصوص فنَّانات الرقصات الموسيقية، اللواتي كُنَّ يرفعنَ سيقانَهن في الهـواء، أو اللواتي كُنَّ يقُمنَ بدور "جين" في أفلام طَرزان، بتلـك التنـورات الجلدية القصيرات جدا، وخصوصا تلك السبَّاحات بالألوان الـسكوب في أفلام "إستِر وِيلْيَامز"، وإِستر ويليامز نفسُها هي الأولى من بينهن.

يروقه أن يتذكَّر ذاكَ، إن الراهبةَ الصغرى الأختَ ماريـا دل غولغوتا، كان لها ذقْنُ بطلة غطرسة أرجنتينية، وأنه على الرغم من العباءةَ الحزينة، فكان يُمكنه أن يأخذ عن المرأة فكرةَ سـريعةً مـن

حيث شكلها، ليس الصدر بالطبع، الذي كان لديها كأنــه مُحــزَّمٌ أو مُكفَن، وإنما عن ركبة، أو استشعار هيئة خصر أو فخذ، حين كانــت تصعد عبر الشارع، وكانت الريح تهبُّ عليها مــن أمــام، أو شــكل العقب وكاحلِ الرِّجل، اللذين كان يَعِدان بالامتدادِ العــاري للــساقينِ واضحتَيِ البياض في التجويف القاتم.

- سلام علي مريم الطاهرة.

- دون حملها لخطيئة.

كان يجيب دون أن يرفع عينيه عمَّا يكون يفعلُه، خوفًا من أن العجوزَ الأختَ برَّانكو، التي تكون دائما تنظرُ بارتياب كبير، تكتشف انتباها مُبالَغا فيه في بؤبُؤيه، وأن تشْمتَ أيضا بتأخيرٍ يَحْرِمُــه مــن الاستمتاع، في الوقت الذي يرى فيه وجه الأختَ ماريا دل غولغوتا. يسعى إلى أن ينال منها حرَكَةَ وُدٍّ، أو تواطؤا بصدد انزعــاج، فــي نظرتيهما ورُبّا. يقول لي، أو كان يقول لي حتى وقــت قريــب، إنَّ إحدى قواعده في هذه الحياة هي أن يبحث عن نساء لــسْنَ جمــيلات جدا، لأنه يقول إنَّ الجميلات لا يندَمِجن بالكامل فــي الــسرير، ولا يخضن في الأمر مؤمنات به مثلما تكون عليه اللواتي يكــنَّ قلــيلات القُبح، ويكون عليهن أن يُعوِّضنه باجتهادات أكثر. الفنانات جمــيلات في السينما أو في المجلات المصوَّرة، إذا كانت من تُحبُّكَ قبيحة إذنْ أطْفئ النور، أو تدبَّرْ أمرَك كي لا تنظر إلى وجهها، يقولُ العمُّ، لكنَّ المردودية العملية لا مقارنة لها، وإضافةً هنالك منافسة قليلــة. تقفــزُ

القهقهة على ديوان الحانة، قُبالَةَ كؤوسِ الجُعَّة التي قُدِّمتْ قبل قليل وأطباق الحبَّار، والسمك المقلي، بينما ساردُ الحكاية يشرب جُغمة كبيرة من الجُعَّة، يلحس الشفتيْن، يلقم شيئا ويستعدّ لمواصلة الحكي، ويزهو كثيرا لاهتمام الآخرين دونَ أن ينتبه إلى أنه يتكلَّم بصوت مرتفع جدا.

لكن هذه، وإن كانت جميلة، فإنها تُعجبه. كانتَ تعجبه كثيرا حتى إنه بدأ يتخيَّل أشياءَ، ويخشى أنْ يقوم بخطوة خاطئة فيرتَكِب حماقة ما. كانتْ تمكث ناظرةً إليَّ، وكان يتهيَّأ لي أنها ترغبُ في أن تقول لي شيئا، وكانت تقومُ بحركةٍ مشيرةً إلى العجوز، كأنها تقول لي، لوْ بمقدوري أن أتخلَّص منها، لكني كنتُ، لاحقا، حين أتذكَّر حين تكونان قد انصرفتا، ولا أكون متأكدا من أني قد رأيتُ ما كنت أتخيَّله، وفي اليوم التالي كانتا تأتيان، سلام على سيدتنا مريم الطاهرة، دون حملها لخطيئة، وعلى كثرة تركيزي النَّظَرَ على الأخت ماريا دل غولغوتا، فإني ما كنتُ أرى أنها كانتْ تلوِّح لي بإشارة، ولا حتى تنظر إليَّ، ولا تقوم بأي حركة، كانت تبقى هنالك واقفة، ناظرةً إلى مُلصق لمصارعة الثيران، بينما كانت تقول: يُعوِّضك الله، ويكون الأمر كما لو أنها لم ترَني طيلةَ وقتِ حضورِهما، أو كما لو أنها كانتْ راهبةً مماثلة لأية راهبة أخرى من كثرة بقائي لساعات طويلة وحيدا دون التحدُّث مع أحد، لا أفعل شيئا سوى ترقيع خرزات وتقطيع نعالٍ، محاطا بأحذية بالية، وهي أبأس شيء في العالم، لأنها كانت تذكِّرني بالموتى دائما، وخصوصا في

تلك المرحلة في الشتاء، حين كان كل النـــاس يـــذهبون إلـــى جنـــي الزيتون، ويمكن أن أقضي اليومَ برُمَّتِه دون أن يـــدخل علـــيَّ أحـــدٌ ليُكلمَني. أثناءَ الحرب، حين كنتُ صغيرا، رأيتُ في مـــرات كثيـــرة أحذيةَ لموتى. كان بعضُهم يُرمى بالرصاص، ويُترك مرميا في حفرةَ على جانب الطريق، أو خلف المقبرة، وكُنا نحن الأطفال نذهبُ لنرى الجُثث، وأنا كنتُ أركِّز النظر على أن كثيرين تفلـــتُ الأحذيـــة مـــن أقدامهم، أو نَرى أحذيةَ ملقاةً، أو فردةَ حذاء ولا نَعـــرَف لأيِّ ميِّـــت تكون. كذلك أنسى كلَّ ما أتذكَّرُه من أشياء لا أعرف ما تكون. أتذكَّر أني رأيتُ منذ أعوام كثيرةَ، في واحدة من نشرات الأخبار بـــالأبيض والأسود، التي كانت تُبَثّ في السينما جبـــالا وجبـــالا مـــن الأحذيـــة القديمة، في تلك المعتقلات التي كانت في ألمانيا. لكنـــي أرى أشـــياء حدثت منذ سنوات طويلة، ولا أتذكر ما فعلتُه هذا الصباح، ويتهيَّأ لي أني أنادى أو أُسأل عن شيء، وأُجيبُ، فتقول لي زوجتي: يا لـــسوء هذه العادة التي تملَّكتني إذْ أتحدَّث وحدي.

– محبَّةً في الله، هل يمكنك أن تعطيني قليلا من الماء؟

كانت الأخت الشابة أكثر شحوبا من العـــادة، ذاك الـــصباح، الوجهُ مُطفأً دون لَمعـــان، وخطـــوطُ الأجفـــان مُحمَـــرَّةً، والأذنـــان بنفسجيَّتان، كأنها تدل على ليلة أرق. وإزاء تقطيب الحاجبين الـــدال على مشكلة والنظرةِ الحذِرة للأخت برَّانكو، قادَها إلى المَمرِّ الصغير في الظُلَيل المجاور لمدخل دُكانه، حيث كان المرحاض ودكَّة إبريـــق

الماء، وواحد من تلك الأباريق القديمة في هيئة ديـك، مـن طـين زجاجي ذي ألوان حيَّة جدا، والعَرف أحمر والكرش صفراء. بدا لـه بشعًا أن تشربَ راهبةٌ مباشرةً من الإبريق، فبحث عن كأس نظيفـة، يُقدِّم لها الماءَ فيها. ركَّز البصرَ خلسةً في يديْها اللتيْن كانتا ترفعـان الكأسَ مع بدايةِ ارتعاش، في شفتيْها الجميلتين عديمتَي اللَّـوْن، فـي ذقنِها القويَّة، التي انسكب عليها خيط ماء، لأن اليدين ترتعـدان الآن بوضوح، وحين رغب في رفع الكأسِ التي أوشكتْ علـى الوقـوع، ضغط بقوة على يديْها، وأدركَ أن بكفَّيْها النديَّتين حرارةَ حُمَّى. كيف ضغطتْ تلكُما اليدان نحيفتا الشَّكل، لكنهما كبيرتان ومجرَّبتـان، أيّ قُرب أحسَّ في تلك اللحظة، حيثُ تنفُّسُ الراهبةِ المحمـومُ، والثقـلُ واكتناز جسدها، الذي أُنهِكَ بالنِّظامِ والصَّوم، بالبرد الذي تكونُ عليـه الصوامعُ، والذي لا عزاءَ له، وفي مطاعم وممرات ذلك الدِّير العتيق المهدَّد بالانهيار. حينئذ فقَدْتُ عقلي، ولم أصدِّق ما كنتُ أفعلُـه، لقـد طوَّقتُها من خصرِها بكلتا يديَّ، وجذبتها إليَّ، بحثْـتُ عـن فخِـذيْها وإستها تحت اللباس، وقبَّلتُها في الفم، وإنْ كانت قد حاولـتْ تنحيَـةَ الوجه، وفكَّرتُ، كأني كنتُ أرى ما سيقَعُ لي، ستشرَعُ في الـصُّراخ، ستدخُلُ الأختُ الكبرى، وستُحدِثُ فضيحةً، كنتُ أكاد أسمع الصراخ، وأرى اقترابَ أهل الدكاكين الأخرى، لكنَّ الأمر لم يكن ليهمّني، كان لا يهمني، أو أني لم يكن بوسعي أن أتفادى ما كنتُ أقوم به، وبينمـا كنتُ أبحث عن فمِها، وأُحِسُّ ما كان عليه وجهُها من حرارة، وكذلك

كل الجسد، انتَهيْتَ إلى أنه كان بمقدورها أن تصرخَ، ومع ذلك فإنها لم تصرخ، ولا قاومتني، بل بالأحرى، لقد استسلمتْ لـذراعيَّ بينما كنتُ أجسُّ باحثا عمَّا كنتُ أتخيَّلُه مرات كثيرة. آنئذ، رأيتُها تغمض العينين، كما في الأفلام حين تقترب قُبلة، وتقطعُها الرِّقابة، فينفصل الرَّجُل والمرأة فجأة عن بعضهما، كأنهما صُعقا بتيَّار كهربائي. لكنها كانت تغمض عينيْها ليس لأنها انغمرت في جذبة غرامية، وإنما لأنها كانت قد بدأت يُغمى عليها وغدتْ عيناها مقلوبتين وبيضاوين، بينما كانت تهوي أرْضا دون أن أستطيع رفْعَها.

يا له من خوف، أراها متمدِّدة شاحبة جدا، بجفنين مُـوارَبتين، بيضاء جدا كأنها ميتة، كأنه قتلَها بالتدنيس الذي لم يُسمعْ به لجُرأته، لا يتذكر إن كان قد نادى الراهبة الأخرى صارخا، أو أنها دخلت إلى الغرفة الداخلية مستشعِرةً التأخُر، أو ضجيج سقوط الجسد المُصمَّ. وحين تمكنا من إنعاشها، كانتْ أكثر شحوبا من ذي قبل، وإذا كان يقول لها شيئا، كانت تمكث ناظرةً إليه بوجه محايد جـدا، كأنها لا تتذكر ما حدَث. ومجدَّدا، حين بقي وحيدا، غمَره الإحساسُ الساخط بعدم التمييز بين ما كان يراه وما كان يتخيَّله، بين اليقين بأنه قد قبَّل الراهبةَ وداعَبها، والتعبيرِ الآخر بأنها قد ابتسمتْ له بوَهَن بعد ذلك، حين تهيَّأتْ للعودة إلى الدَّير، مُعتمِدةً على وجه الأخت برَّانكو الأفطس والقوي، شاكرةً إيَّاه على عنايته بها. ربما كانت خرقاء، ولم تكن أيضا تدري إن كانتْ حقيقةً أم لا ما حَدَثَ خلال لحظات، في الغرفة الداخلية لدكان السكافة.

مرَّتْ الأيامُ دون أن يظهر أثرٌ لإحدى الأختين. كانت الأخت "ماريا دل غولغوتا" مريضة جدا، ولم تكن الأخت "برانكو" تُفارقها، أو لربَّما كانت قد تُوُفِّيت بسبب تلك الحُمَّى، أو بعد كل هذا ربما ارتابت في شيء، ولم تسمح لها بالخروج من الدير، وأكثر من هذا بالاقتراب من باب الإسكافي. لكنها لو كانت قد ماتت لَعُرِف ذلك في المدينة، ولكانت النواقيس البطيئة ومتباعدة الضربات الخاصَّة بالمآتم قد دقَّت. أكثر من يوم، في الظهر، كان يغلق الباب الزجاجي للدكان، ويتوجه للنَّهب عبر ساحة سانتا ماريا، وإن كان دون الاقتراب كثيرا من أبواب الدير، الذي كان يفتَح لأخت بين الفينة والفينة، كانت تبدو له عن بُعدٍ دائما الأختُ ماريا دل غولغوتا، أو الأخت برَّانكو المجروحةَ، التي كانتْ تتجه ناحيتَهُ كي تؤنبَه على كُفره الشَّهواني.

لم يهجر الاهتمامات الأخرى تماما، بالطبع، أنتم تعرفونه. كان يحضر اجتماعات مكتب جمعية "العشاء الأخير" والجمعية الخيرية " جسد المسيح" المختصَّة بتزويد فلاحين وصُنَّاع بالرعاية الطبِّية وإعانات متواضعة، في تلك الأزمنة السابقة على الضمان الاجتماعي. كذلك، لم يحفل تماما بزوجة ملازم بالإدارة، كانت تبعث إليه بتنبيه حين كان زوجها يخرج في مناورات. لكنه كان يمكث في اللقاءات أكثر شرودا من المعتاد، وكانت الملازمةُ، كما كان يُسمِّيها، تلاحظ أنه أبْرَدُ من المرات السالفة، وكانت تسأله إن كانت في حياته امرأةٌ أخرى، مُهدِّدةً إيَّاه بأنها ستحكي كلَّ ذلك للملازم في ثورة

غيظ، أو أن تسرق منه مسدّسا، وأن ترتكب حماقة. أترى ما لدى النساء الجميلات؟ يُمكنْ أن يُخرِّبْنك، وأنْ يُصيِّرْنك ذا نزوات، حتى قبل أن تُضاجعهُنَّ، كما حين نعتاد على خبز القمح والبطاطس، ولا تعود لنا رغبة في الخبز الأسود ولا البطاطس الحلوة، ونشعر بالقرف من الخرُوب، الذي كُنَّا قد أكلناه بالتذاذ كبير أثناء سنوات المجاعة. وبما أني تَولَّعتُ بالأخت، التي كانت جميلة وأكثر شبابا، فقد بدأتْ الملازمة تبدو لي بدينة وكبيرة، على ما كانت عليه من سخونة وروعة، وفناجين القهوة بالحليب، والخبز المشوي رفقة الزبد، التي كانت تأتيني بها إلى الفراش بعد المضاجعة، بينما كان الملازم يزاول مناوراته. وبما أنه كان بالإدارة، فإن لا شيء يخصّ الأكل كان ينقص في ذلك البيت. أحيانا وأنا أنصرف، كانت الملازمة تعطيني نصف دستة بيْضا، أو قنينة من الحليب المُكثف. هيًا، كانت تقول، كي تكتسبَ قوَة.

دورات شرب جعة طافحة بالزَّبد، أصواتُ النُّذل، روائحُ زيوت مقليَّة كثيرا، حمحمة آلةِ عصر القهوة، موسيقى روبوتيَّة لآلات اللعبِ جالبَةِ النُقود، وآلةَ بيع التبغ: الذي يحكي له وجهٌ طفوليٌّ بصورة ما، مرِحٌ، ومستدير جدا، لكنَّه هكذا أصلعُ تماما، ويرتدي حلة حسب الأصول، حلة محام أو موظَّف رسمي بالتوثيق، ويحمل شارة صغيرة بعُروة السُترة، ومشبك فِضِّي لربطة العنق، يُميِّزُ فيه الصورة الضئيلة لمريم العذراء. يتوقف عن الكلام كي يستقبل بهُزْء

وقور صحنًا كبيرا من أكلة السجقَ المُدخَّن، وَضعه النادل قبل قليل على المائدة، وبفم مملئ يُردِّد بيتيْن من الشعر:

السجق، أيتها السيدة العظيمة،

يستحقُ كل تبجيل.

يشرب جعَّة، ويمسح الفم تَحَسُّبا لبقاء شيءٍ بين الأسنان من قطعة سوداء من المورثيا. يخفض الصوت، تخيَّلوا ساحة سَانتا ماريًّا تلك، يقول، الشاسعة جدا، فاتحةً اليديْن والذراعيْن، راضيا عن اختيَاره لذلك الهدف، الذي يتوافق أكثر مع فخامة حركته، في حلكة ساحة جد واسعة، ومُحاطة شبَحيًّا بكنائس وقصور، بعيدة جدا عن هنا، في عالم آخر وزمان آخر، منذ زمان بعيد. ذات ليلة، بعدما كان قد نام، بعد أن عاد من بيت الملازمة، وبعد أن عملت له مقلَبا استدراجيًّا، باحَ لي بذلك بهذه الكلمات نفسها، كنتُ متمدِّدا في العتمة، وأسمع ضجيج تلك الساعة المنبِّهة، التي تُحدِثُ صوتا لعينا أقوى من بندول ساعة. هو الذي لم يكن يَأْرَقُ لأيٍّ سبب، فهِمَ أنه لن ينامَ تلك الليلة. ارتدى ملابسَه، وضع السترة، والملْفَع، والقبَّعة، وخرج إلى الشارع شبه نائم، مشى عبر الأزقة كأنه كان يتخفًى من شخص. وانتهى عند منتصف الليل في ساحة سانتا ماريا، التي كانت مليئة بالضباب، كان بها مصباحٌ أو مصباحان فقط يلمعان في الزوايا، كانا خافتين حتى إنهما كان بالأحرى بُقعَتي ضياءٍ، أو مثل لمعان

الفوسفور في عقارب الساعة، أو في أرقام ساعته المنبِّهة. كان يستشف الكُتَل الغامضة للبنايات، والأبراج، والطُّنُف بتماثيل، وأبراج الأجراس، وكنيسة سانتا ماريا، وكنيسة السلبادور، وتماثيل الأسود أمام البلدية، والواجهة المتجَهِّمة والجسيمة لدير سَانتا كْلارا، الذي لم يتجرَّأ على الدُّنوِّ منه في تلك الساعة.

رأى من بعيد ضوءً منيرا، في النافذة العُليا بالبرج. وكان الضباب قد شرع في الانقشاع، وبالكادِ يُرى نسيجُ خفيف باهتٌ يُغلِّف الأشياء. وإلى جانب النور ميَّزَ، بصعقةِ خوفٍ، شبَحًا ثابتًا، بدا له أن يُحقِّقَ فيه. من تلك المسافة، ومع قلَّة الوضوح، وفي حالِ التوتر التي كنتُ عليها، لم يكن بوُسعي أن أميِّز وجها، ومع ذلك كنتُ واثقا من أني كنتَ أرى الأختَ الشابة، الأخت ماريا دل غولغوتا، وأنها قد صعدت إلى ذلك البرج كي تراني، وأنها كانت تطفئ النور وتشعله، كي تُعلِمني بأنها قد تعرَّفتني. انطفأ الضوء، ولم يعد إلى الاشتعال، لكنه واصل الوقوف ثابتا، ناظرا إلى أعلى، وحيدا في أفقِ الساحة المقفر، دون أنِ يعبأ لا بالوقت ولا بالبرد، غير متأكد الآن من أنه قد رأى شيئا حقيقةً، وأنه لم يكنْ يحلم. لقد نمْتُ دون أن أنتبه إلى ذلك، بينما كنتُ أعتقدُ أنه لم يكن باستطاعتي النوم، وأني أحلُمُ أني قد نهضتُ وارتديْتُ ملابسي، وأني جئتُ إلى غاية هنا، وأني قد رأيْتُ نورا في برجِ الدّير ووجهَ الراهبةِ الأبيضَ بوضوح شديد، كما كانتَ حين انهارتْ في ذلك اليوم بين ذراعيَّ، وبقيَت على الأرض بفم مفتوح والجفنان مواربان. لكنَّ الضوء اشتعل مجدَّدا، مدَّةَ ثانية فقط،

وخلال مرَّة واحدة، وتحركت سريعا من ناحية لأخرى، وبعد ذلك في الاتجاه المعاكس. ربما كانت قد ماتت، وأنَّ طيفها أو روحها كانت تعود لتعذّبني عقابا على تجرُئي. واصل الانتظار طويلا، مستغرقا في تأمل طويل، هادئا جدا، حتى فاجأته قرعات الأجراس البطيئة والصارمة للساعة الثانية بقشعريرة.

وكانت له في الصباح التالي ذكرى غريبة جدا، عن جولته الليلية، مزيج غامض التشبيح واليقين: كان حقيقةً ما رآه من نور يشتعل وينطفئ، وطيف برداء راهبة، لكنه لم يستطع التأكد من أنه قد رأى وجه الأخت ماريا دل غولغوتا، ومع ذلك، فقد كان يعتقد أنه تذكر بكل التفاصيل ملامحها، وحتى التوهُّج الأصفرَ، الذي كان يُصبغه الضوء الأصفر على بشرتها. فهِمَ أنه كان يتاخم الهذيان كذلك، حين تذكَّر أيضا أن الأختَ كانت بشفتين ملوَّنتين بأحمر شفاه فاقع، الشفتان خشنتان ودافئتان من الحمَّى، هما اللتان قبّلهما في لحظة خوف، تبدو هي الأخرى له، الآن، أضغاثَ أحلام.

- سلام على مريم الطاهرة.

كان غارقا في عمله وفي تأمّلاته، حتى إنه لم يسمع البابَ الزجاجي ينفتح، وحين رفْعِه لرأسه، كان أمامه الوجه نفسُه، الذي كان يشغل خياله وأحلامَه منذ أيّام خلت، بعد غيابها، صارت الأخت ماريا دل غولغوتا أعلى وأنْحفَ وأكثرَ بياضا، وأقلَّ شبابا- كان حقيقةً أنه لم يكن إلى جانبها ضدُّها شيخوخةَ الأختَ برّانكو- لكن أيضا كانت على الخصوص امرأة حقيقية، وليست راهبة، لها نظرة

امرأةٍ وصوتُها، صوتٌ شبه أجش دون الطلاوة الكهنوتية للمرات السابقة. كانت امرأةً محاصَرَةً في تلك الملابس والتنانير المنتمية لقرون مضت، وكان لعينيها طيلة ثوان سخاءٌ لم يكن قد تعوَّدَ عليه في تعامله مع نساء أخريات، حتى مع اللواتي استسلمْنَ له بجسارة. لم يفعلْ شيئا، حتى حركة الاحترام بالوقوف، لم يُزِح عقبَ السيجارة من فمه، ولا ترك المخرزَ والحذاءَ القديم، الذي كان في يديه، فقط سمع ذاته يُجيبُ كما في كل الأيام:

- دون حملها لخطيئة.

قامت بحركة استياء أو نفاد صبر، نظرت جهة الشارع، اقتربت منه وقالت له شيئا، وقامت بخطوات سريعة إلى الوراء فورا، وحين كان سيطلب منها أنْ تُعيد عليه ما قالته له انفتح البابُ، وظهرت الأختُ برَّأنكو محدودبة ومتعبة، وهي تتمتم بشكاوى وأدعية، مُلِحَّةً بصيغٍ فجائية في طلب صدقات متأخرة، معاتبة إيَّاه على التدخين والولع بالثيران أكثر من الاهتمام بطقوس التاسوعيات، ومؤنبة الأختَ "ماريا دل غولغوتا" على عدم انتظارها إيَّاها، هي التي وصلت درجةُ حرارتها إلى الأربعين أمس، ويُلزَمُ أن تُرى اليومَ رشيقةً جدا، دون أن يصل الطبيب إلى معرفة ما بها، لقد عالجها الفضلُ الخاصُ للعذراء المقدَّسة. وبينما كان ينصت إلى الأخت برَّانكو، تذكَّر، وتمكَّن من فهم الكلمات التي قالتها له بصوت خفيض وبسرعة الأختُ ماريا دل غولغوتا، أو بالأحرى تجرَّأ على اعتقاد ما استمع إليه، أن يكون واثقا من أن تلك الكلمات لم تكن هذيانا آخرَ

لخياله المحموم. وبالضبط، بعد الثانية عشرة، انتظر حتى أُشعِل وأطفئ النور ثلاث مرات في النافذة العُليا، وادفعِ الباب الصغير، الذي يوجد خلف الزاوية، اِصعد ثلاثة طوابق، وفي البسطة الثالثة تجد هنالك نافذة على اليسار وبابا على اليمين، اِفع بحذر البابَ، سأكون هنالك أنتظرك.

خيال محموم: وحَسب تقدُّم الحكيِ كان السارد يُعدِّل درجات التَّوقُّف، ويُفخِّمْ العبارات التي تُعجِبُهُ أكثر، يلتَذُّ بها كجرعة نبيذ أو مازّةَ مورثيا. حوله كانت المجموعة تغدو أكثر تماسكا، وكان الزَّبَد يغدو أدفأ، ويتحلَّل في بعض أقداح الجعَّة، التي تُنسى فوق المائدة كبقيةَ صحون الوجبات، التي لن يُتمَّها الآنَ أحَدٌ، والتي لن يسحبها النادلُ.

يهيَّأ لي أني أرى ذلك، تلك الليلة، أخيرا، ليلة الأحكام، الأولى، لأنه كانت هنالك مجموعةُ ليالٍ، تخيَّله بسُترتِه وملْفعه وقبَّعته، كقاطع الطريق لويس كاندلاس في تلك الأغنية، التي كنا نسمعها ونحن صغار في الراديو، هل تتذكَّرون:

تحتَ سُترة

لويس كانديلاس

قلبي لا يعدو

بل يطير ويُحلِّق

الساحة برمّتها في العتمة، كفَمِ ذئب، لا شيء من تلك الأفــواه التي وُضِعت لها لاحقا كي يراها السُّياح، والتي نزعت عنها نكهتها، كما أقول أنا، جاء الكهرباء وانتهى اللغز. يدور مع المنعطف الأول، منعطف البلدية، مخافةَ أن يراه أحدٌ من نافذة، يمشي ملتصقا كثيــرا بالجدار، وفي الواقع، لم يكن يتصور أن ذلك ســيغدو حقيقــة، مــا وعدته الراهبة به صباحا، ولا هو أيضا سيجرؤ على الــدخول فــي منتصف الليل إلى الدّير، مثلَ لصٍّ أو مثل دُون "خوان تينوريو"، لأنه نفسه يعترف أنه إنْ كان في صِغَره مُلتَهِبًا جدًّا، فإنه كذلك كان جبانا جدا، وفجأةً حلّ به الارتباك من أن يتمّ اكتشافه، فتنتشر في المدينــة فضيحته، وسيجد نفسَه يُشارُ إليه بالأصابع، وســيُطرَد مــن جمعيــة العشاء المقدَّس والجمعية الخيرية "جسد المسيح" بسبب كفره، وسيُجبَر ربّما على إغلاق الدكان مصدر رزقه المتواضع، بالطبع، لكن أيضا دون مصاعب في تلك الأيام العصيبة، معترِضًا عليه إلى الأبــد فــي المنصة الرئاسية لميدان مصارعة الثيران، التي اعتاد أنْ يُدعى إليها في أمسياتِ المصارعة بصفته مستشارا، والتي يُخالط فيها آخــرين، وهو يدخن سيجارا استثنائيا، واضعًا قرنفلةً بعيْن مفتوحةٍ في حلتــه، ذاتِ الخطوط الخاصة بالمناسبات الكبــرى، مــع الــسلطات العليــا بالمدينة، العمدة، ومفوّض الشرطة، وقائد الحرس المدني، وخــوريّ كنيسة سان بيدرو، ذاك السيد استشنسلاون الذي ســتتذكرونه، الــذي على الرغم من سرباله وشهرته، بقساوته المثالية، فقد كان من عُشاق الثيران الساخطين، وفي سنة ٤٧ مُــنِحَ المــسحة الأخيــرة للمجــد مانوليتي، في تلك الساحة اللعينة بليناريس.

يرهقه الوعي بالخطر الذي يوشك أن يقع فيه، ومع ذلك فهو لم يتورَّع، واستدار عائدا إلى بيته، إلى الحِمى الآمن لفراشه. كان الوقت لا يزال مناسبا، لم ينته من عبور الساحة، لم يشتعل أيِ ضوء في النافذة العليا بأعلى البرج، لكنَّ إملاءات الحَذَر لم تؤثر في خطواته، ولكي يبرِّئ نفسَه ويواصل الاقتراب من الباب الجانبي للدَّير كان يقول إن كل شيء كان يُمكن أن يكون مزحة، أو هذيانًا للراهبة، التي لا تزال مضطربة بفعل الحُمَّى، بحيث لا يهم أن يستمر في طوافه حول الساحة، طالما أن الضوءَ الموعود لن يشتعل، ولا حتى أن يقترب من الباب، ويحاول دفعه، لأنه لن يندفع، سيكون الباب مغلقا بإحكام مثل أي باب في المدينة، في تلك الساعة من الليل، فما بالك بباب دير، بمزلاج ودورات ومفتاح كبير، ومتراس خشبي، كالذي كنا نغلق به أبوابنا قديما قبل النوم، أو في زمن الحرب السيئة، حين كان ممكنا أن يُؤتى في أيّ ليلةٍ بحثا عنك ليُفسِّحوك، ويتركوك مرمِيًّا في حفرة على جانب الطريق، بجوارب رخوة، وحذاءيْن مرميَيْن بعيدا عن جسدك، خصوصا إنْ كنتَ رجُلَ نظامٍ وإيمان، كما كنتُ أنا دائما، على الرغم من وهَني، هذا بسبب خطايا الجسد.

لكنَّ الضوءَ اشتعل وانطفأ ثلاث مرات، واقترب هو من زاويةَ الدير برجلين ترتعدان، قائلا إنه على الرغم من كل شيء، فإن الباب يُمكنها ألا تستسلم، وفعلا، فقد وجد فيها نوعا من المقاومة في البداية، وتمكَّن من تخفيفها بجُبْنه، وكانت لكمة سُفلى ومؤلمة ضدَّ الإحساس بحدوث شيء مادّيَ اخترقه استعجالا لرغبةٍ جنسية، حين الضوء في

النافذة. دائما كانت الأبواب المغلقة تثبط همَّته، لكن هذا البـاب فـي ظاهره جدٌّ متماسك، وواطئ، ضيِّق، بـصفوف مـسامير متنوعـة صدئة، لقد تسلل في صمت بدَفعة ثانيةَ بنوع من الإصـرار، وحـين أغلقها وراءه، وجد نفسه في عتمةٍ يصعب اختراقها، عتمة أكثر مـن عتمة الساحة في الليلة بلا بدْرَ، فكَّر بقدريَّة مفزوعةَ، وبفُجورٍ جامح، أنه ما عادت هنالك فرصة للعودة وراء، صـعد الـدرجات الثلاثـة متحسِّسا الجدران، مرتعبا من الهمهمات والأصـداء الباهتـة التـي تحدثها خطواته، شاعرا في وجهه باحتكاكات نسيج العنكبوت، وفـي كفَّيه بالبرودة الرَّطبة التي يرشَحُها الحَجَرُ. وأخيرا، رأى على اليسار نافذة صغيرة ككوَّة رمي السِّهام، هي بالكاد شُعاعُ وميض فوسفوري في الحلكة: في تلك البسطة، على اليمين، تحسَّس خشبَ باب، وحـين تهيَّأ لدفعها غمَرَه الارتباكُ من أن يكون قد أخطأ في حساب مقطـع السير على الدَّرجات التي ارتقاها. مكث منكفئا على نفـسه، دون أن يتجرَّأ على فعل شيء ما، دون أن يتحرَّك، متجمِّدا في الظُّلمة، وبـدأ الآن يتحدَّد أمامَ بؤبؤيه اللذين تعوَّدا عليها إطـارُ البـاب وأجزاؤهـا المربَّعة. اعتقَد أنه قد سمع صوتا جدَّ ناعم، احتكاكا أو تنفُّسا لَيْسا له، قبل أن يلمح أن البابَ قد بدأت تنفتحَ سحبتهُ يدٌ سريعةٌ وواثقةٌ من ذيل سترته، وجذبته إلى الداخل، مُحدثةً فيه قشعريرةً، صوتٌ قال له فـي سمعه مُحذِّرا أن يحنيَ الرَّأس، لأن السقف كان منخفضا جدا، وبعـد ذلك بينما كان الباب يُغلَق كانَ يُسحَب ويَترك نفسَه يُساق، لقـد تـمَّ تمديده على فراش من قش ضيِّق خشن، وتمَّ جَـسُّه وتجريـدُه مـن ملابسه بحركات حمقاء، وتم اقتيادُه بمـزيج مـن الخـشونة غيـر

المتمرسة وبإصرار. يُلْعَق ويُعَض، ويُصيَّر مسحوقا من قِبَل جسدِ لَحمٍ عارٍ يشتبك بجسده دون أن يعرف جيدا، في غمرة الهيجان والظلمة، أيَّ المناطق أو أي أعضاء كانت تتلامس معه أو كانت تحاصره. لقد تمَّ رجُّه كخرقة، وسحقُه ضِدَّ جدارٍ كانت برودته تجمِّده وتَجرحُ ظهرَه، كان فمُه يُكمَّم بيد عَرَقى، وتنفسُه يُصوِّت قويًّا، ثمَّ قَلْبُه على رأسِه كما لو بضربة جامدة من موجة بحرية، ورُفِع حين كان يسقط أرضا، ولمَّا مُنِح أخيرا هدنةً، وهو نفسه بقي منهَكا ومُخففًا عليه في فراش القش الصلب، ولمس وشمَّ المادَّة السائلة التي كانت تبلِّل بطنَه، أمْكَنَه أن يتذكَّر كلَّ ما حدث له في الدقائق الأخيرة، ووصل إلى نتيجة أنه كانت به دماء في أطراف أصابع يدِه، وأنه للمرَّة الأولى في حياته انتهى إلى فضٍّ بكارة امرأة. سلام على مريم الطاهرة، همست هي، في تنهُّد طويل ووديع، وردَّ عليها في أذنها، دون أنْ يُخِلَّ بالقلق لقلَّة الحياء:

- دون حملها لخطيئة.

- هل صحيحٌ أنَّ تدخينَ سيجارةٍ بعد ذلكَ يَحْسُن؟

- لله درُّه.

- إذن، سأدخِّن واحدة.

أخيرا رأى وجهَها، في ضوء القدَّاحة الغازية، ولم يتذكَّرْها، لأنه لم ير شعرها أبدا، كان كستنائيا مُجعدا، وإن كان قصيرا، به قليل من الخشونة، مثل زغب العانة، الذي أوشك أن يخدشه. لذلك

كانت المرة الأولى التي تُدخِّن فيها، لكنها تعوَّدت مباشرةً، على الـرغم من السُّعال الدّوار، لأنه أعجبها كثيرا، قالت إنه كان يذكرْها بزمن كانت فيه طفلة، وكانت تُصاب بالدوار عند ركوب لعبة الأحصنة الخشبية، لعبة النساء، لوقلت لك الحقيقة، حين تنتهي المسألة وسيرغب الرجل في النوم أو الانصراف إلى بيته، فإنهن تتملكهن رغبةً جامحــة فــي الحديث، في التواصل، كما يُقال الآن، لقد تكيَّفا قـدر الإمكـانِ مـع الضّيق المستحيل للفراش، ووضعا فوقهما كل الملابس التــي كانــتَ لديهما، ومع ذلك، وعلى الرغم من التصاق كل منهما بالآخر، فإنهما كانا يرتجفان بردا، وهو داخلَه مجدَّدا الخوفُ من أن يــتمَّ اكتــشافُه، لذلك استعجل الذهاب، لكنها كانت تتمسَّك به بين ساقيها بمهارة تعلمتهـا حديثةَ العهدِ وناجعة، وتقول له، لا يزال هنالك متّسع مــن الوقــت، وأنها ستشعل سيجارةً أخرى، وأن جرس الثانية صباحا لم يُقرَع بعد.

كانت تحدِّثه بصوت خفيض، وقريبٍ جدا من سمعه، حتى إنه كان يشعر باللمس النَّديِّ لتنَفُّسها وشفتيها اللتين كانــت قــد لوَّنتهمــا بأحمر الشفاه لأجلِه، فسَرَّتْ له، بأنه إصبَعٌ سرقَتْه من محلّ عطــور بشارع الرِّيال، في غفلة من البائعة ومن الأخــت برّانكــو، وكانــت تضحك حين تتذكر ذلك، السَّاحرة لا تثق بي، ولا تغفل عينُها عنّــي، لكنَّني أخَف منها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد صارت تفقد البصر جزاءً على كلِّ سَمِّ الأفعى الذي تبصقه كلما تكلَّمت، حتــى حــين تُــصلّي مُسبِّحة. لم تكنِ تلكَ اللغة تعجبه، كان التلذذ الذي تكون عليه ماريــا

دل غولغوتا، حين تشرعُ في التّدخين، يبدو له غيرَ ملائـــمٍ لراهبـــة، نجحَت في أن تصنعَ دوائر بالدُّخان، نافثةً إيّاه بــبُطء بـــين شـــفتيها الملوَّنتين. ماريا دل غولغوتا، يا له من اسم معذِّب، أنا اسمي الحقيقي "فرانشيسكا"، أو بالأحرى أيضا، فاني، كما كان أبي ينادِيني، ليرقُدْ في سلام، الذي كان يعشق الأشياء الإنجليزية، كان المـــسكين يتمنـــى أن أتعلَّم الإنجليزيةَ، وأن ألعب كرةَ المضرب، وأن أكتبَ علـــى الآلـــة الكاتبة، وأن أقود السيارات، وأنْ أذهب إلى الجامعة، وأدرس شـــيئا جدِّيا، وليست هذه الحماقات التي لسيِّدات عـــاطلات كالماجـــستير أو الفلسفة أو الأدب، وإنما الطِّب، على الأقل، أو الفيزياء والكيمياء. لقد جعل أخي يدرسُ الرياضة ويمارسها، لكني كنتُ مفضَّلته بوضـــوح، وبالإضافة كان يقول بما أنني فتاة، فإنني أحتاج موهبةَ أكثرَ ودهـــاءً كي أدافع عن نفسي في العالم، وأمّي ولو أنها كانت تترُكه يفعل ذلك، لأنَّ طبْعَها كان واهِنا، فإنها كانت ترفض ذلك خفيَةً، إنَّ هذه الطفلـــة سيُحوّلها أبوها إلى ذكر، من سيرغب في أن يكون خطيبا لمهندســـة، أو لبطلة قيادة السيارات، وكان أبي يردُّ، يا لَلخجل، يبدو الأمر كذبة، لديَّ امرأةٌ رجعية هي ضدَّ تقدُّم بنات جنسها.

كانت تقلِّد أصواتا، وإن كانت تتكلَّم بصوت خفيض، وكانـــت تحاكي بعض المشاهد المسرحيةَ في سرٍّ عَتمةِ صومْعتِها، بالهمس في السمع، تقلِّد صوتَ أبيها الجهور والبطيء، وصوتَ أمِّها المتـــشكي، وصوتَ أخيها، الذي كان شريكها وبطلهـــا، منـــذ أن كـــان الاثنـــان

صغيرين جدًّا، ونقيقَ الضفادع لصوت الأخـــت برّانكــو، ومختلــفَ الأصوات المضحكة والغادرة للراهبات الأخريات بالجمعيَّـــة. أعتقــد أنَّهُنَّ لا يتحمّلنني، وأنّهن يرغبن في تسميمي، إنَّ هذا الــدوار الــذي أعانيه غريب جدا، إن الأختَ برّانكو تحضر لي مَرَقًــا ومــشروباتٍ ساخنة إلى الزنزانة، وأنا لا أثق، هيَّا، يـــا أخـــتُ، إن هــذا المَـــرَقَ سيُصلح حالَك، إنه يحيي ميّتا. لقد كانت أمك تتناوله، الساحرة، لقــد شرعَتْ في التّحسن بمجرَّد التخلي عن تناول مَرَقهـــا ومـــشروباتها، وهي تقول، هيا، يا أختُ، ارْفعي من همّتك، انظُري كيـــف أصـــلحَ حالَكِ الليلةَ الماضية التركيبُ الذي جلبته لك، ولو أن الأكيد هـــو أن ابتهالاتنا المرفوعة إلى القديسة مريم كانتْ مُجدية.

ذلك الهمس في سمعه كان يغفله، وفي الوقت نفسه كان يثيـــر عدم اطمئنانه، لأنه يقول إنه على الرغم من بعض فجوره، فإنـــه لا يزال من حيث السلوك مسيحيًا طيبا، وأن الأخت ماريا دل غولغوتا، أو "فاني"، وإن كانت أطْيَب وأفضل من لُبٍّ خبز أبيض حديث الخَبْز، هذه كلماته بالحرف، فإنها تبدو له مبالِغةً في عدم احترامها للأشـــياء المقدّسة، وأنه كان ضميرُه يؤنبُه، لأنه كانَ يسمعها دون الشكوى من شتائمها الصادرة عن فكرها المتحرّر، بسبب مضاجعته إيّاها. هـــذه هي العقبة التي كانت لديها، قالها لي بمظهر جدّيّ، إن المرة الأخيرة التي كنت أداهنها، قبل أن تشرع في فقد عقلها، من كثرة كلامها، كل الوقت، في الأذن، التصقت بي في ذلك السرير الذي كـــان يطقطـــق

كثيرا، والذي كان يمكن أن يتحطَّم تحت ثقلنا، كانت تحكي لي تلك القصص العجيبة لوالديها وأخيها، أحيانا كانت تقول إنها كانت في إفريقيا، وأحيانا في "أرض النار" بالأرجنتين، بحيث إن إحدى خالاتها سعت لها في أنْ تَسْجَنَ في الدّير. وأجبرتها بعد ذلك على أنْ تكون فيه مبتدئة بسلك الرهبنة، هذا لمصلحتك، يا ابنتي، وليس من أجل سعادتك في العالم الآخر، لأني أعلَم أنك لا تؤمنين به كأبيك، وإنما ليكون لك بعضُ الأمن في هذا العالَم، وحتى لا تنتهي حليقة الرأس ومهانة كأُمّك المسكينة، لم يكن للمسكينة ذنب، وانظري كيف انهدَّت، وكيف كان علينا أن ندخلها المستشفى، ويعلم الله وحدَه إلى متى ستبقى فيه.

كانت تفعل كل شيء بغتةً وبجَشع، بارتباك يجمع بين نزوعها العاشق والتَّسلُّطي الذي جرَّدتْه به من ملابسه، أو الذي استعجلته به التَّغلُّبَ على الضّيق المؤلِم لبكارتِها. كانت تنتشي شاربة نفَسًا كبيرا من التّبغ، ضاغطة عليه بين فخذيها إلى أن تصطكَّ مفاصلُه، مغْرِقةً فيه لسانَها المتحرِّكَ في الفم، وهو تفصيل ما كان ليَروقَه، لأنه بدا له غير لائق بنساء محتشمات. كانت مولَعةً بالقبلات، والسجائر، والدّقائق، وربما حتى التلذذ بأن تنطق بصوت عال الكلماتِ التي كانت تُصيبُ فكرَها سرًّا بالدّوار، منذ سنوات طويلة، وكانت تجعلها تحيا في غليانِ أحلامٍ دائب، والتمرُّدات المستحيلة، وفي تسمُّم ذكريات جبَّارة، ورغبات، وحكايات، وأسماء، وأمكنة كانت تفقد في

مرات كثيرة وبالكامل طابَعها الواقعي. لكن دقات ناقوس الثانية صباحا كانت تقرَع، وكانت تستعجله أن يلبس بالسرعة ذاتها التي استعجلته في تجريده من ملابسه، وكانت تضع له في جيبِ ظرْفا فيه أعقابُ السجائر والرماد، كي تمحوَ كلَّ أثر، وكانت تقوده من يده في نزول السلالم، دون تلمُّس ودون تردُّد، لأنه يبدو أنها مرارا كانت تمتلك الهيبةَ القلقةَ للبصر في الظلمة. كانت تطلُّ لحظةً على الباب الصغيرة في الزاوية، وتشير له بحركة كي يخرج سريعا. وثانية بعد ذلك، يكون وحيدا في شسوع الساحة المُعتِمة، مذهولا، وفاقدا التركيز، حتى إنه لا يستمستع بزهو الرضى والرغبة المُلَبَّاة، حتى إنه لا يستطيع أن يصدق إن كان قد تمكن حقيقة من التسرُّب في منتصف الليل إلى دير، وأنه قد افتض بكارة راهبة.

عند عتبة دكانه للسكافة، وفي محل الحلاقة المجاور لِـ"بيبي موريُّو" ألِفَ الرجال التباهي بغزواتهم، أو استحقاقاتهم المشكوك فيها مع ضحاياهم من المومسات. هو كان دائما يسكت، وكان يبتسم في أعماقه. لو كان لكم أن تعلموا. ما كان له ليحكي تلك المغامرة حتى إلى الراهبِ المؤمَّن على الاعتراف، لأنه كان سيُسبّب له قلقا إضافيا يوقِنه بأنه يحيا في خطيئة قاتلة. حكاها لي أنا فقط، بعد أكثر من أربعين سنةَ، بعد أن كان قد قضى وقتا في التقاعد، ويحيا في مدريد. كان عليكم أن تروا الابتسامة الصغيرة التي كان يرسمها، ونحن الاثنان معا في مطبخ بيته، تحيط بنا ذكريات مدينتنا، والرسومُ،

وصور القديسين، وملصقات الثيران. آه، يا صديقي، كم كانت الثيرانُ والنساءُ تعجبُني، ويا للأوقات الجميلة التي قضيتُها معهما، ليغفر الإلهُ لي.

نصف الابتسامة تلك بقيتَ له، هي التعبير عن مَكْرٍ حفظَ سرّ، ربما لا يتذكّره وهو مخبول وفاقدُ الذاكرةِ أمام التلفزيون ترِف أجفانه كأنه يوشكُ أن ينام، متناوِما وسعيدا، طيلةَ ساعات كثيرة، منتبها بالمثل إلى برنامج رسوم متحركة كما إلى مسابقة الكلمات الصعبة، أو إلى النصائح الصباحية لطبيب، مرتبِطا بسيل متواصل من الصوَرِ وكلمات الأفلام، والنشرات الإخبارية، والمسلسلات الدرامية اللاتينية، متحمّسا فجأةً حينَ يرى بغتة فتاة حسناء أو عارية، يُحتمَل أن يقول لها شيئا، متأكدا، قبل ذلك، من أن زوجته ليست قريبة، يتلفّظ بمغازلة من تلك التي كانت تُقال في شبابه للنساء، اللواتي كُنَّ يتجولّنَ في أمسيات الآحاد عبر شارع الرِّيال، مُمْسكات بالذراع. حين كنتَ صغيرا، كان الرجل الذي يمتلك التلفزيون الوحيدَ بين الجيران الذي يقول مغازلات فظّة لمقدِّمات البرامج، وللنساء ذواتِ التنورات القصيرة، اللواتي يظهرْنَ عند الإعلانات. يُسأل، ولا يُجيبُ، أو لا يُسمع، أو يقول شيئا غامضا مُجيبا عن سؤال لم يُطرَح عليه. وقد ينفجر ضاحكا أمام التلفزيون، حتى إن المرءَ يبقى ناظرا إليه، وقد سالت عيناهُ دمْعا، يوضَعُ الطعام أمامه فيأكله كلّه، وذلك أنه لم يفقد شهيّة الأكل، وبعد وقت قصير لا يعود إلى التذكّر، فيسألني متى

سنأكل، وهكذا يصير أسمَن. أقول له أنْ يخرُجَ، كي تهبَّ عليه بعض الريح، ولئلّا يقضي اليوم كلّه ناظرا إلى التلفزيون، لكن حين يخرج من الباب يغمرني القلق، قد يتوه، ولن يعرف طريق العودة، على ما هو عليه من غباء وما عليه مدريد من شسوع، وللإضافة، فإن عليَّ التركيز جيدا، فقد يغفل عن ربط خَيْطَيْ حذاءيْه، أو قد لا ينتعل الجوربين، علما بأنه كان ذا نزوع فلامنكي، وأنه كان يعجبه كثيرا أن يهتمَّ بمظهره بإفراط، فقط للذهاب إلى السوق الذي عند منعطف الشارع.

يظلّ ساعات محتفظا بابتسامة مجاملة، موافقا برقة على كل ما يرى وكل ما يسمع، وعلى محادثات الجيران والمخنثين في كشك ساندرا، والإعلانات والنشرات الإخبارية بالتلفزيون، وأصوات بائعات السمك في السوق، والنصائح الطبية في البرنامج التلفازي للصباحات، ووجوه الموتى والميّتون على قيد الحياة، الذين يلتقون في ساحة تشويكا وفي الزوايا المعتمة من الحي، حين يخرج بمعطفه الكبير وقبعته التيرُولِيَّة. لكني أعتقد أنه يتذكر بعض الأشياء، أو على الأقل، فإن أشياء ما تستيقظ فيه، وإن كان لا يصل تماما إلى أنْ يعي ذلك بالمرة، لأنه ذات مرّة، حين كنت أمضي لزيارته في البداية، كان يبدو أنه لا يتعرّفني، كنتُ أجلسُ إلى جانبه في المطعم، وكان ينظر إليَّ كأنه يتساءل منْ أكونُ، وإنه كانَ يتصنّع مواصلةَ الحديث معي، وبينما كان يقول لي شيئا، أو أنا أحاول أن أتَنَسَّسَ منه حكاية

من حكاياته القديمة، كانت عيناهُ تتصرفان إلى التلفزيون، وينسى أن شخصا آخر بجانبه في الغرفة. لكني أتوفر على خدعة لا تخذلني أبدا، أقترب منه كثيرا، حين لا تكون زوجته أمامي، وأقول له بصوتٍ خفيض، سلام على مريم العذراء الطاهرة، فتلتمع عينا الرَّجُل، وتغرورقان، وترتسم عليه ابتسامةُ الوَقِحِ المحتاطِ، التي كانت لديه منْ قَبْلُ، حين كان يُحدّثني عن النساء، فيرُدُّ عليَّ بطريقة آلية:

- دون حملها لخطيئة.

كان يحس بوخز الضمير كلَّما كرَّر تلك الكلمات، في كل صباح، كان على الساعة المعتادة، حين يرى الطَّيفَين ذَوَي الملابس القاتمة، في الناحية الأخرى من الباب الزجاجي، فيطفئ السيجارة، ويحفَظها في دولاب، ويطأطئ رأسه متصنّعا أنه يركّز على عمله، وأن يقتلع بالتمام عَقبًا تالفًا ومُعوَجًّا في حذاء بالٍ، ويضع له دعامات معدنية صغيرة، تُسمَّى في مدينتنا "طابياس"، وهي خرزات تعود إلى أزمنة الفقر، التي لم يكن يُتاح فيها لأحد، تقريبا، أن ينتعل الحذاءين جديدين. كان يُحسُّ بالتفتيش المضاعَف المحذِّر والمغناطيسي مُنصبًّا عليه، من قِبَل الأخت برّانكو والأخت ماريا دل غولغوتا، فاني، سرًّا بمواعيدها التجذيفية ولياليها الحالكة، وتَرَفها الضَّال في الزنزانة الباردة، وحين كانت الاثنتان تقولان بصوت واحد: سلام على سيدتنا العذراء الطاهرة، كان يُميِّز في صوت الأخت الأكثر شبابا النبرة الخاطئة للدعوة، للذكرى وللتحدِّي المتكرر، وكان يشق عليه أن

يجيب بالعجلة نفسها، كما في الأزمنة الماضية، حينما كان يقول: دون حملها لخطيئة، الصيغة التي كرَّرها منذ أن كان صبيًّا، دون أن يتوقَّف لتأمُّلها أبدا، كان يبدو له معناها الحرفي، وكان يشعر بمزيج غريب جدا من التلذذ والندم، حين يُفكِّر في الخطايا الكثيرة التي قام باقترافها هو والأخت باعتبارهما شريكين، خطايا أكثر قتلا أيضا، لأنها كانت تستمرئ دون احتراز اقترافها، كان يخشاها، ليس لأنها فضيحة أخلاقية فحسب، وإنما لأنها بالإضافة إلى ذلك كانت مليئة بالمخاطر.

كان يصعب عليه أن يرفع رأسَه، وأنْ يتفادى النظرتين المُركَّزَتيْن عليه، وفي الوقت ذاته، كان يخشى أنَّ إشارةً ما من الأخت ماريا دِل غولغوتا، قد يَتِمُّ التقاطُها من لدن الأخت الكبرى، وكذلك كان يخشى ألا يتلقى أيِ إشارة محفِّزة تدُلّ على أن الباب الصغير سيكون مفتوحا له تلك الليلة. ولأنه كان قد ضاجع نساءً كثيرات، حتى ذلك الوقت، فإنه لم يخطر بباله أن يعشق أيًّا منهنَّ، وكانت له فكرة تتأرجح بين ما هو نظيف صحي وبين الوقاحة عن العلاقات الجنسية. إن هذه المغامرة ستسبب له كثيرا من العوائق والارتباك والتشويش الداخلي، وكان ذلك شيئًا يجرح عميقا معناهُ الذُكوري عن الراحة، والتواضع الكامل لروحه التي كان عليها حتى ذلك الوقت. لِنرَ إنْ كنتَ تقدر أنْ تفسّر لي ذلك، أنتَ، يا من له تكوين دراسي ويعرف أشياءَ كثيرة. كانت تعجبني كثيرا. كيف كنتَ

أحشاها أيضا؟ لوْ كنتُ أقرِّر أنني لن أعودَ إلى زيارتها بعدُ. لماذا كنتُ أغادر بيتي قبل أن تدقَّ الساعة الثانية عشرة، ويكاد ينفد صبري لو تأخر الضوء في الاشتعال بالبُرْج؟ كانت رائعةَ جدا، وكانت أفضل من مائة خبزةَ ومائة قطعة جبن، وكان تجسُّسُها في العتمة متعةً، وأنْ تُشَمَّ، وأن تُرى بيضاءَ جدا للحظة في ضوء القدّاحة، أو شعلة السيجارة.

لكن، كانت لها تلك العقبة الرئيسة، التي لاحظها في الليلة الأولى، والتي لم تزد إلا استفحالا، كانت كثيرة الكلام بعد المصارعة، وَفق ما كان يحلو له أنْ يقول حسب اصطلاح مصارعة الثيران، وليس قبل ذلك: منذ أن كان يدخل إلى الصومعة، إلى أن يكون الاثنان قد تصارعا، كانت المرأة تبدو ظِلاً هادئا ومتحرِّكا، يُنصِتُ إليها تتنفس فحسب، وتلهث، وتتشكّى، ولكنْ حين كانت تخمد كانتْ تمكث ملتصِقةً به، كأنها بلَحُ البحر، أو قرْدُ سَاجُو، تُحاصِرُه بين فخذيها، وتشرع في التحدُّث إليه في أُذنه، وترُجُّه في حنَق إن لاحظَت أنه بدأ ينام، إنَّ احتكاكَ شفتيْها وهمسَ صوتِها الذي لا يتوقف لا زال يسمعه، ولو أنه ليس معها، حين كان يعود إلى بيتَه متخفيا، بعد الثانية صباحا، أو حين كان يستيقظ بسبب حلم مزعج ينذر بمصيبة، أو فضيحة، وحين كان يوجد وحيدا في دكانه للسِّكافة، وينسى الاستماع إلى أغاني الراديو، لأن الصوت كان يرنُّ مُجدَّدا في سمعه، كان يئزُّ كحشرة أو كضجيج الدَّم أو نبض القلب، كان ينقلب إلى أصوات أخرى، صار يتعوَّد عليها شيئا فشيئا، أصوات حياتِها

القديمة وعائلتها الشبحية، الأب الذي يرغب في أن تصير ابنته دكتورة في العلوم الفيزيائية أو مهندسة طرق، والأمُّ التي تسبِّح بصلوات، والعمَّة مُرتدية الحِداد، والمسمِّمَة التي استلمتهما هي وأخاها في مخفر بمحطة حدودية، لمَّا كانا يفرَّان خلسةً إلى فرنسا في مقطورة البضائع، لأنهما كانا قد خطَّطا للالتحاق بالمقاومة ضدّ الألمان، أو أن يضعا نفسيهما رهن إشارة حكومة الجمهورية في المنفى، مثل القديسة تيريزا وأختها، حين هربتا من بيتهما كي تذهبا إلى أراضي المغاربة، لتنقلبا إلى كافرتين أو تتحوَّلا إلى شهيدتين، مع اختلاف، هو أننا نحن لم يكنْ لدينا بيت، لأن أبي رماه الوطنيُّون بالرَّصاص، حين دخلوا القريةَ، عند نهاية الحرب، وأُمِّي حلقوا شعرها، ووشموا لها منجلا ومطرقةً في الجمجمة، وتمَّ إجبارُها على المرور في استعراض رفقة نساء أخريات من الشيوعيات الحمراوات، عبر وسَط القرية، وأجبروها على الذهاب معهن فجْرًا لغسل أرضية الكنيسة، جالساتٍ على رُكبهن، فوق البلاطات الباردةِ، كل ذلك بسبب الحقد الذي كانوا يضمرونه لأبي، الذي كان الرجل الطيِّب والأكثر مسالَمة واحتراما للقانون في العالم، والذي لم يكن يتخلَّى حتى صيفا عن ارتداء حلته ذات الصَّدرية والياقة الصلبة، وربطة عنقه بعقدتها، ولأنه كان يخرج إلى الشارع بذلك اللباس، فإن بعض الميليشيات كانوا على وشك رميه بالرصاص بداية الحرب، لارتدائه حلته، وصدريته، وياقته الصلبة، لقد ذهب إلى حائط إعدامِ مُثيرِي القلاقل ثلاثةَ أعوام بعد ذلك، وهو يقول لأخي، على الأقلّ إنَّ الذين سيقتلونني ليسوا ممَّن أنتمي إليهم.

لقد رُمي الأب بالرصاص، وجُنّت الأمّ، وكان سفَرُهما هروبا، هي وأخوها، طيلةَ أيام وليال حتى الحدود في قطار للبضائع، نائمين على تبن برائحة الرَّوث يدبران خططا وهمية لكي يلتحقا بالمقاومة المناهضة لهيتلر وفرانكو، والمنحدرات المغطّاة بأشجار اللوز والتّفاح المُزهر، والأزقة الصاعدة عُلُوًّا بتلك القرية، حيث أمضيا هما الاثنان معا سنواتِ الحرب في سعادة تامة، بينما كانت أمها تسبِّح مصلّية وأبوها يُدير مدرسة لأطفال تمَّ نقلهم، وكان يواصل التَّجول بالحلة، وربطة العنق، والقبعة وحذائه الجمهوري، على الرغم من الفزع الذي سببه له بعض أفراد الميليشيات المتحرِّرين، والذي لمْ يُكرَّرْ بعدْ على الأقلّ، إلى حين مجيء الآخرين، فلقد أخرجوه، ضاربين إياه بركلات ورفسات في المؤخرة، من البيت ذي الساحة الداخلية والعريش، والبئر باردة الماء، حيث عاش الأربعة تقريبا كعائلة روبنسون السويسرية، في ذلك الكتاب الذي كان يروقهما كثيرا هي وأخاها. لا تفقدوا أعصابكم، سترون، لن يحدُث لي شيء، ليس الأمر سوى خطإ، كانت تقول له في أذنه مُقلّدة صوتَ الأب، لكنهم لم يعودوا إلى رؤيته حيًّا، أو رآه أخوها وحدَه، حين ذهب إليه ببعض الطعام والدخان، إلى الثكنة التي كان مسجونا فيها، ما أثّر فيه كثيرا ليس الدخول إلى ذلك الحوش الكبير المليء بالمحكوم عليهم بالموت، وإنما رؤية أبيه غير حليق الوجه، ودون الياقة الاصطناعية بقميصه، وبالحلة منكمشة وجدّ وسخة، كما لم يره من قبل.

لكن أباها لم يكن هو البطل، وإنما أخوها، لقد كان بطلَ كل حكاياتها، ورفيقَها في كل الألعاب الصبيانية والمغامرات بالمنحدرات البيضاء، حيث أشجارُ التُفاح واللوز، كان شريكَها في قراءاتها، والمحفِّز على مراميها بالفرار وبالانضمام إلى الثورات الاجتماعية، في جيوش كتائبية، في خلايا سرِّية للمقاومة المناهضة للفاشية، في رحلات استكشاف إلى "أرض النار" أو إلى باتاغونيا، أو إلى صحراء غوبي، أو إلى وسط إفريقيا. لقد أُلقي القبض عليها، وتَمَّ سجنُها في دير، وأُجبِرت على التَّحول إلى راهبة، تحت تهديدات غامضة وفظيعة، لم تصل أبدا إلى توضيحها، مع أنها كانت دقيقة في الحديث، لكن على الأقل، فقد أفلح أخوها في الفرار، وذات مرَّة، على امتداد كلّ تلك السنوات، وصلت إليها عبر التواءات عديدة رسالةٌ منه. إنه يحيا في أمريكا، لستُ أدري إن كان في الشمال أو في الجنوب، لكنه في أمريكا، إنه يتنقل كثيرا، ولديه تجارة كثيرة، حتى إنه لا يقضي وقتا متواصلا في أي مكان، فهو يمكن أن يكون في شيكاغو، كما في نيويورك، أو بوينوس آيريس، لكنه يمضي دائما راغبا في أن يعرف عني، وبسبب الساحراتِ- اللواتي أنا حبيسة عندهن- لا تصلني رسائله، ولا يمكنني أن أبعث إليه أيَ رسالة من جهتي، أطلُب فيها منه أن يأتي لتحريري.

ساعدني أنت، تهمس له في أذنه، ماسَّةً أذنَه بشفتيها وبنَفَسها المُرتِجَ، ساعدني على الهروب من هنا، وسنذهب معا نحن الاثنان

إلى أمريكا بحثا عن أخي. ما الذي يشدُّك إلى هذا المكان، في حين أن الرَّجل حرٌ ليذهَب أينما أملَت عليه إرادته، وليس كالمرأة التي تظل دائما حبيسة، وإن لم تكن في دير. ليس لديك شيءٌ هنا، ولن تصل إلى شيء أبدا، ستقضي حياتَك كلَّها تُصلح أحذية بالية، في هذا الدكان المتواضع، تَشمُّ العَرَق العتيق الذي يُخلِّفه الناس في الأحذيةِ، شابٌّ قويٌّ مثلك، بتلك اليدين الكبيرتين جدا، وتلك الهمَّة التي في جسدك، لا شيء يمكن أن يقف في طريقك لو رحلْتَ عن هنا، إلى أمريكا، حيث يمضي الرجال الذين لديهم شجاعة لالتهام العالَم، مثلما مضى أخي، وحيث لا تحيا النساء سجينات، ولا يرتدين دوما لباس الحداد، ولا يُقتلنَ مُنجبات أبناءً ومشتغلاتٍ في الحقل، ويغسلن الأرض وهنّ على رُكبِهنّ، ويُصبّن الملابس في الشتاء في أحواض ماء بارد بقطع من الصابون تلك التي تسلخ الأيدي. أنا هنا لستُ شيئا، ولن أكون شيئا إنْ فرَرْتُ وحيدةً، إلى أينَ ستمضي امرأة هاربةً من دير، وليس لديها أوراق، ولا أي رجُل يدافع عنها، أو ينوب عنها، لا أب، ولا زوج، ولا أخ، ليس كما في أمريكا، حيث المرأة شبيهةٌ بالرجل، إن لم تكن تزيد عنه بكثير. هنالك تدخِّن النساء علانية مثلما الرجال، ويرتدين سراويل، ويذهبن في سيارات إلى الإدارات، ويُطلِّقن الرجال حين يَعِنُّ لهُن، يقدن بمنتهى السرعةَ في الطرقات، الواسعةِ جدا، ويمشين دائما في خط مستقيم، ليس كما هنا، والسيارات ليست سوداء وقديمة، وإنما كبيرة جدا وبألوان، والمطابخ مُضاءة ولَامعة، ومليئة بالآلات الأوتوماتيكية، بحيث إنك لو تضغط

على زرٍّ تُغسلِ الأرضيَّةُ، وتوجد آلة تزيح الغبار، وأخــرى تــصبّن الملابس، وتتركها مكوية ومطوية، والثلاجات لا تحتاج قوالبَ الثلج، ولكل البيوت مرآب وحديقة، وكثير منها بها مسبح. في المسابح تأخذ النساء حمامات الشمس بمايوهات من قطعتين، ويــشربن مبــرّدات وهنَّ مستلقيات على كراسيِّ الهَامَاكَ، بينما الآلات الأوتوماتيكية تقوم بكل أعمال البيت. يشربْنَ مبرِّدات، ويُدخِّنَّ، دون أن يظنَّ أحدٌ بأنهن مومسات، ولا يكتفين بتلوين أصابع أيديهن، بــل أصــابع أرجلهــن أيضا، ولو اشتكين من زوجهن فإنهن يُطلّقنه، وعلاوة علــى ذلــك، يكون عليه أنْ يدفع لهنَّ أجرةً كلَّ شهر إلى أنْ يعثــرن علــى زوج آخر، ويتزوّجن دون أن يكون عليهن أن يتلقَّيْن دروسا في المسيحية، ولا أوراقا ولا طَلَبًا، ودون أن يخصَّهن صداقٌ، يتزوَّجن مــن يــوم لآخر، ويطلّقن كذلك، ولو ضِقْنَ بالحياة في مكان فإنهن يصعدن فــي سيارة كبيرة ملوَّنة ، ويمضين إلى مدينة أخرى، في الناحية الأخرى من البلد، يمشين إلى كاليفورنيا، أو إلــى باتاغونيــا، أو إلــى لاس فيغاس، أو إلى "أرضِ النار"، تأمَّل، يا لَها من أسماء جميلة، بمجــرّد نطقها يتهيَّأ أن الرِّئتين تمتلئان هواءً، أو يمشين إلى شيكاغو أو نيويــورك، ويعِشْن في ناطحات سحاب من أربعين طابقا أو خمسين، وليس فــي أكواخ واطئة كما هنا، في شقق لا تحتاج نوافذ، لأن لديها كل النوافذ من زجاج، والتي لا حرارة بها ولا برودة، ذلك أن الحــرارة حــين ترتفع أو تنخفض قليلا أكثر من العادة، فإنَّ آلات تــشتغل وحــدَها، اسمُها مكيِّفات.

لكن كيف سيكون لنا أن نمضي، يا امرأة، بأي مال سنشتري تذكرة الرحلة على متن السفينة، كان يقول، وهي كانت تغتاظ مباشرة أمام جُبْنه، تَوَبِّخه بهَمسها المُنوِّم: لقد فكَّرتُ في كل شيء، أنتَ تَبيع أو تنقل أصلَ محلِّك التجاري، وسنربح شيئا ما، طالما أنه موقعٌ جيِّد، وأنا بوسعي أن أتدبَّر أمري بسرقة بعض الأشياء ذات القيمة الثمينة التي توجد بالدير، شمعدانات من فضة، ومذْخَرا من الذَّهب المُصمت، ويُمكن حتى أن أقطع من إطارِ صورةً للقدِّيسة "إمَّاكولادا" يقولون إنها للرَّسام "موريُّو"، وسيكون سيِّئا ألاَّ يعطوننَا مقابلَه بعض آلاف من البيزتات. كان يمكث متَجمِّدا بمجرد التفكير في ذلك، سرقة مدنسة للمقدَّسات، ناهيك عن التَّدنيس والتجذيف، وليس فقط العار العلني والحِرم الكَنسيّ، وبالإضافة إلى ذلك السجن. الآن، بدأ يتفهَّم كلّ شيء، تلك الراهبة المجنونة كانت تبحث عن شيء آخر فيه، عدا إشباع رغبتِها الجنسية الكافرة، كانت تريد أن تستعمله أداة لهروبها، وكشريك في دسائسها الإجرامية، التي ليست غريبةً، في الأوَّل وفي الأخير، عنْ التي كانت بنتًا لماركسيٍّ شيوعي، ربَّاها على الحبِّ الحُرّ وعلى الإلحاد، مُدعِّمًا لديها وقاحةً جنسية يمكن أن تغدو مُبهجةً جدا، لكنها كانت أيضا، غير صالحة لامرأةَ محتَشمة، فما بالك بزوجة للمسيح.

- لم يعد ينام، لم يعرف أبدا ما صار إليه، لا في عمله، ولا في أنشطته الخيرية أو جمعية الإخوان، لا في الواجب ولا في الورع،

كما أقول، حتى إنه كان ينسى أنْ يستمع إلى برامج أغاني الكوبلاس الشعبية ومصارعة الثيران في الرّاديو. لم يكن لديه خوف، كان به ارتباك، ليس من أن يفاجئه شخص ما حين كان يدخل إلى الدير، أو يخرج منه في تلك الليالي الشتوية العاصفة، التي كانت لا تزال معتمة جدا ومقفرة، وإنما أن تجرّه هي مع هذيانها، وأنْ يُصابَ هو نفسُه باختلال عقلي إلى درجة يفقد معها الحِسَّ المشترك، الذي لازَمهُ دائما ووجَّهه، وأن ينتهي به إلى تضييع كل ما كان لديه، وكذلك كل ما كان هو عليه، وكل ما انتهى إليه. كان يخشى أن يراها تَظهر كلَّ صباح بجانب الأخت برّانكو، ولم يكنْ ليَهْدَأ حتى يراها تنصرف، لأنه كان يبدو له أن العجوز قد شرعت في مراقبته ومراقبتها هي أيضا بنيَّة الحصول على مؤشّرات جديدة كانت تفترضها، أدلَّة ستدفعهما جميعا إلى كارثة، لم يكن لديه أدنى اهتمام رومانسي للتورُّط فيها. لكن لو أخْلَفَ زياراته فإنه كان يخاف أيضا، يتخيَّل أنها قد سقطت مريضةً مرّةً أخرى، وأنها في حُمَّى هذَيانها قد تُذيع سِرَّ لقاءاتها في الصومعة، أو أن تكونَ قد فرّت، وأن تكون مختبئة، وحين سيَحُطَّ الليل ستأتي باحثة عنه، كما كانت قد أعلنت مهدِّدة مرّات كثيرة. هذا يحْدُث لي لأنني انتهكْت قواعدي الاجتماعية، وتوَرَّطتُ مع حسناء، ومع حسناء ليس لها إضافةً إلى ذلك زوجٌ، ولا أحد يُخضِعها، زيادةً على تلك الراهبات اللواتي لا يَفْطِنَّ لشيء. يلزَمُ البحث عن عشيقات يكُنَّ قبيحات قليلا، وأن يكنَّ متزوِّجات، ويعرفن كيفية الاحتفاظ بنوع من الحِشمة حتى في الزِّنا، وإذا كان أمكن أن

تكونَ لديْهنَّ وضعية اقتصادية متينة فذلك أفضل، لأنه هكذا يصعُبُ كثيرا أنْ تَعنَّ لهُنَّ النَّزوةَ الرومانسية بترك كلِّ شيء، ليَهربن مع عشيقهن، مسبِّباتٍ له كلَّ أشكال الإزعاج والمتاعب.

لله درُّك من فيلسوف، يا عمُّ، كان عليْكَ أن تتركَ تعاليمَك مكتوبةً، كي يقتفيها تلامذتُك حرفيًّا، كنتُ أقول له، فكان يشرع في الضحك، وكان يشير إليَّ بحركة كي أخفض صوتي، لئلَّا تَعلَم زوجتُه. تعاليمُك وكذلك مذكِّراتُك، أيُّها المعلِّم المجيد، إلا إذا كنتَ ستحكي كلَّ شيء لي، وتُعيِّنني كاتبَ سيرتك الرَّسميَّ والوصيَّ على تراثِكَ.

لكنَّ الوقتَ كان جدَّ متأخِّر، ما عاد يتذكَّر أو يحكي، وإن كان الطبيب قد فحص رأسَه، ويقول إنَّ لا شيء به، حمدا لله، أنَّ ذلك المرض الذي يُصيب العجزة لم يَمسَّه، الزّهايمر، حيث يستحيلُ تحمُّلهم، ولا يعودون قادرين على التذكُّر ولا التعرُّف، على الأقلِّ ليس بعدُ. يقول طبيب الدّماغ؛ لربما يكون قد أصابه انهيارٌ عصبي، بسبب أنه لا يفعل شيئا، وألاَّ يكون يعرف أحدا تقريبا في مدريد، لكن أيّ انهيار، وأقول له، إنَّ هذا الرجل لم يقع في الحزن أبدا، وهوَ الآن يضحك لأتفه الأسباب وحدَه حين يشاهد التلفزيون، أكون أقوم بعمل في المطبخ، فأسمع قهقهات، فأخرج ويكونُ هو يكاد يبول من شدة الضحك، ولو أن لا شيء به مزحة ما يُثيره، سيَّان لديه مأتَم أو خبر من أخبار الحروب والمجاعات في النشرات الإخبارية للتلفزيون.

لا يتذكّر الانزعاج والقلق والخوف في المرات الأخيرة، ما صارت إليه من ارتباك، تغدو أكثر خشونة وحسما في إلحاحاتها الشهوانية، كأنها في أسابيع قليلة قد تملّكتْ كلَّ الفسق الذي تسقُط فيه أُخرياتٌ، بعد انصرام سنوات طويلة من الرّذيلة، تتحدّث كل ليلة أكثر فأكثر، مزيدٌ من الإلحاح والرّتابة في حكاياتها عن الماضي وعن خططها الجهنميّة المُعدّة للمستقبل، مستقبل تجعلهُ بالإضافة يوما بعد يوم أقربَ، إلى درجة أنها كانت تُصرّ على مناقشة التواريخ الأفضل للهروب، وتلحُّ عليه وُعودا وحِلْفةً مع تهديدات فظيعة، ومع رؤى خرقاء، عن الحرية والغنى، اللذين ينتظرانهما هما الاثنان في أمريكا، حيث لن تتأخّر في العثور على أخيها المغامر والمليونير، وفي امتلاك سيارة طويلة ملوّنة بالأحمر أو الأصفر أو الأزرق، وبجناحين فضّيين، وبيتٍ بحديقة ومسبح وكل أصناف أجهزة التّقدُّم الآلي.

ذات ليلة، وخلافا للعادة، لم تسحَبْهُ في صمت إلى فراشها الواهن والنُسْكي فور وصوله، وإنما التصقت به في الظلمة، ورفعتْ وجْهه بكلتا يديها، وهمَست له في أذنه بصوت أجَشّ مضطرب، أنّه قبل تملُّكها- تلك الكلمة الميلودرامية كانت تعجبها كثيرا- عليه أنْ يُقسِمَ لها أنه في أجل أسبوعٍ أو أسبوعين، قبل انتهاء موسم جني الزيتون، سيهربان معًا أخيرا. أَلَمْ يقلْ لها قبل ليلتين أو ثلاث ليال، على سبيل الكذب، ولكي يفلت من مأزقه، إنه يوشك على إنهاء اتفاق بترك محلّه للسّكافة لإسكافي مجاور؟ اليَدُ اليُمنى للراهبة مثل كُلّاب

أو مخلب، إنها تحولت في وقت قصير جدا إلى خبرة في المداعبات والمعالجة باليد، استحوذت على تبّانه، وبدأت تضغط تدريجيًّا، وهمس صوتها بشيء في أذنه، سنوات كثيرة بعد ذلك، واصل زَغبه الانتصابَ لذكره، ويُسبّب له انكماشا في عضوه آنيٌّ جدًّا، ولا يصلح في الوقتَ ذاته: إنْ تَخُنّي أبْتَرْهُ لكَ من أصله.

لكن تلك الليلة كانت الأخيرة. لقد استيقظ صباحا على ارتعاشات ودَوّار، ولم تكن لديه القوة حتى للخروج من السرير. وفي خضم الإنهاك والحُمّى أحَسَّ بالتّخفيف عنه، لِعَدم قُدْرته على الالتحاق بعمله، وألا يكون عليه أن يتواجه مع الفحص اليومي الذي تقوم به الأخت برّانكو والأخت ماريا دل غولغوتا. في اليوم الثالث استفحلت الحمّى، وكان ضروريا المناداة على الطبيب، الذي شخّص بداية خطيرة جدا لالتهاب الرّئة، وأمَر بالإدخال الفوري إلى مستشفى سانتياغو. وفي تهويمه النُعاسي المضطرب كان يوعز مصيبةَ مَرَضِه إلى عقاب إلهي، وكان يعيش ثانيةً كلَّ البرد الفائت في عراء الساحةَ، وفي الصومعة المتجمّدة للأُختِ ماريا دل غولغوتا: خطيئة الجسد، التي استفحلت بسبب التجذيف وعدم الاعتناء في التّدثُّر، قد تآمرا عليه، وألْقيا به في سرير المستشفى، وربما كذلك إلى قبر، وإلى عذاب جهنّم. صلّى مُسبّحا، وقدّم وعودا شديدةَ الإيمان بالتّطهير والتوبة، وللخروج حافيا أثناء شعيرة الزّياح طيلة العشرين سنة القادمة، حاملا على ظهره صليبا من الخشب المصمت، وأن يتعرّض

للجلْدِ، ويرتدي المَسوح، بل وتخيَّل أنه سيدخل سلك الرَّهبان، وأن يقضي بقية حياته قائما بتوبات في دير، مؤدِّيا ثمن الضلالات التي ارتكبها في الزمن الآخر.

بعد انصرام شهرٍ، عادَ إلى دُكانه الضيِّق، وإلى مائدته للسِّكافة، لكن كان لديه الانطباعُ أنَّ وقتا أطول بكثير قد مَرَّ، وتذكَّر الأيام السابقة على مرضه، مع عدم اللامبالاة بالأشياء القديمة. في الصباحين الأوَّليْن أو الأصباح الثلاثة الأولى، بالكاد كانت لديه القوة والحماس كي يشتغل، وكان ينتظر بمزيج من الرغبة والخوف زيارة الراهبتين. لكنهما لم تظهرا، وأن الجار بالدُّكان المجاور، الحلَّاقَ بيبي موريُّو، قال له إنه سمعَ أن الأختَ برَّانكو كانت مريضةً جدا، بسبب الشيخوخة، وأنه لسبب من الأسباب لا يعلمه مُنِعتْ الأخرى من الخروج.

في تلك الليلة، ارتدى ملابسه بإحكام، وتجرَّأ على النزول إلى ساحة سانتا ماريًّا. دقَّتْ نواقيس الساعة الثانية عشرة، لكن لم يشتعل أيُّ ضوء في برج الدير، فقرَّر بإحباط وتخفيف عن النَّفس، أنَّ الحذر يقتضي العودةَ إلى البيت، والدخولَ في الفراش، وأن يشرع بِجِدٍ في تنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه، خلال أيام مرضه السوداء، التي كانَ مُتيقِّنا أنه نجا منها بفضل بركة الصَّلَوات والبنسلين. حين كان على أُهبة الذَّهاب، استدار برأسه للحظة، فاشتعل الضوءُ في البرج، وأمْكَنَهُ أنْ يرى من الأسفلِ الطَّيْفَ المُغوي وشيئًا شبَحيًّا للأختِ ماريًّا

دل غولغوتا. لكن ليست إرادته ولا نيّته في التصحيح هي التي انتصرتْ على إقناعِ الخطيئةِ الجَبَّارة: لقد كانتِ الرَّجفة التي رجَّت جسدَه برُمَّته، وبدايةَ ألمٍ تجدَّد في الصَّدر، هما اللتان ردَّتا إليه الخوْفَ من التهابِ الرِّئة، والاستياء من التعرِّي، ثم ارتداء الملابس، بعد ذلك، في مكان بارد وغير مريح، حيث لا سبيل إلى التَّدثُر كلِّيةً. وبعْدُ، كانت استعجالاتُ تلك المرأة، وصوتُها الذي يُشبه مِكَبًّا، إذ يهمس له بمهاترات في السَّمع، بينما يكون النومُ يُغالبُه، ويكون كلّ ما يودُّه هو الذَّهاب، وألواح فراش القَشِّ الصلبة تتسمَّر في ظهره، فيتخيَّل فراشَه الناعم والدَّافئ، له وحدَه، وأَمْنَ بيتِه...

لقد تغلَّبَ على الغواية تلك الليلة وليال أخرى أيضا، لكن بقدر تعافيه من الوَهَنِ الذي عاد به من المستشفى، استيقظت فيه مُجدَّدا الغرائز القديمةَ، التي خَمَدتْ لوقتٍ، ليسَ بسبب التّوبة، وإنما بسبب الضعف الجسدي، ووجد نفسَه ليلةَ أخرى، وضدًّا على إرادتَه، يطوف حول ساحة سانتا ماريا، مستثارا جدًّا حتى إنه كانَ يُكلِّفهُ جُهدا جهيدا المشيُ طبيعيا، شغوف، كما كان هو يقول بفظاظة، مستعملا إحدى تلك الكلمات اللذيذة، التي لأرضنا، والتي كانت تنقرِضْ، كلمات من تراثنا الشعبي الغني. مضيْتَ تلكَ الليلةَ مُتحلِّلا من كلِّ شيء، كَالصحافي والكاتب مِيُورَا، كتيس، مستعدًّا لكلِّ شيء، لأن ألْتهِمَها حيَّةً، وألاَّ أعودَ بعد ذلك أبدا. اشتعل الضوءْ في البرج، وبَدمٍ يغلي وقلبٍ جامح، توجَّهَ إلى البابِ الصغيرةَ، ودفَعَها بعنايةٍ أقلّ من

المرَّات السابقة، لكنَّها كانت موصدة، وكلَّفه أنْ يتمالَكَ نفسَهُ كـي لا يخبِطَها بقبْضتيْه. ابتعد عن البناية، عاد إلى المكان الذي يمكنه منه أن يرى نافذة البرج، اشتعل الضوء مجَدَّدا فيها، لكنّه الآن وهو أقربُ، رأى أن الأختَ ماريا دل غولغوتا تبتسم له، وترفع عنها التنورة الطويلة، وتبرزُ له بتحَدٍّ وسخرية نهْدَيها العاريين، مُنجِزةً حركةً، وربما مُشيرةً إليه، ليعود إلى دفع الباب.

دفعها مرة أخرى، لكنَّها استمرَّتْ موصَدة، ولم تَعُدْ لِتفتح له أبدا، ولا عاد ليرى الضوءَ المشتعل في البرج، في أي من الليالي التي كان يطوف فيها حول الساحة.

- ما عادَ ليعرف المزيد عنها، ولا عاد إلى رؤيتها؟

يريد المرءُ دائما أن تنتهي القصص إلى حسن أو سيئ، وأن تكون لها نهاية واضحة مثل بدايتها، مَظهرٌ لمعناها وتناظرِها. لكن في الواقع، قليلةٌ هي الأشياء التي تنتهي تماما، اللهم بسبب الحظِّ أو الموت، وأخرى لا تصل إلى أنْ تحْدُث، أو تتوقَّف حين تكون قد ابتدأت، ولا يبقى شيء منها، إلا في الذاكرة الشاردة أو غير المُخْلصة لمن كان قد عاشَها. تمُرُّ السنوات، ويصل صديقُنا إلى تلك السن التي تعرَّفْناه فيها، كل مرَّة له مزيد من مُلصقات الثيران والأسبوع المقدَّس في دكانه الصغير، وحين ينقُصه فضاءٌ، فإنه يُلصِق بعضَها فوق بعض، لقد ارتقى إلى رئيس لجمعيته، وتمَّ تعيينه مستشارا رسْميًّا لمُباريات مصارعة الثيران، يُستجْوَبُ في الصحف

الإقليمية باعتباره مجدًا لحياتنا المحلِّية العظيمة، وهو يُلصِق قصاصة الصحيفة في إحدى زجاجات بابه، بحيث يكون بوسع الذين يمُرُّون بالشارع أنْ يرَوْهُ. شرعت القُصاصةُ تصفرُّ، وبدأتْ بعضُ دكاكين الجيران تُقفل، بما في ذلك دُكَّان الحلاقة المجاور، وظَهَرَ أن تجارةَ إصلاح الأحذية هي الأخرى لن يكونَ لها مستقبل، شأنَ حلاقةِ الشَّعر، لأنَّ الناس صاروا يرمونَ الأحذية المستعمَلة، ويشترون أخرى جديدة في محلات الأحذيةِ العصرية، التي فُتِحتْ في مناطق أخرى أكثر شعبيَّة بالمدينة. لكنَّه يمتلكُ مدخراته، لقد طفق يؤمِّن شيخوخته بعناية مثل التلبية العادية لرغباته الجنسية، وقد قرَّر إضافة إلى ذلك أنَّهُ يصلُحُ له أن يتزوَّج، لأنه وصل إلى سِنٍّ لا يكون فيها الرَّجُل ما كان عليه، ولو أنه لا يزال يُحافظ على المظهر الضروري لجذب زوجة ناضجة وخدوما، هي التي يكون عليها أن ترعاه حين سيصبح، حقيقةً، يفقد مؤهِّلاته، الوقت الذي، إن لم يكن لديه الحَذَر للتَّزوُّج قبل حلوله، فلن يكون له من مخرج آخر سوى الهرم الانفرادي، أو ملجإ العجزة. إن نوع المرأة التي تَهُمُّه صورتها، كي نكون دقيقين، هو كذلك لديه واضحٌ جدا: أرملةٌ ذات أجر محترم، لها بعض الممتلكات، وشقة ملكا، لا تَبِعَةَ عليها، مثلا، ودون أبناء. اعتبر لوقتٍ مُعيَّن كمُرشَّحَة مُلازمةَ الإدارة أرملةَ الملازم، التي لها معاش كبير، وبيتٌ في ملكها، لكنه وجدها جدَّ هَرِمة مقارنَةً بنواياه، وليس لأسباب جسديَّة، وإنما لم يكن يناسبُه أيضا أنْ يتحمَّل عِبْءَ شخص يُضاعِف عوائق الشيخوخة عِوض إصلاحها. وبصورة غير متوقَّعة،

ذاتَ صباح، فِي صفٍّ صندوق الادخار، حيث كان قد ذهب بـــدفتره العزيز، تعرَّفَ على امرأة كاملة، تتجاوزُ بكثير انتظاراته، الجريئـــة، مُعلِّمة، وجيِّدة، ذات مظهر حسن، بِشَعر مُخضَّب وصدر فـــاره، وإنْ كانتْ ذات طبيعة تحفُّظيّة مطمئنة، لها أجرة رائعـــة، وتـــراكم مهـــم لأقدمية ثلاث سنوات، لها شقة وسط مدريد، وهي إرثٌ عائلي، وذات منصب وقور في مدرسة بِحي مُوسْتُولِيس. تزوَّجا في غضون ســـتة أشهر، ودون أن ينتظر بيع المحل الذي كان دُكان سكافته، مشَيا فـــي بداية سبتمبر إلى العاصمة، في الوقت الذي ستبدأ فيه الزوجة الجديدة عمل السنة الدراسية. يوم ٢٧ سبتمبر، بـــالطبع، صـــبيحة احتفالنـــا الشعبي، كان قد عاد، لأنه كان عليه أن يحضر مـــصارعات ثيـــران سان ميغيل وسان فرانثيسكو بصفته مُستشارا تقنيًا لدى الرئاسة. وقد اهتمَّ مُشترٍ مُحتَملٌ بدكَّان السَّكافة، اتفقا معًا كي يُطْلِعه عليه في إحدى تلك الأصباح الباردة من بداية الخريف، وقد أصابه بنوع من الغمِّ أن يمشي بشارع الرِّيالِ الخالي جدا، في تلك الساعة التي كان يغلي فيها بالبشر في أزمنة ولَّت، وأن يفتح بابَه الزجاجي القديم، بعد أن رفـــع الشمسيَّة المعدنية، التي ظلَّتْ مُقفلة شهورًا كثيرة، كانتْ على الأرض أوراق قديمة، وحفنة من الرسائل، لم يُكلِّف نفـــسَه قبـــل ذهابـــه أنْ يُراجعها، متخيِّلا بقرف أنها لن تكون شيئا أكثر من إعلانات لا تهمُّه. قام بمراجعتها الآن، مع ذلك، نفض الغبار عنها، مُضيِّعا الوقتَ ريثما يأتي المشتري المحتمَل، بين تلك الرسائل كانت هنالك بطاقة بريديـــة ذات ألوان فاقعة، يرى فيها تمثال الحرية، والعلَم الأمريكي، ومنظـــر

لناطحات سحاب نيويورك، وعلى ظهرها لم يكن هنالك توقيـــع، ولا اسم من أرسلها، وعدا عنوانه فقط، عثر على كلمات مكتوبـــة بخـــط جميل ومتصنع، وبالأحرى سيئ الذوق، كذلك الذي كان يُدَرَّس مـــن قَبل في مدارس الراهبات.

تحياتي من أمريكا

أنـت

لستَ شخصا واحدا، وليس لك قصة واحــدة، لا وجهُــك ولا خِفّتك ولا الظروف الأخرى لحياتك الماضية أو الحاضرة تستمر كما هي. يتحرّك الماضي والمرايا غير مُتوقّعة. تستيقظ كلّ صباح معتقِدا أنّك الشخص نفسه الذي كان الليلة السابقة، وتتعرف في المرآة علـــى وجه مماثل، لكن أحيانا يحدث أن تُقوضك أثناء الحُلم مــشاهدُ مــن الحياة فظيعة الألم، أو غراميات قديمة، تُعطي في الــصباح ضــوءا خفيفَ الكدَر، وذلك الوجهُ الذي يبدو هو نفسُه يتغيُّر دائم، يتعدل كــل دقيقة بفعل الزمان، مثل صدَفة تتبــدل بــسبب الاحتكـــاك بالرمــل وضربات البحر وأملاحه. في كل لحظة، وإنِ استمْررْتَ ثابتا، فإنّــك تبدّل المكانَ والزمان، بفضل الأفراغ الكيميائية التـــي يتـــألّف منهــا خيالك ووعيْك. مناطق برُمّتها ورؤى تنتمي إلــى الماضــي، تنفــتح وتنغلق كمروحة، مثل الخطوط المستقيمة لحقول أشجار الزيتون، أو خطوط المحراث، بالنسبة إلى من ينظر إليها من نافذة قطــار يتقــدّم بسرعة كبيرة، إلى وجهة مجهولة. خــلال ثــوان، يجعلــك مــذاق أو رائحة أو موسيقى مذياعٍ أو رنين اسمٍ ما كُنْتَهُ منذ ثلاثــين ســنة

أو أربعين، بحدَّة أكثر من وعيك بحياتك الحالية. أنتَ طفل قَلِقٌ في يومه الأوّل بالمدرسة، أو فتى بوجه مستدير وعينين زائغتين وظل شارب على الشفة العُليا، وحين تنظر إلى المرآة تكون رجُلا في الأربعين وأزيَد، قد بدأ شعرُه الأسود يُستشفُّ فيه الشَّيْب، والذي لا أحد يمكن أن يعثر فيه على آثار وجه طفولي، لا حتى ذلك النوع الهائم والمتواصل من الشباب، الذي تتخيَّل نفسَك مقيما فيه منذ أن دخلْتَ إلى حياة الرُّشد، إلى أولى مراحلها، إلى العمل والزواج، إلى الواجبات وإلى الأحلام السِّريَّة، وإلى تربية الأبناء. أنت كل واحد من الأشخاص المختلفين الذين كُنْتَهم، وكذلك الذين كُنْتَ تتخيَّل أنَّك ستصيرُهم، وكلُّ شخصٍ ممَّن لمْ تَصِره، والذي ترغَبُ بحماس أن تكونَه، والآنَ تشكرُ أنَّك لمْ تصِرْه.

وفي الوقتِ نفسه، شأنَك، يتغيَّرُ شأن الغرفةَ التي أنتَ فيها، والمدينة، أو المنظر الذي يظهر لك من نافذة، والمنزل الذي تسكنُه، والشارع الذي تسير فيه، كل شيء يبتعد ويهربُ بمجرَّد ظهوره، في الناحية الأخرى من الزُّجاجة، دون أن يتوقَّف أبدا، ويختفي إلى الأبد. مدن، وذكريات، وأسماءٌ، مُدن يبدو فيها أنك ستعيش إلى الأبد، والتي رحلتَ عنها كي لا تعود، صُوَرٌ لمدن أمضيْتَ فيها أياما، كنتَ قريب العهد بالعودة، والآن على وشك الذهاب، وهي الآن في الذاكرة مثل فوضى اختلاط بطاقات بريدية ذات ألوان فاقعة قويَّة، مثل الألوان الزرقاء في بطاقات مدن الشواطئ، في سنوات الستينيات، أو ربما

حتى ليس ذلك: مُدنٌ تكاد لا تكون شيئا سوى أسمائها الساحرة العارية من كل جوهر بفعل مرور الزمان، طنجة، كوبنهاغن، هامبورغ، واشنطن ود.س.، بالتيمور، وغوتينغين، ومونتفيديو. مَن كنتَ حين كنتَ تمشي عبر أيٍّ واحدة منها، غارقا بخوف واندفاع في حالة النكرة التي كانت تمنحك، في الإلغاء، في ضياع هويةَ كانت غير مرئيَّة بالنسبة إلى أيّ ممَّن كانوا يُصادفونك في الطريق.

ربَّما يكون أقلُّ شيء يتغيَّر، بمرور كثير من الأمكنة والأزمنة، هو الغرفة التي تعزل فيها نفسَك، تلك الحجرة، التي حَسب باسْكال، لا يلزم أن يخرج منها أبدا، كي لا تحلَّ به فجأة مصيبةٌ. الوجود وحيدا في غرفة، ربما يكون شرطا ضروريا للحياة، كتب فرانز كافكا إلى ميلينا. يوجد فيها حاسوب عِوض عن الآلة الكتابة، لكن غرفتي الحالية تشبه كثيرا أيَّ غرفة من الغرف التي سَكنتُها على امتداد حياتي بل حيواتي، تُشبه الغرفةَ الأولى التي كانت ليَّ في سن السابعة عشرة، مائدة من خشب، شرفة تُطلُّ على وادي نهر "الوادي الكبير"، طيفِ سلسلة "ماخينا" الجبلي الأزرق. كنتُ أُغلِق عليَّ كي أكون وحدي مع آلتي للكاتبة، وأسطواناتي، دفاتري، كتبي، وحين كنتَ أُحسُّني منعزلا ومَحْمِيًّا كانتِ الشرفة تسمح لي بالإطلال على شسوع العالَم، الذي أرغَبُ في الهروب باتجاهه في أقرب فرصة، لأن ذلك الملجأ، شأن الملاجئ جميعها، كان كذلك عزلةً. وكانت النافذة الوحيدة التي كنتُ أرغبُ في الإطلال منها هي نافذة قطارِ الليل الذي سيمضي بي بعيدا.

"لاورا غارثيا لوركا" التي وُلدت في نيويورك، وتتكلم إسبانية نقيّة أصيلة، بها أحيانا السقطات مردّه إلى الصوتيات الإنجليزية، أطلعتني بغرناطة في "لا ويرتا دي سان بيثينتي" على غرفة عمّها فديريكو، الأخيرة التي كانت لديه، والتي أُجبرَ على تركها ذات يوم من يوليو ١٩٣٦، بحثًا عن ملاذ لن يعثرَ عليه. كلّ المصائب حلّت بالرَّجل، لأنه لم يعرف البقاءَ وحيدا في غرفته. رأيتُ غرفةَ لوركا، وهي تشبه ذكرى غرف عيشَ فيها، أو حُلِمَ بها، وكذلك التعبير الدقيق عن رغبة. أنا كنتُ قد عشتُ في ذلك المكان، وأنا تمنيّتُ أن أعيش ذات مرّة في غرفة كهذه. الجدران بيضاء، والأرضية عليها بلاط مثل التي كانتْ في بيتي حين كنتُ طفلا، طاولةٌ من خشب، سرير صلبٌ مريح، من حديد مطليٍّ بالأبيض، شرفة كبيرةَ تنفتح على "لا بيغا"، تطل على بساتين مرشوشة ببيوت بيضاء، وعلى الطيف الأزرق أو الخبّازيّ للسلسلة الجبلية سيرًّا، بقممها المخضّبة بالورديّ في الأمسيات. أتذكّر غرفة "فان غوخ" في "أرلس"، مماثلةً لها في الاحتضان والصرامة، لكن بهندسته الفاتنة الملتوية، بسبب القلق، الغرفة التي تنفتح على منظر طبيعي جدّ جنوبي مثل فحص غرناطة، التي تحتوي كذلك الأشياءَ القليلة الضرورية للحياة، ومع ذلك فهي لم تنقذ الرّجُلَ الذي لاذ بها فرارا من الفظاعة.

أتساءل كيف كانت غرفة "باروخ سبينوزا" بأمستردام، المنحدر من يهود مطرودين من إسبانيا ثم بعد ذلك من البرتغال، وهو نفسه طُرِد من الجماعة اليهودية، كان يُحرِّر مقالاته الفلسفية بوضوح

جاف، ويصقل العَدَسات التي كان يربح بها قوتَ يومه: أتخيَّلها بنافذة يدخل منها نور واضح ورمادي مثل نور لوحات فرمير، التي يوجدُ بها دائما غرَف يحتمي سُكّانها المستغرقون في التفكير بدفء من العراء، والذين يذكرهم شيءٌ بشسوع العالَم الخارجي، وخريطة لأمريكا أو آسيا، رسالة جاءت من مكان جدّ قصي، جوهرتان تَمَّ اصطيادهما في المحيط الهادي. تقرأ زوجة لفيرمير رسالةً، وأخرى تنظر بجدّ وشرود تجاه نور النافذة، وربما كان ما يفعله هو انتظار وصول رسالة، موصدا على نفسه في غرفته، ربما كان المكان الوحيد الذي لم يكن فيه بالمرة بلا وطن، كان باروخ سبينوزا يُعطي شكلا لِتَقوُّس بلّور يسمح برؤيةِ أشياء جدَّ ضئيلة، لا تستطيع عينُ البشَر المجرَّدة أن تُميِّزها، ويريد أن يُحيطَ بمساعدة ذكائه فقط بالنظام وجوهر الكون، وقوانين الطبيعة والأخلاق البشرية، اللغز الصارم لإله ليس هو إله كبار قومه، الذين يَجْحدونه علَنا وطردوه من البيعة، ولا هو من المسيحيين، الذين ربما قد يحرقونه لو عاش في بلد أقَلَّ تسامحا من هولندا. في رسالةٍ إلى ميلينا جيسنسكا ينسى فرانز كافكا للحظة أنه يكتب إلى مخاطبَته، فاتّجه إلى الكتابة لنفسه: أنتَ بعد كل شيء يهودي وتعرف ما هو الخوف.

حينئذ تذكّرتُ "بْريمُو ليبي" في شقَّته البرجوازية في "طورينو"، البيت الذي وُلِد فيه، وفيه مات، وقد ألقى بنفسه أو سقط بالصدفة من جوف السلم، حيث عاش طيلةَ حياته، بين ١٩٤٣ و١٩٤٥. في

سبتمبر ١٩٤٣، حين أوقفَهُ الوطنيُّون الفاشيُّون، كان بريمو ليفي قد غادر غرفته الآمنةَ وبيتَه في طورينو ليلتحق بالمقاومة، وكان يحمل معه مسدَّسا صغيرا بالكاد كان يعرف استعماله، والذي في الحقيقة لم يُطلق رصاصة واحدة أبدا. كان طالبا جيِّدا، تخرج من قسم الكيمياء بدرجة ممتاز، مستمتعًا بما تعلَّمه في المختبرات وفي حجرات الدرس كما في الأدب، الذي كان بالنسبة إليه يمتلك واجبَ الوضوح نفسَه والدِّقة كالعلوم. رجلٌ شابٌ، نحيل، مجتهد، يرتدي منظارا، رُبِّيَ في أسرة متنورة وبرجوازية، في مدينة مثقَّفة، مُكدٌّ، صارم، متعوِّدٌ منذ صغَره على حياة رائقة، في توافق مع العالَم الخارجي، دون أقلِّ ظلٍّ لاختلاف قد يَفصِله عن الآخرين، حتى شرطه باعتباره يهوديًّا، ذلك أنه في إيطاليا، وأكثر من ذلك في طورينو، فإنَّ اليهودي كان في عيون الآخرين وفي عينه مواطنًا مطابقا للآخرين، وخصوصا إذا كان ينتمي، شأن بريمو ليبي، إلى أسرة لائكيَّة، لا دَخْلَ لها باللغة العبرية أو أيَّة ممارسة دينية. كان أجدادُه قد هاجروا من إسبانيا سنة ١٩٤٢. تركَ غرفتَه، وبيتَه الآمن، الذي وُلد فيه، ولربما حين الخروج إلى مدخل البناية رجَّهُ التَّفكيرُ في أنَّه لن يعود، وحين عاد، ثلاث سنوات بعد ذلك، نحيفا مثلَ طيْفٍ، حيًّا بعد أن عاشَ في الجحيم، وَجَبَ أن يُحسَّ أنه في الحقيقة كان ميِّتا، وأنه كان شبَحًا لذاته ذاكَ الذي يعود إلى بيته غيرِ الملموس، إلى مدخل البناية المطابق لما كان، إلى الغرفة الغريبة الآن عليه، والتي لم يتغيَّر فيها

شيء طيلةَ غيابه، التي لن يطرأ عليها أي تغيُّر مرئيٍّ لو كان هو قد ماتْ، كانت كذلك سجْنا، لو لمْ يفلتْ من أكوام الجثامين المُطَيَّنة في معتقل التصفية.

أيُّ قدر ضئيلٍ من الوَطن، أيُّ جرعة من التأصُّل أو المأوى يحتاجه الإنسان، يتساءل جَانْ أمري، وهو يتذكَّر فرارَه من النمسا في ١٩٣٨، ربما ليلة الخامس عشر مارس، في القطار السريع الذي كان يخرج على الساعة الحاديةَ عشر والربع من فيينا في اتّجاه براَغ، سفرَه الحزين والسِّري عبر حدود أوروبا حتى الملاذ المؤقَّت في أمْبيرس، حيث عَاشَ اللايقين المطلق لليهود المُهجَّرين، عُدوانيةَ صاحب الأرض المحلي تجاه الأجانب، احتقارات الشُّرطة والموظَّفين الذين يفحصون الأوراق ويمنحون رُخَصا أو يرفضونها، ويجعلونكَ تعود في اليوم اللاحق واليوم الذي يليه، وينظرون إلى اللاجئ كأنه متَّهم بجُنحةَ، وأفْظَعُ من كل هذا أنْ يُجرِّدَ المرْءُ من جنسيته التي يعتقد أنه لا يُمكنُ التَّصرُّف فيها، وألاَّ يُقبلَ تماما في أيِّ مكان آخر. يحتاجُ المرءُ على الأقل بيتا يشعُر فيه بالأمان، يقول أمري، غرفةً لا يُمكنُ أن يُطرَدَ منها بأساليب مهينة في منتصف الليل، والتي لا يَلْزَم أن يهرب منها على عجلٍ، حينَ سماعِه صوتَ خطواتٍ على السلالم وصفَّارات الشرطة.

أنتَ منْ عاش دائما في البيت نفسه، وفي الغرفة نفسِها، وجُبْتَ الشوارعَ نفسَها في طريقك إلى الإدارة، التي تمْكث فيها من الثامنة

إلى الثالثة من يوم الاثنين إلى الجمعة، وكذلك أنتَ الذي يهــرب دون اطمئنان، ولا يعثر على ملاذ في أيّ مكان، والذي يعبر حدودا بالليل عبر طُرقات المهرِّبين، والذي يُسافر بأوراق مُزوَّرة، أو يُرْتاب فيها في قطار ويستمرُّ مُسهَّدا بينما المسافرون الآخرون ينامون مُحــدِثين ضجيجا بجانبك، تخاف من أن تكون الخطوات التي تقتــرب عبــر الممر تكون خطوات شرطي، تحسب الوقتَ الذي يتبقّى للوُصول إلى الحدود، كي يُشيرَ إليك الرِّجالُ أصــحابُ الــزّيّ الرَّســمي الــذين يفحصون أوراقَكَ بأن تتخذ جانبا، وحينئذ ينظــر إليــك المــسافرون الآخرون، الذين يحملون جوازات ســفر قانونيــة، ولا يخــشون أيَّ شيء، يرمقونك في شكٍّ، وكذلك بارتياح، لأن المحنة التي حلَّت بــكَ تتْرُكهم في سلام، ويشرعون يرَوْنَ في وجهِكَ علامــاتِ الجريمــة، والجناية، والاختلاف، وهي أكثر تَهْلُكَةً، لكونهــا لا تُــدْرك بــالنظر البسيط، ولأنها تكون مستقلّة عن إرادة المرء وأفعاله، إنها علامــة لا تُرى، ومع ذلك لا يُمكِنُ محوُها، إنها لَطْخةَ لا محيد عنها، لا توجــد في الوجه، ولا في الحضور الخارجي، وإنما في الدَّم، دم اليهودي أو المريض، وعندَ الذي يعرف أنه سيُطرَدُ لو اكتُشِفَ حالُــهُ. موصــدًا عليه في غرفته، لأنه مريض، في مستشفى لداءِ السُّلِّ، يتذكَّر فرانــز كافكا التعليقات المعادية للسامية، التي قالها مريضٌ آخرُ على مائــدة الأكل، ويكتُبُ رسالةً وقد شدَّدَ عليه الأرق والحُمَّى: وضــع اليهــود غير الآمن، غير الآمنين في أنفسهم، غير الآمنين بين الناس، تُفــسِّر

جيِّدا اعتقادَهم بأنَّه يُسمَحُ لهم فقط بامتلاك ما يتمسَّكون به بين اليدين أو بين الأسنان، وعلاوة على ذلك فهذا التملُّك الذي بين يديهم يمنحهم نوعا من الحقِّ في الحياة، وأنَّ ما يفقدونه ذاتَ مــرَّةً لا يــستَرجعوه أبدا، إنه يبتعد عنهم في هدوء إلى الأبد.

في غرفة بفندق "بورت بُو والتر" انتحرَ بينخامين لأنه لم يبــق أمامه طريقَ آخر يمكنُ أن يمضي عبرَهُ هاربا من مُلاحقيه الألمان. حين ألقى بوليسُ الجِستَابُو القبض على "جان إمري"، وحين استُجْوِبَ وعُذِّب بعد ذلك، مِن قِبَلِ شــرطة الأس أس، نُــسبتْ إليــه هُويَّتَــان محتملتان، هوية عدو وهويةَ ضحيَّة: كان يمكن أن يكــون ألمانيــا، هاربا من الخِدمة العسكرية، وفي هذه الحال كان سيُرْمى بالرَّصاص باعتباره خائنا، بعد اجتماع مجلس حرب؛ ويمكن أن يكون يهوديــا، وحينئذ كان سيُرْسل إلى معتقل تصفية. لقد تمَّ إيقاف جانِ إمري فــي بروكسيل، حيث كان هو ومجموعة من المقاومين المتكلمين للألمانية يطبعون منشورات، ويلقونها على مقربة مــن ثكنــات فهرماشــت، مغامرين بحياتهم مُقابل أمَل تافه بأن يتحرَّك ضــميرُ أحــد الجنــود الألمان عند قراءتها. إن جان إمري، الذي كان وقتذاك يُسمَّى هــانز مايور، أُوقِفَ في مايو ١٩٤٣. وأما برمو ليفي فقد أُوقِفَ شهورا بعد ذلك، وكان مُسلَّحا بمُسدَّسه الصغير، الذي لا يعرف استعمالَه، والذي لا يضر كثيرا بالرَّايخ الثالث شأنَ منشوراتِ إمــري. لا أحَــد مــن الاثنين كان قد جاهر بيهوديَّته، وكان بريمو ليفي يعتبر ذاتَــه علــى

الخصوص إيطاليا. ومثل إمري، فهو لمْ يُفكِّر أبدا حتى١٩٣٥ في أنه كان شيئا آخر غير أنه نمساوي. لكنَّ الاثنيْن حين اعتُقِلا، وحين وُوجِها باختيار إحدى الهُويَّتيْن اختارا أنْ يُعْلِنا يهوديتهما، وأنْ يلتحقا بأعداد الضحايا المطلقين، الذين كانوا مُدانين، ليس بأفعالهم، وليس بأقوالهم، وليس بالالتزام بدين أو إيديولوجيا، وليس بإلقاء منشورات لن تؤثِّر في أحد، وليس لذهابهم إلى الجبال دون لباس الشتاء وأحذيته، وبدون سلاح عدا مسدَّس يثير الضحك، ولكن لمُجرَّد سبب بسيط هو أنهم وُلِدُوا.

أنتَ الذي منذ صبيحة التاسع عشر من سبتمبر ١٩٤١، عليه أن يخرج إلى الشارع، حاملا على صدره، في وضع جيِّد الرُّؤية نجمةَ داود، مطبوعةً بالأسْودِ على مستطيل أصفر، مثلما اليهود في مدن القرون الوسطى، لكن الآن مع كل أصناف التدقيقات النظامية حول حجمها وإخراجها، المُفسَّرَة بدقَّة في الظهير الموافق، الذي يتوقَّع كذلك عقوباتٍ لِمَنْ يخرج دون نجمةَ، أو يحاول إخفاءها، وتغطيتها، مثلا، بِمِلفٍ أو بأكياس التَّسوُّق، أو حتى بالذراع التي ترفع مِظلَّة. في غيتو فرسوفيا، توجد النجمةُ الزرقاءُ والشَّارة البيضاء.

أنتَ أيٌّ شخص كان ولستَ أحدا، الشخص الذي تبتكره أو تتذكَّره، والذي يبتكره آخرون ويتذكَّرونه، الذين تعرَّفوكَ منذ مدَّة، في مدينة أخرى وفي حياة أخرى، واحتفظوا منك بما يُشبه صورة مجمَّدة لِمَنْ كُنْتَه وقتذاك، واحدةَ من تلك الصور المنسية التي تثير

استغراب المرء، وحتى تثير اشمئزازه حين يعود إلى رؤيتها بعد انصرام الأعوام. أنتَ مَنْ كان يتخيّل أكثر من مستقبل خيالي تبدو لكَ الآن طفولية، ومنْ أحَبَّ نساءً كثيرات لستَ تتذكّرهن الآن، ومن تخجل لأنّك كنْتَه، مَنْ مضيْتَ أحيانا دون أن يَعْلَمَ أحدٌ بذلك. أنتَ ما يحكيه عنكَ آخرون، الآن بالذات، في مكان ما، وما يحكيه شخصٌ لم يتعرّفكَ لأنه حُكِي له، وما يتخيَّله عنك شخصٌ بحقد عليك. تُغيِّر الغرفةَ، والمدينةَ، والحياةَ، لكن توجد ظلال وقرائن لك يواصلون الإقامة في الأمكنة التي غادرتها، والتي مازالت موجودة وإن كنت الآن لستَ فيها. عندما كنتَ صغيرا كنتَ تجري في الشوارع مُتخيِّلا أنّك تمطتي جوادا، وكنتَ في الوقت ذاته الفارس الذي ينخس الحصان بصُراخ راعي بقر في فيلم، والحصان كان يجري راكضا، وكذلك الطفل الذي كان يرى ذلك الرّكض في فيلم، وفي اليوم التالي كان يحكي ذلك بحماس لأصدقائه الذين لم يذهبوا لرؤيته في سينما الصيف، والذي يسمع آخر يحكي حكايات أو أفلاما، بنظرة منتبهة والحدقتان تلمعان، الذي يطلب حكايةً أخرى كي لا تذهب أمُّه وتطفئ الضوءَ، الذي ينتهي من حكاية قصةٍ لابنه، ويرى في نظرته، مُتَعرّفا على ذاته فيها، كلَّ الحماس العصبي للخيال، الرغبة في مواصلة الإنصات، لئلَّا يبقى في صمتِ الصوتِ الحنون الذي يحكي، ولِيَلا تُظلم الغرفةُ بسرعة فتغزْوَها ظلالُ الخوف.

تغيّر شكلُ حياتك، والغرفة، والوجه، والمدينة، والحبَ، لكنْ مع تجرُّدِك من كل شيء، يظَلُّ شيء يستمرُّ إلى الأبد، يوجد فيك منذ

أن كانت لك ذاكرة، وبوقت طويل قبل أن تدركَ استعمال العقل، والنواة، أو لُبَّ ما تكونه، لما لم ينطفئ أبدا، ليس اقتناعا ولا رغبة، وإنما إحساس،أحيانا يخمُدُ كجمرة مخفية تحت رماد نار الليلة الماضية، لكنها تستمر حادَّة جدّا كما العادة، تنبض في أفعالك، وتَخضّب الأشياءَ ببُعدِ مستديم الوجود: أنتَ الشعور بالاجتثاث والاغتراب، وألاّ تكونَ تماما في أيّ مكان، وألا تتقاسم يقينيات الانتماء التي تبدو في الآخرين طبيعية جدا، أو بسيطة جدا، الثقة التي يرتاح إليها كثيرٌ منهم، أو يمتلكونها، أو يتركون أنفسَهم ترتاح أو تمتلك، أو يُسلِّمون بثباتِ الأرض التي يدوسونها، وصلابةَ أفكارهم، والاستمرار المستقبلي لحياتهم. أنتَ دائما طيفٌ ليس مُتيَقّنا بأنه قد دُعِي، مُستَأجِرٌ يخشى أنْ يُطْرَد، أنتَ أجنبي تنقصه وثيقة ما لتسوية وضعيته، طفل سمين ويُقلِّل من شأنه بين الأقوياءِ والخشنين في ساحة المدرسة، بُطءُ القدَمين بين جنود الثكنة، المخنّث والمنطوي بين الذكوريين بِعُنف، التلميذ النموذجي الذي يموت في داخله من عزلته وخجله، ويتمنى أن يصير واحدا من أولئك المنبوذين في القسم حيث يستهزأ به، أبُ العائلة المُبَلْسَم ضدَّ السَّأم والحقد الزوجي، الذي ينظر بالوربِ إلى النساء بينما يتجوّل ممسِكًا بذراعها في يوم أحدٍ مساءً، عبر شارع بمدينته الإقليمية، المستخدم المؤقت الذي لم يُفلِح في الحصول على عقد عمل ثابت، الأسْوَد أو المغربي، الذي يقفز إلى شاطئ بقاديس من مَرْكَب سِرّي، ويتوغَّل ليلا في بلد مجهول، مُبلَّلا وميّتا من البرد، هاربًا من الفنارات والمصابيح اليدوية للحرس

المدني، الجمهوري الإسباني الذي يَعْبر الحدود مع فرنسا في يناير أو فبراير ١٩٣٩، ويُعامَل مثل كلب أو موبوء بالطاعون ومبعوث إلى معتقل تصفية، على الضفة العبوس للبحر، موصدا عليه في هندسة كارثية لأكواخ وحواجز شائكة، الهندسة والجغرافية الطبيعية لأوروبا في تلك السنوات، منذ الشواطئ المخزية لأرْجيل-سُور-مِيرن حيث يتكدَّس الجمهوريُّون الإسبان مثل القطعان حتى آخر تخوم سيبيريا، من حيث عادت حيَّةً مارْغريت بُوبر-نيومان كي تبْعث ليس إلى الحرِّية، وإنما إلى المعتقلات الألمانية "رَافنسبروك".

أنت ما لا تعرف ما يُمكنكَ أن تكونَهُ لو وجدْت نفسَكَ مطرودا من بيتِك ووطنك، لو أوقفتْكَ دورية للجيستابو بينما كنت تـوزِّع منشورات فجْرًا في شارع ببروكسيل، ويُعلِّقونك في كُلاَّب يوضع في الصَّفَدين اللذين يربطان يديك إلى الخلف، بحيث أنك حين تَرفع السلسلة وتَفْصل رِجليك عن الأرض تَسْمع ضجيج مفاصل ذراعيكَ حين تتفكك، لو يُقفل عليك في مقطورة للحيوانات يوجد فيها خمسة وأربعون شخصا آخرين، ويكون عليك أن تقضي فيها خمسةَ أيام برُمَّتها مسافرا، وستسمع ليلا ونهارا بكاءَ طفل رضيع لا تستطيع أُمُّه أن تُرضِعه ولا أن تُسكِتَه، ويكون عليْكَ أن تلعق الجليد الذي يتـشكَّل في فتحات ألواح المقطورة، لأنه في الأيام الخمسة لا يُـوزَّع طعام أو شراب، وحين تُفتَح البابُ أخيرا في ليلة باردة ترى في ضوء عاكسات الضوء اسْمَ محطَّة لم ترَها ولا سمعْتَ بها من قبل، ولا

توحي إليك بشيء، هنالك فقط شكلٌ حادّ للرُّعب، أوشفيتز[1]. لا أحدَ يعرف مُسبقًا إن كان سيغدو جبانا أو شجاعا حين تَحُلُّ الساعة، قال لي صديقي خوصي لويسْ بينيُو، الذي في مرحلة قصية من حياته، حين كان شابا في الثانية والعشرين، قاتَل بزَيٍّ ألماني في جبهة لينِنغراد: الواحد لا يعرف حين يرى العذوَّ يقترب هل سيتَقدَّم ناحيتَه أو سيبقى في مكانه مشلولا، أبيضَ مثل ميِّت، يَخْـرِئ حرفيا في السراويل. أنا لستُ مَنْ كنتُ آنذاك، وأنا بعيد جدا عن الأفكار التي ساقتني إلى هناك، لكن هنالك شيء أعرفه، أعلَمُ أني كنتُ غير حكيم وجرِّيئا، لكني لم أكن جبانا، وأعرِفُ أيضا أنه ليست ميزة في، كان يمكنني أن أكون كذلك، كما صار إلى ذلك آخرون، بما في ذلك بعضٌ ممن كانوا يتبجَّحون جدا بالشجاعة قبل أن تَشرع طلقات الرَّصاص في الصفير. لكنني حيٌّ أيضا، وآخرون ماتوا، شجعانا أو جبناء، وفي كثير من الليالي حين لا أستطيع أن أنام، أتذكَّرهم، يتهيَّأ لي أنهم يعودون ليطلبوا مني ألاَّ أنساهم، وأن أقولَ بأنهم قد وُجِدوا.

لستَ تدري ما كان يمكن أن تكونَه، وما يمكنُكَ أن تُصبحَه، لكنْ أجل ما كُنتَهُ بصيغة أو بأخرى دائما، مَرئيًا أو مَخفيًّا، في الواقع وفي أضغاث الخيال، وإن لم تكن ربَّما بعيدا عن الآخرين. ولو كنتَ

---

(١) أوشفيتز بيركينو أو معسكر أوشفيتز للاعتقال والإبادة: كان معسكر اعتقال وإبادة بني وشغل من قبل ألمانيا النازية في أثناء الاحتلال النازي لبولندا أثناء الحرب العالمية الثانية. يعتبر معسكر أوشفيتز من أكبر معسكرات الاعتقال النازية ويتكون من ثلاث معسكرات رئيسية و٤٥ معسكر فرعي. (المراجعة)

حقيقةُ ما يُدرِكهُ آخرون، وليس ما تتخيَّل أنَّك عليه، مثلما أنَّك لستَ الذي تراه في المرآة، وأنَّ صوتَك لا يرِنُّ مثلما أنتَ تسمَعُه؟ "هانز مايور"، وطنيٌّ نمساوي، ابنٌ لأمٍّ كاثوليكية، لاأدري[1] هو ذاتُه، يعشق الأدب والفلسفة، وأن يرتدي في الأيام الاحتفالية السِّروالَ القصير بواقية صدر وجوربين طويلين، خاصَّين بالحلة الفولكلورية، أشقر، بعينين صافيتَين، فَهِمَ أنه يهوديّ ليس لأنَّ أباه كان كذلك، وليس لأن سِمة جسديَّة أو عادةً أو اعتقادا دينيًا حدَّد التَّحدُّر، وإنما لأن آخرين قرَّروا أنه كان كذلك، والدليل الدامغ على يهوديته تَمثَّل في رقم السجين الذي كان يحمله موشوما على مقدَّمة الذراع. في غرفته ببراغ، في بيت والديه، في إدارته بشركة التأمينات ضد حوادث الشغل، في حجرات المستشفيات، في غرفة الفندق بالمدينة الحدودية غموند، حيث ينتظر وصولَ ميلينا جيسنسكا، ابْتكرَ فرانز كافكا باستباق المُتَّهمَ المثالي، مُتَّهمًا لدى هيتلير وستالين، جوزيف.ك، الرجلَ الذي اتُّهِم ليس بسبب اقترافه لشيء، أو لأنه مُيِّز بنعت، وإنما لأنه كان قد عُيِّن متَّهما، وليس لديه دِفاع، لأنه لا يعرف ما تُهمَتُه، وحين ذُهِبَ به لإعدامه عِوَضَ أن يتمرَّد امتثلَ في وداعة لإرادة الجلادين، خجِلا بما في ذلك من ذاته.

---

(١) اللاأدرية Agnosticism: قادمة من الإغريقية وتعني المعرفة أو الدراية. توجه فلسفي يقول أن القيمة الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير محددة ولا يمكن لأحد تحديدها. أن قضايا وجود الله أو الذات الإلهية بالنسبة لهم موضوع غامض كلية ولا يمكن تحديده في الحياة الطبيعية للإنسان. (المراجعة)

يُمكن أن تستيقظ ذات صباح في الساعة المستهجنة من صباح العمل، وتكتشف باستغراب أقلّ الخجل من أنّك قد تحوّلتَ إلى حشرة كبيرة، يمكن أن تدخل إلى المقهى المألوف كلّ يوم، مُعتَقِدا أنّ لا شيء قد تغيَّر فيك وفي العالَم الخارجي، وأن تتأكد في الصحيفة أنّكَ لستَ من كنتَ تعتقد أنك كُنتَه، وأنّك لستَ بمأمن من الملاحقة والعار، يمكن أن تصل إلى عيادةَ الطبيب معتقدا أنك لستَ معصوما من الموت، حاملا لِزَمن من حياة هو عمليًا غير محدود، وأنْ تخرج بعد ذلك بنصف ساعة وأنت تعرف أن هنالك شيئا يُبْعدك، ويفصلك عن الآخرين، وإن كان لا أحدَ حتى الآن يُمكِن أنْ يتَبيَّنه في وجهك، وأنّك بخلافهم، هم الذين يتخيّلون أنفسَهم خالدين، أنتَ تحمل في داخلك، عبر الشارع نفسه الذي جئتَ منه بكثير من اللامبالاة، ظلًا لا يَرَوْنَه ولا يفكِّرون فيه، وإنْ كان يحوم حولهم، ويكون في انتظارهم. أنتَ الطبيبُ الذي ينتظرُ في ظُلَيْل مكتبه المريضَ الذي عليه أن يُعطيَه خبرَ مرضه، ويخشى لحظةَ وصوله ولحظةَ الكلماتِ المحايدة الضرورية، لكنّك على الخصوص الآخرُ، المريضُ، الذي للآن لا يعرف ما يكون، والذي لا يزال يتقدَّم في هدوء عبر شارع مألوف، لا يستعجل الوقتَ، لأنه سيصل إلى الموعد قبل الوقت، يتصفّح صحيفة اشتراها قبل قليل، ويترُكها منسيَّة فوق طاولة قاعة الانتظار، صحيفة لها تاريخ مثل أيِّ تاريخ آخر في صحيفة أخرى، من حيث تتابُعُ الأيام، والتي مع ذلك ستحدد الحدودَ، ما قبل وما بعد، آخر يوم في حياة وبداية حياة أخرى، لا يمكنك أن تكون فيها أنتَ

ذاتك، التي ستتذكّر فيها منْ كنْتَهُ حتى ذلك الوقت، كشخص أكثر اغترابا عنك من مجهول.

أنتَ من ترتقي السُّلّم بصحيفة تحت الإبط، من يوشِكُ أن ينسى الموعد مع الطبيب، بما في ذلك أنْ يُلغيَه، يبدو التشخيص جدّ تافه، وصفة التحاليل الطبيَّة، من تدفع باب العيادة، ويُعطي اسمه للممرّضة، دون أن يعرف أن ذلك الاسم لنْ يُعيِّن الآن الشخصَ نفسَه، أنتَ من يرتاحِ في كنبة بقاعة الانتظار، وينظر إلى الساعة دون أن يعرف أنها تَسجِّل الدقائق الأخيرة في حياته السابقة، من لا يزال يتخيَّل أنه يمتلك تراثا غير ممسوس من الزمان الآتي، غير محدود افتراضيا، ضمانة لقوَّة وعافية. تنظر إلى الساعة تضع ساقا فوق أخرى، تفتح الصحيفة، في عِيادة طبيب أو في مقهى في فيينا، في نوفمبر ١٩٣٥، وحينئذ يَحْدُث شيء سيُغيِّر حياتَك إلى الأبد، سيطْرُدك من الحياة العادية ومنَ البلاد اللتين اعتقدتَ أنَّك تنتمي إليهما، تَعرف فجْأةً أنك أجنبي فيهما. أنتَ نزيل فندق سيستيقظ ذات ليلة على أزمة سعال، وسيبصق بغتة دفقة دم. تقرأ في الصحيفة قوانين النقاء العرقي، التي نشرت قبل مدة قصيرة في نورنبرغ، وتكتشف أنَّك وإن لم تكن كذلك، ولم تفكِّر في ذلك، ولا رغبتَ فيه أبدًا أنتَ يهودي، وأنَّك منذور للملاحقة والاستئصال. تظهر الممرِّضة مبتسمةً في عتبة قاعة الانتظار، وتقول لك إنَّ الطبيب مستعد لاستقبالك، وحين تنهض لتتبَعها تنسى الصحيفة، تتركُها على الطاولة ولم تشرع بعدُ في قراءتها، وحين الخروج من العيادة، متحوِّلا إلى

شخص آخر، لنْ تتذكَّر أنه قد حمَلها. ذاتَ صباح، عند الاستيقاظ، وجد غرغوري سامسا نفسَه قد تحوَّل إلى حشرة كبيرة. ألتقي بعض المرات في شوارعِ المدينةَ، التي كنتُ أتخيَّلها لي، مع يهود فقراء مهاجرين من الشرق، بمعاطفهم الطويلة ذاتِ اللمعان الدُهني وقُبَّعاتهم السوداء، بتقصيبات شَعر عرِقةَ جدا في الصدغين، ويثيرون قرفي قليلا، وأُحسُّني مُتخففًا كوني لستُ مثلهم، ولأني لا أشبه في شيء تلك الوجوه المتفرِّدة بعناد، والعتيقة وهي تتحرَّك عبر الشوارع الخالية في فيينًا، مثلما عبر قُرى بولونيا، أو جلِّيقيا، أو أوكرانيا، التي كان بها مهاجرون. لا أحد كان يمكن أن يعتبرني واحدا منهم، كنتُ أُخمِّن، لا أحد سيمنعني من الدخول إلى حديقة أو إلى مقهى، ولن يصنع لي كاريكاتورا خشِنًا في الصحافة الصفراء، التي تنشر يوميًّا افتراءات ومذمّات ضدَّ اليهود. لكنِّي الآن أعرف أنه على الرغم من مظهري الخارجي الذي لا يسمح بوقُوع ذلك، وأن وجهي لا يزال يدلّ على العافية ومُسحة الاحترام، فإنني مَوْصومٌ بيهوديَّتي شأنهم. أنتَ ما يراه الآخرون فيك، ويتحوَّل شكلُكَ أمام عيونهم، وأنَّ الرَّجل المعافى والأشقر، الذي يقرأ الصحيفة في مقهى في فيينًا، ذات صباح أحد، مُرتديًا سرْوالا قصيرا، وجوربين طويلين، وواقيةَ صدرٍ تيروليَّة، سيكون في القريب جدا، في عيني النادل الذي خدَمه مرَّات كثيرة جدَّ مُنفِّر كاليهودي الفقير والأرثذوكسي، الذي يحتقره لأجل التَّلهي شبابٌ بشارات حمراء وقمصان داكنة، وسيُسافر صُحبته في مقطورة حيوانات، وسينتهي بالضبط إلى أن تكون له المسحة نفسها

التي لِجُثَّة متجوِّلة عبر الأرضية الموحلة، لمعسكر الاعتقال، مُعتمِرا الطاقية نفسَها، والحلة ذات الخطوط نفسَها، ويتقاسَم أخيرا الموت بالاختناق نفسه، الظلمة والارتباك داخل غرفة الغاز. أنتَ ما لم تعرفه، وربما ما توقَّعه الطبيب حين رآك في المرَّة الأولى، بنظرته الخبيرة في أيضاح ما كان للآن يستمر سرًّا، الطبيبُ الذي يلعَبُ بصَدَفة بيضاء بين أصابعه، ويُلامس بالكتمان نفسه فأرة الحاسوب، باحثًا في الأرشيف عن المعطياتِ التي تؤكِّد التشخيص، الإدانة الأكيدة، الاسم الذي لم ينطقه أيٌّ من الاثنين. حين تخرج إلى الشارع، بعد انتهاء أقلَّ من ساعة، ومُنبهِرا في البداية بالشمس، بعد أن تتعوَّد عيناك على ظُليل العيادة، المدينة التي عُدْت إليها هي الآن ليست نفسها التي اعتقدتَ أنَّك تعرفها، والآن فإن الرجال والنساء الذين يصادفونك ليسوا الآن شبيهين بك، بل حتى نسيج الواقع قد تَغيَّر، وإنْ كانت في المظهر قد استمرَّتْ مطابقة، مثلما وجهك ومظهرك العام ظلَّا نفسيهما حين تنظر إليهم شزرا، في الواجهة الزجاجية لمتْجَر. تمشي عبر المدينة التي لم تعد الآن لك، يتملَّكُك إحساسٌ باستيقاظ حامض، بأنك قد فتحتَ العينين في ضوء الفجر الغريب، وتكتشف باندهاش أقلَّ من الخجل أنَّكَ قد تحوَّلتَ إلى شيء غير مألوف، إلى حشرة كبيرة، إلى مريض، إلى شخص يعرف أنه سيموت، لكنَّ الإحساس أيضا هو لِمَن يُحسُّ أنه يحلُمُ، وأنَّك تتحرَّك داخل كابوس، بل أكثر كارثيَّةً لأن كلَّ الأشياء التي تظهر فيها هي الأشياء العادية، وفي أماكن الأيام المعتادة، وفي ضياء صباح مشمس

بمدريد، تمشي عبر رصيف مألوف في برلين، وأنتَ تدوس زُجاجَ واجهات المحلات التي رُميَت بالحجارة خلال الليل، تتشمَّم البنزين الذي أُحْرقت به محلاّت جيرانك اليهود. والآن يعود إليك الإحساسُ بالاغتراب والبُعد، تعود مُنغمِرا بذاتك من أبعد نقطة في الماضي، يعود الارتيِاب المرُّ والمؤكَّد الآنَ بأنك لا تنتمي إلى العالم نفسه، إلى الحالة الطبيعية للآخرين ومع الاغتراب والبُعد، وفي غير انفصال عنهما، يعود أو يصل الخوف، وليس الاستياء المجرَّد أمامَ فكرة الموت، وإنما بداية دوار أو هشاشة ترُجُّ جسدك برُمَّته، توهِنُ ركبتيكَ طفيفا، الارتباك من وشك حلول الموت، الذي سيفصلك عن الآخرين، الذي يعزِلك بينما تمشي الآن بالذات كأنك زنزانة غير مرئيَّة، بينما تمرُّ بجانب الكشك نفسه الذي اشتريتَ منه الصحيفة، أثناء مجيئكن، وفقط الآنَ تتذكَّر أنَّك تركتها بين مجلات قاعة الانتظار ـ مفتوحةً وليست مقروءة، الصحيفة ذات الصفحات الواسعة التي تشدُّها عصًا من خشب مصقول، يرفعُها نادل المقهى عن المائدة مع فنجان فارغ، ومنفضة بأعقاب سجائر.

ستتذكَّر لاحقا العناوين، صورة مستشار هتلير في منصة في نورنبرْغ ، يشير أمامَ ترسانة من الأعلام والنُسور، الحروف الكبيرة التي كانت تُعلن مصيرَك الآتي، التي تَصِمُك بهويَّة موبوء بالطاعون، التي لا تزال مجهولة لدى أيٍّ من الذين يُصادفونك عبر تلك المدينة التي منذ الساعة الحالية تعرف أنك فيها أجنبي، وإن كانوا حتى الآن

لم يُلزِموك على وضع نجمة صفراء على ثنية الصدر، أو حمل سِوار أبيضَ بنجمة زرقاء. منذ الآن ستمضي عبر المدينة متعرِّفا على ذويكَ دون أن يعرفوا هم بذلك، وتبعِد نظرك كي يعتصر قلبَكَ الخجلُ ووخز الضمير، متصنعًا للآن، طالما أن ذلك ممكنٌ لك أو مسموح به، أن تنتمي إلى مملكة الآخرين، المواطنين الطيبين الآريِّين الذين ليس لهم ما يخشونه، وسيشرعون في القريب العاجل في الامتناع عن تحيَّتك في السُّلم أو في التظاهر بأنهمَ لا يزونك، الأنقياء سُلالَةً ودما، المُقوون باقتناع العافية، وهو مقتنعون بأنهم في مأمن، وأنهم لن يجدوا أنفسَهم ضمن رقم المرضى المحتملين والضحايا.

أنتَ جان إمري تنظر إلى منظر طبيعي لمروج وأشجار من نافذة السيارة التي يحملونه فيها سجينا إلى ثكنة للجيستابو، أنتَ "إيفجينيا غِنزبورْغ" تُنصتين للمرة الأخيرة إلى الضجيج الخاص الذي تغلَق به بابُ بيتها، الذي لنَ تعودَ إليه أبدا، أنتِ مارغريتي بوبر-نيومان التي تَرى ميناءَ ساعةٍ مضيء في صبيحة بموسكو، دقائق قبل أن تَسوقها عربة سجينةً إلى ظلمة السجن، أنتَ فرانز كافكا الذي تكتشف باندهاش، وباستغراب، وتقريبا بارتياح أنَّ السائل الدافئ الذي تتقيَّؤه دَمٌ. أنتَ من يرى وضعه العادي ضائعا من الناحية الأخرى لزجاج النافذة، الذي يَفصِلُكَ عنه، من بين فجوات ألواح مقطورة تحمل مُهجَّرين ينظر إلى آخر البيوت في المدينة التي اعتقدها مِلكَه، والتي لن يعود إليها أبدا.

نارفا[1]

عند عودتي إلى البيت، بحثتُ في الموسوعات عن ذلك الاسم الذي لم أسمعه من قبل، لكنه تردد في الخيال خلال السفر في سيارة الأجرة، والذي لم أسمعه في البداية جيِّداً، لأن صديقي لا يتكلم بصوت عالٍ، وصوته يضيع مني أحياناً في ضجيج المطعم، حيث ذهبنا للغذاء. الوقتُ هو أحدى أمسيات نوفمبر، والأمسيات أقصر، التوقيت شتويٌّ قريبُ العهد، يجلب الليل فجأةً قبل أوانه، الغروب الذي ما كاد أن يبدأ في الشوارع الضيقة المظلمة حينما ودعنا بعضنا، عند باب البناية التي يسكن فيها، مجمع سكني حديث هو بشكل ما لا يتلاءم مع طبيعته وسنه، ولا مع الحياة التي عاشها. مَنْ يمكنه أن يتوقَّع حياةَ هذا الرَّجل بالنَّظر إليه لحظةً حين يصادفه في الشارع، أو في مدخل تلك البناية المجهولة، كما التقيتُ به لو لم أكن أعرفه: عجوز قويٌّ، ذو نظرة متوقِّدةَ بالعينين الصغيرتين، قليل الانحناء، شعر أشهب، أملس، دقيق، مثلما كان شعر "سبينسر تريسي"

---

(١) نارفا: هي ثالث أكبر مدينة في إستونيا، تقع في أقصى شرق أستونيا قرب الحدود الروسية-الأستونية، يقطن المدينة نحو ٦٥،٨٨٦ نسمة (المراجعة).

في شيخوختِه، أو كما هو جدّي لوالدي، الذي شارك هو الآخر في حرب، لكن بالطبع إنه لم يمض إليها طوع الخاطر، وربما لم يصل إلى أن يعرف جيِّدا لماذا يمضون به إليها، ولا فَهِمَ جسامةَ الكارثة التي وجد نفسَه مجرورا إليها، التي منها حياتي، إذ لو توقَّفت للتفكير في ذلك فلأنه في جزء منه صدى بعيد.

صديقي عُمره ثمانون عاما، تقريبا سن جدي وفاته، لكنه لا يفكِّر في الموت، يقول لي، مثلما لمْ يُفكر بها حين كان بالجبهة الروسية في شتاء ١٩٤٣، فارس شابٌّ جدا سيرتقي سريعا إلى ملازم نتيجة استحقاقات حربية وفوزه "بالصليب الحديدي". لا يُفكر في الموت حين يكون عمُر المرءِ عشرين سنةً ويكون في كلِّ لحظة عرضةَ للموت، حين يتقدَّم أحد بمسدَّس في اليد فوق أرض اللأحد ويتلقى في وجه وزيه سيل من دم شخص كان يمشي إلى جانبه، يُصاب بغتةً بطلقة من رشاشةِ رصاص، وفي لحظة يتحول إلى جثة من أحشاءٍ ملقاه في الوَحل: لا يُفكر في الموت، وإنما في البرد السائد، أو في حصة الأكل التي تتأخَّر في الوصول، أو في النوم، لأن أسوأ ما في الحرب هو البرد وقلَّة النوم، يقول صديقي، وهو يشرب جرعةَ صغيرةَ من النبيذ، ويجلس أمامي، أهْرَمَ من كل الموجودين الآن بالذات في المطعم، كلّهم ذكور، يتّحدون في سنهم وفي حللهم التي تشبه حلل الوُسطاء، واحدٌ منهم يتحدَّث قليل من الإنجليزية الملتوية، بتلك النبرة العالية جدا، التي عادة ما تُستعمَل في

مكان عمومي عن الحديث عبر الهاتف المحمول. تتقاطع حوارات مع حوارنا، رنات وموسيقى الهواتف المحمولة، ضجيج الصحون والكئوس، ويكون عليَّ أنْ أُجْهِدَ نفسي لكي لا أُضيِّع جزءا من الكلمات التي يقولها لي صديقي، أميل نحوه على الطاولة، خصوصا حين يذكُر اسمًا أجنبيًّا، اسمَ جنرال ألماني أو اسم حامية عسكرية روسية في الجبهة، اسمَ تلك المدينة التي حتى تلك اللحظة لم أكن أعلم أنها موجودة، إنها واحدة من بين كثير من المدن التي لن يسمع المرء الحديثَ عنها أبدا، كما أن كثيرا من الناس لا يعرفون لا اسم مدينة مسقط رأسي، الحقيقيَّة بإسهاب كبير بالنسبة إليَّ، الضئيلة جدا في وجودِها، وفي إحصاء أحيائها وأمواتها، الأحياء الذين تقريبا لا أراهم الآن أبدا، والأموات الذين يشرعون أكثر فأكثر في التَّخلُّف وراءً في النسيان، وإن كانوا بين الفينة والفينة يعودون إليَّ فجأةً، مثلما عاد جدي، الذي تُوفي منذ أربعة عشر عاما.

أتذكَّر حِكمة "باسكال" تلك، عوالمُ برُمَّتِها تجْهلنا. ومع ذلك، فإن تلك المدينةَ الأجنبية ستَشْرع في اكتساب حضور في خيالي، الذي منحَهُ لها صديقي، حينَ نطق اسمَها في مطعم بمدريد: المرَّةَ الأولى قاله لي ولم أعِرْهُ اهتماما، لأنَّ الحكايةَ التي كان يقصها عليَّ كانت تهمُّني أكثر، ثمَّ عاد إلى ذكره ولمْ ألتقطه، ربَّما لأنَّه مُسِحَ بمقْطَع من الحوار في المائدة القريبة، أو بالرنين الحاد لهاتف محمول. وهكذا قاطعْتُ حكايتَه وعُدْت أسألُه عن اسم المدينة، التي

كُنت حتى تلك اللحظة أعرفُ عنها فقط أنها توجد في "أستونيا". لكن من يُمكنُه أن يتخيّلَ كيف هي أستونيا، وماذا يوجد خلفَ ذلك الاسم، وداخلَه، كداخل تلك النواقيس البلّورية الصغيرة ذات المناظر الثلجيَّة التي كانتْ موجودة من قبلُ في البيوت، والتي كان الثلج يسقط عليها حين كانت تُحرَّك: يسقط الثلج أيضا في تلك المدينة الأستونيةَ، مدينة صغيرة من الضواحي، يقول صديقي، بجانب نهر يُسمَّى مثلَها، "نارفا"، نهر نارفا، الذي كانت تنزل عبره كُتَلٌ كبيرة من الثلج، يقول لي، متذكِّرا فجأةً، وهذا التفصيل المُستعاد يسمح له بأن يعرف حلولَه بالمدينة كان في بداية الشتاء.

ثم عُدتُ لاحقا إلى البيت في سيارة أجرة، من الشسوع الخريفي المشمس لغرب مدريد حتى الشوارع الظليلة الآن بالوسط، حيث الليل أقْرَبُ، الليلُ وكذلك البرد الرَّطب نوعا ما في أمسيات الشتاء، ثلج ورطوبة ورائحةَ الغابة في الطريق الذي يسير بجانب نهر يبدأ في التجمُّد والذي يصب في البلطيق، ثلاثة عشر كيلومترا ما وراء المدينة التي تحمل اسمَه. كنت أمضي في سيارة أجرة عبر مدريد، لكني كنتُ أسافر عبر الذكريات والأمكنة التي حكاها لي صديقي، وخلال عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة استغرقَها السير رأيت تبدل كثير عن السنوات البعيدة كما في حياة شخص ما، مثلما في مدريد التي بالكاد أراها عبر النافذة يُمكنني أن أرى كذلك عاصمة مُعتمةً وأنقاضا عاد إليها صديقي بعد مغامراته في حرب أوروبا،

الآن هو غير مؤمن، لكنَّه ليس بَعْدُ خائبَ الأمل تماما، مُحتفظا في كبرياء خجِلٍ بالصليب الحديدي، الذي لا يزال يحتفظ به كأنه طلسم من شبابه القَصيِّ، تقريبا غير محتَمل في المسافة.

سمِعْتُ دون أن أستَرِق السمع أصواتَ راديو السيارة الأجرة، واحتجاج السائقِ ضدَّ شيء، ضد الحكومة أو ضد حالة حركة السّير، لكني كنتُ أفكر في ذلك الاسم، كنتُ أردده دون النُّطق به، قررتُ البحث عنه في الموسوعة البريطانية حين وصولي إلى البيت، نارفا، حيث كان صديقي سنة ١٩٤٣، والتي عاد إليها ثلاثين سنة بعد ذلك بنية هي بالأحرى مستحيلة تتمثل في العثور على شخص، على امرأة كان قد رآها مرَّةً واحدة، ذات ليلة، في حفل رقص لضبَّاط ألمان دُعِيَ إليه، لأنه كان واحدا من الإسبان القلائل ضمن "الفرقة الزرقاء" الذين يتكلمون الألمانية، وكذلك لأنه كان يُعجبُه "بْرَامْس"، ولأنه في لحظة ما كان قد تَرنم بفقرة موسيقية من سيمفونيته الثالثة: الحربُ تَصنَعُ من مصادفات هكذا، من سلسلة من الحظوظ تَجُرُّ المرءَ أو تُنقذه، وحياته كان يمكن لها أن تتوقَّف ليس على درجة بطولته، وحَذره، ومكْره، وإنما على قدرته على الانحناء لربط حذاء لحظةً قبل أن تَصِلَ رصاصةٌ أو شظيَّة رشَّاش إلى نقطة في الهواء كانت فيها رأسه، أو يُغيِّر معه صديقٌ نَوبةَ دوريَّة استكشاف لن يعود منها أحدٌ حيًّا. لقد أفلت هو هكذا من الموت مرَّاتٍ كثيرة، على حافَّة مصيبةَ هي نفسِها تَصرَع آخرين، بمُصادفاتٍ، وبأجزاء ثوان: من

يدري أنه بالذهاب إلى تلك المدينة في أستونيا برخصة يومين قد تفادى بالتأكيد فرصةً أكيدة للموت، لو أنَّ اللحنَ المحبوب لبْرامس، وهو آنئذ أحدُ الأسماء المقدَّسة التي كان يؤسِّس عليها حبَّهُ لألمانيا، لم يكنْ قد غيَّر بدقة مجرَى حياته، وليس الحفاظ عليها فحسب، وإنما إجبارُه كذلك على أن يبدأ في فتحَ عينيه، وأنْ يكتشف رُعْبا لم يكنْ قد استعدَّ له، والذي تركَ فيه أثرا أكثر استمراريةً من الدّوار الأخْرَق للشجاعة والخطر.

حدث تفتيشٌ لقسمنا، وطلب مني قائد كتيبتنا أن أقومَ بدور الدليل للضباط الألمان. كنتَ أرافقهم أياما عديدةَ، وإن كانٍ الألمان لا يثقون كثيرا فينا، أحدُهم وهو ضابط شابٌّ جدا في مثل سِني، تعاطَفَ معي، وذلك فقط لأني أعشَقُ بْرامس، انظرْ إلى الأشياء التي تحدث في الحرب. كنَّا نمضي صامتَين، الضباطُ الألمان الثلاثةُ وأنا، إلى جانب متراس بين وكريْ رشاشتيْن، في يوم من الأيام الهادئة التي يبدو فيها أن لا شيءَ سيتحرّك على الجبهة، ودون أن أنتبه كثيرا كنتُ أترنَّمْ بشيء. حينئذ طفِقَ الضابطُ يترنَّم بالشيء نفسه مِثلي، لكن ليس كيفما كان، وإنما بكل نوتاته الموسيقية، وبدأ يمشي ببطء أكثر، كي يستمتع بذكرى الموسيقى على خير وجه. يترنمٌ صديقي كذلك بفمٍ مُغلق والعينان مواربتان، ويمكنني أن أتتبَّع الموسيقى التي ينطقها بشكل أوضح من كثير من كلماته، على الرغم من ضجيج المطعم، والأصوات، والصحون، والهواتف المحمولة: عرفتها في الحال لأنها تُعجبني كثيرا،

لحنٌ قويٌّ عاطفي يشبه موسيقى الأفلام، كان موجـودا قبـل وجـود السينما. فهمتُ مباشرة، قبل أن يقول لي الألماني ذلك، سرعة الحركـة الثالثة للسيمفونية الثالثة لبرامس. الآن، بقي الضابطان الآخـران وأنـا يشير الواحدُ منهما إلى الآخر، في استهجان دون شـكٍّ، إلـى بعـض القصور في الدفاعات الإسبانية، والقائد إلى جـانبي، يـوارب عينيـه ويُحرّك رأسَه بتؤدة، وباليد اليُمنى كان يبدو أنه يرسُم الموسـيقى فـي الهواء، وكانت السبّابة الموضوعة في قفّاز أسود كانت العـصا التـي يُسيِّر بها نفسَه، والتي كان يُبيّن لي بها خطوط اللحنِ المتموِّجةَ، تكرارَ موضوع حزين جدا يبدو في الوقت نفسه التعبير الأقصى عـن الألـم وعزاءه الأرْحم. حكى لي أنه في الحياة المدنية كان أستاذا للفلسفة فـي ثانوية رسمية، وأنّه كان يعزف على مزمار في أوركسترا مدينته وفي مجموعة للموسيقى الهادئة. أنا آنذاك أشرْتُ إلـى القطعـة الخماسـية للمزمار لبرامس فانفعل الألماني إلى درجة مُضايقة قليلا مِنْ تـصنُّعِه، لكنَّ هذه ليست هي الكلماتُ الدقيقة التي قالها صديقي: لاحظتُ سريعا، يقول، أنّه مُخنّث، كما تقولون الآن، على الرغم من الزيّ والطّول والقوة التي كان عليهما، قال لي إنه حين كان يعزف ذلك الكونشيرتو تكـون بعض الأجزاء التي يصعب عليه فيها أن يتمالك الدموع، والتي ينقصه فيها الهواءَ كي يواصل النّفخَ في المزمار. دائما كان لو أنه يعزف تلك الموسيقى للمرة الأولى، وكل مرّةَ تكون أعمق، وأصعب، مع كل حزن حياة برامس. كانت هنالك فقط قطعة خماسية أخرى للمزمـار تُعجبـه

شأن قطعة برامس: أنا توقّعتُها مباشرةً وقلتُها له، قطعة موزارت، فتحمّس بأثر الانفعال بالموسيقى المُتَذَكّرة وبالتواطؤ الذي نشأ بيننا وقال لي، وقد خفض صوته قليلا، إنه أيضا يُعجبه كثيرا بيني غُودمَان، وإنْ كان في ألمانيا من المستحيل العثور على أسطوانات له. لكن حينذاك التحق بنا الضُباط الآخرون، فغيَّر الضابطُ وجهه، وعاد جدّ صارم، كما في السابق، عسكريًّا جدا مِثلَهم، ولم يعد إلى التحدُّث معي عن الموسيقى، وتقريبا لم يتوجه إليَّ بكلمة إلى حين توادعنا. كان أولئك الألمان غَريبي الأطوار، يقول صديقي، لا يعرفُ المرءُ ما يدور في رؤوسهم، ما كانوا يُفكِّرون فيه، أو ما يشعرون به حين يكونون ينظرون إليه بتلك العيون الصافية جدا، بذلك الإخلاص الذي يصدرون عنه وتلك الحدَّة التي يضعونها في كلِّ شيء. ما حدث هو أنه أسابيع بعد ذلك أن قائد فيلقي نادى عليَّ لكي يقول لي إنَّ لديَّ إجازةً لبعض الأيام، لأن الضُباط الألمان الذين رافقتُهم كدليل ومترجم كانوا قد استظرفوني، وقد طلبوا منه أن يُرخِّص لي في الحضور إلى حفلة رقص في تلك المدينة بخلفيَّة الجيش، نارفا. في المحطة استقبلني الضابط الذي يعشق برامس وبيني غودمان. أتذكّر أننا كنا نمضي داخلين في المدينة عبر طريق بجانب نهر، على طرف غابة، وكان لا يزال هنالك قليل من ضياء الشمس، لكنَّ البرد الشديد كان قد زحف.

إنَّ من لم يعش الأشياءَ يُلحُّ في طلب تفاصيل لا تهمُّ السَّاردَ الحقيقيَّ في شيء: يتكلّم صديقي عن البرد وعن كتل الثلج التي تنزل

مع النهر، لكنَّ خيالي يُضيف وقتَ السماء وضياءه، الذي كان هو نفسُه وقت خروجنا من المطعم، نرتدي المعاطف الرمادية الثقيلة بالثنيات الواسعة التي هي للزي العسكري الألماني، وكذلك الامتداد اللامتساوي في الكتفين، الإسباني أضعف قليلا، على الأقل عند مقارنته بالقائد الهاوي للمزمار، الاثنان بقفازين أسودين، وطاقيتين بواقيتي وجه سوداء، بالثنيات مرفوعة ضدَّ البرد، يتحدثان عن الموسيقى، يتذكران قطعا موسيقية حزينة لبرامس ولموزارت، وأغاني سريعة "لجورج غرشوين" عزفتها أوركسترا بيني غودمان التي منذ سنوات لم تسمَعْ في البرامج الإذاعية للراديو الألماني.

حينئذ رأيتُ شيئا لم أنسه أبدا. لقد تركَ صديقي فوق المائدة السكين والشوكةَ، شرب جرعة نبيذ بحركة من تلك الحركات الحيويَّة المختلسة التي شرعْتُ في التعوُّد عليها، جدّ نادرة في رجل يبلغ ثمانين سنة، تلك الحيوية الموحية بأنَّ له مهام كثيرة أمامه في الحياة، أشياءَ لتعلُّمها، كتبًا للاستعراض في المجلات المتخصصة ضمن عمله، الذي يُعدُّ فيه مستشارا دوليا، مواعيد، أسفارا إلى الخارج. يغدو الآن جديا جدا، ويتكلَّم وهو ينظر إليَّ بعينيه الصغيرتين وكأنهما تترصَّدان تحت الأهداب البيضاء وتجاعيدِ الجفنين، لكن لا يبدو لي أنه يراني، أو أنه يوجدُ تماما في المكان نفسه، وفي الوقتِ نفسه شأني، في مطعم بمدريد، صاخب الأصوات وبرنات الهواتف المحمولة. رأيتَ موكبًا من الناس يتجهون نحونا مالئين شسوع

الطريق، رجالا لا غير، بعضُهم يكادون يكونون أطفـالا وآخـرون شيوخ يمشون مترنحين ويستند الواحد منهم على الآخر. كانوا يمشون منظمين، مُتَراصّين لكن في ترتيب، جميعهم صامتون، بـرؤوس مطأطئة، كما في تلك المآتم التي كانت ترى قديما تمُر عبر الشوارع الضيقة بالقرى، ومن كانوا يتقدَّمون السيْر كانوا يرفعون شيئا أمامهم، عمودا أفقيًّا كتلك الحواجز التي بالمعابر الحدودية، التي يتدلّى منهـا تشبكٌ من الأسلاك الشائكة، التي يقتضي أن تجـرح أقـدامهم أثنـاء الخطو. كانت الخطوات تُسمَع وضجيج الأسلاك عند جرّها أرضـا، وضجيج بنادق الحرس عند الاحتكاك مع الـزّي العـسكري. بقينـا الألمانيُّ وأنا صامتيْن كذلك وابتعدنا إلى جانب من الطريـق. كـان هنالك رجالٌ كثيرون، لستُ أعرف كم عددهم، ربما كـانوا مئـات، يحرسهم جنودٌ قلائل من شرطة الأس أس، وكل خمسة صـفوف أو ستة كانت تحمل أعمدةً أفقيّة أخرى بها أسلاك شائكة، تخيلـت أنهـا لكي يتورَّطَ فيها من يُكسِّر التشكيل أو يُحاول الفرار. أنا لم أرَ أبـدًا وجوها جد نحيفة شاحبة، حتى السُّجناء الـروس، ولا تلـك طريقـة المشي التي كانت لأولئك الرّجال، يُراوِحون الخُطى بجَـرِّ الأقـدام، ناظرين إلى الأرض بأكتاف غارقة. أتذكّر عجـوزا بلحيـة طويلـة وبيضاء جدا، لكني أتذكّر على الخصوص رجُلا شابا، كان يمشي في الصف الأوّل، في الوسط، طويلا جدا، أصفرَ، بوجهِ ميِّـت، يرتـدي معطفا من تلك المعاطف الطويلة التي كانت آنـذاك وطاقيـة بلـون أزرق غامق، كما لو كنتَ أراه، مثلما أراك، بمنظار ذا مشبك، ووجه

سودته اللحية، لا أنسى حتى ذلك، ليس لأنه أمضى أياما دون أن يحلق لحيته، ولكن لأنه كانت له لحية كثيفة، أكثر قتامة بسبب الشحوب الذي كان عليه. كان هو الوحيد الذي رفع الرَّأسَ قليلا، وإن لم يكنْ كثيرا، وبقي ينظر إليَّ، مرَّ بجانبي واستدارَ ينظر إليَّ، إليَّ وحدي، يلوي عنقَه الطويل جدا ذا التفاحةَ البارزةَ جدا، لم يكن ينظرُ إلى الألماني. أدار رأسَهُ وواصل النظر إليَّ بين رؤوس الآخرين المطأطئة، كأنه يريد أن يقول لي شيئا، شيئا بعينيه فقط. اللتين كانتا تبدوان أكبر في الوجه المحدَّد وشديد النحافةَ.

سيواصلان الاستماع إلى ضجيجِ الخطى المتضاعف الرتيب حين تركهم رَتل السُّجناء شيئا فشيئا وراء، مختلِطا بصخب تيَّار النهر. بقي الرَّجلان في صمت، القائد الألماني والإسباني الذي رُقِّيَ أخيرا إلى ملازم، الاثنان معا مُكبَّران ومتساويان بالمعطفين الرماديين وبالطاقيتين اللتين لهما ذات الشكل الصحني وبواقيتين من البرد سوداويْن تحمي عينيهما . الآن كان نور الشمس قد اختفى، وصار البرد أكثر حدَّةَ ورطوبة، وفي داخل الغابة، ما وراء الطريقَ، سيكون الليل قد أطبَقَ أكثر، كما في غورِ بعض الأزقة في وسط مدريد حين تكون الشمس لا تزال حاضرةً في نوافذ البنايات العالية، أثناء الزّرقةَ الخالصة والباردةَ من شهر نوفمبر.

صديقي، المستشارُ فُضولَه بما قد رأى، سأل الألمانيَّ من يكون أولئك الرّجال، وبدا للآخر أن هذا شيء مدهش ومسل في الوقت

ذاتَه، لقد أدهش من جهلِه، وتسلى لسذاجته كضابط شاب، شبه وشيك العهد لانضمامُه إلى الحرب، ولأنه إسباني فَظٌ وليس خليقا تماما بأنْ يُقبَل في الأخوَّة الألمانيةَ العُليا على الرغم من نقـاءِ نبرتـه، ومـن شجاعته في الجبهة، ومن ولائه لبرامس: يهود!، يتذكَّر صديقي أنَّ الألمانيَّ قال له، وأنه حين نطق تلك الكلمة اصطنع وجهُه خلال ثوان تعبيـرا غير مألوف. كأنه يتقاسم معه سرًّا لاذعا من مزحة صـارت فجـأةً عسكرية وخشنة. أتذكَّر الآن تلك الكلمة مكرَّرةً، يهود، وصديقي يُقلِّد نبرةَ الهُزء وحركته، واحتقارَ الألماني، الذي وكَزَه بـالكوع وغمـزَه بعينٍ، مُلتبِسًا مرَّةً أخرى، مثلما كان حين تذكَّر موسيقى برامس تلك، كأنها تَلمس بأنامل اليد، لكنها الآن فظَّة ومجنونة، ينشرح في هُـزل وضيع بِسُكر أو ماخور.

أنا لم أكن أعرف شيئا حينذاك، لكنَّ أسوأ ما في كل ذلـك هـو أني أرفض أن أعرف، لم أكنْ أرى ما كان أمـام عينـيَّ. كُنـت قـد انخرطتُ في الفرقة الزرقاء، لأني كنتُ أعتقد بعصبيَّة في كل ما كـان يُحكى لنا، لا أريد أن أن أخفي ذلك، ولا أحب أن أقدِّم عذرا، اعتقـدْت أن ألمانيا كانتَ هي الحضارة، وأن روسيا الهمجية، قفور آسـيا التـي جاءَ منها طيلة قرونٍ كلُّ الغزاة المتوحّشين لأوروبا. أورتيغا كان قـد قال ذلك: ألمانيا كانتَ الغرب، ونحن اعتقدنا ذلك، لأنه قالَـه. ألمانيـا كانتَ الموسيقى التي كانت تحرِّك مشاعري، الألمانية كانت هي لغـة الشِّعر والفلسفة، ولغة الحقوق والعلوم. لا يُمكن أن تعرف بأيِّ عـشق

درستُ أنا الألمانية في مدريد، قبل حربْنا، وأيّ زهوٍ كنت أكون عليه حين كان الألمان، الذين كنت أترجِمُ لهم في روسيا، يمتدحون نطقي. لكنّ تلك الكلمة الألمانية، التي كانتْ تنطَق بتلك النّبرة، يهود، كانت مثل صريرٍ مزعج، الإنذارَ بشيء رفضْتُ أنا سماعَه حتى ذلك الوقت، وإن كان الأكيد أني قد سمعتُها مرّات كثيرةً، أقول لكَ إني لا أريدُ أن أعتذر، وأني لا يمكنني أن أقولَ ما قالَه كثيرون بعد ذلك، الذين لا يعرفون، الذين لم يتوصّلوا إلى معرفة شيء. لم نعرف لأننا لم نكنْ مستعدّين لأن نعرف. لكنْ وإنْ كنْتُ أنا قادرا على نسيان الصيغة التي نطق بها الضابط الألماني يهود، ووجه ذلك الرَّجل ذي المنظار الذي استدار بعنقه كي يُواصل النّظر إليّ في طريق نارْفا، فإنه لم تكن لديَّ الإمكانية لكيْ أواصلَ العيش باعتباري بريئا، أو لأعتقدَ بأني بريءٌ. يُمكِن للمرءِ أنْ يُصرَّ وأن ينالَ عدمَ المعرفةَ، يُمكنُه أن يُغلقَ عينيه وألاَّ يرغَبَ في فتحهما، لكن في المرةَ التي يفتحهما فإنَّ ما تكونُ عيناه قد رأتاه لا يستطيعُ مَحْوَه، لا يمكن أن يُعيدَ الزمان خطوةً إلى الوراء، وأنْ يُوهِمَ بأنه لا وجودَ لما كان قد سمِعه.

أوّل ما كان هو تلك الكلمة، يهود. لكنْ بعدها، بعد انصرام ساعتين، عثرْتُ على تلك المرأة في حفلة الرّقص، امرأةٌ صهباءُ الشَّعر وفاتنة، بعينين خضراوين، دخلتْ إلى القاعة المملوءة بالناس، بالضجيج، والموسيقى، وميّزتُها مباشرةً بجلاء كما لو أن لا أحدَ كان سواها، وعند النظرة الأولى التي تقاطعتُها معها عرفتَ أنها لم تكنْ

ألمانية، بالصيغة نفسها التي تبيَّنت هي بها أنــه لا يُـشبه العـساكرَ الآخرين في شيءٍ على الرغم من زيِّه، وأنه لا ينظر ولا يمشي مـثلهم. فستكون المدينة حينئذ في الظُلمة، دون أضواء في الزَّوايـا تقريبـا، مدينة بلطيقية في شتاء الحرب، مُحتلة من قِبَـل الجـيش الألمـاني، خاضعةً لقانون حظر التَّجول، يعبُرُها نهـرٌ شَـرع يتجمَّـد بـاكرا، ويصعد منه ضبابٌ يُبلِّل البلاطات وسِكَك التَّرَام، ويصير أكثر كثافـة في ضوء مصابيح السيارات العسكرية.

لكنَّ صديقي لا يحكي لي كيف كان المكانُ حيث كانت حفلـةُ الرَّقص تُقام، وأنا دون أن أسألَه، سأتخيَّله بينما أُصغي إليه متحـدِّثا، ربما أنه مثل واحدة من تلك البنايات الرَّسمية التي رأيتُها في الـبلاد الشمالية، أعمدة بيضاء وملاطاتٌ بلون أصفرَ شاحب: ساحةٌ حجريَّة، ببلاطات لامعة ببَلَلِ الليل، تخترقُها سِكَكُ التَّرام وحبالُه، وفي العُمـق يوجد ذلك القصر الخاص المُصادَر أو تلك البناية العمومية الوحيـدة التي توجد نوافذُها مضاءةً، والتي تَشِعُّ منها الموسيقى باتجاه الـساحة بلمعان الضوء الكهربائي غيرِ المألوف نفسِه الصادرِ عـن الثُّريَّـات الباروكية بصالون الرقص. ضوء يفاجئ ويُعْمِي فيْ المدينة المظلمة، موسيقى في صَمت الشوارع المخيف.

يكون لذلك المكان، بالنسبة إلى القادم من الجبهة، توهُّجٌ غيـر حقيقيٌ كالسراب السينماتوغرافي، غرابةُ حياة مدنية منسيَّة تواصِـل الوجود، وإن كان الجُنديُّ بالكاد يعرف تذكُّرَه. لكنَّ صديقي يواصـل

الحكي غير مبال بذلك الصنف من التفاصيل مثل مذاق الأكل الذي يُلتَقط دون اهتمام، أو قهقهات الموظّفين البنكيّين، الذين يحتفلون في المائدة المجاورة بشخص، أو يتبادلون النّخب بالإسبانية وبالإنجليزية لنجاح صفقة مالية. يمسح ببَصَره كلّ شيء، قاعةَ الرقص لسنة ١٩٤٣ ومطعم هذه اللحظة، وصوت الأوركسترا والهواتف المحمولة، وبريق حمّالات سلاح في أزياء الألمان، وطقطقة الأحذية السوداء فوق الأرضية الخشبية اللامعة، وضربات أعقاب أحذية الجنود، والمهابة التي يجب أن يُحسَّها بوجوده بين كثير من الناس الذين لا يعرفهم، تقريبا كلهم عسكريُّون من رتبة أعلى منه. الشيء الوحيد الذي بقي من حكايته هو وجهُ المرأة التي كان يرقص معها، والتي بالكاد لها اسمٌ في ذكراه، أو ربما أنَّ صديقي نطق به وأنا لم أستطع التقاطَه، والآن تراودني غوايةُ أن أبتكرَ لها اسمًا، غردا أو غريتي، أو أنيكا، أنيكا كانت تُدعى امرأةً كانتْ صديقةَ ميلينا جيسنسكا في معسكر الاعتقال.

ركّزتُ النظرَ عليها فور دخولها إلى القاعة. كان هنالك ضُبّاط من الجيش ومن شرطة أس أس، أزياءٌ زرقاء لِجهاز اللُّوفتِوافي. كنتُ الوحيد الذي ليس ألمانيا بين كلّ أولئك العسكريِّين. ربما لهذا السبب ظلّتِ المرأة تنظر إليَّ حين مررْتُ بالقرب منها، مثلما لاحظت مباشرةً أنها لم تكنْ ألمانية. كانت صهباءَ طويلة، بفُستان مُقوَّر، منْ ثوب خفيف جدا، كأنه جواربُ دقيقة من حرير، بِعطر في

الشَّعر وفي البَشرة أوَدُّ لو أن أشُمَّه مجدَّدا قبل موتي. أنتَ لا تـزال شابا ولا تَعلَم أن هناك أشياءَ لا يمحوها الزمان. كم من الوقـت قـد مرَّ، يجري صديقي حسابا ذهنيًّا، شارِدا، مع ابتِسامة محاصـرةٍ فـي ذكرى لا يُمكن للكلمات أن تنقل حلاوتَها: ستٌ وخمسون سنةً، وكان الشهرُ نوفمبر، مثلما الآن، ويصون الإحساسَ بمعانقة خصرها سالِما، ومُلاحِظا تحت الثَّوب الثَّباتَ الناعم لجسد أكثر اشتهاءً وأحرى بعـد كثير من الوقتِ دون نساء.

كانت واقفة، جادَّةَ جدًّا، إلى جانب رجُل بدين، يرتـدي زيـا مدَنيا، بحلة فارهة ذات خطوط، ونظرا للطريقة التي كانا يتحدَّثان بها دون النظر إلى بعضهما، فإن الاثنين كان لهما مظهر زوج متعَب. لم يُفسِّر لي صديقي إن كان قد كلَّفَه التَّغلُّب على الخجل، هل رقص مع نساء أخريات قبل أن يدنو منها، وبما أنه لا يختَرع حكايةً، فإنه ليس لديه حاجة لوقائع وسيطة، لكي يقول لي ما كان من أمـر الـضابط الذي كان يرافقُه. الآن، في ذاكرته، هو علـى انفـراد مـع المـرأة الصهباء، كأنه إزاءَ خلفيَّةٍ سوداء، والمرأة لا تمتلك حتى اسـما، لأنَّ صديقي نَسيه أو لأني لم أفهمه، ولا أريد أنْ أمنحها واحدا، اسمَ امرأةٍ كان لها مصيرٌ مماثل للذي كان ينتظرها هي بالتأكيد.

كانا يرقصان، وهي كانت تهمس له في أذنه، تميل قليلا عليه، لكنها تنظر في الوقت نفسه إلى الناحية الأخـرى، بمـسحة رسـميَّة الصَّفة، كما لو أنهما كانا في إحدى قاعات الزمان الماضي، حينَ كان

الرِّجال يدفعون مالا مُقابِلَ الرَّقص مع النِّساء مدَّةَ دقيقتين أو ثــلاث دقائق طيلةَ الأغنية. كان قد مضى بعيدا جدًّا كي يلتقي بتلك المــرأة، كان قد عبر كلَّ شسوع أوروبا والخراب ووحل روسيا، وقاتل أثنـــاءَ حصار لينينغراد كي يحضنها بين ذراعيه، ويضمَّها تــدريجيا إلـــى خصره بينما يَشُمُّ شعَرها وبَشرتَها ويستمع إلى صوتها، الاثنان علـــى انفراد ويتعانقان بين كل الأشخاص الموجودين فـــي حلبَـــةَ رقــص القاعة، يُتابعان الموسيقى بالكاد، ويعود كل واحد منهما إلى البحــث عن الآخر عند انتهاء مقطوعة يكونان قد اضْطُرًّا فيها إلى الـــرَّقص مع مراقِصٍ آخر. لكنْ لم يَكُن الوُدُّ ناحيتَها فقط أو الرغبـــةُ فيهـــا، امرأةٌ في الكمال المتألِّق للثلاثين سنةً ونيِّف، وإنما اليأس كذلك، شَكلٌ من الارتباك لمْ يحْضرْهُ أبدا، مثلما أنه لم يُعـــانق مـــن قبـــل جـــسدا كجسدِها، وأنها كانت في عينيها وفي صوتها، وكذلك فـــي الـــصيغة التي كانت تضغط بها على يده بينما كانا ينزلقان فـــي بـــطء علـــى أرضية المرقص، مُقلِّصةً الأصابعَ، كأنها تودُّ أنْ تَرُجَّه، ولو أنه كان يبدو أنَّ اليأس فيها كان يغمر كل شيء، وأنه كان يطـــرد أيَّ نـــزوة أخرى ما لم تكن الخوفَ، غريزةَ التشبُّث بالحياة المخـــضَّبة بتأنيـــب الضمير والخجل. كانتْ تُكلِّمُه عن قُربٍ شديد من أُذُنه، وفي الوقـــت نفسه كانت تراقب مواربة الأزواج الذين يرقصون قريبا، ولـــم تكـــن تُضيِّع عن نظرها أبدا الرَّجل ذا الحلة القاتمة، الذي واصل الوقـــوفَ جامدا في ركن قصيٍّ من القاعة. كانت تبتسم له، وتغلـــق جفنيهـــا،

كأنها تترُكَ ذاتها تنساق مع دوار موسيقى الرقص العذب والخفيف، لكنَّ كلماتها لم تكن لها أية علاقة بتعبير وجهها الهادئ والمُتعب قليلا، وإنما بشيء كان في أعماق عينيها الخضراوين، وبالطريقة التي كانت تغرز بها أظافرها في ظهر يدِه.

-أنتَ لست مثلهم، ولو أنك ترتدي زيَّهم، عليكَ أن ترحل عن هذا المكان وأنْ تحكي ما يفعلونه بنا. إنهم يقتلوننا جميعا، واحدا واحدا، حين وصلوا إلى نارفا كُنَّا عشرةَ آلاف يهودي، والآن نحن أقلَّ من ألفين، وعلى هذا الإيقاع فإننًا لن نستمر أحياء أكثر من هذا الشتاء. إنهم لا يعفون عن أحد، لا الأطفال، ولا الأكثر شيخوخة، ولا حَديثي الولادة. يحملون الجميع في قطارات إلى وجهة مجهولة، ولا يعود منهم أحد، وحدها القطارات تعود بمقطورات فارغة.

- لكنَّكِ أنتِ حيَّةٌ وحُرَّة، وهم يدعونك إلى حفلاتهم الراقصة.

- لأني أضاجع ذلك الخنزير الذي كان معي حين دخلتَ. لكنَّه حين سيملُني أو يعتقد أنه خطَرٌ عليه أن تكون له عشيقةَ يهوديةَ فإنني سأنتهي شأنَ الآخرين.

- اِهربي.

- إلى أين سأمضي. أوروبا برُمَّتها في حوزتهم.

- كيف استدعوه وهو ليس جنديا؟

- إنّه مُتعاقِد، يُزوِّد الجيش باللباس والأكل. بالإضافة إلى أنه يشتري بأبخس الأثمان ممتلكات اليهود.

- هل عليكِ ان تعودي معه هذه الليلة؟

- ليس هذه الليلة. إن زوجته تنتظره. هنالك حفل عشاء خاص ببعض الجينرالات.

- هل أصاحبُك إلى بيتِك؟

- أنت جريء بعض الشيء.

- غدا صباحا سيكون عليَّ أنْ أعود إلى الجبهة.

كان يتمنى أن يستمر يعانقها، لم يكنْ يسمح بأن تبتعد عنه حتى نهاية الحفل الراقص، إلا بعد لحظات عندما انتهت المقطوعة التي كانت تُعزَف وأبعَدها عنه بأدب وبحسم ضابط ألماني كي يرقص المقطوعةَ الثانية معها، ومنْ بابِ الحَذر ما كان له لِيرْفُض، لأنَّ الرَّجل ذا الحلة السوداء كان يُراقبُها من بعيد، ولربما لاحظ أنها قد قضتْ وقتًا طويلا دونَ أن تُغيِّر مُراقِصَها، وقد عَرَفَ أنها تقول شيئا في سمْعِ ذلك الملازم الشاب ذي المظهر الذي لا يدلُّ على أنه ألماني رغم زِيِّه الألماني. أحَسَّ برغبة قويَّة وقلقة في حمايتها وبالحاجة المستعجَلة في أنْ يعرف، والشيءُ الوحيد الذي كان يخشاه هو الظلام الهائل الذي كان يجهله حتى ذلك الحين، الارتياب المرعب فيما كان لا يُصدَّق، ومع ذلك لا يُمكنهُ الآن أنْ يُنكِرَه. كان

ينظر حواليه إلى وجوه الألمان الحمراء، أناقة الأزياء المطابقة لزيِّه، الزي الذي أثاره كثيرا حين ارتداه للمرةَ الأولى، وشرَعَ يُحسُّ بغريزة رفض تجاه شيء فظيعٍ كان قريبا جدا ومع ذلك كان غير مرئيّ، غير مرئي على الأقل مثل ارتباك المرأة التي كانت ترقص معه، تميل برأسها في نعومةَ على إيقاع الموسيقى، وتبتسم خلسةً، وتغرز أضافرَها في ظهر يدِه، تكرِّر بصوتٍ خفيض الكلماتِ التي واصل صديقي سماعَها كثيرا بعد ذلك في ذاكرته، والتي لا تزال تُراود ضميرَه في ليالي الأرق حين يمتلئ وعيُ الأرق الحادّ والعتمةَ بأصواتِ الموتى ووجوههم، بكلّ الذين عرفهم في سنوات الشباب تلك، كثرةَ الموتى المدفونين والمَنسيِّين في شسوع أوروبا. قال صديقي إنّه يتخيل أنّ الموتى يُحدثّونه، ويُلحُّون عليه في أن يُقدّمَ شهادةَ على ما عاشوه وما كابدوه، هو الذي نجح في مواصلة العيش، بمحض المصادفة فحسب، أو لأنَّ آخرين سقطوا بدلا منه، وأفلحَ في الإفلات. لكن من بين كلّ وجوه ذلك الزمان يتذكّرُ بوضوح أنصع وجه الرَّجل الشابّ ذي المنظار المُعلّقين، الذي كان يلتفت ناحيتَه، كأنه يريد أن يقول له شيئا، ويتذكّرُ وجه تلك المرأة التي كان يراقصها، دون أن يعرف كم من الوقت، وكم مقطوعةَ متواصلةَ، وقد عشقها، وغدا مُلقّحا بفزَعها وبصيرتِها، بجبريتِها لِضحيَّة سابقة لأوانها، المُنوَّمة مغناطيسيا بحتمية التضحية: كيف سيكون صوتُها، بأيِّ نبرة تتكلّم الألمانية. الآن، بينما أحي مُجدَّدا بالكتابة ما حكاه لي صديقي، يروق لي أن أبتكر أن المرأة الصهباء كانت من أصل

سِفارديٌّ، وأنها قالت له كلمات باللغة اللادينية، رابطَةً معه، في تلك المدينة القصيَّة بأستونيا، وسَطَ كثير من الضباط الألمان، التواطُؤَ الكئيبَ لِوَطن سرّيٍّ مُشترَك.

لكنْ ليس من الدِّقَة ابتكار شيء، ولا إضافته، كي يَتَسنَّى لتلك المرأةَ وحضورِها وصوتِها أن تنبعِث بيننا، وأنْ يتجلَّى لي في المطعم حيث صديقي وأنا نتحدَّث، وقد أحاط الضجيج بنا والناس، وضبابٌ كثيف من الكلمات، وأبخرةُ الأطعمة، ودخان السجائر، ورنين الهواتف المحمولة، هو الذي لم يرغب في نسيانها، ولا يستطيع ذلك لأكثر من نصف قرن، لقد أورثني إياها، لقد نقلها من ذاكرته إلى مخيِّلتي، لكني لا أريد أن أبتكر لها أصلا ولا اسما، وربما ليس لديَّ أدنى حق: هي ليست شبحا، ولا شخصية روائيةَ، إنها شخص كان ينتمي إلى الحياة الواقعية مثلي، وكان لها مصير جِدُّ متفرد مثل مصيري، وإنما كان من الخيال أفظع، وكانت لها سيرةٌ لا يمكن أن يحُلَّ محلَّها ظِلُّ الأدب الفاتن والكاذب، ولا أن تختزل في معطى حسابي، في رقم تافه ضمن رقم الموتى الهائل. قضيت ستة وخمسين عاما أتذكَّرُها، وأتساءل دائما إنْ كانت قد أفلحتْ في مواصلةِ العيش، أو إنْ كانتْ قد ماتت في واحد من تلك المعتقلات التي لم نكن نعلم عنها آنذاك شيئا، ليس لأنها كانتْ تعمل في سريَّةَ مطلقة، ذلك أنَّ هذا أمرٌ مستحيل، وسيكون كمحاولة التَّكتم على سريَّة أشغال السكة الحديدية في بلد بكامله، وإنما لأننا كنَّا مستعدِّين لأن نعرف، وحين عرفنا لم نرغب حتى في تصديق ما لا يمكن إنكارُه، لأنه كان لا

يُصدَّق، لقد بدا لنا شيئا خارجَ النظام الطبيعي للعالم، ولم ننتبه إلى أن جهلنا لا يجعلنا أقلَّ تورُّطا ولا أقلَّ إذنابا. عُدت إلى نارفـا، ثلاثـين سنةَ بعد ذلك، حين سافرْتَ للمرَّةَ الأولى إلى لينينغراد، إلى مؤتمر في علم النفس نظَّمته اليونيسكو. لقد كلَّفني كثيرا، لكني نجحْـت فـي أن أحصل على ترخيص بزيارة المدينة، ولو أنَّهم فرضُوا عليَّ مُرْشِـدا سوفيتيا لمْ يتركني على انفراد ولو لدقيقة. الآن، الاسم مكتـوب فـي محطة القطار بخطٍ روسي، ولا وجود لطريق بجانب النهر، لأن حيًّا بكامله بُنيَ مُشكَّلا من تلك الكتَل الفظيعة بلون الإسمنت، سيبدو لـكَ الأمر عبثيًّا، وأنا أيضا بدا لي آنئذ، لكن منذ وصولي إلى نارْفا كنـتُ أنظر إلى كلِّ النساء بقلْب مُترَقِّب، كأنَّ لقائي بها كـان ممكنـا، وأنْ أتعرَّف عليْها بعد ثلاثين سنة. لم أكنْ أبحث عن امرأة أكبـر منـي بقليل، سيدة عمرها أكثر من ستين سنة، وإنمـا كنـتُ أبحـث عـن الصهباء نفسِها، الشابة التي كنتُ أراقصُها تلك الليلة، عاشقا لها، في كل لحظة من تلك اللحظات التي كانت تتصرم، أموت من الرغبـةَ، مُستَثارا لدرجةِ أني كنْتُ أُحسُّ بالدّوار حين النظـر إليهـا، وكـان يُخجِلني أن يُمكِنها رؤيةُ ما كان يحدُث لي، أو يُلاحِظَه فيَّ شـخصٌ آخر، على الرغم من المتانة القوية لثوب سروالي وقميـصي اللـذين كانا لباسا ألمانيًّا.

كان المُرشد أو الحارس السوفيتي ينظُرُ إلى الـساعة علَنًـا، ويرسم على وجهه امتعاضا، وكان يُذكِّره أنَّ عليهما العودة مُباشـرة إلى المحطة، وأنه لا يُمكنهما أن يُضيِّعا قطار العودة إلى لينِنغـراد،

لكنه واصل السير دون الاكتراث به، تاركا إيَّاه خطوات إلى الوراء، كان سريعَ المشي ومحدودبا قليلا، مثلما كان يمشي حين خرجنا من المطعم، ناظرا إلى كل شيء بعينيه الصغيرتين والمتوقدتين، منفعلا بلا واقعية الزمن المباغتة، لأنه مرّت ثلاثون سنة، وفجأة، عند انعطاف الشارع، تعرَّف دون ريب على الساحة والقصر الذي أُقيمت فيه حفلة الرَّقص، وسكك التَّرام، التي عليها قذارة واجهة القصر نفسُها، حسب المُرشد، هي مقر النقابات الأستونية. لا يتذكّر أسلاك كثيرة معلقة من جهة لأخرى، وطبعًا لم يمكنه أن يتذكّر التمثال العملاق للينين، الذي كان في الوسط، وكانت تحوم حوله الترامات ذات الارتباكات الدَّالة على أنها خردة. لكنه كان يدرك خيط الهواء البارد النّدي، ورائحة النهر الذي لا يُفترض أن يكون بعيدا جدا، ممتزِجةً بتلك الرائحة العامة للكرنب المُغلَّى والبنزين سيِّئ الاحتراق، الذي بدت لهُ رائحةُ الاتحاد السوفيتي التي لا تزول. كان الزمان لا وجود له: كان يسمع خطوات مئات من البشر على الأرض المدكوكة في الطريق، واحتكاكَ رؤوس الأسلاك الشائكةَ، ووجها نحيفا شاحبا يلتفت نحوه، ونظرةً كانت تستجوبه مجدَّدًا خلف زجاج منظار معلق بمشبك، نظرةً كانت تبتعد شيئا فشيئا في الطريق وفي ابتعاد الأعوام، وفي المسافة التي لا تُهزَم بين من ماتوا ومن أُنقذوا، ومن كانوا الآن تحت التُّراب، ومن يمشون على الأرض بالخفَّة الطائشة لمَنْ لا يعرفون أنهم أينما ولّوْا وجهَهم فإنما يدوسونَ مقابر جماعية وقبورا لا أسماءَ لها.

كم هو غريبٌ أن تكون واقفا بموقف التَّرام، قُبالة القصر، وأن ترى ذاتك مثلما كانت منذ ثلاثين سنة: ليس لأنني كنت أتذكَّر، يقول صديقي، كنت أراني بالضبط مثل من يرى في الشارع شخصا، ويصعُب عليه أنْ يميِّزه، لأن وقتا طويلا مرَّ منذ اللقاء الأخير به. كان الأمر كأنني أنظرُ إلى آخر، شابٌ جدًّا، مختلف عني جدا، مُلازمٍ في الثالثة والعشرين من العمر، يرتدي زيًّا ألمانيا، وأن أعرفَ مع ذلك أن ذلك المجهول كان أنا نفسي، لأني كان بوُسعي أن أُحِسَّ ما كان يحسُّه في ذلك الوقت، هُياجَ الانتظار وخوفَه، الخشية من أن يظهر صديقُه الضابطُ فيرتاب في أمره، أو يقول له ببساطة أنَّ عليه أن يُرافقه إلى الثكنة، حيث سيمضيان الليلة. لأنها قبل أن تبتعد عنه كي ترقص مع قائد من جهاز الأس أس كانت قد قالت له أن يتركَ نصفَ ساعة تمرّ، وأنْ ينتظرها في الناحية الأخرى من الساحة، تحت مظلّة موقف التِّرام. رآها تبتعد بين الأزواج المتراقصين، معانقةً الآن الرَّجُلَ ذا الحلة السوداء، الذي كان أطول منها، ملتفتة خفيةً برأسها كي تبحث عنه، بينما كانت تتكلَّم مع الآخر. كان عليه أن يمنحَها وقتا كي تُداهن قليلا بعضَ أصدقاءِ عشيقها، الذي لم يتخلَّ عن مراقبتها، وبين الحين والحين كان يبعث إليها بحركات جافة ومُحدَّدة كي تُودِّعه، إذ أنه ليس في حاجة إلى أنْ يُرافقه أحَدٌ إلى بيته، لأنه يسكن غير بعيد عن هناك، مسافةَ محطتين للترام. لن أتركك وحيدة ولو لحظة، قال لها، ليس بخشية، وإنما بالغياب نفسه لليقين وللخوف، الذي كان يرتمي به أحيانا في خندق ليحسَّ بنفسه

مُحصنًا من الرَّصاصات، متحمِّسًا وخفيفا، بمُسدَّس في اليد، مبحوحـــا من كثرة الصُّراخ بأوامر إلى الجنود الذين كانوا يتقدَّمون خلفَه، وهو يدوس الوَحَل وتشابُكات الأسلاك وكُتَل الجثامين المرميَّة في أرض لا أحد. لا أفكِّر في أنْ أترُكَكِ وحيدة، أعادَ القــول لهــا حــين انتهــتِ المقطوعة التي كانا يَرْقُصانها، وهي حاولتْ أن تنفكَّ عنه، لأن قائــد جهاز أس أس كان ينتَظر دوْرَه. لوْ تشأْ مُساعدتي فقمْ بما قلته لــك، طلبتْ هي منه، ناظِرَةَ إليه بيأس كان يُمَدِّد بؤبؤيْهــا، بِبُعْــد يــستبقُ الأوان، ومُبتَسِمةً مباشرة للضابط الألماني، الذي قام بحركة طأطــأة للرَّأس مؤدِّية لحظةً قبل أن يأخذها بين ذراعيه.

ثلاثون سنة بعد ذلك، وجد نفسَه مجددا في الناحية الأخرى من الساحة، رأى وجهه الخاص بجانب موقف التِّرام، والــصفاء الــذي تعكسه على البلاطات المُبلَّلة بالضباب، نوافذ القصر الكبرى، حيــث لا تزال حفلات الرَّقص تقام، وتسمع موسيقى الأوركسترا جدً خافتة، والدَّوسات التي كان يرتكبها هو نفسُه رغبةً منه في تسخين قدَميــه، والتي كان يُردِّدها الصَّدى في الفضاء الشاسع المقفر. كان الوقت هو نفسه الملازم الشاب الذي يُحصي الدقائقَ مُروَّعا من الــوهْم وخيبــة الأمل، كلما يفتح بابُ القصر والرَّجُل ذو الخمسين سنة ونيِّــف كــان يراه منتظِرا، وأحسَّ باللهفة المتدرِّجة قَلَقًا لِمن لا يَعلَم ما سيحدُثُ في الدقيقة القادمة، والرَّحمةَ الكئيبة بأن يرى كلَّ شيء في الماضي، وأنْ يعرِفَ أن الرَّجُل الشابَّ سيظل منتظِرا أكثر من ساعة، في كل لحظة سيكون أكثر تخديرا وبردا، وسيعود إلى قاعةَ الــرقص بحثًــا عــن

المرأة الصهباء، ولن يعود إلى رؤيتها بَعْدُ، لا هي ولا حاميها بحلتـــه السوداء الفخمة، المَدَنيّ الوحيد بين كثير من الأزياء العـــسكرية، ولا إلى رؤية الضابط بجهاز الأس أس، الذي انحنى فـــي تكلّـف شـــديد أمامَه حين اختطفها منه. كان يبحث عنها في حلبة الرّقص، وبعد ذلك في غرفة حيث كانت المشروبات تُوَزَّع وكانـــتِ الكنَبـــات، وجـــابَ الممرّات التي لم يكن بها من أحد، وصـــالونات ومكتبـــات مُـــضاءَة بثريّات كبيرة من البلّور.

ولم أعُدْ إلى رؤيتها أكثر، قال، مُنجِزا حركة بيدين مرفوعتين، كأنه يسعى إلى تعيين شيء في الهواء. عَنّ له أنهـــا لربَّمـــا تكـــون خرجَت دونَ أن يكون هو قد رآها، وهي الآن تنتظره عنـــد موقـــف التّرام، وأنه إن لم يُسرعِ فإنها ستتعب وتنصرف، ولن يعود له مُمْكنا التّحقق من عنوانها. لكنه التقى في البهو بالقائد الذي كان قـــد جـــاءَ معه، والذي قضى وقتا طويلا يبحث عنه، قال له، لقد تأخّر الوقـــتُ كثيرا، وأنّ عليهما الانصراف إلى الثكنة.

الآن لا أحاديث ولا هواتف محمولة حولنا. دون أن ننتبه كنـــا آخر أشخاص في المطعم. ساعدَ صديقيَ نادلٌ على ارتداء الـــصّدرية ذات اللون الأزرق الغامق، التي تجعل حركة الكتفين المُرْهقة حـــادَّةَ. حين أراه يمشي أمامي باتجاه باب الخروج أتذكّر ما كنتُ قد نـــسيته، بينما كنتُ أُصغي إليه، إنه رجُلٌ في الثمانين من عمره. في الـــشارع فاجأنا ضوءُ الغروب الأصفر، ومستوى رقيق مـــن الرطوبـــة فـــي

الهواء. عرض عليَّ صديقي أنْ يوصلَني إلى بيتي في سيَّارته. لا أزال أستمتع كثيرا بالقيادة، ولو أنه في بعض المرَّات يعمد بعضُ الحيفين إلى مضايقتي، إذ يرونني عجوزا. «هيَّا، أيها العجوز، امضِ لكي يُكفنوكَ»، قالها شخص ذات يوم عند إشارة المرور الضوئية. وسألته «هل سيكفنونني حيا أم ميتا؟» اغتاظ الرَّجل، فرفع زجاجة نافذته، وتقدَّمني ضاغطا على المُسَرِّع. المعتقداتُ مؤذيةٌ جدا، أعرفُ ذلك، لكنَّ المشكلة في النوع، نوعنا نحنُ. نحن حيوانات أولية عنيفةٌ، أخطر بكثير من الغوريلات أو قرود الشمبانزي، نحمل القسوة في عقولنا وجشع السيطرة، بسبب أننا لا نتكلَّم عن هذا الجزء الذي هو لأسلافنا الزواحف. كل شيء لدى داروين، للزيادة في طين مصيبتنا بلَّةً. لا تَقصَّ عليَّ تلك النظريَّةَ المعاصرة، إنه لأجل تطوُّر النَّوعِ كانتْ غريزة التعاون أجدى من الصراع لأجل حياة الأقوياءِ وبقائهم. لقد تعاونت الحيوانات الأولية الرئيسة كي تسحقَ أخرى، وما بقي خارجَ المجموعة يهلك. انظرْ كيفَ يتعاونُ النازيُّون فيما بينهم والشيوعيون، كم ملايينٍ وملايين من الأموات قد ترك هؤلاء وأولئك. لكنهم ليسوا وحدَهم، فكِّر في البوسنة، أو في رُواندا، منذ وقت قصير، أمس بالذات، مليون شخص قتِلوا في شهور قليلة، ليس بالتقنيات المتقدِّمة، التي كانت عند الألمان، وإنما بسواطير وهراوات. من ذا الذي يعلَم بالفظاعاتِ التي تحدث في هذه اللحظة، بينما أنت وأنا نتحدَّث. أنا الآن لا أنام كثيرا ليْلا، أستيقظ وأمكث في الظلام منتظرا الصباحَ، وحينئذ أتذكَّر كلَّ الأموات الذين رأيتهم، الذين كانوا

أصدقائي أو المجهولين، كل الأمواتَ الذين تعفنوا في أرض لا أحد، بين خطوطنا ومواقع الرُوس، الأموات الذين رأيناهم في جنبات الطريق، بينما كنا نتقدَّم إلى الجبهة، أو مكدَّسين في شاحنات، متجمِّدين من البرد. إنها محض مصادفة ألا أكون واحدا منهم، وحين أكون متمدِّدا، في الظلام، عارفا أني لن أنام، دون رغبة في إشعال الضوء، وأنْ أحمل كتابا، يتهيَّأ لي أني أراهم جميعا، واحدا واحدا، وأنهم يظلُّون ناظرين إليَّ كذلك اليهوديَ ذي المنظار بكلابتَيْها، ويتحدَّثون إليَّ، يقولون لي إنَّه إنْ كنتُ حيًّا فواجبي أن أتكلَّمَ عنهم، عليَّ أن أحكي ما حدَثَ لهم، لا يمكنني أنْ أبقى دون أن أفعل شيئا، وأن أتركهم ينسَوْن، وأنْ يضيع تماما القليلُ الذي بقيَ منهم. لن يبقى شيءٌ حين يكون جيلي قد اندثر، لا أحد سيتذكر، اللهم إذا ما أعادَ أحدُكم ما حكيناه لكم.

مررنا أمام المنتزه حيث المعبد المصري "لدبود"، وأعتقد أنه في هذا المكان كانت ثكنة الجبل، وأننا هنا أيضا نمشي فوق قبور بلا أسماء، وعلى مقابر جماعية: أتذكَّر صُوَرًا، وشرائط مصوَّرة بالأبيض والأسود للأيام الأولى من الحرب الأهلية، حين كان صديقي فتى في السادسة عشرة يدرُسُ في الثانويةِ اللغاتِ الإغريقيةَ واللاتينية والألمانية، وكان يسهر ليْلاً مُطالعا "نيتشه"، و"ريلكه"، و"خوان رامون خيمينيث"، و"أورتيغا"، وأنه لم يُمْكنه بأي شكل من الأشكال أن يتخيَّل نفسَه، سنواتٍ بعد ذلك فقط، أنه سيُقَلَّدُ وساما باعتباره بطلَ حرب.

ليس بعيدا جدا عن المكان الذي نوجد فيه الآن، في تلك الحدائق حيث تنهض أطلال معبد مصري، يتنزّه عَبْرَه أمهاتٌ وأطفال ومتقاعدون مستغلّين شمسَ مدريد، كانت فيها منذ أكثر من ستين سنة ساحةٌ مليئة بالأموات. في هذا الرصيف نفسه حيث نمشي صديقي وأنا، كانت القنابل تسقط خلال حصار أنصار فرانكو لمدريد.

لكني لا أقول له شيئا، أستمع إليه فحسب، يُحدِّثني عن هشاشة الرِّجْليْن حين يبلغ الإنسان من العمر مقدارا، وعن البُطء الذي تصل به إلى الذاكرة بعض الذكريات والأسماء، بسبب تدهور الأعصاب الموصلة. حين تَوادعنا عند بوابة البناية الحديثة حيث يعيش (ربما دُمِّرتِ البناية القديمة خلال القصف إبان الحرب)، أراه من خلف وهو يعبر مدخل البناية، في طريقه إلى المصعد، محدودبا ومسرعا، بالكاد يُرى عليه ظلٌّ بلادة خفيف من حيث الحركات. لو كانت المرأة تَحيا، لو أنها تعيش، تلك المرأةَ التي تعرَّفَ عليها صديقي في تلك المدينة التي اسمها نارْفا وأضاعها، فسيكون عمرُها تسعون عاما. أنا كذلك أتساءل الآن نفس الشيء، إنه كان يُمكنه أن يدفع أي شيء لأجل أن يعرف على امتداد أكبر نصيب من حياته، إنْ كانت تلك المرأةَ قد أفلتت، إن كانت الآن بالذات، هذه الليلة، بالضبط في اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، توجد تلك المرأة في مكان ما، لو أنها تتذكَّر ملازما شابًّا جدا كانت ترقص معه في ليلة من يناير سنة ١٩٤٣.

قُـلْ لـي اسْمَـك

واصلْتُ الوقوف ثابتا، منتظرا، تَركتَ الزمـــان يمُــرّ، كنْــتُ أعيش مراقبا الأشياء من وراء نافذة، طيلة ساعات، في الإدارةَ التـــي يصل إليها الناسُ في الضحى فقط، مبعوثون من العالم الخارجي، هم على العموم فنانون من الصف الثاني أو الثالث، شعراءُ الإقليم باحثين عن أمسية شعرية أو عن دعم لنشر ديوان، أناسٌ يخبطون الباب فـــي تهيُّب، ويمكنهم أن يظلُّوا ساعات في قاعة الانتظار، محتفظين بعقْــد أو أداء، فرصة إجراء مقابلة، أو تسليم ملفّ سيئ النَّسخ الذي سيصل في كل الأحوال، عَبْر يديَّ إلى المُدير الذي أشــتغل لديــه، والـــذي تتوقَّف عليه القرارات الأساسية، التي تتأخّر وقتا طويلا في الوصول، مغمورَةً في الغالب ببُطء الإدراة التقليدي، أو ببساطة تتــأخر بــسبب الإهمال أو السَّهو، لأن المدير لا ينظر في الوثائقَ التي أتركهـــا لـــه فوق مكتبه أو أن أنسى، أو لأني أتكاسل في تسليمها، مخدَّرا بالخمول والعزلة في الإدارة، ساهيا عن أفعالي وعن الأشخاص الذين أتعامـــل معهم، الذين يكونون أمامي دائما غير مُسدِّي النظـــر إلـــيَّ، وأقـــلّ واقعية من أولئك الذين يسكنون خيالي أو ذكرياتي، أو ذلك الفـــضاء

الغامض الضبابي الذي لا تكون واضحة فيه الحدودُ بين المتذكَّر والمُبْدَع. في رسالة لفرانز كافكا اعترَفَ بالسِّمات الدقيقة لمرضي، وبإهمالي المطلق: كنت كالميت، افتقار إلى كل رغبة في التواصل، كأني لا أنتمي إلى هذا العالم، لكن أيضا إلى أي عالم آخر؛ كأني طيلة كل الأعوام المنصرمة حتى هذه اللحظة ما فعلت بشكل تلقائي سوى ما كان يرغب مني، منتظرا في الواقع صوتا قد يناديني.

كنت أكتب رسائل، وأنتظرْ، وحين كنت أتوصَّل بإجابة ما وأرُدُّ عليها بسرعة وفي صخب كنتُ أترُك أنْ تمرَّ بعض الأيام قبل أن أعود إلى حالة الانتظار، لأني كنتُ أعلم أن الرسالة القادمة ستتأخر في الوصول أسبوعين على الأقل، إن لم تتأخر أكثر كالقرارات التي لا تُسبَر، التي يحتفظ بها مُقدِّمو الطلباتِ في غرفة الانتظار بإدارتي. تكون الأيام التي تتلو رسالةً جديدة وقتا محايدا، مُعلَّقا، لأنه خلالها يكون على التوقُّع أن يَخمد، وكذلك الخوف من ألاَّ تصل أيّ رسالة أخرى بعد. ومع ذلك، كذلك في تلك الأيام كنتُ أنتظرُ، بطريقة فاترة، لمجرد العمل بعادة الانتظار، وإذا ما رأيْتُ ضمن الرسائل والوثائق، التي يجلبُها كل صباح ساعٍ من السعاة، الحافَّةَ المخطَّطَةَ لظرفٍ بريدي جوّي تَصْدُر عنّي انتفاضةٌ خرقاء لأمل مُستعاد، ولو أن الرسالة الأخيرة تكون قد وصلت قبل ذلك بيومين أو ثلاثة أيام فقط. لكن هذا العدد القليل من الرسائل هو شيء أخرَق، ألربَّما لا تكفي واحدةٌ، تعقل واحد؟ بالطبع يكفي، ومع ذلك

فالْمَرْء يتمدَّد ويشرب الرسالةَ ولا يعرف شيئا، باستثناء أنه لا يرغب أبدا في التوقُّف عن شُربها.

كنتُ أعمل وحدي، خارج البناية الرئيسة للإدارة، في شُقّة تُستأجَر للإدارات الجديدة، أماكن مؤقتة، كان لها دائما شيء يشبه حال الهاربين، تقريبا حال السِّرِّيين، في كثير من الأحيان دون شعار رسميّ على الباب، أو مجرَّد لافتة مُرتَجلة، في نهاية ممرّات ضيقة أو سلالم شاهقة، قريبا جدا من المقر الرئيس، لكنها بصيغة ما خلْفه، في الأزقة التي تحيط به، حيث كانتْ حانات قديمة ودكاكين صغيرة، وخمّارات سُكارى مُكَدَّري المزاج، ودكاكينُ إلى وقتٍ ليس بعيدا كان يُباع فيها خفيَةً عوازل طبيَّة ومجلات فاحشة. في الأزقة الضيّقة جدا، التي بالكاد تفتح ممَرًّا للشمس، وتكونُ فيها دائما رائحة خفيفة لمجاري الصرف، في ظُليْل رطب، يغدو أكْثفَ في الزوايا التي تُطِلُّ على آخر البقايا لِما كان حيًّا للمومسات، في زمان آخر، متاهةٌ سُمِّيَت لامانيغوا، وهي الآن بالكاد بعض الأزقة، التي ينبعث منها أحيانا آخرُ سُكّانها الذي واصلوا الحياة، نساء عجائز، بدينات، مطليات الوجوه والأظافر، أو بعض الشابات الضعيفات المنزعجات بسبب الهيروين، بكعوب أحذية مُعْوَجة، وسيجارة تَعْبُرُ اللَّطْخَةَ الحمراء في فَمِهنّ، هن أشباح في أعماق مظلمة لمداخل عمارات.

كنت أستمرُّ بلا حراك، جالسا خلف مكتب الإدارة، منتظرا، وكان يمكن أن تنصرم ساعات دون أن يجيء أحد، صباحات يمكن

أن تكون فيها زيارة واحدة أوزيارتان فقط، عدا زيـارات سـاعٍ أو موظَّف ما، يدخل كي يطلب مني شيئا، أو ليُراجع ملَفًّا، حيث أحـتفظ وَفْق الترتيب الأبجدي بالملفات التي ترْسل إليَّ عبر البريد، أو تُـسلَّم إليَّ من قِبل الفنانين، وفق الترتيب الزمني أحتفظ بتقـارير الأعمـال التي أُنْجزت، في ملفات ذات لون بني فاتح، حيث أحتفظ فيهـا بكـل شيء بعناية، مُلصق العرض الفنـي، ورقـة دخـول، قُـصاصات الصحافة، في حال وجود قُصاصة، عدد الذين حضروا العرض، رقْمٌ هو بنوع من التواتر كان غير مُحمِّس، وفْق ما يتناسب مـع أهمِّيـة العروض، أو بالأحرى جاذبيَّتها، التي أتكفَّل أنا ببرمجتها، الموَجَّهـة ليس إلى المنصَّات المهمة بالمدينةَ، وإنما المراكز الثقافية بالأحيـاء، التي تُضارع قاعات العروض المدرسيةَ، أو منـصَّات فـي الهـواء الطلق في ساحات صغيرة، أو منتزهات خـلال شـهور الـصَّيف، وتكون مهمتي أيضا تنظيم مهرجان الأعلام التي يُضاف إليها دائمـا نعتُ شعبي، في الملصقات التـي تُعلـن عنهـا، أعـلام بفـوانيس، ومجموعات فنيَّة محليَّة للرُّوك، مع لعبة الخيول الخـشبية وأكـواخ العرائس الخشبية.

تشْغَل الإدارة الزاوية الأضيق في بناية مثلَّثة الشكل، كان بهـا محلَ حلويات في الطابق الأرضي، ومكتب أعمال في الطابق الأول. تصل من محل الحلويات روائح فرْن حُلوة ودافئـة، ومـن مكتـب الأعمال يصل تَحرُّك خطوات، أصوات وهواتف تتناقض مع الهدوء

والصمت اللذين كانا يسودان في مكتبي أغلَب الأوقات. كانت هنالــك نافذتان، واحدةَ تطِلُّ على ساحة "الكارْمن" وأخرى على شارع "رِيَيس كتوليكوس"، لكن مدخل البنايةِ كان في زقاقِ ضيِّق، قليـــل الحركـــة، بحيث لم يكن سهلاً حين الوصول كلَّ صباح إلى العمـــل، أن يكـــون لديكَ الإحساس بالوصول إلى مرصد ســرِّي مثـــالي، ملائـــم جـــدًّا للتَّجسُّس كما يُناسب الفرار. كنتُ أدخل وأخرج دون أن يراني أحـــد، ومن النوافذ كان يُمكنني أن أرى منْ يَمُرَّ عبـــر مُلتقيـــات الطـــرق المركزية تلك بالمدينة، وفي كثير من الأحيان كنتَ أرى معارفَ لي، كان يروقني أنْ ألاحظَهم في تلك المواقف، التي لمَنْ يمضي وحيـــدا دون أن يتصوَّر أن أحدا ما يراه. دائما كان يظهر لـــي أشـــخاص لا أعرفهم، أشخاص مختلفون كنت أخدمهم. مَنْ ذا الذي يمشي حقيقـــةً وحْدَه، في حِلٍّ مؤقَّتا من الروابط مع آخرين، من الهويَّةَ التي تمنحـــه إيَّاها نظرات آخرين.

كما كان حال "مانويل أثانيا" في مراهقَته حين كان طفلا بـــدينا أعْشى، كُنت أتمنى أن أصير القائد نيمُو. من الثامنة إلى الثالثة بـــين تلك الجدران كان يُعتَقل القائدُ نيمو في غواصته، وروبنسون كروزو في جزيرته، وكذلك الرَّجُل اللامرئي ورَجُل التَّحرِّي فيليبي مـــارْلُو، وبرناردو شواريشْ شخصية فرناندو بيسُوّا، وأيٌّ من إداريِّي فرانـــز كافكا، ظلاله هو نفسه، الذي كان ينتَمي مثل شخصياته إلى سلالة من المُهَجَّرين السِّرِّيِّين، أجانب في المكان الـــذي عاشـــوا فيـــه دائمـــا،

وهاربين مُستقرِّين، يُخفون غرابَتهم الحميمة ومنفاهم الخَلْقيّ وراءَ مظهر حياة عادية وممتازة، وأنهم وهم يجلسون في مكتب إداري، أو يجوبون في حافلة الطريقَ تُجاهَ العمل، يُمكنهم أن يبلغوا إشراقاتِ مغامَرات متوهِّجة لم تحدث لهم، في أسفار لن يقوموا بها أبدا. في مكتبه بإدارة المياه في الإسكندرية، يتخيَّل "كونستانتينو كفافيس" الموسيقى التي سمعها "ماركو أنطونيو" في الليلة السابقة على هلاكه النهائي، مَوْكبَ "ديونيسوس" الذي تخلَّى عنه. في منزل طعام بلشبونة أو في ترام يقرض "فرناندو بيسوًّا" في استغراق أبيات قصيدة عن رحلة باذخة إلى الشرق في سفينة عبر المحيط. يصل إلى فندق بتورينو رجلٌ يستغرق في التفكُّر، ذو نظَّارة طبيَّة، هادئ، حسن الهندام، وإن كانتْ به علامةُ غرابة تمنع من أن يتَّخذ مظهر مسافر، يتسجَّل للإقامة هذه الليلةَ فقط، ولا أحدَ يعلَمْ أنه "سيزار بَابيسي"، وأنه يوجد في متاعه القليل مُسدَّس سينتحر به في غضون ساعات. أنا أتخيَّل الانتحار بتفاصيل مَرَضيَّة، وأفترض حرفيًّا وأدبيًّا أن إطلاق المرءِ رصاصةً على ذاته أو أن يترُكها تموت وئيدا عبر تعاطي الكحول هما شكلان للبطولة جذريان. كنت أرى السكارى الأخيرين في الخمارات المعتمة بالأزقة يشْعُرون بمزيج قَذر من الجاذبية والرفض، كأن كل واحد منهم يُخفي حقيقة فظيعة ثَمَنُها تدميرُ الذات. كنت ألتقي برجال ذوي نظرات نَفورة وحركاتِ استياء، وكنتُ أتخيَّل بودلير في الهذيانات الأخيرة لحياته، تائها في بروكسيل أو في باريس، وألتقي سُورن كيركغارد يحج ويغرق في شوارع كوبنهاغن

يحوك طعونا إنجيلية ضدّ بَلديِّيه وأشباهه، كاتبا في ذهنه رسائل حُبٍّ إلى امرأة، ريجسنا أُولسن، التي كان قد انفصل عنها ربما لشدَّة خوفه حين كان مُلتَزِما معها، والتي لم يغفر لها مع ذلك بعد أن تزوجت رجلا آخر. مُوصِدا عليَّ البابَ في إدارتي، أقرأ رسائل ويوميَّات، ودفترَ ملاحظاتِ لسورن كيركغارد، وأتعلَّم من باسكال أنَّ الناس تقريبا لا يعيشون في الحاضر، وإنما في تذكُّر الماضي أو الرَّغبة أو الخوف من المستقبل، وأنَّ كل المصائب تَحُلُّ بالإنسان لأنه لا يظَلُّ وحيدا في غرفته.

أكانت تصِلُ رسائل ميلينا إلى كافكا في بيتِه العائلي أم كان يفضِّل أنْ يستلمها في الإدارة؟ هو كان يرسل إليها رسائلَه إلى بريد الرسائل في فيينا، كي لا يطَّلع عليها زوجها؟ وأنا أقرأ كُتبا كثيرةَ لم أكن أعلم شيئا حقيقةً. لم أكن أعلم أنِ ميلينا جيسينسكا كانت شيئا أكبر من الظل الذي تتجه إليه رسائلُ كافكا، أو الذي يتنقَّل أحيانا عبر صفحات يوميَّاته، وإنما امرأة شجاعة وحقيقية، شقَّت بعناد طريق مصيرها ضدَّ الظروف المعادية، وضدَّ أبٍ مستبد. ألَّفتْ كتباً ومقالات لصالح التَّحرُّر الإنساني، وعشقَتْ رجالا مختلفين، وواصلت الكتابة بشجاعة جريئة حين كان النازيون في براغ، وتَمَّ اعتقالها، وأُرسِلتْ إلى معتقل تصفية، حيث ماتت يوم السابع عشر من مايو ١٩٤٤. بعد ذلك باثنين وعشرين عاما يقرأُ الرَّجل، الذي هو أنا، تلك الرسائل في إدارتي، ولربما تكون هي قد ماتت في غرفة غاز مثل أخواتها الثلاث الكبريات، إذا لم يكن داءُ السُّلّ قد فتك بها.

كنتُ أعيش مُحاطا بظلال تَحُلُّ محلَّ أشخاص حقيقيِّين، وكانت تَهُمّني أكثر منهم، وكنت أتذوّق أسماء مُدُن لم أكنْ قد زُرتُها، براغ، أو لشبونة، أو طنجة، أو كوبنهاغن، أو نيويورك، التي تصلني منها الرّسائل، اسمي وعنوان تلك الإدارة مكتوبان على الأغلفة بخطٍّ، تكون مُجَرَّدُ رؤيتِه بالنسبة إليَّ ليس استباقا للسعادة، وإنما مادّتَها كذلك. كنت أحتفظ في درج بمكتبي بكتاب رسائل إلى ميلينا، وأحيانا كنت أحمله معي في جيبي للرّحلة في الحافلة. كنت أغَذّي حُبي لغياب المرأةَ المحبوبة، وأمثلة من الحب الفاشل أو المستحيل، الذي تَعرَّفته في السينما وفي الكتب. يَدٌ تعفي من السعادة، يقول فرانز كافكا، في رسالة عن يد ميلينا، وتلك اليد التي لامرأة لم أكنْ آنئذ أعرف أنها ماتتْ في معتقل تصفية، كانت أيضا يدًا مُتَذَكِّرة وغائبةً، تكتب اسمي في الأغلفة التي كانت تأتي من أمريكا.

كنت أعيشُ متخفِّيًا في الكلمات المكتوبة، كتب أو رسائل أو مُسوَّدات أشياء لمْ يتَسَنَّ لها أن توجد أبدا، وكانت من ذلك الحُلم، وتلك الإدارة التي تتوافق معي أكثر من بيتي الخاص، وكانت بشكل ما غريبةَ وملتوية، سَكَني الحميم، ليس فقط المكان الذي أشتغل فيه، حيث أستقبل رسائل، خارجَ تخيُّلاتي والفضاء الفاجع، وبالأحرى الفارغ الذي تُحَدِّده جدرانه، كان العالَمُ ضبابا غامضا، مدينة كنت أراها من الخارج غريبةً كأنني لا أعيش فيها، مثلما أني أُنجز عملي بكثير من اللامبالاة، كأني في الواقع لستُ أنا من يعتني به. حياتي

كانت هي ما لا يَحْدُث لي، حُبّي كان لامرأةٍ جدّ بعيدة، وربما لن تعود، مهنتي الحقيقية عِشقٌ لا أنصرف إليه في الواقع، ولو أنه كان يملأ ساعات كثيرة من حياتي، ولو أني بدأتُ أنشُر باسم مستعار بعض المقالات في الصحيفة المحلّية، يغمرني بعد ذلك إحساسٌ بأنها رسالة موَجَّهَة إلى لا أحد، لربَّما إلى قُرَّاء قليلين ومعزولين جدا مثلي، في إقليمنا الكئيب، في بُعْدنا القديم عن كل شيء، عن الحياة الحقيقية، وعن الحقيقة التي كانت صحف مدريد تقصها، والتي يبدو الناسُ فيها أنهم يوجدون بقوَّةَ أكثر منّا دون ريب.

قرأت عند باسكال: عوالمُ برُمَّتها تجهلنا. كنْت أقرأ بشوق جارف وبنفس إرادة العمى والنسيان التي يطمح إليها غليون أفيون روبرت دي نيرو في ذلك الفيلم الذي أخرجَهُ سيرْجيُو ليوني، الذي عُرِض آنذاك، حدَثَ مرَّةَ في أمريكا. كنتُ أطفو من الكُتب مُضطربا كما أخرْج من مُشاهدة الأفلام، كمن يخرُجُ من ظلام السينما، وتكون الشمس لا تزال في الشارع. كنتُ أُقبَل في بعض الأمسيات التزامات مهنيَّةً لم أكن مُلزَما بها، في الحقيقة، أو كنتُ أختلق ذرائع كي أمضي لقضاء ساعات في الإدارة، وكُنتُ أمكثُ هناك، جالسًا خلف المكتب، ناظرًا إلى الباب الذي يفضي إلى قاعة الانتظار، مُتَخيّلا رَجُلَ تَحَرٍّ خاص، جدَ صِبْياني، تقريبا في الثلاثين، مثلما كُنت أتخيّل نفسي حين كان عمري اثنتي عشرةَ سنةَ، الذي كان عمر "الكُونت دي مُونتيكرِيستو" أو "جيمْ هاكِينس"، أو كان الوقْت ينصرم مِنّي وأنا

أتأمّل الشارع، دون خشية من أن يراني أحدٌ من أسفل، أو أن تـأتي أيّة زيارة لتقطع علي الحالَ. قرأتُ في كتاب لفلـوبير: كـلُّ إنـسان يحتفظ في قلبه بغرفة حقيقية، أنا وضعتُ ختمًا على غرفتي. كانـتْ ممتلئةً بجمل من كتب، وأفلام، أو لأغان، وكنت أشعر أنه في تلـك الكلمات، وفي كلمات الرسائل كان عزائي الوحيد الممكن ضدَّ المنفى الذي كنتُ أجدني فيه مُبْعَدا. كنت أقرأ صـحيفة "بابيـسي" يومْيًّـا، واتسمم من نزعته العَدَمية المُضِرّة، وكرْهه الغبيِّ للنساء، الذي كنت أعتبره تنوير، مثلما كنت أحيانا أعتبر إسرافَهُ في الكحـول بـصيرةً وحماسا. سيأتي الموت وسيكون له عيناك. كنت أقرأ كيـف يُـدخن متعاطو الأفيون، وكيف يشرب مدمنُ الكحول، بإرادة منهجيـة فـي التباعد. الكتابة والقراءة كانتا عملية أنسج بها حولي خيوط الـشرنقة الحامية والخانقة، التي ألتفُّ فيها، لباسيَ والشرابَ العَلقم الذي لِرَجل لامرئي، كي أُفلت دون حركة عبر نفق لا أحـدَ بِوسـعه اكتـشافه، خادشًا جدارَ الزنزانة بالصّبر نفسه الذي كان "لإدْموندو دَانتِيس" فـي الكونت دي مونتيكريستو. خطُّ الريشة الأزرق كـان خـيط حريـر يتحلَّل، دون ملل كي يقوم بإخفائي، كي أشرع في ابتكار عالَم حولي لم يكن موجودا من قبل، مسكونا برجال ونساء كلّهم متخَيَّلون تقريبا، عالَما كان يُلطِّف التعامل الخشِن مع الواقع. الاحتكاك الطفيف للريشة فوقَ الورق، خبطات النَّقر على الآلة الكاتبة، التي كانـت لا تـزال ميكانيكية وشديدة الضجيج، مثل الآلات الكاتبة التي لِكتّـاب الـسينما

الشهيرين، التي يتخيَّلُ المرء أنْ قد استعملَها "شـاندْلِر" أو "هامـت"، أبطال أدب وسُكارى مُمَجَّدون في الزمن الماضي، الذين كنتُ أُجِلُّهـم لتلك السُّوقيَّة التي تُصيِّرنا مُطابقين لمُعاصرينا، مُتيحَةً فـي الوقـت نفسه أنْ نُحِسَّ بأنفسنا أُصلاءَ متفرِّدين وغير مُرْتشين. أحلامُ الكحول ودُخان التبغ لسنوات الثمانينات، هي أحلامٌ جدُّ خجِلَـة فـي تعلُّقها بالماضي كجزء كبير من وجودي المنتشي آنئذ، بعيدةَ جدا كـذكرى تلك الإدارة، وكذكرى تلك المرأة التي كنتُ أكتب إليها رسـائل، دون أن أنتبه إلى أنني أُحِبُّها، ليس لأنها كانت تعيش في الضفة الأخـرى من المحيط، ومع رجُل آخر، وإنما تحديدا لـذلك، لأن حُبِّـي كـان مصنوعا من البُعْد ومن الاستحالة، وإذا ما تلك المرأة كانت قد عادت تاركةً كل شيء، وعرضت نفسَها كي تَمضي معـي، لربَّمـا كنـتُ سأظلُّ مشلولا، مفزوعا، ولكنْتُ قد هربْتُ منها مثلما كان محتَمَلا أن يتراجع فرانز كافكا أمام عشق ميلينا جيسينسكا الحاسم والأرضـي، مفضِّلا اللجوء إلى الرسائل والمغفرة واللجوء إلى البعد.

لم تكن من لوحة ولا علامة بأنه توجد فـي البنايـة مُلحَقـة رسميَّة، ولا حتى لافتة في صندوق الرَّسائل. كل شيء كـان يتبـع خطواته الإدارية البطيئة، وإلى أنْ تُثبِّت مـصلحة النظـام الـداخلي الشعار المناسب بجانب المدخل، وعلى باب الإدارة، كان ينبغـي أن تنصرم شهور عديدة، إذا لم يكن عدمُ الثَّبات النَّزَوي الذي يحْدُث بـه كلُّ شيء ينتَجُ معه بتلازم الانتقال إلى مكان آخر، إلى شقة أخـرى

مُستأجَرة في النواحي القريبة، أو في مكتب فارغ في البناية الرئيسة، وكان ينبغي أنْ يُشرع في ترتيب الإقامة مُجدَّدا، المكتب والخزانة المعدنية مع الملفات وآلة الكتابة، مَحافظ المُسوَّدات التي لا تبلغ شكلا نهائيا أبدا، أو مُرضيا، الكُتب التي تملأ ساعات الانتظار والنعاس الكسول، الرسائل المحتفَظ بها حبيسةً في درج، مقروءة بالتقتير الضروري كي لا يخبُوَ تأثيرُها، كي لا يغدو طويلا جدًّا زمَنُ الانتظار إلى غاية وصول الرسالة القادمة.

كانت حياةً منفصلة عن الحاضر: الماضي والمستقبل، ويتوسَّطُها ما بين قوسين، فضاء فارغ، كالفواصل التي تفصل الكلمات المكتوبة، النَقرة الآلية للإبهام على السبيكة الطويلة للآلة، الخطّ الذي يفصل بين تاريخيْن في تقويم، الوقت الأقل الذي يجري بين خفقتَيِ القلب. كنتُ أعيش في أزمنة ماضية خادعة، أو بعيدة، وفي أزمنة آتية خيالية، وفي اللحظة التي وصلت فيها الرسالة السابقة بين الأظرف العادية والإدارية على طاولة البريد، والساعة أو اليوم القادم، الذي سأرى فيه حَدَّ رسالةٍ جديدة، مُميِّزا لها عن بُعد، منذ اللحظة التي يظهر فيها الساعي بالباب، بمحفظة المراسلات الكبيرة تحت الذراع، غير واع بالكنز الذي يجلُبه إليّ.

كانت الحياة العادية في درَجة مُبعَدة، مثل لوحة ديوريما في عُمق مشهد. كانت الحياة الواقعية والزمان الحاضر نطاق الانتظار بالضبط، فضاءَ الفصل بين المُتَذكَّر والمَتوق إليه، فضاء شفيف جدا

محايدا مثل الغرفة الصغيرة، التي ينتظرُ فيها أحَدٌ لا يستقبله، مقــدم طلب ينتظر عقدا للتمثيل أو مقابلة مع أحد رؤســائي، وإذا أمكنــت مقابلة مع المدير، الذي كان يتّخذ القرارات، والذي عليه كنت أعرض تقاريري، لكنه نادرا ما كان يظهر في الإدارة، كان ينــصرف إلــى مهمات أكثر أهمّيةً وتمثيلا في البناية الرئيسة، حيث كان لــه مكتبــه الخاص، وحيث يستقبل الأشخاص البارزين، الذين يزورون المدينة، أو الفنانين الذين من الطراز الرفيع، الذين تبَــرمج عروضــهم فــي المسرح المركزي، أو في قاعة الاستماع الكبرى: مُسيِّرو شــركات كتالانية للمسرح الطليعي، عازفون منفــردون شــهيرون، ومــديرو أوركسترات.

كنت أبحث في الساعات الأولى من الــصباح فــي الــصفحة الثقافية للصحيفة عن أخبار وصول تلك الشخصيات، والحوارات التي تجرى معهم، والصُّور التي تؤخَــذ لهــم، وفــي الغالــب يكونــون يُصافحون يَدَ أحَدِ مسئوليَّ الكبار، وعلى الخصوص مدير الأعمــال، الذي يبتسم كثيرا فيها، في وضع مائل ناحية الشخصية الشهيرة، كي يكون متأكِّدا بأنه لن يبقى خارج الإطار. كنتُ أقصُّها، وأحتفظ بهــا في محفظة، ملصِقا القصاصة في ورق مُقوًّى، وأضعُ كتابةً مرقونــة توضِّح المناسبة والتاريخ.

الفنانون الذين أتعاقد معهم لا يشغلون سوى إطار صغير فــي زاوية ما، غيرِ لافتة للنظر في الصحيفة، يكونون فرادى ومجهــولين

أو يُوقّع لهم بالأحرف الأولى، أحيانا تكون حروف اسمي، لأنه أكثر من مرة يُعيد مُحرِّرُ النوْبة إصدار الخبر الذي أكون قد أرسلته إلى قسم الثقافة. مسرحيُّون هكذا يُسمِّي كثير منهم أنفسَهم، وأنا هذه الكلمة تُقرفني قليلا، تجعلني أتذكّر الفنون المعْوِزة التي يُمثلونها، فقْرَ مستودعات ملابسهم وديكوراتهم، العفوية المتحمِّسة لعروضهم، التي يبدو فيها أن الأزمة متواصلة، وسفاسف الممثلين الفاشلين المتجوِّلين المنتمين لأزمنة خلَت، فقط هي الآن تتجدّد بقذارة، في ضجيج، ونتائج إبداع، ومساهمة جماعية لبلَدِيَّات هَرِمة. يلوِّنون وجوههم كالبهلوانات، ويرتدون أسمالا، ويضربون على الطبول أو يمشون بطولات خشبية أثناءَ استعراضاتهم المسماه بمسرح الشارع. وترتدي النساء قمصان مُبلَّلة، ولا يَحلقن زغب إبطهن، ويتصرَّفن بدون حساسية مما يثير لديَّ استياءً جسديًّا. ما كان يُدفع كان أجرا زهيدا، لأن الميزانية التي كنتُ أتصرّف فيها كانت ضئيلة، وبالإضافة فإنهم كانوا يتأخّرون كثيرا في الحصول على الأجر، وكانوا يَمْثلون كلّ صباح في إدارتي، وينصتون إلى تفسيراتي دون أن يفهموها كثيرا، وربما دون أن يُصدِّقوها، كلّ الإجراءات التي كان ضروريا إتمامُها، السَّفرُ العجيب للأوراق من مكاتب إلى أخرى، من السكرتارية إلى مكتب التّدخّل، فصندوق الأمانات، والتأخيرات، والإهمال، والتهاون، وهي أمور كنتُ أنا نفسي أقترفُها، وكانت تفترض أسبوعا من الانتظار أو أسبوعين فأكثر، تُبرَّر بأكاذيب صرتُ خبيرا بها شيئا فشيئا: لقد قيل لي في السكرتارية إنه اليوم بالذات سيُوقَّع الإذن بالأداء، وغدا بكل تأكيد سأتكفّل بتسريع الإجراء في مكتب التدخل.

كانوا ينتظرون، مثلي، ويعيشون في وقت ضائع، في غرفة الانتظار الصغيرة بإدارتي، غير المضيافة البائسة مثل غرفة طبيب ذي شهرة غامضة، أو شهرة واحد من رجال التّحرّي أولئك الذين في الروايات، ينتظرون أن يُتعاقد معهم أو أنْ يُستقبلوا فحسب، أو أن يحصلوا على أجر، يجلبون ملفّاتهم، ونسخ غير مرتبة، وسيرتَهم المهنية البليدة والمُختَلَقة، وأنا لا يهمني ذلكَ في شيء، لا هم، ولا حيواتهم، ولا عروضهم، ولا حتى عملي، كان يؤول إليَّ أن أعطيَهم نَفَسًا أو أبتكر بتأخيرات، أن أبدِع أسبابا للتّأخُّر في إصدار قرارٍ، في عقدٍ أو في أداء، وأنْ أقترحَ إجراءات إداريةٍ جديدة همْ لن يتبعوها، ولا حتى يفهمون الكلام الذي أشرح به تلك الإجراءات. كان هنالك شاعر غجريّ ذو شَعر أبيض ومُجعَّد، له عذاران بشكل فأس، يؤكِّد أنه ترجم إلى لغة الغجر الكالو الأعمال الكاملة لغارثيا لُوركا وجزءً من العهد الجديد، ولكي يؤكِّد ذلك فقد كان يحمل معه مخطوط الترجمة بكامله في حقيبة كبيرةَ، لكنّه كان يفتحُها للحظة فقط، وكان يُبرز لي في ارتياب الصفحة الأولى، لأنه كان يخشى أنْ يُنتحل أو يُسرَق، وكان يرفض أن يُودِع في إدارتي رزمةَ الأوراقِ تلك، التي أفْرد لها حياتَه خَوْفًا من أن تضيع منه، بين كثير من الأوراق، أو أن يشب حريق في فرن دُكّان الحلويات بالطابق الأرضي، فتحترق ترجمتَه للوركا بسخافة. قلْتَ له، لِمَ لا تترك لي نسخةً وتحتفظ في

الوقت ذاته بأخرى، تفاديا لأن يضيع منه الأصل. لكنّه كان لا يثق أيضا في مُستخدَمي مَحلاّت النسْخ، الذين يُمكنهم أن يحرقوا صفحات من كتابه في لحظة إهمال، أو أن ينشروها موقّعة باسم آخر. لا، لم يكن يستطيع التخلّي عن مخطوطه، الذي كان يحمله، ضاغطا عليه بين الذراعين حين كان يجلس في الناحية الأخرى من مكتبي، أو ينتظر في غرفة الانتظار أنْ يأتي مدير الأعمال، ولا يستطيع الارتياح حتى ينشرَه باسمه، مكتوبا بحروف بارزة على الغلاف، وبصورته في ثنية الغلاف الداخلية، كي لا يكون أدنى شك حول هوية المؤلّف، وجه الغجري مرسوما حَفْرًا أو لسحنة رومانسي يعرفه كلّ الناس في المدينة.

لاأزال أراها بوضوح في ذاكرتي. الوجه ريفي أسمر، والشّعَر أبيض، وفجأة ظهر تفصيل غير مُتوقّع، خواتِم الرصاص أو الحديد الكبيرة التي يحملها المترجِم الغجري في أصابع يديه، والتي تزيد من ثقل يديه عندما تقع على زجاج مكتبي أو على الحافظة المنتفخة بأوراق مخطوطة التي كان يدافع عنها ذلك الرّجُل دائما ضدّ العالَم، وضدّ الشدائد والسرقة، وضد اللامُبالاة والبطء الإداري الذي يُصادفه يوميًا، يجلس في غرفة الانتظار بحافظته فوق ركبتيه، أو هائما عبر ضواحي البناية الرئيسة على أمل أنْ يُصادف مديرَ الأعمال، أو حتى أحد المسئولين الكبار من ذوي الأهمية المطلقة، وأن يفلحَ هكذا بالهجوم وسط الشارع في ما لم يَمُدّه به أبدًا الانتظار الصبور،

المقابلة التي سيمنح له فيها المال الضروري لكي ينشر عمله العظيم، أو على الأقلّ أن ينشر جزء منه، ربما الرومانسي الغجري، الذي كان يلقيه علي أوّلا باللغة القشتالية، وبعد ذلك باللغة الغجرية؛ مغمضا العينين وضاغطا الجفنين، ومقدِّمًا اليدَ اليمنى بسبابة مبسوطة، مثل مُغنٍّ في لحظة جذب.

كنت أراه من نافذتي مثلما أرى كثيرا من الناس، رجالا ونساء، معارف ومجهولين، وجوها تمرُّ عبر لوحة دِيوراما غير حقيقية، تنتمي إلى حياتي في ذلك الزمان، كنتُ أراه يعبر ممَرَّ الراجلين بحركة حازمة، وبحقيبته مضغوطةً بين الذراعيْن، كأنه يتفادى أن تختطِفها منه هَبَّة ريحٍ أو لِصّ، وبصيغة ما فإنَّ هذا الرَّجُل الذي كنت أميِّزُه بين الحشد، والذي يُمكنني أن أتكهَّن بحركاته وإشاراته انطلاقا من مرصدي، لمْ يكن الرَّجلَ نفسَه، الذي دخلَ دقائق بعد ذلك إلى إدارتي، وسألني إنْ كنت أعتقد أنه في ذلك الصباح سيأتي مدير الأعمال.

كنت أتظاهر له بأني أهتمّ به، ثم بأنني مشغول جدا، بترتيب قصاصات فوق المكتب، أو أقارن أرقاما في تقرير اقتصادي. كنتُ أرغب في أن أبقى وحدي في أقرب وقت، أو أعود إلى الكتاب أو إلى الرسالة التي قطعت الزيارة قراءتها، وكان نفاد الصبر يتحوّل شيئا فشيئا إلى غضب، وإن كنتُ أحاول كبْحه. لا، لن يحضر مدير الأعمال هذا الصباح، لقد هاتفني كي ألغي كل مواعيده، لأنه في

اجتماع مهم جدا، أغلق الرجلُ حافظته مجدَّدا، نهض واقفا وضغط على يدي بين يديه الكبيرتيْن الشبيهتين بيدي عامل بناء أو حدَّاد، المُزيَّنتيْن بخواتم كتألُّق أسيَوي فظ، وبعد خروجه بدقيقة من الإدارة، كنتُ أراه يقطع الشارع مُستغرِقًا في التفكير، يمشي أكثر بطأ ممَّا كان عليه حين رأيته قادما، لكن مُحافظا على إصراره، مانحا مهلة أخرى للانتظار، دون أن يستسلم لفتور الهمَّة، ولربَّما كان يردِّد في خياله الصاخب أبياتا للوركا ومواعظ إنجيليَّة باللغتين القشتالية والرومانية الغجرية: لكني الآن أظنُّ، فجأةً، بدقَّة بينما أكتب، أن ذلك الإنسان لم يكن أجَنَّ مني، وأتساءلُ كيف أمْكَنَ لشخص ما أن يراني آنئذ من نافذة دون أن ألمحه، بينما أمشي عبر تلك الشوارع المسممة بالكلمات والأوهام شأنَ الشاعر الغجري، وجه شخص معروف يغدو من تلك المسافة شخصا غريبا، وبالكاد يَرى ما حواليْه، المدينة المسكونة بأشباح غامضة الرَّغبة وبالكُتُب. لا يرَوْن فيليبي مارلّو، ولا الرَّجُل اللامرئي، ولا فرانز كافكا، ولا حتى برناردو سواريس: فقط مُستخدَم جاد وعادي في الثلاثين من عمره، يخرُجُ كلَّ يوم من إدارته في الساعة نفسها، ويقرأ كتابا في موقف الحافلة، وأحيانا بينما يمشي عبر الشارع، وفي بعض الوقت، مرَّةً كلَّ أسبوع، يَدُسُّ رسالةً في صندوق رسائل الخارج-المستعجل، الذي يوجد علي جانب من بناية البريد.

شخصٌ ما ينتظر الآن في غرفة الانتظار، يطلب مني بمُجاملة مُبالغة الإذنَ بدخول مكتبي. أخفي في الدُّرج الرّسالةَ أو الكتاب، الذي كنتُ أقرؤه. من كل الوجوه والأسماء المنتمية لذلك الزمان، التي

مُحيَت منذ وقت طويل، يطفو وجه لا اسم له، وبعد ذلك وجه آخـــر، أحتفظ به غير ممسوس. صُوَر منفصلة، كأنها صُوَر متَتالية بـــشَريط لقصتَيْن مختلفتين، لكنَّ الاثنتين، بدايَةً، أقامتا في المكان نفسه، وفـــي الموقف نفسه، في ظُلَيْل غرفة الانتظار الحزينة، حيـــث المُلْتَمِـــسون ينتظرون ساعاتٍ وأياما. الأوّل رجُلٌ، وبعد ذلك امرأةٌ، وبعـــدَ ذلـــك التحديد تأتي قصةٌ أخرى، قصَّة النبرتين المختلفتين اللتـــين يُكلمـــاني بها. أسمع الصمت الذي يطنّ فيه صوتُ مفتاح حُروف الآلة الكاتبـــة فقط، أرى كيف يغلقون أعيُنَهم، وإنْ كانت عيناي تظلَّان مفتـــوحتَيْن أمام الشاشة، التي تطفو عليها الكلماتُ تقريبا، تظهر تقريبا بنفس قلة الإصرار التي تظهر بها الصورَ: المرأة ليستْ وحيدة، لديْها طفلٌ بين ذراعيْها، أو جالسا على الرُكبتين، لأنه ليس رضيعًا، وإنما هو طفـــل عمرُه سنتان أو ثلاث سنوات. يا للحظّ، تقول هي لي، هي التي تتكلّم بنبرة تنتمي إلى ريُو دي لابْلاتا، أو إلى مونتفيديو، أو إلى بُوينـــوس آيْريس، راقني كثيرا أنه لم يمكنه التذكر.

يتكلَّم الرجل إسبانية دقيقة ومتصلِّبة، تعلَّمها في بلده، لا أتذكَّر الآن إن كان بلدُه ألمانيا أو بلغاريا، حين كان مراهقا، وكـــان يتخيَّـــل إسبانيا ليس كبلد حقيقي، وإنما باعتبارها مملكـــة الأدب والموســـيقى أسطوريَّةً، وخصوصا من حيـــث الموســـيقى، مقطوعـــات الإلهـــام الإنسانية التي كان يدرُسُها في المعهد أثناء سنوات صـــباه القـــصيَّة كطفل نابغة، حين كان يُدهش أساتذته بعزْفه على البيانو وعن ظهـــر

قلب مقاطعَ صعبة من مؤلَّفات ألبينث، وفايا، وديبوسي، استدعاءات لحدائق في ضوء القمر ولقصور مُسلمين بوهج البناء الحجري وخرير النافورات. كان يقرأ ترجمات لواشنطن إرفينغ، وكان يسمع ويتعلّم سريعا عزف المُرتَجلة الإسبانية للموسيقار رَافيل، والغروب في غرناطة لديبوسي، الذي لم يكن قد شاهَد المدينة حين ألَّف تلك الموسيقى، حسب ما حكى لي عازف البيانو، والذي في الحقيقة لم يُسافر إلى إسبانيا أبدا، مع أنها قريبةَ منه جدا، وأنه ألَّف كثيرا من المعزوفات التي يستحضرها فيها. قال لي، إن المرَّةَ الأولى التي تنزَّه فيها عبر الحمراء، بعد أن هرب من بلده، كانت فيها موسيقى ديبوسي تلك تتردَّد تحديدا في خياله، وأنه بدا له أنه يعرف الأشياء كلَّما تقدَّم في رؤيتها، وأنه قد سبق له تعرُّفها بنغمات البيان الدقيقة، وليس بصُوَر الكُتب ولا الصُّوَر المحفورةَ فيها.

في البداية كان مُلتَمِسا كالآخرين، ولو أنه كان أفضل منهم هنداما، وتصرُّفات أكثر اتزانا، جد دقيق مثلما في استعماله للغة الإسبانيةَ، شخصٌ ينتظر في الضوء الواهن بغرفة الانتظار، مُتصفِّحا مجلَّة فوق المائدة الخفيضة، كما لو أنه في قاعة الانتظار لدى طبيب، هو أيضا يُحضِر معه مِلَفّه، وحقيبةَ قصاصاته ونُسَخه، لكنها لديه أكثر تنظيما مما تكون عليه العادة، كأنها عَمَل مُنجَز بوجه أكمَل، الأوراق محفوظة في حافظة بلاستيكية، بعضها بصور وبرامج أمسياتٍ مُلوّنة، بمُدن من وسط أوروبا، في بعض الأحيان تكون فيه نصوص ذات حروف روسية. وفي واجهة الملف كانت صورته

بالحجم كبير، صورةَ فنان محترف، قديمة بعض الشيء، طبعة يبدو فيها الرَّجُل، الذي كان أمامي أشَبَّ وأقْوى، بشَعر طويل لعازف منفرد رومانسي نَزِق، بحلة "سموكينج" جِدّ مُحْكمة، ويستند بكوعه على غطاء بيانو، اليد على الوجنة، والسَّبَّابة في الجبين، في وضعٍ حالِم، لمهارة بارعة. أو ربما أنا أتذكر غلافَ أسطوانة الموسيقى الإسبانية التي كان يثيرُها في اللحظة الوَعداء من مسيرته، التي أصرَّ على أنْ يُهْديَنِ إياها، وإن كان قد قال لي مُسبَقا، إنه لم تبقَ له سوى نسخ قليلة جدا، لأن كلّ أسطواناته وكتبه، وكل نادر لديه ونفيس، باستثناء كُتبه الموسيقية المُعتمَدة، كل ذلك قد تركه وراءه حين رحيله، خلَّفَهَ في الناحية الأخرى من الحدود، التي كانت حينئذ تقسم أوروبا، وكان يبدو أن التقسيم سيستَمرُّ إلى الأبد. لم أترك مكاني في الخدمة العسكرية، ولم أفِرَّ، قال: لقد ذهبْت، مثلما يُقال بالإسبانية، ويُبْدي حَذرا كبيرا حين ينطق التعبير القديم الأصيل، لأنه لم تكن لديَّ أدنى رغبة، لأني لم أشأ أن أقضي بقية حياتي خانعا، خائفا من أن يكون جاريٍ أو زميلي جاسوسا، أو تكون هناك ميكروفونات خفيَّة في حجرة الممثلين بقاعة الاستماع الكِبرى حيث سأعزف. لكن لم يكن ذهابي بسبب قرار سياسي، يؤكد، وهو جالس في مكتبي، بينما أنا أتمنى أنٍ يذهب كي أمكث مرَّةَ أخرى وحيدا، وهو كان يستهلك الوقتَ لعلّ مدير الأعمال يصل ذلك الصباح: أتَعْلَمُ لماذا ذهبْت حقيقة، ألأني لم أعد أتحمَّل أكثرَ العيشَ في وطني؟ بسبب الملل. لأن كلّ شيء كان دائما متماثلا، وجه رئيس الحكومة في كل الملصقات

وفي كل الصحف، وفي التلفزيون، وصوته في الراديـو، ولأن كـل شيء كان صعبًا جدا، وفي كثير من الأحيان مستحيلا، الأشياء التـي هي بالنسبة إليكم في الغرب عادية، أن تشتري زجاجة شامبو، أو أن تبحث عن رقم تليفون في الدليل. لا وجود لدليل الهاتف فـي بلـدي، وصعبٌ جدا أن تحصل على نسخة، أو على ترخيص للـسفر إلـى الخارج، وإذا حاولْتَ إدخال آلة كاتبة يُصادرونها منك في الجمارك، وإضافة إلى ذلك يضعونكَ في لائحة المشبوهين. لكن ماذا أقول عن بلدي. بلدي الآن هو إسبانيا.

تَركَ الملفَّ جانبا، متأكِّدا من أنه قد أغلَق الألبوم جيّدا، كي لا تَخرج منه أي صورةَ، أو برنامج، أو قصاصة، وبحث داخل سـترته المخمليّة المُحْكَمة جدًّا- أتذكر الآن، بثنيَّتي صدْرٍ واسعتين جدا، كأنه غندوريٌّ ذو تأنُّقٍ مهجور، أو خاطئ، هي سترةَ أحـرى أن تكـون لمُغَنٍّ منه لعازف بيانو-، وفي لحظة امتقع وجهه، وتحسَّس جيوبـه، ناظرا إليَّ بابتسامة ارتباك واعتذار، كأنني كنت شرطيًّا طلبَ منـه وثيقة الهوية: كانتْ ثوانيَ فحسبُ، لأنه مباشرة بعـد ذلـك لمـستِ الأصابعُ القلقة ما كانت تبحث عنه، الأغلفة اللينة لجواز سفر مُعْتنَـى به حتى لكأنه يبدو جديدا، شأنَ بطاقة الهوية التي أبرزها لي لاحقـا عازف البيانو، بصورته الملوَّنة، تحت البلاسـتيك الأملـس واسـمُه الروماني أو السلافي الغريب الذي نسيته.

لمست أصابعه الطويلة الشاحبة تلك الوثائق بـاحترام جميـل، وباندهاش غير مصدق بأنها موجودة حقيقة، وبالارتياب في إمكانيـة

تضييعها. سنوات كثيرة عاشها في بلد كان لا يرغبُ سوى في الرحيل عنه، وأن يزور آخر، كان يعرفه عبر الكُتُب والموسيقى فقط، وعبر الأسماء الطنّانة وأوراق المعزوفات التي تعلّمها في المعهد دون أدنى صعوبة، كثيرٌ من الخوف في الليلة السابقة على القرار النهائي، حين قفز من نافذة مرحاض غرفة الممثّلين كي لا يراه زُملاؤه، الذين كانوا في جولة بإسبانيا، ولا رجال البوليس السياسي، الذين كانوا يحرسونهم، كثير من الوقت منتظرا، وهو يُصدر تصريحات في مكاتب بوليسية ومُقدِّمًا أوراقا، ومُقيما في مأوى الصليب الأحمر، أو في نُزُل وضيعة، بخوفٍ مستمرّ من أنْ يُطْرَد، أو الأدهى من ذلك، أنْ يُرَحّل، أي كلمةٍ فظيعة، قال لي، دون مال، في أرض لا أحد، بين الحياة التي كان قد فرَّ منها والتي لم يصلْ إلى أن يبدأها بعدُ، مُجرَّدًا من الأمْنِ والامتيازات استمتع بها باعتباره عازف بيانو مشهور في بلده، غير مطمئن بصدد الآمال التي سيُقْدم عليها هنا، في مسيرة جديدة، بما أنه مجهول.

التعبير المُبْهر لمن دافع زمنا طويلا عن حلم، وأفلح في أن يُحقّقه، كان يتضاد في وجهه وفي نظرته وفي حضوره العام، مع علامات كآبة واستسلام تدريجي أمام مصائب الواقع، الذي جلب معه تحقيق الحلم. لقد كان طفلا نابغة في المعهد الموسيقي ببودابست أو صوفيا، وتَشْهد مجموعتُه من القُصاصات والبرامج على سيرة متميِّزة، في قاعات العزف بشرق أوروبا، لكنّه الآن يُضيِّع صباحات

برُمّتها في غرفة الانتظار بإدارتي، منتظرا القرار بصدد عقْد يضمن له، في أقصى حدّ، عرضين أو ثلاثة عروض في مراكز ثقافية بالضواحي، في قاعات عروض تجهيزاتُها السّمعية سيّئة، وآلات البيانو فيها وضيعة وسيئة الصنع.

لم يسمح لنفسه بخمود الهمة، كان يدخل إلى إدارتي، وأنا أقول له إنّ مدير الأعمال لن يحضر، أو إن إجراءات التعاقد معه لم تبدأ بعد، فكان يبتسم لي بوَهَن، ويشكُرني ويميل برأسه قليلا قبل الخروج، بمزيج من التأدُّب القديم، الذي لبُلدان وسط أوروبا والصرامة الشيوعية، بغريزة إذعان وجِلَة، التي عند أيٍّ موظّف، والتي ربما لن يفقدَها أبدا. كان رجُلا شابا، نحيلا، هو في الذكرى الآن جِدُّ واهن، أستحضرُه شبيها "برومان بولانسكي": بالتأكيد أنه لم يكنْ شابا، لكنه كان يُحافظ، مثل بولانسكي في الصُّورِ، على مسحةِ شبابية لا تتبدّل، نوع من الحيوية الهاربة في النظرة وفي الحركات، هي في مسافة معيَّنة تمسح علامات التّقدُّم في العمر، التي هي الآن جِدّ مميَّزة في الملامح.

كان يُعطي دروسا خصوصية، ويبحث عن حفلات موسيقية، ويقْبَل بها في أي مكان، قابضا من المال قليلا، مقدارا يكون أحيانا زهيدا، حتى إنه حين كان يُجري حساباته كان يقول لنفسه واحدة من تلك العبارات الإسبانية السارية، التي كانت تروقه كثيرا، لكنّه كان يقول أيضا من قنع شبع، وطائر في اليد خير من مائة في السماء،

في ضميره تسري الإسبانية المتعلَّمة بعشق في عاصمة ذات تراكمات هرمة، وشتاء طويل جدا، وليالٍ تحلُّ قبل الأوان، كان يتكلَّم على انفراد بسعادة حميمة دالة على إفلات وتمرُّد، بوعْي يُفيدُ أنَّه بدراسة تلك اللغة كان يستبق صفةً ضرورية وملموسة في الحلم الذي كان يغذي حياته، مثلما كان يفعل حين تعلُّمِ العزْف على البيانو المقاطعَ الأصعب من متوالية إيبيريا "لألبينثْ"، أو المرتجَلة الإسبانية "لرافائيل". والآن، ولو أنه كان يرى أن ثمار أحلامه قد تحقَّقتْ، فإنها كانت جِدَّ بائسة، لأنه في إسبانيا لم تكن لتفيد في شيء استحقاقات مسيرته القديمة كعازف بارع، وكان عليه أن يُقدِّم عروضا، وفي المرَّات النادرة التي حصل فيها على عقد، في أمكنة يُرثى لها، على الرغم من أنه كان يُرى في هندامه المحتشم والرَّث أنه كان يعيش تحت الإرهاق الثابت للحاجة، مع ذلك لم يسمحِ لذاته بالاستسلام إلى اليأس، وواصل إظهار حماسه مشكورا لكلِّ الأشياء في وطنه الجديد، سعادةً حين تُرى من خارج تبدو مَرَضيَّة نوعا ما، كالتي لدى عاشق نعرف عنه أن حبيبته تزدريه أو تسيء معاملته، ورغم ذلك يواصل الاحتفاظ تجاهها بولاء لا محدود، خارِج نِسَبِ العطايا الشحيحة التي يتلقَّاها.

نسيتُ أشياء كثيرة من ذلك الزمان المنصرم، لقد رغبْت في محوها من ذاكرتي، كي لا تُعذِّبَني بتأنيب الضمير والخجل، وبالاستياء من ذاتي نفسها. لكنني الآن أتذكَّر شيئا كان قد حكاه لي ذلك الرَّجُل، عازف البيانو البلغاري أو الروماني، لست أتذكَّر إنْ كان

الأمر في إدارتي أو في إحدى حانات الأزقة التي كنا نفطر فيها نحن الموظفين ذوي الرتب المنخفضة، ربما ذات مرَّة، حين أصرَّ على دعوتي لشرب قهوة أو قدح جعة، كي يحتفل في تواضع بحصوله أخيرا على عقد إقامة كونشيرتو، أو لأنه حصَّل على نقوده بعد أيام أو أسابيع من التأخيرات الإدارية الملتوية.

كان عائدا إلى إسبانيا من باريس، في قطار ليلي، وصل صباحا إلى النقطة الحدودية إيرون. كانت المرَّة الأولى التي يُسافر فيها بوثائقه الإسبانية الجديدة. كان قد ساهم في مهرجان خيري لفنانين من بلده في المهجر. لم يستطع النوم طيلة الليل بسبب مقعد الدرجة الثانية المُزعج، وزاده سوءا قلَّة أدب المسافرين ومُراقبي التذاكر الفرنسيين، الذين كانوا في كل محطة تقريبا يُجبرونه على النهوض، لأن تذكرته كانت من الصنف الرخيص، ولم يكن له حق في أن يحجز. لكنه كان متوترًا على الخصوص، لأنها كانت المرة الأولى التي كان سيدخل فيها إلى إسبانيا بوثائقه الجديدة، جواز السفر وبطاقة الهوية اللتين سُلِّمتا له قبل ذلك بمدة وجيزة. في المقطورة المعتمة، بين مسافرين يشخرون، كان يتحسَّس جيوب السترة والمعطف، باحثا مرَّة ومرَّة أخرى عن تذكرته، وجوازه، وبطاقة هويته، وكان يتهيَّأ له في كل مرَّة أنه قد ضيَّعهما، أو أن لديه وثيقة واحدة وأن الأخرى ضاعت منه، وحين كان يعثر عليهما كان يعيد حفظهما في مكان يبدو له آمَنَ داخل بطانة أو في جيب إغلاقه مُسنن

داخل كيسِ سفره، لكن هذا المخبأ الجديد كان غير مجرَّب، حتى إنه كان سينساه لو استسلم لحظة للنوم. كان يفتح عينيه مفزوعا، ويبحث عن أوراقه، والآن يكون متأكدا من أنه قد ضيَّعها، أو أن واحدا من أولئك اللصوص الذين يحومون حول القطارات الليلية قد سرقها منه. كان يتذكَّر ساعات القلق والخوف عند المراكز الحدودية للبلدان الشيوعية، المراجعة البطيئة للأوراق، وعلامات الحذر حين كان يوشك على عبور نقطة حدودية، وبدا أنَّ خللا بيروقراطيا في وثيقة ما كان سيتركه مُحاصَرا. قرَّر ألا يعود إلى النوم، وأنْ يُحافظ على الأوراق جميعها مجموعة في جيب واحد، وألا يعود إلى تحريكها، ولا حتى إلى لمسها. كان يُحاول أن يتأكد من الساعة في هدي الضوء البنفسجي الباهت المشتعل في سقف المقطورة، وكان عند الوصول إلى مواقف يُركِّز النَّظر في أسماء المحطات، مُحاولا أن يحسب كم من الوقت يتبقى على الوصول إلى "إيرُون"، يكاد ينفد صبره توقا إلى الوصول وكذلك خائفا، أكثر توترا كلما رفع القطار سرعته عند اقترابه من الحدود. كما حدث مرَّات عديدة في حياته، كان لديه الإحساس بأنه لا يتقاسم الحياة العادية للأشخاص الذين يحيطون به، المسافرين الإسبان أو الفرنسيين، الذين كانوا ينامون في هدوء داخل المقصورة، آمنين إلى نظام الأشياء القائمة في العالم في اكتمال، بخلافه هو الذي كان له دائما نزوعٌ إلى الإحساس بأنه دخيلٌ، وألا يُقدِّم أيَّ شيء على أنه مضمون، وأن يخشى دائما أنْ يطرأ اللامتوقَّع.

هزمه تَعَب الليل ساهِرًا، فغطَّ في نوم عميــق حــين توقَّــف القطار على ضجيج كوابح هائلٍ. فتح عينيه في البداية، وكان لا يزال محاصَرا بروابط نوم سيء، تصوَّر أن القطار وصل إلى حدود بلــده القديم، وأن الحُرّاس ذوي الأزياء الرَّمادية سيُوقِفونه حين سيرون أنه لا يحمل معه وثائق هويَّته المناسبة، الجواز القديم الذي أبرزه لي هو الآخر، وبقايا من الماضي الأسود، الدليل المادي علــى أنــه كــان موجودا.

نزل من القطار وهو يضغط بقوة شديدة في يــد علــى كــيس سفره، وفي الأخرى جوازه الإسباني. وقبل ذلك كان قد تأكد أنــه قــد حمل معه في الجيبين بمتناول يده كل وثائق إجراءات التجنــيس، فــي حال اقتضاء إبرازها. وقف في الصف، وفي الناحية الإسبانية بنقطــة الحدود، أمام المكتب الذي به عنصران من الحرس المــدني بــوجهين دالَّين على الملل أو النَّوم. سيادتك لن تُصدِّق ذلك، لأنك طيلة حياتك لم تُحسّ خوفا عند نقطة حدودية، لكن بالنسبة إليَّ، فــإنَّ رِجلَــيَّ كانتــا ترتجفان، وحين كنتُ سأقول لهما صباح الخير لا حظْــتُ أنَّ ريقِــيَ جَفَّ. حينئذ، لمَّا اقتربْتُ من المكتب بِفَمٍ جافَ وكفَّــين كلهــم عــرق، وبإحساس مُتنام بوَهنِ الرِّجلين، حدَثَ ما لايــزال يتــذكَّره بانــدهاش وشُكْر، هو أنَّه لم يتوقف مُسافر آخرَ لملاحظتَه. كان ينظر إلــى أحــد الشُّرطيين حين اقتربَ منه، وتهيَّأ له أن الشرطيَّ أعاد إليه نظرةَ اشتباهٍ أو ارتياب. لكنه تسلَّح بالشَّجاعة، كما في تلك المرَّةَ التي قفز فيها مــن

نافذة المرحاض، وقدَّم بأقصى حركة طبيعية ممكنـــة جــوازَ الـــسَّفرِ، مفتوحا بعنايةٍ على الصفحة التي كانت بها صورته، مُـستعدًّا لتقـديم تفسيرات حول التنافر بين جنسيته واسمه، كي يُقدِّم بـسرعة الوثـائقَ الضروريةَ. لكن الشرطي، دون حتى أن ينظر إلى الجـواز، ودون أن يُمعِنَ النظر في وجهه، أشار إليه بحركة استعجال بيده، قال له أنْ يَمُرَّ بنبرةٍ إسبانية فظَّة نوعا ما، وتلك الحركة من اليد والكلمتين الخـشنتين اللتين قالهما له الشرطي بدتا له الترحيبَ الأجمل، الذي لمْ يحْـظَ بـه أبدا، العلامة الأكيدة على انتمائه المدني. كـان يُقلِّـد أمـامي حركـةَ الشرطي بيده النحيفة والبيضاءَ، يدِ الموسـيقي، كـان لايـزال مُمتنًّـا ومفتونا بالهديَّةَ التي لم يعرف تقديرَها أيُّ واحدٍ من بـاقي مُـسافري القطار، مُردِّدًا كلماتِ الشرطيّ فيما يُشبه تعويذة، هيَّا، مُرَّ، تبًّـا، مـع الضغط كثيرا على التَّاء التي يُكلِّفه تقليدُها، والتي كان ينطقهـا بعنايـة وكبرياء، شأنَ كلِّ واحدة من الكلمات التي هي الآن لم تكُـن كلمـات الكُتُب وأحلام الخيال، وإنما كلمات حياته العمليَّة واليومية.

كانتْ وجوه أُناس مجهولين تظهر وتختفي، في قاعة الانتظار، أو في الناحية الأخرى من مكتب إدارتي، وأنا تعوَّدْتُ النظـر إليهـا بقليل من الاهتمام، مثلما كنتُ أستمع إلى كلماتهم، طلَباتٌ أو إلحـاح في طلب أشياء لم يكنْ طوْعَ يدي منحُها، ولم تكن تهمُّني في شـيء، وإنْ كنت قدْ تعلَّمتُ أن أقوم بحركة كأني أُصـغي بعنايـة كبيـرة، وباحترافية، مُسجِّلا ملاحظات أحيانا، أو متظـاهرا بـذلك، راسِـمًا

بهلوانات أو علامات في الصفحة البيضاء التي كانت قُبالتي، داخل ملفٍ، بينما كُنتُ أخبر بالإجراءات الضرورية، وأبتكر تفسيرات لا تُشير إلى شخص مُعيَّنٍ بصدد التأخُر في أداءِ قريب الوصول، دون أدنى شكٍّ، ولو أن تدخلي لا يُمكنه أنْ يُسرّعَه، بيْدَ أنَّ كلمةً في وقتِها تَصدُرُ عن مدير الأعمال يُمكنُها أن تفعل أثَرًا خيريًا، في حال تَمكنه من إيلاءِ اهتمام أكثر بالمسألة، هو المشغول جدا في مهمات ذات شأن أكبر ومسؤولية. كنْتُ دائما أنتظر، لائذا بين قوسي فضائي وزمني كأني في جُحْر، لكنَّ ما كنت أنتظره ما بعْد الرّسالة المقبلة كان غامضا جدا بالنسبة إليَّ، كان ضبابا من الكسل والترددات التي لم أَهتَمَّ بتبديدها. واصلْتُ المكوثَ ثابتا، في انتظاري غير المستقر، مُتكوِّما داخل ذاتي في المكان الأكثر تحصينا، في سكينة كتلك التي لِمَنْ سمعَ مُنبِّه الساعة، ويَعرِفُ أنَّ عليه أن ينهض، لكنَّه يمنح ذاته دقائق، دقيقة واحدة قبل أن يفتح عينيه ويقفز من السرير. لم أكن أعرف إنْ كنت أنتظر عودةَ التي كانت تكتب إليَّ الرّسائل، لأنها طالما كانتْ تعيش في تلك الناحية من البحر، وفي المدينة نفسها، فإني لم أهتَمَّ كثيرا، أو ليس لوقت كثير على الأقل. أبدا، لم أحسَّها بعيدةً جدًّا عني، ومنيعةً جِدًّا، كما في المرات القليلة التي احتضنتُها بين ذراعيَ. كانتْ تهرب مني حين كنتُ أبحث عنها، لكن لو كنتُ أهجُرُ البحثَ خامِدَ الهِمَّة كانتَ هي التي تدنو مني، بوَعد مصون دائما، ماحيَةً من روحي الاستياء وعدم الاطمئنان، جاعلَةً إيّايَ راغبا فيها مرَّةَ أخرى، لِدَرجة أني كنْتَ أمضي طامِعا فيها، ومُنصرِفا

ناحيَتها كانجذابي نحو مغناطيس، وفي اللحظة التي كنت بالكاد أحاديها كنتُ أجذها تفلت مني مجدّدا، بوجودها الآن بعيدة جدا أُحسُها أقرَبَ مني، في البُعْد وفي الرسائل، وفي جهل يُشبه المُطلَق بالحياة التي هي تَحياها.

في الواقع، لم تكن هي أكثر حسيَّة من نساء السينما التي بالأبيض والأسود، اللواتي يُخضِعْنَني حتى إنهن كُنَّ يوقظن فيَّ نوعا من الحُبّ الحزين. اللائحة الكاملة والمؤقتة، "لورين باكال"، و"إنغريد برغمان"، و"جوني تيرني"، و"أفا غاردنير"، و"ريتا هَيْورث". في فيلم جِيلْدا، الذي شاهدته مرَّات كثيرة، تهربُ رِيتَا هَايْوُورث من "غلين فورد" ومن بوينوس آيْرِيس، وفي مَرْقص بمُونتفيديو، مُرتديَةً فستانا أبيضَ، تُغني وترقص على إيقاع أغنية عنوانها حَبيبي.

Amado mío

Love me forever

And let forever

Begin tonight

في الفيلم ليست مونتفيديو سوى اسم، ليست ولا حتى ديكور أو أحد تلك المشاهد البانورامية التي يتكلّم أمامها الممثلُون، أو يتظاهرون بأنهم يسوقون سيارة. المرأة التي ظهَرت ذات صباح في قاعة الانتظار بإدارتي، بطفل بين الذراعيْن، وبحقيبة يد مملوءة

بدمي، كانت قد فرَّت من مونتفيديو إلى بوينوس آيريس سنة ١٩٧٤، وبعد أربع سنوات في بوينوس آيريس جاءت إلى مدريد، حُبلى، وإنْ كانت لا تزال لم تعرف ذلك، تنتظر ابنًا من رجُل حملوه ذات ليلـــة، عسكر أو بوليسٍ بزَيٍّ مدَنيّ، وما عادتْ تعرف عنه شيئًا. وبينما كنّا نتحدَّث، كان الطفل يلعب بالدُمى الخشبية وهو يجلس على أرضـــية مكتبي، وأمه تراقبُه خلسة، بعدم اطمئنان لا يَخْمد ولو لحظة، أفناهـــا الارتباك والإلحاح السري، امرأة عمرُها ثلاثون سنة ونيِّف بعينـــين سوداوين وشعر أسود، الشعر ذو استواء ولمعان شـــبيه بالحـــصان، العينان كبيرتان، وُضِعَ تحتهما خضاب يُبرزُهما جيِّدا، فيه نسبة مـــن المبالغة الإيطالية، وكذلك في الأنف وفي الفم، اليدان قويَّتـــان، شـــبه ذكورية، ماهرتان في إدارة الأشياء، حيث أخرجت بـــشكل مفـــاجئ وبحركة سريعة شيئا من كيس، وشرعت في تحريكها أمامي، بعْدَ أن شغَّلَتْ آلةَ التسجيل، التي كانتْ تحملُها هي الأخرى معها في متاعهـــا المتجوِّل. فوقَ المعدن الرمادي لمكتبي واختلاط أوراقي كانـــت ذات الرداء الأحمر تتوغل داخل غابة، منجزة قفزات على إيقاع موســـيقي آلة التسجيل، بينما الذئب يترصدُها خلف كتلة من الملفات، وصـــوت ريُو دي لابلاتا يحكي القصة ويتَّخذ أصواتا أخرى، صـــوت البنـــت الحاد، صوت الذئب الفظ الغامض، صوت الجَدَّة المتهـــدِّج المؤنِّـــب. وقف الصبيُّ على قدَميه، واقترب من المكتب المسحور، كان المكتب يصل إلى مستوى عينيْه، كان مسحورا ومفزوعا، كأنه يخشى من أن يكون الذئب يترصَّدُه، دون أن ينظر ولو لحظة إلى يدي أُمّه، ولا إلى الخيوط التي تعلَق بها الدُمى.

لمْ يمتدَّ العرضُ أكثر من دقيقتَــين، أو ثــلاث، حــين بلغــت الموسيقى نهايتها، وتوقف الشريط، أنجزَت الدُّمى حركة إجلال كُبرى في تَوافق تام، وبقيَت ساقطة واهنةً فوق أوراق مكتبي، لكنّ الـصبيَّ واصل النظر إليها بعينيه المندهشتين، منتظرا أن تعود إليها الحيــاة. ها قد رأيتَ، قالت المرأة، يمكن أن أُقيم كوخي الخشبي في أيِّ مكان، حفظَت الدُّمى وآلة التسجيل في الكيس، ومباشرة عاد الـصبي إلــى إخراج الدُّمى واحدة واحدة، فاحصا إيَّاها ببطء، كأنه يرغَب في التأكد من سرِّ حيويَّتها الخامدة، منذهلاً بها وبذاته، حتى إنه لم ينظــر إلــيَّ ولا إلى أُمِّه، ولا نظر ولو مرَّةً واحدة حوليْه، وإلى المكتب البــائس الذي كان يوجد فيه، مكتب غير مريح، ربما يشبه حجرةَ النزل الذي يعيش فيها الاثنان فيه منذ وصولهما إلى المدينة، مع إحساس بالضيق لعدم معرفة حتى أي وقتٍ يمكنهما أن يدفعا ثمنــه، قالــت المــرأة، مستعجلةً إيَّاي في توتر أن أُعِدَّ لها جولةَ عروض عبــر المــدارس الابتدائية، وعبر أقسام الحضانات بالإعداديات العمومية.

جَلبَت هي الأخرى ملفَّهــا، بــسطت نــسخها وقُــصاصاتها وشواهدَها، من بلاد أخرى، هي لا تصلح لها هنا في شيء، دبلومات دروس في مدارس الفنّ المسرحي بمونتفيديو وبوينوس آيْرِس، التــي لم تصلح لها كي تعثر على عمل وإن كان غــسل الأرضــيات. أنــا حكيْت لها الأسطوانةَ المعتادةَ حول الطَّلبات، والإجــراءات، ومــدة الانتظار، وهي كانت تُحدِّق في بتعبير وجهٍ لا يُصدِّق، ويكاد يسْخَر، تعكس ذلك عيناها السوداوان، المُخطَّطَتان بالخضاب، كأنها تعلِمنــي

أنها لا تُصدِّق ما كنتُ أحكيه، وأنه لا يهمُّها، وأني حتى أنا نفسي لا أُصدِّقه. لكنْ كان لديها استعجال، كي تلتحق بموعد آخر، في مكتب آخر شبيه بمكتبي في المجلس الإقليمي، تركت لي المِلَفَّ فوق المكتب، وكتبت على الصفحة الأولى رقم هاتف النزل، الكئيب حيث أقمْتُ فيه ذات مرَّة، أيَّامَ دراستي كطالب. هي كانت مثلي تعرف أنه لم يكن لديَّ أيةَ حاجة لكي تترُكَ لي رقم هاتفها، وأن عليها أن تعود دونٍ جدوى مرَّات كثيرة، لكننا نحن الاثنيْن كنَّا نعرف أنه لم يكن من حلٍ آخر، وأنه كان عليها أن تواظب، وتنتظر، وإنْ أحسَّت أنَّ كرامتها قد أُهينتْ كلَّ يوم تهاتفني فيه، كي تعرف إن كنْتُ أعلَم شيئا، إن كان من قرار قدِ اتخذ، في كل مرة تدفع فيها مجدَّدا بابَ إدارتي وتجلس في ظُليل غرفة الانتظار، دائما حاملةً الصبي في يدها أو بين ذراعيْها، لأنها لم تكن تستطيع تركَهُ وحيدا في النزل، ولأنه لم يكن لديها من أحدٍ تعهد به إليه، الصبي الذي لم يُمكنه أن يعرف أباه أبدا، ولا حتى أن يعرف متى مات وكيف كان موته.

الآن، سيكون قد صار رجُلا شابا، عُمُره أكثر من عشرين سنة: سيرى الصورة التي أطلعَتْني أمُّه عليها، ذات صباح من صباحات انتظارها بالإدارة، وجه رجُل بمسحة فتى، بمنظار ذا إطار سميك، وشَعر كثيف مجعَّد على طريقة سنوات السبعينيات، والعذارين طويلين، شبَحُ شخص له سنه تقريبا، ومع ذلك فهو أبوه، وهو ليس من الوجهة المدنية حيا ولا ميِّتا، وليس مدفونا في أيٍّ مكان، وليس مُقيَّدا في أي سِجلّ مدني للوفيات، وإنما هو ضائع،

مُختفٍ، يموت دائما، دون أن يعرف الرَّاحةَ مَنْ واصلوا الحياة بعده، محافظين على ذكراه، كي يعرفوا متى مات، وأين دُفن، إذا لم يكن قد أُلقيَ به في بحر ريُو دى لابلاتا من هيلوكوبتر، بعينين مغمضتين بضمادتين يدين مُقيَّدتين، أو أنه مات مبقور البطن بسكين، كي تنتبه أسماك القرش مباشرة إلى جثته.

أجهشت المرأة بُكاءً، والطِّفل الذي كان يلعب على الأرضية، تائها في تخيُّلاته، بدا فجأة أنه استيقظ، والتفت نحوها، نظر إليها بجد، كأنه قد تمكَّن من فهم ما حكتْهُ أمُّه بصوت خفيض. طلبت مني منديلا ورقيا، وحين رفعت عينيها، رايتُ خيطا من الخضاب يُلطِّخ وجنتَها. ستَمُرُّ الحالة، قالت معتذِرةً، وهي تبعد عن وجهها شَعرها المستوي الأسود. قدَّمتُ لها ولَّاعةً، فابتسمت لي عيناها السوداوان الكبيرتان المملوآتان دُموعا، لكن هذه المرة لم تكن ابتسامتها من باب التَّأدُّب المعتاد، أو التملّق لمركزي الإداري، وإنما كانت موجَّهةً إليَّ، إلى من أصغى إليها باهتمام، وسأل عن التفاصيل، إلى من قدَّم الضيافةِ المؤقَّتة بالإدارة، الوقت الطويل والمطمئن لأجل البوح. تصورتُ بشيء من الدناءة الذكورية أنها كانت امرأة مُشتهاة، وأنه لربما أمكنني الحصول على فرصة لمُضاجعتها.

أجل، أتذكَّر اسمَها. لقد قالته لي في اليوم الأول، حين طلبْتُ منها معلوماتِها كي أُعبِّئ إحدى بطاقاتي المفصَّلة غير المفيدة، والتي تسمح بتصنُّع ما يُشبه بداية تنظيم واتِّزان، كنتُ أملؤها بعناية، وأرتبها أبجديًا، كل واحدة منها في درج من الأرشيف المعدني، الذي

كانت فيه لصيقَة صغيرة من ورق مُقوًى ذي ألوان مختلفة، حسب الملف الذي يناسبها، مسرح أو موسيقى كلاسيكية أو الرُوك، أو فلامنكو، أو فنانون مختلفون، المجموعة التي كنت أُدرِج ضمنها مترجِم غارثيا لوركا إلى لغة الغجر.

ربما لفت الاسم انتباهي كثيرا، لأنه لا يتوافق مع مسحتها الإيطالية، مع شعرِها وعيْنيها السوداوين كثيرا. أدريانا، قالت، أدْريانا سليغمان. . أحيانا عند سماع المرْءِ لاسْمٍ، اسمِ امرأةٍ أو اسم مدينة، أنْ يُدرِكَ في مقاطعه تردُّدات حكاية كأنها مُشفَّرة فيه، مفتاح رسالة سريَّة، وجود برمَّته مجموعا في كلمة. كلّ واحد يحمل معه روايتَه، ربما لا تكون قصة حياته برمَّتها، وإنما حلقة تبلورت فيها إلى الأبد، وتتلخَص في اسم، ويمكن لذلك الاسم ألاَّ يَعلَم به أحدٌ، وألا يكون جائزا قَولُه بصوتٍ عال. روسيبْود، ميلينا، نارْفا، غنوند. عشْتَ أكثر من أيِّ وقتَ حينئذ، أتغذى على كلمات وأعشقَ أسماء، أسماء نساء كُنَّ عصيَّات عليَّ، لأني لم أجرُؤ على الاقتراب منهن، أو لأنهن لمْ يوجَدن، أو لأنهن ولو كان لهنَّ وجود حقيقي، فإنَّ ما كنتُ أراه وما كنت أعشقه كان حُلما، يَعْرِضه خيالي ورغبتي، أسماء مُدن كانت أجمل، لأني لم أكن أعرفُها، ولم يكن محتمَلا أن أسافرَ أبدا إليها.

الآن، المرأة البعيدة المشتهاة، الواقفة أمامي، في الناحية الأخرى من المكتب، عادتْ إلى الجلوس، وحكت لي قصة اسمِها. كم مرة رأيتُ شخصا يبدو أن تغييرا فجائيا قد حدَث فيه حين يُقررِّ

حكاية شيء يهمُّه كثيرا، قصة أو رواية حياته، شخص يقوم بخطوة، ويلغي زمَنَ الحاضر الحقيقي، كي يغرقَ في قصة، وبينما يتحـدَّث، وإن كان يفعل ذلك مستعجَلا بالحاجةِ إلى أن يُصغى إليه، ينظر كمـا لو أنه قد بقي وحيدا، وأنَّ محاوره ليس سوى شاشة رنين، ربَّما هي الغشاوة الرقيقة التي تهتز لها كلمات السَّرد. أبدا لا أكون أنا ذاتي إلا حين ألتزم الصمتَ وأُنصت، حين أتـرك جانبـا هـويَّتي المتعَبـة وذاكرتي الخاصة، كي أُركِّز على فعل الإصغاء، وأنا أغدو بِجماعي مسكونا بالتجارب وذكريات أُناسٍ آخرين.

"سِليغمان" كانَ يُدْعى جَدِّي لأبي، "سَوُول سِـليغمان"، قالـت المرأة. كنتُ أعلَمُ منذ طفولتي أنه قد جاء من ألمانيا حـين كـان لا يزال شابا، لكنني لم أسمعه أبَدًا يتحدَّث عن حياته قبل وصـوله إلـى مونتفيديو. أتذكَّر أنني كنتُ أذهبُ ممسِكَة يدَ أبي لزيارته في محلِّـه للخياطة. كان يترك جانبا ما كان يشتغل به، ويُجلِسني على ركبتيـه، وكان يحكي لي حكاياتٍ بصوت كان ذا نبرة غريبة نوعا ما. بلغ سنَّ التقاعد، وذهب ليعيش خارج مونتيفديو، عند الضفة الأخرى للنهـر، كما نقول نحن. كان قد اشترى بيتا في منطقة تيغري، كـي يكـون وحيدا حقيقة، مثلما يروقه، حسب ما كان أبي يقول، وأعتقد بنوع من الاستياء. منذئذ لم أعد إلى رؤيته تقريبا، وحين بلغتُ الثانية عـشرة انفصل والداي عن بعضهما، فأرسلاني طيلة فترة زمنية عند جَـدّي، في بيت "تِيغري". كان بيتا خشبيًّا في جزيـرة صـغيرة، بـداربزين

مصبوغ بالأبيض، وبرصيف رُكوب، كان بيتا مُحاطا بالأشجار. بعد الشهور الأخيرة التي أمضيتُها مع أبوَيَّ، كانت تلك العزلة في بيت جدّي الفردوس. قرأتُ كُتبَ مكتبتِه، وكنتُ أستمع إلى أسطواناته لِفنّي الأوبرا والتّانغو. وإذا ما سألتُه عن شيء بألمانيا كان يقول لي إنه قد رحل عن هناك وهو شابٌّ صغير، وأنَّه نسيَ كلَّ شيء، حتى اللغة، لكني اكتشفْتُ أنَّ ذلك ليس صحيحا، وإنْ كان هو لم يعرفْه. ذاتَ ليلة من لياليَ الأولى التي نمْتُ فيها في البيتِ أيقظني صُراخٌ. خِفْتُ أن يكون لصوص قد دخلوا البيْتَ. لكنّي تشجَّعْتُ ونهضْتُ فعبرْتُ المَمَرَّ إلى غرفة نوم جدّي. كان هو مَنْ كان يصرُخ ويتحاوَرُ مع شخص، ويتناقش، وكان يبدو أنه يتوسّل، لكني لم أفهم شيئا، لأنه كان يتكلّمُ بالألمانية. كان يُصدر صراخا لم أسمعْه من أحد: بدا أنه كان يُنادي على شخص، وأنه يقول اسْما بقوّة شديدة، حتى إن صوته انتهى به إلى إيقاظه. كنْتُ سأختبئ، لكني انتبهْتُ إلى أنه لا يراني في هذي ضوء المَمَرّ، وإنْ كانت عيناهُ مفتوحتين. كان يلهث وكان يعرق. في اليوم اللاحق سألتُه إنْ كان قد عَرَفَ كوابيس، لكنَّه قال لي إنه لا يتذكّر شيئا. في كل ليلة كانتْ تتردّدُ الأصوات نفسُها، الصراخ بالألمانية في البيت الصامت، الاسم الذي كان يُردِّده، والذي لم أصِلْ إلى فهمه بوضوح، لستُ أدري إنْ كان يقول غريتا أو خيرْدا. حين ماتَ جَدّي عثَرْنا تحت سريره على حقيبة صغيرة مليئة بالرسائل بالألمانية وعلى صُوَر امرأة شابة. غريتي كان هو التوقيع الموجود

في كل الرسائل، التي توقّفت عن الوصول سنة ١٩٤٠. حين كنــت صغيرةً لم يكن اسمي العائلي يُعجبُني، لكنني أحمله الآن كأنه هديَّــة تركها هو لي، مثل تلك الرَّسائل التي كان سيروقني لو أني أقرؤهـــا، والتي لا أفهمُها. لقدْ حملْتُها معي حين رحلْت عن بوينوس آيــريس، وكذلك صُوَر غربتي. كنتُ دائما أقول لنفسي لو أني أعْطيها لشخص يعرِفُ الألمانية كي يُترجِمَها لي، لكني كنْتُ أُرْجئ ذلك إلـــى وقــت لاحق. إنَّ انشغالاتِ ما تملأُ دائما حياة الإنسان، وتجعل عَمَــلا مــا يسبِق آخر، وفجأةً يحْدُثُ ذات يوم أن نجِدَ كلَّ شيء قد انتهى، وأنْ لا يكونَ لديْكَ شيءٌ مما اعتقدْتَ أنه ملكٌ لك، لا زوجُك، ولا بيتُك، ولا أوراقُك، لا شيءَ سوى الخوف والذُّعر، والتمزُّقَ الــذي لا يتوقَّــف أبدا. أين آلَتِ الرَّسائل، ماذا فعل بها أولئك الذين هاجَموا بيتي. على الأقلِّ أنا كان لديَّ شيءٌ لم يُمكِنْهم أن ينتزعوه منِّــي، وإن كنــتُ لا أعرِفُهُ حين فَرَرتُ، لم أكنْ أعرفُ أنني حامل.

سفاراد

أتذكَّرُ بَيْتًا يهوديًا في حي بمدينتي حيث مسقط رأسي اسمه «القصر»، لأنه يشْغَل الفضاءَ الذي لايزال حتى الآن مُسوَّرا، حيث كان قصرُ القرون الوسطى، القلعة المُحصَّنَة التي كانت مِلْكَ المسلمين أوَّلا، ومنذ القرن الثالث عشر آلَت إلى المسيحيين، منذ ١٢٣٤ كي نكون دقيقين، حينما استولى الملك فرناندو الثالث لكاستيا، الذي كان يُدْعى القديس في كتبي المدرسية، على المدينة التي ما لبثت أن استُرِدَّتْ. وحتى نحفَظَ التاريخ عن ظهر قلب، كان يُقال لنا كأطفال أن نتذكَّر الأرقامَ الأربعة الأولى متتابعة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعةَ، وكُنَّا نردِّد الأغنيةَ كجوقة، كما لو كانت جدْولا من جداول الضَّرب، فرناندو الثالث القديس استرد مدينتنا من الموريسكيين في أربعة وثلاثين ومائتيْن وألف.

في المكان المرتفع للقصر، الذي ربما لا يمكن الوصول إليه من سفوح الجنوب والشرق، كان أوَّلا المسجد الكبير، وبعد ذلك على قاعدته نفسِها، كانت كنيسة سانتا ماريًا، التي لا تزال موجودة، وإنْ كان قد مرَّت على إغلاقِها سنواتٌ عديدة بسبب أعمال ترميم التي لن

تنتهي أبدا. يوجد بها رِواقٌ قُوطِيٌّ، الشيء الوحيد القديمُ حقًّا والنَّفيسُ في البناية، الذي تمَّ ترميمُه دون احتراسٍ مــرارا، وخــصوصا فــي القرن التاسع عشر، حين أُضيفَتْ إليه، حوالي عــام ١٨٨٠، واجهــة غامضة وعادية، وبُرْجا جرسينِ لا أهميةَ لهما. لكنَّ طنين أجراســه كان يمكنني تمييزَه من أيِّ طنين آخر يُمكِنُ أنْ يُسْمعَ في المدينة عند حلول المساء، لأنها كانت أجراس جمعيتنا الدينيــة، وكنــتُ كــذلك أعرفُها حينَ كانتْ تُقرَعُ إعلانا عن وفاة، أو إعلان عن صلاة علــى موتى، وكنْتُ أعرفها أيامَ الآحاد، في منتصفَ النهارِ والمساء، القرع الغزير الذي كان يُعلِنُ الصَّلاةَ الكبرى بــأجراسٍ أخــرى، تُــشبِهُها تقريبا، من الضواحي القريبة، كانَ لها رنين أجْهَر، يصدُر عن نحاس مهيب، إنها أجراس كنيسة السالبادور، أو أسمع رنينٌ أحَدُّ وأصْــفى، وحينئذ تكونُ دقَّاتِ نواقيس دير الراهبات، التي كانــت فــي بــرج صغير، كأنه برج قلعة، جِدُّ داكن مثل لون البناية بكاملهــا، بأبوابهــا الموصَدة دائما، وأسوارِها العاليةِ من الحجارة القاتمة بسبب الفطريات والطِّحالب، لأنه كان ينعكس دائما عليها ظلُّ الــشمال البــارد. بــين الحين والحين كان تلك الأبواب السوداء ذات المسامير الكبيرة تنفتح، فتظهر راهبتان، دائما اثنتان، شاحبتان جدا وكأنهما قــد وفَــدتا مــن الآخرة، بزيهما البني، والخرقة البيضاء أسفل خماريهمــا، بَــشرتهما كانت أكثرُ بياضا من ثوبهما، وكانتا تُثيرانِ فِيَّ كثيرا من الخــوف، حتى إني كنتُ أخشى أن تكونا قد جاءتا لاعتقالي، فكنْتُ أضغط بقوة

على يد أُمي، التي كانت قد ارتدت خمارًا أسودَ فوق رأسها، كي تذهبَ إلى الكنيسة.

أتذكّر البلاط الكبير غير المتساوي في رواق سانتا ماريًا، بعضها كانت شواهد قبور بأسماء موتى قُدامى، نحتت في حجارة، ومُحيَت بفعل تعاقُبِ القرون وخطوات الناس، وأتذكّر حديقة كانت أقواسُها عُقودا قوطيَّة تنفتح، كانتْ بها شجرة غارٍ باسقة، لا يقوى طفل على الإيتاء بأعلَى الشجرة إذا حاول النظر إلى أعلى. كان بالحديقة دائما بسبب ظلِّ شجرةَ الغارِ العملاقة والمليئة بسراسخ وأدغال، بما في ذلك فصل الصيف، رائحةُ أعشاب نفّاذة وتراب نديّ، وكانت الطيورُ تعيش في كثافة الشجرة، وتطنُّ بضجيج الصفير الطويل للسونونوات والخطاطيف، في أمسيات الصيف الطويلة. من بعيد جدا كان يُميِّزُ الفيْضَ الكبير والقاتم لشجرةِ الغار، كأنّه حَمَّة نباتٍ ترتفع أعلى من نواقيس الكنيسة وسقوف الحيّ، والتي كانت تتأرجح في الأمسيات العاصفة. حين كنتُ طفلا صغيرا جدا كنتُ أدخل إلى رواق سانتا ماريا مُمْسِكًا بيد أُمّي، كُنْتُ أُصاب بالدّوار لو أطللتُ على الحديقةَ كي أرى الغار، وكنتُ دائما أحِسُّ بالبرد النّديّ للتُّراب والحَجَر، وكانت جَلَبةُ الطيور تُصمِّني، حين كانت تحلّق عاليا، فجأةً، عندما كانت النواقيسُ تُقرَع.

كنت متأكِّدا أن الغارَ يصل إلى السماء كَباقةِ الفاصوليا السّحريَّة في تلك القصة التي كانت النساء في بيتي تحكينها لي، والتي قرأتُها

لابني الكبير لسنوات كثيرة بعد ذلك، الذي كان يتلهَّف على الحكايات حين كان يذهب إلى السرير، منذ أن بلغ عامين أو ثلاثة، يكاد ينفد صبْره حين أُعلِنُ بأنَّ الحكاية ستنتهي، ويطلُبُ مني أن تستمرَ أكثر، أنْ أقرأها له، أو أحكيَ له أخرى، والأفضل أن أبتكر له واحدةً حسبَ ذوقه، مُعطيًا الشخصياتِ سمات الخلق والقوى السحرية، تلك التي تروقه، مانحًا لها أسماءً يكونُ ضروريا أن يوافق عليها. وأنا أقرأ الحكاية بجانب رأس سرير ابني، أجِدُهُ يتخيَّلُ بطلَه الصغير يرتقي إلى السماء، ويظهر في الناحية الأخرى للسحاب، عَبْر أغصان شجرة الغار العجيبة بسانتا ماريا، مثلما تخيَّلتُها أنا حين كُنْتُ طفلا والقصَّةُ تُحكى لي. لو نظرْت بإمعان إلى أعلى، وإن لم تكن الرِّيحُ تهبُّ، تتأرجح الغار خفيفا، يكون أكثر شغلا للبال، لأنه بالكاد يُدرك. حين تُحرِّك الغارَ ريحٌ قويَّة تغدو لضجيجِ أوراقه قوَّةٌ، كتلك التي كانت لحركة رجوع أمواج البحر، التي لم أسمعْها أبدا، اللهمَّ في الأفلام، أو حين كانتْ صَدَفَةٌ تُقرَّب إلى أُذُني، ويُقال لي كذلك إنَّ صدى للبحرِ الذي كانت فيه قدْ جلبته معها ولايزال يتردَّد فيها.

أتذكَّرُ أني كنتُ أذهب إلى كنيسة سانتا ماريًا كلَّ مساء، في الصيف الذي كان عمري فيه اثنتي عشرة سنة، لكي أُصلِّي بعض السلام الملائكي لعذراء غوادالوبي ولِيَّةِ المدينةَ، التي كنتُ أطلب منها أن تتوسَّط لي كي أنجح في امتحان الرياضة البدنية في سبتمبر، لأني كنت قد رسَبْتُ في امتحانات يونيو بطريقة مذلّة، ولو أنها لم تكن

غير مُبَرَّرَة. لم أكنْ ماهرا في أيِّ رياضة، ولم أكن قادرا على تَسلُّق حبْل، أو أن أقفز علىَ حصان، أو حتى أن أُنجِزَ شقلبة. شرع شعور بالإقصاء يكبر فيَّ، وغدا أحَدَّ مرارة مع خسران يقينيَّات الطفولة المريحة، وكَدَرِ الانتقال الأوَّل إلى المراهقة ومخاوفها. كنتَ أُحسُّني دائما خَجِلا وبمعزل عنِ الآخرين، وجهي كان ممتلئا ببثور أكثر من اللازم، الزَّغبُ يُظلِمُ الشَّفةَ العليا التي لا تزال شفَةَ طفل، وينمو في الأماكن الأغرب من جسدي، تأنيبٌ الضمير الحادُّ والسرِّي بسبب الاستمناء، الذي حسبَ تعاليم القساوسة الخرقاء لم يكن إثما فقط، وإنما بداية سلسلة من الأمراض الفظيعة أيضا. كم كان غريبَا أن أكون ذلك الطفل المتَفرِّد، البدين الأبله الذي كان في كل مساء من الصيف، حين كانت الحرارة تستسلم، يذهب إلى حي القصر، ويدخل إلى الأروقة الباردة بسانتا ماريًا، كي يُصلِّي للعذراء، واطئًا شواهدَ قبور موتى مدفونين منذ خمسة قرون أو ستة، وَرِعًا وخجِلا في غمقه، لأنه تعلَّمَ أن يستمني في ذلك الصيف، وينظر دائما خلسة إلى صدور النساء وسيقانهن العارية، الصدر الأبيض، الحَلَمة الضخمة والشرايين الزرقاء القاتمة الدقيقة لغجريَّة حافية، تُرضِعُ ابنَها جالسة عند باب كوخ فقراء عند نهاية الحيِّ، بجانب أنقاض السُّور أحيانا، في الساحة الكبيرة التي كانتْ أمام الكنيسة، من بعيد كنتُ أرى الضَّالِّين الأربعة أو الخمسة من قسمي، جالسينَ على كرسيٍّ حجريّ، يُدخنون ويدخلون إلى الحانات، الذين لو مررتُ أمامهم، وإن تظاهرتُ بعدم رؤيتهم، كانوا سيسخرون مني، مثلما سخروا مني في

قاعة الرياضة، وفي ساحة المدرسة أمامَ جُبْني الجسدي، وأكثر من ذلك، لو انتبهوا إلى أيْنَ كنتُ أمضي، المجتهد البدين الذي نجَح في كثير من الموادّ، ومع ذلك فقد كان غير قادرٍ على أن ينجح في الرياضة البدنية، الذي يُصلي للعذراء الآن كلٍّ مساء، واقتربَ أكثر من مرَّة للاعتراف، ويبقى بعد ذلك للصلاة وتناول القربان، مع الإحساس بوخز الضمير والقلق لعدم تَجَرُّئه على الاعتراف بكل شيء، وأنْ يقول للقسّ، لوْ قَدَّم أسئلَةً بمجموعةِ صِيَغٍ، وأنه قد رسم في الظُّليل علامة الصليب، وفي الوقت نفسه يهمس بالتوبة والتبرئة، وأن هنالك إثما آخر زيادة، لا يُمكن حتى تسميتُه، سوى ببعض التهوين البعيد، لقد اقترف فعْلا دَنِسًا. في وقت جِدٍّ مبكر، كان المذهب الكاثوليكي يُعوِّدُنا على العزلة، التي يتنازَعُها المرءُ في ذاته، فتغدو مكابدات الذنوب: فعلٌ دَنسٌ كانَ إثما قاتلا، وإذا لم يتمَّ الاعتراف به لا يُمكنُ التَّخلُّص منه، وإذا ما اقترب المرءُ لتناوُل القربان قصد التخلُّص من إثم قاتل، فإنه يرتكب إثما آخر، أفْدَحَ شأنًا من الأوّل، الذي سيُضاف إلى ذنوبه ضمن عار الضميرِ السِّريّ.

في كنيسة سانتا ماريا تزوَّجْتُ أوَّل مرَّة، حين كان عمري ستة وعشرين عاما، وربما بسبب دُوار الاحتفال والأعصاب، وبسبب دُوار البشر، لم أتمكّن تلك المرَّةَ من التحديق في شجرة الغار الهائلة بالرِّواق، وإن كنت الآن يُهاجمُني الارتياب المُحذِّر من أنّه لربَّما تمَّ تشذيبُها، لا شيءَ غريب في مدينة تدمن كثيرا معالجة الأشجار. الرَّجُل الشاب، ذو الشارب والشَّعر المقصوص بسكين، وذو الحلة

الأزرقَ الفاتح، وبربطة عنقٍ رمادية بلون الجوهر، يبدو لي أبْعَد من الطفل ذي الأربعة عشر عاما، الوَرِعِ والخجِلِ في سِرّه، لقد ارتقى بمؤهِّلاته، على طول ذلك الزمن، كان يُلاحظ أنها ملكه في بداية المراهقة، تَعوَّد التظاهر بأنه قد كان وقام بما كان يُنتَظر منه، وفي الوقتَ نفسه يُظهر ذاتَه في صمت، بالمكر العَبثي لإخفاءِ ما كان يتخيَّله هويَّتَه الحقيقيَّة، وأن يُغذِّيَها بكُتُب وأحلام، وجُرعةَ متدرِّجة من الحقد، بينما كان يُقدِّم ظاهريًّا موقفَ موافقَةٍ وديع، هكذا كُنتَ أحيا في منفى ثابت، في بُعْدٍ يكاد لا يُخفَّف أبَدًا، ومع ذلك، فقد كان جدَّ خاطئ كمنظورِ حقلٍ مفتوح مرسوم في سور، كشفافيات السينما التي يقود فيها مُمَثِّل سيَّارةً مكشوفة بسرعة فائقة، على حافة جرف، دونَ أنْ يضطرب شَعرُه، ودون أن تتوالى على زجاج السيارة الأمامي ظلالُ الأشجار وتفرّ.

يقع حي القصر خلف كنيسة سانتا ماريًا، مُطوَّقًا جنوبا وغربا بالطريق الذي طوَّق السُّور المتهدِّم والبساتين، فيه أزِقَّة ضيِّقة مرصوفة بالحجارة، وساحات صغيرة، يُمكنُ أن يوجد فيها بيتٌ كبير بقوس من حجارة هائل، وشَجَرتا تُوت أو وثلاث، أو أشجارُ حور. أقدم بيوتُ الحيِّ تعود إلى القرن الخامس عشر. إنها مجيَّرةٌ باستثناء أعلى الأبواب، التي تُبرز المسحة الصفراء للحجر الرملي الذي نُحتت منه، وهو الحجر نفسُه الذي في القصور والكنائس. اللون الأبيض الذي للجير والذهبي والأشقر الذي للحجارة في انسجام رفيع

له أبهة عصر النهضة المضيئة، والجمال الصارم الذي للهندسة الشعبية. نوافذ عالية وضيّقة بشبابيك متراصة، ولها ستائر معدنية وأسوار كبيرة مطوّقة بأسيجة بساتين ترجع إلى الذاكرة حفظ البيت الإسلامي الموروث سليما داخل أديرة العزلة. هنالك بيوت كبيرة بنوافذ صغيرة ضيّقة كأنها مزاغل، كنّا نحن الأطفال نختفي فيها أحيانا، ذات حلقات كبيرة في واجهاتها، حلقات من الحديد الثقيل جدا حتى إننا كنّا لا نملك القوة كي نرفعها، والتي كان يُقال لنا إنّ الأسياد القدامى كانوا يربطون فيها خيولهم. في تلك البيوت الكبيرة كان يسكن النبلاء الذين كانوا يحكمون المدينة والذين أثناء تمرّدهم الإقطاعي ضد سلطة الملوك كانوا يشعرون بقوتهم خلف أسوار القصر. وفي حمى تلك الأسوار ذاتها كان يوجد حيُّ اليهود: كان النبلاء في حاجة إلى مال اليهود، وبراعتهم الإدارية، ومهارتهم في الصناعات، بحيث إنهم كانت من مصلحتهم حمايتهم ضدّ الثورات الدوريّة للعامّة الورعين والعنيفين، المهيَّجين من قِبَل خطباءَ متشدِّدين، بخرافات عن تدنيس المقدّسات والشعائر الدمويّة التي كان يُحييها اليهود كي ينالوا من سمعة الديانة المسيحية. كانوا يسرقون قرابينَ مخصَّصة للكنائس، ويبصقون عليها، ويدوسونها، ويَنشبون فيها مسامير، ويذُكّونها بكلّابات كي يُعيدوا فيها العذاب الذي ألحقوه بالجسد الدنيوي للمسيح. كانوا يعتقلون أطفالا مسيحيين ويذبحونهم في سراديب بيَعهم، ويشربون دماءهم، أو يلطّخون بها طَحين خبز الذبيحة الأبيض المقدّس.

شخصٌ ما حدَّثني عن ذلك البيت اليهودي، وقُمتُ أنا بجولات عبر حيِّ القصر إلى أنْ تمكَّنتُ من العثورِ عليه. وجدته موجود في زقاق ضيِّق، كأنّه متقوقع داخله، وأنا أتذكَّرُه ماهولا، فيه أصوات بشر وضجيج تلفاز يأتي إلى الشارع عبر النوافذ المفتوحة، التي كانت توجد بها أُصص أزهار إبرة الراعي. للبيت بابٌ منخفض، وفي طرَفي الحجر الكبير للعتبة العُليا منحوتتان نجمتان لداود، مُدْرَجتان داخلَ دائرة، لم تتلفا بفعل مرور الزمن حتى لا يُمكن معها تبيُّن الرسم بدقَّة. بيتٌ صغير، ومع ذلك فهو متين، يقتضي أن يكون مِلْكَ عائلة ليست ثريَّة، وإنما لعائلة كاتب محكمة، أو لتاجر صغير، أو لمُعلِّم في مدرسة حاخامية، إلى عائلة كانت تعيش، في السنوات السابقة على الطَّرد، مُوزَّعةً بين الخوف والإصرار على عيش حياة عادية، متخيِّلةً أنَّ المبالغاتِ المهدِّدةَ من قِبَل التَّشدُّد المسيحي سيخمُد، مثلما حدث في مرات كثيرة سابقة، وأنه في تلك المدينة الصغيرة، ووراء حمايةِ أسوار القصر لن تتكرَّر المجازر الفظيعة لسنوات خلَتْ في قرطبة، أو مجازر نهايةِ القرن المنصرِم. يوجد البيت في الزقاق، وله ما يدُلّ على نوع من الارتيِاب والتَّخفي، مثل تصرُّف شخص لا يريد أن يلفت الانتباه، فينكس رأسه ويرفع كتفيه، ويحاول المشي قريبا من الجدار. ماذا كُنتَ ستفعل أنتَ لو علِمتَ أنه بين يوم وآخر يُمكن أن تُطرَد، إنه يكفي توقيعٌ وختمٍ من شمعٍ أحمر بجانب ظهير كي تتحطَّم حياتك برُمَّتها، كي تفقد كلَّ شيء، بيتَكَ ممتلكاتِكَ، حياتَك العادية، وأنْ تجدَك مَرْميًا بالطرقات، مُعرَّضا للخجل، مُجبَرا

على التجرُّد من كل ما اعتقدْتَ أنَّه ملْكُكَ، وأنْ تستهلَّ سفَرا في سفينة لا تَعرف إلى أيْن ستمضي بكَ، إلى بلدٍ ستكون فيه مُعلَّمًا ومرفوضـا أيضا، أو ولا حتى ذاك، إلى غرَق في البحر، البحر المخيف الذي لم نَرَه أبدا. نَجْمتا داودَ هما الدليل الوحيد الـذي يـشهد علـى وجـود مجموعة بشرية آهلة، كالآثار الأحفورية بورقة رهيفة انتمـت إلـى شسوع غابةٍ مَحَتها كارثة منذ ملايـين الـسنين. لـم يـستطيعوا أن يُصدِّقوا أنه حقيقة سيُطرَدون، وأنَّ عليهم فـي غـضون أشـهُر أنْ يُغادروا الأرضَ التي وُلِدوا فيها، والتي قـد عـاش فيهـا أجـدادُهم القدماء، شوارعَ المدينة التي تخيَّلوها مدينتَهم، والتي ما عادوا فجـأةً يستقبلون منها سوى علامات الحقد. من سيُصدِّق أن بيتَه الذي صـيغَ فيه شَكْلُ حياته، سيُخطَفُ منه في أجل أيـام معـدودات، وأن أناسـا مجهولين سيأتون لاحتلاله، ولن يعْرِف شيئا عمَّن سيكونُ فيه، أولئك الذين يعتقدون أنه ملْكُهم. كان للبيتِ بابٌ بمسامير صدئة مقْرَعة مـن حديد، وبعض التزيينات القوطية في زوايا العتبة العليا. ربما يكـون المفتاح الذي يناسب العينَ الكُبرى للقفل قد حمله معهم المطـرودون، وأنَّهم قد أورثوه من الأب لأبنائه مع تعاقب أجيال المنفـى، كاللغـة والأسماء الإسبانية الرَّنانة، وقصائد الرومانثى، وأغاني الأطفال التي حملها معهم يهود سَالونيكَ وروداسَ أثناءَ سفرهم الجهنمـي صـوبَ "أوسْتيتش". منْ بيتٍ شبيه بهذا سترْحَلُ عنه إلى الأبد عائلةُ "بـاروخ إسبينوزا" أو "بريمو ليبي". كُنتُ أمضي عَبْـرَ الأزقَّـة المرصـوفة حجارةً في الحيِّ اليهودي في "أُبِذَّة"، مُتخيِّلا الصَّمتَ الذي يقتضي أن

يكون قد غمرها في الأيام اللاحقة للطَّرد، مثل من بقِيَ في شوارع حي سالونيك السفاردي حين أخلاهُ الألمان سنة ١٩٤١، حيث لن تعاد تسمع أصواتِ البنات اللواتي كُنَّ يلعبْنَ لعبة قفز الحبل، مغنّيات قصائد الرُّومانثى كتلك التي أدركتُ سماعها في طفولتي، قصائدَ رومانثى لنساء يتقنّعْن في هيئة رِجالٍ، كي يُقاتلن في حروب ضدّ المورِوس، أو في هيئة مَلِكاتٍ ساحرات. الوُعَّاظ الفرانثيسكيُّون والدومينيكيُّون يخطبون في الحشد الأمِّيّ انطلاقا من منابر الكنائس، النواقيس تضرب قرعاتِ النصر، بينما المنفيُّون يُغادرون حي القصر، في ربيع ١٤٩٢ وصيفه، الذي كان تاريخا آخر تعلّمْناه عن ظهر قلب في المدرسة، لأنه كان دلالة على أكبر نصر في تاريخ إسبانيا، كما كان المعلم يقول لنا، حين استُرِدَّتْ غرناطةُ واكتُشِفت أمريكا، وحين بدأ وطننا المُوَحَّد مؤخرا يغدو إمبراطوريَّةَ. من إسَابيلَ وفِرْنانْدُو تَسُودُ الرُّوح، كنا نغني ونحن نَدُكُّ بخطوات عسكرية الكلماتِ المُفخَّمة في النشيد، نموتَ مُقبّلينَ الرَّايةَ المقدَّسة. مأثرة للملكين الكاثوليكيَيْن جدّ مهمة، مثل الانتصار على الموريسكيين في غرناطة، قرار جدُّ حكيم مثل الدَّعم لكولومبوس، كان قرار طرد اليهود، الذين كانت لهم في صُوَرِ موسوعتنا المدرسية أنوف نسريَّةٌ وشعر ذقن حاد، والذين يُلحقُ بهم الغَدْرُ الغامض الذي وُصف به آخرون هم ألد أعداء إسبانيا، لا نعرف عنهم شيئا سوى أسمائهم المفزِعة، الماسونيِّين، الشيوعيِّين. حين كُنَّا نتعارك مع أطفال آخرين في الشارع، وكان أحدُهم يبصق علينا كُنَّا نصرخ فيه دائما: يهودي،

الذي بصقْتَ على الرَّب. وفي مواكب عرش الأسبوع المقدَّس كانت للسَّايَانورِينَ والفريسيين الملامح الغليظة ذاتها مثل اليهود في الموسوعة المدرسية. في العشاء الأخير، كان يهوذا يُفزعنا كثيرا نحن الأطفالَ مثل دراكولا في السينما، بأنفه المعقوفة ولحيته الشائكة، ووجه الضارب إلى الخضرة خيانةً وطمعا، الذي يلتفت به كي يَرَى خلسةً الكيسَ ذا الثلاثين عُملَةً.

في فندق إكسلسيور بروما، سنوات كثيرة بعد ذلك، وبعد حيوات مختلفة أيضا، تعرَّفْتُ على الكاتب الرُّوماني السفاردي "إميل رُومان"، الذي كان يتكلم الإيطالية والفرنسية بطلاقة، لكنّه كان يتكلّم أيضا إسبانية غريبة مُتكلِّفة، تعلَّمَها في طفولته، يبدو أنها تلك التي كان يتكلَّمُها سنة ١٤٩٢ سكان ذلك البيت في حي القصر. لكنّنا نحنُ لا نُسمِّي أنفُسَنا سفارديين، قال لي، نحن كنا إسبانا. في بوخارست، سنة ١٩٤٤، مكَّنَه جوازُ سفر أعطَتْه إيَّاه، بمنتهى السرعة، السفارةُ الإسبانية من أنْ يُنقذ حياته. وبجواز السفرِ نفسه، الذي حرَّره من النازيين، أفْلَت لاحقا من الديكتاتورية الشيوعيةَ، ولم يعد بعدَها إلى رومانيا، حتى بعد وفاة "شاوسيسكو". الآن يكتب بالفرنسية ويعيش في باريس، وبما أنه كان متقاعدا، فقد كان يقضي الأمسيات في مقرّ جمعية أَخَوِيَّةَ لسفارديين قُدامى تُدعى حياة مديدة. كان رجُلا طويلا جدا، ذا صحة جيدة وحركاتَ وقورة، له بَشرَةَ زيتونية اللون، ويَدَين كبيرتين. في حانة فندق إكسلسيور كان شخص يرتَدِي رباط عنق

حفلات أحمر وحلة سموكين فضّية يعزف أشهر المعزوفات العالمية، على أُرغن إلكتروني. يجلس أمامي، بجانب النافذة الواسعة المطلّة على شارع "فيًا فينيتو"، كان إميل رومان يشرب رشفات صغيرة من فنجان إكسبريسو صغير، ويتحدَّث بانفعال عن أشكال الحَيف المرتَكَبة منذ خمسة قرون خلَت، التي لمْ تُنْسَ أبدا، ولم تُصحَّحْ، ولا حتّى خُفِّفَت بفعل مرور الزمن وانتقال الأجيال، ذَكَر ظهيرَ الطّرد غير قابل للاستئناف، الممتلَكات والبيوتَ المَبيعَةَ على عجل كي يتِمَّ تنفيذ أجَل الشهرين اللذين مُنِحا للمَطرودين، شهرين كي يُغادروا وطنا عاش فيه أجدادُهم طيلةَ أكثر من ألف سنة، تقريبا منذ بداية الشّتات الآخَر، قال إميل رومان، البِيَعُ مهجورة، المكتباتُ مشتّتة، الدكاكين فارغة والمصانع مُقفَلَة، مئة ألف شخص أو مئتان أُجبِروا على الرَّحيل عن وطن بالكاد عددُ سُكّانه يصل إلى ثمانية ملايين. الذين لم يرحلوا، الذين فضلوا اعتناق المسيحية بسبب الخوف أو لأجل المنفعة، وأنجزوا حسابا أنه بقَبولِهم التّعميدَ فإنهم سيُقْبَلون، هم أيضا لم يُفِدْهم ذلك في شيء، لأنه إذا لم تَكُنِ الآن ملاحقَتُهم ممكنةَ بسبب الدين الذي أنكروه علَنا، فإنهم الآن يُدانون بسبب دَمهم، ليسوا هم وحدَهم، وإنما أبناؤهم أيضا وأحفادهم، بحيث إن الذين مكثوا انتهوا غرباء جدا مثل الذين ذهبوا، بل أفظع منهم أيضا، لأنهم لم يكونوا يُحتَقرون ممَّن يُفتَرَض فيهم أن يكونوا إخوتهم في الدين الجديد فقط، وإنما أيضا من قِبَل أولئك الذين استمرُّوا أوفياء للدِّين الذي كانوا هم

قد تخلَّوا عنه. إنَّ الآثِم الأكثر خزيا يُمكنه أن يؤنِّب ضميرَه، وإذا تَابَ فإنه يتحررَّ من الاثم، والهرطقيُّ يُمكنه أن يُعلن عن أخطائه، والخطيئة الأصليةَ يُمكن أن تُفتَدى بفضل تضحية المسيح: لكن بالنسبة إلى اليهودي، فإنه لا وجود لافتداء ممكن، لأن تهتمه كانت تسكُنَ داخلَه، وهي مستقلَّةَ عن أفعاله، وتغدو ارتيابا أكدَر إذا كان مظهره دالا على سلوك مثالي. لكن بهذا الخصوص، لم تكن إسبانيا استثناء، لم تكن أفظع من بلدان أخرى في أوروبا، ولا أكثر تشدُّدا، ضدَّ ما اعتاد الناسُ أن يتصورَّوه. إذا كانت إسبانيا قد تميَّزتْ بشيء، فإنه ليس طرد اليهود، وإنما أن تطردهم في وقت متأخَر، لأنهم في القرن الرابع عشر كانوا قد طُرِدوا من إنجلترا وفرنسا، ولا تعتقد أنه قد تمَّ باحترام، وفي ١٤٩٢ لمَّا بحث كثيرٌ ممَّن غادروا إسبانيا عن ملجأ في البرتغال، وجدوه مقابل عملة ذهبيَّةَ عن كل شخص، وتم طردهم بعد ستةَ أشهر، والذين اعتنقوا المسيحية منهم، كي لا يكون عليهم أن يُرَحَّلوا، لم يحصلوا على حياة أفضل من المرتَدِّين في إسبانيا، وهم كذلك نالوا نعتَ ماراَّنوس المُشين. لكنَّ ماراَّنوس وُجِدوا بعد تعميد أجيال منهم خاضعةِ للكاثوليكية، هاجروا إلى هولاندا، وحين وصلوا إلى هنالك عادوا إلى اعتناق اليهودية، كعائلة باروخ إسبينوزا، مثلا، الذي كان له ذكاء عقلاني بما فيه الكفاية، وكان حُرًّا لا يخضع لأي عقيدة، وقد تمَّ طرْدُه رسميًّا من مجتمع اليهود، هو المنحدر من سلالة يهود طُرِدوا من إسبانيا.

أن يكون المرءُ يهوديا هو أمرٌ لا يُغتفر، والتخلّي عن اليهودية أمرٌ مستحيل، قال إميل رومان بنبرته الغامضة البطيئة والكئيبة، الذي اسمُهُ الحقيقي هو السيِّد "صمويل بيخر إي مايور". أنا لستُ يهوديًّا بسبب إيمان أسلافي، فأبَواي لم يُمارسا الشعائر اليهودية أبدا، وأنا حين كنت شابا لم تكن لتُهمَّني كثيرا مثل سيادتك اعتقاداتُ أجدادك بمعجزاتِ القدّيسين. إنَّ الشيء الذي صيَّرني يهوديًّا هو نزعةُ معاداة السامية. خلال مدَّة من الزمن أيضا، كان يُمكن أن تصيرَ اليهودية مرَضا سريًّا، لا تُقصي المرءَ من المجتمع، لأنها لم تكن تُفصحُ عن ذاتها بعلامات خارجية، ببُقع أو بُثور يُمكن أن تُدينه، كما كان يحدُثُ مع مجذوم في القرون الوسطى. لكن ذات يوم، سنة ١٩٤١، وجدتُني مُجبَرا على أن أخيطَ نجمةَ داود صفراءَ في ثنيَّةَ صدر معطفي، ومنذ ذلكَ الحينِ لم يعُدْ بالإمكان إخفاءُ المرض، وإذا تناسيْتُ أنا للحظة أنني كنتُ يهوديا وأنه لا يمكنني أن أكونَ شيئا أكثر من يهودي، فإن نظرات مَنْ كانوا يُصادفونني في الطريق، أو في رصيف انتظار الترام (حين كان لا يزال مسموحا لنا بالسفر في الترام)، كانتا تتكفَّل بتذكيري بذلك، أنْ تجعلَني أُحسُّ بمرضي وبغرابتي. بعضُ معارفنا كانوا يشيحون عنا بوجوههم، كي لا يُحيُّونا، أو كي لا يُروْا وهم يتحدَّثون مع يهودي. كان هنالك من يبتعد، مثل الذي يبتعد عن متسوِّل قذرٍ جدا، أو به تشوُّه كريهٌ جدا. أولئك الذين كانوا مواطنيَّ تحوَّلوا إلى غرباء. لكنني أنا الذي كنتُ الغريب. والمدينة التي كنت قد وُلدتُ فيها، وعشتُ فيها دائما، لم تعد الآن لي، وفي أي وقت،

بينما أكون ماشيا في الشارع، كان بوسع أي شخص كان أنْ يسبَّني، أو أن يدفعني إلى قارعة الطريق، لأنه لم يكن من حقي أن أسير على الرصيف، أو إن كان حظي عاثرا بمصادفة جماعة من النازيين، فإني كنتُ عُرضةً لخطر اعتداء، أو إذلال؛ وكان علي بأنْ أشرع في العدو كي لا يلحقوا بي، كطفل أبله يتسلَّى الأقوياء بتعذيبه، وكذلك وقحاءُ الشارع.

هل قرأتَ سيادتك شيء "لجان أميري"؟ يلزَمُك أنَ تفعلَ ذلك، إنه جدُّ مُهمّ شأنَ بريمو ليبي، هو أشدُّ تيئيسا فقط. لقد هاجرتْ عائلةُ بْريمو ليفي إلى إيطاليا عام ١٤٩٢. الاثنان معا كانا في أوشفيتز، على الرغم من أنهما هناك لم يتمكّنا من الالتقاء. لم يكنْ ليبي يتبنى يأسَ أميري، ولا كان يُمكن أن يقبلَ انتحارَه، أو على الأقلّ ذاكَ كان تقرير الشرطة. أميري لم يكن في الحقيقة يُدْعى أميري، ولا جان. لقد وُلدَ في النمسا، وكان يُسمَّى "هانز مايور". حتى الثلاثين من عمره عاش معتقدا أنه نمساوي، وأنَّ لغتَه وثقافته كانتا ألمانيتَيْن، بما في ذلك أنه كان يروقه أن يتباهى بانتمائه إلى النمسا، وكان يرتدي كثيرا اللباس الفلكلوري المؤلَّف من سروال قصير وجوربيْن طويليْن. فجأةً، ذات يوم، في نوفمبر ١٩٣٥، وهو جالس في مقهى في فيينا، مثلما نحن جالسان سيادتك وأنا، فتَحَ الصحيفة، وقرأ فيها الإعلان عن القوانين العنصرية لنُورمبرغ، واكتشفَ أنه لم يكن ما اعتقده وتمنّى أن يكونه دائما، وما علّمه أبواه إيّاه من اعتقاد أنه نمساوي. فجأةً ما لم يُفكّر أبدا فيه: يهودي، وإضافةً لم يكن أكثر من ذلك، كلُّ هويّته تُختزَل في ذاك

الشرط الوحيد. لقد دخل إلى المقهى مُسلّما بأن له وطنا وحياة، وحين خرج منها كان شخصا بلا وطن، وفي أقصى حدّ كان ضحيّة محتملة. وجهه كان هو نفسه، لكنه كان قد تحوّل إلى آخر، وإذا ما كان ينظر إلى ذاته وحيدا في المرآة، فإنه لم يُكلّفه شيئا أنْ يبدأ في تمييز علامات التحوُّل، ولو أنه على مستوى مظهره الجسدي لا أحد كان يمكنه أنْ يتثبّت من أصله، علامات الندوب. دفعَ ثمن قهوته للنادل، الذي يراه صباح، وينحني أمامه قليلا حين ينال بقشيشا، لكنه الآن يعرف أنه جدّ محتمَل أن ينظرَ إليه النادل باحتقار، كالذي يُعامل به متَسوّل غير ملائم، لو انتهى إلى علمه أنه كان يهوديا. فرَّ إلى الغرب، إلى بلجيكا، حين كان الوقت مازال يسمح بذلك سنة ١٩٣٨، لكن في تلك الحقبة كانت حدود أوروبا تتحوّل، من يوم إلى آخر، إلى أدوات تعذيب وأسلاك شائكة، والذي كان قدفرَّ إلى بلد آخر كان يستيقظ، ذات صباح، على سماع مكبّرات الصوت تصرُخ بصُياح الجلادين، الذين اعتقد أنه خلفهم وراءَه في وطنه. في سنة ١٩٤٣، أوقفَهُ جهاز الجستابو في بروكسيل. لقد أخضعوه طيلةَ أسابيع إلى تعذيب مروع، وبعد ذلك بقليل، بعثوا به إلى أوشفيتز. بعد التحرير، تنكّر لاسمه الألماني وللغة الألمانية، التي اعتقدها لغتَه، وقرَّر أنْ يدعى جان وليس هانز، وأميري وليس مايور، وألا يطأ أبدا أرض النمسا ولا ألمانيا. اقرأ الكتاب الذي ألّفه عن جحيم المعتقل. بعد الانتهاء منه لن أستطعْ قراءةَ أيَّ شيء، ولا أن أكتب شيئا. يقول إنه في اللحظة التي يشرع المرء فيها يتعذّب، ينكسرُ فيها إلى الأبد عقْدُه مع الناس الآخرين،

وحتى لو يفلت، ويمكث حُرًا، ويواصل العيش سنوات كثيرة، فإنه التعذيب لا يتوقف أبدا، ولا يعود قادرا على النظر في عيني أحد، ولا أن يثق في أحد، ولا يتوقف عن السؤال، أمام شخص يجهلهُ؛ هل هو جلّادٌ، أو هل كان جلادا، أو إنْ كان سيُكلّفه كثيرا أنْ يَغدُوَه، وإذا ما التقتْهُ جارةٌ عجوز مهذّبة، وقالتْ له صباح الخير عند التقائها به في السلم، فإنه يتصوّر أن تلك العجوز المهذّبة هي نفسها يمكن أن تكون قد أبلغتْ الجستابو عن جارها اليهودي، أو أن تنظر إلى الناحية الأخرى، حين يعدو إلى أسفل السلالم، أو أن تصيح يحيا هتلر إلى أن تَبُحَّ، عند مرور الجنود الألمان.

لقد دُعِيتُ إلى ألمانيا مرّةً منذ أعوام قليلة، كي أُلقي عرضا في مدينة جميلة جدا، كأنها مدينة حكاية، بشوارع مرصوفة حجارةً، وبيوت ذات سقوف قوطية، بحدائق، بكثير من الناس يتجوّلون على درّاجات، "غوتنغن"، حيث عاش الأخوان "غريم". أتذكّر ضجيجا لعجلات الدراجات حين تنساب على البلاط الندي عند المساء مثل الحرير، وأتذكّر رنين أجراسها. كان اليوم مشمسا، وأنا كنتُ منذ الصباح أتنقّل من مكان لآخر، دائما مع أُناس جدّ خدومين وحنونين، كانوا يتكفّلون بتحقيق الرضى الآني لأيّة رغبة كُنتُ أُفصِحُ عنها، بمهارة يمكن أن تكون مزعجة. إذا ما قلتُ إنّ لديّ رغبةً في زيارة متحف، فإنهم كانوا يبدؤون ينادون عبر الهاتف، وفي وقت وجيز يكون بين يديَّ مطبوع إخباري، وتوقيت الزيارات، ووسائل النقل الممكنة. أصطحبوني صباحا لكي ألقي محاضرة في الجامعة، ثم بعد

ذلك حرصوا على أنْ يعرضوا عليَّ أماكن مختلفة للطعام، إنْ كُنْــتُ أفضِّل أكْلا إيطاليا، أو صينيًّا، أو نباتيًّا، وحين قُلْتُ مُصادفةً نوعا ما إنه يلذ لي أكْلٌ إيطاليٌّ، تحمَّسوا كي يُحدِّدوا لي ما سيكون الأفــضل من بين أُكلات عديدة ممكنة. وفي المساء، على الرَّغم من كلِّ النعاس الذي يجلبه الأكل، والتعب المتراكم أثناء السفر، فقد ذهبوا بــي إلــى مكتبة لحفلة توقيع. كُنْتُ أقرأ فصلا من كتــابي، وبعــد ذلــك كــان المترجم يقرؤه بالألمانية. وبمُجرَّد شروعي في القراءة، كانت همَّتــي تخمد حين أُفكِّر في كل الصفحات التي مازالت باقية أمامي، وكــان يُسئِمُني ويجرحني ما كُنْتُ أنا نفسي قد كتبته. كنتُ أرفع عيني عــن الكتاب، كي أبلع ريقي أو لآخذ نفسي، فأرى أمامي وجوه الجمهــور الحادَّة المنتبهة، الذي كان يُصغي إليَّ بانضباط دون أن يفهــم ولــو كلمة. كان يُخجلني ما كُنْتُ قد كتبته، كُنْتُ أُحسُّني مُذنبا بالملل الــذي يلزم أن يكون أولئك الناس يُحسُّونه، ولكي أُقلِّص الوقتَ السيئ، كنتُ أقرأ بأقصى سرعة، وكنتُ أقفز على فقرات برُمَّتها. كانــت عينــاي تغمضان حين كان المترجمُ يقرأ بالألمانية، وأنا أحاول أن أحافظ عليَّ منتبها يقظا، كأني كُنْتُ أفهم شيئا. وكُنْتُ أبحث في الوجوه الآن عــن شيء أقلّ حياةً لدى الجمهور الممكن، ردود أفعال محتملة عمَّا كُنــتُ قد كتبتُه في زمن مضى بلغة لا تشبه في شيء اللغــة التــي كــانوا يسمعونها. كنتُ أميِّزُ بعض الابتسامات، بعض حركات تــدُلّ علــى موافقة على شيءٍ كُتِبَ من قِبَلي، وأنا لمْ أكن أعرف ما كان، وأخيرا أحْسستني مُخَفَّفا علي كثيرا حتى إنه لم يهمَّنــي فــي شــيء حــدَّةَ

التصفيق، الرغم من أني ابتسمْتُ ونكست رأسي قليلا، تلك الانحناءة الطفيفة والمُعتادة لدى مَنْ يُداهَن. أيُّ عذاب أنْ يتقبَّل المرءُ تهانئ، وأنْ يَرُدَّ على أسئلة أُناسٍ مُهتمِّين جدًّا حتى إنِّي كُنْت أخجل مِنْ ألاَّ يَهمَّني أيضا اهتمامُهم بما كان عليَّ أنْ أقولَ لهم. كان الأمر مثل المشي على الرَّمل والغرق عند كل خطوة، مثل السباحة على الصدر في الرَّمل، وكان الشيء الوحيد الذي رَغبتُ فيه هو الخروجُ من هناك في أقرب وقت، وألا يكون عليَّ أنْ أكتُبَ إهداءً آخر، ولا أن أُبْدِيَ اهتماما أمام تفسير آخر، وأنْ أراني مُتحررًا من مخدومية المنظِّمين الخانقة، الذين كانوا قد بدأوا في حَبْكِ وتنظيم خطواتي القادمة، ناظرِينَ إلى الساعة وحاسبينَ الوقتَ المتبقي على إغلاق المتحف الذي كانت لديَّ رغبةٌ شديدةَ في زيارته، وكانوا يتناقشون إنْ كان الأسرعُ والأريَحُ لي أن يأخذوني في سيارةَ أجرة أو ترام، وتأكَّدوا إن لازلت أحتفظ بالكتيب الإرشادي، نظر أحدهم في الخريطة ليعرف إذا ما كان قرب المتحف مطعَمٌ إيطالي أم لا حيث يُمكنهم أنْ يذهبوا بي إلى تناول العشاء فيه، طالما أني أفضل الطعام الإيطالي. لقد مكثوا مذهولين، وأنا من جانبي أحسستُ أنني مذنبا حين قُلتُ لهم إني أُفضِّل الذهاب إلى الفندق، وأني قد أتعشى هناك أيَّ شيء، ولو أنَّ أحَدَهم عَرَض عليَّ أنْ يُهاتِفَ الفندقَ كي يقرأوا عليه قائمة الوَجبات، كي يُمكِنني أنْ آخذ قرارا، ولكي يقولوا لهم ساعةَ فتح المطعم وإغلاقه، وفي حالتِي إمكانيةِ الاختيار التي تمنَحُها خدْمَة الغرفة. لا تنزعجوا، قلتُ لهم، كُنتُ تقريبا أتوسَّل إليهم، وأنني

لستُ جائعا، وسيَّان عندي أنْ أشرب جعة وأتناول كـيس بطـاطس مقلية من الثلاجة الصغيرة التي في غرفتي، لكني نَدِمْتُ فـي الحـال على التَّفوُّه بذلك، لأنَّ الشَّكَّ في إمكانية وجود ثلاجـة صـغيرة فـي غرفةَ الفندق قد طرح... لم أستطعْ أن أُصدِّق بأني كنتُ وحيدا حـين تركوني أخيرا، مُوَدِّعينَني عند السلم بمحبَّة لا أستحقُّها بتاتـا، إنهـم لُطفاءُ جدا وأنا ألعَنهم في سريرتي، مُستَبِقاً بألَمِ تقريبا قُرْب اللحظـة التي يمكنني أن أتمدَّد فيها على السرير، دون أن أفعل شيئا، دون أن أتحدَّث مع أحد، دون أن أفتح لي طريقا لأجل الوصول إلـى قائمـة طعام مكتوب بالألمانية فقط، أنْ أتخلَّص من حذائيَّ، وأُثْنِيَ الوسـادةَ، وأبقى ممدَّدا ناظرا إلى السقف، مستمتعا بكل الساعات التي تنتظرُني كي أكون وحدي، وكي أتجوَّل على هواي، حيثما شئتُ ويـدَيَّ فـي جيبي، دون أي قصد مُسبَق، دون أن يكون أحد إلـى جـانبي كـي يُخضِعني إلى مجاملة ساحقة.

غفَوْتُ قليلا، في الراحة الألمانية التي تُوفِّرها الغرفة، الغرفـة الصغيرة برافدات في السَّقف وأرضية خشبية مصقولة، مثـل صـورةَ في حكاية، تلحَّفْتُ بإحدى تلك الألحفة الخفيفة الدافئة التي لا توجد فـي أيِ مكان آخر من العالم، مستندا إلى الوسادة الكبيرة، اللينة، المتضوِّعة خزامى، لكني لم أشأ الاستسلام إلى النوم، لأن الوقت كان باكرا، ولـو أن الظلام كان قد حلَّ، ولأني إذا نمتُ الآن فقد أستيقظ صاحيا تمامـا في الثانية صباحا، وأقضي بقيَّة الليل في أرق مُفـزع بغرفـة فنـدق. نزلت إلى البهو وقد أخذتُ احتياطي متأكدا من أن لا أحد من مُـضيفيَّ

يجوب المكان، وعند الخروج إلى الشارع نظرتُ إلى هذه الناحية وتلك، متذكرًا الجواسيس في روايات "جُونْ لوكارى" التي قرأتُها كثيرا في شبابي، رجال عاديون يرتدون منظارا ومعاطف ويمشون عبر مدن ألمانية صغيرة، يلتفتون بين الفينة والفينة، وينظرون في مرايا السيارات المركونة لكي يتأكّدوا أنْ لا أحدَ من جهاز ستاري يتعقّبُهم. كان الجوُّ مغمورا بضباب بارد، رطوبة برائحة النهر وأعشابٍ مُبلّلة. كلما تقدَّمتَ في المشي كنت أتخلّص من التعب والنعاس، مُلاحظا بداية ذلك الحماس الذي ألِف تشجيعي حين أخرج من الفندق إلى شوارعِ إحدى المدن الأجنبيةَ، ولا يكون أمامي أيّ التزام. أنا كُلّي عيون، لستُ شخصا معروفا، ولا أحدَ يعرفِني، وإذا ما مضيْتَ معَك فإننا نتجوّل متعانقين في خفّة ممتعة تعود بنا إلى الأيام الأولى التي كنّا فيها معا، لأن تلك المدينة التي وصلنا إليها هي جِدُّ جديدة وجدّ واعدة، كما كانتْ مدينتُنا حين كان لها الصّفاء الاستهلالي ذاته مثل حياتنا التي كنّا قد بدأناها مؤخّرا كحبيبين.

أتذكّر أشياء قليلة، جليّة جدا: شارعٌ مُبلّط ببيوت ذات سقوف حادّة عند الطّرَفين، سقوف من أردواز ورافدات من خشب تتقاطع في الواجهات، نوافذ صغيرة بخوخات خشبية موارَبَة، تُرى من خلالها دواخلُ مُضاءة، مملوءة بأثاث خشبي والكُتب. أتذكّر صوت الدراجات الخفيف، واهتزاز العجلات عند الانعطاف في صمت الشارع الذي بلا سيارات، وصوت احتكاك العجلات فوق البلاط النديّ. سمعْتُ خلفي رنّة حادة لجرس، ومُباشرةً تقدّمني راكِب

درّاجة، رجلٌ أو امرأة، ليس شابا بالضرورة، أحيانا تكون سيدة بشَعر أبيض ومنظار وقبَّعة قديمة، أو إداري تنفيذي ذو حلة زرقاء مفتوحة اللون تحت المطَر. رأيْت أبراجا قوطيَّة بساعات مذهَّبة وترامات تتقاطع عند نهايات شارع في صمت تقريبا شبحيّ تقريبا كحال الدَّراجات. لفتتِ انتباهي في زاوية الواجهة الوضَّاءة لمحَل حلويات، كان يصل منه إلى الشارع ضجيجٌ كثيفٌ ومرشح، وإن كان مُلطَفا أيضا، ومملوءا داخل السكون العامّ للمدينة، مناقشات ورنين ملاعق صغيرة وفناجين، ورائحة دافئة لمَشْغل، جدّ صاف، في الهواء البارد جدا، الشوكولاتة والقهوة. لأنه كان بي جوعٌ، وكُنتُ قد صِرْتُ مذهولا خلال التّجوُّل الطويل جدا، فقد تغلَّبْتُ على الخجل الذي منعني مرَّات كثيرة من الدخول وحيدا إلى محلٍ مملوء بالناس، الإحساس بالضآلة الإسبانية الذي كانت تزداد جِدَّته كلما كنت في بلد أجنبي. كان يلزم أن يكون محل حلويات يعود إلى بداية القرن، حُوفِظ عليه سليما، بِجِصٍّ وتزويق مُذَهَّب مثل الفن الباروكي النمساوي-المجري، بمرايا مؤطَّر بخشب الأكاجو، وثريَّات صالونات الرَّقص، بشمعدانات مرمريَّة وأعمدة رقيقة من حديد مطليّ بالأبيض، ببريق أرجواني في تيجانها. كانت هنالك حمَّالات بصحف ألمانية واسعة بحروف جدّ متراصَّة حتى إنها تبدو صحف تعود إلى بداية القرن، أو على الأقلّ إلى حرب ١٩١٤. كانت النادلات يرتدين سُترات بيضاء دون كمَّين ومُقوَّرة وتنورات قديمة، بشعورهن عقصات أو ضفائر مشدودة إلى الصدغين، وكُنَّ شقراوات ووجوهن مُلوَّنة ومستديرة، ويتحرَّكن بسرعة وهنَّ مُحمرَّات الوجوه بين الموائد

المملوءة بَشَرا، رافعات إلى الأعلى بيَدٍ واحدة صينيَّات مُحمَّلات بأباريق وأقداح من خزَف فيها قهوة أو شوكولاتة وقطع كعكات، الكعكات الكثيرة واللذيذة التي تلمع في الواجهات الزجاجية، في تنوّع لم أرَ نظيرا لها من قبْل، ولا من بعد.

يجلس في زاوية، إلى جانب مائدة صغيرة جدا، بينما كنْتُ أنتظر الشايَ وكعكة الجبن بالتوت، التي كنتُ قد طلبْتُها بالإشارة من النادلة، أضعت الوقتَ بالنظر إلى الوجوه التي حولي، مُستمتعا بداخل المحلّ الدافئ، وبسكينة عدم الاكتراث باللغة التي كنْتُ أسمعها، لأني كنتُ أجهلها تماما، هكذا كان بوسعي أنْ أسمح لنفسي بعدم إجهاد نفسي بتتبُّع الحوارات. كان هنالك أُناس راشدون، وكانت النساء بوجه أخص أكثر من الرِّجال، أزواجٌ متقاعدون مترفِّهون أو مجموعات سيِّدات بقُبَّعات ومعاطف، وكانت السمة العامة تدلّ على تلذذ رصين مُتحضّر، رؤوس بحركة توافق وأيادٍ ترْفَع فناجين الشاي بخنصر مبسوط، ضحكات حذرة، نقاشات حيَّة ومُتكتِّمة عليَّ مثل زوج العينين الصافيتين اللتين كانتا تُسجِّلان حضوري بغمزة فضول خفيفة، أو ربما غمزة رفض. ربما كنت، دون أدنى شك، الغريبَ الوحيد في المحلّ برمَّته، وأمكنني أن أرى، في مرآة كانت بمواجهتي فجأة، كأنني أرى المَحلّ من الخارج، كيف ستراني النادلة التي ستجلب إليّ الشاي والكعكة، أو الرَّجُل ذو العينين شديدَتي الزرقة والشَّعَر الأبيض، الذي التفتَ في رشاقة نحوي، وكان يتأمّلني بينما كان يواصل حكاية شيء للسيِّدة ذات القُرطين المذهَّبين، والشعر بلون

أسود فاحم، وبقفّازين أبيضين، التي كانت إلى جانبه، مُلوّنة الوجه بمساحيق، بخضاب على الوجنتين، وبتجاعيد دقيقة لا تحصى في الشَّفَة العُليا وحول الفم شديد الاحمرار. رأيْتَ شَعري شديد الاسوداد، عينيَّ سوداويْن، القميصَ ربطةَ عنق، الذقن السواد الآن باللحية التي كانت تمنحني، دون ريب، مظهر بلغاري أو تركي، وسْترة بذلتي الرَّسمية التي كانت بها انكماشات بعد أيّام من السَّفر والإهمال، والتي كانت تبدو شبيهةَ بالسترات التي كان يظهر بها في صوَر الستينات المهاجرون الإسبان إلى ألمانيا. كنتَ متعَبا جدا، لأن أسفار الالتزام المهني تنهكني، ولأن الأمور المجهولة تصيبني بالدوار، ولأني لا أنام مستريحا في الفنادق، فشرعْتُ أرى الوجوه والأشياء حولي كأنها خلف ضباب خفيف، ولو أنَّ لا أحد كان يُدخن في محل الحلويات، ولم يكن من دُخان سوى المنبعث من الفناجين أو البخار الصادر عمَّن يدخلون قادمين من بَرْد الشارع، باللغرابة! كيف لم أنتبه من قبل إلى أن كل الناس، باستثناء النادلات، يبدون عجائز، إنهم مُسنون ومسنات حافظوا بعناية فائقة على ذواتهم كأنهم ديكورات وقوالب جبس بمحل الحلويات ومتماثلون في الهرم، أسنان اصطناعية، عِصِيٌّ، غمرة شَعر مُستعار، شَعرٌ مستعار أشقر أو مرشوش بمسحوق أبيض، مناظير سميكة، أحذية وجوارب مقوّمة للعظام، قبّعات من نوع "مِيس مارْبِل" وأيادٍ رقيقة الجلد ملتهبة المفاصل ترفع في ارتعاش الكعكة وفناجين من فخار دقيق. أجل، كانت النادلات شابات، بالطبع، بل شابات جدا، رخواتٍ كأنهن مراهقات متورِّدات

ولحيمات، لكنهن كن بصيغة ما قديمات جـدا كالزبـائن وكالمحـل، بتنوراتهن القصيرة، بعقصاتهن وضفائرهن، بستراتهن المطرَّزة التي بلا كمَّيْن ولا عنق، أجساد لا تثير شهوة، بوجوه ذات استدارة طفولية وملل نساء ناضجات. نظرتُ إلى الرَّجل ذي الشَّعر شـديد البيـاض والدقيق كالقطن، وذي العينين الصافيتين، الذي بدا لي قبل ذلك بقليل أنه كان يفحصني باستهجان، وخطر لي أنه سـيكون فـي الـسبعين ونيّف من عمره، ولو أنه كان نحيلا وقويا، كان وجهه أسمر ويـداه سمراوين كأنها أعضاء لفحت جرَّاءَ العراء، وبمسحة شـامخة كأنـه عسكري متقاعد. قدَّرتُ حينئذ أنه في سنة ١٩٤٠ لم تكن لديْه أكثـر من ثلاثين سنة، وبنوعٍ من الوحي الفجائي والاعتباطي تخيَّلته بزيِّـه، العينيان صافيتان مُظللتان بواقية وجه قلنسوة مستديرة. ما الذي فعله ذلك الرجل في ألمانيا سنوات الثلاثينات ولاحقا، خلال الحرب، أيـن أمْكنه أنْ يكون. دون أن أنتبه يقتضي أن أكون قد نظرتُ إليه باهتمام غير متكتّم ومُبالَغ فيه، لأني لمحت فيه حركة جارحة حين تقاطعـت عيناه مع عينيّ. لكن حين أبعدتهما عنه شرعت أنظر إلى الأشخاص الآخرين الذين كانوا في المحل، في ضوء نور الثُّريات الـذي كـان يتوهَّج في القوالب المذهَّبة، ويتضاعف في المرايا، وكنتُ أحـبُّ أن أتخيَّل في وجه كل رجل وامرأة تصرُّفات تعود إلى خمسين سـنة أو ستين قد خلَتْ، بحيث إنه شرعتْ تحدث في تلك الوجوه بداية مقلقـة بعد ذلك متوعّدة بالتحوُّل، إنها نغزة ارتياب سوداء، وتلـك الملامـح الذابلة والهادئة كنتُ أراها شابَّة وقاسية، الأفواه بأسنان اصـطناعية

كانت تأخذ رشفاتٍ صغيرة من مشروب الشوكولاتة أو الشاي وتنفتح على صرخاتِ حماس متعصِّب، الأيادي عليها بقع داكنة على ظهرها، وبروز مشوَّهَة بسبب التهاب المفاصل، كانت ترفع الفناجين بعناية فائقة وتنتصب مائلة مثل حربات البنادق عند تحية موحَّدة: كم ممَّن كانوا حولي يكونون قد هتفوا Heil Hitler، ماذا يوجد لديهم في الضمير، في ذاكرة كل واحد منهم، رجُلا وامرأةَ، كيف سيكونون قد نظروا إليَّ حين تقاطعت نظراتهم مع نظراتي لو كنتَ أحمل نجمة صفراء مخيطة في ثنية صدر المعطف، لو أني كنتُ في محلَ الحلويات ذاك وكان قد دخل إليه رجال بقبَّعاتَ مائلة على الوجه ومعاطف جلدية سوداء، ولو أنهم اقتربوا مني كي يطلبوا مني أوراقي، أنا المجهول ذو السحنة الغريبة والجنوبي، الذي يثير الشكوك مباشرةَ، نظراته بالورَب، وهو يحضن فنجان شايه بين اليدين كي يُدفئهما ولا يعرف أن أحدا ما، أن مواطنا ذا ضمير قد هاتف الجستابو كي يُخبِر عن حضوره، مثلما كان كثير من الناس يفعلون آنذاك، دون أن يُجبرَهم أحد، لمُجرَّد الإحساس بالواجب المدني أو الوطني فقط: ربما واحد بين العجزة الذين يتناولون شاي العصر في محل الحلويات قد أجرى مهاتفة مماثلة، أجرى بلاغا، مثل تلك البلاغات التي لا تزال في الأرشيف كأدلَّةَ لا تمحى على الحقارة الكونية، على جرعة العار الحميمة التي دعَمت بناءَ الدِيكتاتوريَّة الدَّموية؛ ربما أيضا يوجد بين هؤلاء الناس مُلاحَق أو مبلَّغ عنه، يعود إلى ذلك الوقت، وإن كان هذا الاحتمال من وجهة

إحصائية جدً محدود. لكنِ الآن يبدو لي أن هناك أكثر من عين مُثبَتة عليَّ، ووجهي في المرآة التي تمدّد الفضاء وتـضاعف النـاس هـو أيضا قد تغيَّر، أراني أكثر غرابة، وأكثر غموضا، أتميَّز أكثر عـن الآخرين حسب تقدُّمي في الإحساس بعـدم الراحـة الناجمـة عـن اختلافي. كان سيروقني لو امتلكت كتابا أو صحيفة، شيئا أتلهّى بـه وأشغل به يديَّ، لكني أتحسَّس جيبي معطفي ولا أعثر علـى شـيء، باستثناء جواز سفري وحافظة الأوراق، وحين نفد صبري انتظـارا تسلّحْت بالشجاعة، ونهضت واقفا لكي أنصرف، وفي الحين عُـدْتُ إلى الجلوس، بل وأعتقد أني تخضَّبْتُ احمرارا، لأن النادلة جـاءتني بالصينية وبابتسامة دمية ودُود، قائلةً لي شيئا لا أفهمه. دفعـتُ لهـا الثَّمن قبل أن تعود إلى الانصراف، شربْت قليلا من الشاي، وقضمت الكعكة المفرطة حلاوة، وخرجت إلى الشارع مصابا بدوار الحرارة، شاكرا العزلة والهواء النقيّ والبارد، توغّلت في حديقة معتقـدا أنهـا الحديقة نفسُها التي قطعتها حين جئتُ من الفندق، وعند الخروج منها، عبر حاجزٍ مُشبَّك إلى شارع مُضاء وحديث، لا أتذكّر أني رأيته من قبل، فهمْتُ أني قد تهت، بكل ما في الوعي الفجائي الذي يحدث عند الاستيقاظ من حلم.

تتداخل نزهة متفرِّدة في أخرى، مثل حُلم يصبُّ فـي آخـر، وتتحلّل الليلة الألمانية في مساء مطير، عشر سنوات بعد ذلك، فـي الضفَّة الأخرى من المحيط، لكن توجد رائحة قويّة مشتركة لأعشاب نديّة وتراب مضمّخ، والذي يمشي وهو ليس متأكّدا أنه الشخص نفسه

الذي كان آنئذ. في لحظة ما طيلة هذا الوقت أكتشف ما يعتقـد كـلُّ العالَم أنه يعرف، ومع ذلك فلا أحد يقبله. الآن يَعْرف، وتلك المعرفة ليست بعيدة عن وعيه أبدا، إنه دُنيويّ فانٍ، ويعرفها لأنه قد أوشك أن يموت، ويعرف كذلك أنّ الزّمن الذي يعيشه الآن هو هديّة مُقتَسَمة بين الحظ والدّواء، وأن هذه الجولة منتصفَ المساء عبر شوارع مُشجَّرة وهادئة بنيويورك كان يمكن ألاّ تحدث، وأنه إذا لم يكن يعبر الطريق الآن، وبه قليل من الدوار، الشارع الخامس في نقطة التقاطع مع الشارع الحادي عشر، باتجاه الغرب، مرتديا معطفه وحاملا مطريَّته، فإن لا شيء كان سيحدث، لا أحد كان سيُلاحظ غيابه، ولن يحدث تغيُّر في العالم، وفي البيوت ذات الآجر الأحمر وبسلالم حجريّة عالية التي تعجبه كثيرا، وفي صفٍ أشجار جِينغكوس بأوراقها المروحية الشكل، التي لا تزال قليلة جدا، بلون أخضر غضّ، وجدٍ وهاج كلون نبات البلبْعة الذي تسلق عبر الواجهات إلى حَدِّ الأفاريز، مُلتويًا أحيانا حول الشّكل الهندسي المعدني لسلالم الإغاثة. كذلك يعْلمُ أنه كان ممكنا ألاّ يعود أبدا إلى المدينة، وبما أنه يعرف أن ذلك كان يمكن أن يكون سهلا جدا، وأنه بقي له يوم أو يومان كي يرحل عنها، فإنه يخشى هذه المرة أن تكون الأخيرة، ويخشى ذلك الوعي بهشاشة حياته، الخيط الرّفيع والسهل الذي قد يُقطع من حياة أيٍّ كان، لقد صيَّرته تلك الجولة أشجع، حتى إنه كرَّرها مرَّات عديدة، وأنه ليس مستحيلا أن يكون الآن يتجوّل للمرّة الأخيرة. من بين أسماء مدن ونساء كثيرات جذبن حياته وخياله، منذ

كان طفلا، الآن هنالك اسم جديد يدخل فجأة كعقرب في كاتالوج أسمائه الأساسية. شأن فرانز كافكا الذي لا يكتب أبدا في رسائله كلمة داء السُل، فإنه لا ينطق أبدا كلمة سرطان الدَم، ولا حتى يُفكّر فيها، ولا يقولها في سرِّه، مفزوعا من أن يكون مجرَّد التلفُظ بها قد يوقظ فيه سمّ قَرْصها.

مشى ناحية الغرب مستسلما لرغبة خطواته، باحثا عن الشوارع الخفيّة والمرصوفة، التي توجد قريبة جدا من نهر هودْسون، عند حد القفر الشاسع لأرصفة الميناء المهجورة حيث كانت ترسو عابرات المحيط في أزمنة خالية. الآن، تُرى الأوتاد المائية الهائلة وهي تتعفنُ في الماء الرّمادي، وفي شقوق الأسطح التي كانتْ المراكبُ تُدني إليْها ضلعها يَنْبتُ الأسَل وأجمات كثيفة، كما لو كان بين الأعمدة المُحطّمة في معبد متهدّم، يَمْنع الدُخول إلى بعض الأرصفة، وبعضها الآخر تحوّل إلى حدائق أطفال، وإلى تَجهيزات رياضية. لقد وطئت أقدام عدد لا يُحصى من الهاربين الأوربيِّين هذه الصفائح الخشبية، نظروا إلى المدينة بخوف وفزع انطلاقا من هنا. على طول امتداد الضفّة تمضي طريق لأجل العدَّائين والمتزحلقين، لأجل الناس الذين يخرجون كلابهم للتنزُّه في أمان. وفي الناحية الأخرى من الشسوع الأطلنتي للنهر يُرى ساحل نيُوجرسي، خطُّ أشجار مُنْحَنٍ يُقطَعُ بمستودعات صناعية بشعة، بِبُرج في منزل من المنازل، ببناء ضخم من الآجر، من بعيد يبدو الباب ذو

الشرفات باب سور مدينة بابلية أو آشورية، والتي لديها مقابلها الدقيق في مواجهتها بهذه الناحية من النهر. لقد بدت لي تلك البنايات أكثر سرّيّة، لأنها لم تكن لديها نوافذ، ولم يكن بمقدوري تخيُّل نفعها. كانت مثل أبراج نينوى أو سمرقند منتصبة ليس وسط الصحراء، وإنما على ضفة هودسن: بعد ذلك علِمت أنها تحتوي على أجهزة تنفُّس نفق لنكولن أو مروحاته العظمى، الذي يَسري تحت النهر، وأنه جِدُّ معتم وجد طويل حتى إنَّ المرء حين يعبر في سيارة أجرة يكون لديه إحساس خانق بأنه لن يصل أبدا إلى المخرج، وأن الهواء ينقصه في كل ثانية.

من بعيد، باتجاه الجنوب، تنهض وهدة ناطحات السحاب الأكثر حداثة في الجزء السفلي من منهاتن، التي نبتت حول البُرجين التوأمين، اللذين يكونان جميلَيْن حين يحيط بهما الضباب فقط، أو حين تمنحهما شمس الأصيل الحمراء وَهَجا كما لدى منشور النّحاس. تتخذ مياه نهر هودسن في هذا المساء الضبابي وذي الرَّذاذ، اللون الرمادي نفسه الذي في السماء، فيضيع الجزء الأعلى من ناطحات السحاب بين السحاب المتحرّك والقاتم، وفيها تلمع الأضواء الحمراء لواقيات الصواعق كجمرات تحت رماد طفيف. شبه ضائعة وسط الضباب يُمكن تمييز تمثال الحرية وبُرجي الآجر الكنزين إلِيس إيسلاند.

لقد عدتُ إلى المدينة وها أنا أودّعها. أريد أن أختزن في ذاكرتي كل مكان، كل دقيقة، من ذلك المساء الأخير، حُمرة آجر تلك

الشوارع الخفيَّة، رائحةُ ورود البُلَيْعة البنفسجية، ورائحة الحدائق الموحشة الصغيرة، التي توجد أحيانا خلف حاجز خشبي، بين بنايتين، واللتين يوجد بهما ظلّ وكثافة نباتية تجلبُ إليَّ ذكرى حديقة كنيسة سانتا ماريا في الأمسيات المطيرة جدا، حين تنهمر المياه من الميازيب بين أقواس الرِّواق، وتُصوِّت داخل القِباب. مشيت نحو الغرب، تاركا الشارع الخامس خلفي، وقبل الوصول بقليل إلى الشارع السادس، تقريبا عند زاوية الشارع الحادي عشر، عثرْتُ على مقبرة اليهود السفارديين التي دلّني عليها ذات مرَّة صديقي "بيل شيرزر"، والتي لم أنتبه إليها من قبل، وإنْ كنتُ قد تعوَّدْت أن أمُرَّ كثيرا بتلك الأمكنة، في اتجاه الناحية السفلى من الشوارع، التي تصيرُ هنالك أجمل وأكثر بوهيميَّة، عند ملتقى شيلسي وغرينويتش فيلاج، بأكشاك كتب وأقراص مستعملة، ومحلات ملابس غريبة ومقاهٍ بالأرصفة وواجهات محلات كبيرة للذبدة الإيطالية. كثيرا ما ذهبنا إلى هنالك لشراء إحدى تلك الأشياء، محال بالدوسي، لكننا لم نركِّز النظر أبدا في تلك الحديقة الكنزة المعتمة في الناحية الأخرى من شباك حديدي، كان عند بداية القرن التاسع عشر مقبرة الجماعة اليهودية الإسبانية-البرتغالية، حسب ما تقول لوحة معدنية هي أيضا لم ننتبه إليها لو لم يقم بيل بالإشارة إليها. هاربون من روسيا، من الجوع ومن العنف، وصل أجدادهم إلى إليس إيسلاند بدايةَ القرن.

بين الأشجار، والسرخس، واللبلاب، والأجمة، تُرى بعض شواهد القبور الحجريَّة، قاتمة بسبب الرطوبة والغراء، تالفة جدا،

حتى إنها بالكاد تميّز التقييدات التي كانت ذات مرّة عليها، حروف عبرية أو لاتينية، اسم ما إسباني، نجمة داوود. لكنّ الشبّاك الحديدي موصدٌ وليس من الممكن الدخول إلى المقبرة الصغيرة، وإذا تمكّن أحدٌ ما من لمس الشواهد فإنه بصعوبة قد يُدرك شيئا أكثر من فظاظة الحجر وخشونته، الذي صارت زواياه مستديرة بفعل الزمن، لقد تلَفَتْ إلى درجة أن أثر عملِ البشر يمحي شيئا فشيئا، شأن تلك الأعمدة المكسورة ومقاطع تيجان الأعمدة، التي في أنقاض رواقات روما، والتي تعود إلى غلظة معدنية. من يستطيع أن يُنقذ الأسماء التي نحتت منذ مائتي سنة في تلك الشواهد، أسماء بشر وُجِدوا في اكتمال تام كما هو شأني، أُناس كانتْ لديهم ذكريات ورغبات، وربما تمكّنوا من رسم شجرة لسلالتهم صاعدين وراءً على امتداد المنافي المتتالية نحو مدينة كمدينتي، نحو بيت بنجمتي داود في العتبة العليا، وفي حيٍّ من شوارع ضيّقة جدا بقي خاليا بين ربيع وصيف سنة ١٩٤٢. أمام شبّاك المقبرة الصغيرة المُغلق عليها بين أسوار بنايات شاهقة، يتملّكني إحساسٌ بكآبة تجديد اللقاء مع مواطنيَّ الأشباح، في مساء نيويورك الضبابي ذي الرّذاذ، تجديد لقاء ووداع، لأني سأرحل غدا، ولستُ أدري إن كنتُ سأعود، إنْ كان سيُتاح لي مساءٌ قادم أتوقّف فيه في هذا المكان بالضّبط، أمام الشواهد بأسمائها المَمْحوّة، الضائعة، مثل أسماء أخرى، لأجل قائمة عريقة القِدم، الذي يؤرّخ للشتات الإسباني، لأجل جغرافية القبور الإسبانية في كثير من المنافي عبر شسوع العالم. شاهدات قبورٍ بلا أسماء، ألواح لا نهائية لأموات.

توجد في ضواحي نيويورك مقبرة من تــلال متموّجــة وخــضراء، وأشجار هائلة تُسمَّى أبواب الجنة، بِبُحيرات يرتفع منها في أمــسيات الخريف أسرابٌ كثيرة من الطيور المهاجرة. وبين ملايين الــشواهد، وسط هندسة لقبور بأسماء إيرلاندية، يوجد شاهد يحمل اسما إسبانيا، متواضع جدا، شديد الشبه بأي من الشواهد الأخرى، حتى إنــه مــن الصَّعب الانتباه إليها.

فدريكو غارثِيَا رُوذريغيث

١٨٨٠- ١٩٤٥

كيف أمكن أنْ يتخيَّل ذلك الرَّجُل أن قبره لن يكون في مقبـــرة غرناطة، وإنما في الناحية الأخرى من العالم، بين الغابات القريبة من نهر هودسون، أو أن ابنه سيموتَ قبله، ولن يكون لـــه حتَـــى قَبــر مَرئي، شاهد بسيط يذكِر بالموضع الدقيق من الوهدة التي أُعدِم فيها. قبور متواضعة وحُفر جماعية تضيء طرق الشتات الإسباني الكبير: تمنيْت زيارة المقبرة الفرنسية حيث دُفن سنة ١٩٤٠ الـــسيد مانويـــل أثانيا، في خِضم انهيار أوروبا الكبير، أن أقرأ اسم أنطونيو ماتًـــشادو في قبر بمقبرة كوليور. هناك موتى آخرون، هم أيضا لم تكن لـــديهم قبورٌ، ولا تسجيل يدوم في الحشد الألفبائي لأسمائهم: فـــي صـــفحة إنترنت عثرت على حروف بيضاء فوق خلفية سوداء، على لائحـــة سفارديي جزيرة روداس، الذين سيقوا إلى أوشفيتز من قبل الالمـــان. كان عليَّ أنْ أقرأ الأسماءَ واحدا واحدا بـــصوت عـــال، كـــأني أردّد صلاة جادَّة ومستحيلة، وأنْ أفْهم أنَّ لا أحد من تلك الأسماء المجهولة يُمكن أن يختصر إلى رقم في إحصائيات كثيرة. كل واحد كانت لـــه

حياةٌ لا تُشبه حياة أحد، مثل وجهه وصوته كانا متفرّدَيْن، وأن فظاعة موته كانت فريدة، وإن حدَثَ الموت بين ملايين كثيرة من الأموات المتشابهين. كيف التَّجرُّؤ على الطَّيْش الفارغ لابتكار رواية لحياة كلِّ واحد منهم، طالما أنه كانت لهم حيواتٌ كثيرة تستحقّ أنْ تُروى، إنها شبكةٌ من التَّشعّبات التي تقود إلى روايات أخرى وحيوات أخرى.

لكني أتذكَّر الآن صباح ذلك اليوم قبل الأخير في نيويورك، أنتِ وأنا كنّا مشوشين قليلا بقرب حدوث السَّفَر، في ذلك الزمن الغريب الذي ليس لأحد عشيَّةَ الرَّحيل، حين لا نكون كُلِّيَّة في المكان الذي لم نرحل بعدُ عنه، وحين تكون كل الأشياء والأمكنة والعادات، التي بدت لنا بشكل عابر أننا قَبِلْناها، الآن تُعطي الانطباع بأنها ترفضنا، تُذكِّرُنا بأننا أجانبُ عابرون فحسْب، وأنَّ لا شيء من حضورنا سيبقى في الشقة التي سكنَّاها طيلة وقت قصير جدا، والتي كنا قد شرعنا، يوما تلو يوم، نقيم فيها العلاماتِ المنزليَّة لحياتنا، الملابس في الخزانة، التي عندما تفتح تتضوَّع برائحة عطرك، مثلما حال خزانة ملابسنا في مدريد، كتبنا على منضدة السرير، مراهمُك وفرشة وصابون حلاقتي في رَفٍّ بالحمّام، الجزء الذي جئنا به حين سافرنا، والذي علينا أن نحمله مجدَّدا مثل أمتعة البدو الرُّحل، ماسحين قبل رحيلنا واحدا واحدا كلَّ الآثار التي تركناها، حتى رائحة جسدَيْنا في الشراشف، التي حملناها إلى المَغسَل في الساعات الأولى من يوم رحيلنا.

كلُّ حركة مبتذلة كانت تعكس الظّل الغريب للوداع. صرتُ أعدُّ بشح الأيام التي لاتزال باقية لنا، وفي ذلك الصباح الذي أتذكّره، الآن في يقظة كاملة، في سرير أناسٍ آخرين كان سريرنا طيلة أسابيع، لا أزال كسولا وعديم الحركة، أُعاينكِ وأنتِ تنامين بعبارة التذاذ مطمئن، كأنّكِ حتى لو واصلتِ النوم فستتلذذين بالانغمار في عمق النَّوم، أُفكّرُ في أنه لا يزال لدينا هذا اليوم برمّته، وأرغب في الحفاظ عليه سليما، وأن استمتع به شيئا فشيئا مثل تلك الدقائق التي يمنحُها المرءُ لنفسه حين ترنّ الساعة المنبِّهة، ويُمكنه مع ذلك أن يتأخّر قليلا في النهوض. أُشغّل بعد ذلك الرَّاديو بينما أُحضّر الفطور، لكنَّ الإحساس بالأشياء اليومية الذي يمنحه لي صوتُ مذيع كلّ صباح زائف، لأني أُنصتُ إليه للمرة قبل الأخيرة، الآن لا يصلُحُ لي في شيء الانسيابُ الذي امتلكتهُ في القيام بالحركات الضرورية، لكي أبحث عن علبة القهوة في درجها المحدَّد، وعن علبة الحليب في الثلاجة، الحركة الآلية التي أفتح بها دُرج الملاعق الصغيرة أو أُدير بها مفتاح الغاز، أو أضع بها المصفاة في خزان إبريق القهوة. عمَّا قريب، غدا مساءً بالضبط، سنكون شبحين في هذا المكان، سنكون المستأجرين السابقين المجهولين واللامرئيين بالنسبة إلى المستأجرة الجديدة التي لن نراها نحن، سنترك لها ظرفا فيه مفتاح الشقة عند البوَّاب، والتي لديها الآن هي أيضا شيء من ظلِّ غازٍ، ناهب لفضاء حميميَّتنا، ليس السرير الذي نمنا فيه، ومارسنا الحبَّ فيه، والمائدة التي كنتُ أضعُ عليها قبل أن تستيقظي فناجين الفطور فقط، وإنما

كذلك الضوءُ المطوَّق بالرطوبة التي تدخل في الساعات الأولى من الزُّجاج المُطلّ على الشرفة، والمنظر الذي كنا نراه حين كنا نطل منها، مستندين إلى إفريز في الطابق الرابع عشر، كما لو يُستَند إلى داربزين سفينة عملاقة عابرةَ للمحيط، وعلى الخصوص ليْلا، في ليلة هوجاء وبِبَرق من شهر مايو ذاك، عواصف غاضبة، الرعد يلتقي مائلا بين السحاب الغائم الذي يخفي ناطحات السَّحاب، أو التي تحوِّلها إلى توهُّجات شبحيَّة تنتصبُ عن بعد بين الأمطار، ضائعة بين زخَّات الضباب السريعة، مُخضَّبة بألوان المصابيح التي تضيء الطوابق العُليا من بناية إمبير ستايْت، فتكون بنفسجية أحيانا، حمراء وزرقاء، صفراءَ فاقعة. يا له من حزن أن نعود إلى بلدنا، الذي وصلتنا كلَّ يوم منه تقريبا أخبارٌ عن الظّلام والدَّم، يا لشهوة البُعد المُمَدّد، للمنفى.

قبل أن نرحل حقيقة ها نحن نرحل شيئا فشيئا، لكن لا يزال لدينا يومٌ كي نتظاهر أمام أنفسِنا، الواحد للآخر، وكذلك الواحد لذاته، بأن حضورنا في هذا البيت، في هذه المدينة، حقيقيٌّ وثابت، جِدُّ واقعي مثل حضور بوَّاب البناية، الذي يمنحُنا تحيَّة صباحيَّة ودودة بنبرة كوبية، أو تحيَّة البنغالي الذي في دُكَّان المنعطف، الذي نشتري منه يوميا الصحيفة وبطاقة تعبئة الهاتف. أمضيْت نصيبا من حياتي، أو الغالب منها، راغبا في الرَّحيل عن الأماكن التي أكون فيها، والآن، حين يجري الوقت بسرعة فائقة، فإن ما أرغب فيه أكثر هو أن أبقى، أن أقيم إلى الأبد في المدن التي تروقني، أن يكون لديَّ

إحساس هادئ بالعادة وبالأقدمية، مثل الذي أستمتع به حين أفكِّر في كل السنوات التي أمضيناها أنتِ وأنا معا. أبَدا لم تغْوني هواية جمع الأشياء، اللهمّ حين كنتُ طفلا، لكنْ يروقني أن أحتفظ بين صفحات الدَّفاتر والكتب بالشهادات التافهة والشجاعة عن لحظة محدَّدة، علب أعواد ثقاب تحمل اسم مطعم، تذاكر دخول، تذاكر حافلات، أي وثيقة صغيرة تشهد على تاريخ وساعة، حضورنا في مكان ما، المسار القصير أثناء رحلة. ليس لديَّ التصاق بالأشياء، بما في ذلك الكتُب والاسطوانات، لكن لديَّ التصاق بالأمكنة التي تعرَّفْت فيها على الفوَران الملغز لأفضل ما فيَّ، اكتمال رغباتي ومؤلفاتي، وما تمنَّيْت أن أدَّخِره كَهاوٍ وجمَّاعَة شحيح ومهووس هو اللحظات، الساعات كاملة، الدَّقائق التي قضيْتُها أُصغي إلى موسيقى معيَّنة أو ناظرا إلى ألوان في قاعات متحف، الرَّغبة في المشي معك ذاتَ مساء على ضفة نهر هودسون، بينما تشعل الشمس بالذَّهب والنُّحاس زجاج نوافذ ناطحات السحاب، ويبقى ذلك الضوء لاحقا في صورة، قلق المغامرة وعدم اليقين الذي تملَّكنا في نيويورك ذلك الصباحَ السابق على الرحيل، ونحن نرى خلف نافذة حافلة المنازلَ الأخيرةَ الفارهة في الآبرِ إيسْت سايد، البراري الأولى، أنقاض بنايات هارليم.

هنالك ميل في الأيام الأخيرة لأي سفر إلى استمرارها غائمة، وكأنها غريبة، إلى تلوينها بغرابة من سيرحل، وأن يتمَّ إبرازُها رماديَّة. إنه كلَّما صعدنا نحو الشمال يقلُّ عدد رُكَّاب الحافلة، وبشكل تدريجي، تقريبا لا يُدرك، تختفي الوجوه البيضاء والإنجليزية،

وعوض الوجوه المسنّة الشاحبة جدا وذات السّحنة الواهنة، كانت هنالك أمّهات شابّات جدا بِرضّعٍ في الذراعين، أو بأطفال صغيرين جدا، سوداوات أو لاتينيّات، سيدات بدينات بِشعر مخضّب باللون الأشقر، الأظافر طويلة والكلام وقِحٌ، يَدُلّ على الانتماء الكاريبي، جدّات سوداوات يستمررن جالسات في مقاعدهن في جلال مولّدات إثيوبيات، واللواتي حين نهوضهِنّ عند الوصول إلى موقفهنّ يتحرّكنْ بصعوبة كبيرة، متأرجحات خطوةً خطوة بأحذيتهنّ الرّياضيةَ، الأجساد بأحجام غير متساوية ومعوجّة، كأنهن مصابات بمرض عظام مؤلم. وكلما يتخلّى رُكّاب الحافلة عن أن يكونوا بيضًا تتغيّر المدينة كذلك خلف النافذة، تتحوّل أشسع وأفرغ، تالفة، أفقر، بحركة مرورٍ أقلّ، وبواجهة محلات نادرة على الأرصفة الخالية تقريبا، متفتّتة إلى شسوعٍ غير مأهولة، إلى مناظر قطع بناء مُسيّجة بأسلاك شائكة وببنايات محترقة، أو إلى أنقاض في العمْق، أراضي بناء بيوتٍ مُهدّمة، ربما بقي منها جدار منتصب بفراغات نوافذ مغلَقة، بألواحٍ بعلامة صليب. كما نمرّ بين الفينة والفينةَ بمقطعٍ شارع، لسبب ما، كان ينم عن وجود بعض الحياة، رصيف وخطٌ من المنازل أنقذتْ من الهَجْر، مع دكان ذي لمحة مترفة في بساطة عند الزاوية، ورجال متفرّدون جالسون على الأدراج، مع أمهات شابات يحملن أطفالا صغارا في يد، وأصص إبرة الراعي في نافذة ما. مرّتْ مواقف كثيرة على نزول آخر السُّيّاح من الحافلة، الذي يذهبون إلى متاحف الناحية العليا، إلى المتروبوليتان أو الغوغونهايم، والآن ما

غدْنا نرى على يسارنا أحراج سنترال بَارْك المتوَّجة بعيــدا بــأبراج شقق وسْت سايد أفنو، بذراها كأبراج أو معابد ديانات أسيوية موغلة في القدم، أو قبب، أو مصابيح سينوغرافيا السينما التعبيرية بــأعراق وميازيب.

عند العبور عبر تلك المواضع المهجورة تغدو الحافلــة شــبه الفارغة خفيفة جدا، ويستدير السائق بين الحــين والآخــر ليرانــا أو ليتفحّص غرابتنا في المرآة العاكسة. كنّا قد مررنا بجانب ساحة بهــا حدائق على الطريقة الفرنسية، كان بها في الوسط تمثال من نحــاس "لدُوك إلينغتون". كانت القاعدة مثل حدّ خشبة مسرح، ودوك إلينغتون مستقيم يرتدي سموكين، كان يستند على بيانو ذي ذيل كبيــر أيــضا مصهور في البرونز. (الآن لا أعرف إنْ كنتُ قد رأيْت حقيقةً أو إنْ كنتُ قد تذكرْتُ أنّ شخصا قد حكى لي أنه في مكان مــن نيويــورك يوجَدُ تمثال لدُوك إلينغتون ممتطيا حصانا). صعدنا إلى الحافلة منــذ أزيد من ساعة، في موقف أُونيون سكوار. لكنّنا كنّا بعيدين جدا، وكنا قد سافرنا ببطء كبير حتى إنه يبدو كأننا قد أمــضينا وقتــا كثيــرا، وكذلك لم تكن هنالك مؤشرات تدل على أننا سنــصل ســريعا إلــى وجهتنا، شارع مائة وخمسين. غريبان في المدينة، الآن نحــنُ كنّــا غريبيْن بشكل مُضاعف، وإضافة في تلك الأحياء التي لم نزرها أبدا، والتي لم نكن متأكّدين من العثور عليها في طريقنا.

كان موقف الحافلة في شارع خمسة وخمسين ومائة بزاويــة شارع جِدّ عريض، فيه بنايات ليست عالية جــدا ومتفرقــة، يــوحي

بالعزلة، وبحياة حدودية يُضاعفها اللون الرمادي للنهـار، وأسـوار قصيرة عارية، لم يكن بالنواحي من أحد كي نسأله. منـازل فقيـرة، كنائس، محلات مقفلة، علَمٌ أمريكي يخفق فوق بناية من الآجـر ذات لمحة تدل على أنها كارثية ورسمية. فجأةً غلَبنا خموذ الهمة والخوف من أن نكون قد تهنا، ربما لأننا وُجِدنا بغتةً بين لحظة وأخـرى فـي منطقة خطيرة، سائحان غريبان يُمَيَّزان عن بُعد، ولا يعرفـان أيـن يوجدان، وهما ينتبهان بتوجُّس إلى أنه من بين السيارات القليلة التـي تَمرُّ لا نُرى البُقْعة الصفراء القويةَ الدالَّة على أنها سيارة أجرة.

مشينا الآن إلى جانب مقبرة كبيرة، بدت لنا عند الوهلة الأولى حديقة أو غابة. تُحْدَس جهة الغرب الأراضي البعيدة والشاسعة التـي يعبُرُها هودسون، وعند ملتقى طرق، حيث تنتهي المقبرة يُرى، فـي الناحية الأخرى من الشارع، شيءٌ يُشبه تجلِّيا أو سرابا، إنه البنايـة التي جئنا بحثا عنها، مَهيبةً وذات هندسة كلاسية جديدة، ليست أقـلَّ غرابة منَّا في هذا المنظر الموجود بالضاحية، إنـه مقـرُّ الجمعيـة الإسبانية لأمريكا، حيث حُكي لي أنه توجد لوحاتٌ لبيلاثكيث، وغويا، ومكتبة كبيرةٌ لا يزورها أحد، إذ مَنْ ذا الذي سيأتي إلى هذا المكـان البعيد عن كلِّ شيء، في حي يُمكنُ أن يُتخيَّل بسهولة، انطلاقـا مـن جنوب منهاتن، بأنه مُجتاحٌ وخطير.

كان يوجد سور، ومن خلفه فناءٌ بـه تماثيـل، بـين بنـايتَين أفاريزُهما من مرمر، ولهما أعمدة، فيها أسماء إسبانية منحوتة علـى

امتداد الواجهة. هنالك تمثال مُفخّم وفروسي للسيِد، وفي جدار إحــدى البنايتيْن توجَدُ منحوتة كبيرة لِدُونْ كيخُوتي ممتطِيًا روثِينانتى، فارس ومطية كلاهما مهزوم ومثل الهيكل العظمي، إلى جانب باب المدخل توجد امرأة شعرُها أبيض مرفوع بمِشبك ومظهرها العام يدُلّ علـــى الهجران، تُدَخن سيجارة، لها ذلك الموقــف المــراوح بــين العنــاد والتهرب الذي يطبع المُدخنين الأمريكيين، الــذين يكــون علــيهم أن يخرجوا إلى العراء ناشدين بعض الرَّشفات، دافعــين عــنهم البــرد بجانب عمود أو في حماية زاوية بالبناية، ساحبين مصَّات سريعة من السيجارة، ثم يُخفونها بعد ذلك، خائفين من رقابــة الــذين يمــرُّون بجانبهم. نظرَت المرأةُ إلينا لحظة، وبعد ذلك تذكَّرنا، نحن الاثنــين، أن عينيْها سحرَتانا، إنهما كانتا تلمعان مثل جمــرتين فــي وجههــا الذابل، كأنهما خلف قناع، العينان المشتعلتان حياةً والشرستان اللتــان لامرأة أكثر شبابا من مظهرها الجسدي، إنها مستخدمة، أو سكرتيرة أمريكية توشك أن تتقاعد، تحيا وحيدة، ولا تهتم بأن تعتني بأناقتهــا، تقص شَعرها كيفما تشاء، وترتدي صدرية قاتمة وســراويل رجــال، تنتعل حذاء يُراوح بين المقوِّم للعظام والرِّياضي، تضع نظارةً طبيَّــة مقبوضة بسلسلة صغيرة، امرأةً غدتْ عجوزا جدا حتى إنهــا بالكــاد يُمكن أن تتخلّى عن عادة التدخين.

عبثًا بحثنا في الرُّدهة عن نافذة التذاكر. أشــار إلينــا بــوَّاب عجوز قويٌّ يجلس في كسل وغير مُبالاة على كرسيّ يشبه كراســي

القساوسة بأنه يمكننا الدخول في أمان، من علامات وجهه وسلوكه ونبرته التي يتكلّم بها الإنجليزية مُباشرةً يمكن الاستشفاف بأنه كوبي. يرتدي سترة رمادية، تُشبه حلة شاويش إسباني من زمن قديم، بليت بعد زمن طويل، بعد أعوام كثيرة من الخمول الإداري. بمُجرَّد أن وطئنا أرضية الرُّدهة لاحظنا بتوجُّس أن هذا المكان لا يأتي إليه أحدٌ تقريبا، وأن كل شيء فيه يُعاني تلَفًا مُتشابها، تلف الأشياء التي لا تتجدّد، التي تواصل الاستمرار حتى تكون متداعية، وتبقى مهجورة، وإن كانت مع ذلك يُمكن استعمالُها. الإعلان مُلْصَقٌ على زجاج المدخل ويحمل التوقيت، مكتوب بحروف كتابة قديمة، وصار أصفر، بعد أن خضع لمبدأ تعرية الزمن البطيء نفسه مثل حلة البواب، أو مثل الصور ذات الإطار الموجودة داخل خزانة زجاجية بمؤسّسته، الجمعية الإسبانية في سنوات العشرينيات، السيارات السوداء الكبرى للسلطات الإسبانية والأمريكية التي حضرت الافتتاح، البناية كانت آنئذ مرتفعة في فضاء لم يكن به شيء، شامخة بيضاء بهندستها الكلاسية، بمرمرها حديث العهد بالتشذيب، وهو يلمع كالوهج الدال على الشيء الجديد، وكأن أمامه مستقبلا انتصاريا. في السماء، فوق الرؤوس المغطاة بقبّعات تشريفات وقُبعات من قش، تُرى طائرة كانت في حينها جدّ حديثة مثل سيَّارات الرجال والنساء الذين يتزاحَمون على الافتتاح، لكنَّ الورق المقوَّى للصُّور قد اعوَجَّ، وزوايا الإطارات الداخلية قرضت بعض الشيء.

أين نحن الآن، إلى أين وصلنا حين كنّا قد دخلنا إلى صالون شاسع ومُعتم، فيه ما يُشبه ساحة قصر إسباني، بخشب منجور لكراس مفضّضة، وأقواس من آجر قاتم أحمر يتعتّم أكثر بقلّة ضياء النهـــار، تصفيه نوافذ زجاج ملوّن بالسقف. يرفض الفضاء أن نـــنعم بهويّـــة محدّدة، لأنه يمكن أن يكون ليس ساحة قصر فحسب، تتفـتح عليهـا أروقة، وإنما كذلك مستودَعات كنيسة غير مرتّبة وشاسعة، أو مخزن متحف طبيعته الدقيقة جدّ غامضة مثل قوانينه التنظيمية. أو كالمبـــدإ الذي يحكم الممتلكات. في بداية القرن، كان الملياردير "أرشر ميلتون هونتنغتون"، الذي يغلب عليه هوى غير رصين ذي نزعـــة إســـبانية رومانسية، وتبحُّر نهِم، يجوب البلد مقتنيا كلّ شـــيء، ومـــشتريا أيّ شيء، قد يشتري جوقة كاتدرائية مثلما يشتري جـــرّةً مـــن خـــزف زجاجي ملوّن، لوحاتٍ لبلانكيث ولغويا، أكواخَ أساقفة، فؤوسا تعـــود إلى العصر الحجري، سهاما من البرونز، تماثيل للمسيح ينزف تعود لاحتفالات الأسبوع المقدّس، حقّـــة القربـــان المقـــدّس مـــن الفـــضّة المصمتة، زليجا من الفخار البلنسي، رِقاقَ مُـــدَّعي سِـــفر الرّؤيـــا، نموذجا من الطبعة الأولى لكتاب لاثليثتينا، وحوارات الحب ليهـــوذا أبْرَابانيل، المدعوّ ليُون العبري، اليهودي الإسباني الـــذي لجـــأ إلـــى إيطاليا، أماديس دي جولا لسنة ١٥١٩، الإنجيل مترجَما إلى القشتالية ترجمه "توب أرياس"، ابن ليبي أريـــاس، ومنـــشورا فـــي فيرّيـــرا سنة١٥١٣، لأنه لم يكن ممكنا طبعه في أسبانيا آنذاك، الطبعةَ الأولى من الـــ لاثاريُو، وبالمرين إنجلترا في الطبعـــة نفـــسِها التـــي كـــان

يُفتَرَض أن يكون قد قرأ فيها دون كيخوتي، الطبعـة الأولـى مـن لاغاليتيا، والإضافات المتتالية على الكتاب المفزع فهـرس الكتـب الممنوعة، كتاب الكيخوتى طبعة١٦٠٥، وكثيرا من الكتب الأخـرى والمخطوطات الإسبانية التي لم يكن من أحد يقـدرها حـق قـدرها، والتي بيعت بثمن بخس، لذلك الرجل الذي كان يُسافر في سيارة عبر طُرق البلد الصعبة، كان يحيا في حماس أبدي نحو كل شيء، رجـل كان ذا نهمٍ امتلاكٍ عبقري، الملياردير السيد هونتينغتون، ذاهبا مـن ناحية لأخرى بحماسه الأمريكي العنيف، عبر القرى الميتة وبـوادي قشتالة، مُقتفيا طريق السيِّد، مشتريا أيَّ شيء، ويأمر بإرسـالها إلـى أمريكا، لوحاتٌ، سجاد، قضبانٌ، ستائر مذابح بكاملها، بقايـا المجـد الإسباني المُفَخَّم، رُفات الرَّفاه الكَنَسي، لكن أيضا شهاداتٌ على الحياة الشّعبية المعوزة، صحون الخزف التي كان الفقراء يتنـاولون فيهـا حريرة من القمح، والجرار التي بفضلها كانوا يجرِّبون تَرَف المـاء البارد في الأراضي الداخلية البائرة. لقد أدار حفريات أركيولوجية في "إيطَاليكَا"، واشترى بصفقة واحدة من المُفلس مَاركيـث شَـرِيش دي لوس كابَيِّيروس مجموعة كُتُبِه العشرة آلاف. ولكي يصون كلّ غنيمة أسفاره المفرطة عَبْر إسبانيا شَيَّدَ هذا القصر، في ناحية قصوى مـن مانهاتن، التي لم تصلها الرَّفاهية أبدا، ولا حُمَّى المـضاربات التـي ربّما كان السيد هونتنغتون قد استبقها: كلّ شيء موجود في الجدران، في الخزانات الزجاجية، في الزوايا، كل شيء يحمل لافتة تعريفيـة، تاريخ الأصل ومكانه، مكتوبا دائما علـى ورق أصـفر، فسيفـساء

رومانية وقناديل زيتية، جفنات من العصر الحجري الحديث، سيوف قرون وسطى، عذارى قوطية، كأنه سوق خردة انتهت إليه هذه الأشياء مسحولةً في خضم فوضى الفيضان الكبير للزمان، كل شهادات الماضي وموروثاته، منهوبات بيوت الأغنياء وبيوت الفقراء، ذهَب الكنائس، خزانات الصالونات، المهامز التي تُزنَد بها النار، السجادات، اللوحات التي عُلِّقت في جدران الكنائس، هي الآن مهجورة ومسروقة، وقصور ربَّما لم تعد موجودة الآن، شاهدات قبور الجبابرة تكاد تكون أسماؤها ممحوَّة، وصهاريج المرمر التي كانت تضمّ الماء المقدَّس في الظليل البارد بالمُصلِّيات. وكذلك الأسماء، أسماءٌ رنانة لأمكنة إسبانية في لُصيقات بالخزانات الزجاجية، وفجأةً برز من بينها، إلى جانب جفنة من خزف أخضر وملوَّن أعرفه مباشرة، اسمُ مدينةِ مَسقط رأسي، حيث كان لا يزال، منذ أنْ كنتُ طفلا، حَيٌّ للفَخّارين حيث الأفرنة لا تزال كما كانت على عهد زمان المسلمين، وشارع واسع مُشمَّس يُدْعى شارع بلنسية الذي يَصبُّ في الخلاء. من هناك تأتي هذه الجفنة التي أُعيِّنها لَك خلف زجاجة في إحدى الغرف المعزولة بالجمعية الإسبانية لنيويورك، والتي في هذا البُعد تعيد إلى القلب بالضبط ما كان في الطفولة: في الوسط يوجد بها رسم ديك، تُحيط به دائرة، وحين النظر إليه أُلاحظ تقريبا في رؤوس أصابع اليد مساحة خزفيَّة مُلوَّنة ونتوءَ خطوط الرسم، إنه ديك عريق القِدَم، وكذلك إنه يبدو مثل ديك من رسم بيكاسو، وهو يتكرر في الصحون وفي جفنات منزلي، وكذلك

في بطن أواني الماء. أتذكَّر الجفنات الكبرى التي تعجن فيها النساء الكفتة والتوابل، لأجل مستحضرات لحم الخنزير، والصحون الخزفية التي تقطع عليها الطماطم والفلفل الأخضر لأجل السَّلطات، ومطاعم شعبية متقشفة تفوح منها روائح الأكل الشعبي: تلك الأشياء كانت دائما في الموائد وفي الخزائن الحائطية للبيوت، ويبدو أنها كانت لها تقريبا نعوت بقاءٍ طقسيّ، ومع ذلك فقد اختفت في وقت قصير جدا، بالكاد في أعوام قليلة، تمَّ تنقيلها نتيجة هجوم البلاستيك والأواني الصناعية. لقد رحلت مثل البيوت التي كانت في ظلالها العميقة تلتمع أشكالُها الواسعة والمحدودبة، ومثل الأموات الذين أقاموا فيها.

تجلب إليّ تلك الجِفنة أيضا ذكريات، تقول عن قرب منّا تلك المرأةُ التي شاهدناها تدخن بالباب. هي تعتذر عن مقاطعة حديثنا، لأنها كانت تسترق السمع إلينا: تعرَّفت نبْرَتك، لقد عشت منذ زمن طويل في تلك المدينة. صوتُها تقريبا فتيٌّ جدا كعينيها، مثلما هو مختلف عن السِّن المكتوبه في ملامح الوجه وفي الإهمال الأمريكي من هيئة لباسها. أنا أشتغل في المكتبة، إذا همَّكما الأمرْ فسأشرف كثيرا باطلاعكما عليها، توجد كثير من الكنوز، وقليل من الناس يعرفون ذلك، بين الفينة والفينة يأتي أساتذة، أناس عارفون جدا، يدرسون أشياء إسبانية، لكنهم يمكن أن يقضوا أسابيع وحتى شهورا بكاملها دون أن يدنو أي واحد منهم كي يسألني عن كتاب. مَنْ ذا

الذي سيأتي من بعيد، من سيتصورَ أنه توجد هنا لوحاتٌ لبيلاثكيث والغريكو، وغويا، قريبا من برونكس، إننا لدينا في الحفظ النسخة الأولى من كتاب لَاثاريُو والأولى من الكيخوتي ومن لاثيليثتينا لسنة ١٤٩٩. يصل السياح حتى الشارع التسعين كي يروا متحف غوغنهايم، ويتخيّلون أن ما يوجد ما وراء ذلك هو عالم مجهول وخطير كقلب إفريقيا. أنا أعيش قريبا من هنا، في جوار سكَنيّ كوبي ودومينيكي حيث لا يُسمَع حديث بالإنجليزيةَ. تحت مسكني يوجد مطعم للأكل الكوبي يدعى «زَهْرَةَ برودواي». إنهم يُعدُّون أطيب أكلةِ رُوبا- بْيِيخا وشرابَ دَايْكيري في نيويورك، ويتركون الناس يُدخنون في سلام على الموائد، لديهم مفارش من المُشمَّع بمُربَّعات، كتلك التي كانت في إسبانيا حين كنتُ صغيرة جدا. يا له من ترف أن أدخن سيجارة وأنْ أشربَ قهوة سادة بعد الغذاء. أنتم تعرفون كيف صار ذلك غريبا هنا، أن يتركوا المرءَ يدخن عند طاولة في مطعم. إنَّ الدخان يؤلمني في قصبة الرئة، والناس ينظرون إليَّ باستهجان حين أدخل إلى هنا وقد رأوني أدخن عند الباب في الشارع، لكنني الآن عجوزٍ غير قابلة للتغيير، والسجائر تعجبني كثيرا، أستمتع بكل واحدة أدخنها، إنها ترافقني، تساعدني على التحاور، وعلى تزجية الوقت حين أكون وحدي. وعلاوة على ذلك، حين كنت صغيرةَ جدا، رغبْتُ في أن أهرب من إسبانيا وأن آتي إلى أمريكا، لأن النساء هنا يمكنهن أن يدخن، وأن يرتدين سراويل، وأنْ يقدن سيارات، كما كان يرى في الأفلام السابقة على الحرب.

كانت المرأة تتحدَّث إسبانية طليقة وصافية، كتلك التي يمكن الاستماع إليها في مواضع من إقليم أراغون، لكنَّ نبرتها كانت بها إضافات كاريبيَّة وأمريكية شمالية، وكان معدن صوتها يتحوّل أنجلوسكسونيا تماما حين كانت تنطق كلمة بالإنجليزية. لقد دعتنا إلى شرب قهوة في مكتبها، ونحن قبلنا الدعوة من جهة لأننا كنا نُحِسُّ الإنهاكَ الجسدي، الذي يُحَسُّ في المتاحف، ومن جهة ثانية، لأنه من حيث أسلوبُها في التحدُّث والنظر إلينا كان شيء ما يُنوِّم أكثر من ذلك المكان الخالي والصامت، في الصباح الرَّمادي لآخر يوم على سفرنا. لقد أقلقتنا تلك المرأة، وفي الوقت نفسه كانت تُخضعنا حين قالت لنا اسمَها، كانت تتحدَّث إلينا بصوت إسباني لسنوات عديدة خلَتْ، وكانت تتفحَّصنا بعينيْن أكثر شبابا من وجهها وسحنتها، ومن يديْها النمشتين والمُجعَّدتين بعُقد التهاب المفاصل، وتنفسها تنفس مدخنة، وإن كان التبْغ لمْ يدبَغْ أصابعها، ولا شوّش على صوتِها. كان المكتب صغيرا وغيرَ مُرتَب، برائحة ورق عَفِن، وبأثاث مكاتب يعود إلى العشرينيّات، كذلك الأثاث الذي يُرى في بعض لوحات إدوارد هوبر. أخرجت المرأة من خزانة أرشيف ثلاثة فناجين وثلاثة أكياس شاي، وضعتْها فوق أوراق المائدة، ولحركة اعتذار على الطريقة الأمريكية اختفت كي تُحضر قليلا من الماء الساخن. تبادلنا نحن الاثنين النظرات دون أن نقول شيئا، وابتسمنا كي نقيم نوعا من التواطؤ في وضع جدّ غريب، عادت المرأة سريعا، تفحَّصتْنا بعينيها المُتقدتيْن كأنها تتوقّع إنْ كُنَّا خلال غيابها قد قلنا شيئا عنها. المنظار

الطبيَّة متدلِّية من العنق ومشدودوة بخيط أسود.إنها تبدو سكرتيرة شعبةٍ جامعية على وشك أن تتقاعد، لكنَّ عينيها استجوبتاني بوقاحة كبيرة، كأنهما كانتا بقناع مجهول، إن المرأة التي تنظر من خلالهما ليست هي المرأة التي تَصُبُّ الماء الساخن في فناجين الشاي، وتتحرَّك بحذر وتلطُّف يدلّ على أناقة أمريكية صارمة، وتمشط شعرَها الأشيب كيفما تأتّى لها، وترتدي سراويل، وصدريَّة، وحذاءين دالَّين على تقشُّف عمَليّ أو بالأحرى بائسين، وتنظر إليّ كأنَّ لديها ثلاثين سنة، وتُقيِّم الرِّجال بالمعنى الجافّ لجاذبيَّتهم أو استعدادهم الجنسي؛ تنظرُ إليكِ وهي ترغب في أن تعرف إنْ كنّا عشيقيْن أو متزوّجين، وإنْ كان في الصيغة التي نتخاطب بها نحن الاثنيْن توجد علامات رغبة أو تباعد. وبينما عيناها المغناطيسيَّتان تدرسان كلَّ تفصيل من حضورك وحضوري، من وجهينا ولباسينا، فإنَّ يديها لامرأة عجوز انغمرتا في طقس الضيافة الأكاديمية فتقدِّمان الشاي وأظرفة سكّر وسكّارين، وتلك الأعوادَ البلاستيكية التي تعوِّض في الولايات المتّحدة الملاعقَ الصغيرة بشكل مؤسف، وصوتَها الصافي القديم، الإسباني بمزيج كوبي وإنجليزي، يَحكي لنا أشياء عن ذلك الملياردير المجنون، الذي شيَّد الجمعية الإسبانية عند زاوية برودواي والشارع رقم خمسة وخمسين ومئة، مُعتقدا أن تلك الناحيةِ من هارليم كانت ستغدو سريعا جدَّ مشهورة بين الأغنياء، وعن غرابة فضاء الحياة بعيدا جدا عن إسبانيا، ومُحاطة على الرغم من ذلك بكثير من الأشياء الإسبانية، بعيدا جدا عن إسبانيا وعن أي ناحية، حتّى عن

نيويورك نفسها، مشيرة بحركة جِهةَ النافذة، التي يُرى منها رصيف فقير وشعبي، الذي هو مع ذلك برودواي، خَطٌّ من بيوت آجريَّة حمراء تقطعها سلالمُ الإغاثة المتوَّجة في الأعالي بخَزَّانات ماء، وأبعد من ذلك اللون الرماديّ للأفق المفتوح، الأبراج الكبرى المسودة التي لمَساكن اجتماعية في بروكس.

حضرْتَ من إسبانيا منذ أزيد من أربعين سنةً، ولم أعد أبدا، ولا أفكِّر في العودة، لكني أتذكَّر بعض أماكن بمدينتك، بعض الأسماء، ساحة سانتا ماريًا حيث تهبّ الرِّيح بقوَّة في ليالي الشتاء، شارع الرَّيال، أليس يُسَمَّى كذلك؟ ولو أني أتذكَّر الآن أنه أطلق عليه اسمُ شارع خُوصي أنْطونيُو. وذلك الشارع الذي كانتْ فيه محلات صنع الفخَار، لقد نسيتُ الاسمِ لكني حين سمِعْتُ حضرتَكَ تحدِّث زوجتك عن شارع بلنسية تذكَّرتُ مباشرة أنك تُحيل عليه، وتذكَّرت أغنية كانت تُغنَّى آنذاك:

في شارع بلنسية

بالماء والطين

يصنع قُدورا

الفخارون

حين كنتُ لاأزال شابَّةً تدبَّرت أموري كي أتلقَّى دروسا في الأدب الإسباني بجامعة كولومبيا مع السيد فرانثيسكو غارثيا لوركا،

وكان يُعجبه أن أُغنّي له تلك الأبيات، كان يقول أن لا شيء يمكن أن يكون أكثر دقّة منها، كنت أردّدها بصوت عالٍ كي نُركّز جيّدا حيث لا نعت ولا كلمة هي غير مألوفة، ومع ذلك فالنتيجة، كما كان يقول لنا، هي في الوقت نفسه شعرية وإخبارية كجملة في دليل، وكما في قصائد الرُّومانثي القديمة.

تتكلّم كثيرا، تنوّمنا بحكيها، لكن في الحقيقة لم نصل إلى معرفة شيء عن حياتها الحقيقية، ولا حتى اسمها، وإن كنا قد انتهينا إلى ذاك التفصيل لاحقا، وليس دون اندهاش، حين كنا قد انصرفنا. كيف ستكون الشقة التي تحيا فيها، وحيدةً دون أدنى شك، ربما في رفقة قطّ، مُنصتةً إلى الأصوات والموسيقى الكوبية التي تصعد إليها من «زهْرة بْرودْواي»، الذي تنزل إليه وقت العشاء بانتظام، حيث تتناول صحنا من الفاصوليا بخنزير وأرز، وربما تصاب بدوار بشراب دايْكيري، وحيدةَ في مائدة بسماط مُشمّع بمُربّعات، مدخّنةً لاحقا بينما تستلذ بقهوة، وتنظر نحو الرّجال والنساء بتلكما العينين بفحص جنسي لا يخطئ. ماذا تفعل طيلة ساعات وأيام كثيرة لا يأتي فيها أحد ليستشير كتب المكتبات، الكنوزَ المدفونة التي تعمل هي على تصنيفها ومراجعتها، بتعبير صارم وفعّال من وجهها الذابل، العينان تنظران خلسة وراء المنظار المرفوع بخيط أسود. نسخٌ فريدة لا يمكن العثور عليها إلا هنا، الطبعات الأولى، مجموعات كاملة لمجلات عالمة، أوراق من جلد الضأن، رسائل بخط اليد، كل الأدب الإسباني كل المعارف والبحوث الممكنة عن إسبانيا مجموعة في تلك

المكتبة العظمى التي بالكاد يأتي إليها أحد، لكنها هي ليست بحاجة إلى فتح مجلدات الشعر من مجموعة قشتاليون كلاسيكيون، لأنه في مرحلة دروسها مع الأستاذ غارثيا لوركا كانت قد امتلكت بتشجيع منه، كما قالت، عادة أنْ تحفظ عن ظهر قلب القصائد التي تروقها أكثر، بحيث إنها تحفظ جزءا كبيرا من الرومانثيرو، وسوناتات غارثيلاسو، وغونغورا، وكيفيدو، وكلّ سان خوانْ دي لاكروث، وتقريبا كل فرايْ لويسْ دي ليون، وبيكير، واسبْرونثيدا، الذين كانوا مادة عشقها أثناء مراهقتها الأولى المتبجّحة والأدبيّة، المتقاسمة مع أخيها، الذي كان أكبر منها قليلا، والذي كانت تردّد معه مناصفة الطينوريو، أو فوينطي أوفيخونا، أو الحياة حُلم. ربما إلى ذلك الشيء كانت قد انصرفت طيلة كل الأعوام التي اشتغلتها في المكتبة بالجمعية الإسبانية، إلى أن حفظت فيها عن ظهر قلب الأدب الإسباني، وكانت تستظهره في صمت أو بصوت خفيض، محركة شفتيها كأنها تصلي، بينما تلتحق كل صباح بعملها عبر الأرصفة الكاريبيّة لبرُودْوَاي، أو ترحل نحو جنوب منهاتن في حافلات بطيئة، أو في عربات المترو المزدحمة، وتضطجع ليلا في أرق سريرها وحيدة، تجوب صالونات المتحف دون أن تركز تقريبا في أيّ من اللوحات والأشياء التي تعرف ترتيبها كذلك عن ظهر قلب، شأن الأسماء والتواريخ المطبوعة في الملصقات. لكنْ كانت هنالك لوحة تتوقف عندها دائما، وكانت تجلس لكي تراها بتأنّ، في انفعال كئيب لا يخفّ أبدا، بل كان يغدو أقوى كلما مرّت السنون، وكل شيء كان يبدو في ذلك المكان أنه سيستمر ثابتا كأنه في مملكة مسحورة.

اللصيقات، والملصقات، والكاتالوجات كانت تصفَرّ، التجهيزات الصحيّة للنظافة في المراحيض كانت تتحوّل إلى رُفات أقدم فأقْدَم، الشّواش الكوبيّون والبويرتوريكيُّون كان شعَرُهم الصلّب والمُجعَّد يتحوّل إلى أبيض، وكانت جيوب ستراتهم الرمادية تغدو بلا قعر شأن سترات الشّواش الإسبان، وكانت أطراف الأكمام تتلف، وهي نفسُها كان الزمان يُحوّلها إلى غريبة كلما نظرت إلى ذاتها في مرآة، إذا لم تكنْ بسبب عينيها اللتين كان بريقُهما جدّ حادّ وفاتن مِثلما حين كانت في الثلاثين من عمرها وشوهِدتْ للمرة الأولى وحيدة وسيّدة نفسها في أمريكا، مسكونة بحماس عيش يُمكن أن يبلغ أقصى حد من الطمأنينة والهذيان، ربَّما أكثر من ذلك الحماس للجْمع ومن غرابة الأطوار لدى السيد هونتينغتون. يعجبني أن أجلس أمام تلك اللوحة التي لبيلاتكيث، صورة وجه تلك البنت السمراء، التي لا أحد يعلم من كانت، ولا ما اسمها، ولا لماذا رسمَها بيلاثكيث، قالت لنا. أكيد أنكما رأيتُماها، لكن لا تذهبا دون النظر إليها وقتا أكثر، لأنه يمكن ألاَّ تعودا بعْدُ، ولن ترياها أبدا مجدَّدا. مع تقدُّم السنوات قد تتخلى المرأة عن تحقيق النظر في الأشياء، إنها تتعود عليها، ولا تعود إلى النظر إليها، ليس بسبب عدم الاهتمام فقط، ولكنْ بسبب الصحّة العقلية كذلك. إن حُرّاس أي متحف قد يتحولّون إلى مجانين لو نظروا باستمرار إلى كل اللوحات التي تحيط بهم، بكل تفاصيلها. أنا أدخل هنا ولا أنظر إلى أي شيء، بعد سنوات كثيرة، لكنّ تلك الصبية طفلة بيلاثكيث أراها دائما، أنظر إليها دائما، وهي دائما تنظر إليَّ، ولو أني أعرف عن ظهر قلب وجهَها، فإنني أكتشف دائما فيها شيئا

جديدا، كما أتخيّل أن أمًّا أو أبًا يكتشفان في وجه ابنهما، أو عاشق في وجه المرأةَ التي يعشقها. اللوحات هنا، وفي أي متحف، تمثّل الغتاة أو القدّيسين، أناسا متورّمين عجرفةً، أو مختلّين بسبب القداسة، أو بسبب عذاب الاستشهاد، لكن هذه الصبية لا تمثّل شيئا، إنها ليست السيدة العذراء، ولا ابنة ملك ولا دُوقَة، إنها ليست شيئا آخر سوى ذاتها، صبيّةً وحيدة، ذات تعبير صارم وحلاوة، كأنها تائهة في حلم كآبة طفولي، ضائعة أيضا في هذا المكان، في الصالونات المُفخّمة والمنكوبة بالجمعية الإسبانية، كأنها طفلة مسحورة في قصر حكايات حيث يتخلّى الزمن داخله عن السَّير منذ قرن. لديها نظرةٌ سخيَّة، وفي الوقت نفسه فيها خجل وتحفظ، عيناها السود تجثمان الآن على عينيَّ، بينما أنا أكتُب، وإنْ كنت أوجَد الآن بعيدا عنها، في منتَصَف النهارِ ذاك الغائم في نيويورك، عشيّةَ الرَّحيل. لم تَمُرَّ سوى أشهر، والذكريات لا تزال صافية الآن وثابتة، لكنْ لو أفكر في تلك الساعات بالجمعية الإسبانية، في وجه صبية بيلاثكيث، في صوت المرأة وعينيها الناريّتين، المرأة التي لم تقل لنا اسمَها، فإن كل شيء لديه الرَّجّة والكثافة الهشّة التي لِمَا لا يُعرف لو حدثَ له أنْ يقع حقيقة. أحتفظ بأدلّة، تفاصيل ماديّة، بطاقة ميتروكارد التي استعملناها في ركوب الحافلة، التي حملتنا بعيدا، البطاقات التي اشتريناها من كشك الجمعية الإسبانية، كشك جدُّ مؤقّت يُمكن أن تكونَ موجودةً به الآن بطاقاتٌ بالأبيض والأسود تعود إلى أزيد من قرن، وكتُب دليل، وكاتالوجات لمنشورات يمكن أن تكون في واجهات المكتبات، تلك التي للإشهار، التي تُقدّم فيها الأشياء الأكثر تدهورا ولمسًا. لكنْ في

ذلك المكان اللامُتوقَّع يوجد كشك متواضع، به شيء هيَّابٌ يُشبه كُشكا إسبانيا- كيف لا يُقارَن بأكشاك متاحف أخرى بنيويـورك، متـاجر ممتازة وفاخرة- يُشبه صالونا كبيرا، لا يُفسِّر تنظيمُه للفضاء، مُحاطٌ كُلِّيًّا بواجهاتٍ كبيرة من خشب غامق، مثل رفوف مخزن لا حدَّ لـه، لنسيج يعود إلى بداية القرن، أو كتلك الخزانات العملاقة التي تُـرى في حجرات تغيير الملابس بالكاتدرائيات، والتي تُحفَظ فيها الملابـسُ الطقوسية. يَشغَل الدكانُ زاوية لا رونق فيهـا، جـزءٌ مـن طاولـة العرض، تجلس خلفها سيِّدةٌ مُسنَّةٌ جدا، لها كلّ الهيئة التـي لامـرأةٍ توحي بأنها منهمكةٌ في النَّسج في أيِّ لحظة، إلى حين يمضي هـذان السائحان الغريبان اللذان يُراجعان الآن مجموعة ذابلة من البطاقات. وكلُّ الجدران، بدْأً من الأرضية حتى السَّقف، هي مشغولة بأصـباغ كثيرة، أو بلون واحد يسترسل دون تقطيع على طول سعتها، والتـي يمثِّل فيها كما لو كانٍ في هذيان كرنفالٍ غريـب، أو فـي فوضـى لوحات موسوعةَ، كلُّ الحلل الإقليمية، المِهَن والرَّقـصات القديمـة، مناظر من إسبانيا، كلُّ المجوهرات المُقلَّدة ذات النزعة الرومانـسية الفلكلورية المرسومة بالقطعة من قِبَل خـواكين صـوريا، ككنيـسة سِيسْتِينا مُخصَّصة لتمجيد الوَلَه الإسباني لـدى الـسيد هونتينغتـون، الاحتفاء بضربات فرشاة مُلوَّنة، كلّ لون عِرقي، كل لباس مغبَّـرَ أو معتوه سلفي، أو خصوصية أنتروبولوجيـة، الفرسـان الأندلـسيُّون بقبَّعاتهم ذات الجناح الواسع، والقرويُّـون الباسـكيُّون ببرنيطـاتهم، والكاتالانيُّون بقلنسواتهم وأحذيتهم، والقـشتاليون بـالوجوه الخـشنة والمحروقة، والأراغونيون وهم يرقصون رقصات شـعبيَّة بمناديـل

حمراء معقودة إلى القفا: كذلك أشجار البرتقال، وأشـجار الزَّيتـون، والمياه القَنتبريَّة حيث يصطاد صيَّادو الشمال، والمخـازن الجلّيقيَّـة وطواحين لامانتـشا، والغجريَّـات الأندلـسيات بملابـس طـائرة، والبلنسيَّات بتنوراتهن الصلبة المغموسة في النشا والأحجار الكريمـة ومشطهن الجامدة كمشط النـساء الإيبيريَّـات، البـساتين والقفـار، سماوات الغريكو البنفسجية، والـضوء الـصافي والريَّـان للبحـر المتوسِّط، أمتار وأمتار مُربَّعة من الأصباغ، وفرة من وجوه وكـذلك الأقنعة والألبسة وأزياء التنكر التي لديها كل الكثافة والدّوار اللـذين يكونان في رقص الكرنفال، وكذلك الدّقة المخجلة فـي كاتـالوج أو قانون، كل مُنتمٍ إلى مكان له ملامحه البلديَّة وزيُّه الملائم، مشدودون إلى عاداتهم الأبدية ومظهرهم الإقليمي، كل شيء مُرتّب جيِّدا ضمن أصله ووطنه الصغير مثل الطيور أو الحشرات في تصنيفها الخاص بالحيوانات.

لكنَّ ما لديَّ الآن أمامي، في مكتب عملي، إلى جانب مفتـاح الكتابة على الحاسوب والصَّدفة البيضاء المصقولة بالماء، التي عثـر عليها أرتورو منذ صيفين في شاطئ الزَّهراء، وبطاقـة مـن التـي اشتريناها في كشك الجمعية الإسبانية، لوحة تلك الـصبيَّة الـسمراء، النحيفة، الوحيدة، مرسومة من جانب على خلفية رماديَّة، هي تنظـر إليَّ الآن مثلما في منتصف النهار ذاك، حين ذهبنا إلى رؤيتها لآخـر مرَّة قبل أنْ نرحل، عشيَّةَ سفرِ عودتنا، حين كنا تقريبـا نوشـك أن نغادر نيويورك، وإنْ كان قد بقي لنا يومٌ بكامله كي نطير إلى مدريد،

وكان الزَّمان يتحلَّل من بين اصابعنا بنوع من عدم التماسك الذي يطبع الورقَ المحترق، أوراق رماد، دقائق وساعات بلا طمأنينة، مثل الزمن المعرَّض للشدائد والهارب، الذي للعاشقين المُتخفِّيَين اللذين فوْز تلاقيهما يكونان يعلَمان أنَّ وقت الفراق قد شرَعَ عَدُّه العكسي. عند الابتكار يكون لدى المرء الاعتقاد المَغرور بأنه سيتحكَّم في الأمكنة والأشياء، وفي الأشخاص الذين سيكتب عنهم: في مكتب عملي، في ضوء المصباح الذي يُنير يديَّ، ومفتاح الحاسوب، والفأرة، والصدفة التي يروقني أن أداعبها للتَّسلّي برؤوس الأصابع، بطاقة فتاة بيلاثكيث، يمكن أن يكون لديَّ الإحساس بأن لا شيء مما أبتكره أو أتذكَّره هو منفصل عني، عن هذا الفضاء المغلق. لكنَّ الأماكن موجودة وإن كنت لا أوجد فيها، وإنْ كنت لن أعود إليها، أمَّا الحيوات الأخرى التي عشتُها، والرِّجال الذين كُنْتُهم من قبل أن أصير ما أنا عليه الآن صُحبتَك، ربَّما ستستمرُّ في الوجود في ذاكرة آخرين، وفي هذه اللحظة بالذات، على مسافة ستِ ساعات وستة آلاف كيلومترات من هذا المكتب، فإنَّ الصبية تنظر إليَّ انطلاقا من الصورة النسخة لبطاقة تنظر وتبتسم خفيفا، على قماش حقيقي وملموس، لوحة رسمَها بيلاثكيث نحو ١٦٤٠، وحملَها إلى نيويورك نحو سنة ١٩٠٠ ملياردير أمريكي، معلَّقةً في صالون متوسِّط الكبر، في ظليْل متحف يزوره قليل من الناس، من يدري إن كان الآن، حين الوقت في نيويورك الثانية والربع مساء، والوقت هنا يُعلنُ بداية دخول ليل ديسمبر، إنْ كان هناكَ شخصٌ ينظر إلى وجه تلك الصبيَّة، شخص يلْمح أو يتعرَّف في عينيها السوداويتن كآبةَ منفى طويل.

حَواشٍ على قراءات

لقد ابتكرْتُ أشياءَ قليلة بصدد الحكايـات والأصـوات التـي تتقاطع في هذا الكتاب. بعضُها سمعتُها تُحكى، وقضتْ وقتا طـويلا في ذاكرتي، وأخرى عثرْت عليها في الكتب. ويلي موزنبرغ عثرتُ عليه وأنا أقرأ نهاية البراءة، لـستيفن كـوخ (تُوسْـكيت، ١٩٩٥)، وتتبَّعت أثره في ماضي وهم (فُونْدو دي كُولتّورا إكونوميّا)، لفرانسوا فوري، كتابٌ رائع جدا مثل عنوانه، وفي المجلّد الثاني من مـذكّرات أرتورُو كوستْلِر، الكتابة اللامرئية، وكذلك ضمن عدد مـدهش مـن صفحات الإنترنت الاسم الرائع لمِيلينا جيسِنسكا، رأيته للمرة الأولـى في رسائل إلى ميلينا الأسرة لفرانز كافكا، في عـدد بحجـم كتـاب الجيب بمنشورات أليانثا، الذي رافقني كثيرا. هذا الاسم وحيـدا فـي عنوان كتاب، ميلينا- ضمن منشورات توسكيتْ مجدَّدا- هـو الـذي قادني إلى اكتشاف مؤلفته مارغيتي بوبر-نيومان، التي عثرْتُ علـى بعض الطُرق إليها عند كوخْ وفوري، كأنها شخصيَّة ثانوية بهـامش صفحة. مُجلَّدا سيرتِها الذاتية التي تعقَّبْتُهـا فـي الطبعـة الفرنـسية بكاتالوج منشورات سويْ- وقدْ هُجِّرت إلى سيبيريا، وهُجِّـرت إلـى

رافنسبورك- أرسلتهما إليَّ على وجه السرعة من باريس ناشرتي آني مُورْفان. الغريب هو أنه في هذه المسألة الغامضة المتعلّقة بالجحيم الذي أقامه النازيُّون والشيوعيُّون تتوافر كثيرٌ من شهاداتِ النساء: لقد كان حيويًّا بالنسبة إليَّ كتابُ ضدَّ كلّ أمل (منشورات أليانثا)، لِنَادِزْداه ماندِسلام، وعلى الخصوص رحلة في زوبعة لِإفجِنيا غينزبورْغ، التي قرأتُ اسمها للمرَّة الأولى في كتاب استثنائي لتزفيتان تودوروف اكتشفتُه في ترجمة إنجليزية، سرعة الحياة المتطرّفة أخلاقيا في معسكرات الاعتقال. لقد تعلّمتُ من تودوروف كثيرا بقراءة كتاب أصدرته دار تاوروس بعنوان الإنسان المنفي. وقرأتُ باستفاضة عن وضعيةِ يهودِ إسبانيا في كتاب أصول محاكم التفتيش، ضمن الدراسة المتحيِّزة والهائلة لبِينزِيُّون ناتانياهو، وفي الدراسة القصيرة جدا والأكثر توازنا والمدرسية لهينري كامنْ، محاكم التفتيش الإسبانية (دار النشر كْرِيتيكا)، دون أن أنسى كتابا يبدو لي استثنائيًّا، على الرغم من إيجازه الشديد، تاريخ مأساة، لجوزيف بيريث، الذي نشر هو أيضا في إسبانيا من قِبل دار النشر كرتيتكا. لقد قرأ صديقي إيميليو يدُو الأصلَ الألمانيَّ المذكرات اليوميّة الطويلة للبروفيسور فِيكتُور كْليمْبِرير: أنا أعرِفُ الطبعةَ الإنجليزية وحدَها في مجلَّدين طبِعا تحت عنوانِ سوف أقدّم شهادتي: يوميات سنوات النازيَّة. من المؤسف أن كتبا بهذا العمق الكثير تكون تقريبا في غير متناول القارئ الإسباني.

لكنّي كدتُ أنسى التنويه بكاتبين كانا حاسمين في تكويني خلال السنوات الأخيرة، دُونهما كان يُحتَمل جدا ألا يكون قد خطر عليَّ تأليف هذا الكتاب ولا عثرْتَ على الحالة النفسية الضرورية لتأليفه. أعني جان أميرِي وبْريمُو لِيفي. اكتشفتُ كتاب جان أميري حول أوْشفيتز بمحض المصادفة، في مكتبة بباريس، سنةَ ١٩٩٥، ودون أن تكون لديّ من قبل أدنى فكرة عن وجوده. لقد نشرتْهُ دار أكتَ سود بعنوان ما وراء الجريمة والعقاب، ولا علم لديّ بأنّ أيّ دار نشر إسبانية قد اهتمَّت به فعلا. على الرغم من ذلك، وبفضل ماريو مُوشْنِيك، فإن بوسع القارئ الوصول إلى الثلاثية العظيمة مذكَّرات بريمو ليفي، التي تضُمّ لو أنّ هذا رَجُلا، الهُدْنة، الغرقى والمنقذون. ما يُمكن أن يُتعلَّم عن الكائن البشري وعن تاريخ أوربا في القرن العشرين في هذه المجلَّدات الثلاثة شيءٌ فظيع وكذلك تعليمي، وبنزاهةٍ لا أعتقدُ أنه يمكن أن يكون للمرء ضمير سياسي سليم دون أن يكونَ قد قرأها، ولا فكرة عن الأدب لا تُدْرِج مثالَ هذه الصيغة في الكتابة.

هنالك كُتُب أخرى، لكنَّ هذه الكتب التي ذكرتُ هي التي غذَّتني أكثر بينما كنت أكتب سيفاراد. لقد سعيْتُ كذلك إلى أن أُعير انتباهي إلى أصوات كثيرة: من بينها، عليَّ أن أذْكُر بامتنان وانفعال اسْمَي فرانثيسكو أيَّالا وخُوسيه لوِيس بِنِلْبس، وصوتَ أمايا إبَارُوري الرَّنان المَرِح، الذي دعاني ذات مساء شِتوي إلى فنجان قهوة وحكت

لي بعض حلقات رواية حياتها الخارقة، رواية أدْرِيانا سَلِيغمان، التي حدَّثتني عن الكوابيس جدًّا باللغة الألمانية، وعَن تِينا بَالومِينو، التي جاءت إلى بيتِي ذات مساء كنتُ قد اعتقدتُ فيه أني انتهيْتَ من هذا الكتاب، وجعلتْني أفهم، وأنا أصغي إلى الحكاية دون أن تنتبه هي إلى أنها كانت تُهدينيها، إذ دائما ما يمكث شيءٌ ما يستحِقُّ أنْ يُحكى.

مدريد، ديسمبر ٢٠٠٠

المؤلف في سطور :

أنطونيو مونيوث مولينا (أوبيدا ١٩٥٦):

كاتب إسباني معاصر وعضو مجمع اللغة الإسبانية منذ عام ١٩٩٦. درس تاريخ الفن في جامعة غرناطة، والإعلام في جامعة مدريد. يعد من أشهر الكتاب الإسبان المعاصرين. كتب أولى رواياته عام ١٩٨٦ "طوبى له" وحصل عنها على جائزة Icaro للآداب. شغل منصب مدير معهد ثربانتس بنيويورك في ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٦. من أهم أعماله الروائية:

- طوبى له ١٩٨٦
- الشتاء في لشبونة ١٩٨٧
- أمير الظلام ١٩٨٩
- الفارس البولندي ١٩٩١
- البدر ١٩٩٧
- سفاراد ٢٠٠١
- ليلة الزمان ٢٠٠٩

ومن مقالاته:

- قرطبة الأمويين ١٩٩١
- حقيقة الإبداع ١٩٩٣
- حديقة آدم ١٩٩٦
- كُتِبَ في لحظة ١٩٩٦

المترجم في سطور :

مزوار الإدريسي (تطوان، ١٩٦٣)

شاعر، وناقد، ومترجم؛ أستاذ بمدرسة فهد العليا للترجمة بطنجة (جامعة عبد الملك السعدي)، وعضو اتحاد كتاب المغرب، ورئيس جمعية ملتقى الشعر الإيبيرومغربي. له ديوان شعر بعنوان "مرثية الكتف البليل" (وزارة الثقافة ٢٠٠٦)، وقد أصدره مترجَما إلى الإسبانية بمالقة في السنة نفسها. نشر العديد من المقالات النقدية والقصائد والترجمات في مجلات وصحف عربية وإسبانية، وشارك في ندوات وملتقيات داخل المغرب وخارجه، كما ترجم كُتبا عديدة عن الإسبانية إلى اللغة العربية، من بينها: رحلات عبر المغرب لعلي باي، ومختارات من قصائد بيثنط ألكسندري، ونار بيضاءُ وتقاليد(شعر: أندريس سانشيث روباينا) واعترافات شعرية (شعر وتأملات نقدية: غوسطابو أضولفو بيكر).

المـــراجعـــة فى سطور:

هـــالة عبد السلام عـــواد

- أستاذ الأدب الإسباني والترجمة المساعد بكلية الألسن جامعة عين شمس.

- لها عديد من الترجمات الأدبية والنقدية بالعربية والإسبانية.

- ومن بين من ترجمت لهم: بارغس يوسا، بـــويرو بـــاييخو، خوليو كورتاثر، خوسية /ماريا مرينو، خابيير طوميـــو، دومينجـــو باديا، كارمن رويث، علي منصور.

- لها نحو عشر دراسات بالعربية والإسبانية نشرت بمـــصر والخارج.

التصحيح اللغوى : طارق الشامى
الإشــراف الفنى : حســن كامل